الترجمة والخصوصية القومية للغة

أ.د. حميد حسن الجنابي

جامعة تكريت/كلية الآداب

يكتسب موضوع الترجمة واللغة أهمية متنامية بعد أن أصبحنا نشّبه العالم " بالقرية الصغيرة "، بفضل التطور العلمي الهائل، وخصوصا مايتعلق بوسائل الاتصال والأعلام. بل يمكن القول أن الانتشار اللغوي بات أمرا ضروريا لتسهيل عمليات التبادل العلمي والثقافي والتجاري، واستجابة للدعوات المتزايدة للخوض فيما يسمى ب" حوار الحضارات".

وقبل الخوض في تفاصيل موضوع البحث،علينا أن نشيرالى أن اللغة وارتباطها الوثيق بقضايا الثقافة لم تعد مسألة نظرية ينحصر تأثيرها بين جدران الجامعات والمؤسسات الثقافية الأخرى.، بل نستطيع أن نتلمس جليا تأثيرها على مختلف مستويات التطور في المجتمع.

لقد بدأ العالم منذ سنين يتحدث عن (الفعل الاجتماعي المشترك) كنظرية جديدة لفلسفة التاريخ، التي تشيرالى الأساليب الممكنة لتطور الواقع الاجتماعي من (الفوضى) نحو (النظام). وقد بدأت هذه النظرية تنتشر في أوربا وبلدان العالم الأخرى، حيث تستند في أساسها إلى فكرة تعاقب مراحل (الفوضى) و(النظام) في التاريخ العالمي. وعليه يؤكد دعاة هذه النظرية " علينا أن ندرك أن لامجال لاتخاذ مواقف سلبية تجاه تطور الثقافة العالمية، وتجاه التقدم الاجتماعي. من الواضح أن القرن الواحد والعشرين هو قرن العقل. ونحن بحاجة إلى أسس عقلانية لأدراك انتقال الإنسانية إلى مرحلة جديدة من الثقافة "[١].

عدا ذلك، لابد للحديث عن اللغة والترجمة أن يقودنا إلى حقائق عديدة، منها ما يتعلق بالثقافة والإرث الحضاري، وأسلوب التفكير الإنساني للمجتمع ، ومنها ما يرتبط بمستجدات العصر الحديث، وتأثيرها على نمط الحياة اليومية،الذي ينشأ كنتيجة فعلية لتأثير الثقافة الجماهيرية فيه "لقد أصبح القرن العشرين فضاء تاريخيا لسيادة " الثقافة الجماهيرية "،التي بدأت تفهم تدريجيا، كما يؤكد الغربيون والأمريكان، على أنها ليست ظاهرة جمالية روحية حسب، وإنما ظاهرة تجارية تبنت الاستهلاك الواسع واستجابت لأذواق الجميع.وكان" المفتاح" لسر إبداعها يكمن في جاذبية التسلية فيها، وحافز انتشارها السريع – في أمكانية كسب المال بتوظيف وسائل الطباعة والتليفزيون والمذياع والسينما والتسجيلات الصوتية والمرئية[٢].

تجدر الإشارة كذلك إلى أن مسألة التفاعل المتبادل بين اللغة والثقافة قد وجدت مكانة مناسبة وتجسيدا عمليا في مناهج وبحوث الجامعات العالمية الرصينة، حيث يمكن الإشارة إلى عناوين الموضوعات التي تتناول التأثير العملي للغات في الحياة الاعتيادية، مثل: البرغماتية في علم اللغة،علم الدلالة، وعلم الثقافة والنظريات، و علم النظريات الأنثروبولوجية للثقافات، وإدخال مادة منهجية في برامج الجامعات العالمية تحت عنوان " لغة السياحة ".. وغيرها

وتأسيسا على ما تقدم سنحاول في هذه الورقة المتواضعة إلقاء بعض الضوء على جوانب محددة في موضوع الترجمة وخصوصية اللغة القومية،مايعني التعرض إلى بعض العوامل المؤثرة على اختيار ما يسمى بـ "المكافئ المناسب " أثناء عملية الترجمة.

تعد مسألة الترابط والتفاعل المتبادل بين الترجمة واللغة مادة حيوية تتجدد مع تقادم السنين، وذلك لارتباطها بالعديد من مكونات الثقافة والتطور العلمي في المجتمع. ففي حديثه عن أهمية الترجمة يشير البروفسور. كوتدريج الى" أن غياب

المترجمين عن ميدان العمل عند بناء أبراج بابل كان العائق الرئيس أمام وصول هذه العبقرية إلينا ''[٣].

وفي حديثه عن تأثير مكونات الثقافة الجماهيرية على سلوك الفرد الاجتماعي يقول نيكولاي روديونوف. مؤلف كتاب " أسرار مجرة غوتنبرك" (تحولت الثقافة الجماهيرية، التي أنجبت العديد من وسائل الاتصال، إلى مرادف لقيم وتطلعات الناس، وهي، كما يعتقد بعض الباحثين الغربيين، تبدأ، قبل كل شئ، من التقاليد الشعبية : فالحكمة الموروثة لقرون عديدة، لم تتغلغل في القصص والأغاني والرقصات حسب، وإنما نفذت إلى الألعاب والطقوس وأنماط السلوك. أن الفلكلور، الذي أصبح مادة للدراسات الأكاديمية، يقدم فعليا وبشكل جاهز التصنيفات والأساليب ونظم الأفكار النموذجية – الفنية التي تؤلف نظاما علميا متكاملا ذا قيمة حيوية[٤].

كما ويشير العديد من العلماء إلى أن التكوين السيكولوجي للفرد متلازم عضويا مع نشأته في المجتمع المعني والمكونات الثقافية والحضارية لذلك المجتمع، أي " أن الأشخاص بغض النظر عن أجناسهم، حين ينشأون في محيط ثقافي متشابه تتكون لديهم ذات النظرة للأشياء،وذات التطلعات، ونفس طريقة التفكير. أي أن تربية الشخص تمر من خلال تأثير الثقافة القومية التي ينتمي إليها الأشخاص المحيطين بهذا الفرد"[٥].

ولكي نلقي بعض الضوء على جدلية اللغة والترجمة نورد تساؤل البروفسور ريفورماتسكي ذائع الصيت (هل هنالك علم حول الترجمة ؟) وأجابته التي يشير فيها، لايوجد علم كهذا... فذلك يعتمد على نوع وأسلوب الترجمة.. ولكن هنالك علم واحد يمكن أن يكون مفيدا لكل نوع وأسلوب في الترجمة. انه علم اللغة.

ثم يضيف،علم اللغة هو العلم الوحيد الذي لايمكن بدونه أن نصل إلى حل أي من قضايا الترجمة، ولكن ذلك لايعني أطلاقا بان علم اللغة وحده يمكن أن يتبنى

حلول جميع قضايا الترجمة، أو أ ننا يمكن أن نكتفي بعلم الترجمة فقط لدراسة نظرية الترجمة[٦].

إضافة إلى ذلك، يؤكد معظم المتخصصين، على أن الترجمة في جزءها التطبيقي هي قضية لغوية، أما في جزءها النظري ، فهي قضية تخص علم اللغة بشكل عام. وفي موضوع ذي صلة يجري الحديث عادة عن الترابط العضوي بين اللغة والثقافة، وكيف تؤثر اللغة على الثقافة، وما هي الصيغ التي يتخذها تأثير الثقافة على الإمكانات التعبيرية والجوهرية للغة.

وفي هذا الخصوص أيضا، تشير بعض المصادر إلى أن هنالك ثلاث وجهات نظر حول الترابط بين اللغة والثقافة : الأولى وهي مرتبطة باسم فون هوملت وأ. سبيرأ، ومفادها أن العضو الرئيس في ثنائية" اللغة والثقافة " هي اللغة. أما وجهة النظر الثانية فتعد معاكسه تماما، حيث تؤكد أن تفكير الناس جميعا فيما يتعلق بالمحتوى يعد متماثلا، وأن اللغات تقوم بدور مفتاح الشفرة، لذا فان اللغة مستقلة تماما عن الثقافة. أما العلم الحديث فانه يجمع بين النظريتين في تركيبه واحده، وهو ما تمثله وجهة النظر الثالثة، والتي تقوم على أساس

التناسب بين العناصر القومية و(الانثروقومية) في كل ثقافة[٧].

ولكي تتوضح الفكرة حول ارتباط اللغة بالثقافة والفكر الإنساني لابد لنا من ألقاء بعض الضوء على جدلية " اللغة والفكر ". لقد كانت هنالك آراء كثيرة تدعوالى مماثلة اللغة والفكر بمعنى التأكيد على إن " اللغة والفكر " هما وحدة واحدة لا تتجزأ. وقد نسب غالبية الفلاسفة واللغويين قضية التفاعل بين اللغة والفكر إلى دراسة علاقة" الكلمة "و" المفهوم".

ظهرت المحاولات الأولى لمساواة اللغة والفكر شكلا وجوهرا اول مرة في اليونان القديمة عندما وضع أرسطو التناسب بين اللغة والفكر وابرز من جهة،

الأصناف القواعدية (الاسم، الفعل، أسماء الوصل)، ومن جهة أخرى، ما يساويها في الفكر (مادة التفكير= المبتدأ – في اللغة =الاسم؛ ما يقال عن هذه المادة = الخبر المنطقي / في اللغة =الفعل؛ ما يجعل هذه المقولة مترابطة= الوصل المنطقي/ في اللغة = فعل الكينونة).

ولكن الدراسات أكدت بعد ذلك أن اللغة كنظام للعلامات لايمكن دراستها معزولة عن المعاني التي تحملها هذه العلامات " اللغة التي تعتبر شكلا لوجود الفكر والتعبير عنه هي في ذات الوقت تلعب الدور الجوهري في تشكيل الوعي"[٨].

وفي ذات الاتجاه، أثار اهتمامنا كتاب البروفسوره المعروفة جيكابوفا "مدخل في علم اللغة – الجزء الأول "، والذي تضمن فصلان عن تصنيف اللغات القديمة والهندوأوربية، حيث يشير المؤلف في باب،، اللغات القديمة في أسيا الصغرى وبلاد مابين النهرين،،:" إلى ضرورة تداول اللغة للحفاظ على حيويتها حين يقول "ولكن هذه اللغات بقيت بعيدة جدا عن الدراسة المعمقة لأنها لم تستخدم لاحقا، وكون مادة البحث التي حصل عليها المنقبون شحيحة جدا. كما أن حل رموز الرقم الطينية قد واجه مصاعب جمة: حيث لايمكن تحديد كيفية تلفظ الرموز المكتوبة بسهوله، وماذا تعني على وجه التحديد. يقول المتخصصون: الرموز المرسومة مفهومه، ولكن من غير المعلوم كيف تلفظ الكلمة التي تقابل هذا الرمز؟ الرقم الطينية يمكن قراءتها، ولكن لايمكن فهم المعاني بشكل دقيق..[٩].

بعبارة أخرى، لايمكن لأي شخص أن يدرك ماهية الأشياء وجوهرها إلا أذا تعامل معها وتعرف عليها بعد حفظ مفاهيم المفردات التي تعني هذه الأشياء في ذاكرته.

وهكذا، فان لكل امة خصائص نوعية، وخصوصية تميزها عن غيرها من الأمم. ولاشك في أن العديد من السمات الحضارية والثقافية تدخل ضمن هذه

الخصوصية، منها،على سبيل المثال، الطباع، الثقافة الروحية، شكل الخط والنحت، نبرة الإيقاع الموسيقي، الأسلوب الأدبي.. وغيرها.

يقول المؤلف ف. روسيلس في مقاله عن الترجمة الأدبية الفنية " يمتلك الإنسان كممثل لهذا المجتمع أو ذالك تكوين نفسي منفرد – وسمات محددة لطابع قومي معين، حيث يتمثل هذا الفرد في صفحات النتاجات الأدبية محاطا بأدوات حياته اليومية والبانوراما القومية. وهكذا يصبح الشكل القومي، أي شكل حياة الشعب مادة للتعبير في النتاج الفني وجزء من محتواه. ثم يضيف،لذا عند قراءتنا للنتاجات الأدبية يطالعنا كم هائل من الوقائع الحياتية.."[١٠].

تجدر الإشارة، إلى إن المؤلف المذكور قد أحصى عند ترجمته لإحدى الروايات أكثر من (٣٠٠) ثلاثمائة وصف لمناظر الطبيعة والحياة، على المترجم، أن أراد نقلها بدقة، أن يكون عارفا بها ومطلعا عليها،.. ملما بأسماء أشجارها وطيورها..

وفي العودة إلى أهمية الترجمة في عملية البناء الثقافي للمجتمع المعني، لابّد لنا أن نتساءل : أين سيكون موقع الترجمة من الفكر واللغة ؟ وهل هي مرتبطة باللغة أم بالفكر.وما هي المعوقات الأساسية التي يمكن أن يواجها المترجم أثناء ممارسته عملية الترجمة، وخصوصا ترجمة النصوص الأدبية الفنية.

وقبل البدء في الحديث عن تفاصيل الصعوبات التي تعترض سبيل المترجم، علينا أن نشير إلى أن حديثنا عن الترجمة، بوصفها عمل إبداعي، يفترض الإقرار بحيويّة اللغة، وبتنوع مفرداتها، وبغزارة المعاني الدلالية فيها، وتجدد هذه المعاني باستمرار. لابد من التنويه أيضا إلى أن معاني المفردات اللغوية والصور الأدبية الفنية لايمكن إن تظهر بصورتها المطلوبة إلا من خلال النص.

إن علم اللغة وآدابها الذي ظهر كنتيجة لدراسة النص، كما يؤكد ل. نوفيكوف في كتابه (تحليل النص الأدبي الفني)، بدأ ينتقل ثانية في السنين الأخيرة من

المجالات المغلقة إلى دراسة النص كوحدة متكاملة وفعاله،، اللغة في التداول،،[١١].
إن علم دراسة النص الذي بدأ ينتشر بشكل واسع – هو أحد الاتجاهات الرئيسة لعلم اللغة في العالم في القرن الواحد والعشرين. وقد أدت حيوية دراسة النص إلى ظهور فروع جديدة في علم اللغة (قواعد النص، النحو في النص، علم الأسلوب في النص)...وغيرها. ويحتل (علم لغة النص الأدبي الفني) مركز الصدارة بين هذه العلوم.

إضافة إلى ذلك، لاينبغي الحديث عن ترجمة النصوص اللغوية والأدبية وعن تأثير مختلف العوامل في عملية الترجمة بشكل مجرد دون الإشارة إلى ما يمكن تسميتة " المغزى الدلالي الغير مرئي " في النص،ذلك أن أفضل التراجم هي تلك التي استطاع المترجم أن يجسد فيها "روح النص " وليس " النص المجرد ".

بقي أن نقول: إن الترجمة هي عملية لغوية وفكرية أبداعية، تستند، إضافة إلى ماتقدم، إلى مبدأ الثقافة والاطلاع المعرفي. كما يمكن أن نلاحظ إن الحديث عن اللغة والثقافة يرتبط بشكل وآخر بالخصوصية القومية، ولا عجب في ذلك، لأن الثقافة هي امتداد للإرث القومي للأمة. بمعنى أن الميزة الحقيقية للترجمة المكافئة هي قدرتها على تجسيد الطابع القومي للنص المترجم عنه.، بكلمه أخرى، لاينبغي للمترجم الذي ينقل النص المترجم، على سبيل المثال، من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية، أن يحاول إقحام الصيغ القواعدية واللغوية للنص الأجنبي في اللغة العربية.بل على العكس، يجب أن يكون النص المنقول إلى اللغة العربية مفهوما تماما للقارئ العربي مع محافظته على خصوصيته القومية ونكهته الأسلوبية التي أخذها عن المؤلف.

يقول الدكتور صلاح فضل في كتابه " علم الأسلوب " " لايمكن أن ندعو إلى النسخ والتقليد، أو تقبلهما في قضايا تتعلق بالذوق الجمالي، أو بالخصائص المميزة لكل لغة من اللغات، أو فن من الفنون،.. (..) علينا التسلح بأدوات التحليل العلمي

التي تصبح بمجرد الاهتداء إليها في لغة من اللغات ملكا للإنسانية بأجمعها،ولا ينفعنا في شئ أن نعمى عنها أو نتجاهلها بدعوى الوفاء لتراثنا، لأننا حينئذ نجني اول ما نجني عليه، إذ نعجز عن إحيائه وإثرائه واستنقاذه من التقلص و الضمور[١٢].

مما تقدم نجد أن عملية الترجمة مرهونة بالعديد من العوامل التي تنتمي لمختلف العلوم اللغوية والثقافية والمهارات الأخرى. وغالبا ما يضع المتخصصون هذه العوامل في إطاريين محددين هما: ١) العوامل اللغوية ٢) العوامل اللغوية المضافة.

و لايخفى على أحد، إن العوامل اللغوية واللغوية المضافة أنفة الذكر لابّد أن يكون تأثيرها مترابط ومتبادل أثناء عملية الترجمة، وأن تحديدها ما هو إلا إجراء تنظيمي شكلي. لأننا، في الواقع، لانستطيع التمييز بدقة بين العوامل التي أثرت على المترجم عند نقله للأفكار المراد ترجمتها. بعبارة أخرى، حين ينتقي المترجم عبارة معينة (مكافئه) بشكل و أخر للنص المترجم عنه (يفترض) أن تكون هذه العبارة قد (مرت) من خلال (المرشح) الذهني للمترجم عبر (رقائق) لغوية عديدة : علم النحو، علم المفردات، علم تركيب الجملة، علم الدلالة، ما يسمى " تقدير الموقف"،وما " يريد المؤلف قوله في النص"، علم الأسلوب.. وغيرها.

ولما كانت الترجمة تتعامل أساسا مع مدلول المفردة، فلا بّد هنا من التذكير بأهمية المفردة في بناء النص. حيث تشير جميع الدلائل إلى تنامي الأهمية التي تحظى بها الخصوصية الدلالية للمفردة. لاسيما بعد تزايد انتشار اللغات الأجنبية. وقد تنبهت معظم المؤسسات العلمية والثقافية إلى هذه الحقيقة فأصدرت في العقود الأخيرة عددا كبيرا من المعاجم اللغوية والموسوعية المختلفة، بما فيها المعاجم الالكترونية.

وفي معرض حديثنا عن مدلول المفردة، لابّد من الإشارة إلى آراء المتخصصين حول ضرورة عدم المساواة بين (المفهوم) و(المعنى) في المفردة،لان

المفردة هي وسيلة التعبير عن المفهوم. ولكن بنّية (المعنى) تسمح له بان يصف (ذات المفهوم) بأشكال مختلفة. أضافة إلى ذلك، لايرتبط (المفهوم) بلغة معينة بالتحديد، في حين يرتبط (المعنى) بمفردة محددة في لغة محددة، ولايمكن أن يتجرد عنها. لذا جرى التأكيد على (أن المعنى يتكون من جزء مادي – denotation وهو ما يماثل المفهوم، وجزء أضافي – connotation وهو ما يعبر عن اللمسات الشخصية عند استيعاب هذا المفهوم وتسميته)[١٣].

يمكن أن تظهر خصوصية المفردة القومية، على سبيل المثال، في العبارات المختلفة التالية، التي تبدو للوهلة الأولى وكأنها تعني ذات الشئ : الطابق الأول –في اللغة العربية؛ erster stock– في الألمانية؛ pervi etach – في الروسية؛ emier etage – في الفرنسية؛ first floor – في الانكليزية. ولكنها في الواقع، طوابق مختلفة، ففي اللغات الأوربية يسّمون الطابق الثاني الطابق الأول، والذي يبدأ العد منه، أما الطابق الأرضي فهو (floor ground). وعادة ما تدعى هذه التسميات بـ(أصدقاء المترجم الوهميون)[١٤].

في مثال أخر، على المترجم أن يختار إحدى المفردات المتشابه التالية، رغم أنها جميعا تعني (قدره): capacity، faculty، aptitude، ability . في اللغة الانكليزية كذلك المفردة (finger) تعني (أصبع اليد) و(toe) تعني (أصبع القدم) في حين تستخدم مفردة واحدة للمعنيّين في اللغات الأخرى.

يمكن أن تنعكس خصوصية اللغة المرتبطة بالإرث الحضاري للمجتمع في تسميات لايمكن نقلها إلى لغة أخرى إلا بمصاحبة مفردات (شروحات) أضافية، على سبيل المثال، في اللغة الروسية المفردة (devojka) تعني (بنت صغيرة) و (devoshka) تعني (بنت كبيرة).. كما ترون لايمكن ترجمة هذه المفردات إلى

العربية إلا باستخدام مفردتين، أما إلى الانكليزية فالمفردتين يمكن ترجمتها بمفردة واحدة هي (girl).

ذات الشئ ينطبق على المفردات الفرنسية الآتية : civilite –– اللياقة بين الناس؛ politesse – اللياقة في العمل؛ galantevie – لياقة الرجل تجاه المرأة؛ courtoisie – لياقة الحاشية الملكية..

لا تشكل الأمثلة " التقليدية " كالتي جرى ذكرها، صعوبة تذكر أثناء عملية الترجمة مقارنة بالحالات الإشكالية التي تواجه المترجم أثناء ترجمته، على سبيل المثال، للنصوص الأدبية الفنية، التي تجسد،عادة، تفاصيل حياة الشعوب وتقاليدهم، وطرق عيشهم، وطبيعة بلدانهم.. وتظهر هذه الصعوبة جلية عندما يحاول المترجم إيجاد "المكافئ المناسب " لحالة معينة في النص المترجم عنه.

وفي معظم الحالات يواجه المترجم خيارين أحلاهما " علقم "، فما أن يتقيد بالترجمة الحرفية "المقيتة"

والتي أن لم تشوه النص المنقول عنه، ستجعله شاحبا ومفرغا من حلاوة الأسلوب ونكهة الخصوصية القومية بعد نقله إلى اللغة الأخرى. أو أن " يرضى " بإعطاء مكافئ " مقارب ". ولا بد هنا من التنويه إلى أن " مكافئ مقارب " لا تتعلق إطلاقا بالنص المجرد والصيغ اللغوية العامة، وإنما بمحاولة المترجم الوصول إلى إيجاد " المقابل الدقيق " للصيغ اللغوية والدلالية والحالات التي ليس لها " مكافئ " في اللغة المترجم إليها. ولما كانت اللغة المعنية، كما أسلفنا، تعكس ماضي وحاضر الأمة التي تنتمي إليها، وكونها تتبع قوانين تطور خاصة بها، لذا سوف لن يكون اختيار " المكافئ المناسب " عند الترجمة خاضعا للمعايير والقوانين اللغوية حسب، وإنما للعديد من المعايير الأخرى، والتي جرى الحديث عنها آنفا.

من الطبيعي القول: أن عملية الترجمة مرتبطة بصورة مباشرة باستخدام المعاجم اللغوية، وان علم المعاجم قد قطع شوطا كبيرا جدا فيما يتعلق باللغات الأجنبية. ولكن ذلك لايعني أن المعجم اللغوي، يستطيع دائما " مساعدة " المترجم، فقد تصادف المترجم حالات كثيرة يشعر فيها أن الكلمة التي يبحث عنها، وقد يجدها في المعجم اللغوي لاتتناسب تماما مع المدلول اللغوي الذي توقف عنده في النص المترجم عنه. وهذا أمر طبيعي، لان المعجم لايمكن أن يوفر لنا جميع المفردات المناسبة، بل أن العديد من الصيغ والمفردات الجديدة، والتي تعد " مكافئ مناسب " يمكن أن تظهر من خلال البحث والتقصي أثناء عملية الترجمة. ولهذا السبب بالذات تعتبر الترجمة، كما هو معروف، عملا فنيا إبداعيا، وليس عملا آليا.

انطلاقاً من هذه الفكرة نستطيع الحديث عن الدور الجوهري الذي يمكن أن تلعبه الترجمة في قضية أغناء اللغة الأم، ورفدها بكل ما هو جديد، وتجديد حيويتها من خلال البحث والاستقصاء. " الترجمة فعل حضاري يعكس تلاقحاً ثقافيا بين نمطين من المستويات الفكرية للنشاط الإنساني، ويعكس أيضاً رغبة أكيدة للاستفادة من التجارب الإنسانية ومحاولة نقلها إلى اللغة الآم.. من دون المساس بروح النص، وفي الوقت نفسه مراعاة خصوصية اللغة المنقول إليها النص "[١٥].

ولكن الإثراء اللغوي لا يمكن أن يحصل إلا من خلال التفاعل البناء للغات المختلفة، وقدرة القائمين على الترجمة على انتقاء الأفضل، ورفض الصيغ الدخيلة والمفتعلة. وهذا، بلا شك، مرهون بكفاءة المترجم وتمكنه من اللغتين؛ اللغة الأجنبية واللغة الأم.

ولهذا نجد أن الباحثين والمترجمين، على حدٍّ سواء، قد يجدوا ضالتهم في النصوص الأدبية الفنية، التي تتميز بلغة خاصة تختلف عن سواها. وخصوصية النص هذه، هي في الواقع، تكرار " لمعاناة " المترجم، إذ يتوجب عليه أن ينقل في

ترجمته جميع الصور الحياتية، ومناظر الطبيعة، ووتيرة الحياة التي جسدها الكاتب في النص المترجم عنه. لذا يمكن القول إن الترجمة هي بحث وإبداع دائم يرتبط بشكل مباشر بمسألة إتقان المترجم للغة الأم إضافة إلى اللغة الأجنبية.

من جهة أخرى،لابد أن يقودنا ذلك إلى ملاحظة الاهتمام الكبير الذي توليه مختلف شعوب العالم، وخصوصا المتقدمة منها، إلى تطوير لغاتها القومية، وجهودها الحثيثة لنشر لغاتها على المستوى الدولي، وجعل اللغة المعنية أداة لنشر ثقافاتها. وفي هذا المجال تجدر الإشارة، على سبيل المثال، إلى أهداف ومقررات لجنة مجلس الوزراء الأوربي لعام 2001 والذي تم إعلانه عاما للغات في أوربا (European year of languages) والتي تضمنت:

- تعميق الوعي اللغوي والثقافي الأوربي تجاه الإرث كمصدر للإثراء المتبادل في المجتمع.
- تطوير تعدد اللغات لدى المواطن.
- تشجيع ودعم دراسة اللغات بغض النظر عن السن.
- مبادرة "عام اللغات" غير موجهه لشريحة معينة من المجتمع بل لجميع المواطنين دون استثناء.
- إقامة مختلف المؤتمرات العلمية والمهرجانات اللغوية التي تهدف إلى نشر وتطوير اللغة المعنية.
- حملات في وسائل الأعلام موجهه لرفع الوعي الاجتماعي حول دور اللغات في تطور المجتمعات.
- تشجيع مبادرات تعريف الأطفال في سن مبكرة بأهمية اللغات والثقافة.
- الاهتمام بلغة المغتربين الذين يعيشون في البلد المعني.
- استخدام تكنولوجيا الاتصالات والأعلام.

- تشجيع السياحة للغرض ذاته.
- دعم اتفاقية البرامج اللغوية المعنية بالترجمة.
- دعم دراسة اللغات بغض النظر عن السن من خلال ما يسمى ب" الحقيبة الأوربية اللغوية".
- دعم المبادرات المرتبطة بالمناهج المدرسية في أطار " عام اللغات ".
- تشجيع دراسة اللغات الجديدة.
- تسييرما يسمى بـ" القطارات اللغوية ".

وقد شارك في الإعداد لـ " عام اللغات " اللجان والمؤسسات الثقافية الحكومية والمدنية، ومنظمة اليونسكو، ومنظمات اللغات المعاصرة، وغيرها. وتجدر الإشارة للدور البارز والمفصلي الذي قامت به المؤسسات الثقافية (cultural institutes) والمؤسسات والمعاهد المسؤولة عن نشر لغة البلد المعنى في العالم وهي :

- **المجلس البريطاني** — **اللغة الانكليزية**
- **معهد اللغة البلغارية** — **اللغة البلغارية**
- **الاتحاد الهولندي اللغوي** — **اللغة الهولندية**
- **المجلس الشمالي** — **اللغة الدنماركية**
- **معهد سرفانتس** — **اللغة الاسبانية**
- **معهد دانتي اليكلرا** — **اللغة الايطالية**
- **معهد غوته** — **اللغة الألمانية**
- **معهد كامونس** — **اللغة البرتغالية**
- **معهد بوشكن** — **اللغة الروسية**
- **المعهدالحكومي للبحوث اللاتينية** — **اللغة السلوفينية**

- **المعهد السويدي — اللغة السويدية**

ومما يثير الاهتمام أيضا، هو دعوة المشاركين إلى عدم اكتفاء المؤسسات الثقافية بالتعاون في إطار العام الأوربي للغات حسب، وإنما سعيها لتأسيس اتحاد المؤسسات الثقافية التي يجب أن تحصل على تمثيل رسمي بصفة " مستشار " في المجلس الأوربي كما هو الحال بالنسبة لجمعية الممتحنين في أوربا ALTE، والمجلس الأوربي للغات الأقل استخداما، واتحاد جمعيات اللغات المعاصرة العالمي FEPCV[١٦].

لم يبقى لنا ألا أن نقول، علينا أيضاً التأكيد على مسالة الاهتمام بلغتنا العربية الجميلة، وأن نجعل من الترجمة والتفاعل مع اللغات الأخرى مصدراً لإثرائها بكل جديد وإغناء معجمها بما يتلاءم والتطور العلمي المعاصر، وبكل ما ينسجم مع " الذوق " اللغوي للمرحلة.

السيرة الذاتية التراثية
بلاغة القراءة وإشكالية المحتوى

أ.د. محمد صابر عبيد
جامعة تكريت/كلية التربية

يتناول هذا البحث الإنجاز المهم الذي قدّمه الدكتور محمد قاسم مصطفى – تحقيقاً ودراسة – بعنوان ((الروزنامجتان)) للباخرزي[١]، وهو نص– كما يصفه المحقق – في السيرة الذاتية الأدبية من القرن الخامس الهجري، في محاولة لرصد أنموذج من نماذج جنس أدبي يحظى بأهمية كبيرة في المدوّنة السردية هو السيرة الذاتية، ولاسيما أن النص متقدم نسبياً وله أهمية كبيرة على هذا الصعيد .

قام الدكتور محمد قاسم بتحقيق هذه المخطوطة والتقديم لها، وكان هذا التقديم الموسوم بـ ((المفهوم والتحليل))، بمثابة مقترح لقراءة أدبية ونقدية تقف على الخصائص والأصول التي تتحكّم في بناء هذا الجنس الأدبي السردي، وتسعى إلى إدراج هذا النص ضمن سياق فن السيرة الذاتية الأدبية .

طرح المحقق/الدارس الكثير من الآراء والأفكار والقيم الفنية والموضوعية التي تتعلّق بهذه الوثيقة الفنية المهمة، التي تحتاج– في تقديرنا– إلى مناقشة تسعى إلى إخضاع المسافة النقدية بين بلاغة القراءة وإشكالية المحتوى لتحليل علمي دقيق، يستهدف أول ما يستهدف تقويم هذا العمل المهم بكيانه النصّي، والإشادة بالجهود الكبيرة المضنية التي بذلها المحقق في إخراج هذا النص إلى حيّز الوجود، سواء على صعيد العمل التحقيقي أم على صعيد الإجراء القرائي، ومن ثم مناقشة الفكرة الأساسية في الدراسة التي تنهض على اعتبار هذا النص نصاً في السيرة الذاتية الأدبية .

الهوامش:

(١) مؤتمر عموم روسيا (الواقع الاجتماعي والنظريات الاجتماعية) ، سانت بطرسبورغ، جامعة سانت– بطرسبورغ ، 28 –29 مايس ، 1998 .

(٢) نيكولاي روديونوف . أسرار مجرة غوتنبيرك ، موسكو ،" الأدب الفني " ، 1989 .

(٣) اليكسي كوندزيج . الفكرة المترجمة وترجمة ما بعد الأفكار : قضايا الترجمة الأدبية الفنية ، موسكو، "الكاتب السوفيتي " ،1980، ص 213.

(٤) نيكولاي روديونوف . نفس المصدر .

(٥) كوستوماروف و فيريشاكن. اللغة والثقافة، موسكو،" إصدارات جامعة موسكو"، 1988، ص 40 .

(٦) ل . سوبوليوف . حول ترجمة الصورة المثالية : قضايا الترجمة الأدبية الفنية، موسكو،"الكاتب السوفيتي"،1980 ، ص262 .

(٧) كوستوماروف و فير يشاكن . نفس المصدر ، ص 47،46 .

(٨) حول قضية الترابط بين اللغة والفكر، موسكو، أكاديمية العلوم السوفيتية، دار العلم، 1967، ص30–37.

(٩) أ. جيكابوفا . مدخل في علم اللغة، الجزء الأول، موسكو، "أصدارات وزارة التعليم العالي"، 1953، ص 224 –235 .

(١٠) روسليس ف . الترجمة والتفرد القومي الأول ؛ قضايا الترجمة الأدبية الفنية، موسكو، " الكاتب السوفيتي "، ص 175 .

(١١) نوفيكوف . تحليل النص الأدبي الفني، موسكو، 1988، ص 9 .

(١٢) الدكتور صلاح فضل. علم الأسلوب،القاهرة، مؤسسة مختار للنشر،1992، صفحة7.

(١٣) بوبوفا، ستيرنين. النظام المفردي للغة. فارونش، جامعة فارونش، 1984، ص27.

(١٤) نفس المصدر . ص 99 .

(١٥) محمد تحريشي، أدوات النص، دراسة، دمشق، " منشورات اتحاد الكتاب العرب "، 2000، ص96.

(١٦) مجلة فيسنيك، الجمعية العالمية لمدرسي اللغة الروسية، العدد28، معهد بوشكن، موسكو، 2000، ص 32–33 .

المفهوم : سياسة الدفاع عن الأنموذج:

حاول المحقق في مقدمته القرائية ((التقديم/ الدراسة)) أن يضع مفهوماً محدداً للسيرة الذاتية الأدبية، بما يخدم شكل وطبيعة ((الروزنامجتين))، ويجعلها داخل دائرة هذا الجنس الأدبي بأي شكل من الأشكال، على النحو الذي يسهّل عليه إقناع مجتمع القراءة بأهمية النص بوصفه سيرة ذاتية أدبية .

فنقل في البداية ما أورده "الخوارزمي" في "المعجم الوسيط" من تحديد لمصطلح الروزنامجة أو الروزنامة، التي هي عنده "كتاب اليوم" الذي يتم فيه معرفة الأيام والشهور وطلوع الشمس والقمر على مدار السنة .

أما محمد حسن آل ياسين فقد عرّفها بـ((اليوميات)) بوصفها ترجمة للكلمة الفارسية ((الروزنامجة))[٢]، وجاء في دائرة المعارف البريطانية إن ((اليومية)) هي تسجيل يومي للتجارب، والملاحظات، والخبرات، والآراء الذاتية، وقال المحقق إن ((هذا التعريف المعاصر موافق لمفهوم الصاحب والباخرزي في روزنامجتهما))[٣].

وهذا يعني أن الروزنامجتين هما- على هذا الأساس- تسجيل يومي- للتجارب- الملاحظات- الخبرات-الآراء الذاتية، وبحسب ما يراهما المحقق، وعلى النحو الذي يدخلهما في جنس السيرة الذاتية الأدبية .

وفي الوقت الذي يكون فيه عنصر "الملاحظات" ممثلاً لبنية خارجية في التشكيل النصّي السيرذاتي، فإن العناصر الأخرى "التجارب/ الخبرات/الآراء الذاتية" ذات تشكيل بنائي داخلي في هذا السياق الإبداعي للجنس الأدبي .

على هذا الأساس فإن وصف المحقق لنص الروزنامجيتن بأنه يحتوي هذه العناصر المشكّلة للجنس الأدبي، وأن مفهوم الباخرزي في نصّه هذا موافق للتعريف المعاصر الذي نقله المحقق عن دائرة المعارف البريطانية، أمر يحتاج إلى نقاش للتدقيق في هذه العناصر والبرهنة على مدى موافقتها للتعريف بهذا الخصوص .

إذ إن نص الروزنامجتين قد توافر في هذا الإطار وضمن تحديد سياق العناصر المشكّلة للمفهوم على الكثير من "الملاحظات"، وعلى جانب بسيط ومحدود

ومختصر من "التجارب/ الخبرات/ الآراء الذاتية"، فهذه العناصر الثلاثة يجب أن تتأصل في السيرة الذاتية عبر مواقف فلسفية وتجارب حيّة عميقة ترتبط بهذه المواقف، وتتمخّض عن قيم كبيرة تسوّغ عملية اعتماد هذا الفن وسيلة للتعبير .

وهي إن وجدت في هذا النص فلم توجد إلا بشكلها السطحي العابر، الذي لا ينطلق من رؤية فلسفية عميقة تؤهّله لتمثيل العناصر على نحو مفهومي شامل ودقيق، وتسوّغ إدراجه – بعد ذلك– ضمن الفضاء التشكيلي لهذا الفن .

بذلك لا يمكننا أن نعدّها ((سيرة ذاتية أدبية)) بالمعنى الفني الدقيق للجنس الأدبي السيرذاتي، لأنها يجب أن لا تكون "حديثاً ساذجاً عن النفس" ولا هي "تدوين للمفاخر"، بل يجب أن يكون كاتب السيرة على قدر كبير من الجرأة والذكاء والقصدية، بحيث يحدّثنا عن دخائل نفسه وتجارب حياته بعمق وصراحة وحيوية، وهذا ما افتقدناه على نحو كبير في نص الباخرزي الذي قد يكون خلا تماماً من هذه الخاصية النوعية المهمة، وانهمك بدرجة أكبر في الجمع والنقل والرواية .

نقل المحقق لخدمة الغرض ذاته رأياً في أبرز خصائص فن السيرة الذاتية للدكتور يحيى إبراهيم عبد الدايم في كتابه ((الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث)) يحدد فيه مفهوماً فنياً للترجمة الذاتية، التي يعتقد أن هذا النص يمثل على نحو ما شكلاً من أشكالها، يقضي بأن أبرز خصائصه المميزة أن يكون لها بناء فني واضح، مرتبة فيه الأحداث والشخصيات، ومصاغة صياغة أدبية محكمة[٤].

وإذا كانت هذه الخصائص الثلاث التي قدّمها الدكتور عبد الدايم في كتابه المبكّر عن هذا الجنس الأدبي "البناء الفني الواضح/ ترتيب الأحداث والأشخاص/صياغتها صياغة أدبية محكمة"، قد توافرت في نص الروزنامجتين، فإن خصائص أخرى أكثر أهمية أغفلها التعريف، وأهملها المحقق، وخلا منها النص .

لعلّ في مقدمتها ضرورة قيام هيكل البناء على "البعد الذاتي" المستند إلى قاعدة فكرية تفلسف الموضوع وتبرر قيامه، هذا البعد الذاتي في قيمته النوعية التي تجعل من الذات محوراً مركزياً تنهض عليه فكرة بناء السيرة الذاتية .

ربما نستطيع بعد هذه المراجعة للمفهوم التي أخضعها المحقق لسياسة واضحة تستهدف الدفاع عن الأنموذج، المراد هنا إدراجه ضمن دائرة فن السيرة الذاتية، ومنح النص صفة إضافية ليست من جنسه، أن نشعر برغبة أصيلة لديه لمقاربة النص على هذا الأساس خلافاً لحقيقة توجهه نحو مجال فني وأجناسي آخر.

إن الواضح في صياغة نص الروزنامجتين أنه يمكن أن ينتمي إلى الصنف الإخباري المحض من السيرة الذاتية، الذي يقوم على تسجيل الحكايات ذات الطابع الشخصي وروايتها والتعريف بأجوائها، وهي تقدم على شكل تجربة، أو خبر، أو مشاهدة، أو ملاحظة، يتخللها وصف ميداني للأحداث العارضة، وتسجيل للمذكرات التي كتبها صاحبها تحقيقاً لغاية تاريخية بالدرجة الأساس .

لاشك في أن المقصدية في التأليف تمثّل ميثاقاً قرائياً مهماً لتحديد هوية الجنس الأدبي، على المتلقي أن يلتزم به ويتقيّد بحدوده من أجل الوصول بقراءته– إذا ما توافرت لها الشروط الصحيّة الأخرى– إلى مرحلة بلاغة القراءة، وهو ما لم يقرره الكاتب في مشروعه لتأليف هذا الكتاب، بل أضافه المحقق تقديراً منه أن النص يمكن أن يدرج ضمن سياق هذا الجنس الأدبي في أنموذجه هذا .

البناء الفني وعمومية الأحكام:

قرّر المحقق في تحليله لنص الروزنامجيتن أنهما تنتميان انتماءً مباشراً وحاسماً إلى فن ((السيرة الذاتية الأدبية))، على وفق المواصفات الفنية والبنائية التي أسبغها عليها، إذ إنها تعدّ في رأيه نمطاً من أنماط السيرة الذاتية الأدبية، وقدّم فيها فناً واضح الملامح في عناصر العمل الأدبي التي شكّلتها .

وهو يميل في الوقت نفسه إلى أنها ((جنس أدبي أتقنه الباخرزي، وهيأ له الإمتاع الفني من جماع أحداث ومشاهد وشخصيات وبناء))[٥]، إذ يجتهد في حشد شبكة من العناصر التي يمكن أن تؤهّل النص للانخراط في جنس السيرة الذاتية .

ويمكننا أن نستخرج من هاتين الملاحظتين اللتين أوردهما الأحكام الآتية :

1– فن واضح الملامح .

2– جنس أدبي أتقنه الباخرزي .

3– هيأ له الإمتاع الفني من جماع أحداث ومشاهد وشخصيات وبناء .

ففي الوقت الذي تكون فيه عبارة ((فن واضح الملامح)) غير دقيقة تماماً وغير واضحة قياساً إلى واقع النص وهويته الأجناسية، وعبارة ((جنس أدبي أتقنه الباخرزي)) لا تخلو من عمومية وإطلاق ومجازفة وصفية، وخلو من وضع القواعد والقوانين التي يجب أن تحكم الوصف بوصفه جنساً أدبياً، فإن العبارة الثالثة ((هيأ له الإمتاع الفني)) قد تصدق على عموم النص وبنسب متفاوتة .

ثم أن وصف محتوى العمل بوصف ((جماع أحداث .....)) ربما يخرجه بعض الشيء من ذاتيته الواجب حضورها في فن السيرة الذاتية، فالسيرة الذاتية لا يمكن أن توصف– في سياقها الاصطلاحي والمفهومي – بأنها جماع أحداث ومشاهد وشخصيات وبناء، لأن البناء الفني . على الأقل ـ في هذا الحال سينحو نحواً تلفيقياً، وهو ما حصل فعلاً لنص الروزنامجتين في جزء كبير من نظامه البنائي، إذ فقد التمركز حول الذات السير ذاتية الساردة وذهب باتجاه الجمع والعرض لحالات أدبية خارجية .

أما على صعيد الغاية الأساس من كتابة هذا النص فإن المحقق يميل إلى عدّها عملاً في الجمع والحفظ والتوثيق، ((كما فعل في دميته التي وضعا لنظام الملك، ذلك أنه جمع فيها شعراً ونثراً لعلماء وأدباء التقى بهم، وحفظ لنا ما سمع منهم، بحيث كانت مصدراً أو مرجعاً مهماً لهم))[٦].

هذه الغاية تسهم– في تقديرنا– إسهاماً واضحاً في إخراج العمل من دائرة السيرة الذاتية بمعناها الاصطلاحي الدقيق، فإذا كانت غايتها علمية أو موضوعية، وكان النص مصدراً أو مرجعاً مهماً لهم– بحسب ما يرى–، فالأحرى به أن يكون عملاً أدبياً ملحقاً بكتابه السالف ((دمية القصر))، إذ إن واقع الرواية والجمع والحفظ والتوثيق هو المهيمن الواضح في واقع العمل كما هو الحال في الدمية، إلى الدرجة التي لم تستطع فيها العناصر الذاتية– التي لم يخل منها العمل على نحو ما– إنقاذه من تاريخيته ومرجعيته، وانصرافه إلى شكل آخر من أشكال الكتابة الأدبية.

ربما كان لسيطرة الشعر –جمعاً ورواية وعرضاً– على الفعل الإبداعي داخل النص وهيمنته على الشكل العام للهيكل البنائي، سبب مهم من الأسباب التي تدعونا على عدم الإقرار بأن الجنس الأدبي لنص الروزنامجتين، ينتمي انتماءً حاسماً ونوعياً إلى فن السيرة الذاتية الأدبية، فقد كان الباخرزي ((في أغلب الأحيان يقول شعراً أو ينقل لنا شعراً عن غيره من معاصريه، ويجتزئ ببيت أو أبيات من القصيدة فلا ينقلها كاملة، ويقتصر منها ما هو شرط الروزنامجة))[٧].

وقد بلغ ما ورد من شعر الباخرزي والأديب البارع الزوزني فيهما- كما يقول المحقق – أكثر من خمس مئة بيت وغيرهما خمسة آخرون أكثرهم شعراً بلغ عدد أبياته تسعة عشر بيتاً، فضلاً على أن هذا الكم الهائل من الشعر المجموع والمعروض لا يدخل في دائرة الذات على نحو مخصوص وإجرائي، فإنه قد أورد قسماً آخر من الشعر ((في أثنائهما تضميناً أو اقتباساً لشعراء مثل مجنون ليلى والبحتري وابن المعتز))[٨].

أغلب هذا الشعر الوارد في الروزنامجتين لا يتمتّع بقيمة فنية وإبداعية كبيرة ولا خصوصية شعرية متميزة، فهو شعر أخواني ومناسباتي ووصفي مجرد وبسيط، ولا يمكن في أي مقياس أجناسي أن يسهم هنا في خدمة فن السيرة الذاتية الأدبية، التي يسعى المحقق إلى تكريسه ووصف هذا النص به .

وإذا أضفنا إلى ذلك ذكر الباخرزي للكثير من الشخصيات المختلفة على صعيد وصفي غير تداخلي، ووصفه الخارجي لـ " زوزن " التي يسميها " البصرة الصغرى"، على نحو قال عنه المحقق أنه لم يره في مصدر أو مرجع آخر، على الرغم من عدم ارتباطه بالأحداث ارتباطاً حركياً، إذ إن بنية المكان السيرذاتي يجب أن تكون جزءاً لا يتجزأ من بنية الحدث في البناء النصّي السيرذاتي، فإن كل ذلك إنما يسهم في إبعاد النص عن منطقة السيرة الذاتية، ويدرجه في سياق كتابي آخر .

ثم توافرت الروزنامجتان على عدد من الرسائل القصيرة المتبادلة التي افتتحت بشعر وأحياناً يرد في أثنائها شعر، ويرد اسم كاتبها في بدء الرسالة، ونجد رسائل

وردت إشارة إليها أو فحواها، مما يبعدها مسافة أخرى عن منطقة السيرة الذاتية، لأن هذه الرسائل لا تعمّق صورة الذات الساردة في بنية النص .

فيجدر بنا أن نتساءل هنا أين موقع ((الذات)) في هذه المداخلات المتنوعة، التي تتسم بخارجيتها وإسهامها في تغييب الذات، على نحو تفتقر فيه إلى السيطرة على مجريات الفعل داخل كيان العمل الفني، بحيث تبدو وكأنها لا علاقة لها بالموضوع المعروض ولا صلة جوهرية لها بما يحصل من حراك أدبي أو حيوي.

إن ((الذات)) في هذه الحالة ستكون أداة سياقية ورابطة للأحداث حسب، في الوقت الذي يجب أن تكون فيه المحرّك الأساس للفعل، والموجّه الجوهري لحراكه الميداني، ومركزاً فاعلاً لاستقطاب أحداثه، لذلك فإن نص الباخرزي في هذه الحالة يعدّ– في مقياس التراتبية النصية لفن السيرة– ((سيرة أدبية)) أكثر منه ((سيرة ذاتية أدبية)) .

في مناقشة طبقات العمل الفني أكّد المحقق أن الباخرزي عوّل في روزنامجتيه ((على الأداء القصصي في ما يتصل بالأحداث والمناسبات التي بنيتا عليه، والشخصيات وعلاقاتها وحواراتها، والسرد والوصف، اللذين يلجأ إليهما، ورسم البيئة (المكان) الذي جرت فيه الأحداث وتحركت فيه الشخصيات))[٩].

وإذا كان جزء من هذا الكلام ينطبق على واقع العمل، فإن الجزء الأكبر لا ينطبق، إذ إن الأداء كان حكائياً أكثر منه قصصياً، والشخصيات وعلاقاتها وحواراتها لم تكن ذات نسيج قصصي واضح، والسرد والوصف جاء فيها على طريقة الرواة الذين لا يتقصّدون القصّ قدر تقصّدهم إذاعة الخبر وإيصال المعلومة، فضلاً على أن رسم المكان كان رسماً وصفياً خارجياً، ولم يكن نابعاً من طبيعة الأحداث .

ما يؤكّد هذه التصورات والمقترحات الكلام الذي أورده المحقق في صدد تقويم أسلوب الباخرزي في عمله هذا، إذ لم يكن يختلف من جهة عن ((أسلوبه في دمية القصر ورسالة الطرد))[١٠]، كما أنه ((لا يخرج عن أسلوب كتّاب عصره وخصائصه))[١١] من جهة أخرى .

وفي الوقت نفسه كان الباخرزي نفسه ((يفيد من ثقافته المتنوعة وذخيرته من الموروث في صياغاته الأسلوبية))[١٢]، ويكثر من ((التفاته إلى المعاني والتراكيب والألفاظ محاكاة واقتباساً وتضميناً))[١٣]، فإن نصّه جاء مخلصاً للتعبير عن هذه الذخيرة الثقافية المتنوعة أكثر من إخلاصه للتوجّه نحو إنجاز فن السيرة الذاتية الأدبية،الذي يحتاج إلى قصدية صريحة في التوجّه الكتابي والإنجاز النصّي.

إن المحقق بهذه المواصفات الأسلوبية يُفقد الباخرزي شخصيته الأسلوبية الواضحة، التي يمكن أن يتفرّد بها وينتج عبرها ((سيرة ذاتية أدبية))، إذ إن عنصر الإبداع فيها يكاد يكون نادراً إذا ما قيس بالمحاكاة والاقتباس والتضمين، ولاشك في أن فن السيرة الذاتية الأدبية يجب أن يخضع لرؤية ذاتية شديدة الخصوصية وعميقة التعبير، تنهج نهجاً أجناسياً واضحاً لإنجاز نص ينتمي إلى جنس أدبي معروف بلا جدال .

أما فيما يتعلّق بخاصية فنه فقد ((غلب عليه الحسّ الشعري، وهيمنت الصياغة العقلية، وخفف من غلواء ذلك الأسلوب القصصي وعناصر الأداء الفني))[١٤]، ولا ريب في أن كونه شاعراً فإن الحسّ الشعري يتسرب إلى كل ما يكتب نثراً، وهو ما يتوجب السيطرة على انسياحه وتدفقه وتمظهره في الكتابة النثرية .

أما هيمنة ((الصياغة العقلية)) عليه، فإن أسلوبه على الصعيد الفكري والمعرفي هنا لا يحتمل كثافة هذا المصطلح وثقله، لاسيما وأنه يتناقض "منطقياً" مع مصطلح "الحسّ الشعري"، وتحدثنا فيما تقدم عن مستوى الأسلوب القصصي، أما عنصر أو عناصر الأداء الفني فمصطلح عمومي يفتقر إلى الدقة والوضوح .

الاستنتاج العام:

توصل المحقق في خاتمة ((التقديم ـ الدراسة)) الموسوم بـ ((المفهوم والتحليل)) إلى جملة من الاستنتاجات التي تمخّض عنها النص في شكله العام، خضعت لأحكام فيها الكثير من الشمول والعمومية والإطلاق .

إن الروزنامجتين في رأي المحقق ((أقدم نص كامل وصل إلينا على شكل يوميات أديب. في النصف الأول من القرن الخامس الهجرية))[١٥]. وهما نص على شكل يوميات أديب وليس سيرة ذاتية أدبية، وثمة– بلا أدنى شك– فرق نوعي وشكلي بين الأنموذجين.

وكونه أقدم نص كامل وصل إلينا في هذا المجال أياً كانت التسمية، فإنه يعدّ في نظرنا عملاً مهماً يحسب للمحقق فيه فضل التحقيق، الذي انفق فيه– على ما يبدو–جهداً هائلاً، وفضل هذا التقديم الذي هو موضع مناقشة وجدل في هذه المراجعة، لكنه لا يُلزم بالتوجيه الأجناسي الذي انهمك في منحه إياه .

كما استنتج المحقق من تحليله للنص على صعيد الشكل الفني بأن الشكل ((لا نظير له في سيرة ذاتية أدبية في القديم، فهو مكتوب بأسلوب قصصي يقوم على الحكاية ووحدة الزمان والمكان والشخصيات والأحداث، وأسلوب أدبي متميز))[١٦]، وريادته على هذا الصعيد أيضاً لا تؤهله لأن يكون سبباً فنياً كافياً لإدراجه ضمن جنس أدبي معين .

وعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من هذا الحكم المتسم بالعمومية يحتاج إلى اختبار ميداني في واقع النص، فإنه في شكله العام لا يجانب الصواب، لأنه اجتهد في قراءة النص على أساس تحليلي وتأويلي محدد، لكنه لم يتوغل في باطنية شكله ومحتواه بحيث يتمكن من تسويغ خلاصته في عدّ النص سيرة ذاتية أدبية .

ويمكن أن يُثار هنا سؤال فني– جمالي هو ما مقدار الفن في كل من هذه الوحدات في تشابكها النسيجي أيضاً ؟.

واستنتج كذلك استنتاجات أخرى قد نعثر عليها في أكثر كتب التراث التي وصلت إلينا، إذ انفرد النص- بحسب المحقق- ((بحفظ طائفة من الشعراء والعلماء، وشعرهم ونثرهم، مما لم نعثر عليه في مراجع أخرى))[١٧].

كما نظر المحقق في أن الكتاب قدّم لنا في سياق معين من سياقاته ((جانباً مهماً من الحياة الأدبية في زوزن في القرن الخامس الهجري))[١٨]، ولم يغفل وصف الحالة الاجتماعية لزوزن وطبيعة الحياة فيها .

إن ((السيرة الذاتية)) عموماً و ((السيرة الذاتية الأدبية)) خصوصاً يجب ألا تخضع لأي اعتبار لبانوراما الذات، إلا في ما يتصل بها وتكون هي المؤثرة في صياغته أدبياً، والسبب الأصيل في دخوله إلى مسرح أحداث السيرة، وما عدا ذلك من أنواع السير فإنه يعدّ أقل رتبة منها، ولاسيما تلك التي يكتبها أناس اتصلوا ببعض الرجال العظماء، فهم يحققون وجودهم عن طريق تاريخ تلك الصلات، ويكون دافع الكتابة في ذلك خارجياً وليس داخلياً محضاً، ولا تتجلّى الكتابة استناداً إلى ذلك بوصفها كتبة سيرذاتية ثقافية .

وهذا ما كان عليه حال الروزنامجتين -حسبما نرى- تتحقق أهمية هذا العمل في أن المحقق عوّل فيه على نسخة فريدة لم يعرفها بروكلمان وغيره، ولم يعثر على سواها، والذي لولاه لما وصلت إلينا، وهو في حقيقته منجز ثقافي مهم يتصل بحفظ مدوّنة تراثية ذات أهمية خاصة .

الهوامش:

(١) يوميات أديب- نص في السيرة الذاتية الأدبية من القرن الخامس الهجري، تأليف أبي الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب الباخرزي، حققها وقدّم لها د. محمد قاسم مصطفى، منشورات دار الكتب للطباعة النشر، جامعة الموصل، 1989 .

(٢) ينظر الصاحب بن عباد- حياته وأدبه-، محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، 1957 .

(٣) يوميات أديب : 14 .

(٤) ينظر الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، يحيى إبراهيم عبد الدايم، دار النهضة العربية، بيروت، 1974 :4 .

(٥) يوميات أديب : 15 .

(٦) م . ن : 15 .

(٧) م . ن : 16 .

(٨) م . ن : 17 .

(٩) م . ن : 16 .

(١٠) م . ن : 18 .

(١١) م . ن : 18 .

(١٢) م . ن : 18 .

(١٣) م . ن : 18 .

(١٤) م . ن : 18 .

(١٥) م . ن : 18 .

(١٦) م . ن : 19 .

(١٧) م . ن : 19 .

(١٨) م . ن : 19 .

تَوَالِي المِنَح في أسماء ثِمَار النَّخل وَرُتبَة البَلَح

لبدر الدين القرافي (ت ١٠٠٨هـ)

أ.م. د.مهند جاسم محمد
جامعة تكريت/كلية الآداب

م.م. نيدار علي عباس
جامعة تكريت/كلية الآداب

مُقَدِّمَة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا يخفى على أحد الكم الهائل من التراث اللغوي المخطوط الذي سطّره علماؤنا الأفاضل من السلف، والذي مازال ينتظر نظرة وفاء من الخلف ؛ لينفض عنه غبار الزمن ويرفد المكتبة العربية بنفائس الدرر.

وتعد الرسالة موضوع الدراسة الموسومة بـ(توالي المنح في أسماء ثمار النخل ورتبة البلح،لبدر الدين القَرافي (ت 1008 هـ) إحدى هذه النفائس التي قررنا نفض الغبار عنها.

وقد اقتضت طبيعة العمل في الرسالة أن نقسّمها على قسمين:

- **الأول:** قسم الدراسة.
- **والآخر:** قسم التحقيق.

أولا: قسم الدراسة، وهو على مبحثين:

– **الأول:** بدر الدين القرافي حياته وآثاره العلمية،ومكانته في أهل عصره.

وقد تضمن الحديث عن اسمه وكنيته وولادته ووفاته وشيوخه وتلامذته، فضلا عن الحديث عن أبرز آثاره العلمية من الكتب المؤلفة وما نظمه من الأشعار، ثم ختمنا هذا المبحث بالحديث عن مكانته عند أهل عصره.

– **والآخر:** توالي المنح:التعريف بها، أهميتها، مصادرها، وصفها.

وقد تضمن تعريفا موجزا بالمادة اللغوية التي عالجتها الرسالة مع بيان أهمية الرسالة بين المصنفات الأخرى التي تناولت موضوع الرسالة، فضلا عن بيان المصادر التي صرّح المصنف باستعمالها في متن الرسالة.

ثم ختمنا المبحث بوصف المخطوطة التي تم ّالعمل عليها.

أما القسم الآخر (التحقيق)، فقد حققنا فيه المخطوطة (توالي المنح) تحقيقاً نرجو أن نكون قد وفقنا فيه.

وقد استدركنا عليه في نهاية العمل جمعا من أسماء ثمار النخل مما فاته ذكرها في الرسالة، وقد ذكرت في بطون كتب اللغة .

وقد ختمنا هذا العمل بخاتمة أثبتنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

وتمّ الاعتماد في عملنا هذا على مصادر متنوعة ما بين أمّات كتب اللغة، والحديث النبوي الشريف، والفقه الإسلامي، والتراجم القديمة والمتأخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أولا: الدراسة:

وتنقسم على مبحثين:

المبحث الأول

بدر الدين القَرافي حياته وآثاره العلمية ومكانته في أهل عصره

ويتضمن ما يأتي:

أولا: حياته:

- **اسمه وكنيته:** محمد بن يحيى بن عمر بن أحمد بن يونس المعروف بـ(بدر الدين القَرافي).
- **ولادته ووفاته:** أشارت المصادر التي ترجمت له إلى أنه ولد في القاهرة سنة (939هـ)، وبها عاش وفيها توفي سنة(1008هـ)[١].
- **شيوخه:**

لقد تتلمذ بدر الدين القرافي على عدة شيوخ ذكرهم من ترجم له وهم:

1- عبد الرحمن بن علي الاجهوري (ت961هـ).
2- محمد بن أحمد النجم الغيطي (ت981هـ).
3- عبد الرحمن بن محمد التاجوري (ت999هـ) .
4- زين بن أحمد الجيزي (بعد1000هـ).
5- جمال الدين يوسف بن القاضي زكريا (ت بعد1000هـ).
6- يحيى بن أبي الصفا البكري (ت1053هـ). يوسف بن القاضي زكريا وكذا أخذ عن والده[٢].

- **تلامذته:**

لم يشر من ترجم له سوى إلى تلميذ واحد هو (زين العابدين بن عبد الرؤوف الحدادي المناوي) الذي درس الحديث على يده[٣].

ثانيا: آثاره العلمية:

لقد أَلّف هذا العالم جمعا ً كبيراً من المؤلفات على اختلاف موضوعاتها وتنوع علومها حتى قال عنه من جاوره : (قد عجزت عن حملها الكراريس)إلاّ أن يد الزمان قد طالتها بالضياع والنسيان، وما بقي منها ذكرها من ترجم له[٤]، وهي:

1- إحكام التحقيق بأحكام التعليق.
2- بهجة النفوس بين الصحاح والقاموس.
3- تحرير الفريد في تحقيق التوكيد
4- تحقيق الإبانة في صحة إسقاط ما لم يجب من الحضانة.
5- توشيح الديباج،لابن فرحون في التراجم.
6- الجواهر المنتثرة في هبة السيد لام الولد والمدبرة.
7- الدرر المنفية في الفراغ عن الوظيفية.
8- درر النفائس في شأن الكنائس.
9- رسائل في الفقه.
10- رسالة في بعض أحكام الوقف.
11- شرح التهذيب.
12- شرح مختصر ابن الحاجب.
13- شرح الموطأ.
14- شرف البدر بضياء ليلة القدر.
15- عطاء الجليل في شرح مختصر الشيخ خليل.
16- القول المأنوس بتحرير ما في القاموس.

فضلا عن الرسالة موضوع البحث التي تفرد بذكرها الزركلي في الأعلام[٥].

وفضلاً عمّا تقدم ذكره من مؤلفات، فقد كان له شعر ونثر ومكاتبات ذكرها من ترجم له[٦]، منها بيت كتبه إلى العلامة سري الدين بن الصائغ رئيس أطباء مصر، وقد دفع عنه ديناراً لآخر فأرسله له ظاناً أنه يقبله فقال:

ماذا جنيتَ على القاضي بمنقصةٍ مضمونها الشح في أخذي لدينار

فأجابه السري[٧]:

يابدرُ تمّ بلا نقصٍ وإقتار وقاضياً في البرايا حكمه سارِ

لقد صرفتَ عن القاضي تصرفه فكيف تبذل َ ديناراً بدينار
حاشاك تنسب َإلاّ للوفا ولذا جَرت بحارك بالنعمى على الجار

فهو كما قيل فيه (مطبوع الأسجاع والقوافي)، ودليل ذلك ما ورد في المخطوط موضوع البحث إذ نراه قد نظم ثلاثة نصوص في أسماء ثمار النخل.

ثالثاً: مكانته في أهل عصره:

يعد بدر الدين القرافي من أبرز علماء عصره، بل قد وصفه من ترجم له بأنه رئيس علماء عصره وشيخ مذهبه –أعني المالكي –إذ أتقن مذهبه غاية الإتقان، وقد تقلّد قضاء المالكية في القاهرة نحو الخمسين عاماً، وممّا يدل على علو مكانته ما قيل فيه نحو :(أعلم قضاة المالكية في عصره، القاضي الفاضل الفاصل بين الحق والباطل، مطبوع الأسجاع والقوافي) إلى غير ذلك[٨].

المبحث الثاني

توالي المنح التعريف بها وأهميتها ومصادرها ووصفها

أولا: التعريف بالرسالة:

خصّ المؤلف الرسالة ببيان أسماء ثمار النخل ورتبة البلح بين هذه الأسماء، فبدأ الرسالة بتسميتها قائلاً:((فهذه رسالة سميتها بتوالي المنح في أسماء ثمار النخل ورتبة البلح)).

ثم ذكر من ألّفها من أجله مادحاً إياه بأبيات،وقد صرح بأن داعي التأليف يرجع إلى خلاف وقع في عبارة القاموس.

بدأ المؤلف بعدها ببيان رتبة البلح بين البسر والخلال مورداً النصوص على ذلك وراداً عليها، إذ ذكر نصّ الصحاح والقاموس– وقد وقفنا عليهما–، وشرح لغات مختصر الشيخ خليل.

وعندما انتهى من تحقيق رتبة البلح بدأ بذكر الأسماء والصفات التي تعبر عن مراحل نضج ثمرة النخل، فأورد نصّ الجوهري في الصحاح، وردَ صاحب القاموس عليه، ثم أعقبه بذكر مذهب القاضي عياض في ذلك .

وأورد المؤلف بعد ذلك خلاف اللغويين والفقهاء في مرتبة (الزَّهُو) أقبل البسر هو أم بعده ؟ فضلا عن الخلاف في أصل اشتقاقه بين الثلاثي (زَهَا) والرباعي (أَزهَى).

ثم ختم المؤلف الرسالة بنظم ما جاء في القاموس، وعند القاضي عياض، وأبي الحسن الشاذلي من ذكر لأسماء ثمار النخل .

ثانيا : أهمية الرسالة:

تكمن أهميتها في انفرادها ببيان أسماء ثمار النخل،إذ ما وصل إلينا مؤلّفا في هذا الجانب إنما تحدث عن النخل بشكل عام متضمناً الحديث عن ثمره ككتاب النخل والكرم المنسوب إلى الأصمعي،والنخلة لأبي حاتم السجستاني، والنخل لابن وحشية النبطي[٩].

ثالثاً :مصادر الرسالة:

صرّح المؤلف بمصادره من كتب وأعلام، وهي على النحو الآتي :

أولا: الكتب، وهي:

1–الصحاح للجوهري .
2–القاموس المحيط للفيروز آبادي.
3– شرح لغات مختصر الشيخ خليل، لأبي الحسن الشاذلي .

ثانياً: الأعلام، وهم:

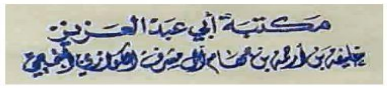
1– أبو زيد الأنصاري .
2– القاضي عياض .
3– أبو الحسن الشاذلي.

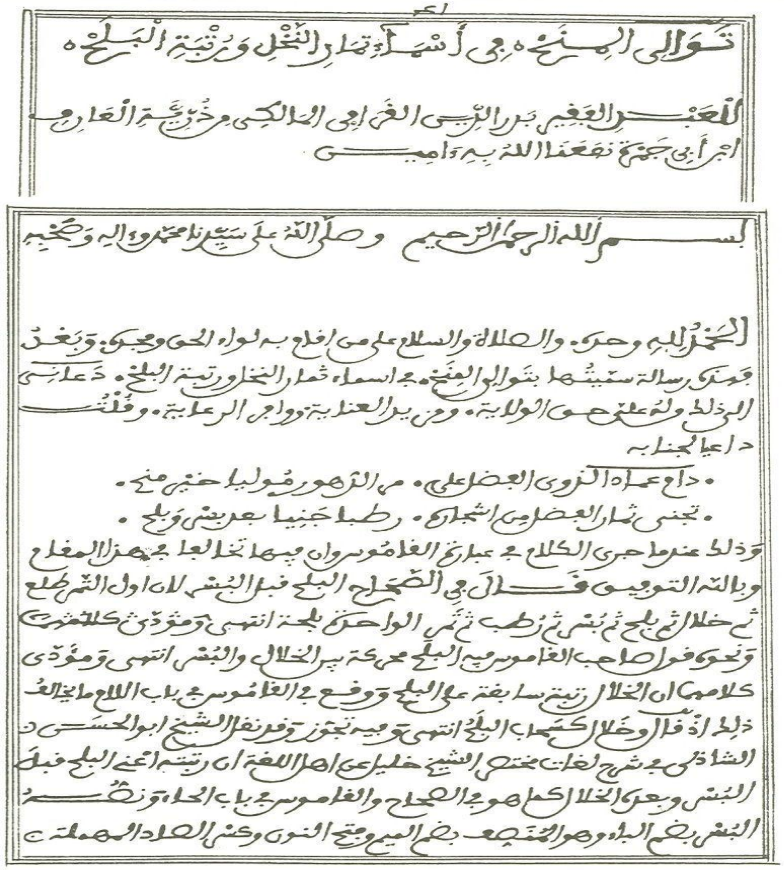
رابعاً : وصف الرسالة:

تقع المخطوطة في ثلاث صفحات من مجموع تحتفظ به الخزانة الحسنية الملكية بالرباط ضمن مجموع رقم (7248) .

وعدد أسطر كل صفحة يختلف عن الأخرى، فالأولى تسعة عشر سطرا والثانية، ثمانية عشر سطرا، والثالثة أحد عشر سطرا،وقد كتبت النسخة بخط مغربي وعلى صفحة العنوان تملّك يشير إلى عائديتها إلى مكتبة أبي عبد العزيز خليفة بن آل رحمن بن جهام آل مشرف الكوازي .

وقد نسخت من أحمد بابا بن أحمد سنة (1024هـ).





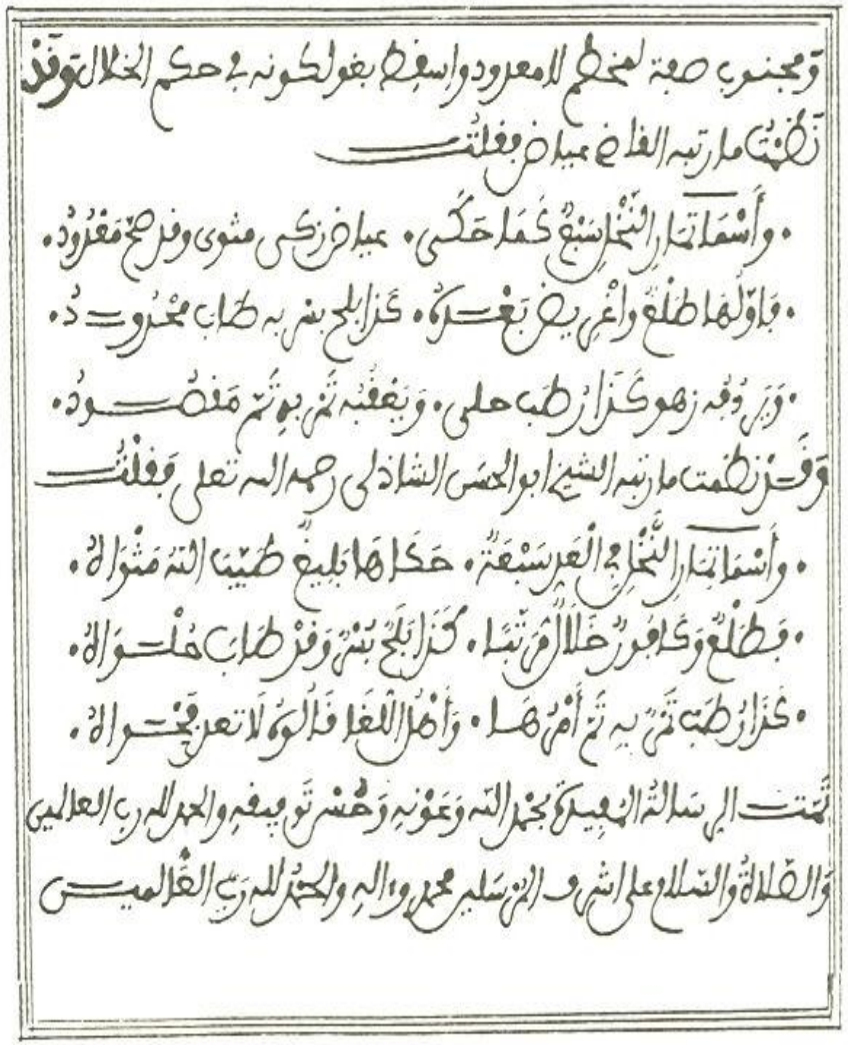
توالي المنم في أسماء ثمار النخل ورتبة البلح
للعبد الفقير بن الرشيد الفزاري المالكي من ذرية الصحابي
ابن أبي جمرة نفعنا الله به وأمين

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على من لا نبي بعده لواء الحمد ومجده. وبعد
فهذه رسالة سميتها بتوالي المنم في أسماء ثمار النخل ورتبة البلح. دعاني
إلى ذلك ولوعي بعلم الولاية. ومن بر العناية وواجب الرعاية. وقلت
داعيا لمجتنيه

• داع عماه الزوى العضل عن • من الزهو فوليا حنين منه •
• تجنى ثمار العضل من أشجارها • رطبا جنيا بعد بسر وبلح •

وذلك عندما جرى الكلام في عبارة الغلام وبيان ما تختلف به هذه المفاوز
وبالله التوفيق فقال في الصحاح البلح قبل البسر لأن أول الثمر طلع
ثم خلال ثم بسر ثم رطب ثم تمر الواحدة بلحة انتهى وهو ذي كلامه
ونحوه قول صاحب القاموس وبه البلح محركة بين الخلال والبسر انتهى وهو ذي
كلامه ان الخلال رتبة سابقة على البلح ووقع في القاموس في باب اللام ما يخالف
ذلك إذ قال والخلال كسحاب البلح انتهى وبه تجوز وقد نقل الشيخ ابو الحسن
الشاذلي في شرح لغات مختصر الشيخ خليل عن أهل اللغة ان رتبته أعني البلح قبل
البسر وبعد الخلال كما هو في الصحاح والقاموس في باب الحاء وزعم
البسر بضم الباء وهو المجتمع بضم الميم وفتح النون وكسر الدال المهملة



وجمع صفة لمنظم المعدود واسقط بعولكونه في حكم الخلال وقد
نظمت مارتبه الفاضل ميارة فقلت

• وأسماء ثمار النخل سبع كما حكى • ميارة زكى مشوى وفل صح مفرود •
• فأولها طلع وآخر يانع بغير كه • فخلال بلح بسر به طاب محمود •
• وبسر وفيه زهو كزاز رطب حلى • وبغضته ثم بوتم منضود •
وقد نظمت مارتبه الشيخ ابو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى فقلت

• وأسماء ثمار النخل في العمر سبعة • حكاها بليغ طيبا الله مثواه •
• فطلع وكافور خلال ثم بلح • فبسر وفي طاب محلو اه •
• فخلال زطب ثم تمر أمرها • وأهل اللغا قالوه لا تعد فجراه •
تمت الى رسالة الفقير بحمد الله وعونه وحسن توفيقه والحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على اشرف المرسلين محمد وآله والحمد لله رب العالمين

ثانيا :النص المحقق:

تَوالِي المِنَح في أسماء ثمار[١٠] النخل ورتبة البلح

للعبد الفقير

بدر الدين القَرَافي المالكي

من ذرية العارف ابن أبي جمرة[١١]





بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من أقام به لواء الحق ومجده.وبعد:

فهذه رسالة سميتها بتوالي المنح في أسماء ثمار النخل ورتبة البلح.دعاني إلى ذلك من له عليّ حق الولاية، ومزيد العناية ووافر الرعاية، وقلت داعيا لجنابه:

دَامَ عِمَـادُ الـزوي الفَضَـلَ علـى مَـرِّ الـدُّهُورِ مُولِيًـا خَيـر مِـنَح

تُجنَـى ثِمـارُ الفَضـلِ مـن أشـجاره رُطَبـاً جَنِيًـا بَعـدَ بُسـر ويَلَـح

وذلك عندما جرى الكلام في عبارة القاموس[١٢]، وأن فيها تخالفاً في هذا المقام وبالله التوفيق .

قال في الصحاح: ((البَلَح قبل البُسر؛ لأنَّ أوَّلَ التمرِ طَلْعٌ ثم خَلالٌ ثم بَلَحٌ ثم بُسرٌ ثم رَطبٌ ثم تَمرٌ الواحدة بَلَحَة))[١٣] انتهى[١٤]. ونحوه قول صاحب القاموس فيه: ((البَلَحُ مُحركةٌ بين الخَلالَ والبُسر))[١٥] انتهى .

ومؤدّى كلامهما أنّ الخلال رتبة سابقة على البلح، ووقع في القاموس في باب اللام ما يخالف ذلك، إذ قال:((وخَلالٌ كَسَحَابٍ البَلَحُ))[١٦] انتهى، وفيه تجوّز .

وقد نقل الشيخ أبو الحسن الشاذلي[١٧] في شرح لغات مختصر الشيخ خليل[١٨] عن أهل اللغة أنّ رتبته أعني البلح قبل البُسر وبعد[١٩] الخلال كما هو في الصحاح والقاموس في باب الحاء[٢٠]، ونصّه :((البُسر بضم الباء وهو {المُنَصّف}[٢١] بضم الميم وفتح النون وكسر الصاد المهملة**[1]** المشددة واحدته بُسُرة بإسكان السين وضمها، قال أهل اللغة: أوَّلُ تمر النَّخل :طَلْعٌ وكافورٌ[٢٢] ثم خَلالٌ بفتح الخاء المعجمة واللام المخففة ثم بلح ثم بُسر ثم رطب ثم تمر))[٢٣]. انتهى.

ولم يذكر في القاموس أيضاً البلح في باب الراء عندما تكلم على البُسر ونصّه هناك[٢٤].

((وقول الجوهري أوَّلُ البُسر طَلَعٌ ثم خَلالٌ الى آخره[٢٥] غير جيد والصواب :أوله طَلَعٌ فإذا انعقد فَسَيَّابٌ[٢٦]، فإذا اخضرّ واستدارَّ فَجَدالٌ وسَرادٌ[٢٧]، وخَلالٌ فإذا كَبُرَ شيئاً فَبَغوٌ[٢٨]، فإذا عَظُمَ فَبُسر ثم مُخَطّمٌ[٢٩]، ثم مُوكّتٌ[٣٠]، ثم تُذنوب[٣١]، ثم جُميسة[٣٢]، ثم تُعدة[٣٣]، وخَالعٌ وخَالِعةٌ[٣٤]، فإذا انتهى نضجه فرطبٌ ومَعوٌ[٣٥] ثم تمر وبسطت الكلام في ذلك في الروض المسلوف فيما له إسمان إلى ألوف[٣٦].))[٣٧] انتهى.

والذي للقاضي عياض[٣٨] درجات النخل سبعة : الطَّلَعُ،والإغرِيضُ[٣٩]، والبَلَحُ، والبُسر، والزَّهُو، والرَّطبُ، والتمر[٤٠].

وهذا مذهب أكثر أهل اللغة[٤١]، وقوم يجعلون البُسر بعد الزَّهُو، وهو الذي يستعمله الفقهاء[٤٢]، والزَّهُو :ابتداء طيب تمر النخل واصفراره واحمراره[٤٣]، ويقال فيه :أَزهَى يُزهِي، وجاء في بعض روايات الحديث : (يَزهُو)[٤٤]، وقالوا : لايصح[٤٥]، وقال أبو زيد : زَهَى وأَزهَى، ولم يعرف الأصمعي أَزهَى[٤٦] انتهى[٤٧].

وقد نظمت ما رتبه في القاموس فقلت:

لقد عَدّ في القاموس عشرًاوواحدًا — لأسماء تمر[٤٨]النخل قدصحّ مَحسُوبُ
فَأَوّلُهُ طَلْعٌ سَيابٌ خَلالُهُ — ويَعقبُهُ بسُرٌ مُخَطَمٌ مَجنُوبُ
مُوكَتٌ مسبوق المخَطَم قد أتى — على وفق ترتيبٍ ويتلوه تُذنوبُ
جُميسة يتلوه وثعدة بعدهُ — كذا رطبٌ تمرٌ به تَمّ مطلوبُ

[2] ومَجنُوبٌ صفة لمُخطَّم لامعدود، وأسقط (بَغوٌ) لكونه في حكم الخَلال،وقد نظمت ما رتبه القاضي عياض فقلت :

وأسماءُ ثمار[٤٩] النخلِ سبعٌ كما — عياضٌ زكى مثوىً وقد صحّ معدودُ حكى
فَأوّلُها طَلْعٌ واغريضٌ بعدهُ — كذا بَلحٌ بُسرٌ به طابَ مَحرودُ
ويَرُوقُهُ زهوٌ كذا رطبٌ حَلى — ويعقبُهُ تمرٌ به تمّ مقصودُ

وقد نظمت ما رتبه الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، فقلت:

وأسماءُ ثمار[٥٠] النخلفي العَدّ سبعةٌ — حكاها بليغٌ طيّبَ اللهُ مثواهُ
فَطلعٌ وكافورٌ خَلالٌ مُرَتبًا — كذا بلحٌ بُسرٌ وقد طَابَ حلواهُ
كذا رطبٌ تمرٌ به تَمّ أمرُهَا — وأهَلُ اللُغَا قالوه لاتَعدُ فحواهُ

تمت[٥١] الرسالة المفيدة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد، وآله

والحمد لله رب العالمين.[3] .

خاتمة:

في نهاية عملنا هذا يمكننا إجمال أهم النتائج بالآتي:

1- يُعد بدر الدين القرافي أحد أبرز علماء عصره على العموم،ورئيس علماء مذهبه على الخصوص.

2- ألّف بدر الدين القرافي الكثير من الكتب والرسائل في علوم الشريعة الإسلامية،واللغة العربية فضلا عما نظمه من أشعار .

3- يُعد بدر الدين القرافي أول من افرد رسالة حاول أن يحصر فيها أسماء ثمار النخل ويبين رتبة البلح بينها،أما من سبقه فقد تحدث عن شجرة النخل بشكل عام.

4- على الرغم من أهمية ما قدمه بدر الدين القرافي في رسالته هذه إلا أنه قد فاته الكثير مما ذكر في بطون كتب اللغة من أسماءٍ لثمار النخل،وقد استدركنا عليه خمسة وعشرين اسماً.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

(١) ينظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 3/88-89، وهدية العارفين 2/86، وأعلام للزركلي7/141، ومعجم المؤلفين12/108.

(٢) ينظر : المصادر أنفسها.

(٣) ينظر : المصادر أنفسها.

(٤) ينظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر 3/88-89، وكف الظنون 1/358، 762، 1046/2، 1628، وإيضاح المكنون 2/102، وهدية العارفين 2/86، وألاعلام 7/ 141، ومعجم المؤلفين12/108.

(٥) ينظر :١٤١/٧.

(٦) خلاصة الأثر ١١٧/٢، ٣١٩، ٨٨/٣-٨٩.

(٧) ينظر: المصدر نفسه٨٩/٣.

(٨) ينظر:المصدر نفسه٨٨/٣.

(٩) ينظر:كتاب النخلة، مقدمة المحقق١٠٢-١٠٣.

(١٠) وردت بالتاء (تمار) والصواب ما أثبتناه، وهو ما سيذكره المصنف بعد قليل في متن الرسالة.

(١١) محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن أبي جمرة المرسي الأموي (ت٥٩٩هـ)، فقيه مالكي ولد ب (مرسية) تقلّد قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة له كتب منها : الإنباء بأنباء بني خطاب، وإقليد التقليد.ينظر : معجم المؤلفين ٢٨٦/٨، والأعلام ١٣٦/٢و٣١٩/٥.

(١٢) ينظر :القاموس المحيط ٩٤٣.

(١٣) الصحاح :١٠٥ وينظر : مختار الصحاح ٢٥/١، واللسان٤١٤/٢، وتاج العروس ٣١٨/٦.

(١٤) أورد الناسخ بعد كلمة (انتهى)عبارة(و< مؤدى كلامهما>) زائدةً في غير موضعها وأشار الى هذه الزيادة بقوسين صغيرين في طرفي العبارة.

(١٥) القاموس المحيط ١٨٦، ولعله جعل البلح بين الخلال والبُسر ؛لأن البلح هو ((الخلال ما دام أخضر)) المحيط في اللغة ٢٢٩/١، فهو مرتبة بين الخلال والبسر .

(١٦) المصدر نفسه ٩٤٣، ولعله في ذلك يستند على سابقيه كالخليل وأبي حاتم السجستاني، والأزهري، وابن منظور، والفيومي والزَبيدي، الذين ذكروا أنّ الخلال يراد منه البلح بلغة أهل البصرة، فلا تعارض على ذلك بين النصين، ولا وجه لما ألمح به المصنف من اعتراض . ينظر: العين١٤١/٤، وكتاب النخلة ١٤٦، وتهذيب اللغة ٣٠٣/٦، واللسان ٢٢٠/١١، والمصباح المنير ٦٠/١، وتاج العروس ٤٣٢/٢٨.

(١٧) علي بن محمد المنوفي (ت ٩٣٩هـ) المصري مولدا، الشاذلي طريقة وبها عرف(نور الدين، أبو الحسن) فقيه، محدث، نحوي، لغوي، ولد بالقاهرة وتوفي بها، له تصانيف كثيرة منها: عمدة السالك على مذهب مالك، وتحفة المصلي، وشفاء العليل في لغات خليل . وهو الذي اعتمده المصنف . ينظر: معجم المؤلفين ٢٣٠/٧، والأعلام ١١/٥.

(١٨) وهو في فروع المالكية، لخليل بن إسحاق الجندي المالكي، المتوفى (٧٦٧هـ) . ينظر:الدرر الكامنة ٢٠٧/٢.

(١٩) وردت في المخطوط (بعده) والصواب ما أثبتناه وبه يستقيم المعنى وعليه عبارة صاحب المغرب في ترتيب المعرب إذ يقول:((البلح قبل البُسر وبعد الخلال)) ٨٤/١.

(٢٠) ينظر:الصحاح ١٠٥، والقاموس المحيط ٣١٤.

(٢١) وهو مساواة الإرطاب البُسر بأن يبلغ نصفها ويسمى المناصف أيضا . ينظر:كتاب النخلة ١٤٨، والمخصص ١٢٣/١١، وتاج العروس ١٧٩/١٠.

(٢٢) الكافور وعاء الطلع وقشرها وبه يسمى الطلع أيضاً . ينظر : كتاب النخلة ١٣٩، والمخصص١٢٠/١١.

(٢٣) النص من شرح أبي الحسن الشاذلي على مختصر الشيخ خليل المسمّى (شفاء العليل في لغات خليل) ولم نقف عليه وما أورده مأخوذ من الصحاح ١٠٥، والقاموس المحيط ٣١٤.

(٢٤) القاموس المحيط ٣١٣.

(٢٥) ينظر: الصحاح ١٠٥.

(٢٦) وهو انعقاد الطلع حتى يصير بلحا، وهو (السيّاب) بالفتح والتشديد (والسَياب) كسحاب، بالفتح والتخفيف، و(السُيَّاب) كزُمّان، ومنهم من جعله لغة وادي القرى في البلح، وقال قوم: بل (السياب) البلح الذي قد ذبل وريحه يستطاب ينظر : كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٦، وجمهرة اللغة ١٥٦/١، والمحيط في اللغة ٢٨١/٢، وتهذيب اللغة ٦٨/١٣، والصحاح ٥٢٧، والمخصص ١٢١/١١، والمحكم ٥٨٨/٨، واللسان١٩/٣، وتاج العروس ٨٨/٣.

(٢٧) وهو اخضرار البلح واستدارته قبل أن يشتد بلغة أهل نجد.ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٦، والمحيط في اللغة ٩٩/٢، وتهذيب اللغة ٢٨٦/١٢، والصحاح١٥٩، والمخصص١٢١/١١، والمحكم ٣٢٤/٧، واللسان ١٠٤/١١، وتاج العروس١٩٣/٢٨.

(٢٨) البغوة:الثمرة قبل أن يتم نضجها ويستحكم يبسها، وخصّها أبو حنيفة بالبُسر إذا كبرت شيئاً، وقيل بل :البغوة:التمرة التي اسود جوفها وهي مرطبة، أي :قبل أن يستحكم يبسها. ينظر: المحيط في اللغة ٤٤٢/١، ومقاييس اللغة ٢٧١/١، والمخصص ١٢١/١١، والمحكم ٧٦/٦، واللسان٧٥/١٤، وتاج العروس ١٧٧/٣٧.

(٢٩) المُخطم من التمر الذي صارت فيه خطوط وطرائق .ينظر:المحيط في اللغة ٣٤٥/١، ومقاييس اللغة ١٨٩/٢، والصحاح ٣٠٥، والمخصص١٢١/١١، والمحكم ١٢٩/٥، واللسان ١٨٨/١٢، وتاج العروس١٧٩/١٠.

(٣٠) التوكيت ظهور أدنى سواد أو صفرة بنقط من الإرطاب على رأس البُسرة، فيقال فيه : بُسر مُوكت، وبعضهم جعلها بالباء(موكب) والصواب ما تقدم.ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٨، وتهذيب اللغة ١٨٣/١٠-٢١٨، والصحاح ١١٥٧، والمخصص١٢٢/١١، وأساس البلاغة ٢٥/٢، واللسان٨٠٣/١، وتاج العروس١٣٥/٥.

(٣١) هو البُسر الذي أرطب من أذنابه، وهو (التَّذنوب) بالفتح، والضم فيه لغة بني أسد وبها ضبط المصنف اللفظ. ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٨، وجمهرة اللغة ٣٠٦/١، والصحاح٣٧٦، والمخصص١٢٣/١١، والمحكم٨٠/١٠، واللسان٣٩٠/١، وتاج العروس٤٤٠/٢-٤٤١.

(٣٢) هي البُسرة التي أرطبت كلها وهي صلبة لم تنهضم بعد فإذا لانت فهي ثعدة. ينظر: تهذيب اللغة ١١٧/٢، والصحاح١٨٧، والمخصص١٢٣/١١، واللسان١٠٤/٣، وتاج العروس٤٦٦/٧-٥١٤/٥.

(٣٣) هي البُسرة التي أرطبت كلها ولانت بعد أن كانت صلبة لاتنهضم. ينظر: كتاب النخل والكرم٧٧، وأدب الكاتب ٨٠/١، وتهذيب اللغة١١٧/٢، والصحاح١٣٨، والمخصص ١٢٣/١١، والمحكم١٤٠/١، واللسان ١٠٤/٣، وتاج العروس٤٦٦/٧-١٧٩/١٠.

(٣٤) وهي البسرة التي نضجت كلها حتى تخلع قشرها من رطوبتها وتسمى المنسبتة. ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، والمحيط في اللغة١٠/١، وتهذيب اللغة ١١٥/١، والصحاح٣١٢، والمخصص١٢٣/١١، والمحكم١٤٠/١، واللسان٧٩/٨، وتاج العروس ٥٢٠/٢.

(٣٥) وهو الرطب الذي أرطب بسره أجمع ينظر:العين٢٦٧/٢، والمحيط في اللغة ٣٨/١، ومقاييس اللغة ٣٣٥/٥، والصحاح ٩٩٣، والمخصص١٢٣/١١، والافعال٢٠٥/٣، واللسان٢٨٩/١٥، وتاج العروس٥٤٤/٣٩.

(٣٦) وردت في المخطوط (الألوف) والصواب ما أثبتناه.

(٣٧) القاموس المحيط ٣١٤.

(٣٨) عياض بن موسى بن عياض، عالم المغرب الحافظ، ولد سنة (٤٧٦هـ)، له كتب منها : الشفاء وطبقات المالكية وشرح مسلم والمشارق في الغريب وشرح حديث ام زرع وغير ذلك توفي بمراكش (٥٤٤هـ) . ينظر:طبقات الحفاظ، للسيوطي ٤٧٠/١.

(٣٩) هو ما يتشقق عنه الطلع من الحبيبات البيض، وقد شبه به البرد، وقد قيل كل أبيض يقال له الاغريض، وبعضهم يطلق عليه : الغيض والغضيض، فالاغريض ما في جوف الطلع . ينظر: جمهرة اللغة ١٤٦/١، وتهذيب اللغة ١٤٦/٨، والصحاح٧٧١، والمخصص١٢٠/١١، والمحكم٣٥١/٥، واللسان ٢٠٢/٧، وتاج العروس ٤٦٠/١٨.

(٤٠) لم نقف على نصه فيما توافر لدينا من كتبه (إكمال المعلم بفوائد مسلم، والرائد في شرح حديث أم زرع، ومشارق الأنوار)، وإنما وقفنا على نص مقارب له في شرح الخرشي على مختصر خليل في فصل الغسل وتمامه: ((..لأنه قد قيل إن الإنسان

يشبه التمرة لان لها سبع درجات : طلع واغريض وبلح وزهو وبسر ورطب وتمر)) ٣٥٥/٢.

(٤١) أكثر أهل اللغة على أن الزهو اصفرار أو احمرار يلحق البُسر، فهو تغيير يلحق البسر فهو متأخر عنه.ينظر : كتاب النخل والكرم، للأصمعي ٧٧، وتهذيب اللغة ١٩٧/٦، ومقاييس اللغة ٣٠/٣، والصحاح٤٦٠، وأساس البلاغة ٢٧٩/١، واللسان٤٤٩/٢.

(٤٢) ينظر: شرح مختصر خليل، للخرشي ٣٥٥/٢، ومنح الجليل في شرح مختصر خليل ٤٦٣/٢.

(٤٣) ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وتهذيب اللغة ١٩٧/٦، وأساس البلاغة ٢٧٩/١، واللسان٤٤٩/٢.

(٤٤) ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم ١٦٧/٥، ومشارق الأنوار ٦١٤/١، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٥٦/١٣، وعمدة القاري ٥/١٢، وتحفة الاحوذي ٣٥٢/٤.

(٤٥) إلى ذلك ذهب الخليل في العين (٧٤/٤)، ونقل صاحب التهذيب نصا تمامه : ((وروى ابن شميل عن أبي الخطاب انه قال :لايقال إلا يزهي النخل، قال : وهو أن يحمر أو يصفر، قال : ولا يقال: يزهو)).١٩٧/٦.

(٤٦) ابو زيد:سعيد بن اوس بن ثابت صاحب كتاب النوادر روى القراءات عن ابي عمرو بن العلاء توفي عام٢١٥هـ و لم نقف على نصه في كتابه النوادر ينظر: البلغة٢٣/١ والأعلام٩٢/٣ومعجم المؤلفين٢٢٠/٤.

(٤٧) يبدو انه اعتمد في ذلك على بعض المصادر التي أوردت إنكار الأصمعي (أزهى) كمقاييس اللغة ٣٠/٣، والصحاح ٤٦٠، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٥٦/١٣ .وإليك تحقيق ما ورد في كتب اللغة عن ذلك:

١- اثبت الجمهور ثلاثي ورباعي هذا البناء (زها وأزهى) ومنهم من جعل الثاني لغة.

٢- نقل صاحب التهذيب نصا لأبي عبيد عن الأصمعي تمامه ((أبو عبيد عن الأصمعي : إذا ظهر في النخل الحمرة، قيل : أزهى يُزهي، وهو الزَهو، وفي لغة أهل الحجاز : الزُهو)) ١٩٧/٦فالاصمعي هنا يصرح بالرباعي ولا ينكر.

٣- فرّق ابن الأعرابي بين دلالة الثلاثي والرباعي بقوله: ((زها النبت إذا نبت ثمره وأزهى إذا احمر أو اصفر)) تهذيب اللغة ١٩٧/٦. ينظر: لما تقدم: العين ٧٤/٤، وتهذيب اللغة١٩٧/٦، والصحاح٤٦٠، ومقاييس اللغة ٣٠/٣، والمحكم ٤٠٩/٤، وأساس البلاغة ٢٧٩/١، ومختار الصحاح ١١٧/١، وتاج العروس ٢٣٥/٣٨-٢٣٧.

(٤٨) أورد الناسخ يسار الصفحة (لأسماء تمار) فوقها (خ) مشيرا إلى ورودها في نسخة أخرى بهذا الشكل .

(٤٩) وردت بالتاء والصواب ما أثبتناه.

(٥٠) وردت بالتاء والصواب ما أثبتناه.

(٥١) بقوله تمت ختم المصنف رسالته، وقد توافرت على جمع من أسماء ثمار النخل تتمثل بالاتي : (الطلع، والكافور، والخلال والبلح، والبسر، والرطب، والسياب، والجدال، والسراد، والبغو، والمخطم، والموكت، والتذنوب، والجميسة، والثعدة، والخالع، والخالعة، والمنصف، والمعو، والاغريض، والزهو، والتمر،).

وهي تتباين بين الاسم الصريح والوصف الذي يعبر عن حالات نضج التمر، وتحوله من مرتبة إلى أخرى والذي يلحظ على ما تقدم أن المصنف قد فاته جمع من الأسماء والأوصاف استدركتاها عليه من كتب اللغة وهي :

١- (الرِمخَة) والجمع :رُمَخ ورُمخ، البلح بلغة طيء، ينظر: تهذيب اللغة ١٦٥/٧، واللسان١٩/٣.

٢- (السَدى) ويمد (السداء) بلغة أهل المدينة، وهو البلح الأخضر، ومنهم من جعله البلح الذاوي . ينظر: المحيط في اللغة ٢٧١/٢، والمخصص ١٢١/١١، واللسان ٣٧٧/١٤.

٣- (البقيح) البلح عن كراع ينظر: اللسان٤١٤/٢.

٤- (الآس) البلح ينظر:اللسان١٧/٦.

٥- (الحَصَل) البلح قبل أن يشتد وتظهر تفاريقه ينظر: كتاب النخلة ١٤٦، وجمهرة اللغة ٥٤٢/١، ومقاييس اللغة ٦٨/٢، والافعال٢١٨/١، واللسان١٥٣/١١.

٦- (المُجَزِ ع) وهو من الرطب : الذي بلغ الارطاب من أسفله غالى نصفه ومنهم من جعله إلى ثلثيه . ينظر: مقاييس اللغة ٤٥٣/١، والمخصص١٢٣/١١، وأساس البلاغة ٩٢/١، واللسان ٤٨/٨.

٧- (المَكرَة) هي التي دخلها كلها الارطاب، وهي صلبة لم تنهضم بعد وتسمى جمسة أيضا، وقيل هي الرطبة الفاسدة، ومنهم من جعلها البسرة المرطبة ولاحلاوة لها . ينظر :المخصص١٢٣/١١، واللسان١٨٤/٥.

٨- (الثغر) وهو انتهاء نضج البسر .ينظر :المخصص١٢٣/١١.

٩- (المُنسبت) وهو ما جرى فيه الارطاب كله وتسمى (المنسبته) وهي الخالع والخالعة أيضا التي خلعت قشرها من تمام ارطابها. ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٨، والمحيط في اللغة١٠/١، واللسان٣٩/٢.

١٠-(المُثَلّث) هو الذي رطب ثلثه . ينظر: كتاب النخلة ١٤٨، والمخصص١٢٣/١١.

١١-(الغساة) وهو (الغاسي) و (المغسوسة) : منهم من جعله البلح فعم به ومنهم من قصره على صغار البلح، ومنهم من قال :هي البسرة التي أرطبت من حول تفروقها وهو أردأ الرطب . ينظر: المخصص ١٢٣/١١، واللسان ١٥٤/٦-١٢٦/١٥.

١٢-(المُعضّدة): البسرة التي أرطبت من وسطها، ينظر: المخصص١٢٣/١١.

١٣-(الشُمطانة) :البسرة التي أرطب جانب منها ليس غير ويبقى سائرها يابسا ينظر: المخصص١٢٣/١١، واللسان٣٣٦/٧.

١٤-(المُحلقِن أو الحلقانه) :البسرة التي بلغ الارطاب ثلثيها وقيل بل بعضها.ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤٨، والمخصص١٢٣/١١، ووالسان ٥٩/١٠.

١٥-(الوليع) هو الذي ينشق عنه الكافور فهو ابيض كالبرد، وهو الذي يقال له (الاغريض) أيضا . ينظر: كتاب النخلة ١٤٥، ووالمخصص١٢٠/١١، واللسان٤١/٨.

١٦- (الضَحك) الطلع:سمي ضحكا تشبيها له بالثغر في بياضه عند الضحك . وقيل : هو : البلح. ينظر:كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة ١٤١، والمحيط١٧٢/١، وتهذيب اللغة ٥٦/٤، والمخصص١٢٠/١١ وأساس البلاغة ٣٧٢/١، واللسان ٤٦٠/١٠.

١٧- (الشّقحة) اذا اخضر البلح وتلون قليلا إلى الحمرة قيل قد تشقح، وقيل هو يقابل الزهو في لغة أهل الحجاز . ينظر: كتاب النخل والكرم ٧٧، وكتاب النخلة١٤٧، ووالمخصص١٢٢/١١، اللسان٤٩٩/٢.

١٨- (القشم) البسر الأبيض الذي يؤكل قبل أن يدرك وهو حلو، وقيل هو رديء التمر. ينظر: تهذيب اللغة ٢٦٤/٨، والمخصص١٢٢/١١، واللسان ١٢/ ٤٨٤.

١٩- (الحانط) هو البسر الذي اشتدت حمرته.ينظر:كتاب النخلة ١٤٤-١٤٧.

٢٠- (القانيء)هو البسر الذي انتهت حمرته. ينظر:كتاب النخلة .١٤٤

٢١- (القالِب) هو البسر الأحمر.ينظر:المخصص١٢٢/١١، واللسان٦٨٩./١

٢٢-(المُنَمّل) يقال: بسر منمل، وهو الذي قد بَرِش وشقح الحمرة. ينظر: كتاب النخلة.١٤٨

٢٣- (المُخلِفَة) هي البسرة التي بلغ الترطيب حنجورها . ينظر: كتاب النخلة .١٤٨

٢٤- (المُعنّقة) وذلك إذا بلغ الترطيب قريبا من قمعها حتى يبقى منها حول القمع مثل الخاتم. ينظر: كتاب النخلة.١٤٨

٢٥- (المَهوة) وهي البسرة التي نضجت كلها فصارت رطبة، ويقال لها أيضا : المنسبتة والمعوة . ينظر: كتاب النخلة ١٤٨، والمخصص١٢٣/١١، واللسان٢٩٩/١٥.

المصادر:

1- **أدب الكاتب** :لابن قتيبة (ت276هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، الطبعة الرابعة، 1963.

2- **أساس البلاغة** : للزمخشري (ت538هـ)، دار الفكر، 1979.

3- **الأعلام** :قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والعجم والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة، 1984.

4- **الأفعال** :علي بن جعفر السعدي (ت515هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

5- **إكمال المعلم بفوائد مسلم** :للقاضي عياض(ت544هـ)، تحقيق:د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، الطبعة الثالثة، 2005.

6- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**: إسماعيل بن باشا البغدادي، وكالة المعارف، الطبعة البهية، 1954.

٧- **البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة**: محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، تحقيق : محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الطبعة : الأولى، الكويت، ١٤٠٧

8- **تاج العروس** :محمد مرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت.

9- **تحفة الاحوذي** :محمد عبد الرحمن المباركفوري (1353هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

10- **تهذيب اللغة** : أبو منصور الأزهري (ت370هـ)، تحقيق : محمد عوض مرعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001.

11- **جمهرة اللغة** :لابن دريد (ت321هـ)، تحقيق :رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1987.

12- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** :للمحبي، دار صادر، بيروت، د.ت.

13- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة** :احمد بن علي العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الثانية، 1972.

14- **شرح مختصر خليل** : لخرشي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

15- **شرح النووي على صحيح مسلم** :أبو زكريا النووي (ت676هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1392.

16- **الصحاح** :للجوهري، اعتنى به : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، 2007.
17- **طبقات الحفاظ**:للسيوطي(ت911هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1403.
18- **عمدة القاري** : بدر الدين العيني (ت855هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
19- **العين** : للخليل بن احمد (ت175هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي، د.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال .
20- **القاموس المحيط**:للفيروز آبادي (ت718هـ)، تحقيق :د.يحيى مراد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.
21- **كتاب النخلة** :لأبي حاتم السجستاني، ضمن نصوص محققة في اللغة والنحو، د.حاتم صالح الضامن، 1991.
22- **كتاب النخل والكرم** :للأصمعي، منشور ضمن كتاب (البلغة في شذور ائمة اللغة) د.اوغست هفنر، والأب :شيخو اليسوعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2006.
23- **كشف الظنون**:حاجي خليفة (ت1067هـ)، استانبول، 1941.
24- **لسان العرب** :لابن منظور(ت711هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، د.ت.
25- **المحكم والمحيط الأعظم** :لابن سيده (ت458هـ)، تحقيق:عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2000.
26- **المحيط في اللغة**:للصاحب بن عباد(ت385هـ)، تحقيق:الشيخ محمد حسن آل ياسين، الجمهورية العراقية، دار الرشيد، 1981.
27- **مختار الصحاح** :محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق :محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995.

28- **المخصص** :لابن سيده، دار الفكر، د.ت.
29- **مشارق الأنوار** :للقاضي عياض، المكتبة العتيقة، دار التراث، د.ت.
30- **المصباح المنير** :احمد بن محمد الفيومي (ت770هـ)، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
31- **معجم المؤلفين**:عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
32- **المغرب في ترتيب المعرب** :للمطرزي(ت616هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1328.
33- **مقاييس اللغة**:لابن فارس (ت395هـ)، تحقيق :عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1999.
34- **منح الجليل في شرح مختصر خليل** :محمد عليش، دار الفكر، بيروت، 1989.
35- **النوادر في اللغة**:لأبي زيد الأنصاري (ت215هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1967.
36- **هدية العارفين** :إسماعيل باشا البغدادي، استانبول، الطبعة الثالثة، 1951.

الواقعية بين التنظير والتطبيق في أدب الجاحظ

أ.م.د. عبدالجبار سالم عبدالكريم

جامعة تكريت/كلية التربية للبنات/قسم اللغة العربية

أولاً :- الواقعية في التنظير :-

١- واقعية الحدث :

حين أراد الجاحظ أن يرسم صورة الانسان في سلوكه المتعدد المناحي . أراد أن تكون الصورة دقيقة، ومحتملة الوقوع في السلوك البشري، فإذا ما خرجت الصورة عن ذلك، فأنه يرفضها وياباها . فقد ذكر في البخلاء، نادرة عن أحد البخلاء بلغ من بخله أنه لايأكل الحاجة التي يشتهيها، بل يكتفي ان يشير إليها بلقمة الخبز، ويأكل الخبزة متوهماً أنها قد غمست بالشيء الذي يشتهيه ولكنه لبخله لايريد أن ينقصه بالاكل .

ويعلق الجاحظ على هذا الحدث القصصي بما يأتي :-

((ولا يعجبني هذا الحرف الاخير . لان الافراط لا غاية له وأنما ما كان في الناس وما يجوز فيهم مثله، أو حجة، أو طريقة . فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره، وأما سائر حديث الرجل فأنه من هذه البابة))[١].

فالجاحظ يريد أن يقول في هذا النص القصير المهم عدة حقائق :-

أ- إن الموضوع يجب أن لا يخرج من واقعية السلوك الى الافراط الذي يبدو مبالغاً فيه .

ب- إن الموضوع يجب ان يصف السلوك الذي يقع بين بني البشرأي (ما كان في الناس) فعلاً.

ج- إن الموضوع يجب أن يصف السلوك الذي يمكن ان يقع بين بني البشر أي . (مايجوز فيهم مثله).

د- إن الموضوع قد يتخذ أسلوب الحجة والدفاع عن سلوك الشخصية وهذا أخيراً يخضع للمنطق البشري المحتمل .

ويمكن أن نضيف الى واقعية الحدث : إن الحدث الشاذ والغريب الذي يعتمد على ظاهرة خاصة، أو مظهر معين، أو سلوك غريب، ولكنه واقعي قد تعجز اللغة عن التعبير عنه، أو نقله او رسمه لا لأن الحدث غير واقعي، ولكن لان الحدث نادر الوقوع ولذلك فأنه يقول :-

((وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينيك، لان الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا ياتي لك على كنهه، وعلى حدوده، وحقائقه))[٢].

وفي سبيل أن يتضح قول الجاحظ هذا فلا بأس أن يسجل الحدث أو الصورة التي أستوجبت هذا التعليق . قال الجاحظ :-

((ولم أرَ مثل ابي جعفر الطوسي، زار قوماً فأكرموه وطيبوه، وجعلوا في شاربه وسبلته غالية، فحكته شفته العليا، فأدخل أصبعه فحكها من باطن الشفة مخافته أن ياخذ من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق .هذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينيك...الخ))[٣].

هذا النص كأنه دعوة مبكرة للتصوير الفني.

٢-واقعية الحوار :

هناك ملاحظات أرى من الضروري أن أقدمها بين يدي الموضوع في سبيل ألا يتهم الدارس في أنه وضع فرضيات ليس لها بعد واقعي ومنها إن المجتمع العربي قبل الاسلام كان حريصاً كل الحرص على جعل لغته نقية خالصة بعيدة عن اللحن والركاكة، لا ضعف فيها من تقديم لفظٍ في غير محله أو تأخيرعبارة الى غير مكانها، وزيادة حشو لا فائدة فيه، أو حذف لغير سبب نحوي ومن غير تأثير بعجمة، أو لحن عامي، حتى اصبح الاحتفاظ بأصول اللغة العربية وقواعدها وصيانتها من اشكال العامية، والعجمة قانوناً يميز بين متانة التراكيب، وبلاغة الاداء والاساليب المصطنعة المتكلفة التي تبتعد عن الطبع والبساطة، إذ لم يتكلف العربي في عصر ما قبل

الاسلام، القول فيما لا يشعر به، ولا تكلف التعقيد اللفظي، والتصنع البديعي فيما شعر به، بل تجنب الالفاظ المهجورة، والعبارات المسجعة . إلا ما يجيء عفو الخاطر .

لهذا عكس في نتاجه الادبي حرصه على ما ورثه عن آبائه من مظاهر الحياة العقلية والشعورية ومقدار سعيهم الى التطور.

وهناك إتجاه يذهب الى القول بتفوق العرب قبل الاسلام في الحضارة والمعرفة والشعر بما ترك تأثيراً متميزاً في الشعوب الاخرى[٤] . ومن هنا وجدنا أن البلاد العربية قبل الاسلام كانت تزخر بحياة حضارية وفكرية وتزهر بالادباء ومعارفهم الانسانية[٥] .

ولأسباب دينية وأقتصادية وسياسية أرتفعت لهجة قريش الى مرتبة لغة أدبية، يصوغ فيها العرب أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم حتى أجمع علماؤنا القدامى،على أن قريشاً أفصح لغات العرب، وابينها عما في النفس[٦].

لبعدها عن بلاد العجم، فصانها ذلك من الفساد والتاثر بكلام الأعاجم[٧] عند ذلك كنا لا نجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة[٨] .

ولما جاء الاسلام، أستمر علماء اللغة، والرواية القدماء يحافظون على جوهر اللغة، محافظة تشهد لهم بالدقة والتحري والتوثيق، فنقلوا إلينا الادب العربي بكل صفاته الجمالية والاسلوبية[٩]. واستطاعوا بمهارة أن يميزوا صحيحه من زائفه على نحو ما فعل ابن سلام الجمحي[١٠].

ولا نكاد نمضي في نهاية العصر الاسلامي ومطلع العصر الاموي حتى يظهر الخلاف عند العرب بين أنصار الجاهليين والاسلاميين، وكان الشعراء الذين يخرجون على المحافظة اللغوية والدينية يتعرضون لسخط علماء الدين ورواة اللغة الذين كانوا يكرهون كل لفظ دخيل وينفرون من كل اسلوب ركيك[١١] لا بل كانوا يسجلون الشاذ والنادر من الالفاظ[١٢] والخروج عن القياس الذي يقتضيه الصرف العربي[١٣].

على أن من المهم ان نلاحظ أن الخلاف بين القدماء والمحدثين أيام بني أمية لم يكن من العنف والوضوح بحيث يستحيل الى صراع حقيقي، ذلك لأنه كان يدور حول ((خروج بعض الشعراء على سنن العرب في لغتها وأعرابها، وملاحقة علماء العربية، ورواة اللغة أياهم على هذا الخروج[١٤].

من جانب أخر فان حياة العرب في العصر الاموي كانت أمتداداً لحياة الجاهليين وشعرهم الذي عاد في أواخر القرن الاول الهجري ليفرض أحترامه على الشعراء الامويين ويستهوي ذوق النحاة واللغويين على أختلاف ميولهم وأتجاهاتهم[١٥].

ثم إن الامويين على كثرة ثروتهم، وضخامة سلطانهم، وتطور أفكارهم، كانوا بادين في لغتهم وسيرتهم الظاهرة،على أن العباسيين كانوا قد قطعوا الصلة بينهم وبين حياة البادية[١٦]. لذلك فأن حدة الصراع الحقيقي كانت قد نشبت في العصر العباسي على الشعراء المحدثين من العباسيين[١٧] إذ ظهرالصراع بعينه في العصر العباسي ولاسيما في منتصف القرن الثاني الهجري الى درجة أنه كان مملوءاً بالخلاف بين أنصار القديم والحديث وقد أختلف الشعراء العباسيون، وأختلف معهم الادباء واللغويون في الألفاظ والمعاني والأنواع الفنية[١٨] وظهرت الحياة العباسية في صور ومظاهر جديدة لم تكن معروفة أو مألوفة من قبلُ.

إذ حدث في العصر العباسي تطور حضاري كبير شمل كل جانب من جوانب المجتمع الذي أنفتح على عوالم جديدة من الثقافة العربية فضلاً عن الحرية الفكرية التي وجدها العلماء والادباء في ساحة العلم والمعرفة[١٩].

ثم أشتداد الصلات الادبية والاجتماعية بين الامة العربية والامم الاخرى كالفرس والروم والترك والهنود . فكان من آثار ذلك كله أن ظهر مجتمع عباسي له ثقافة جديدة، وتفكير جديد، وله حضارة تميل به عن بداوة الاعراب[٢٠].

فأنتج الشعراء والكتاب العباسيون أدباً جديداً لم تنتجه تلك الحياة البدوية في الجاهلية والاسلام، وتلك الحياة البدوية المتحضرة أيام بني أمية[٢١] كما أن التفنن في حياة المجتمع العباسي لم يقف عند حدود السياسة والاقتصاد وأنواع الترف والزينة

والتأنق في معاني الشعر والنثر وأنما تجاوز هذا كله الى أن يمتلئ الادب بكثير من الحقائق العلمية والفلسفية والمصطلحات والالفاظ الاعجمية[٢٢].

ويبدوا أن ظاهرة الازدواج اللغوي لدى أديب العصر العباسي كانت مسألة لا تثير الحرج له إطلاقاً وإنما كان بعضهم قد ابتعد – احياناً – عن السليقة . وبدا في لغته اللحن وإستخدام الحوار العامي وبسبب ذلك واجه الكتاب ثنائية اللغة في الحوار فهنالك الفصحى البدوية . وهي لغة الادب الراقي والشعراء والاعراب وهنالك العامية في الامصار وهي لغة الشعب وقد واجه الجاحظ هذه الثنائية في أثناء نقله حوار شخصياته، فدعا الى ابقائها في سبيل الصدق الواقعي معاً ولذلك فقد عرض آراءه النظرية في الموضوع لمن أراد ان يتعامل مع ادب الحياة اليومية . ولما كانت النادرة هي إحدى وسائل تصوير الشخصيات فقد عرض الجاحظ عدداً من الافكار والاراء حولها، تكاد كلها تكرس ثنائية اللغة فيما يخص الطبقات الاجتماعية المختلفة .

فحينما نقل كلام الشخصيات الاعرابية والبدوية رآى أنه يجب الالتزام بلغة هذه الشخصيات ويذكر الجاحظ هذا الرأي :-

((ومتى سمعت – حفظك الله – بنادرة من كلام الاعراب فأياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها . فأنك أن غيرتها بأن تلحن في إعرابها ومخارج ألفاظها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطعام فأياك أن تستعمل فيها الاعراب أو تتخيرلها لفظاً حسناً وتجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها، ومن الذي أرُيدت له ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها))[٢٣].

ويطالعنا بملاحظته الاخيرة حول واقعية الحوار العامي فيما يخص النوادر التي تعتمد على الحوار فيقول :-

((وأنا أقول إن الاعراب يفسد نوادر المولدين كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب . لان سامع ذلك إنما اعجبته تلك الصورة، وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فإذا أدخلت على هذا الأمر – الذي إنما اضحك بسخفه وبعض كلام العجمة

الذي فيه – حروف الاعراب والتحقيق، والتخفيف والتثقيل، وحولته الى صورة ألفاظ الاعراب والفصحاء، وأهل المروءة والنجابة . انقلب المعنى مع إنقلاب نظمه وتبدلت صورته ...))[٢٤].

ويرى أن أي تغيير في الحوار الفصيح والحوار العامي قد يؤدي الى عكس الغرض الذي قصد إليه الكاتب ويبين ذلك بقوله :-

((وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ولانه داخل في باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الاعراب، انقلب عن جهته وإن كان في لفظه سخف وأبدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على أنه يُسر النفوس بكربها وياخذ باكظامها))[٢٥] ولذلك فأن الجاحظ لم يتورع عن نقل الكلام الملحون في سبيل واقعية الحوار ودقة الوصف، فقد ألح مرة كلب على النظام فخاطبة قائلاً :-

((إن كنت (سبعٌ) فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والقناص وإن كنت بهيمة فأسكت عن سكوت البهائم))[٢٦].

ثم يعلق على نقله الحوار العامي بقوله :-

((ولا تنكروا قولي، وحكايتي بقول ملحون من قولي : (إن كنت سبعٌ) ولم أقل (أن كنت سبعاً) وأنا اقول إن الاعراب يفسد نوادر المولدين))[٢٧].

٣- واقعية الحكم النقدي:

كما قلنا سابقاً إن سيطرة العقل والمنطق على الفكر الاعتزالي وعلى الجاحظ كان خلف هذه النظرة الواقعية الجادة . وإن العصبيات الفنية التي سادت في فترات مختلفة من تاريخ النقد العربي، لا تثبت للنقاش والتحليل العلميين فلا عصبية القديم ولا عصبية العِرق ولا العصبية القبلية يمكن أن تقف لنقاش العقل المنطقي، ولذلك فإن الجاحظ أوضح مقياس الواقعية الفنية الذي يأخذ بالفن الجيد وسيلة من وسائل التفضل والمعايشة وكان هذا المقياس الفني صيحة جديدة في تاريخ الادب العربي[٢٨] كما إن أقربها الى الواقع وما زال كذلك لهذا فإن الجاحظ يؤسس هذه الواقعية الفنية دون أي أهتمام بالزمن والقدم والعرق حيث يقول :-

((والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها، ان عامة العرب والاعراب والبدو والحضر من سائر العرب اشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والنائبة، وليس ذلك بواجب لهم في كل ماقالوه . وقد رأيت أناساً منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها . ولم ارَ ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي ولو كان له بصر لعرفَ موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان))[٢٩].

فالجاحظ في مقياسه الفني الواقعي يقرر :-

١- إن عامة العرب والاعراب وشعراء البادية والحضر أجود شعراً من المولدين ولكنه ليس شرطاً ملزماً . لذلك فأنه يقول ((وليس ذلك بواجب في كل ما قالوه)).

٢- إن البحث عن الجيد يجب أن يتم على أساس فنية النص بغض النظر عن العرق والزمن، ويوضح ذلك بقوله :-

((لو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان)).

وهو في مقياسه الفني الواقعي الذي يعتمد على جودة الموضوع وليس على العرق أو القدم يفضل أبياتاً لابي نواس على أبيات المهلهل إذ قال :-

((وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر المهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب))[٣٠].

ويرى أن هذا المنهج الفني هو الذي يجب أن يسود، لانه يقوم على اسس لا تقبل النقص وتعتمد على مقدار إجادة الشاعر وقدرته، وهو تفاوت يعترف به الناس لواقعيته، وكونه جزءاً من الطبيعة البشرية، ويعلل سبب تفضيل اراجيز أبي نواس بأنها تعتمد على معايشة أبي نواس لتجارب الطرد كما أنها تتميز بصياغة فنية عالية فقال :-

((وأنا أكتب رجزه [أي رجز ابي نواس] في هذا الكتاب لانه كان عالماً راويةً.

وقد لعب بالكلاب زمنا وعرف منها ما لم تعرفه الاعراب . وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاة في اراجيزه، هذا مع جودة الطبع، وجودة السبك

والحذق باللغة . وإذا تأملت شعره فضلته إلا أنه تعترض عليك فيه العصبية، أو ترى أن اهل البدو أبدع شعراً، وإن المولدين لا يقاربونهم في شئ . وإن أعترض هذا عليك فإنك لا تبصر الحق من الباطل مادمت مغلوباً))[٣١].

فواقعية الحكم النقدي عند الجاحظ تعتمد على النظر في الشكل والمضمون، وأن يتم ذلك على ما يؤمن به الناس، ويصدقه الواقع بأن التفاوت ممكن بين الشعراء ولكنه لا يقوم على الزمن أو العرق أو البداوة والحضارة والى ذلك أشار أبن قتيبة[٣٢].

ثانياً: الواقعية في التطبيق:-

نقصد بالواقعية في التطبيق، إنعكاس الواقعية في تصوير الحياة المادية ونشاطها الفكري، والنفسي والنقدي، أو التحليلي والبحث العلمي فأن غلبة العقل الناقد، والمنطق الجاد الذي يبعد العقل عن التناقض الظاهري والباطني، او القبول به هما اللذان يؤديان الى ظهور هذه الواقعية، ورفض الكذب، او المبالغة، ورفض قبولهما منهجاً .

وفي سبيل اعطاء صورة واضحة عن واقعية الجاحظ في أدبه فانا نرى أن نجزيءهذه الواقعية حسب مصدرها، الذات اوالحياة، أو حسب موضعها العلمي أو النفسي أو الفني .

١ - الواقعية الذاتية :

ونقصد بذلك تصوير الواقع من خلال الذات وليس من خلال التصوير عن طريق الرواية والنقل، وإن الواقعية الذاتية هي :- أهم ما يميز كاتباً من كاتب، وشاعراً من شاعر، وإن أدبنا العربي يفتقر-احيانا- الى الواقعية الذاتية فيما يخص حياة مفكريه، ولعلنا إذا ما أستثنينا أبا حيان التوحيدي[٣٣].

فأننا نجد أنه قلما ترك مفكر قديم ملاحظات تكشف عن مشاهداته أو ملاحظاته الخاصة أو ردود فعله ازاء الحياة، وكان الجاحظ في الواقع من أوائل الذين أهتموا بردود الفعل الشخصية في وصف الحياة بحيث كان يردد كثيراً في أدبه عبارة :-

(رأيت وشاهدتُ) لينقل لنا ما شاهده ويكفينا أن نتخيل أو نتصور ألفاظ الكاتب لترى الحياة كما هي على عصر هذا الكاتب .

فالجاحظ في النص الاتي ينقلنا من زمن حديثه في عمره الذي اقترب من مائة عام الى زمن طفولته وهو في الكتاب ما زال يقرأ القرآن الكريم على يد معلم الاطفال وأية فترة زمنية بين زمن الرواية وزمن روايتة وبينهما وبين قارئ هذا القرن واية واقعية ذاتية أكثر جمالاً ودقة وتصويراً ؟ حين قال :-

((وأنا حفظك الله تعالى – (رأيتُ) كلباً مرة في الحي ونحن في الكتّاب فعرض له صبي يسمى مهدياً من أولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه . فعض وجهه فَنَقَعَ ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه، وجانب شدقه، وترك مقلته صحيحه . وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع و(رأيته) بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتاب وليس في وجهه من الشعر إلا موضع الخيط الذي خيط فلم ينبح الى ان برئ ولاهر ولادعا بماء حتى إذا راه صاح : ردوه ! ولا بال جرواً ولا علفاً ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير، ولم أجد أحداً من تلك المشايخ يشك أنهم لم يروا كلباً قطُ أكلب ولا أفسد طبعاً، فهذا الذي (عاينت) واما الذي بلغني عن هؤلاء الثقاة فهو الذي قد كتبته لك ...))[٣٤].

فهذه الصورة الذاتية الواقعية تشعرنا بالثقة بما يرويه الجاحظ كما أنها تعطينا عدداً من الصور الجزئية الواقعية تكون بمجملها هذه الصورة الكبرى للحياة وهذه صورة ذاتية أخرى تصف سحر البصرة والحراس، والجاحظ حين خرج في طلب الحديث قال :-

((ولقد (خرجت) في بعض الأسحار في طلب الحديث فلما صرت في مربعة المحلة ثار الىَ عدة من الكلاب من ضخامها ومما يختاره الحراس . فبينا أنا في الاحتيال لهى وقد غشيننني إذ سكتن سكتةٌ واحدة معاً ثم أخذ كل واحد في شق، كالخائف المستخفي وسمعت نغمة أنسان، فانتهزت تلك الفرصة من أمساكهن عن

النباح فقلت : إن ههنا لعله إذ اقبل رجلان ومعهما كلب أرب ضخم... ولم(آت) كلباً قط أضخم منه فقلت :- أنهن إنما أمسكن عن النباح وتسترن من الهيبة له...))[٣٥].

٢- الواقعية الموضوعية:

نقصد بها كل ماورى الجاحظ من صور الحياة، أو الفكر من خلال اعتقاده بصحة وواقعية هذه الصور، أو جدة الموضوعات واضطر الجاحظ في سبيل الوصول بهذه الواقعية الى مداها الامثل ان يصوغ لها القواعد والحدود ويؤكد صدق او كذب الرواة للوصول بالقارئ الى واقعية خبرية صادقة في سبيل الوصول الى واقعية موضوعية في النقل والاخبار فقد وضع الجاحظ قاعدتين طبقهما على اخباره المروية التي يرفضها، فقد رفض ما تناقض واستحال، ما امتنع في الطبيعة فخرج عن طاقة الخلقة، واخذ بالواقعية المحكومة بقوانين الطبيعيات، أو المحسوسات))[٣٦].

وهو يرى أنه من الضعف العلمي في نقل الخبر العلمي أن يؤمن الكاتب أو الراوية بكل خبر يروى له، أو يسمعه ولذلك فانه يرى أن من عيوب الواقعية الموضوعية (عادة الاقرار والقبول)[٣٧].

ولذلك فأنه ينبه على خبر يسمعه عن صغير الكركدن أنه يطيل الاقامة في رحم امه الى الحد الذي يمكنه من أن يقتدر على الاكل فيخرج رأسه ليأكل ثم يعود الى مطمأنه في جوف الرحم . وهنا يناقش الجاحظ الموضوع بالعقل والمنطق فيقول :-

((ولا اقر أن الولد يخرج رأسه من مخرج أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه من فرج أمه ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في الطبيعة وأرى جوازه موهوماً غير مستحيل، إلا أن قلبي ليس يقبله ... ولستُ أبت بأنكاره وإن كان قلبي شديد الميل الى رده وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ولا يعرفونه إلا بالعيان الظاهر، والخبر المتظاهر))[٣٨].

ولذلك فأنه يرى أن واقعية الموضوع تحتاج الى حاسة فذَّة ترفض وتقبل مستندة الى قواعد المنطق، ومنطق العقل، ولهذا فهو يرى أن الجهلة والجمهور من العامة لا يستحسنون نقل او تلقي هذه الواقعية فيقول :-

((والعامة أسرع شئ الى التصديق))[٣٩].

وينقل الجاحظ بعض الواقعية الموضوعية النادرة التي لا يجدها إلا الباحث المتأمل في ثنايا الحياة المزدحمة، وفي مدن الحضارة، فهو يصور هذه الحقيقة عن تشويه الصبيان لغرض أستغلالهم، وأستعمالهم في الكدية، وهذه الحقيقة صورة واقعية أشار إليها مرتين في أثرين من آثاره فقال :-

((فأما الذي يجعل أولاد المكدين عمياناً وعرجاناً، وعمشاً وحدباً فهو يسمى: (المشعب). فلا أدري أيهم أعظم كفراً، وأقسى قلباً : الاباء أو الامهات الذين يسلمون أولادهم الى المعشب الذي ترك كل صناعة في الارض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه الذي لا يفارقه ؟ وأنا رأيتُ من هذه الصفة جماعة... وكتبت عنهم تصنيف المكدين))[٤٠].

وقال في مكان آخر:-

((والمشعب الذي يحتال للصبي حين يولد بأن يعميه او يجعله اعشم او اعضد ليسأل الناس به، وربما جاءت ب هامه وابوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل لانه يصير حينئذ عقدة وغلة، فاما ان يكتسبا به، واما ان يكرياه بكراء معلوم وربما أكروا اولادهم ممن يمضي الى افريقية، فيسأل بهم الطريق أجمع بالمحال العظيم فان كان ثقة مليئاً والا اقسام بالاولاد والاجرة كفيلاً))[٤١].

يمكن أن نقول ان كل روايات الجاحظ مرويات موضوعية قد توصل فيها الجاحظ الى قناعة راسخة بان مروياته عن الحياة يمكن الاطمئنان إليها، والثقة فيها عدا ما اثار الجاحظ الشك فيه وحوله .

٣- الواقعية النفسية:

وهذا يستدعي النظر في ملاحظات الجاحظ المنشورة في كتبه التي تحمل طابع الدراسة النفسية، وقد سجل الجاحظ ملاحظاته حول الطفولة مثلاً وحاول يعدد القدرات النفسية وهي أن يتميز ذكاء الطفل حسب سنه وعمره وهو يرى أن أبن سبع سنين يتميز بقدرته على الحفظ أكثر من قدرته على الحكم، وأتقان الامور، وصحة المعارف، وجودة المخارج – فقال :-

((انما نتكلم عن ظاهر الاحكام، وما شاهدنا عليه طبائع الاطفال، وجدنا حكم ابن سبع سنين، وثمان سنين، وتسع سنين، حيث قرأناه، وبلغنا خبره – مالم يعلم مغيب أمره، وخاصة طباعه – حكم الاطفال، وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه والذي نعرف من شكله بلعل وعسى، لانا كنا لا ندري لعله قد كان ذا فضيلة في الفطنة فلعله ان يكون ذا نقص فيها اجاب منهم بهذا الجواب من يجوز ان يكون على في المغيب قد اسلم اسلام البالغ المختار، غير ان الحكم فيه عند مجرى امثاله واشكاله الذين اذ أسلموا وهم في مثل سنه كان اسلامهم على تربية الحاضن، وتلقين القيم، ورياضة السائس))[٤٢].

ويرى أن الميزة الظاهرة في الصبيان : القدرة على الحفظ وليست القدرة على التحليل، أو النظر في القضايا الكلامية والتحليل ومعرفة الاديان[٤٣].

وينظر في شخصية الشجاع الذي يعرض نفسه للمخاطر، ومقارعة الابطال، ويرى أن الاسباب التي تكمن خلفه لا تعود الى العقيدة لانها مكتسبة ويشرح ذلك بقوله :-

((وربما كان السبب الدين ولكن لا يبلغ الرجل بقوة الدين في قلبه مالم يشبعه بعض ماذكرناه أن يمشي بالسيف لان الدين مكتسب مجتلب، وليس باصلي ولا طبيعي، ولان ثوابه مؤجل، والخصال التي ذكرناها طبيعية اصلية وثوابها معجل))[٤٤].

ويرى الجاحظ أن من الامور التي تدفع الشجاع الى المغامرة بالحياة لها اسباب مشجعة تختلف من شخص الى آخر قال :-

((والسبب المشجع ربما كان الغضب وربما كان الشرابُ، وربما كان الغرار والحداثة وربما كان الاحراج، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم، والسخي والبخيل، والجزوع من وقع السوط والصبور))[٤٥].

ومن ملاحظاته الطريفة ظاهرة إنصراف الذهن وعدم الانتباه، وقد سجل ذلك عن نفسه مرتين، مرة حين نسي كنيته ومرة حين ذهب يشاهد الفيل وخاصة أذنيه، قال عن الحالة الاولى:-

((نسيت كنيتي ثلاثة ايام حتى اتيت أهلي فقلت لهم: بمَ أكنى؟ فقالوا بأبي عثمان...))[٤٦] وقال في المرة الثانية حين شاهد الفيل في يوم عيد والناس حوله :-

((فقصدت نحوه ومالي هم إلا النظر الى أذنيه، فرجعت عنه بعد طول تأمل، وأنا أتوهم عامة أعضائه إلا اذنيه، وما كانت لي في ذلك إلا شغل قلبي بكل شيء هجمت عليه منه. ولكنه كان شاغلاً لي عن أذنه التي اليها كان قصدي . فذاكرت في ذلك سهل بن هرون فذكر لي أنه ابتلي بمثلها))[٤٧].

ولعل من أهم الدراسات النفسية التي تمثل واقع الشخصية من خلال الملاحظة أو الاطلاع والدارسة ملاحظاته حول سلوك القيان في علاقتهن بالرجال.

ويبدوا أن الجاحظ في كتاب (القيان) وفي عرض التركيبة النفسية للقينة في المجتمع العربي كان مدفوعاً بدوافع ليس من السهل معرفة اسبابها . فقد يكون هدفه موضوعياً فرضه أصلاح المجتمع، ووضع حد للتفسخ الاخلاقي، وقد يكون قد دفعه الى كتابة هذا الكتاب شخص لم ينل من أحدى هؤلاء القيان مأربه فكان هذا الكتاب كتاب هجاء، وقد يكون لمظهره أو سنه دخل في هذا الهجوم، ولكن المسألة لا تفهم بهذه السهولة لان أثر القيان كان عنيفاً على الطبقات الاجتماعية المتنفذة كافة، وقد حلل الجاحظ ظاهرة القينة تلك الظاهرة الاجتماعية الشاذة التي لا تؤدي بالاخرين إلا الاذى والخسارة مع عدم قدرة هذه المخلوقة على الحب الخالص لا لمن يملكها ولا لمن يزورها في بيوت النخاسين. ولذلك فإن الجاحظ في تحليله النفسي الواقعي يذيع سراً كانت القينات يفضلن أن يبقى سراً مكتوماً قال :-

((إن القينة لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودها لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة، والشرك للمتربطين ليقتحموا في انشوطتها، فإذا شاهدها المشاهد رمته باللحظ وداعبته بالتبسم، وغازلته في اشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشطت للشرب عند شربه، وأظهرت الشوق الى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه، فاذا احست بان سحرها قد نفذ فيه، وإنه قد تعلق بالشرك تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه، وأفهمته أن الذي بها أكثر مما به منها، ثم كاتبته تشكو اليه هواه، وتقسم له بانها مدت الدواة بدمعتها وبلت السحاءة بريقها.... وانها لاتؤثر احداً على هواه، ولا تنوي انحرافاً عنه ولا تريده لنفسه))[٤٨].

ويستمر الجاحظ على دراسته النفسية الواقعية من خلال التأمل او الدراسة على كشف أسرار هذه الفئة من النساء اللواتي يتاجرن بالحب ويتلعبن بالعواطف فيحذر منهن ولذلك فانه يقول في وصف القينة مرة أخرى :-

((وأكثر أمرها قلة المناصحة، واستعمال الغدر في استنطاق ما يحويه المربوط والانتقال عنه، وربما أجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحاملون من الاجتماع، ويتغايرون عند الالتقاء، فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالاخرى وتغمز هذا بذاك وتعطي واحداً سرها والاخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الاخر وإن الذي ظهر خلاف ضميرها، وتكتب إليهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين، وحرصها على الخلو به دونهم))[٤٩].

ويبدو أن الجاحظ يعتقد ان القينة لا يمكن لها ان تغير من جبلتها الشخصية حتى وإن شاءت فأن أثر البيئة التي نشات فيها قد أستحكم فيها حتى اصبح جزءاً من طبيعتها وسلوكها اليومي، ولذلك فأن اصلاح القينة لا يمكن أن يتحقق لها حتى وإن شاءت هي ذلك، ويشرح الجاحظ هذا الاثرفي سلوك القينات على النحو الاتي:-

((وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب بالاهواء وتتعلم الالسن والاخلاق بالمنشأ . وهي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والاحاديث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه الى ثقة ولا دين ولا ورع ولا مروءة

وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة ابيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر اذا ضرب بعصته ببعض – عشرة آلاف بيت ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولاترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثوب وأنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق، والصبوة والشوق ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها منكبة عليها تأخذ من المطاريح الذين طرحهم كلهُ تجميشي، وإنشادهم مراودة وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها لانها ان جفتها تفلتت وإن اهملتها نقصت، وان لم تستفد منها وقفت، وكل واقف فألى نقصان اقرب، وإنما فرق ما بين اصحاب الصناعات وبين من لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها فهي لواردات الهدى لم تعرفه، ولو بغت الغفلة لم تقدر عليها وإن ثبتت حجة الهذيل فيما يجب على المتفكر زالت عنها خاصته لان فكرها وقلبها ولسانه وبدنها مشاغيل بما هي فيه، وعلى حسب ما أجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن يلي مجالستها عليه وعليها))[٥٠].

وبذلك يكون الجاحظ في هذه الدراسة النفسية الواقعية قد حاول أن يكشف زيف طبقة من النساء يتعاطين الحب الكاذب، ويتاجرن بالعشق ولكن أختيارهن قد يكون أضطراراً وكرهاً .

ولم يهمل الجاحظ في دراسته للواقع النفسي للفرد في عصره شيئاً ولا ترك مجالاً للميول الشاذة أو الغريبة التي لا تكون إلا في أفراد معدودين، أو فرد واحد شاذ فهو يتكلم عن شخصين وهما :– البلوي وعلي الاسواري وتعشقهما لنتن التيوس وكيف كانا يجلسان على رأس درب لاحد أولئك التياسين . قال :–

((وجلود التيوس وجلود آباط الزنج منتنة العرق، وسائر ذلك سليم والتيس ابطه كله، نتنه في الشتاء كنتنه في الصيف، وانا لندخل السكة وفي اقصاها تياس فنجد نتنها من أدناها حتى لايكاد احدنا يقطع تلك السكة إلا وهو مخمر الانف إلا ما كان مما طبع الله عز وجل عليه البلوي وعلي الاسواري فان بعضهما صادق بعضاً على استطابة ريح التيوس وكانا ربما جلسا على باب التياس ليستنشقا تلك الرائحة،

فإذا مر بهما من يعرفهما وأنكر مكانهما ادعيا انهما ينتظر ان بعض ما يخرج اليهما من تلك الدور))[٥١].

ويعطينا الجاحظ انموذجاً آخر من أصحاب هذه الميول الغريبة في السلوك (المكي) الذي تعشق جارية يقال لها(سندرة) ثم زوجها نهارية وقد دعاني الى منزلها غير مرة، وخبرني انها ذات صنان وإنه كان معجباً بذلك منها وانها كانت تعالجه بالمرتك، وانه نهاها مرارا حتى غضب عليها في ذلك . قال ((فلما عرفت شهوتي كانت إذا سألتني حاجة ولم أقضها قالت :– والله لاتمرتكن، ثم والله لاتمرتكن، فلا اجد بداً من ان اقضي حاجتها كائناً ما كان.))[٥٢].

وسجل الجاحظ حالة نفسية شاذة أخرى وفريدة جداً ولكن شذوذها لا يمنع من واقعيتها ولا يمنع من وقوعها من ذلك الفرد الشاذ وخوف الا نعتقد بتلك الواقعية النفسية فانه يعرفنا برواية الخبر وأمانتة العلمية قال عن الرواية :–

((حدثني مويس بن عمران . وكان هو والكذب لا يأخذان بطريق ولم يكن عليه في الصدق مؤونة لا يثاره له حتى كان يستهوي عنده ما يضر وما لا يضر))[٥٣].

أما الخبر الشاذ الغريب فهو ما يأتي كما رواه مويس بن عمران :-

((عندنا رجل يشتهي ريح الكرياس (وهو الكنيف المشرع على السطح بقناة الى الارض)).

لا يشفيه دونه شيء فكان قد اعد مجوباً (الة قطع) او سكة حديد في صورة المبرد فيأتي الكرابيس التي تكون في الازقة القليلة المادة فيخرق الكرياس ولا يبالي أكان من خزف او من خشب ثم يضع منخريه عليه حتى يقضي وطره . قال : فلقي الناس من سيلان كرابيسهم شراً حتى عثروا عليه فما منعهم من حبسه إلا الرحمة له من تلك البلية مع الذي رأوه من حسن الهيئة فقال لهم : ياهؤلاء لو مررتم بي الى السلطان كان يبلغ من عقابي أكثر مما أبلغ من نفسي، قالوا لا والله فتركوه...))[٥٤].

وبذلك يكون الجاحظ قد قدم دراسة واقعية عن طبيعة المجتمع وسلوكه العام والخاص.

٤- الواقعية العلمية:

كان الجاحظ قد تكلم كثيراً عن البحث العلمي وضرورة التثبت بالمشاهدة والتجربة لان العلم أكثر نشاط الانسان الذي يجب أن يكون حقاً وصدقاً لما في ذلك من منفعة للأنسان وتطوير معرفته، وقد وضع الجاحظ لذلك ثلاثة مبادئ يعتمد عليها البحث العلمي وهي ((التثبت والعيان والتجربة)) ومن خلالها عالج الظواهر العلمية وقضايا الطبيعة والسلوك الحيواني، وقد شرح ذلك مفصلاً الدكتور داوود سلوم في كتابه (الجاحظ منهج وفكر) مما يغني عن إعادته هنا إلا اننا لا نريد أن نترك هذا الركن من منهجية الجاحظ وواقعيته دون أن نذكر هذه التجربة العربية التي كانت أرهاصاً لتجربة بافلوف على الكلاب[٥٥].

قال الجاحظ وهو يروي عن صديق له :((أنه حبس كلبه في بيت وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم ثم احد سكيناً بسكين فنبح الكلب ورام فتح الباب لتوهمه ان الطباخ رجع من السوق بالوظيفة وهو يحد السكين ليقطع اللحم .

فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك لنتعرف حاله في معرفة الوقت فلم يتحرك قال :- وضعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق إلا قلقاً يسيراً فلم يلبث أن رجع الطباخ فصنع بالسكين مثل صنيعه فقلق حتى رام فتح الباب .قال فقلقت : والله لئن كان عرف الوقت بالرصد فتحرك له فلما لم يشم ريح اللحم عرف انه ليس بشيء، ثم

لما سمع صوت السكين والوقت بعد لم يذهب وقد جيئ باللحم من المطبخ وهو في البيت او عرف فعل ما بين إحداد السكين واحد أو الطباخ إن هذا أيضا لعجب، وإن اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الاذرع فما أجد ريحه الا بعد ان ادنيه من انفي وكل ذلك عجب))[٥٦].

٥- الواقعية الفنية (في الشعر):

لقد أشار الجاحظ الى ضرورة إلتزام الشاعر بواقعية التصوير ورفض نوعين من الصور التي يخرج بها الشاعر عن الواقعية وانعكاس الحياة انعكاساً دقيقاً وصادقاً .

والنوع الاول: الذي رفضه الجاحظ هو مبالغة الشاعر في تصوير الواقع بأستعمال الافراط أو الايغال . ولذلك ينعى المولدين مبالغتهم في صفة السرعة فقال ((أفرط المولدون في صفة السرعة، وليس ذلك باجود فقال شاعر منهم يصف كلبه بسرعة العدو :-

كأنما يرفع ما لا يضنع .

وقال الحسن بن هانئ :- **ما أن يقعن الارض إلافرطا**[٥٧].

أما النوع الثاني: الذي رفضه الجاحظ من انعدام الواقعية فهو تصوير الموضوعات (الميثولوجية) ونظم الخرافات الشعبية، أو ما إليه من حكايات الجن والاساطير وعد ذلك خروجاً عن هدف الشاعر في التصوير قال عن أحد شعراء البدو :- كان من شياطين الاعراب وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويطيل الكذب ويجبره وقد قال كما ترى :- فقالت زد فقلت : رويد إني على أمثالها ثبت الجنان لأنهم هكذا يقولون، يزعمون ان الغول ستزيد بعد الضربة الاولى لانها تموت من ضربة واحدة وتعيش من الف ضربة))[٥٨].

وبذلك نرى أن الجاحظ قد أتبع منهجاً متكاملاً في تنظيره وتطبيقه كانت فيه الواقعية هي العمود الفقري الذي حكم نشاطه الادبي والفلسفي وإن خضوعه لمنطق العقل الجاد وعلم المنطق كانا خلف ذلك المنهج المحكم الاركان .

الهوامش:

(١) البخلاء : ٥١.
(٢) م.ن.ص.ن.
(٣) م.ن.ص.ن.
(٤) حضارة العرب: ١٠٩، أصول الشعر العربي: ٥٥، تاريخ الادب العربي (بلاشير) ٦١/١، الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونانيين والعبريين :٥، تاريخ آداب اللغة العربية: ٣١/١.
(٥) تاريخ الادب العربي قبل الاسلام :١٠/٤.
(٦) تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) :١٣٣.
(٧) مقدمة أبن خلدون : ٧٦٥/١، المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ٣٢١/١ وما بعدها.
(٨) اللهجات العربية : ٢٧.
(٩) تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) : ١٥٦، ١٧٠.
(١٠) طبقات فحول الشعراء : ٥/١ وما بعدها.
(١١) حديث الاربعاء : ٦.
(١٢) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء : ١٥٧، ١٩٨، ٥٤٧.
(١٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ١١٤ .
(١٤) الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي : ٥٠.
(١٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ٧٣/١.
(١٦) حديث الاربعاء : ٢٠/٢-٢١ .
(١٧) الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي :٥١.
(١٨) حديث الاربعاء : ٧/٢.
(١٩) الادب العربي في العصر العباسي : ٢٠ – ٢١.
(٢٠) ادباء العرب في الأعصر العباسية : ٢٢.
(٢١) حديث الاربعاء :٢٢/٢.
(٢٢) فقه اللغة العربية : ٨٣، ١٨٣.
(٢٣) البيان والتبيين : ١٣٤/١.
(٢٤) الحيوان : ٢٨٢/١.
(٢٥) م.ن :٣٩/٣.
(٢٦) م.ن : ٢٨٢/١.

(٢٧) م.ن : ٢٨٢/١.
(٢٨) مقالات في تاريخ النقد العربي : ١٢٩ .
(٢٩) الحيوان : ١٣٠/٣.
(٣٠) م.ن : ١٢٨/٣.
(٣١) م.ن : ١٢٧/٢.
(٣٢) الشعر والشعراء : ١٠-١١.
(٣٣) الامتاع والمؤانسة : ٢٢٣/٣، ابو حيان التوحيدي سيرته وآثاره : ٣٤٨.
(٣٤) الحيوان : ١٤/٢.
(٣٥) الحيوان:٤٢١/٥.
(٣٦) م.ن : ٢٨٣/٣.
(٣٧) الحيوان : ٢٢٣/٣.
(٣٨) م.ن : ١٢٥/٧.
(٣٩) م.ن:١٩٤/٤.
(٤٠) البرصان والعرجان : ٢٣٧ .
(٤١) البخلاء : ٥٢.
(٤٢) العثمانية : ٧.
(٤٣) م.ن : ١٥-١٧.
(٤٤) م.ن : ٤٨.
(٤٥) م.ن : ٤٩.
(٤٦) معجم الادباء : ٧٤/١٦.
(٤٧) الحيوان : ٢٠١/٧.
(٤٨) رسائل الجاحظ (رسالة القيان) : ١٧١/٢-١٧٢.
(٤٩) م.ن:١٧٥/٢.
(٥٠) رسائل الجاحظ: ١٧٦/٢ – ١٧٧.
(٥١) الحيوان: ٤٦٦/٥ – ٤٦٧.
(٥٢) م.ن : ٤١٨/٥.
(٥٣) م.ن ٤٢٠/٥.
(٥٤) م.ن.٤١٧/٥.
(٥٥) للمزيد من المعلومات ينظر كتاب نظريات التعلم ١٦٨-٢١٢ أصول علم النفس ١٨٩-١٩٢، علم النفس التربوي ٢٠٣ -٢٠٤ .
(٥٦) الحيوان : ١٢٠/٢.
(٥٧) م.ن : ٣٥/٢.
(٥٨) م.ن : ٢٣٥/٦.

المصادر والمراجع:

١- أبو حيان التوحيدي : سيرته وآثاره : د.عبد الرزاق محيي الدين . المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩م .
٢- أدباء العرب في الاعصر العباسية : بطرس البستاني، بيروت ١٩٧٩ م
٣- الأدب العربي في العصر العباسي : د.ناظم رشيد، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل ١٩٨٩م .
٤- أصول الشعر العربي : د.س مرجليوث، ترجمة د. يحيى الجبوري، مطبوعات مؤسسة الرسالة ١٠الط ١ – ١٩٧٨م.
٥- أصول علم النفس : أحمد عزة راجح، مصر ١٩٧٣م.
٦- الإمتاع والمؤانسة : أبو حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ) تحـ أحمد أمين وأحمد الزين، مط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩م.
٧- البخلاء:أبو عثمان عمروبن بحرالجاحظ (ت٢٥٥هـ) تحـ طه الحاجري طه، القاهرة ١٩٧٦.
٨- البرصان والعرجان: الجاحظ، تحـ محمد مرسي الخولي، القاهرة ١٩٧٢م .
٩- البيان والتبيين: الجاحظ، تحـ عبد السلام هارون، ط٤القاهرة ١٩٧٥م .
١٠- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان، مط دار الهلال، مصر ١٩٥٧.
١١- تاريخ الادب العربي (العصر الجاهلي) د.ريجيس بلاشير، تعريب د.أبراهيم الكيلاني، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦م.
١٢- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) د.شوقي ضيف، مط . دار المعارف القاهرة الط ١ – ١٩٦١ م .
١٣- تاريخ الأدب العربي قبل الاسلام .د. نوري حمودي القيسي وآخرون . دار الحرية، بغداد١٩٧٩م .
١٤- الثقافة العربية، أسبق من ثقافة اليونان والعبريين : عباس محمود العقاد دار القلم، مصر د.ت .
١٥- الجاحظ منهج وفكر : داود سلوم، بغداد ١٩٥٩م.
١٦- حديث الاربعاء : طه حسين، دار المعارف الط١٣ القاهرة ١٩٨١م .
١٧- حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور: د.أحمد سوسة دار الحرية، بغداد ١٩٧٩م .

١٨- الحيوان: الجاحظ، تحـ عبد السلام هارون الط٣ بيروت، ١٩٦٩م .ج/٢ مط مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ١٩٣٨م .
١٩- رسائل الجاحظ (كتاب القيان) ج٢ القاهرة، ١٩٦٥م .
٢٠- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ) تحـ. دي غوية، ليدن ١٩٠٤م .
٢١- الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي: د. محمد حسين الاعرجي، المركز العربي للثقافة والعلوم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان د.ت .
٢٢- طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي(ت٢٣١هـ) تحـ محمود محمد شاكر، مط المدني، مصر د.ت .
٢٣- العثمانية : الجاحظ، تحـ عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٥٥م.
٢٤- علم النفس التربوي: د. جابر عبد الحميد جابر، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٧٧م.
٢٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ) تحـ، محمد محيي الدين عبد الحميد الط١، مط حجازي، القاهرة ١٩٣٤م .
٢٦- فقه اللغة العربية: د. كاصد ياسر الزيدي، دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ١٩٨٧م .
٢٧- الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩م.
٢٨- اللهجات العربية : د.ابراهيم انيس، مط الرسالة، القاهرة د.ت.
٢٩- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب : د. ابتسام مرهون الصفار د.ناصر الحلاوي، دار الحكمة، بغداد ١٩٩٠ م .
٣٠- المزهر في علوم اللغة وأنواعها : عبد الرحمن جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٩٨٧م .
٣١- معجم الادباء ياقوت الحمودي . تحـ ماركليوث الط١ القاهرة د.ت.
٣٢- مقالات في تاريخ النقد العربي : د.داود سلوم، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨١م .
٣٣- مقدمة أبن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) تحـ د.خليل شحاذة وسهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الط٢ – ١٩٨٨م.
٣٤- الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، ابو عبد الله محمد بن عمران المرزباني (ت٣٨٤ هـ) تحـ علي محمد البجاوي، مصر ١٩٦٥م .
نظريات التعلم : فاخر عاقل، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٣م.

القصة السير ذاتية
في قصص كمال عبد الرحمن

د. خليل شكري هياس
جامعة الموصل/ كلية التربية الأساسية

شهدت الساحة النقدية العربية في العقود الأخيرة حضوراً لافتاً للسيرة بوصفها جنساً أدبياً مستقلاً، له مقوماته وأسسه البنائية الخاصة، كما تنوعت السيرة تنوعاً ملحوظاً أدى إلى تفرعات نوعية جديدة بحكم انفتاحها المفرط على أساليب الكتابة الإبداعية المتنوعة، الأمر الذي أسفر عن تصنيف أنواعها إلى عشرات الأنواع، اغلبها ناتج عن تلاقح جنس السيرة مع غيرها من الأجناس أو الأنواع الأدبية من رواية، وقصة، ومقالة، وشعر.

هذا الانفتاح حتّم على القائمين على الدراسات النقدية السعي إلى مواكبته، لقراءة التداخلات الاصطلاحية والأجناسية بين أنواعها من جهة، والوقوف على الآليات الخاصة بكل نوع، والنابعة من سياقه المرجعي الذاتي، أي ما يقدمه له الأفق القرائي من عناصرَ ومعاييرَ مرجعية تعرف بـ (استراتيجية النص)، ومن ثم الخوض في الإشكاليات التي يطرحها هذا النوع أو ذاك من جهة أخرى.

من هذا المنطلق تحاول ورقتنا البحث في نتاج القاص كمال عبد الرحمن لاستجلاء ما فيها من تمازجات وتلاقحات بين الفن القصصي الذي يشكل الإطار العام والرئيس، الذي يدلو فيه القاص دلوه، وبين السيرة الذاتية التي يستعين بها القاص ليقدم من خلالها عالماً يتمازج فيه الخيال بالواقع، وتتعاون فيه المخيلة مع الذاكرة، ويندرجان معاً في تداخل مستمر يكون فيه القاص مصدراً لتخيلات الراوي، فالكيان الجسدي والنفسي والذهني للقاص يشرّح، ويعاد تركيبه، والتجربة يعاد تصويرها بعد شحنها بالتخييل، مما يوفر حرية غير محددة في تقليب التجربة، وإعادة صوغ الوقائع

واحتمالاتها، وكل وجوهها، من دون خوف من الوصف المحايد البارد للتجربة، ولا الانقطاع التخييلي عنها[١].

إن النظرة الواعية في المكونات والآليات الخاصة بكتابة السيرة الذاتية وفّرت للقاص الأرضية المناسبة في رسم مسارات الذات، وهيأت له الأجواء كي يعبر على نحو ما عن شخصيته، ويكشف عن روافد من تجارب ذاتية، استطاعت الذات الكاتبة أن تصهرها في بوتقة القصة بقيامها على منظور رؤيوي فني يقوم على التكثيف في الحدث والموضوع والفكرة، وهذا التكثيف بطبيعته يتطلب تعاملاً خاصاً مع اللغة، وتناولاً أدق واخص للتقنيات المتبادلة بين فنون السرد، واستثماراً أمثل لروح العاطفة التي تعد مرآة النص لتزيدها خصباً وثراء. إذ ليس التكثيف –بعد كل ذلك– اقتصاداً لغوياً حسب، بل بناءً متماسكاً يسبك كل التقانات في لوحة تعبيرية يبقي على روح النص وتوهجه الخلاق. ومن هنا تكون الحبكة القصصية أكثر تجريداً من الحبكة الروائية والمسرحية[٢].

ولما كانت القصة السيرذاتية تتناول الذات موضوعاً للسرد، فإنَّ هذا السرد يكون ذا مرجعيات واقعية تفرضها سلطة ألـ(أنا) القاصة، بوصفها ذات التبئير/ المبئر/ وموضوع التبئير/ المبأر في آن واحد، بعد أن يعمد إلى تشغيل منظومة الذاكرة لتكون بمثابة المعبر الذي يربط الواقعي بالمتخيل، فما أن يبدأ المؤلف بسرد الذاكرة حتى تخرج الأفعال والأحداث والأمكنة من سيرورتها الموضوعية – أي ما هو حاصل في تاريخها الطبيعي– إلى سيرورة نصية تضفي عليها قيماً إيحائية إضافية، قد تكون وجدانية أو ثقافية أو ذهنية، أو نابعة من المتخيل في بعديه: الشعوري، واللاشعوري الذي يسود المجتمع سلوكاً وتصوراً. وبذلك تكون المادة المقدمة من الذاكرة للنص السردي ذي الطابع السيرذاتي ((عبارة عن نموذج مبنين، وليس خاماً، يتلبس طيه الوجود المادي بالوجود العاطفي والرمزي، الأمر الذي يفيد بأن عملية التنصيص ستشمل عالمين متعالقين ومختلطين، عالم مرجعي صرف يخضع للمعالجة ثم التجاوز، وعالم خيالي يتم تجسيده وتجميعه وإعطاؤه شكلاً من الأشكال))[٣] يعرف اليوم وفق نظرية الأجناس بالقصة السيرذاتية التي تعد نوعاً أدبيا خاصاً ينتج من

تلاقح القصة مع السيرة الذاتية، فينهار السور الفاصل بين النوعين ليصبحا أرضا إبداعية واحدة له خصوصيتها المتشكلة من تصاهر وتلاقح تقنيات ومرتكزات كل منهما في الآخر، وجدير بالذكر القول: إن هذه الأرض تعد أرضا بكراً على الصعيد النقدي على الرغم من توافر كم قصصي ثر لم يحرث بعد وفق هذه الرؤية النقدية.

ولعل من المناسب الإشارة إلى تحديد الناقد فيليب لوجون للسيرة الذاتية النثرية عندما يصفها بأنها ((قصة استعادية نثرية يروي فيها شخص حقيقي (قصة) وجوده الخاص، مركزاً حديثه على حياته الفردية، وعلى تكوين شخصيته بالخصوص))[٤] وهذا التعريف إذا ما حاولنا تطبيقه على القصة السيرذاتية نراه يصطدم بحقيقة أن القصة بشكل عام والقصة القصيرة بشكل خاص لا يمكن أن تستوعب سيرة الذات بحكم صغر مساحتها، وفيما عدا ذلك فالتعريف ملائم من حيث المرتكزات التي يمكن أن تقوم عليها القصة السيرذاتية]:

١- **شكل الكلام** : قصة استعادية نثرية.

٢- **الموضوع** : سيرة حياة المؤلف بقلمه (أي الأنا موضوعاً للسرد).

٣- **موقف الكاتب:**

أ- التطابق بين أنا المؤلف، وأنا السارد، وأنا الشخصية المركزية.

ب- النظرة الخلفية في السرد أي التشبث بالمنظور الاستعادي في القصة.

وبما أن النص القصصي السيرذاتي بمفرده – على الرغم من كل المرتكزات التي يحملها – لا يستطيع سرد سيرة الذات، لذا فان تعريف لوجون لا يمكن تطبيقه على النص القصصي ما لم نشفعه ببعض التغييرات كي يتناسب مع طبيعة النص شأنه في ذلك شأن القصيدة السيرذاتية، إذ هما لا يستطيعان تقديم سيرة الذات ما لم تتظافر مجموعة قصائد في تقديم ذلك، وهذا ما يفصح عنه المتن الشعري لمحمود درويش مثلاً في (لماذا تركت الحصان وحيداً)[٥]. واستناداً إلى هذه المعطيات، يمكن تعريف القصة السيرذاتية، بأنها قصة استعادية نثرية، يروي فيها القاص كِسراً سيرية عن حياته ووجوده، مركزاً حديثه على حياته الفردية، وعلى تكوين شخصيته بالخصوص، مستنداً في كل ذلك إلى آليات المنظومة الذاكراتية. وبهذا يكون التعريف

قد راعى مسألة الحجم في القصة من حيث كونها تحمل جانباً من سيرة القاص وليس كل السيرة، وإذا ما أردنا الوقوف عند سيرة القاص لابد من قراءة تجربة القاص بالكامل أو من خلال مجموعة قصصية معينة، وفي الوقت نفسه يكون التعريف قد حافظ على مرتكزات النص السيرذاتي الذي حدد لوجون في أن تكون ال (أنا) نفسها موضوعاً للسرد، ويكون انتماؤها زمنياً إلى الماضي، وهذا يعني اعتمادها على الذاكرة في استرجاع أحداث ذات مرجعية واقعية معيشة فعلاً، كما أن التطابق بين المؤلف، السارد، الشخصية المركزية المفترض تواجدها في القصة السيرذاتية، وحتى الميثاق السيرذاتي يمكن وجوده أيضا فيها.

إن الرصد القرائي للطابع السيرذاتي في نصوص كمال عبد الرحمن حدد عدداً من القصص في مجموعتيه القصصيتين (الحاسة التاسعة) و (المغني الصامت)، أما مسوغ قراءتنا لهذه القصص قراءة سيرذاتية فقد انبنى على تصريح من المؤلف/ الصديق الذي لم يكتف بالتصريح المباشر لنا، بل ثبته كتابياً على المجموعتين مخاطباً إيانا في الإهداء، ((إليك جزءاً من حياتي مبثوثة في ثنايا قصصي)) ومعلوم أن مثل هذا الإهداء يشكل نوعاً من الميثاق السيرذاتي الصريح يجعلنا لا نتوانى في دراستها على أنها قصص سيرذاتية.

تشتغل قصة (ما أتاني من حديث عبد جدو) منذ العنوان في منطقة السيرة الذاتية، إذ تنهض بنيته على إستراتيجية واضحة تختزل في طياتها ملامح النوع السيرذاتي يمكن تحديدها بما يأتي:

١- قيامها على منظور استرجاعي من خلال توظيف صيغة الماضي (ما أتاني) مقرونة بالطابع السرد- حكائي الذي تفصح عنه مفردة (حديث).

٢- الطابع الرؤيوي السيري الذي يفصح عنه اسم العلم (عبد جدو)، إذا ما علمنا أن هذا الاسم هو اسم والد القاص، خالقاً بذلك فضاءً سيرياً عائلياً شديد العاطفة يخضع لوجهة نظر خاصة يحتم على القارئ النظر إلى الذوات الساكنة في النص نظرةً مزدوجة، الأولى: كونها ذواتاً إحالية يتعامل معها القارئ السيرذاتي على أنها تحيل على كائن تاريخي موجود خارج النص، والثاني: كونها ذواتاً

نصية مندرجة في نظام سردي يعرض علينا السارد أفعالها وأحوالها بتدرج وانسجام[٦].

تفتح الذات القاصة أفق القراءة على استحضار تقانة السرد بالنيابة، إذ تستعين الذات القاصة بوالدها لتلبسه ثوب السارد الذي يأخذ على عاتقه مهمة سرد جانب من حياة العائلة عندما كانت تعيش في إحدى قرى النمرود، لكن هذا السرد بالنيابة لا يتضح للقارئ إلا بعد التوغل في منطقة النص إلى ما يقارب المنتصف في مسعى من الذات القاصة لرفد النص بعنصر التشويق القائم على المفاجأة وكسر أفق التوقع في محاولة منها لشد القارئ وجعله متقد الذهن، وهو يصغي إلى صوت السارد في النص((زمن يترهل في تخوم أعوامه، يكبر الصغير، ويصغر الكبير، والقرية غافية في أهداب الوقت، وان عادت على بعض بيوتاتها التي تمشي بأصحابها أو تتقافز فوق حقول الشعير، دون أن يطأها، وفي الوقت ذاته الذي انتشرت فيه بقرى (نمرود) حكاية المرأة التي يأوي إليها المجانين تخلصاً من أوجاعهم التي لا يدركها بشر، يقيم الرجل في أتون صراخه طقساً لا تفقهه سوى الملائك، ويصيح في الليل الغافي وكأنه يوقظه من غفلة ما (يا هو .. يا ودود) فترتطم الضواري هاربة من بعضها إلى بعضها، ويفز المستلبون من أحلامهم إلى كوابيسهم خاشعين لهيمنة الإنصات لقرآن تتلوه ملائكة الفجر، وما أن يطرد السحر كتل الظلام تدريجياً حتى يترجل الرجل، عن صهوة غرفته بعد أن بكى طوال الليل، وفار جلده لهباً تحت لسعات البرد القارص، كان (إسماعيل عبد جدو) قد اعتاد منذ الصغر على امتطاء بيته والصراخ في مناجاة خالدة مستغيثاً بالله من دنيا لم تستطع قهره، وتروي قرى (نمرود) أن إسماعيل كان منصرفاً مسرب التزهد بعنفوان أمّة، ولم يضايقه إنسان إلا وبات منتفخاً كبالون مبلل))[٧].

إن القراءة التأملية في المقطع المرصود تكشف عن استلهام الذات القاصة – عبر سارد غيري– كل ما أمكن من الرؤى المركزية التي منها تتشكل ذاكرة التجربة، لإدراجها في فضاء قصصي مفعم بالصوفية يتجاوز ما هو سائد ومألوف إلى ما هو استثنائي رغم بساطة البيئة التي منها تتشكل القصة، فالنص هنا في تشكله الفضائي

لا يتوقف عند حدود استعادة التجربة بمعطياتها الحياتية المتلبدة بغيوم ما هو ديني عاطفي، بل يتعداه إلى تشييد قصصي يستخدم الأسلوبية الصوفية في التعبير لتفادي الوقوع فيما هو سطحي ساذج، والنفاذ إلى ما هو جوهري بوصفه بؤرة بث وإشعاع تغذي النص بمعطيات رؤيوية جديدة تنفتح على ما هو خاص من التجربة، ولعل المواطن الموصلي يدرك قبل غيره – بما أن القراءة هنا سيرية أي تعالقية بين الداخل والخارج نصي– خصوصية هذه العائلة الدينية ومكانتها بين العوائل.

في سرده للأحداث يتخذ السارد أكثر من موقع، فتارة يتخذ موقعاً خارجياً من الحكي، مما يتيح له فسحة كافية لإدارة اللعبة السردية بعين باصرة/ راصدة تمتلك القدرة على تقديم المسح التتابعي لجزيئات السرد، وتارة يكون في موقع داخلي من الحكي يرتب السرد بعين البصيرة النافذة إلى عمق النص والباسطة لنفوذ العاطفة في ثناياه، مما يحدث في النهاية تنوعاً وتعدداً وتلوناً تعمل على نحو تلاحمي تضافري في سبيل سردي تجتهد حداثته في فتح أساليب النص والحكي على فضاءات جمالية، يتفاعل ما هو زماني بما هو مكاني في تقديم شخصيات النص تقديماً سيرذاتية، تتراءى فيها شخصية الأب (إسماعيل عبد جدو)، وشخصية الأم (المرأة زوجة إسماعيل)، بالنسبة للسارد، وشخصية الجد والجدة بالنسبة للذات القاصة، رؤية ميثاقية على نحو لا يدع أي شك في قراءة النص قراءة سيرذاتية تحوم في فضاء ألفوي حميم وزاخر بعنفوان المحبة، والتغني بذلك الماضي الزائل حياتياً والخالد ذاكراتياً في ذاكرة الأب السارد المعاصر والشاهد لتلك الأحداث، وفي ذاكرة الابن/ الذات القاصة الراسمة لتلك الأجواء ذاكراتياً من خلال حديث الأب له.

تُحدث الأفعال النصية في تتابعها وتواليها تحولاً كبيراً في صيرورة المشهد، فبعد أن تبدأ بترسيخ سكونية الفضاء عبر تسكين الزمن(زمن يترهل في تخوم أعوامه يكبر الصغير ويصغر الكبير) في إشارة إلى دورة زمنية لا تفعل فعلها المؤثر سوى أنه يكبر الصغير، ويصغر الكبير دون أن يترك بصماته على المكان الذي يبدو هو الآخر ساكناً و (غافياً في أهداب الوقت). نراها – أي الأفعال– تحدث انعطافاً في المشهد الزمكاني من خلال رسم صورة حركية توسطر أو لنقل تصوف الحدث

السردي فيمتطي الرجل غرفته ليحلق بها ومعها في سماء عرفاني تذوب فيها الحدود بين ما هو واقعي حياتي وبين ما هو غيبي عرفاني تتصهر فيها الذات المخلوقة بالذات الخالقة لتخوض مغامرتها الروحانية في رحاب فضاء ديني يختلط فيها صوت المناجي(يا هو.. يا ودود) بصوت ملائكة الفجر وهي تتلو القرآن. ولعل في ذلك فلسفة خاصة حاولت الذات القاصة من خلالها خلق فضاء قصصي خاص يسمح بتدخل الأنا القاصة في تشكيل وضع سردي سيميائي يتسم برسم صورة سردية مفعمة بالشعرية الخارجة عن شعرية المألوف العائلي الحاصل خارج ثبات الزمكاني الواقعي.

وإذا كانت قصة (ما أتاني من حديث عبد جدو) تتحدث عن سيرة العائلة من أعلى الهرم ممثلة بحياة الجد والجدة والأب عندما كانوا في القرية عبر سارد غيري هو والد الذات القاصة، فان قصة (صوتك البعيد) تحكي تجربة سيرية أخرى تتمثل سيرة الذات القاصة بمعية جدها وجدتها عبر سارد ذاتي يحظى بدور بارز في إدارة اللعبة السردية داخل النص، ويفتح بوابات النص مباشرة على ما هو ذاتي وخاص من حياة الذات القاصة، فنراها تقف في هذه القصة عند ماهو حميمي، عبر تحقيق مواجهة نفسية ذاكراتية تعود الذات عبرهما إلى زمن الطفولة عندما كانت تعيش بمعيتهما، فتلتقط ذلك التعلق الروحي للطفل الذي كانته الذات القاصة في زمن مضى بمقاس العمر لكنه ظل حياً في الذاكرة المتحولة إلى شاشة مشهدية تستعرض الذات القاصة كِسراً من تلك الحياة الطفولية((منذ أن كنت صغيراً رافقت جدي، أحببته كأنه صديق حميم وليس أنسانا يفوقني بخمسين عاماً أو أكثر، كان يفضلني على أحفاده العشرين، عشرون ولداً وبنتاً لم يحظوا بنصف حظوتي لديه، ومنذ سنوات تشبه الحلم، وأنا ظل جدي في حركاته وسكناته، لا أفارقه إلاّ لماماً، وقد اندس في فراشه في بعض الليالي، فتبتسم جدتي وتقول (لقد اشتراني جدك بخمس جثث... ويبيعني من اجل طفل جميل...؟[٨] . تحاول الذات الساردة/ القاصة –على اعتبار سيرذاتية النص– استبطان الذات على وفق رؤية سيرذاتية خاصة، تعمل على استعادة مرحلة زمنية مهمة في حياتها هي مرحلة الطفولة، وذلك عبر ذاكرة تعمل على إعادة إنتاج الذكرى وفق رؤية آنية – لحظة السرد– مغلفة بجو من العاطفة تستوعب حجم الوجد والحب

الذي يربط الذات بجدها، فنراها تبحر معه في رحلة الكشف عن ما كانتها في زمن الطفولة، وما عليها الآن –لحظة السرد– لتصل إلى عمق الهوة بين الزمنين تتجلى بشكل أوضح في نهاية القصة عندما تقف الذات عند لحظات توديع الجدة إلى مثواها الأخير وبشكل تفجر معها طاقة هائلة من الحزن لتحدث بذلك نوعاً من المقارنة بين الزمنين، الماضي بكل ما يحمله من طاقة حياتية مفعمة بالسعادة، والحاضر المقترن بالحزن من جراء فقدان الجدة، ((خرجت... بل هربت من البيت.. تبعتني أمي.. توقفت قليلاً..سمعتها تقول أنها تطلبك..(قلت: لا استطيع.. قالت: جدتك تحتضر.. ترغب في رؤيتك للمرة الأخيرة ولا تستطيع. قلت والحزن يتلبسني: أماه..كيف..كيف احتمل..؟ قالت وهي تمسح الدموع من عينيها: سنة الحياة يا ولدي.. فتعالَ وحقق لها هذه الرغبة.. لم اعد استطيع الكلام فأجهشت .. وبكت أمي..وضعت كفها على كتفي.. سحبتني بلطف نحو البيت.. اجتزنا العتبة .. فاستقبلنا صراخ عظيم..؟))[٩].

ترسم الذات الساردة/ المسرودة عبر هذا المقطع مناخاً نفسياً قلقاً يتفاعل فيه الحدث المأساوي (وفاة الجدة) في تجليه الواقعي، بالذكرى التي ما تزال محفورة على جدران الذاكرة وما تنبثق منها من تجليات نفسية لتخلقا في النهاية دراما نفسية تحوي في طياتها طاقة هائلة من الحزن من جراء ألم الفقد، ولعل القراءة الطوافة بين هذا المقطع، والمقطع السابق، تكشف عن تقابل دلالي يشطر الذات الساردة / المسرودة بين فضائين،. فضاء الألفة الحميمية الذي يمثل ما كانت عليها الذات عندما كانت تعيش في أحضان الجد والجدة، وفضاء الحزن الذي يمثل الزمن الحاضر الذي به تسدل الذات الساردة الستار، وتنهي النص عند نهاية مغلقة، تنهي الجدل القائم على التقابل بين تفاصيل الحياة الماضية وما كانت تحمله من ذكريات مفعمة بحيوية الحياة، وتفاصيل الحياة الحاضرة، وما فيها من حدة وتشاؤم بوفاة الجدة التي تأتي هنا في النص لتشكل رمزاً لبهجة الحياة ونضارتها السائرتين إلى الاضمحلال بوفاتها، وبهذا تكون الذات القاصة قد فلسفت الحياة بتفصيلاتها المعيشة لتصل بها إلى حالة إبداعية تستثير عاطفة المتلقي وتجعله يتفاعل مع طبيعة الأزمة التي تعيشها الذات السيرية القابعة في داخل النص، والتي لها حضور فاعل خارج النص من خلال

توحدها بالذات القاصة، وفي الوقت نفسه تفلسف الإبداع حياةً لتصل في النهاية إلى حقيقة مفادها أن الذات الساردة لم تستطع التغريد خارج سرب الذات الساكنة دوماً في كل ما هو إنساني.

ولما كان المكان مرتكزاً مهماً من مرتكزات النص السيرذاتي فإن كمال عبد الرحمن يوليه أهمية فائقة في نصوصه، فنراه يهندس الأمكنة بحرفية عالية ويخضعها لإدارة دقيقة ومحسوبة لحركة الأحداث عبر مصالحة بين رؤيا الراهن الناظر وخزين الذاكرة المنظورة وعلى نحو يرسم من خلالهما فضاءات مكانية تجسد عمق علاقة القاص بهذه الأمكنة التي شكلت أو لنقل أثرت بشكل أو بآخر في تكوين الذات، ولا سيما الأماكن التي ارتبطت بطفولة القاص وظلت حية في ذاكرته ولعل من أولى تلك الأمكنة بيت الجد في إحدى قرى نمرود المجسدة في قصة (ما أتاني من حديث عبد جدو) : ((وبيت الرجل كبير برغم صغره يتسع لأرتال القلوب البيض، بينما ينقسم الليل إلى قسمين الأول يملأه الدراويش والثاني يضج بالمجانين، ولم تألف الدنيا بيتاً نصفه دراويش والآخر مجانين، وبينما يندفع الدراويش ليلاً بحلقاتهم في باحة لبيت تحت إغماءة التجلي تساندهم الخليليات(نوع من الدفوف) وتشعلهم صناجات أفئدتهم في فضاءات الغيبوبات الملونة، يدهش اغلب المجانين وهم يراقبون الدراويش من رواويق وكوى في جدار المحبس الكبير، وعندما ينام الليل تتسلل امرأة بلون القمح إلى المحبس تفك وثاقهم وتطعمهم بيديها بينما يجتمع حولها المجانين، وهم يتقافزون أو يبكون أو يغنون بلغة لا يفهمها احد، هكذا اعتادوا عليها واعتادت عليهم، بينما صوت الرجل الذي يمتطي بيته أو غرفته التي تشبه خيمة لا يكف عن الصراخ طوال الليالي الباردة (يا ودود.. يا ودود)))[١٠].

ينهض السرد في تقديمه لفضاء البيت على مناخ ألفوي حميم يستند السارد في تشكيله على فضاء قروي تتحرر فيه الشخصيات الساكنة فيه من قضبان الجدران العازلة بين الداخل (البيت) والخارج(الأرض المفتوحة)، ليكون الداخل بؤرة ارتكاز مفعم بالحيوية والحركة من خلال شروعها على فضاء مفتوح تعانق السماء لتنعم بهدوء الليل وهو يرخي سدوله على الداخل / البيت، وروحانية الذكر في ظل فضاء

مفتوح لايرتطم الدعاء بالسقوف الكونكريتية التي تخيم على كل مساحة البيت في المدينة، فالمكان هنا لا يخضع للمعايير التقليدية في مقايسة المكان ومقاربته، بل يقوم على التعبير الجواني، وتتحدث الذات معه بلغة تتمازج فيها الروحانية بالعاطفة الجياشة التي عادة ما تمتلك الذات وهي تنعم بأجواء القرية المفتوحة من جهة، وبتلك النشوة المفعمة بالطمأنينة والراحة من جراء تضرع الذات الساكنة في البيت إلى بارئها بالدعاء،ومن هنا يتضح أن العلاقة التي تربط الذات القاصة بالمكان تتجاوز الوصف المحاكاتي إلى الوصف الحسي الذي يحرك الموجودات المكانية على نحو يناسب حاجته الحسية للمكان وتوقه إلى الانتماء الروحي له. هذا فضلاً على طابعه التراثي التاريخي الموحي بالأصالة، عندما يتحول البيت إلى وطن الألفة والانتماء يتجاوز خصوصيته الفردية كونه مكاناً خاصاً بأسرة معينة ليصبح مأوىً وملاذاً لأولي الذكر من الدراويش، ولأولي النكبة ممن خسروا عقولهم من جراء قسوة الحياة، ومن هنا يكتسب المكان خصوصية عميقة عندما يتحول إلى ملاذ آمن فيه يجد كل من الدراويش والمجانين ضالتهم.

وبهذه الروح الألفوية الحميمة يصرح القاص عن موقفه من أمكنة المدينة التي عاش فيها ومن هذه الأمكنة (محلة النبي يونس) التي تتحول في قصة (نجمة على مشارف الغفران) إلى بيت واحد تجتمع فيه كل أطياف المدينة الموصلية المعروفة بتنوع ساكنيها:((تنام محلة (النبي يونس) بعد صلاة العشاء مباشرة، تهدأ البيوت وتسكن الأنفس، وتنقطع الناس إلى أحلامها بلا كوابيس.. ولان محلتنا لا تشبه بأخلاقياتها مكاناً آخر على الأرض، فقد أصبحت بيتاً واحداً برغم أنها تحتضن مئات البيوت يتكلم الجميع بلغة واحدة، مع أن السنة أهلها تنقسم في الواقع إلى عشر لغات ولهجات يستحيل التفاهم فيما بينها، ولا تصدق محلتنا أكذوبة وجود لصوص في العالم!، حيث لم نسمع أن لصاً قد دخلها منذ عشرات الأعوام ولو كان عابر سبيل، وهي تشع بالرحمة ويخجل الرجل من النساء إلى حد كان فيه بعضهم يمشي ونظره في الأرض، بينما تتقافز عيون النسوة حيثما تشاء بحرية تامة، ولباس محلتنا هو العربي، بينما الحقيقة تقول أن نسبة العرب في المحلة هي ثلاثة في المائة))[١١].

ينهض النص على فاعلية الوصف الذاتي، إذ نرى الذات الساردة منذ البدء تصف هذه المحلة الشعبية بإحساس عال من الحميمية تشعرنا نحن معشر القراء بهناءة العيش في تلك المناطق، فتنقلنا معها إلى ذلك العالم الآمن الذي يهتم به الظاهراتي عادةً فيبحث فيه عن صور وظيفة السكنى، وعن حميمية المأوى، ويبتعد عن الفخامة الخارجية التي يخلقها التصور المفتقر غالباً للألفة في تلك الأحياء الارستقراطية الضخمة،فنجد أن هذا الحي الشعبي تتزايد فيه مقومات الحماية ليصبح موطن الوجود الحقيقي للإنسان، إذ يجد نفسه مشدوداً بقوة إلى منطقة أمان كبرى، تستطيع أن توفر له أجواءً مناسبة للعيش الهانئ، وفي خضم هذا الجو الألفوي لا تفوت الذات الساردة رسم هوية هذا المكان وخصوصيته الموصلية المنبثقة من ضمه– أي المكان– لألوان الطيف الموصلي الذي يتعايش فيه العربي مع غيره من المكونات الأخرى.

وأخيرا يمكننا القول إن القراءة السيرية لقصص كمال عبد الرحمن أفرزت رؤيا ذاتية،جسدت تجارب الذات القاصة وهي تؤرخ لذاتها برؤية إنسانية شاملة تحاول استعادة الماضي لتعيشه ثانية في نصوصها القصصية، فنراها تغور في أعماق الذاكرة لتستبطن وتستشرف أبعاد الذات الإنسانية، وتستشرف وجودها الكلي، ضمن اطر اجتماعية تاريخية وزمكانية تعمل في مجموعها على منح الذات هويتها وكينونتها.

مكتبة البحث:

١–الحاسة التاسعة، كمال عبد الرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠١ .

٢–السيرة الذاتية الروائية: إشكالية النوع والتهجين السردي، عبد الله إبراهيم، مجلة نزوى، مؤسسة عمان للصحافة والنشر، العدد ١٤، لسنة ١٩٩٨ .

٣–السيرة الذاتية : الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة وتقديم : عمر الحلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ .

٤–سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، شكري مبخوت، دار الجنوب للنشر، تونس،ط١، ١٩٩٢.

٥–القصة القصيرة جداً، مقاربة بكر، احمد جاسم الحسين، منشورات دار عكرمة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٧ .

٦–لماذا تركت الحصان وحيداً، محمود درويش، دار الفنون للطباعة والنشر، القدس – غزة، ط١، ١٩٩٥ .

٧–المغني الصامت، كمال عبد الرحمن، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٢ .

٨–النص الأدبي بين الواقعي والمتخيل، مجموعة باحثين، منشورات وحدة النقد الأدبي الحديث والمعاصر، فاس – المغرب، ط ١، ٢٠٠٣ .

سيرة القاص كمال عبد الرحمن:

ولد في مدينة الموصل عام ١٩٥٣

أديب وباحث وناقد.

نشر أولى قصائده عام ١٩٧٣ في جريدة (الجمهورية) العراقية وكان عنوانها (صرخات في روح مالك بن الريب).

نشر أولى قصصه عام ١٩٧٧ في جريدة العرب في لندن عندما كان يعمل مصححا لغويا ورئيس القسم الثقافي فيها صدرت له:

- مجموعة شعرية بعنوان (ماالذي يأتي بعدك) عن دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٧٥.
- مجموع شعرية بعنوان (لعينيك يتحدث الصمت) عن دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٧٧.
- مجموع شعرية بعنوان (قصائد هائمة على وجهي) عن دار الجيل، عمان، ٢٠٠٥.
- مجموعة قصصية بعنوان (قصص من نينوى)، مجموعة قصاصين من نيتوى، ١٩٩٨.
- مجموعة قصصية بعنوان (الحاسة التاسعة) عن دار الشؤون الثقافية، بغداد،٢٠٠١.
- مجموعة قصصية بعنوان (المغني الصامت) عن دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٣.
- مجموعة قصصية بعنوان (حكايات لجدتنا حتى تنام) عن منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦.

فاز بعدد من الجوائز في المسابقات الشعرية والقصصية في العراق والوطن العربي.

لديه (١٩) مخطوطا .

(٦) روايات .

(٤) كتب في النحو.

(٢) نقد أدبي.

(٢) دراسات في المسرح والسينما.

(٢) تاريخ.

(٢) تراث.

(١) شعر.

لديه أكثر من (مائة) قصيدة منشورة في العراق والوطن العربي.

عضو اتحاد الأدباء العراقيين.

عضو اتحاد الكتاب العرب.

عضو نقابة الفنانين العراقيين.

عضو اتحاد المؤرخين العرب.

Email:kamalismaeel@yahoo.com.

الهوامش والإحالات:

(١) السيرة الذاتية الروائية: إشكالية النوع والتهجين السردي، عبد الله إبراهيم، مجلة نزوى، العدد ١٤، لسنة ١٩٩٨ : ١٧.

(٢) القصة القصيرة جداً، مقاربة بكر، احمد جاسم الحسين: ٣٩ – ٤٠.

(٣) تنصيص الذاكرة في التجربة الأولية، مدخل نظري، هشام العلوي،ضمن كتاب: النص الأدبي بين الواقعي والمتخيل، مجموعة باحثين : ٦٦.

(٤) السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة وتقديم: عمر الحلي: ٢٢.

(٥) لماذا تركت الحصان وحيداً، محمود درويش.

(٦) سيرةالغائب سيرة الآتي:السيرة الذاتية فيكتابالأيام لطه حسين، شكري مبخوت:٧٧–٧٨.

(٧) الحاسة التاسعة، كمال عبد الرحمن: ١٩–٢٠.

(٨) المغني الصامت، كمال عبد الرحمن: ١٢٣–١٢٤.

(٩) م . ن :١٣٠.

(١٠) الحاسة التاسعة: ١٨.

(١١) م . ن : ٥٩ – ٦٠.

تراتب الجمل الدلالي في أسلوب القرآن الكريم

د.عدنان خالد المرابحي الدوسري
جامعة تكريت/كلية الآداب/قسم اللغة العربية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين...

أما بعد:-

فإن النص القرآني- بوصفه نصاً عربياً بليغاً- قد حفظ للجمل رتبتها في السياق(*) الذي وردت فيه في أسلوب القرآن الكريم، فالجملة التي تقع خبراً تتأخر عن المبتدأ وجملة النعت تتأخر عن الجملة التي تحتوي على المنعوت، والجملة المؤكدة تتقدم على الجملة المؤكدة، وجملة الحال أيضاً تتأخر عن الجملة التي تحتوي صاحب الحال... وهكذا.

أما الجمل المتتابعة في أسلوب القرآن الكريم- وهذا ما سنبحثه في هذه العجالة- سواء عن طريق العطف أم من غير العطف فيكون ترتيبها من السبك الدقيق جداً، فالجمل لا يقع ترتيبها عشوائياً، فهي ليست جملاً مرصوصة كيفما اتفق بل تكون لها سمات بلاغية وبيانية من الدقة بمكان يحار في شانها المتأمل.

فالمتدبر لسياق القرآن الكريم يجد كل جملة فيه تحتوي على لطائف وأسرار في ارتباط الجمل المنظوم على أحسن نظام(١).

وإذا كان للتناسق ألوان ودرجات فنجد ذلك متكاملاً في بناء الجملة القرآنية؛ مما يسهم في تناسق العبارات والفقرات، وذلك بتخير الألفاظ ثم نظمها في نسق خاص، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، وقد أكثر علماء البلاغة- خاصة- في بيان أثر الجمل في ذلك كله.

يقول الخفاجي(ت٤٦٦):(البحث عن مناسبة الكلم المفردة وإن كان أرسخ في البلاغة إلا أن ملاحظة الارتباط فيما بين الجمل أدق وألطف؛ لأنها في الأغلب بين

الجمل باعتبار المعاني العقلية وفي المفردات باعتبار المعاني الوصفية، ولا شك أن الأولى ألطف وأخفى)[٢].

وقال السيوطي (ت ٩١١هـ): (يعبر علماء المعاني عن ارتباط جمل القرآن بعضها ببعض بالمناسبة أو المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينها، عامٍّ أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي أو غير ذلك من أنواع العلاقات التي يحرص علماء النحو والمعربون على بيانها خاصةً في الجمل الاستئنافية، فهم يبيّنون التلازم بين الجمل، أعني التلازم الذهني كالسَّبب والمسبب والعلَّة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه)[٣].

فحين تترابط الجمل وتتماسك فهي قاصدة إلى تهذيب النفس وإرشادها إلى الطريق السوي، وعندما تكون الجمل غير مرتبة، أو جين لا توصف بالترتيب فيكون هذا مقصود لذاته، ليمثل حالة من اضطراب النفس أو يصورها.

وفي أسلوب القصص القرآني يكون لترتيب الجمل الأثر البارز في بيان الأحداث وتسلسلها، مما يؤدي إلى تصوير الحدث في القصة، ويربط بين عناصرها، ويحولها إلى مشاهد قصيرة تتحول في النهاية إلى قصة طويلة مرتبة متسلسلة[٤].

ترتيب الجمل في السياق نفسه:-

فقد تُقدم جملة وتُؤخر أخرى في السياق نفسه؛ وذلك لأن الجملة الأولى تحتوي على سبب أعظم من السبب الذي تحويه الجملة الثانية، وكما في سياق قوله: چ□ □چ[٥]، فتلاحظ في هذا السياق أن جملة النداء الأولى چ □ □ □ □ چ تقدمت على جملة النداء الثانية چ □ □ چ؛ وذلك لأن إذهاب ماء الطوفان– وبسرعة– عن طريق بلع الأرض له وإدخاله في باطن الأرض هو أمر عظيم لأنه غير معتاد. أما إقلاع السماء وكفها عن نزول المطر فهو أمر معتاد وطبيعي. فلذلك قُدمت الجملة التي فيها سبب أعظم من السبب الموجود في الأخرى والملاحظ في هذا السياق– أيضاً– تقديم الأرض على السماء خلافاً للمعتاد في أغلب مواضع ذكر السماء والأرض وذلك للسبب نفسه[٦].

وترتيب الجمل في أسلوب القرآن الكريم من الأمور الدقيقة؛ لأنه ينظر إلى المعاني وتتابعها، وكيف يمهد سابقها للاحقها. فيمكن أن تتقدم الجملة على أختها؛ لأنها أدلُّ على الغرض المسوق له الكلام، ففي قوله تعلى: چپ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ چ[٧]، يجيب الزمخشري عن سبب التقديم– الترتيب– في هذا السياق فيقول: (فإن قلت لمَ جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت: قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة مشي من أرجل أو قوائم ثم الماشي على الرجلين ثم الماشي على أربع)[٨]. وقد تتقدم الجملة على أخواتها في السياق القرآني؛ لأنها أدلُّ على الأكثر عدداً، كما في قوله تعالى: چٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڄ ڄ ڄ چ[٩]، فنلاحظ أن السياق القرآني قدم جملة(الظالم لنفسه) ثم جملة (المقتصد) ثم جملة (السابق بالخيرات) وذلك للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل مقارنة معهم، والسابقون أقل هؤلاء، وهم القلة في كل المجتمعات؛ فلذلك جاء ترتيبهم في الذكر آخر الأصناف الثلاثة[١٠].

وتقديم الجمل وترتيبها في الذكر في أسلوب القرآن يقوم على مقياس دقيق، فيقوم السياق بتقديم الجمل التي تحوي على ما يدفع النفس إلى محاربة شهواتها ومجاهدة شرورها؛ فتُقدم الجملة التي تحوي السبب على الجملة التي تحوي المسبب، كما في قوله تعالى: چ ڃ ڃ چ چ ڇ ڇ ڇ چ[١١] وقوله تعالى: چ ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ چ[١٢]، فنلاحظ في سياق الآيتين تقديم جملة (غض البصر) على جملة (حفظ الفرج)؛ وذلك لأن النظر هو بريد الزنى والمؤدي إليه، وبداية الفاحشة، وهو المسبب له. فإذا غضّ الإنسان بصره حفظ بذلك شهوته: وعُصم من الفاحشة؛ ولذلك نراه في سياق سورة النور الذي يتحدث عن غض البصر وحفظ فروج المؤمنين يتبع ذلك بقوله ٹ ٹ ڄ ڄ ڄ ڃ چ ڇ ٹ ٹ ٹ ٹ ڦ ڦ ڦ ڦ چ[١٣]، فكان الترتيب موافقاً لتهذيب النفس وإرشادها إلى طريق البرِّ وأخذٍ بالأسباب التي تُبعدها عن مواطن الرذيلة[١٤]. فما (أحسن ما رتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية وهو غضُ البصر، ثم بالنكاح الذي يُحصنُ به

الدين، ويقع به الاستغناء بالحلال عن الحرام ثم الحمْل على النفس بالسوء وعزوفها عن الطموح إلى الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يُرزق القدرة عليه)[١٥].

ومن تقديم السبب على المسبب أيضاً، قوله تعالى: ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭼ[١٦]، فنلاحظ أن جملة العبادة قُدمت على جملة الاستعانة، وهذا التقديم من باب تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة، وذلك أنجح في توقيع حصولها.

ويتكلم ابن القيم (ت ٧٥١)– رحمه الله– بكلام نفيس في سبب ترتيب العبادة قبل الاستعانة، فيذهب إلى أن الإنسان الذي لا يحقق العبادة الخالصة لا تحقق له الاستعانة؛ ذلك أن جملة ﭽ ﭦ ﭧ ﭨ ﭼ تدفع الرياء: لأن فيها الإخلاص بالعبادة وعدم الشرك، ﭽ ﭨ ﭼ تدفع الكبرياء لأن فيها إحسان الأنسان بالضعف والعبودية والحاجة لله سبحانه وتعالى[١٧].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﭽ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿

يراه الإنسان وهو منه على بصيرة بعكس ما يعرج إلى السماء أو ما ينزل منها فهو لا يراه: والله أعلم[٢٧] .

وترتيب الجمل وتقديمها على بعضها في سياق القرآن يوحي بقدرة الخالق- عز وجل- وأنه يفعل ما يشاء وأنه على كل شيء قدير. ونلمس ذلك في سياق قوله تعالى: چۇ ۆ ۆ ۈ ۇ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ی ی ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم حج حم خج خم سج سح سخ سم صح صم ضج ضح ضخ ضم طح طم ظم عج عم غج غم فج فح فخ فم قح قم كج كح كخ كل كم گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ

وأنها سمات الكائن الحي لأنهم يملكون مثلها، فكان الأجدر بهم عدم دعاء من لا يملك واحدة من هذه الآلات فضلاً عن جميعها. فبدأ بالجملة التي تتحدث عن دليل الحياة والحركة وهي الرجل ثم بالجملة التي تحوي دليل القوة والبطش والانتاج ثم الجملة التي تحوي دليل البصر والتمييز ثم أخيراً بالجملة التي تحوي على دليل السمع والإدراك.

ويمكن أن يأتي السياق القرآني في كثير من الأحيان مُغفلاً الترتيب المنطقي للأحداث أو الموضوعات؛ وذلك لأنه يقدم الجملة التي تكون مقصودة في الدلالة، فإذا أمعنا النظر في هذا الترتيب أو النظم وجدنا أنه قائم على مقياس دقيق للمعنى.

ففي قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[٣٨] نلاحظ أن في هذا السياق كان ترتيب الجمل منطقياً، فالحمر انكشف لها الأسد، فخافت، فهربت مسرعة إلى مكان آمن[٣٩].

إلا أننا في سياق آخر نجد أن الترتيب قد انعكس، وذلك كما في قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[٤٠]. ففي هذا السياق رتب القرآن الفرار على الخوف. أي إنه بعد أن انكشف أمر موسى- عليه السلام- في قتل الرجل من آل فرعون، فيكون المعنى مترتباً بالشكل التالي:قتل، فانكشف أمره، فخاف، ففر. لكنه قدم الفرار في الذكر؛ لأنه هو المهم في الموضوع، فضلاً عن خروجه من بلده إلى بلدٍ آخر وهي السنة الكونية المتبعة مع الأنبياء- عليهم السلام[٤١].

ونلاحظ اختلاف الترتيب أيضاً في قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭼ[٤٢]. فقد قدمت جملة الفرار على جملة الخوف والرعب، وذلك لأن النتيجة الحتمية للخوف سوف تكون الفرار قطعاً، ولذلك قُدمت الجملة التي تحتوي على النتيجة النهائية والحدث الأهم في السياق. وهذا يعني- أيضاً- أن هذه الواو لا تفيد ترتيباً وإنما تفيد العطف والرعب ثانياً، فالاسراع في الفرار ثالثاً[٤٣].

ونلحظ اغفال الترتيب- أيضاً- بين الجمل التي تتحدث عن الآيات الكونية، وذلك أنه من المنطقي أن ترتب تلك الآيات بحسب عظمتها ومكانتها في الكون. إلا

أنه قد يُعدل عن ذلك الترتيب؛ لأن في أغفال ترتيبها ملحظاً أسلوبياً ودلالياً غاية في الدقة.

وذلك كما في قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ[٤٤]. فالسياق العام للجمل هو التأمل في آيات الله الكونية ليصل الإنسان إلى الإيمان بالبعث والحساب. إلا أننا نلاحظ أن السياق قد ابتدأ بالجملة التي تتحدث عن خلق الإبل ثم بعد ذلك ذكر السماء ثم الجبال ثم الأرض، مع العلم أن آية السماء أعظم من آية الإبل، وكذلك الجبال فضلاً عن الأرض. إلا أننا إذا أمعنا النظر إلى دقة التعبير والنظم لوجدنا أن التناسب في ترتيب الجمل واضح ودقيق في الآن نفسه. فالحديث عن هذا السياق موجه بالدرجة الأساس إلى العرب الذين كانوا يسكنون البادية، ولا شك أن الإبل هي عنصر أساس في حياة البدوي في صحرائه، لذلك بدأ به السياق في الترتيب، وانتقل من الإبل إلى ما يراه أمامه في كل حين في هذه الصحراء وهي السماء التي رفعت بغير عمد، وللسماء مكانة خاصة عنده يتجه إليها ببصره يستنزل منها الغيث ويهتدي بنجومها في سُواة الليل، فإذا ما هبط ببصره قليلاً رأى آية الجبال الشامخة، منصوبة تناطح السماء بقممها وترسو في ثبات واطمئنان على أرض مُهدت لهذه الجبال العظيمة وسُطحت وبُسطت أمام هذا البدوي فنلاحظ أن ترتيب الجمل جاء منتظماً لانتقال بصر البدوي، فبدأ بصره بالإبل أو البعير القريب منه، فهو الدابة التي يقطع بها الصحراء، ثم انتقل إلى السماء التي يراها إينما اتجه في الصحراء ثم إلى الجبال التي تلامس السماء ثم إلى الأرض التي نصبت عليها هذه الجبال وبسطت فهي آخر ما يراه بصره في هذا الانتقال الهاديء الذي لا قفر فيه. فكان ارتباط الجمل وترتيبها موافقاً لطبيعة هذا البدوي وما في نفسه. فهو ترتيب دقيق جداً وفي منتهى البلاغة[٤٥].

ويمكن أن نلاحظ في السياق القرآني مجيء جملتين مرتبتين ترتيباً معيناً ثم ينعكس ذلك الترتيب في السياق نفسه أو يكون ذلك بحسب متطلبات المعنى في ذلك السياق، كما في قوله تعالى: ﭽ □ □ □

فنلاحظ أن جملة (القتل) قدمتْ على جملة (الموت)، في الحالة الأولى أو في الشطر الأول من السياق، أما في الشطر الثاني فنلاحظ أن الترتيب قد انعكس فقُدمت جملة (الموت) على جملة (القتل)؛ ويرجع السبب في ذلك إلى دقة المعنى والحرص على الدقة الفنية في التعبير القرآني.

فالشطر الأول: في الآية قد ذُكر في سياق تأكيد القتال في سبيل الله على حسب ما تشير إليه الآية التي قبلها أو ما تؤكده خاتمة لآية نفسها وهي قوله تعالى: چ□ □ □ □ □ □ □ چ.

أما الشطر الثاني: من السياق فقد ذُكر في سياق تأكيد حقيقة ثابتة وهي أن الجميع يحشرون إلى الله والحشر واقع لكل مخلوق، ابتدءً من آدم وانتهاءً بآخر ابنائه عند قيام الساعة. والموت الطبيعي عُرف قبل الموت الذي هو عن طريق القتال فضلاً عن كون القتل هو أحد أسباب الموت وليس كلها[٤٧].

اختلاف ترتيب الجمل في سياقين مختلفين:-

إن السياق القرآني عندما يجمع الجمل في سياق ما أو تتبع، فإنه يتبع أسلوبين في ذلك، فإما أن يحافظ على ترتيب الجمل في كل السياقات والمواضع التي ترد فيها– واعني الجمل المتشابه– وذلك لينبه على أن المقدم في الترتيب مقدم في التنفيذ أو مقدم في الأيمان أو الأركان– وذلك كما في تقديم الصلاة على الزكاة في كل الجمل التي وردت في السياق القرآني، مثل قوله تعالى: چ □ □ □ □ □ چ[٤٨]؛ وذلك لأن ركن الصلاة في الإسلام مقدم على ركن الزكاة[٤٩].

أما الأسلوب الثاني فهو اختلاف الترتيب في إيراد الجمل بين السياقات المتشابهة في المواضع المختلفة، وهذا الأسلوب يكون لأسباب دلالية وبلاغية بحسب التقديم أو التأخير في هذا السياق أو ذاك.

فمن ذلك اختلاف ترتيب الجمل بين قوله تعالى في سورة البقرة چپ پ پ ٺ ٺ چ[٥٠] وبين قوله تعالى في سورة الأعراف چ ڑ ک ک ک ک چ[٥١].

فمن الملاحظ في السياقين أن الواو لا يُراد بها الترتيب، وإنما المراد باختلاف الترتيب هنا العناية والاهتمام[٥٢]. يقول ابن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨ هـ): (أن قولهم: حطة دعاء أمروا به في سجدوهم فلو ورد في السورتين على حد سواء لأوهم من حيث مقتضى الواو في الاحتمال أنهم أمروا بالسجود والقول منفصلين غير مساوق أحدهما للآخر على أحد محتملات الواو في عدم الرتبة، فقدم وأخر في السورتين ليحرز المجموع أن المراد بهذا القول أن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده، وتعين بهذا معنى المعية من محتملات الواو وتحرر المقصود، وإن المراد: وادخلوا الباب سجداً قائلين في سجدوكم حطة، فاكتفيَ بتقليب الورود عن الافصاح بمعنى المعية إيجازاً جَليلاً وبلاغة عظيمة. وقدم في البقرة الأمر بالسجود؛ لأن ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساوق المطلوبان)[٥٣].

ويبدو أن الأمر مختلف، وذلك معلوم من السياق الذي وردت فيه كلتا الآيتين فلو رجعنا إلى سياق سورة البقرة وهو قوله تعالى: چٱ ب ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ چ وسياق سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: چڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ چ، لوجدنا أن سياق سورة البقرة يتحدث بصيغة المبني للمعلوم چٱ ب چ، وهذا الأسلوب يحتم أن يكون هناك ربط للإحداث مثالي، أي مرتب، لذلك استعملت الواو هنا للترتيب في هذا السياق، والدليل على ذلك أيضاً هو مجيء الجملة الأخيرة في الآية معطوفة بالواو قال تعالى : چ ڈ ڈ چ أما في سياق سورة الأعراف ، فكان الحديث بصيغة المبني للمجهول چڍ ڌ چ وفي ذلك إشعار بأن السياق يروى عن مجهول، ومن هذا المنطلق لا يتحتم أن تكون الأحداث مرتبة بحسب الحصول، فيمكن أن يُقدم فيها ويُؤخر ؛ لأنها مروية بالأصل عن مجهول، لذلك جاءت الجملة الأخيرة في السياق بدون واو چڳ ڳ چ أي أنها مفصولة عن الجمل قبلها، وكأنها جملة تتحدث عن حالة عامة وليست خاصة بهؤلاء المذكورين في السياق نفسه.

وهكذا فإن ترتيب الجمل في أسلوب القرآن الكريم يخضع لقوانين السياق جميعها بشكل عام. أي أننا من خلال السياق يمكننا أن نحدد السبب في مجيء

الجمل على نحو معين من الترتيب. فالملاحظ أنه في الأول استعمل الفعل (ادخلوا). في حين استعمل الفعل (اسكنوا) في السياق الثاني، ومن المؤكد أن (الدخول) يختلف عن (السكن)، وأن الحذف من سمات المبني للمجهول، فناسب السياق لكل ما يحوي من ألفاظ. وكل ذلك يصب في دلالة واحدة وهي أن السياق الثاني لم تدل فيه (الواو) على الترتيب بعكس السياق الأول. والله أعلم.

ومن الشواهد– أيضاً– على اختلاف الترتيب في سياقين مختلفين ما ورد في قوله تعالى: چ ې ې ې □ ى ى ې ې □ □ □ □ □ چ[٥٤]، وقوله تعالى في السورة نفسها ولكن في موضع آخر چ ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ڳ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ٹ ٹ چ[٥٥].

فنلاحظ أن جملة الشفاعةچ□ □ □ □چ قد قُدمت على جملة العدل چى ى ې ې چ في السياق الأول. في حين أننا نجد أن جملة العدل قُدمت على جملة الشفاعة في السياق الثاني. وذلك يرجع إلى أن الشفاعة قد قدمت في السياق الأول لأهميتها في هذا المقام. وقُدم العدل في السياق الثاني لأهميته في موضعه؛ ذلك أن الشفاعة معناها التجاوز عن الذنوب، أما العدل فمعناه الفداء، والشفاعة مطلوبة في الدنيا والآخرة، أما العدل فلا يتوفر للمذنب ما يفتدي به يوم القيامة، فهو خاص في الدنيا فقط وبذلك تكون الشفاعة أقوى وأعم من الفداء في كل حال[٥٦].

اسقاط جملة أو أكثر في الترتيب:

وهذا الموضوع قريب جداً في الدلالة من الموضوع السابق، حيث إنه يمكن أن تتابع الجمل أو تترتب في السياق القرآني عن طريق العطف، أو من غير العطف ولكن إن دققنا النظر في ذلك السياق وجدنا أن هناك جملة وربما أكثر من جملة محذوفة بين هاتين الجملتين المتتاليتين، يمكن أن تترتب بينهما ولكن أسلوب القرآن قد عدل إلى حذف هذه الجملة أو الجمل لأسباب بلاغية وأسلوبية متعددة.

ومن المعروف إن حذف الكلمة في أسلوب الجملة يمكن أن يأتي كثيراً في كلام البلغاء إلا أن حذف جملة أو أكثر لا نكاد نجده إلا في كتاب الله– عز وجل– لأن الجملة ذات فائدة مستقلة؛ وحذفها يؤدي إلى خللٍ في المعنى ونقصٍ في الغرض المقصود فلا يستطيع أحد أن يرتب كلامه، بحيث إذا حذفت منه جملة أو أكثر، سيؤدي الغرض المقصود. وهذا لا ينطبق على كلام رب العالمين– المعجز– وذلك لأنه على الرغم مما يحُذف من جمل في السياق إلا أنه يعطيك المعاني كاملة، وتجد معه حلاوة الإيجاز الناشئة من روعة الإعجاز، وذلك كثير في كتاب الله[٥٧].

ولا بد من أن نشير هنا إلى أن لترتيب الجمل أو اتساقها الأثر البارز والمهم في الاستدلال على الجملة المحذوفة أو الجمل في السياق القرآني.

فمن شواهد حذف الجملة في أسلوب القرآن الكريم، ما ورد في سياق قوله تعالى: چھ ھ ے ےچ[٥٨] وقوله چ □ □ □ □ □ چ[٥٩] وقوله چڈ ڈ ژ ژچ[٦٠]، ففي كل الآيات المذكورة هناك جملة محذوفة تقديرها: (أرسلنا)، والدليل على ذلك هو الترتيب الذي يمثله العطف، وكذلك المعنى المتحصل عليه من خلال النظم.

ونجد أيضاً في سياق قوله تعالى: چۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴچ أن هناك حذفاً لجملة (اتبعهم) الثانية، إذ التقدير: اتبعهم يوم القيامة لعنة[٦١].

وقد حُذفت هذه الجملة لدلالة الأولى عليها، فضلاً عن كون لعنة يوم القيامة تختلف عن لعنة الدنيا حالاً وزماناً؛ ولذلك آثر السياق حذفها ليجعلها غائبة عن التصور أو الكيفية، واكتفى السياق بالتلميح إليها عن طريق الجملة الأولى.

ويطّرد في أسلوب القرآن الكريم حذف جملة القول، ويكثر هذا الأسلوب في الإيجاز في وصف مشاهد القيامة والحشر والحساب، وغيرها من مواقف الوعد والوعيد، يقول تعالى: چڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ چ[٦٢]، والشاهد هنا هو وجود جملة محذوفة في السياق قبل جملة چ ڍ ڍچ، وأصل ترتيب الكلام هو: يقال لهم: لقد جئتمونا.

والسبب في بناء هذا الأسلوب على الحذف هو مجيء الأسلوب على الإلتفات في الكلام، فبعد أن كان الكلام موجهاً بضمير الغائب في چ ڤ چ تحول الكلام إلى ضمير المتكلم في چ ڤ چ، وهذا الأسلوب له أثره في المعنى وخصائصه في التصوير، فهو يتجه إليهم معنفاً أشد تعنيف: لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرُلى، ولكنكم كنتم تكذبون وتقولون ذلك رجع بعيد وتزعمون ألّن نجعل لكم موعدا. وهذا المعنى الذي جاء على طريقة الإلتفات التي هيّأ لها الحذف وهو فيصل القضاء في هذا الموقف لأنه متعلق بالايمان والتصديق والانكار والتكذيب في رسالات السماء[٦٣].

ومن أدق مواضع حذف الجملة في التعبير القرآني، هو حذف الجملة المترتبة بعد الفاء الفصيحة وتكون الجملة المحذوفة مختفية وراءها، وتدل على الجملة المحذوفة الجملة التي بعدها في الترتيب الجملي في السياق فيتضح أن سبباً ما أستوجب حذفها من السياق، وكما في سياق قصة موسى- عليه السلام- عندما طلب الاستسقاء لقومه، فقال تعالى: چ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک چ[٦٤]. فنلاحظ أن الخالق- عز وجل- بعد أن أمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر في قوله چ ڇ ڇ ڇ ڍ چ، لم نرَ في السياق جملة الاستجابة لهذا الأمر، بل جاءت الجملة التي تشير إلى نتيجة فعل الضرب، وهي جملة (فانفجرت). أي أن هناك جملة محذوفة قبل هذه الجملة قد دلت عليها هذه الفاء الموجودة في الجملة التي ترتبت بعدها مباشرة[٦٥].

وهذه الفاء في بداية هذه الجملة (فانفجرت) ليست الفاء العاطفة، كما أنها ليست استئنافية، فهذا الموضع ليس موضعاً للاستئناف. وإنما تسمى هذه الفاء، بالفاء الفصيحة، وسمُيت كذلك لأنها تفصح عن جملة محذوفة تامة الأركان قد أُضمرت بعدها؛ وتقدير الكلام: اضرب بعصاك الحجر فضرب فانفجرت منه...[٦٦].

وتحذف في مثل هذه الحالات الجملة الفعلية المتكونة من الفعل والفاعل- وهما أركان الجملة الفعلية؛ وذلك لأنه في كثير من الأحيان ينزل الفاعل منزلة الجزء

من الفعل- وهو بذلك يشبه المفرد- مما يدل على شدة اتصال الفعل بالفاعل وأنه يشكل معه جزءاً واحداً. ولا ينطبق ذلك على الجملة الاسمية المكونة من المبتدأ والخبر[٦٧].

لأن الأصل في الجملة الترتيب والذكر، وقد عُدل عن ذلك هنا بحذف الجملة بعد الفاء الفصيحة- الجملة المفصوح عنها- ويأتي هذا الأسلوب في نظم الجمل القرآنية بدافع مفاجأة القاريء أو المخاطب بأحداث سريعة، وقد حذفت من بينها أحداث سريعة، وقد حذفت من بينها أحداث تجري، وقد أُسقطت هذه الأحداث عن طريق طرح الجمل؛ لأن السياق يريد التأكيد على أحداث معينة ومهمة في آن واحد، وأن الأحداث- الجمل- المحذوفة يمكن تقديرها من خلال الجمل المذكورة في السياق نفسه، وإن السامع أو المتلقي في كثير من الأحيان لا يجد صعوبة في معرفة الجمل أو الأحداث المحذوفة في هذا السياق أو ذاك، وهذا النمط من الحذف يكثر في أسلوب القرآن القصصي أو في تتابع الأحداث؛ لذلك نجد الفاء الفصيحة كثيراً فيه، ويؤذن وجودها باختصار أحداث كثيرة ومن ثمَّ تحقيق الإيجاز من جهة، وكي يصل إلى الأحداث الأهم من إيراد تلك القصص[٦٨].

وذلك كما شاهدنا في سياق الآية السابقة. وكذلك في قولة تعالى: چ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ چ[٦٩]، ففي السياق جملة محذوفة قبل جملة چ ڻ چ وهي الجملة المقدرة بـ(فامتثلتم). أي: فامتثلتم فتاب عليكم[٧٠].

وقد تُحذف أكثر من جملة في أسلوب القرآن، كما في قوله تعالى: چ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ، والتقدير: فأتيناهم فبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم تدميرا. والسبب في حذف هذه الجمل من الترتيب هو لغرض الإيجاز واختصار الأحداث، والتأكيد على الجانب المهم فيهما. فذكر أولها وآخرها؛ لأنه

المقصود من إيرادها وهو إلزام الحجة بمبعث الرسل إليهم واستحقاقهم التدمير لتكذيبهم. أو أن التدمير قد نتج عن التكذيب بعد إرسال الرسل[٧١].

ويمكن أن تُحذف أكثر من جملة في أسلوب القرآن من غير أن تدخل تلك الفاء؛ وذلك راجع إلى طبيعة اللغة وخصائصها الأسلوبية التي استغلها القرآن ووظفها أحسن توظيف في الاستفادة من كل إمكانات اللغة وطاقاتها.

ونلاحظ ذلك جلياً في سياقات عدة من القرآن الكريم، من ذلك ما ورد في قصة سليمان- عليه السلام- مع الهدهد الذي بعثه إلى ملكة سبأ، في قوله تعالى ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿

الهوامش:

(*) السياق: إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط.

(١) ينظر الجامع لإعراب جمل القرآن- د. أيمن الشوّا: ٢٠.

(٢) الصناعتين- ابن سنان الخفاجي: ٨٥/ ٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن- السيوطي: ٣/ ١٤١.

(٤) ينظر: الفصل والوصل في القرآن الكريم- د. منير سلطان: 135.

(٥) سورة هود: ٤٤.

(٦) ينظر: المشاهد في القرآن الكريم- د. حامد صادق قنيبي: ٤٠٦.

(٧) سورة النور: ٤٥.

(٨) الكشاف: ٣/ ٧٩٨.

(٩) سورة فاطر: ٣٢.

(١٠) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري- د. محمد أبو موسى: ٣٨٣.

(١١) سورة النور: ٣٠.

(١٢) سورة النور: ٣١.

(١٣) سورة النور: ٣٣.

(١٤) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٢٨٣ والفصل والوصل في القرآن الكريم: ١٢٦- ١٢٧.

(١٥) الكاشف: ٣/ ٧٩٣.

(١٦) سورة الفاتحة: ٤.

(١٧) ينظر: التفسير القيم: ٤٧-٤٨ ومن بلاغة القرآن. د. أحمد بدوي:١١٤.

(١٨) سورة الفرقان: ٤٨- ٤٩.

(١٩) ينظر: وبلاغة القرآن: ١١٤.

(٢٠) سورة البقرة: ٢٢٢.

(٢١) ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن- ابن الزملكاني: ٢٩١.

(٢٢) سورة الرحمن: ١- ٥.

(٢٣) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢٤) ينظر: الكشاف: 4/ 1206 والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 383.

(٢٥) ينظر: علم اللغة النصي- د. صبحي إبراهيم الفقي: 1/ 73.

(٢٦) سورة سبأ: ٢.

(٢٧) ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٢٩١.

(٢٨) سورة الشورى: ٤٩.

(٢٩) ينظر: المعاني في ضوء اساليب القرآن- د. عبدالفتاح لاشين: ١٥٩.

(٣٠) سورة النحل: ٥٨.

(٣١) ينظر: ملاك التأويل- ابن الزبير الغرناطي: 2/ 1010- 1011.

(٣٢) سورة النحل: ٥.

(٣٣) ينظر: الكشاف: ٢/ ٦٠٠- ٦٠١.

(٣٤) الكاشف: ٢/ ٦٠١ وبلاغة الكلمة والجملة والجمل- د. منير سلطان: ١١٨.

(٣٥) سورة الأعراف: ١٩٤- ١٩٥.

(٣٦) ينظر: محاسن التأويل- القاسمي: 7/ 861- 682.

(٣٧) محاسن التأويل: ٧/ ٦٨٢.

(٣٨) سورة المدثر: ٤٩- ٥١.

(٣٩) ينظر: الترادف في القرآن الكريم: ١٣٧.

(٤٠) سورة الشعراء: ٢١.

(٤١) ينظر: الترادف في القرآن الكريم: ١٣٧.

(٤٢) سورة الكهف: ١٨.

(٤٣) ينظر: الترادف في القرآن الكريم: ١٣٨.

(٤٤) سورة الغاشية: ١٧- ٢٠.

(٤٥) ينظر: من بلاغة القرآن: ١٧٤ والمعاني في ضوء أساليب القرآن: ٢٣٣.

(٤٦) سورة آل عمران: ١٥٧- ١٥٨.

(٤٧) ينظر: الإعجاز الفني في القرآن- عمر السلامي: ١١٧- ١١٨.

(٤٨) سورة المائدة: 5، التوبة: 71، النحل: 3، لقمان: 4.

(٤٩) وهناك سياقات أخرى وردت بترتيب واحد في جميع المواضع، مثل قوله تعالى: چ □ □ □ □ □ □ □ چ (النساء : ٥٩) وقوله تعالى: چ گ گ گ چ (الحديد : ٧) وغيرها.
(٥٠) سورة البقرة : ٥٨ .
(٥١) سورة الأعراف : ١٦١ .
(٥٢) ينظر: الجملة العربية- تأليفها وأقسامها- د. فاضل السامرائي: ٤٤.
(٥٣) ملاك التأويل: 1/ 205.
(٥٤) سورة البقرة: ٤٧ – ٤٨
(٥٥) سورة البقرة: ١٢٣
(٥٦) ينظر: روائع القرآن وجنة البيان- د. محمد ضاهروتر: 387.
(٥٧) ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان- ابن القيم: 105.
(٥٨) سورة هود: 50.
(٥٩) سورة هود: 61.
(٦٠) سورة هود: 84.
(٦١) ينظر: سورة هود دراسة لغوية ودلالية: 207.
(٦٢) سورة الكهف: 47- 48.
(٦٣) ينظر: خصائص التراكيب- د. محمد أبو موسى: 287.
(٦٤) سورة البقرة: 60.
(٦٥) ينظر: الكشاف: 1/ 65- 66 والإيضاح: 110.
(٦٦) ينظر: الخصائص: 2/ 361 والإيضاح: 110.
(٦٧) ينظر الخصائص: 2/ 361.
(٦٨) ينظر: الكشاف: 3/ 852 والإيضاح: 110.
(٦٩) سورة البقرة: 54.
(٧٠) ينظر: الإيضاح: 110.
(٧١) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: 383.
(٧٢) سورة النمل: 28- 29.
(٧٣) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: 1/ 469 وعلم اللغة النصي: 1/ 60.

مصادر البحث:

1- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1407هـ- 1987م.
2- الإعجاز الفني في القرآن، عمر السلامي، نشر وتوزيع مؤسسات عبدالكريم بن عبدالله، تونس، 1980م.
3- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، اعتنى به وراجعه عماد بسيوني زغلول، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة، الطبعة الأولى 1426هـ-2005م. بيروت،لبنان.
4- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبدالواحد بن عبدالكريم الزملكاني، تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، رئاسة ديوان الأوقاف، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، 1974م- 1394هـ.
5- البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الخامسة، 1418هـ- 1998م.
6- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، د. محمد أبو موسى، طبع ونشر دار الفكر العربي.
7- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، د. منير سلطان، الناشر منشأة المعارف. الإسكندرية، الطبعة الثانية، مصر، 1993م.
8- الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد دار الفكر، دمشق، سوريا، إعادة للطبعة الأولى، 1422هـ- 2001م.
9- تفسير القاسمي، المسمى (محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمي تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي،مؤسسة التاريخ العربي،بيروت،لبنان الطبعة الأولى1415هـ- 1994.
10- التفسير القيم، ابن قيم الجوزية، جمعة محمد ادريس الندوي وحققه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1978م.
11- الجامع لإعراب جمل القرآن، د. أيمن الشوّا. مكتبة الغزالي دمشق، دار الفيحاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ- 2000م.
12- الجملة العربية- تأليفها وأقسامها، د. فاضل صالح السامرائي منشورات المجمع العلمي العراقي.

13- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. عبدالحبيد هنداوي دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية 1424هـ- 2003م.
14- خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد أبو موسى الناشر: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الرابعة، 1416هـ- 1996م.
15- روائع القرآن وخبة البيان، د. محمد ضاهروتر، دار الألباب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى- 1422هـ- 2002م.
16- سورة هود دراسة لغوية ودلالية- اطروحة دكتوراه، عبدالكريم ناصر الخزرجي كلية الآداب، جامعة البصرة 1421هـ- 2000م.
17- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية د. صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى 1421هـ- 2000م.
18- الفصل والوصل في القرآن الكريم- د. منير سلطان، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، الطبعة الثانية 19970م.
19- الفوائد المشوق إلى علوم وعلم البيان،ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان.
20- الكشاف، الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان المطبعة الأولى 1424هـ- 2003م.
21- المشاهد في القرآن الكريم، دراسة تحليلية وصفية، د. حامد صادق قنيبي، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، الطبعة الأولى 1984م.
22- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبدالفتاح لاشين، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابع 1419هـ- 1999م.
23- ملاك التأويل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ- 1983م.
24- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، مصر، 1950م.

موقف الأصوليين من مدلول الأمر الوارد بعد الحظر وأثره في اختلاف الفقهاء

د. سلام خليل علوان الشجيري
جامعة تكريت/ كلية التربية للبنات
د. عثمان فوزي العبيدي
جامعة تكريت/ كلية التربية للبنات

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي بعث رسوله بالحق، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي هدانا بما عمل وبما به نطق، وعلى آله وصحبه أفضل صلاة، وأتم سلام إلى يوم الحساب، أما بعد:

فإنّ من الواضح للباحثين في أصول الفقه بأنّ صيغ التكليف للعباد تظهر في الألفاظ التي استعملت للدلالة على الأمر أو النهي، ولهذا اهتم الأصوليون في مدلولات الأمر والنهي، وبعد دراسة كتب الأصول التي استطعت الحصول عليها علمت بأنّ الأصوليين درسوا صيغ التكليف دراسة دقيقة في كتب المراجع الأصولية، فأخذ الباحثون في عصرنا ينتهلون من الموارد الصافية ما يريدون البحث فيه، فيعرضونه بشكل مبسط يستطيع به طالب العلم أن يقارن بين مذاهب الأصوليين، وقد كان لدلالة الأمر الوارد بعد الحظر نصيباً كبيراً من جهود الباحثين، ولكني رأيت أنّ البحوث الحديثة لم تكن كافية للإلمام في هذا الموضوع؛ فشرعت في كتابة هذا البحث المتواضع راجيا من الله العلي العظيم أن يوفقني فيما أكتب لخدمة هذا الدين الحنيف.

وقد كان من الضروري أن أقسم هذا البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث، فكان المبحث الأول في آراء الأصوليين في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر، أما المبحث الثاني فقد ناقشت فيه أدلة كل فريق مع بيان الراجح منها، وأما المبحث الثالث في آثار الاختلاف في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر، ومن الله التوفيق.

تمهيد

إنّ صيغ التكليف عند الأصوليين إما أن تكون أمراً لشيء معين، أو نهياً عن شيء معين، ولكل من الأمر أو النهي صيغه الخاصة به من حيث الاستعمال اللغوي، فقد يستعمل الأمر للوجوب، أو للندب، أو للإباحة، أو للإرشاد، أو للتهديد، أو للدعاء، أو للتكوين، أو للإهانة، وغير ذلك من الاستعمالات.

أما من حيث وضع صيغة الأمر بكونها حقيقة في أي معنى من المعاني فقد اختلف الأصوليون في ذلك، فذهب أكثر الأصوليين إلى أنه حقيقة في الوجوب، مجاز في غيره، وذهب فريق منهم إلى أنه حقيقة في الندب مجاز فيما عداه، وذهب البعض الآخر إلى إنّ صيغة الأمر حقيقة مشتركة بين الوجوب والندب والإباحة[١].

وقد تناولت كتب الأصول آراء العلماء في هذه المسألة بالتفصيل الدقيق إلا أنهم اختلفوا أيضاً في حقيقة الأمر الوارد بعد الحظر، وقد شرعنا ببيان مذاهبهم في هذه المسألة

وبالله التوفيق والسداد

المبحث الأول

آراء الأصوليين في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر

إنّ الأوامر التي وردت من الشارع الحكيم أكثرها مطلقة ـ غير مسبوقة بحظر – إلا أنّ الأمر في بعض الأحيان قد يكون مسبوقا بحظر، ففي هذه الحالة اختلف الأصوليون في مدلوله على عدة أقوال أشهرها أربعة، وهي كما يأتي:

القول الأول: إنّ الأمر الوارد بعد الحظر وقبله سواء، وإلى هذا ذهب جمهور الأصوليين[٢].

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بأنّ المقتضى المطلوب من الأمر قائم لأنّ الأدلة التي أفادت أنه موضوع للوجوب أو غيره لم تفرق بين أمر مسبوق بحظر ،أو غير مسبوق به.

إذ أنّ الأمر ورد في الكتاب العزيز بعد الحظر كالأمر الوارد من غير حظر كما في قوله (ﷻ):ﭽ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾

اللغوية، وذلك كقوله (ﷻ): چۇ ۇ ۆ ۆ چ[٨]، وقوله (ﷻ):چ ے ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ چ[٩]، وقوله (ﷻ): چ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ[١٠]، وقوله: (ﷺ) ((كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها...))[١١]، وغير ذلك من النصوص التي تفيد بأنّ الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الإباحة[١٢].

القول الثالث: إنّ الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الندب، وإلى هذا القول ذهب بعض العلماء، ولكني لم أجد من صرّح به، ولكن كلامهم يقتضي أنهم يرون الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الندب، فقد صرّح الإمام البخاري[١٣] . رحمه الله ـ بأنّ من العلماء من قال بالندب، ونقل بعض الأقوال عن سعيد بن جبير[١٤]، وابن سيرين[١٥] – رحمهم الله – وما نقله يقتضي الندب، فقد قال: (قال سعيد بن جبير: إذا انصرفت من الجمعة، فساوم بشيء وإن لم تشتره، وعن ابن سيرين قال: ليعجبني أن يكون لي حاجة يوم الجمعة، فأقضيها بعد الانصراف)[١٦].

القول الرابع: إن كان الحظر السابق عارضاً لعلة، وعلقت صيغة أفعل بزواله فإنه يدل على رفع الذم فقط، والأمر هنا كالأمر المبتدأ الذي لم يسبقه حظر أصلاً، أما إذا لم يكن الحظر عارضاً لعلة ولا صيغة أفعل علق بزوالها، فيبقى موجب الصيغة على أصل التردد بين الندب والإباحة، والى هذا ذهب بعض العلماء ومنهم الإمام الغزالي[١٧] . رحمه الله . وغيره .

وأستدل أصحاب هذا القول على قولهم بأن الأمر في الحالة الأولى أنصرف بعرف الاستعمال برفع الذم فقط حتى رجع حكمه إلى ما كان عليه، أما في الحالة الثانية عندما لم يكن الأمر عارضاً لعلة ولاصيغة أفعل علق بزوالها فلا عرف له في الاستعمال فيبقى موجب الصيغة على أصل التردد بين الندب والإباحة[١٨] .

القول الخامس: يجب التوقف في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر حتى يعرف مراد الشارع الحكيم، وإلى هذا القول ذهب عدد كبير من الأصوليين كإمام الحرمين الجويني[١٩]، والآمدي[٢٠]، وغيرهم من العلماء رحمهم الله .

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بأن صيغة الأمر بعد الحظر تحتمل الإباحة والإذن في الفعل كما في قوله تعالى: چۇ ۇ ۆ ۆ چ، وقوله تعالى: چ ٹ ٹ ٹ ڤ چ، ويحتمل أن تكون مصروفة إلى الوجوب كما لو قيل للحائض والنفساء : إذا زال عنك الحيض أو النفاس فصلي وصومي، وفي هذه الاحتمالات إما أن يقال بتساوي الاحتمالين أو بترجيح أحدهما على الأخر، فإن قيل بالتساوي امتنع الجزم بأحدهما ووجب التوقف، وإن قيل بوجوب الترجيح وامتناع التعارض من كل وجه فليس اختصاص الوجوب أولى من الإباحة، إلا أن يقوم الدليل على التخصيص والاصل عدمه فيجب التوقف[٢١].

المبحث الثاني

مناقشة أدلة الأصوليين في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر

١ - مناقشة أدلة أصحاب القول الأول :

إنّ مما استدلّ عليه بعض الأصوليين بأنّ مدلول الأمر الوارد بعد الحظر وقبله سواء إذ إنّ مقتضى المطلوب من الأمر قائم لأنّ الأدلة التي أفادت أنه وضع للوجوب أو غيره لم تفرق بين أمر مسبوق بحظر أو غير مسبوق به، فإنه كلام سليم لو سلمنا بأنّ الأمر يفيد الوجوب على الدوام، فقد تكون هناك قرينة تصرف الأمر عن الوجوب إلى الندب أو الإباحة.

أما قولهم بأنّ الأمر ورد في الكتاب العزيز بعد الحظر كالأمر الوارد من غير حظر كما في قوله (ﷻ):چ ہ ہ ھ ھ ھ چ[٢٢]، وقوله (ﷻ): چ گ گ گ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ چ[٢٣]، والأمر للحائض والنفساء بالصوم بعد زوال الحيض والنفاس، وغير ذلك مما شابهها من الأوامر، فهذا لا يعني بأنّ الأمر بعد الحظر يدل على الوجوب لأنه قد يدلّ على الندب أو الإباحة أيضاً تبعاً للقرينة الصارفة له عن الوجوب[٢٤].

٢- مناقشة أدلة أصحاب القول الثاني :

إن قولهم بأنّ الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الإباحة لأنّ وروده بعد الحظر قرينة تصرفه عن الوجوب إلى الإباحة، فكلام فيه نظر لأنه قد يدلّ على الوجوب أو الندب أيضاً كقوله (ﷻ): چ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ چ[٢٥]، فكان الفطر بالأكل والشرب فرضاً لا بدّ منه بدليل النهي عن الوصال، وكذلك قوله (ﷻ):چ گ گ گ گ گ گ گ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ چ[٢٦]، فالانتشار المذكور في هذه الآية الكريمة هو الخروج من بيوت

النبي(ﷺ)، وهو فرض فلا يحلّ لهم القعود فيها بعد أن يطعموا ما دعوا إلى طعامه[٢٧].

أما عن قوله (ﷻ):چ ۇ ۆ ۆ چ[٢٨] إنه يفيد الإباحة فإنه ليس كذلك لأنّ النبي(ﷺ) حلّ من عمرته، ولم يصطد؛ وبهذا قد يكون الحكم للندب أو للإباحة[٢٩].

أما قوله (ﷻ):چ ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ چ[٣٠]، فإنه يفيد الإباحة بعد فترة الحظر، ولكنه ينقلب إلى فرض لأنّ مباشرة الرجل لزوجته فرض لا بدّ منه فلا يحلّ له هجرها في المضجع إلا لتجافيها له عن ذلك[٣١].

وأما قوله (ﷻ):چ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ[٣٢]، فإنه يدلّ على الإباحة مطلقاً لأنه قد يدلّ على الندب أيضاً لقوله (ﷺ): ((الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث...))[٣٣]، ولم يخصص صلاة من صلاة؛ فصحّ أنّ الانتشار مباح إلا للحدث، والنظر في مصالح نفسه وأهله فهو فرض[٣٤].

وأما قوله (ﷺ): ((كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها...))[٣٥]، يفيد الإباحة بعد الحظر فإنه كلام فيه نظر لأنّ الحديث الشريف قد يدلّ على الندب، لا الإباحة.

٣- مناقشة أدلة أصحاب القول الثالث :

إن ما ذهب إليه بعض العلماء إلى أنّ الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الندب استدلالاً بقوله (ﷻ):چ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ[٣٦]، فإنّ أمر الانتشار في الأرض، والابتغاء من فضل الله يفيد الندب، فقد يكون صحيحاً، ولكن ليس على إطلاقه؛ لأنه قد يفيد الوجوب أو الإباحة في نصوص أخرى، وكما أنّ سعيد بن جبير وابن سيرين ـ رحمهم الله ـ لم يصرحا بالندب، وإنما ذهبا إليه في هذا الموضع، وقد يرون خلاف هذا في مواضع أخرى.

٤- مناقشة أدلة أصحاب القول الرابع :

إن ما ذهب إليه أصحاب هذا القول بقولهم إن كان الحظر السابق عارضاً، وعلقت صيغة أفعل بزواله، فانه يدل على الذم فقط، أما اذا لم يكن الحظر السابق عارضاً لعلة ولا صيغة أفعل علق بزوالها، فيبقى موجب الصيغة على أصل التردد بين الندب والإباحة كلام فيه نظر، لان مجرد الغلبة لا يثبت العرف بل قصارى التعارف في الجملة والحقيقة مع القرينة قاضية عليه، لأننا لا نستطيع بأن صيغة الأمر بعد الحظر موضوعة للإباحة في أصل اللغة أو في العرف، لان المعقول من لفظة (افعل) الحث على الفعل بدون التخيير بين الفعل وتركه، والإباحة هي تخيير بين الفعل وتركه فلم تكن مستفادة من صيغة الأمر، وأن الشيء المأمور به مما تجب إباحته لولا النهي لما سبق إلى أفاهمنا من الأمر الإباحة، وكذلك لا نستطيع أن نقول أن صيغة الأمر بعد الحظر للندب أو الوجوب لوجود المعارض بالمنقول والعرف، فمن المنقول قوله تعالى: چ ہ ھ ھ چ وقوله تعالى: چ ئے ئۇ ئۆ ئۈ ئۇ ئۆ ئۈ چ، فقد ذهب أكثر أهل العلم إلى أن المراد بهذا النوع من الأوامر في كتاب الله ما جاء إلا للإباحة،

فوجب كونه حقيقة فيهما، أما العرف فأن السيد لو منع عبده من فعل شيء، ثم قال له (افعله)، فهم منه الإباحة فحصل التردد في دلالة الأمر لذلك لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا القول[٣٧].

والذي يبدو لي بعد الاطلاع على أدلة كل فريق أنّ ما ذهب إليه القائلون بالوقف هو الراجح لأنّ الأمر خطير، فهو يتعلق في قواعد أصول الفقه التي يعرف بها أوامر الشارع الحكيم، فيجب التأني قبل الحكم، ولكن لا بدّ من وجود ضوابط يستند إليه الفقيه لمعرفة الرأي الراجح بعد التوقف، والذي أراه أنّ الأصوليين القائلين بالوقف تناولوا هذا الأمر، وذهبوا إلى أنّ الفعل إذا كان مباحاً في الأصل، ثمّ ورد

الحظر وكان الحظر لمانع أو لظرف طارئ، فإذا زال ما تعلق به الحظر عاد الفعل إلى ما كان عليه كالمانع الذي منع المرأة من الصوم في العادة النسائية، وفيما بعد الولادة لفترة، فإذا زال هذا المانع وجب عليها الأداء ـ رجوع الأمر إلى ما كان عليه قبل الحظر ـ أي يكون الحكم للوجوب.

وكما هو الحال في المانع الذي منع الزوج من إتيان زوجته في بعض الأوقات، فإن زال المانع عاد الأمر إلى ما كان عليه، وهو الإباحة[٣٨].

أما إذا كان الفعل محظوراً في أصله، وجاء الأمر به بخلاف الحظر، فإنّ حكم الفعل في هذه الحالة هو الإباحة فقط كالأمر بزيارة القبور، فإنها كانت محظورة في الأصل، ثمّ زال الحظر بقوله (ﷺ): ((كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها...))، وغير ذلك من الأوامر المذكورة في كتب أصول الفقه.

المبحث الثالث

آثار الاختلاف في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر

إنّ حكم الأمر بعد الحظر من المواضيع المهمة في مباحث الأمر عند الأصوليين، وقد اختلف الفقهاء تبعاً لاختلافهم في دلالة الأمر الوارد بعد الحظر، وظهر هذا الاختلاف في كثير من مسائل الفقه، نذكر منها المسائل الآتية:

1- الأمر بزيارة القبور.
2- الأمر بالاصطياد بعد انقضاء الإحرام.
3- الأمر بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله بعد انقضاء صلاة الجمعة.
4- الأمر للحائض والنفساء بالصلاة والصوم بعد زوال الحيض والنفاس.
5- الأمر بالصلاة بعد زوال السكر.
6- الأمر بالقتل لشخص حرام القتل بالإسلام، أو الذمة بارتكاب أسباب موجبة للقتل.
7- الأمر بإقامة الحدود بسبب الجنايات.
8- أكل الميتة للمضطر لمن خاف الهلاك.
9- الفطر لمن يشق عليه الصيام.
10- إساغة الغصة بالخمر عند عدم وجود الماء.
11- إتيان المرأة بعد انقضاء فترة الحيض.
12- الأمر بالنظر إلى المخطوبة.

وقد اكتفينا بدراسة لثلاث من هذه المسائل لتوضيح أثر اختلاف الأصوليين في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر في اختلاف الفقهاء، وقد اخترنا من هذه المسائل مسألة النظر إلى المخطوبة، ومسألة مباشرة الزوجة بعد انقضاء فترة الحيض، ومسألة زيارة القبور، فقسمنا هذا المبحث على ثلاثة مطالب، وكما يأتي:

المطلب الأول: النظر إلى المخطوبة عند الفقهاء.
المطلب الثاني: مباشرة الزوجة بعد انقضاء فترة الحيض.
المطلب الثالث: حكم زيارة القبور.

المطلب الأول

النظر إلى المخطوبة

الفرع الأول

حكم النظر إلى المخطوبة

اتفق الفقهاء على جواز النظر إلى المخطوبة إلا القاضي عياض[٣٩]، فقد ذهب إلى كراهة النظر إلى المخطوبة، ولم أحصل على دليل له فيما قال، وهو بقوله هذا خالف إجماع الفقهاء[٤٠].

أما القائلون بالجواز فقد اختلفوا على قولين هما:

القول الأول: إنّ حكم النظر إلى المخطوبة هو الإباحة، وإلى هذا ذهب بعض الفقهاء[٤١].

القول الثاني: إنّ حكم النظر إلى المخطوبة هو الندب، وإلى هذا القول ذهب جمهور الفقهاء، وقالوا: إنّ الأدلة التي تدلّ على جواز النظر إلى المخطوبة معللة بعلل تدلّ على أنّ الأمر يراد به الندب، وهو الراجح بما استدلوا عليه[٤٢].

واستدلّ الفريقان . القائلون بجواز النظر إلى المخطوبة . بأدلة منها:

الدليل الأول: ما روي عن محمد بن مسلمة[٤٣] (رضي الله عنه) أنه قال: خطبت امرأة، فجعلت أتخبأ لها حتى نظرت إليها، فقيل له: أتفعل هذا وأنت صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟! فقال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (إذا ألقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة، فلا بأس أن ينظر إليها)[٤٤].

الدليل الثاني: ما روي عن المغيرة بن شعبة[٤٥](رضي الله عنه) أنه قال: خطبت امرأة على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): (أنظرت إليها؟) فقلت: لا، قال: (فانظر إليها، فإنه أجدر أن يؤدم بينكما)[٤٦].

فإنّ هذا الحديث الشريف يدل دلالة واضحة على جواز النظر إلى المخطوبة[٤٧].

الدليل الثالث: ما روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: خطب رجل امرأة، فقال النبي(صلى الله عليه وسلم): (أنظرها، فإنّ في أعين الأنصار شيئاً)[٤٨]. ففي الحديث الشريف دلالة واضحة على جواز النظر إلى المخطوبة[٤٩].

الفرع الثاني

مواضع النظر إلى المخطوبة

اختلف العلماء في المواضع التي يجوز النظر إليها من المخطوبة، فقد ذهب المالكية إلى جواز النظر إلى الوجه والكفين فقط، وذهب الإمام الأوزاعي[٥٠] . رحمه الله . وبعض الفقهاء إلى جواز النظر إلى محاسن الجسم فقط كالنظر إلى الشعر، ومواضع اللحم، وذهب أكثر الفقهاء إلى جواز النظر إلى جميع جسد المخطوبة[٥١]، وبهذا يكون انقسام الفقهاء إلى جواز النظر إلى المخطوبة على ثلاثة أقوال، وهي:

القول الأول: جواز النظر إلى الوجه والكفين فقط.

القول الثاني: جواز النظر إلى محاسنها، أو ما يظهر منها غالباً كالشعر والساقين.

القول الثالث: جواز النظر إلى جميع جسد المخطوبة.

واستدل أصحاب القول الأول . القائلون بجواز النظر إلى الوجه والكفين فقط بعموم قوله تعالى: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿

الفرع الثالث

مناقشة أقوال العلماء في النظر إلى المخطوبة وبيان الراجح منها

إنّ ما استدل به أصحاب القول الأول ـ القائلون بجواز النظر إلى الوجه والكفين فقط– بعموم قوله تعالى: ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿ ﷽ ﷾ ﷿

الزوج أن يأوي إلى زوجته، ولا يفرض عليه من الجماع شيء، وأن يفرض لها النفقة والكسوة فقط[٦١].

الرأي الراجح:

إنّ إتيان المرأة بعد انقضاء فترة الحيض أمر يدلّ على الوجوب لأنّ تركها فيه مضرة على الطرفين، فيجب مباشرتها في كلّ طهر مرة على الأقل، ويجب على الزوج أن يأوي إلى زوجته يوم وليلة في كلّ أربعة أيام بلياليها، وهذا الحكم أقره سيدنا عمر (رضي الله عنه) عندما جاءت امرأة إليه، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنّ زوجي يصوم النهار ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشكوه إليك وهو يقوم بطاعة الله، فقال لها: جزاك الله خيراً من مثنية على زوجها، فجعلت تكرر عليه القول، ويكرر عليها الجواب، وكان كعب ابن سوار الأسدي[٦٢] حاضراً، وقد فهم مقصدها، فأمره عمر (رضي الله عنه) أن يحكم بينهما، فأرسل إلى زوجها، فحضر وقال له كعب: إنّ امرأتك تشكوك، فقال: أقصرت في شيء من نفقتها؟ قال: لا، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيم رشده
ألهى خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لم يرقده
فلست في حكم النساء أحمده
زهده في مضجعي تعبده
فاقض القضاء يا كعب ولاتردده

فقال زوجها:

زهدني في فراشي وفي الحجل
أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطول

وفي كتاب الله تخويف جلل

ثم قال كعب:

إنّ الله قد أباح لك من النساء أربعاً، فلك ثلاثة أيام ولياليها تعبد بها ربك، ولها يوم وليلة، فأقره عمر (رضي الله عنه) على حكمه واستحسنه الصحابة (رضي الله عنهم)[٦٣].

أما إذا كان الزوج بعيداً عن زوجته، فيجب أن لا يطيل غيابه أكثر من أربعة أشهر، وهذا ما حكم به سيدنا عمر (رضي الله عنه) بعد أن كان يطوف في شوارع المدينة، فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسود جانبه
وأرقني أن لا خليل ألاعبه
فلولا حذار الله لا شيء مثله
لزحزح من هذا السرير جوانبه

فأمر أن لا تحبس الجيوش أكثر من أربعة أشهر[٦٤].

المطلب الثالث

حكم زيارة القبور

اختلف العلماء في حكم زيارة القبور تبعاً لاختلافهم في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر إذ أنّ النبي (ﷺ) نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها بقوله (ﷺ): (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)[٦٥]، فقد ذهب بعض العلماء إلى أنّ زيارة القبور مندوبة للرجال والنساء العجائز إذا لم تؤد زيارتهنّ إلى الفتنة والنياحة وإلا كانت محرمة، وذهب البعض الآخر من العلماء إلى أنّ زيارة القبور مندوبة للرجال، وتكره للنساء مطلقاً سواء كنّ عجائز أو شابات.

أما البعض الآخر من العلماء فقد ذهبوا إلى أنّ زيارة القبور مندوبة للرجال محرمة على النساء، ومرجع الخلاف بين العلماء هو الأمر الوارد بعد الحظر في الحديث السابق، واختلاف الفقهاء في فهم الأحاديث الأخرى[٦٦].

الرأي الراجح: في زيارة القبور:

إنّ زيارة القبور مندوبة للرجال لقوله (ﷺ): (نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)، فالأمر هنا يغلب عليه جانب الندب لوجود قرينة ترفعه من الإباحة إلى الندب.

أما النساء العجائز فزيارة القبور لهنّ قد تكون مندوبة، أو تكون مباحة إذا لم تؤد زيارتهنّ إلى الفتنة والنياحة، وإلا كانت محرمة.

أما النساء الشابات فتحرم زيارتهنّ إذا كانت تؤدي إلى الفتنة والنياحة، أما إذا لم تؤد إلى الفتنة والنياحة وتكون مع المحارم مع عدم الإكثار لأنهنّ بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية بتعداد مآثر الموتى، ولطم الخدود فقد تكون مباحة، ولكن الأولى ترك الزيارة للنساء الشابات في مثل هذا الزمان، والله أعلم[٦٧].

الخاتمة:

اختلف الأصوليون في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر، فذهب جمهور الأصوليين إلى أنّ الأمر الوارد بعد الحظر وقبله سواء.

وذهب عدد كبير منهم إلى أنّ الأمر الوارد بعد الحظر يفيد الإباحة.

وقال بعضهم: إنه يفيد الندب، وتوقف البعض الآخر.

والذي نراه راجحاً هو أنّ الحظر إذا كان لمانع، أو لظرف طارئ وزال الحظر رجع الفعل إلى ما كان عليه قبل الحظر.

أما إذا كان الفعل محظوراً في أصله، وجاء الأمر بخلاف الحظر، فإنّ الأمر في هذه الحالة حقيقة في الإباحة.

ومن آثار الاختلاف في اختلاف الأصوليين في مدلول الأمر الوارد بعد الحظر اختلاف الفقهاء في حكم زيارة القبور، واختلافهم في الانتشار بعد انقضاء صلاة الجمعة، واختلافهم في حكم النظر إلى المخطوبة، فقد اختلفوا في هذه المسألة على ثلاثة مذاهب، فذهب بعضهم إلى أنّ حكم النظر إلى المخطوبة هو الإباحة، وذهب البعض الآخر إلى أنّ حكم النظر إلى المخطوبة هو الندب، وانفرد القاضي عياض . رحمه الله . بكراهة النظر إلى المخطوبة.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الهوامش والتعليقات:

(١) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: 1/341. المستصفى من علم الأصول للغزالي: 1/435. ميزان الأصول للسمرقندي: 1/228. الإحكام في أصول الأحكام للآمدي: 2/398.
(٢) ينظر: المعتمد في أصول الفقه: 1/75. المحصول للرازي: 2/159. المسودة في أصول الفقه: 1/15.
(٣) سورة التوبة، الآية 5.
(٤) سورة الأحزاب، الآية 53.
(٥) ينظر: التبصرة في أصول الفقه1/38.
(٦) إلى هذا القول ذهب الإمام مالك وأصحابه، وهو ظاهر قول الشافعي، وبعض الحنفية ـ رحمهم الله ـ ينظر: المسودة في أصول الفقه: 1/14.
(٧) ينظر: روضة الناظر: 1/198.
(٨) سورة المائدة، الآية 2.
(٩) سورة البقرة، الآية 222.
(١٠) سورة الجمعة، الآية 10.
(١١) صحيح مسلم: 2/672.
(١٢) ينظر: المحصول في أصول الفقه: 2/160.
(١٣) هو علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، فقيه أصولي، من تصنيفه كشف الأسرار عن أصول البز دوي، توفي ـ رحمه الله ـ سنة 730هـ. ينظر: كشف الظنون: 2/1395. هدية العارفين: 1/308.
(١٤) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولاهم، أبو محمد، من علماء التابعين اشتهر في رواية الحديث عن النبي (ﷺ) قتله الحجاج سنة 95هـ. ينظر: تهذيب الكمال: 10/358. تهذيب التهذيب: 4/11.
(١٥) هو محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر، تابعي، من علماء الحديث توفي سنة 110هـ. ينظر: الطبقات لخليفة بن خياط: 1/210. الثقات: 5/348.
(١٦) كشف الأسرار: 1/183.
(١٧) الغزالي: هو الإمام محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، الملقب بحجة الإسلام، زين الدين الطوسي، فقيه أصولي، صنف كتباً كثيرة منها إحياء علوم الدين،

والمستصفى في الأصول توفي ـ رحمه الله ـ سنة 505هـ. ينظر: البداية والنهاية: 12/173. شذرات الذهب: 4/10.
(١٨) ينظر: المستصفى من علم الأصول 1/435. والإبهاج في شرح المنهاج 2/44 . وفواتح الرحموت 1/ 380 .
(١٩) هو عبد الملك بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الله بن محمد الجو يني، الشافعي، المعروف بإمام الحرمين، ضياء الدين أبو المعالي، فقيه أصولي من تصنيفه البرهان في أصول الفقه، توفي ـ رحمه الله ـ سنة 478هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: 5/235.
(٢٠) هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم ألتغلبي، فقيه، أصولي، ولد بآسد ثم سافر إلى بغداد ثم إلى مصر، من تصنيفه الإحكام في أصول الأحكام، توفي- رحمه الله - سنة 631هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: 13/193.
(٢١) ينظر : البرهان في أصول الفقه للجو يني 1/88 . والإحكام في أصول الأحكام للأمدي2/398 .
(٢٢) سورة التوبة، الآية 5.
(٢٣) سورة الأحزاب، الآية 53.
(٢٤) ينظر: المعتمد في أصول الفقه: ١/٧٥. والمحصول في أصول الفقه: 2/160.
(٢٥) سورة البقرة، الآية 187.
(٢٦) سورة الأحزاب، الآية 53.
(٢٧) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: 1/342.
(٢٨) سورة المائدة، الآية 2.
(٢٩) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 6/36. تفسير القرآن لابن كثير: 1/348.
(٣٠) سورة البقرة، الآية 222.
(٣١) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: 1/343.
(٣٢) سورة الجمعة، الآية 10.
(٣٣) صحيح البخاري: 1/171.
(٣٤) ينظر: فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت: 1/380.
(٣٥) صحيح مسلم: 2/672.
(٣٦) سورة الجمعة، الآية 10.

(٣٧) ينظر: المعتمد في أصول الفقه: ٧٦/١. والمحصول في أصول الفقه: 202/1. فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت: 1/379.

(٣٨) ذهب بعض الفقهاء إلى أنّ حكم إتيان الزوج زوجته فرض لا بدّ منه، ولا يحلّ له أن يهجرها في المضجع إلا لتجافيها له عن ذلك، وهو الراجح في نظري استناداً على عقد النكاح. ينظر: الإحكام لابن حزم: 1/343.

(٣٩) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمر، أبو الفضل، فقيه مالكي، له عدة مؤلفات منها: السيف المسلول على من سبّ أصحاب الرسول، الإعلام في حدود الأحكام، توفي – رحمه الله– بمراكش سنة 544هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ: 4/1304، وهدية العارفين: 1/428.

(٤٠) ينظر: نيل الأوطار: 6/170.

(٤١) ينظر: الدراري المضيئة: 1/256.

(٤٢) ينظر: القواعد والفوائد الأصولية: 1/169، والفقه على المذاهب الأربعة: 4/8.

(٤٣) هو محمد بن مسلمة بن خالد بن عدي، صحابي جليل، شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) إلا تبوك، توفي (رضي الله عنه) بالمدينة سنة ست وأربعين، وهو ابن سبع وسبعين سنة. ينظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة: 1/991، والإصابة في تمييز الصحابة: 6/33.

(٤٤) مسند الطيالسي: 1/164، والمعجم الكبير: 9/224، وسنن النسائي: 1/599 (كتاب النكاح). وسنن البيهقي 7/85، وقال البيهقي : هذا الحديث إسناده فيه.

(٤٥) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أبو عبد الله، صحابي جليل أسلم عام الخندق، وكان رجلاً ذا هيبة، وذهبت عينه باليرموك، وشهد القادسية وغيرها من المعارك، توفي (رضي الله عنه) سنة خمسين بالكوفة. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: 1/453، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: 1/1039.

(٤٦) سنن النسائي: 1/599 (كتاب النكاح)، والمعجم الكبير: 19/224، ومسند الطيالسي: 1/164. والمستدرك على الصحيحين 2/ 179 (كتاب النكاح)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين .

(٤٧) مغني المحتاج: 3/123، والدراري المضيئة: 1/256.

(٤٨) مسند الإمام أحمد: ٢٤٦/٤، وسنن ابن ماجه: ٦٠٠/١، وسنن الترمذي: ١٧٩/٣، وسنن النسائي: ٦٩/٦. وصحيح ابن حبان ٣٥٢/٩ .

(٤٩) ينظر: الدراري المضيئة: 1/256.

(٥٠) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، أبو عمرو، الأوزاعي، إما أهل الشام في الفقه والحديث، والأوزاع التي عرف بها قرية بدمشق كان سكن بها، ثمّ تحول إلى بيروت، فسكنها إلى أن مات فيها ـ رحمه الله ـ في سنة سبع وخمسين ومائة. ينظر: الثقات: 7/62، وتاريخ مدينة دمشق: 35/147.

(٥١) ينظر: بداية المجتهد: 1/665، ومغني المحتاج: 3/ 123، ونيل الأوطار: 6/170، والسيل الجرار: 4/130.

(٥٢) سورة النور: الآية 31.

(٥٣) ينظر: تفسير الطبري: 9/302.

(٥٤) مسند الإمام أحمد: 3/334، وسنن أبي داود: 1/634، ومصنف ابن أبي شيبة: 4/21، والمستدرك على الصحيحين: 2/179.

(٥٥) الكرب: أصول السعف الغلاظ الأعراض التي تيبس، فتصير مثل الكتف، واحدها كربة. ينظر: لسان العرب: 1/711 (مادة كرب) باب الباء، فصل الكاف، وتاج العروس: 1/904 باب الباء، فصل الكاف.

(٥٦) سبق تخريج الحديث في هامش رقم (44).

(٥٧) سبق تخريج الحديث في هامش رقم (46).

(٥٨) ينظر: نيل الأوطار: 6/170.

(٥٩) سورة النور: الآية 31.

(٦٠) سورة البقرة، الآية 222.

(٦١) ينظر: زاد المسير: 1/124، والمغني: 10/100، وتفسير ابن كثير: 1/267.

(٦٢) هو كعب بن سوار الأسدي من كبار التابعين، وقيل إنّ له صحبة، ولاه عمر بن الخطاب قضاء البصرة، واستشهد (رضي الله عنه) في معركة الجمل. ينظر: البداية والنهاية: 7/270.

(٦٣) ينظر: الدر المنثور: 1/653.

(٦٤) ينظر: الدر المنثور: 1/273، وتاريخ الخلفاء: ص 141.

(٦٥) صحيح مسلم: 2/672.

(٦٦) ينظر: الأم للشافعي: 1/278، وزاد المسير لابن الجوزي: 1/249، والمغني لابن قدامة: 2/224، وسبل السلام للصنعاني: 1/72، وروح المعاني للآلوسي: 3/224.

(٦٧) ينظر: الروضة الندية: 1/471.

المصادر والمراجع:

1- الإبهاج في شرح المنهاج لابن ألسبكي المتوفى سنة756هـ، دار الكتب، بيروت، لبنان .
2- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الأندلسي، المتوفى سنة 456هـ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
3- الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدي، المتوفى سنة 631هـ، الطبعة الأولى، 1405هـ . 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
4- الاستيعاب لأبي عمرو يوسف بن عبدا لله بن محمد، المتوفي سنة 463هـ، بذيل كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة الكليات الأزهرية – مصر .
5- أسد العابة في معرفة الصحابة لابن الأثير المتوفى سنة630هـ، طبع في طهران- إيران.
6- الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، 1412هـ، دار الجبل، بيروت . لبنان.
7- الأم للامام محمد بن أدريس الشافعي، المتوفى سنة 204هـ، طبع دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان .
8- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تأليف: محمد بن أحمد بن محمد، المعروف بابن رشد، الطبعة الأولى، مطبعة الجمالية، القاهرة – مصر .
9- البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن كثير، المتوفى سنة 774هـ، نشر مكتبة المعارف، بيروت . لبنان.
10- البرهان في أصول الفقه للجويني، المتوفى سنة 478هـ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
11- تاريخ الخلفاء للسيوطي، الطبعة الاولى، 1371هـ، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر.
12- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن مرتضى الزبيدي، المتوفى سنة 1205هـ، من منشورات مكتبة الحياة، بيروت . لبنان.
13- تاريخ مدينة دمشق، لأبي القاسم، علي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، الطبعة الأولى، 1419هـ . 1998م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان.

14- التبصرة في أصول الفقه لأبي إسحاق الشيرازي، المتوفى سنة 476هـ، الطبعة الأولى، 1403هـ، دار الفكر، دمشق . سوريا.
15- تذكرة الحفاظ، لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، المتوفى سنة 748هـ، نشر مكتبة الحرم المكي . مكة المكرمة.
16- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، المتوفى سنة 774هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
17- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة 852هـ، الطبعة الأولى، 1404هـ – 1985م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان.
18- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لجمال الدين المزي، المتوفى سنة 742هـ، الطبعة الأولى، 1400هـ . 1980م، مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان.
19- الثقات لابن حبان بن أحمد التميمي، المتوفى سنة 354هـ، الطبعة الأولى، 1393هـ - 1973م، دائرة المعارف العثمانية، الهند.
20- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة 310هـ، دار الفكر للطباعة النشر، بيروت . لبنان.
21- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي، المتوفى سنة 671هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
22- الدراري المضيئة شرح الدر البهية، لمحمد بن علي الشوكاني، 1407هـ-1987م، دار الجيل للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
23- الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، طبع سنة 1993م، دار الفكر للطباعة النشر، بيروت . لبنان.
24- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل الألوسي،، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
25- روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامه المقدسي، المتوفى سنة 620هـ، الطبعة الثانية، 1399هـ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض . السعودية.
26- الروضة الندية لصديق حسن خان، الطبعة الاولى، سنة 1999م، دار ابن عفان للطباعة والنشر، القاهرة – مصر .

27- زاد المسيرفي علم التفسير لأبن الجوزي، الطبعة الثالثة، 1404هـ، طبع المكتب الاسلامي للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
28- سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام للصنعاني، الطبعة الرابعة، 1379هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
29- سنن ابن ماجه، للإمام محمد بن يزيد القز ويني، المتوفى سنة 275هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
30- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة 275هـ، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
31- سنن الترمذي، للإمام محمد بن عيسى الترمذي، المتوفى سنة 279هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
32- سنن النسائي، للإمام أحمد بن شعيب النسائي، المتوفى سنة 303هـ، الطبعة الثانية، 1406هـ . 1986م، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، دمشق . بيروت.
33- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، المتوفى سنة 747هـ، الطبعة الأولى، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان.
34- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي الشوكاني، الطبعة الأولى، 1405هـ، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
35- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحيّ العماد الحنبلي، المتوفى سنة 1809هـ، طبع دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
36- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، الطبعة الثانية، 1414هـ/ 1993م، موئسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
37- صحيح مسلم (الجامع الصحيح) لمسلم بن الحجاج النيسابوري، المتوفى سنة 261هـ، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
38- طبقات خليفة بن خياط للعلامة خليفة بن خياط، المتوفى سنة 240هـ، 1402هـ- 1982م، نشر دار طيبة للطباعة والنشر، الرياض . السعودية.

39- فواتح الرحموت مع كتاب المستصفى لعبد الله بن نظام الدين الأنصاري، المتوفى سنة 1225هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
40- القواعد الفوائد الأصولية، لعلي بن عباس الحنبلي، المتوفى سنة 803هـ، طبع سنة 1375هـ . 1965م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة . مصر.
41- كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البز دوي للإمام عبد العزيز البخاري، المتوفى سنة 730هـ، الطبعة الأولى، 1418هـ . 1997م، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
42- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، المتوفي سنة 1067هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
43- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور، الطبعة الأولى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
44- المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي، المتوفى سنة 606هـ، الطبعة الأولى، 1400هـ، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض . السعودية.
45- المستدرك على الصحيحين، لمحمد بن عبد الله، الحاكم النيسابوري، الطبعة الأولى، 1411هـ . 1990م، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.39.
46- المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي، المتوفى سنة 505هـ، الطبعة الثالثة، 1414هـ . 1993م، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
47- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المتوفى سنة 214هـ، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.
48- مسند الطيالسي، لأبي داود سليمان بن داود الطيالسي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت . لبنان.
49- مصنف ابن أبي شيبة، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، الطبعة الأولى، 1409هـ، مكتبة الرشد، الرياض . السعودية.

50- المسودة في أصول الفقه، تأليف جماعة من آل تيمية، المدني للطباعة والنشر، القاهرة- مصر.
51- المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، الطبعة الثانية، 1404هـ.1983م، مكتبة العلوم والحكم، الموصل . العراق.
52- المغني لأبن قدامة المقدسي، المتوفي سنة 620هـ، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.
53- مغني المحتاج إلى معرفة ما في ألفاظ المنهاج، للخطيب الشر بيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
54- المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري، المتوفى سنة 436هـ، الطبعة الأولى، 1403هـ، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان.
55- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، شرح منتقى الأخيار، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، نشر المطبعة الأميرية.
56- ميزان الأصول في نتائج العقول لأبي بكر السمرقندي، المتوفى سنة 539هـ، الطبعة الأولى، 1407هـ . 1987م، مطبعة الخلود، بغداد . العراق.
٥٧- هدية العارفين لإسماعيل بن باشا البغدادي، المتوفى سنة 1339هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.

الرواية العربية وأثرها في توعية الفكر الإنساني

د. سوسن البياتي
جامعة تكريت /كلية الآداب

الاستهلال :

يشكل الأدب – بمختلف أجناسه وأشكاله – علماً من علوم اللغة العربية، له تأثير واضح في النفس البشرية أكثر من سواه، فهو فنٌ ذو ارتباطٍ وثيق بالعاطفة والأحاسيس والمشاعر الإنسانية على النقيض من العلوم الأخرى التي تخاطب العقل، وله خصوصياته، تتأتى من خلال ارتباطه بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً فهو ((أولاً وآخراً تعبير عن المجتمع من خلال وعي الفرد (المبدع)، وجه الإنسانية الأبهى، فالوعي الذي نلمسه في أيِّ نصٍ أدبي يعبر عن البنية الرئيسية في فكر المجتمع، وبخاصة إذا كان لا يعكس واقعاً جامداً مغايراً يكمن في تطور الفكر الجماعي للنزوع إلى التخلص من الواقع (الفوتوغرافي) إلى واقع ديناميكي صاعد .))[١].

- علاقة الرواية بالمجتمع :

الرواية جنس أدبي يمتُّ بصلةٍ وثيقة بحياة الإنسان وواقعه وإن كان الخيال سمة أساسية من سمات هذا الفن، برز إلى الوجود إلى جانب الفنون الأدبية الأخرى حديثاً، وإن كانت له أصول في السرد العربي القديم تتمثل في السيرة والمقامة، حملت بين أضلعها همَّ الإنسان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وسعت إلى تغيير واقعه بمعيارية خيالية إذ قامت ((بتغيير وعي العالم المتمدن: ((فنحن نقول إن دارون وماركس وفرويد قاموا بتغيير وجه الحضارة الغربية، ولكن تأثير الرواية كان أعظم من تأثير هؤلاء مجتمعين))[٢] على حدِّ تعبير كولن ولسن .

وتتحدد العلاقة بين هذين القطبين: الرواية والمجتمع من خلال عامل التعبير الذي يسعى إليه الفعل الروائي في نقل صورة الأحداث والوقائع التي يتعرض لها

المجتمع عموماً والإنسان خصوصاً فبعد سقوط الدولة العباسية وتدهور الحضارة العربية الإسلامية بدأ ((انهيار شامل ونهائي في التركيب الاجتماعي وانكسار في مفهومات الإنسان في بلادنا عن نفسه وعن مكانه ومكانته في هذا العالم، من يومها حصل تبدل إن لم نقل انكسار في القيم))[٣]، أخذ المجتمع يعاني فوضى التغيير وتمزيق الوحدة العربية وانكسار أحلامه وأمانيه وتطلعاته، من هنا بالذات برزت الحاجة إلى الهروب من هذا الواقع الموبوء والمصطنع والمشحون بالفساد والمصالح الفردية والأنانية المسيطرة، اتخذ هذا الهروب شكلاً استثنائياً، لجأ الإنسان الهارب إلى الكتابة فـ((الكتابة ليست ملاذاً تحتمي فيه الذات فحسب، بل هي مستوى من الإدراك الإنساني وموقف من الأشياء والوجودات المتعددة والمختلفة عبر التاريخ. والكتابة رتبة حضارية . الكتابة؛ مستوى ودرجة الإتقان في الكتابة كصنعة عنوان على ما وصلته الأمة من تقدم وازدهار. لكن الكتابة لا تصبح ملاذاً ومظلةً للاحتماء إلا لحظة ارتعاب الذات وخوفها من وجودها الذي يصير مهدداً وملاحقاً بالنفي والإقصاء . انه اللحظة التي تتخلخل فيها القيم الحضارية وتضطرب التصورات الثقافية إلى درجة التناحر والإبادة؛ لحظة رفض الرأي الآخر المخالف . في هذه اللحظة المحتدمة تصبح الكتابة ملاذاً، وتصبح الكتابة لحظة تمثل الذات لذاتها في أقصى العزلة))[٤]، ومن ثم لجأ إلى الرواية، فأخذ يقرأ ويستوعب الأفكار وهموم الشخصيات وأحلامها وتطلعاتها وهي صورة مثلى لهذا الإنسان الممزق داخلياً، ومن خلال هذا التعمق أدرك أنَّ ثمة فعل ثوري لابدَّ من إيقاظه في النفس البشرية، ابتدأت الثورة بالتمرد ومحاولة الإصلاح والتغيير؛ عبر الوقوف على مفاصل الخطأ وأركانه، وإن كان هذا التغيير محالاً في جانب منه؛ فالطبقات الحاكمة، الباحثة عن مصالحها الفردية لم تكن لتستسلم بهذه السهولة، ولم تتخلَ عن دورها التاريخي في بناء مصالحها على حساب الشعب، المهم أن ما يقال بهذا الصدد إنه على الرغم من فشل الإنسان في تغيير واقعه تغييراً جذرياً وشاملاً، فإن الفن الروائي قد خلق فيه أساس هذا التغيير وكان أثره أكبر من الفنون الأخرى، إذ أخذ على عاتقه فضح هذا الواقع وتحويله إلى أداة تغيير وتفعيل لصالح الإنسان لا ضده .

وتحضرني هنا – بهذا الصدد – مقولة أحد الوزراء الإسرائيليين بأنهم استطاعوا الدخول إلى قلب الوطن العربي من خلال روايات نجيب محفوظ، إذ صورت المجتمع المصري بأزقته وحواريه وعاداته وتقاليده وركزت على العديد من المضامين الإنسانية وجوانبها ولاسيّما الجانب السلبي في حياة الإنسان العربي وخصوصاً ذلك الذي يتعلق بالمرأة وضعفها وقهرها وانكسارها مما مكّن إطلاعهم على حياة الفرد العربي وبالتالي معرفة نقاط الضعف فيه من التوغل والاستقرار في قلب الوطن العربي، وعندما صدرت رواية "مدام بوفاري " لفلوبير ((نعى عليه النقاد، ووصفوه بأنه خطر على الأخلاق، فقبضت عليه الحكومة الفرنسية بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلل إلى الجمهور))[٥]، وقد تعرض إلى محاكمة عاصفة استمرت سنوات عدة حكم ببراءته فيما بعد، وجه إليه خلالها رئيس الجلسة انتقاداً حاداً لاذعاً، وهي صورة من الصور الكثيرة التي تبين أثر الرواية في الإنسان والمجتمع الذي يحيط به ؛ ذلك أن الأديب هو بالدرجة الأساس ابن بيئته، ابن المجتمع الذي يولد فيه وينشأ، فكلُّ ما يكتبه ينبع من ارتباطه بهذه البيئة، وبالتالي يؤثر فيها، فالخطاب الروائي العربي يشكل في ((حداثته خطاباً يروي حكاية خاصة، وهو في روايته لهذه الحكاية يحقق تميزه واستقلاله بآليات تبنينه التقني – الفني . تبدع هذه الآليات زمن عالم الرواية، ولغات الشخصيات المتمايزة، وخصوصيات أمكنة تواجدهم، وعلائق عيشهم، ورموز معاناتهم الكبرى المتمثلة في الـ" أنا " السلطوي الذي يقمعهم، ويهمش وجودهم، ويتواطأ مع "هو " الخارج . وهم يكابدون من أجل عيش عادل، أو من أجل تحقيق أحلام لا تعدو أن تكون أحلاماً يشاركهم فيها كل إنسان مدرك لمعنى إنسانيته .

الحكاية التي ترويها الرواية العربية حكاية لحياة الإنسان العربي ومعاناته. وهي تروي حقائق قد تسكت عنها الخطابات الأخرى ولاسيّما السياسية.))[٦].

فإذا كان المجتمع يؤثر في الكاتب فيستقي منه مادته الأدبية، فإن الأديب – هو الآخر– يؤثر في هذا المجتمع، كما نجد صدى ذلك في رواية " رياح شرقية – رياح غربية " للروائي الراحل مهدي عيسى صقر، فعندما نُشِرَت هذه الرواية في

القاهرة أحدثت ضجةً هائلة قامت على أثرها الطبقة العاملة هناك بالمطالبة بحقوقها كاملة، كما أن منع الكثير من الروايات من التداول ومصادرتها يعدُّ دليلاً آخر على أثر هذا الفن في المجتمع، إذ نقرأ بين الحين والآخر أن السلطات قد قامت بمصادرة رواية ما، وقد تأتي هذه المصادرة لما تحويه من أفكارٍ ومضامينَ قد تكون سياسية معارضة للسلطة أو اجتماعية لها مساس مباشر بالسلوك الاجتماعي داخل نظام اجتماعي معين، أو دينية، فالرواية تمس تابواً من التابوات المقدسة والتي يحرم على البشر المساس بها ضمن الفكر السلطوي الحاكم، ونتيجة لهذا السلوك غير اللائق فقد يلجأ الروائي إلى الترميز والتلميح لا التصريح والمباشرة خوفاً من إدانته بالعقوق وإنكار أفضال السلطة عليه وبالتالي تتحول – هذه الأخيرة– إلى أداة للقمع وتمارسها على كلِّ من يتعرض لها، بالنفي أحياناً وبالتعذيب والسجن غالباً، وقد تمارس السلطة سياسة الترهيب أو ما يسمى بـ " سياسة العصا والجزرة "، ونادراً ما تلجأ إلى فعل الترغيب بقصد إخضاع الروائي لمنطق السلطة الحاكمة وليصبح الروائي فيما بعد صوت السلطة لا صداها ولاسيّما إذا ماكان لهذا الروائي صوته البارز في المجتمع ولكلمته صدىً في النفس الإنسانية ؟!

لقد أشار ويلز وهو بصدد وضع تعريف للنص الروائي بأنه يمثل: ((وسيطاً للفهم، وأداة لاختبار النفس، واستعراضاً للأخلاق وتحويل أساليب السلوك، ومصنعاً للعادات، ونقداً للقوانين والمؤسسات، وللعقائد والأفكار الاجتماعية .))[٧]، وهذا المفهوم يشير إلى إمكانية صوغ ملامح تربوية ينهض بها النص الروائي .

نشأت الرواية لتعبر عن الأوضاع المعقدة في الكون، فهي مرآة ((للفكر الإنساني المعاصر في قلقه وتمزقه وشكه وعبثه وشقائه ..))[٨]، فقد وجد الإنسان نفسه في ظل ظروف معيشية صعبة مكنته من اختراق هاجس البحث عن الهوية الضائعة في وطنه، هاجس البحث عن الهوية، عن الذات، عن التاريخ، وربّما يعدُّ هذا الهاجس من أصعب الأوضاع وأعقدها، فعندما يتحول الإنسان إلى مجرد رقم يتمُّ التعامل معه على أساس إلغاء كيانه وتاريخه وعمره بإلغاء الاسم المميز لهويته

ولشخصيته، فالاسم على حدِّ تعبير النقاد هو أخص ما يميز الإنسان، فكيف إذا ما تمَّ إلغاؤه ؟!

لقد أشار العديد من الروائيين إلى مثل هذا السلوك، وأصبح تجسيد صورة الآخر وكيفية التعامل مع الأنا بصوره المتعددة، والبحث عن الذات من أبرز المهيمنات الموضوعية في الرواية العربية، كما أن علاقة الإنسان بالسلطة ولاسيّما المثقف علاقة قائمة وشائكة أخذت نصيبها وحظها – ومازالت ماثلة – في أغلب الروايات، فإذا كان الفن الروائي تجسيداً لمأساة الإنسان في واقعه المرفوض وتصويراً لها في أبشع صورها، فماهو تأثيره لتغيير هذا الواقع ؟

لقد شاعت في الأوساط الثقافية مقولة تؤكد على قدرة الرواية على تحمل نبض العصر، نبض التغيير[٩]، بمعنى قدرتها على استيعاب التغيير الحاصل في مقومات الفكر الإنساني في عصرٍ ما، وبالتالي خلق نوع من القدرة لدى الإنسان على تغيير واقعه، فالرواية في نشأتها كانت تعبيراً صارخاً عن تغيير المجتمع الذي نشأت فيه ورؤية هذا المجتمع وتقاليده[١٠]، هذا التغيير لا يتم إلا في ظروفٍ تساعد الروائي على تجاوز معوقاته وقدرته على إيصال صوته الخاص به إلى الآخرين، ولكي يتم ذلك لابدَّ له من التوغل في صفوف المجتمع – وهو جزءٌ منهم – ومعرفة معاناتهم ومحاربة كلِّ من يحاول تزييف التاريخ، تاريخ الإنسان، تاريخ المجتمع، تاريخ الدول والملوك والأمراء والقادة وقبل كل ذلك، تاريخ الشعوب المكافحة والمناضلة لنيل حقوقها، فالرواية تصحح أخطاء التاريخ[١١]، فثمة انتماء للواقع والتحام به فـ((الرواية العربية (في شتى أشكالها ومضامينها) كانت ومازالت أكثر طرحاً من بقية الأشكال الأدبية لواقع الإنسان العربي، فهي من حيث التصاقها التاريخي بنضاله الشاق الواسع (مع نفسه وقيمه ..مع الحب.. ضد القهر والاستغلال، والاحتلال والذل ..والسرقة والنهب والجشع ...النضال المجدي وغير المجدي) قدمت وتقدم أكثر من صورة جيدة في توضيح أبعاد التاريخ العربي المعاصر، وليس في هذا الطرح مبالغة على الإطلاق، ذلك لأن دراسة جيدة ولتجربة أي كاتب يمكن أن ترشدنا بالتالي ليس إلى (ذاته) فحسب بل وانتمائه الطبقي والأيديولوجي أيضاً.))[١٢].

- المشهد الروائي العراقي بعد الاحتلال :

في ظل الأزمة الاقتصادية والوضع الأمني المتدهور في عراق ما بعد الاحتلال الذي يحصد الآلاف من البشر يومياً، يتساءل الكثيرون عن المشهد الثقافي العراقي الذي ترك بصماته واضحة قبل الاحتلال ودوره في الأحداث ؟

وللإجابة عن مثل التساؤل نقول : إن الشعب العراقي قد عانى ما عانى، ومازال يعاني الكثير الكثير – في ظل ظروف الاحتلال – ولكي يكون قادراً على تجاوز أزماته لابدَّ له من فعلٍ ثوري أولاً يخترق حدود الصمت والخوف وليعلن تمرده على كافة أشكال الظلم والغطرسة ثانياً، إن الفعل الثوري الذي تقوم به الفصائل المجاهدة بحاجة إلى تعبئة جماهيرية وشعبية، وقد يذهب البعض إلى أن أزمة الإنسان العراقي ومحاولاته للعيش في نقطة سلام وأمان وبحثه الدؤوب عن عملٍ يؤمن له هذا الاستقرار كفيل بأن يبعده عن مصادر الثقافة وعلومها ولاسيّما الفن الروائي، وربّما يسخر البعض من هذا الطرح، لكنه لو فكر قليلاً لوجد نفسه أنه في خضم هذه الظروف الحالكة والمريرة فهو بحاجة إلى نقطة ضوء أو أمل من أجل الحياة، هنا ينبثق الدور الفعلي للروائي في وضع هذا الإنسان المأزوم أمام نفسه بما يكتبه من واقع يسطِّره على شكل حكايات وقصص تتيح له القدرة على اكتشاف نفسه وواقعه الذي تحاول الكثير من القنوات الفضائية والإعلامية التغاضي عن بعض جوانبه السلبية ولاسيّما تلك التي تجري خلف القضبان.

لقد تم إعدام المشهد الثقافي العراقي بل وخنق كل ممكنات وجوده، فالعراق الذي بنى حضارته منذ الأزل ابتداءً بشريعة حمورابي القانونية، المؤسسة لأركان وتنظيم المجتمع العراقي آنذاك، مروراً بأساطير بابل وسومر وصولاً إلى ذروة العلم والأدب وازدهارهما في العصر العباسي،على الرغم من الخراب الذي طالهما على يد هولاكو، إلا أن الانتعاش والازدهار الثقافي نال حظه بعد ذلك، ولم يقف العلماء مكتوفي الأيدي، بل عملوا على الارتقاء بالمستوى العلمي حتى وصل العراق إلى كل مايمكن أن يصله بلدٌ حضاري واستعادة أمجاده .

في ظل الاحتلال تم القضاء على هذه الحضارة بتدمير أسس الثقافة ومنابعها وهو ما أراده العدو عندما شرع بتدمير المتحف الوطني والمجمع العلمي العراقي والمكتبة الوطنية والوزارات والمدارس، أي تدمير كل سبل العلم في البلد، ليعود الإنسان العراقي إلى ظلامه الدامس يتخبط في الجهل، وهو غاية العدو وهدفه الأساس طمعاً في ثرواته، وإلا فبماذا يمكن لنا أن نفسر أن الدمار الذي طال كافة الوزارات استثنيت منه وزارة النفط ؟!

ولكي تتم اللعبة، وتكون في صالح العدو ابتكر الانقسام الطائفي والعنصري ورفع الشعارات المؤيدة لها والمحرضة عليها، وهي صورة أخرى من صور إعدام المشهد الثقافي في البلد .

هنا يكون المجتمع في حاجة ماسة إلى فعل التحول،أو ما يسمى بالتحولات الاجتماعية بعيداً عن الشعارات العنصرية والطائفية الزائفة التي قسمت العراق إلى أقسام عدة ووضعت شرخاً لا حدَّ له بين مناصري كل قسم ...

ولكن ((قد يكون مناسباً الآن أن نسأل: ماهي هذه التحولات الاجتماعية التي نربط بها الكتابة؟ هل هي من المفهومات التي ألفها فكرنا فحق له تداولها في عموميتها وغموضها ؟ لكن، ماهو هذا الذي يتحول؟ هل هو الإنسان، أم الإنتاج، أم وعي الإنسان، أم أدواته، أم ثقافته، أم الموجودات، أم اللغة، أم كل هذا معاً؟))[١٣].

إن ما يهمنا هنا بالدرجة الأساس هو وعي الإنسان فحالماً يتم تحولٌ جذري في وعيه بوضع النقاط في أماكنها الصحيحة، وفتح الآفاق أمامه لاكتشاف الواقع السيئ والوضع المتدني الذي يعيشه بعد الاحتلال، ستتكون لديه ثقافة خاصة عن هذا الواقع وهو غير بعيد عنه، هذه الثقافة ستنمو وتتحرك بمساعدة الأدوات والموجودات الفعالة التي تحرضه على فعل المقاومة والتمرد وصولاً إلى نقطة التحول، هذه النقطة هي التي ستحول الإنسان إلى صورة أخرى قابلة للتحدي .

من هذه النقطة بالذات – فعل التحول الاجتماعي في وعي الإنسان – تكمن مهمة الروائي المقتدر على ذلك، فالأحداث التاريخية البارزة في الكتابة الروائية بصورتها الحقيقية ستضع الإنسان أمام حقيقة الواقع الذي يعيشه، يبدأ وعيه بالتفتح ثم

إن التفكير العميق بهذا الواقع سينتج لديه آلية ثورية أساسها التمرد الداخلي، وعندما يثور داخل الإنسان على خارجه سيخلق منه الإنسان الحقيقي الذي يواجه ضعفه بكل حرية وهو ما نريده، فالوطن بحاجة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى أبنائه الآن، لكن إلى أبنائه الحقيقيين، الأقوياء،الذين يسند أحدهم الآخر، ويداوي أحدهم جرح الآخر، ولكي يتم ذلك فنحن بحاجة إلى روائيين يكتبون الواقع وإن كان بصيغة الخيال لا الخيال بصيغة الواقع، فالرواية ليست ((إلا جنساً إبداعياً يتضمن تصوراً شخصياً وفردياً وأدبياً للمبدع . وبالتالي فما ينقله كمتخيل قد يقارب الواقع حدّ التماس وقد ينقل فقط بعض المخاوف أو يقدم للقارئ بعض الملاحظات إسهاماً منه في وضع تصور سليم وقويم للمجتمع الجديد))[١٤].

فالانعطافة التاريخية الجذرية الحاصلة منذ بداية القرن الماضي رأت في النص الأدبي ((منتجاً اجتماعياً ينتمي إلى عالم الإنسان وواقعه، كما رأت فيه منتجاً مادته اللغة التي ليست مجرد نظام، بل مادة تاريخية اجتماعية أيضاً . هكذا يمكننا القول إنه سواء أتوجه البحث نحو دراسة مرجع النص، وفهم واقعية الأدب كتركيز على هذا المرجع، أو كتأكيد عليه، أو كمطابقة معه، أم توجه نحو دراسة النص في استقلاليته، فإنه بحث ينهض على أساس انتماء النص للواقع: ذلك أن التأكيد على الاستقلال، والتميز، يضمر الإشارة إلى علاقة الانتماء، ويؤكدها في الوقت نفسه.))[١٥].

هذا هو المسار السردي الذي يحدد أولية الفعل الثوري أو التحول الاجتماعي، فانتماء النص إلى واقعه هو انتماء الكاتب إلى هذا الواقع بالدرجة الأولى، والنص الروائي تجربة منبثقة من الواقع المعيش، هذا الواقع الذي ينصهر ويذوب بفعل الخيال الذي يسمُّ الكتابة السردية لكنه – في كل الأحوال – يعلن عن ارتداده الأقصى للواقع واقتحام حياة الإنسان وهو داخل جدران بيته يحاول قدر الاستطاعة التغاضي عن كل ما يجري خارج حدود أسواره، فالرواية ليست ((موضوعاً أو فكرة أو رسالة . إنها قبل كل شيء تجربة إنسانية وجودية حميمة تهز كيان الروائي وتحرك فيه كل طاقاته الإبداعية والتأملية والتخيلية فيكتبها انطلاقاً منها في محاولة لاكتشافها بكل أبعادها النفسية والاجتماعية .))[١٦]، والروائي لا يعيش بمعزل عن واقعه حتى وإن نُفي خارج هذا الواقع إلا أن ثمة صلة قوية تربطه به، صلة الإنسان بالأرض، بالوطن، هذه الصلة التي تكبر وتنمو مع الأحداث وربّما تتعمق كلّما اغترب الإنسان عن واقعه

قسراً، وليس غريباً ((أن يصبح الاغتراب موضوعاً مهماً في الثقافة الحديثة، أي منذ أن أعلن هيغل إن الإنسان أصبح عاجزاً في علاقاته بنفسه ومجتمعه والمؤسسات التي ينتمي إليها حتى استحال انتماؤه نوعاً من اللانتماء والهامشية، بل استحال الاغتراب بالإضافة إلى هيغل موضوعاً مهماً عند كل من ماركس ونيتشه وكركيغارد وهيدغر، فانشغل هؤلاء بموضوعات الفراغ والعجز والقلق والرفض واللامعنى والتمرد والانفصال أو العزلة .. الخ .))[١٧]، وكثيرة هي الروايات التي حاولت المساس بهذا الموضوع وهي تسلط الأضواء على علاقة الإنسان بالوطن، ولعل انعدام العلاقة بين الإنسان والسلطة الفعلية الماثلة في الساحة بل وانعدام الثقة فيها وفي إيصالها البلد إلى بر الأمان أحدثت قطيعة هائلة بين الاثنين، ومن ثم وجد الإنسان العراقي نفسه بمعزل عنهم، وراح يصوغ ممكنات وجوده بما يتلاءم ومتطلبات حياته.

لقد تعرض الكثيرون ولاسيّما المثقفين منهم إلى مايمكن أن نسميه بحالة الوأد الثقافي، عمل الاحتلال على تشريح الثقافة العراقية ووضعها في مقصلة الإعدام، وهو ما كان سبباً في هجرة الكثيرين منهم بحثاً عن ملاذٍ آمن لهم ولأبنائهم، وفي الغربة يتكشف حجم المعاناة عندما تكمم اصواتهم مرة أخرى بحجة البقاء في ذلك الملاذ، هناك تبرز العلاقة بين الكاتب/ الإنسان ووطنه المبعد عنه جسداً وفكراً وثقافةً، وقد عبر الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي عن الدافع الأساس للكتابة بقوله : ((نحن نكتب بدافع من داخلنا ومن ضمائرنا ولم يطلب أحد منا ذلك، وطنيتنا وحبنا لبلدنا وخوفنا عليه وعلى أهلنا، على الدور الحضاري والتاريخي لوطننا هي العوامل والمسببات الساخنة التي تجعلنا نكتب، هذه حالتي الشخصية على الأقل التي هي وليدة استقلاليتي التي اعتز بها. وهناك غيري من ينطلق بتنسيق ما مع الجهة السياسية التي ينتمي إليها، وهذا حقه. نحن نقرأ ونرى ونتابع ونتأمل ونخرج ثم نكتب))[١٨]، وكان هذا ؛؛خير تعبير عن هذه العلاقة الجدلية بين الاثنين، الوطن والإنسان بوصفهما كائنين مرتبطين ببعضهما ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

الخاتمة :

احتلت الرواية أهمية استثنائية في الساحة الثقافية في بداية القرن العشرين، وإن كان وجوها يعود إلى ماقبل هذا الزمن بكثير، برزت هذه الأهمية من خلال دورها في صياغة واقع الإنسان وانعكاساته على النحو الذي يشير إلى إمكانية خلق معالم رؤيوية واضحة في الفكر الإنساني، ففي ظل الواقع المأساوي الذي فقد فيه الإنسان خصوصيته المتميزة بوصفه المجسد الفعلي لفعل التغيير وسياقات البحث عن الأهداف المشروعة في حياة كريمة ؛ لم يعد الحديث عن الثقافة ومحدداتها أمراً يسيراً، مادام صانع هذه الثقافة يتخبط بحثاً عن جدوى بقائه في وطن لا أمان فيه؟! إلا أن العلاقة القائمة بين النص الروائي والمجتمع الإنساني تحدد بوساطة المرجعية التي يستقي منها النص مادته السردية ويشكلها على النحو الذي يتلاءم والحدث الروائي.

فالخطاب الروائي يسرد حكاية، حكاية الإنسان في كلِّ زمان ومكان، حكايته مع الواقع، مع الخيال، مع نفسه، مع الآخرين ولاسيّما السلطة والآخر/ العدو الذي وجد نفسه في مواجهة حادة، غير متكافئة معه، حكاية انتمائه إلى كل هذه المحددات بغض النظر عن طبيعة هذا الانتماء، فلقد وجد الإنسان نفسه أمام تيار لا يرحم وغدا في حاجة ماسة إلى أن يصوغ حكايته بحجة البقاء، كما كانت الحكاية المصدر الوحيد لبقاء شهرزاد بعد أن سلّط شهريار سيفه على رقبة النساء في إبادة جماعية انتقاما من جنس اسمه : المرأة متخذاً بذلك خيانتها ذريعة للإبادة الجماعية ؟!

نعم، إننا بحاجة إلى روايات تغوص في الأحداث بل وتغرق فيها – وإن كان هذا غير ممكن الآن – ولكنا نؤمن بأن للوطن أبناءً لا يتخلون عنه، فليكتبوا وهم بعيدون عنه، وهم قريبون منه،خارج ساحة الموت أو داخلها، لا يهم، من أي موقع يكتبون، كل ما نريده أن يكتبوا، فالكتابة هي التعبير الوحيد عن تفتح الوعي الإنساني وبالتالي معرفة أثر المكتوب في توعية الفكر الإنساني وهو يلتحم بما كُتِب وما تم

التعبير عنه، هذا الوعي هو القادر على إيجاد مبررات البقاء والفناء في الوطن، وهو القادر على استعادته عندما يتم التأثير على الآخرين الذين هم داخل الوطن، والذين يصرون في الوقت ذاته على الحياة، فالكتابة ثورة، والثورة أساسها التمرد، والتمرد بداية التحرر والاستقلال، نريد روايات تكشف الزيف والخداع اللذين سقط فيهما البعض، واكتشفوا الخديعة فيما بعد، روايات تعمل على ترسيخ القيم والمبادئ والأهداف التي تشجع على إقامة وحدة وطنية بين أبناء هذا الوطن وتعزيزها، بعيداً عن شعائر وطقوس الأحزاب وتكتلاتها، بعيداً عن العنصرية والطائفية التي قسمت البلد إلى أقسام عدة وتوضح دورهم في هذا التقسيم وأثرهم في تفتيت المشاعر الوطنية، روايات تؤثر في الإنسان العراقي ويتأثر بها وهو يقرأ مأساته في شخصيات وأحداث روائية ضمن فضاء ومكاني عراقيين تحديداً .

الهوامش :

(١) التجليات الملحمية في الرواية العربية، 29 .
(٢) فن الرواية، 9.
(٣) انكسار الأحلام، 12.
(٤) الرؤية الفجائعية في الرواية العربية نهاية القرن العشرين، 144.
(٥) أعلام الفن القصصي، 16 .
(٦) في معرفة النص، 55 .
(٧) نظريات السرد الحديثة، 22 .
(٨) في نظرية الرواية –بحث في تقنيات السرد، 58 .
(٩) ينظر : عصر الرواية، 9 .
(١٠) ينظر : م.ن، 18 .
(١١) مقولة للدكتور محمد صابر عبيد في كتاب (جماليات التشكيل الروائي) .
(١٢) الموقف الثوري في الرواية العربي المعاصرة،15 .
(١٣) الرؤية الفجائعية، 116 .
(١٤) الراوي – الموقع والشكل، 44 .
(١٥) فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، 26 .
(١٦) الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، 35–36.
(١٧) م.ن، 198 .
(١٨) الروائي العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي.

المصادر والمراجع :

1- أعلام الفن القصصي،هنري توماس – دانالي توماس، ترجمة : عثمان نويه، ج2، كتاب الهلال (337)، 1979 .
2- الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، حليم بركات، ط1 / مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006 .
3- التجليات الملحمية في الرواية العربية، مريم جبر فريحات، ط1، وزارة الثقافة، عمان، 2005.
4- الراوي – الموقع والشكل – بحث في السرد الروائي، يمنى العيد، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1986 .
5- الروائي العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي، حاوره : هشام عودة، عمان – الوحدة، شبكة البصرة.
6- عصر الرواية مقال في النوع الأدبي، محسن جاسم الموسوي، ط1، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، 1985 .
7- فن الرواية، كولن ولسن، ترجمة: محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر ،بغداد، 1986 .
٨- فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، يمنى العيد،ط١،دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨،٦٢.
9- في معرفة النص – دراسات في النقد الأدبي، يمنى العيد، ط2، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984 .
10- في نظرية الرواية – بحث في تقنيات السرد، عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة: 240، الكويت، 1998 .
11- الموقف الثوري في الرواية العربي المعاصرة،محسن جاسم الموسوي، سلسلة الكتب الحديثة (89)، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975.
12- نظريات السرد الحديثة، والاس مارتن، ترجمة : حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998 .

البيئة القصصية واللغة

قراءة في قصص ((الملاذات)) لـ حمد صالح

م. سناء سلمان عبد الجبار

جامعة تكريت/ كلية الآداب

تؤدي البيئة القصصية دوراً مهماً في بناء الفعل القصصي وتسهم في إنارة دور العناصر السردية الأخرى في العالم القصصي، وينهض عنصر المكان بخاصية مركزية وأساسية في تمثيل البيئة والتعبير عن رؤيتها، إذ إن ((أهمية المكان في واقع الأمر تنبجس من كونه مفهوماً يقوم على الاختلاف والمباينة، فعلاقة الإنسان بالمكان تختلف من فضاء إلى آخر: إذ تتجلى في الفضاء المديني بممارسة مطبوعة بطابع المدينة، حيث النداء الخفيض على مستوى الصوت وحبّ الأمكنة المغلقة، على عكس تجليات هذه العلاقة في الريف، فالأمداء الواسعة المفتوحة نفترض النداء العالي وممارسات سلوكية مميزة في الجلوس والطعام، الأمر الذي يبرز لنا ثقافة المكان وسطوته عند أصحابه))[١].

ومن ثقافة المكان هذه وتأثيراتها تولّدت مجموعة من الخواص التعبيرية والدلالية والسياقية التي كوّنت حدود تدخّله في المجال القصصي والفضاء السردي، وتعدّ خاصية الانفتاح من أهم هذه الخواص في هذا المجال إذ جعلت من المكان ((مجالا مفتوحا للاجتهاد وللتصورات المتعددة التي لم تصل إلى حدّ بلورة نظرية عامة في الفضاء))[٢].

إن عنصر المكان يدخل في معظم عناصر السرد التي تشترك في تكوين القصة، ويتفاعل معها ويؤثر فيها ويوجه معطياتها أحياناً، فهو ((لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية للسرد

كالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية))[٣]،ولا وجود للمكونات القصصية من دون حضور العنصر المكاني فيها.

وربما تتقدم علاقة المكان بالشخصية بوصفها أهم هذه العلاقات لما للمكان في إطار الشخصية من دور مركزي في بناء القصة، وتتمخض هذه العلاقة عن نتيجة مهمة على صعيد البناء والتشكيل، حيث ((إن علاقة الشخصية بالمكان تتفجّر عن رؤى موضوعية وذاتية في تشكيله وبنيته))[٤]، تعتمد عليها القصة اعتماداً كبيراً في استكمال شروط نجاحها.

لاشك في أن البيئة القصصية لا تستطيع القيام بدورها في ترسيخ حضور عنصر المكان في العمل القصصي من دون أن تعتمد على اللغة، بوصفها آلية التعبير المعتمدة في إظهار صورة المكان وحساسيته في مساحة القص، واللغة كما تصفها سيزا قاسم في هذا الإطار((مخزون . كنز . مجرد من العلامات ينوب عن عالم الواقع ويحل محله))[٥]، كما أنها في المنظور الفلسفي ذات علاقة بالوجود إذ ((إن اللغة هي مأوى الوجود ومسكنه))[٦].

إن اللغة تظهر في المكان القصصي عبر مجموعة من الوسائل والأدوات السردية، وربما يكون الوصف في مقدمة هذه الوسائل والأدوات التي يمكّن اللغة من التعبير الواضح عن المكان، فالوصف وسيلة القاص لتصوير المكان وبيان جزئياته وأبعاده[٧]، وبيان مدى تأثيره وحيويته في بناء القصة ونجاحها في الوصول إلى المتلقي.

إن ما يمنح القصة هوية الانتماء إلى التراث الإبداعي المتميز،فضلا على مستلزمات وشروط الإبداع المعروفة، هو الصدق الفني والوفاء للبيئة، لما لهما من أثر بالغ في إعطاء التجربة عمقاً فنياً يصل إلى نهاية الشعيرات الدقيقة للحدث السردي، فيوفر للقارئ المتذوق فرصة استقبال الحدث بصورة المشاركة إلى الحدّ الذي يجعله جزءاً من الحدث أو مشاركاً فيه.

كانت مجموعة ((الملاذات))[٨] للقاص حمد صالح وفية لبيئتها ومنتمية لها انتماءً حاسماً، فكانت (القرية) هي المحور المكاني الذي دارت حوله أحداث القصص التي عبقت برائحتها وتنفست فنّاً وحياةً وإبداعاً من خلالها.

ولعل واقعية القاص زائداً صدقه جعل شخصياته تكتسب ملامح مألوفة، توفر للقارئ فرصة المعايشة الدقيقة والتعاطف العميق معها، فـ (جويبر) الذي طرحه القاصّ معادلاً موضوعياً للغراب في قصة (الأنفاس)، عبر زمن هادئ وساكن ومخيف (الليل) يسقط في موجة من الأفكار والأحاسيس المتناقضة المتضاربة، من خلال صراع عنيف بين العقل والعاطفة:

فتحت الباب على اتساعه فولج مصارعاً ارتباكه[٩].

كان يبحث عن بداية مناسبة للدخول على نحو مقبول وغير مباشر إلى ما يريد أن يقول، فلم يفلح، كل البدايات سيئة وقاسية[١٠].

فيما كانت (فاطمة) أنموذجاً للجمال القروي الممزوج بخجل أبدي. و(أمّ فارس) الخيط الفاصل بين الحياة والموت، هذا الخيط الذي يستند إلى انتظار الأمل- الغائب (فارس) الذي يمتلك حضوره من خلال طفله، الذي عبّر ببكائه عمّا فشل (جويبر) في نقله:

استحال الصراخ العنيف إلى نحيب محشرج متقطع، ثم إلى نقنقة مكتومة كاستغاثات مبهمة لكائن إنساني يذوب ذعراً في ظلمة الخارج الحالكة[١١].

لقد كان القاص دقيقاً ومتمكناً عندما خلق هذه الحركات المتوازنة في بكاء الطفل، الذي جسّد مراحل استقبال الحدث . المصيبة، فكانت لحظة الاصطدام الأولى بالحدث (الصراخ العنيف)، ثم تمثل الحدث واستيعابه واحتواؤه (نحيب محشرج متقطع)، ثم الإيمان النهائي بالقدر (نقنقة مكتومة).

ويستمر صراع الحياة والموت في إطار التركيز على البيئة بمواصفاتها المكانية في قصة (تلك الشجرة المباركة)، حيث الطفل المريض بحبّ الشجرة فهو

يتمسك بها بشكل يوحي بأنها البديل الوحيد للحياة عنده، لأنها الوحيدة القادرة على أن تمنح الحياة باستمرار، وتصارع الأقدار والفصول من أجل إثبات الوجود وتوكيده.

تمكن القاص من خلق قطبين موجبين في فضاء المكان (الطفل . الشجرة) وخلق بينهما هذا التوافق الذي يختلف ومنطق الأشياء، فالقطبان الموجبان يتنافران، لكن القاصّ أراد بهذا أن يلغي قوانين الطبيعة ليصنع توليفاً جديداً في مفردات الحياة، فالتصاق الطفل المكاني بالشجرة ما هو إلا إدراك عميق من أنه مهدد بالموت عبر هذا الوصف:

عينان ضيقتان يشع منهما بريق زاخر بالاندهاش والقلق[١٢].

فعليه أن يحاول إلغاءه بالامتزاج الكامل برمز الحيلة المستمرة (الشجرة) بطاقتها المكانية المستمدة من ثقافة البيئة، وقد كُتبت القصة بلغة تطفح شاعرية ورقّة تلاءمت مع روح المكان وطبيعته.

وتستمر لعنة الانتظار بإيحاءاتها المكانية متوهجة قاتلة ذات لغة مؤثرة في قصة (سفر العودة)، لتتحول إلى لعبة لذيذة تنضح ألماً وحزناً وكبرياء، وتبقى أنظار العجوز المتهالكة في القصة مركزة في نقطة ما في اللامكان، لتصنع منها شبحاً لـ (كامل) الأمل المنتظر، فيما كان عدم اكتراث (عائشة) عاملاً جديداً يصّعد من أزمة الانتظار عند (أمّ كامل):

تساءلت عائشة بإلحاح ينم عن نفاد صبر:

-هل نظل واقفين في هذا المكان ؟[١٣]

واستمرت لغة القصة رائقة يكسوها حزن شفاف، يمنح الموقف القصصي والمكان القصصي نوعاً من الرهبة الخاشعة:

فاهتز الصمت بحركة مفاجئة من رأسها المأهول بالسكون[١٤].

يضاء الوجه القرمزي الكامن بإشراقة فرح مدفون، يسبح كاشراقة ضوء تطل من ظلمات الأغوار[١٥].

إلا أن استخدام التعبيرات العامية التي حاول القاصّ خلالها أن يمنح الموقف القصصي حرارة الموضوع جاءت في غير صالح القصة، إذ إنها خلقت هوّة كبيرة بين جمال اللغة السليمة وسذاجة وركاكة التعبير العامي، مثل:

رأسها الدائخ[١٦]

أذن لازم يعود كامل، نعم لازم يعود[١٧]

وتبدو الشخصيات (هطيل السلطان) في قصة (الجامع) واحدة من الشخصيات، التي تحتل مكانة مرموقة في ذهنية القاصّ الإبداعية، وأنموذجاً من نماذج البطولة الخارقة التي تولد بكل يسر وسهولة في نطاق البيئة التي ولّدت مكاناً صالحاً لذلك.

فـ (هطيل السلطان) الذي يتحدى الموت لإيمانه الكبير بالحياة، كان موقفه نابعاً من أن قيام الكيان الصهيوني بنسف جامع صغير في قرية عربية، لا يعني نسف بناية مجردة بل نسف تاريخ كامل، كان يعي هذا بالفطرة، ويتشبث بوعيه حدّ التوحد مع ((الجامع)) الذي يربطه بالمعتقد والتاريخ والوطن والمكان واللغة، والذي سيصبح فيه جسده جزءاً من ركاماته.

القصّة مكانية بامتياز اعتمدت أسلوب الضغط الزمني، ابتدأها القاص بمقدمة سردية وصفية، يغلب عليها الطابع الإنشائي إذ لا تؤدي اللغة دورها السردي كما يجب، وهي مقدمة تبدو فائضة بعض الشيء لا تنتمي إلى القصة انتماءً مباشراً، إذ يمكن أن توضع في مقدمة أيّة قصّة، حيث إنها فشلت في مدّ جسورها المقطوعة إلى أحداث القصّة.

واستطاع القاصّ في قصتّه هذه أن يمنح بعض الكلمات العامية حضوراً قوياً على النحو الذي يشحن لغته القصصية بروح قادمة من البيئة المكانية، بحيث تفشل معها مرادفاتها الفصحى في تحقيق نفس الغرض الدلالي، ومن هذه المفردات (اليشامغ المتسخة)، فلفظة (اليشامغ) تحمل دلالة خاصة ومتفردة لا تحققها مرادفتها الفصيحة كالعمامة أو القلنسوة.

أما القصة (وجهان من الغربة) فقد كانت تدور حول محور أزمة إثبات الوجود في المكان والزمان واللغة والموقف، فـ (موسى) الشخصية المأزومة التي تعاني من الانكسار والتحطيم، تبحث عن الصراع مع الموت عن مبرر جديد للحياة، فالفوز بالحياة يأتي من خلال مرحلتين قهر الموت أولاً عبر اجتياز (وادي الثرثار) الذي يفصلهم عن أخته التي هربت مع الغجري، وخلفت الدمار النفسي ومن ثم إنهاء ما تبقى من عاره بإعدام رمز هذا العار (أخته) وتنشأ فكرة الصراع مع القدر عند البطل في وقت متقدم نسبياً.

ما زلت صغيراً يا موسى

التفت إليه بانفعال غاضب

-أنا رجل[١٨].

والواقع أن فلسفة الحياة عند البطل (موسى) تتقاطع مع فلسفة الحياة المجتمعية بمنظورها البيئي، ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع يطالبه بأن يضع حدّاً لحالة السقوط المزري التي سجّلتها أخته الهاربة، كان يعتقد أن (كلّ شئ قبل أن يفيق كان ساقطاً)، لكن المجتمع هنا تفوق على البطل ودفعه بتياره الجارف نحو التخلّي عن المكان وفقدان لغة البيئة.

لقد كانت القصة جميلة بتقنيتها الفنية المعتمدة على التقطيع السينمي، وكان ثمّة سيل من المشاعر التي تتحرك على كلّ المقاطع، بخطوط بيانية ترتفع وتنخفض بارتفاع وانخفاض حدّة هذه المشاعر وتوهج لغتها، وتدفعها على طريقة تبادل المواقف بين (موسى) و (أمّه)، إذ كان الهاجس الذي ينتابهما واحداً، إلا أنهما يختلفان في طريقة استخدام اللغة والتعبير عنه، فعندما تفشل الأمّ في إخفاء مشاعر الرهبة والخوف من المجهول، نرى (موسى) ينجح ليس في إخفاء المشاعر حسب، بل في إجهاضها لتحقيق الحلم . الوجود الذي يتجسد في المكان ويأخذ صورة البيئة.

وقد أهمل القاصّ الوجه الداخلي لشخصيته الرئيسة (موسى)، الذي كان فيه للقاصّ فرصة كبيرة في استجلاء بواطن الألم الدفين، الناشئ من طبيعة الصراع الدامي بين أفكاره وبين الموقف الفكري المتحدي للماحول البيئي.

ونجح القاصّ أيضاً في استخدام بعض التعبيرات العامية التي لا توفر مرادفاتها الفصحى هذه الدقّة في التعبير مثل مفردتي (المخمر) و (الصاية)، وهما تشيران إلى البيئة إشارة لغوية صريحة ومعبّرة.

وكانت قصّة (الحكيم) على الرغم من تشنجها وانفعال لغتها جميلة موحية، وكان للفولكلور الشعبي بمعناه البيئي فيها حضور واسع وعميق، فالمعتقدات الشعبية تلعب في القصّة التي تتخذ القرية مسرحاً مكانياً لها دوراً كبيراً، حيث أنها شكلّت جزءاً أساساً من البناء العام للقصّة.

فالطفل (الحكيم) الذي يتمتع بجمال غير اعتيادي يجدر بوالديه أن لا يعرضوه لأحد، وفقاً لهذه المعتقدات وذلك لأنه كما يعبّر البطل–الأب – في معرض تشخيصه للمتعقد البيئي:

للناس أعين تثقب الحجر[١٩]

وقد تنوعت أساليب المحافظة على (الحكيم)، وكان هناك اعتقاد مسبق بأنه لن يعيش لأن الجمال غير الاعتيادي في هذا النوع من البيئات الحاسدة ليس إلا لعنة أبدية تلاحق الطفل حتى النهاية:

لا تحبّهم هكذا فأنهم يجرحون حتى النهاية[٢٠].

أو رافساً برجليه ويديّه الرافلتين بالمعاضد والنمنم[٢١].

وفي صباح اليوم التالي رأيت أن عدد الأحجية قد تضاعف على صدره وكتفيه وأن الشذر والودع وخزر الشيح وسنّ الذئب قد خيّطت على قبعته الصغيرة المثبت في أعلاها كفّ أسد مدبب المخالب[٢٢].

ونذرت أمي دجاجة سوداء لا ريشة بيضاء فيها لوجه الشيخ عيسى[٢٣].

كما أن هناك عموداً آخر من أعمدة القصّة، كان له الدور الفعال في منح المعتقدات الشعبية سيطرة كاملة على مساحة الحدث القصصي فيها، وهذا العمود مبني على فكرة (من يضحك كثيراً يبكي كثيراً)، وهو موروث بيئي مكاني معروف وشائع، لهذا فقد خلق القاصّ لموت الحكيم موازنات عديدة لا يتسع المكان لحصرها

هنا، وكانت في مقدماتها الموازنة المبنية على هذا الاعتقاد، وقد عبّر عن ذلك بسلسلة إشارات على النحو الآتي:

مما يجعله يسترسل عالياً في الضحك النابع من الأعماق[٢٤].

أثارت على الفور ضحكة الحكيم الجذلة انتباه بعض الأصدقاء[٢٥].

وضحكت بدوري وبإحساس مفعم بالسعادة حينما رأيت الحكيم يضحك جذلاً في حضن أمّه[٢٦].

أو حول الحكيم الضاج بالضحك حدّ الإغماء[٢٧].

الحكيم يكاد ينفجر من الضحك في حضني[٢٨].

وكأن موت الحكيم كان ثمناً لهذا الضحك المتواصل. والقصّة بعد ذلك رائعة بواقعيتها وصدقها وتمثيلها للمكان، إلا أن الانفعال الذي كان يسيطر على لغتها في بعض الأحيان رسم شروخاً صغيرة في وجهها الناصع وجاءت على المستوى البنائي في غير صالح القصة.

ومن قصص (الملاذات) الجميلة قصّة (اهتمامات يومية)، ففيها صراع عنيف بين الحياة والموت، وبين الوجود واللاوجود، حيث يحاول أن ينتزع الإنسان (العريف شخير) فيها حياته من مخالب الموت، ووجوده من احتمال العدم ومكانيته من فوضى الزمن، ولغته من حالة الصمت.

والقصّة مبنية على فكرة أن الذئب الحقيقي كالإنسان لا يمكن أن يذلّ، وبإمكانه تحدي كل أساليب الموت، وستفشل معه كل خبرة الترويض الطويلة، فالسيطرة التي فرضها (العريف شخير) على عالم الذئاب كانت لتوكيد وجوده المكاني والزماني بالدرجة الأساس، وفرض لغته المستمدّة من لغة البيئة:

وكان الحديث يثني بمجمله على قدرة العريف شخير الهائلة في ترويض الذئاب وكثرت أيضاً التنبؤات بمستقبل هذا الرجل النادر المواصفات والذي ينبغي للمسؤولين احتضانه وتوفير المستلزمات الضرورية له لممارسة هواياته التي لا ينبغي إهمال أهميتها[٢٩].

إلا أن نهاية الصراع لم يكن في صالحه، فقد هزمه ذئب أبت كرامته أن يحطمها (العريف شخير) ويشرب كأساً من الشاي على أنقاضها، فأضرب الذئب عن الطعام والشراب وفشلت كذلك فكرة وضعه خارج القفص، بعد أن اعتقد (العريف شخير) خاطئاً أنه أصبح مجرد ذكرى ذئب، وقد كان بقره لبطن الحرس فيما بعد موتاً قاسياً للعريف شخير وإنهاءً لسيطرته الملكية على عالم الذئاب، إن لم يكن إلغاءً تاماً لوجوده.

إن القصّة وعلى الرغم من استغراقها في استطالات سردية كثيرة، ففيها نفسٌ قصصي ساحرٌ يأسر القارئ ويشّده ويقلقه في آن واحد، على صعيد حرارة اللغة ودفقها وتمثيلها للبيئة والمكان على نحو أنموذجي.

وتأتي قصّة (الملاذات) لتمتزج بحلاوة جديدة لعالم التلقي كلما حاول المتلقي أن يتحسسها يفشل، فلم يعد يفرق بين المرارة والحلاوة لأن تداخل الصور والأحداث، وتقاطع المشاعر والأحاسيس، والصدق الذي تنبض به كلمات القصّة، ولدتْ في نفسه مذاقاً خاصاً، إنه ذات الطعم الغريب الذي يجتاحه وهو يقرأ (تشيخوف) بمرارته الداكنة وأمله المزمن، (وادغار ألن بو) بسحره المتقد وعواطفه المركبة، ألا أن المتلقي ما أن يفرغ من قراءة القصّة حتى يتساءل، ما الذي أراد أن يقوله القاصّ، ليكتشف أن القصّة على الرغم من شاعريتها وقوة تعبيرها ودفق لغتها ودقّة تصويرها، فقد كانت خليطاً من مشاعر متباينة، تفوّق فيها اللاشعور على الشعور، ليسيطر الإحباط والانكسار على حركات الشخوص وفضاء المكان:

– رفض الموت عبث يا أمينة[٣٠].

ليتنا لم نبتدئ. لم نخلق. لم نحبّ. أما وقد تم كل شيء رغماً عنّا

فالشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله هو أن نواصل.. أليس كذلك ؟س[٣١]

وعبر هذه الجولة التحليلية في الأفكار القصصية التي حاول القاص طرحها من خلال البيئة بوصفها باعثاً للمكان واللغة، ومن خلال مجموعته القصصية هذه التي يتمحور أغلبها حول فكرة إثبات الكينونة والوجود، من خلال أشكال الصراع

المتنوعة مع الحياة، كان لابد لنا من الوقوف على بعض الخصائص الفنية التي يتعلق أغلبها بالأدوات القصصية، التي يتقن القاصّ جزءاً مهماً منها.

فعلى صعيد الشخصيات القصصية قام القاصّ بطرحها متكاملة دفعة واحدة حيث أن شخصيات (جويبر– أمّ كامل . هطيل السلطان– موسى– العريف شخير– محمود) لم تكتسب ملامحها الشخصية عبر التطور الحدثي للقصّة، أيّ أنها لم تكن محورية تنمو بنمو الحدث، بل أنها دخلت أحداث القصص بكامل ملامحها وصفاتها.

ولعل أهم ما يجب أن نقف عليه هو التفاوت الكبير بين السرد والحوار، فقد استغرق السرد معظم إن لم نقل كل قصص المجموعة، بحيث طغى الأسلوب الوصفي الذي يقترب من الإنشائية في بعض الأحيان على أبرز الجوانب البنائية للقصّة. فيما كان الحوار منحسراً يقطع تواصل الأحداث أحياناً، ويبدو في أحيان أخرى قلقاً مفتعلاً بحيث لا ينسجم وعالم الأحداث التي رسمها القاصّ.

ففي الوقت الذي كانت فيه لغة السرد قوية صافية متألقة، كانت لغة الحوار عادية ليس فيها ما يثير، ويمكن في بعض القصص الاستغناء عنه بحيث لا يخدش عالمها القصصي.

ولكن (الملاذات) رغم كل هذا وذاك أنموذج متقدم من نماذج قصصنا العراقي المعاصر، سعت إلى الإفادة من حساسية البيئة بكل ما انطوت عليه من تأثير في عمق المكان القصصي، وما ولّدته من قدرة لغوية تحاول التعبير عن البيئة المكانية بوسائل مختلفة.

هوامش البحث:

(١) شعرية المكان في الرواية العربية، خالد حسين حسين، كتاب الرياض الشهري (٨٣)، الرياض، ٢٠٠٠: ٦٥ – ٦٦.

(٢) قال الراوي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٧: ٢٣٨.

(٣) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي. المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠:٦٤.

(٤) شعرية المكان في الرواية العربية: ٥.

(٥) المكان ودلالاته، سيزا قاسم. ضمن كتاب ((جماليات المكان)) مجموعة مؤلفين، عيون المقالات، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٨:٦٤.

(٦) أسس الفكر المعاصر، عبد السلام بن عبدالعالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩١: ٤١.

(٧) بناء المكان الروائي، سمر روحي الفيصل، مجلة الموقف الأدبي، العدد ٣٠٥، دمشق، ١٩٩٦: ١٣.

(٨) الملاذات، حمد صالح، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٥.

(٩) م. ن: ٧.

(١٠) م. ن: ٨.

(١١) م. ن: ١٤.

(١٢) م. ن: ١٦.

(١٣) م. ن: ٣٠.

(١٤) م. ن: ٢٤.

(١٥) م. ن: ٢٥.

(١٦) م. ن: ٢٥.

(١٧) م. ن: ٢٤.

(١٨) م. ن: ٥٠.

(١٩) م. ن: ٨٢.

(٢٠) م. ن: ٦٧.

(٢١) م. ن: ٧٦.

(٢٢) م.،: ٧٩.

(٢٣) م. ن: ٧٩.

(٢٤) م. ن: ٨٠.

(٢٥) م. ن: ٨٠.

(٢٦) م. ن: ٨٢.

(٢٧) م. ن: ٨٤.

(٢٨) م. ن: ٨٥.

(٢٩) م. ن: ٨٩.

(٣٠) م. ن: ٩٤.

(٣١) م. ن: ٩٥.

المزج بين صفات الطبيعة وصفات الخيل مابين (امرؤ القيس وابن حمديس)

م.م. جمعـــــة حســـــين يوســـــف
جامعة تكريت /كلية التربية /قسم اللغة العربية

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلى من تبعهم بإحسان واهتدى بهديهم الى يوم الدين.

اما بعد :

فأن اهتمام العربي بالخيل كان منذ الأزل إذ كانت رفيقته بالسراء والضراء وقد اتخذها وسيلة للتنقل فهي رفيقته وصاحبته في الحل والترحال، وفي الحرب والسلم، به يدفع الفارس الظلم عن أهله وعشيرته وبه يذود عن حماه ومحارمه فالعربي اذن شديد الالتصاق بالخيل[١] فضلا عن أحاديث الرسول(ﷺ) الذي يجعل الخير معقودا في نواصيها في حديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله(ﷺ) (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[٢] والشاعر العربي هو لسان الحال والناطق بالأفكار فضلا عن كونه إنساناً عربياً أحب الخيل ايضا، ويمتاز باستطاعته على التغني بها ووصف أشكالها وألوانها وصفاتها ويسبغ عليها من الطبيعة ما يروق منظره ويزيد من جمال خيله، لذلك وجدنا الشعراء قد اهتموا بالخيل ووظفوها بإشعارهم بمختلف الطرق والأشكال وهذا ما دفعنا الى اختيار الخيل من باقي الحيوانات فضلا عن اختيار أفضل شاعرين– في نظرنا– في وصف الخيل احدهما مشرقي وهو امرؤ القيس زعيم الشعراء، والآخر أندلسي ابن حمديس الذي اشتهر بالوصف ولا سيما وصف الخيل.

ومن هذا حاولنا وضع عنوانا لبحثنا، هو ((المزج بين صفات الطبيعة وصفات الخيل مابين (امرؤ القيس وابن حمديس)).

ونعني بالطبيعة الطبيعة الصامتة والمتحركة أي كل ما تشمل من نبات وحيوان وجماد وسحب وغيوم وليل ونهار وبجميع أشكالها،اما تقسيمات الدراسة فكانت على اربعة محاور تطرقنا في:

المحور الأول: الى التعريف بالخيل وأسمائها وكنيتها وصفاتها وحب العربي لها، وفي:

المحور الثاني: يتطرق الحديث الى تعريف بالشاعر امرئ القيس ثم ننتقل الى موضوع المزج بين وصف الطبيعة والخيل عند امرئ القيس وفي:

المحور الثالث: ايضا بطاقة تعريف بالشاعر ابن حمديس ثم ننتقل الى المزج بين صفات الطبيعة والخيل في شعره، وفي:

المحور الرابع والأخير: ننتقل الى مزج المزج أي ما مُزج من معاني وألفاظ أوصاف الخيل من الطبيعة عند امرئ القيس في شعر ابن حمديس في نفس الغرض، ثم نختم هذا البحث بخلاصة بأهم النتائج التي توصلنا إليها فضلا عن أجراء موازنة ما بين الشاعرين في هذا الغرض .

وهذا العمل هو محاولة لاضافة لبنة ولو صغيرة الى جدار تراثنا العظيم، ومساهمة منا في أحياء ذلك التراث ولا سيما الخيل التى تعد من صميم رموزنا التراثية التي اعتز بها العرب سابقا ونعتز نحن اليوم بذكرها، فضلا عن بيان الصلة ما بين المشرق والمغرب في معالجة نفس الموضوع، وهذا هو جهد المجتهد فان أصبنا فمن الله الأجر والثواب وان أخفقنا فهو حسبنا وندعو من الله ان يكتب لنا اجر المجتهد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المحور الأول

الخـــيـــــل

1ـ أسماؤها:

الخيل لا واحد لها من لفظها، واحدها فرَسٌ والجمع أفراس الذكر والأنثى في ذلك سواء ولا يقال للأنثى فيه فرسة[٣].

ويقال للذكر من الخيل : حصانٌ والجَمعُ حُصُنٌ وأحْصِنةٌ، كما يقال للأنثى حِجْرٌ والجمع حُجورٌ وأحجارٌ، وإذا كانت انثى الخيل متخذة للنسل سُمِّيت (رَمَكَةً) والجمع رَمَكٌ ورِماكٌ وأرماكٌ . ومن الخيل ما يسمى (البرذونُ): وهو ما كان غير عربي وأهل الشام يسمونه (الكديش) ويكون عادةً غليظ الأعضاء، عظيم الخلقةِ قويَّ الارجُل عظيم الحوافر لكنَّهُ ثقيل الحركة بطيء المشي والجمع براذين. ومن الخيل ما يسمى (الهُجنُ) وهي التي يكون أبوها عربيًّا وأُمّها من البراذين[٤].

وسُميت الخيل فرسا اشتقاقا من الافتراس، لأنها تفترس الأرض بِسُرعة مشيها، وراكِبُ الفرسِ (فارس)..ويُقال لراكب ذي الحافر من فرس او بغل او حمار (فارس)[٥] ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر[٦] :

وإنِّـــي امـــرؤٌ للخيـــلِ عنـــدي مَزيَّـــةٌ علـى فـارسِ البِـرذونِ او فـارسِ البَغـلِ

وأشار هشام بن محمد الكلبي في ذكره لأصول أشهر الخيول العربية حيث ينتهي لديه الى مجموعة تعد أوائل الخيل في جزيرة العرب وهي : (زاد الركب والهجيس والديناري وجلوى الكبرى وجلوى الصغرى وذو الموتة والقسامة وسواده والفيّاض)[٧] .

وسميت الخيل بمسميات اخرى من حيث السبق أي على حسب أولويتها في السباق الذي كان يجري ما بين الخيول في المناسبات والأعياد والتحديات، فيُسمَّى

الفرس الاول في سباق الخيل : السَّابِقُ او المجلِّي، ويُسمى الثاني : المُصَلِّي، ثم المُسَلِّي، ثم التالي، ثم المؤمل، ثم المرتاح ثم العاطف، ثم الحظيُّ ثم اللَّطيمُ ثم السُّكَّيت وهو العاشر، وقد يُسمى الفِسْكِلَ او الفُسْكُل ـ بكسرتين بينهما سكون، او بضمتين بينهما سكون[٨].

اما مسميات الخيل من حيث العمر فلها أسماء بحسب سن الفرس " فهو اذا وضعته امه مهرُ ثم هو فُلُوٌّ فاذا استكمل سنة فهو حَوْلِيّ ثم هو في الثانية جَذَع ثم هو في الثالثة ثَنِيّ ثم هو في الرابعة رَباع ثم هو في الخامسة قارح ثم هو الى نهاية عمره مُذَكٌّ "[٩].

ومن المسميات الأخرى للفرس (الطِّمِرّ) وهو يطلق على الفرس الطويل المُشرفِ ومن ذلك قول طرفة[١٠] :

فـــإذا مـــا شَـــربوها انْتَعَشُـــوا وهَبُـــوا كـــلَّ أمـــونٍ وطِمِـــرّْ

ونلحظ الشاعر هنا قد استلهم صفت الخيل الطويل الطمر ووظفها في شعره

٢ـ كنيتها:

لقد كنى العرب في القديم الخيل بعدة كنى منها (ابو شجاع وابو طالب وابو مُدرك وابو مُضيّ وابو المضمار وابو المُنجي)[١١].

٣ـ صفاتها :

تتميز الخيول عن باقي الحيوانات بصفات خاصة جعلتها قريبة من قلب الانسان ولا سيما العربي الذي شُغف بحب الخيل وهذه ليست بدعة عنده بل وجدت من عهد النبي سليمان (عليه السلام) الذي شغله حب الخيل عن الصلاة[١٢] كما ورد في قوله تعالى: چڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ چ [سورة ص:31 -32]. وقد ورد في قوله تعالى الصافنات وهي صفة من

صفات الخيل والصافن من الخيل هو الذي يرفع إحدى يديه ويقف على طرف سنبكه، وقد يفعل ذلك برجله وهي من علامات الفراسة .

وغالبا ملا تكون صفاتها قريبة من صفات الإنسان إذ تتمتع الخيل بقدر كبير من الكرم وشرف النفس وعلو الهمة والوفاء لصاحبها وصياته، ومن ذلك قيل ان بعض الخيل لا يبول ولا يروث ما دام راكبه عليه، وهذه دلالة على توقير صاحبها وصيانة كرامته فضلا عن ان هناك منها ما يعرف صاحبه ولا يمكن غيره من الركوب علية [١٣]، وقيل ايضا من صفات الخيل لا تحب الماء العذب وربما ضرب الفرس بيده الشريعة ليثُوِّر الماء ثم يشربه[١٤] .

ومن صفات الخيل الأخرى المبالغ بها شدة السمع والبصر حتى انه يضرب بها المثل فيقال (اسمع من فرس) في شدة السمع ومن المبالغة في هذه الصفة يقال انه يسمع وقع ما يسقط من شعره على الأرض[١٥] وأظن ان هذا الكلام فيه مبالغة مفرطة خرجت لإثبات صفة قوة السمع عند الخيل.

وفضلا عن هذه الصفات فهناك صفات شكلية ولونية تعامل معها الشعراء واستطاعوا من خلال ذلك مزج ألوان الطبيعة بألوان الخيول إذ تتمتع الخيول بألوان عديدة ومشهورة على حسب ألوانها فمنها (الاشهب والأبلق والأغر والأشقر والمحجل والأدهم وغيرها من الألوان)[١٦]، وقد تفاوت الشعراء في إبراز مكامن الجمال،ومن جميل تلك الصفات ما يمزجه لنا الشاعر ابو تمام من ألوان الطبيعة من سندس وإستبرق بلون حصانه لشدة نصاعته وصفاء لونه ليشكل لنا صورة بصرية مشرقة متلألئة بقوله[١٧]:

صافي الأديم كأنما ألبسته ... من سندسٍ بُرداً ومن إستبرق

إمليسُهُ إمليدُهُ لو عُلّقت ... في صهوتيه العينُ لم تتعلقِ

٤- حب العربي لها :

تربط الإنسان بشكل عام والشاعر بشكل خاص مع الخيل علاقات ودية ومحبة تفوق مبدأ المنفعة إذ يرى فيها العربي عزه ومجده وكبرياءه، فكان من الطبيعي ان يسعى الإنسان الى الاحتفاظ بصفات الخيل ولا سيما وقد احتلت موقعا متميزا في قلب العربي وعقله وحياته، لذلك اهتم بتربيتها وسعى الى المحافظة على أنسابها من خلال حرصه على عدم الخلط بين سلالتها، ومن ذلك سعى الى تخليد ذكرها وصفاتها في قصائده ومقطعاته[١٨] .

ومن حب الخيول والاعتزاز بها ولا سيما عند الشاعر الاندلسي يرى الدكتور محمد مجيد السعيد انها نالت اهتمام الشاعر الأندلسي وحظيت بحرصه عليها وتفاخره بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها لما تفجر لديه من رموز ومعان كثيرة يتشبث بها ويعتز بتحقيقها كالبطولة والشجاعة والرجولة والمجد لذلك كانوا يتعرضون لها ويقفون عندها بإطالة ملحوظة في قصائد المدح خاصة،للعلاقة القائمة بينها وبينالممدوح، وللقيم المثلى التي يوحيها ذكرها..[١٩].

ومن كرامة الخيل وشرفها ان الله جل وعلا اقسم بها في القران الكريم بقوله تعالى چگ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں چ [سورة العاديات:1-3]. فضلا عن أحاديث الرسول محمد (ﷺ) إذ قال فيها (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[٢٠] وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تدل على كرم الخيل وإكرامها إذ جعل لها سهمين وللفارس سهم حينما قسم الرسول (عليه الصلاة والسلام) الغنائم يوم خيبر، وأعفاها من الزكاة وغيرها[٢١].

ومن محبة العرب للخيل وإعتزازهم بها، فقد عدوها اشرف مالهم، اذ قيل لبعض الحكماء : أي المال اشرف ؟ قال: فرس يتبعها فرس في بطنها فرس[٢٢].

ويعد العربي الخيل رمزاً ترتبط به "اسمى المثل العليا من كرم ومروءة، وإكرامها والعناية بها إكرام لنفسه، وإهمالها وأهانتها دليل الخسة والحقارة" [٢٣].

ومن محبة العرب للخيل وإكرامهم لها فقد سموها (مقرّبة او مقرباتٍ) لقربها منهم، ومن ذلك قول المرقش الاكبر[٢٤]:

واذا مـــا رأيـــت ركبـــاً مُخِبِّيـــ ـــن يقـــودون مقـــرباتٍ جِـــيادا

ومنهم من اتخذها صاحبا وخليلا وقد اشتقوا لها من مادة اسمهم (عرب) فسموا الأصيل منها (عرابا)، فضلا عن انهم أطعموها اللحم واهتموا برعايتها وتدريبها[٢٥].

ومن حبهم لها حتى انهم فضلوها على أهل بيتهم، ومنهم الفارس الشاعر عنترة العبسي إذ يخاطب زوجته ونراه قد فضل فرسه عليها بقوله[٢٦]:

لا تـــذكري مهـــري ومـــا اطعمتـــه فيكـــون جلـــدكِ مثـــل جلـــد الاجـــربِ

إن الغبـــوقَ لـــهُ، وأنـــتِ مســـوءةٌ فتـــأوَّهي مـــا شـــئتِ ثـــم تحوَّبـــي

والشعر العربي وتاريخه مليء بالشواهد على حب العربي للخيل في مختلف أشكاله، ولا يمكن لنا في هذا المجال حصره ولكن أردنا فقط الإشارة الى هذا الحب مع النصوص الشعرية .

المحور الثاني

المزج بين وصف الطبيعة والخيل عند امرئ القيس

1ـ بطاقة تعريف بالشاعر:

على الرغم من شهرة الشاعر الا إننا نود ان نشير ببطاقة تعريف موجزة عن لشاعر لإتمام الفائدة فالشاعر اسمه حُندج بن حجر، ولقب بالملك الضليل وبذي القروح وشهرته امرؤ القيس، والقيس صنم من اصنامهم في الجاهلية، وكان يُكنى بابي وهب وأبي الحارث وأبي زيد. وأمه فاطمة أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة التغلبيين.

ينتمي امرؤ القيس الى بيت الملك والعز والجاه، ونشأ في حياة مترفة لاهية عاشقا للخمر واللهو ومغازلة النساء والفروسية والصيد وقول الشعر .

ابوه حجر بن الحارث بن عمرو ملك قبيلة كنده، وولي على قبيلتي غطفان وأسد، الا ان لهو امرئ القيس وملك ابيه لم يتوافقا، إذ لم يروق لابيه الملك حياة ابنه المستهترة اللاهية الماجنة فطرده، وبقي الشاعر على هواه الى ان قتل ابيه ثم رجع لياخذ بثارة ويعيد ملكه ولكن لم يتسنى له ذلك وقتل مسموما بحلية من ملك الروم وكانت نهاية الشاعر[٢٧].

2ـ نماذج من شعره في وصف الخيل من الطبيعة:

يقول ابن رشيق القيرواني "أما نعات الخيل فامرؤ القيس وابو داؤد وطفيل الغنوي، واما نعات الإبل فطرفة ..واما الحمر الوحشية والقسي فأوصف الناس لها الشماخ ...."[٢٨]، فشاعرنا امرؤ القيس هو الأول بلا منازع في وصف الخيل وهذا من الطبيعي لان الشاعر هو امير فارس وصياد وكل أمر من هذه الأمور تجعله يحب الخيل ويهيم في وصفها.

ويقال ان امرأ القيس هو اول من شبه الخيل بالظباء والعصي في قوله[٢٩]:

يخرجن من خَلِلِ الغُبار عشيَّةً بالدَّارعين كأنهنَّ ظباءُ

فمزج الشاعر خيله بصفات الطبيعة المتحركة وهي الظباء في حركتهن وجمالهن، وللشاعر وصف دقيق للخيل بكل اجزائها في معلقته المشهورة لذلك سوف نذكر الابيات ثم نعود الى بيان المزج بين صفات الطبيعة والخيل في تصوير الشاعر لخيله برحلته قائلا[٣٠]:

وَقَدْ أغْتَدي وَالطّيرُ في وُكُناتُها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ
مِكَرٍّ مفرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً كجلمودِ صخْرٍ حطه السيل من عل
على الذَّبْلِ جَيّاشٍ كأنّ اهتزامَهُ كما زَلّتِ الصَّفْواءُ بالمُتَنَزّلِ
مسحٍّ إذا ما السابحاتُ على الواني أثرنَ غباراً بالكديد المركلِ
على العقبِ جيَّاش كأن اهتزامهُ إذا جاش فيه حميُه غَلَيُ مِرْجلِ
يطيرُ الغلامُ الخفُّ على صهواته وَيُلْوي بأثْوابِ العَنيفِ المُثَقَّلِ
دَريرٍ كَخُذْروفِ الوَليدِ أمَرّهُ تقلبُ كفيهِ بخيطٍ مُوصلِ
لهُ أيطلا ظبيٍ وساقا نعامة وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تنفلِ
كأن على الكتفين منه إذا انتحى مَداكَ عَروسٍ أوْ صَلايةَ حنظلِ
فَباتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلجامُهُ وباتَ بعيني قائماً غير مرسلِ
فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نعاجَه عَذارَى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ
فأدبرنَ كالجزع المفصل بينه بجيدِ مُعَمٍّ في العَشيرَةِ مُخْوَلِ

الشاعر هنا فنان يرسم لنا لوحة كاملة للفرس الذي يسري به الشاعر مبكرا للصيد حتى انه يسبق الطيور في بكورها، بجواد اجرد ضخم له قدرة على تقييد الاوابد الوحوش فلا تستطيع الحركة ثم ينتقل ليبين لنا سرعته فيمزج ما بين صورة الصخر

المنحط من فوق الجبال وبحركته السريعة بدلالة ألفاظ متتابعة بسرعة عجيبة ليكون نسقها وشكلها موحيا بدلالتها وتعبيرها في(مكر مفر مقبل مدبر معا) مع تقابل الأضداد والموازنة بين الألفاظ التي تدل على سرعة حركته مع انتظام هذه الحركة التي تكون مناورة منه وليست فرارا، ثم يرسم الشكل العام لهذا الجواد فيلونه بالوان الطبيعة مستعينا بالتشبيهات والظلال والتصوير مستمدا كل ذلك من الطبيعة والواقع بلا اغراب ولا تزوير وانما ياخذ الطبيعة على بساطتها، ويعرضها بعفويتها ولكن بثوب جديد وحلة جديدة تجعل القارئ يشارك الشاعر بحبه لجواده[٣١]، فيصف لونه بالكميت وظهره املس كالصفوان من الحجر واما في جريانه فهو جياش سريع الشأو وكأن اهتزامه غلي مرجل ويسبح بالماء، ثم يمزج صورته بصور الحيوانات الأخرى فله خاصرتان كأنهما ايطلا ظبي وساقين كساقي النعامة في طولهما وقوتهما وسرعة ذئب وجري ثعلب فنلحظ في هذا البيت مزج من أوصاف الطبيعة أوصاف مجموعة من الحيوانات في جواده، حتى نلحظ اهتمامه بالأوصاف اكثر من الموصوف إذ يذكر الخيل مرة وينطلق الى أوصافها بغيرها وربما يعود الى ذكرها وربما لايعود، فيأخذ من كل حيوان خاصية تتناسب مع قدرات جواده والتي تتمنحه قوة وجمال،ثم يعود فيشبهه بمداك العروس وهو الحجر الذي يسحق الطيب لملاسته وصلابته ثم يشبهه بصلاية حنظل وهو حجر أملس يسحق عليه الهبيد او حب الحنظل، ونلحظ في هذه الصورة الكلية للخيل ان الشاعر حاول مزج اكبر قدر من الطبيعة ليصبغ جواده بأبهى الألوان ويَسمَهُ بأسمى الصفات.

يهتم الشاعر بوصف الطبيعة المتحركة ومزجها بصفات الخيل ولاسيما الحيوانات البرية والبحرية ومن ذلك ما نلحظه عند الشاعر حينما يمزج صورة جواده بصورة (طائر الماء) وذلك لعله تنبيها على ما يتمتع به طير الماء من طول ساقيه

ونحافة جسمه، ليلصقهما بصورة جواده لان هذه الصفات محمودة في الخيل، فيقول في ذلك[٣٢]:

ورُحتا بِكابنِ الماء يجتبُ وسطنا تَصوّبُ فيه العينُ طوراًوترتقي

ومن مزيج صفاته الأخرى نجده يصف جواده بالجرادة ولعله او من تنبه الى هذا الوصف وتابعه الشعراء فيما بعد ويستعير من أسماء الجرادة في الوصف اسم (الخيفانة) و(السرعوفة) مستلهما منها صفة الخفة والرشاقة فيقول في ذلك[٣٣]:

واركب في الرّوعِ خيفانةً كسا وجهها سعف منتشر

ومن جميل وصفه ما رسمه على وجه جواده من صورة السعف المنتشر تشبيها لشعرها المنتشر على ناصيتها. ومن قوله في السرعوفة واصفا الخيل[٣٤]:

وإن أعرضت قُلتُ سرعوفةً لها ذنبٌ خلفها مسبطرّ

وهذه صورة موجزة ومختصرة عن صورة الطبيعة ومزجها بصورة الخيل عند امرؤ القيس.

لاحظنا مما تقدم في وصف الشاعر انه اعتمد على الطبيعة بشكل مباشر دون تحوير او تزويق فانه جامع صور متعددة ليشكل صورة جديد للفرس، وقد جاءت صوره بسيطة وعفوية ويستعمل التشبيهات والصور الخارجية ليحدد الحجوم والمسافات والألوان، فقد استحضر ألوان الحياة ومزجها مزجا شاعريا، مستمدها من أوصاف الطبيعة فرسم لنا بذلك لوحة فنية متكاملة تمثل جواده بشكل عام ودقائق تفاصيله[٣٥] .

كما لاحظنا عند الشاعر انه اهتم بصورة الفرس اكثر من صورة الفارس وجعلها هي التي تصيد وتحارب وربما أراد الشاعر ان يمزج ما بين الفرس والفارس وتتلاشى صورة الفارس بفرسه وجعلهم قالب واحد وذلك لاهمية الفرس لديه ومعزتها عنده فجعلها اهم من الفارس الذي هو نفسه الشاعر.

المحور الثالث

المزج بين وصف الطبيعة والخيل عند ابن حمديس

1ـ بطاقة تعريف بالشاعر:

هو عبد الجبار بن ابي بكر بن محمد بن حمديس . ولد في سرقوسة، على الساحل الشرقي من جزيرة صقلية، وهو ينتمي الى أسرة عربية من الازد[٣٦] .

ولد سنة 447هـ نشأ في أسرة علم وتقوى، وقضى طرفا من صباه وشبابه في سرقوسة، وانتقل من صقلية الى افريقية (تونس) في طريقه الى الأندلس . فقد قصد الشاعر مدينة اشبيلية مدينة الأدب والعلم في عهد المعتمد بن عباد، فوفد عليه، واستمر في الأندلس في رعاية المعتمد الى نهاية حكم العباديين . وهناك قضى الشاعر أجمل أيامه في أحضان الطبيعة الجميلة، وفي مجالس اللهو والطرب، وفي ظل رعاية المعتمد وعطائه الباذخ .

وبعد انتهاء حكم بني عباد رجع الشاعر الى افريقية مرة أخرى وقضى فيها بقية حياته، وظل على صلة ببعض ذوي السلطة كبني حماد في بجاية الى ان غربت شمسه وتوفى سنة 527هـ في بجاية [٣٧].

2ـ نماذج من شعره في وصف الخيل من الطبيعة :

يُعد ابن حمديس " من وصافي الخيول، وكان في كل وصف ياتي بالطريف المستطرف"[٣٨]. فشاعرنا مشهور بوصف الخيل ومتميز بها .

للشاعر صلة قوية من حيث وصف الخيل بامرئ القيس وربما يعود ذلك الى تأثره بسابقيه من الشعراء ولا سيما الجاهليين، إذ نلحظ لدى الشاعر ابن حمديس نزعة تقليدية في وصف الخيل ونجده في شعره كأنه وحد من الشعراء الجاهليين واقرب ما يكون الى امرئ القيس ومن ذلك ما قاله ابن حمديس واصفا فرسه من أوصاف

الطبيعة إذ يشبهه بالليل لسواده، وغرته بالصبح لنصاعتها وإشراقها ويصفه بالعقاب وهكذا مزج الشاعر ما بين الطبيعة وفرسه قائلاً[٣٩]:

ولـربّ مُنْتَهَـبِ المـدى يجـري بـه ... عـرقٌ عريـقٌ فـي الجيـادِ لِيـت
لَيْـلٌ حَبَـاهُ الصـبحُ درهـمَ غُـرةٍ ... وحجـول أربعـةٍ بهـنّ القـوت[٤٠]
متفـنّنٌ فـي الجـري يتَّبـعُ اسـمَه ... منـه نعـوتٌ بعـدهنّ نعـوت
أطلقْتُـهُ فعقلـتُ كـلّ طريـدة ... تبغـي بلحظِـكَ صـيدها فتفـوت
لقطـتْ قوائمـه الأوابـد شُـرَّداً ... قـد كـانَ منـهُ لجمعهـا تشـتيت
فكأنمـا جمـدَ الصُّـوار لدوْمِـهِ ... تحتـي فلـي مـن صـيده مـاشـيت

ويتحد الشاعر مع امرئ القيس في بعض الصفات التي نعت بها فرسه فكلاهما يتناوله من جهة سرعته فيعرضانها في خيالات متعددة ثم نجد متأخرهما - وهو شاعرنا. يسطو على خيال المتقدم فيكاد يأخذ بعضه بألفاظه ولم يخف هذا السطو هذه المبالغات والتهاويل التي حاول بها صاحبنا ان يبهر أبصارنا وعقولنا .ولا قلب تصويره حيث جعل فرسه تشتت الأوابد بعد تجمع ... الأبيات الثلاثة الأخيرة في هذه الأبيات بجوار قول امرئ القيس :

وقـد اغتـدي والطيـر فـي وكناتهـا ... بمنجـرد قيـد الأوابـد هيكـل

وقوله[٤١]:

فألحقتـا بالهاديـات ودونـه ... جواحرهـا فـي صـرة لـم تزيـل

فأضاف الشاعر الى الخيال الذي انتهى اليه الجاهلي انه يصطاد ما شاء من الفرائس التي جمدت وان فرسه عندما رأته الأوابد المتجمعة تشتت فاستطاع ان يحميها ولكن ذلك كله لم يخف عنا نزعته التقليدية التي نعدها أساسا لخياله[٤٢].

ومن بديع مزج الشاعر صفات الطبيعة بصفات الخيل في وصف فرسا أغر ادهم سريع الجري كريم النسب فيستلهم صفات الحيوانات لوصفه كل حسب ميزته فياخذ من العقاب النظر ليصف عينيه وتفاصيله بصورة متكاملة يصف شدقه بالغراب والأرساغ بالجأب وهو الحمار الغليظ من حمر الوحش[٤٣]، وساقيه بالظليم وهو الذكر من النعام[٤٤]، وجسمه يلمع كالبرق على الرياض وغرته كالصبح ووجهه كاليل المظلم مستخدما تقنية الاستعارة والتشبيه لمزج تلك الصفات التي استخرجها من الطبيعة المتحركة والصامته ممزوجة بوصف الخيل وكل هذا جاء بقوله واصفا فرسا[٤٥]:

وأدهـمَ ينهـبُ عُـرضَ المـدى ... ويجـري بـه كـلّ عِـرْقٍ كـريم
بعينـي عقـابٍ وشِـدْقيْ غـرابٍ ... وأرسـاغ جـأبٍ وسـاقَيْ ظلـيم
كـأنَّ البـروقَ علـى جِسْـمِه ... مـداوس تصـقل منـه أديـمْ
وتحسـبُ غـرّةَ صـبحٍ منيـرٍ ... بـدتْ منـه فـي وجـهِ ليـلٍ بهـيم

ومن صور الشاعر الأخرى في المزج بين الطبيعة وصفات الخيل ما بينه لنا د. حازم عبدالله خضر في كتابه وصف الحيوان أذ يورد نصا للشاعر مع تحليل عناصر المزج فيبدأه بقول الشاعر ابن حمديس يصف فرسا أُهديت للممدوح ناصر الدولة مبشر بن سليمان صاحب ميورقة قائلاً[٤٦]:

جاءتـكَ أولاد الوجيـه ولاحـقٍ ... فأرتـكَ فـي الخلـقِ ابتـداعَالخـالقِ
نينـانُ أمـواهٍ وفـتخُ سباسـبٍ ... وظبـاءُ آجـامٍ وعُصـمُ شـواهقِ
بمـؤلَّلاتٍ تسـتديرُ كَأنَّهـا ... أقـلامُ مبتـدعِ الكتابـةِ ماشـقِ
قـد وَقّعـتْ لـك بالسـعودومـا جَـرَتْ ... بسـوادِ نِقْـسٍ فـي بيـاض مَهـارِق
غُـرٌّ محجَّلـةٌ تكامـلَ خلقُهـا ... بمجـانسٍ مـن حسـنها ومطـابق

أشار الشاعر منذ البدء الى أصالة هذه الخيل فهي من نسل الوجيه والوجيه فرس من خيل العرب نجيب سمي بذلك[٤٧]،ويبدأ الدكتور حازم بتحليل القصيدة قائلا: " وبهذا يبدو لنا الشاعر قد جمع في هذه الصورة صفات الطبيعة مع صفات الخيل التي منها السرعة والجمال والقوة، فهي تحفة في حسن خلقها دالة على قدرة الله تعالى وإبداعه في خلقه، ومن صفاتها انها في سرعتها تشبه الوعول السريعة القوية، وكذلك تشبه الظباء الجميلة في آجامها .

وفي البيت الثالث يأتي الشاعر بصورة تعتمد جمال اللون بصفائه ونقائه حيث جمعت الخيل بكثرتها مؤللات بين جمال اللون واعتدال القوام ورشاقته ورقته ثم انها قد جرت الخير والفضل للمهداة اليه وسجلت له السعود والمجد دون تدوين عبر وصائف وانما كان ذلك كله بما امتازت به في مظهرها وجمالها وصفائها . ويأتي البيت الأخير ليكمل صورة الجمال والبهاء بكون هذا الخيل غرّا محجلة قد جمعت صفات الحسن أكثرها وأهمها وتطابقت الصفات مع ما يناسبها من سمات الطبيعة التي تحيط بها" [٤٨].

والشاعر دقيق الملاحظة في الوصف وذلك لعله يعود الى حبه للطبيعة وكثرة التجوال فيها مما يطبع صورا دقيقة في ذهنه تنتقل الى شاعريته ولا سيما في وصف الخيل، فيلون خيله بألوان الورود وفي اغلب الأحيان يستعير من الليل والغرب اللون الاسود او ما يقاربه لوصف فرسه الأدهم، ومن الصباح البياض لوصف غرته، ومن البرق والشهب اللمعان والسرعة، ومن أوصاف الحيوانات الأخرى الهيئة والقوة والحركة ففي وصف العيون يميل الى العقاب، وفي الساقين يستعر من النعامة، والأرساغ من الحمر الوحشية، وغيرها .. وكذلك يصف بريقه وقوة جلدة بالصخر الأملس وغيره من الموصوفات، ومن كل هذا يمزج لنا الشاعر صور الخيل ممزوجة من صور الطبيعة

مركبة في خياله الشعري . ومن جميل ألوانه في وصف الخيل من الطبيعة الخلابة وورودها قائلا[٤٩]:

وصواهلٍ مثل العواسل عدوها أبدا لحرب عدوّك المحروب
مِنْ كلّ وَرْدٍ ما يشاكلُ لونَهُ إلاّ تورّد وجنةِ المحبوب
وكأنّما كَنَزَتْ ذخيرةُ عِتْقَهِ منه عبابَ البحر في يعبوب
أو أدهمٍ داجي الإهابِ كأنّما صَبَغَ الغرابَ بلونهِ الغربيب
أرساغهُ دُررٌ على فيروزجٍ لان الصفا من وقعهِ لصليب
يعدو ولا ظلٌّ له فكأنّهُ برق فيا للبرق من مركوب
أو أشهبٍ مثل الشهاب ورجمهِ شخصَ المريدِ بِمُحرقٍ مشبوب
لافرقَ ما بين الصباح وبينه إلاَّ بعدوٍ منه أو تقريب
أو أصفرٍ مثل البهار مغيّر بسواد عَرْفٍ عن سواد عسيب
أو أشعل للون فيه شعلةٌ تذكى بريحٍ منه ذات هبوب
وكأنه مِرداة صخرٍ حطّهُ من علوَ سيلٌ ماجَ في تصويب
وكأنّما سَكِرَ الكميتُ بلونه فلهُ بمشيته اختيال طروب

ونلحظ في هذه الأبيات تصوير جميل ممزوج فيه ألوان الطبيعة بألوان الفرس وما يلفت انتباهنا البيت القبل الأخير فهو مستوحي من فكرة امرئ القيس في وصف حركة الفرس بحركة الصخرة التي تسقط مع السيل من مرتفع عالي في قوله:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

ولكن الشاعر البسها خيالاً جديداً وألفاظاً تتناسب مع وزن وقافية القصيدة . وللشاعر قصائد ومقطعات كثيرة في هذا الغرض[٥٠].

المحور الرابع

مزج المزج أي ما مُزج من معاني وألفاظ أوصاف الخيل من الطبيعة عند امرئ القيس في شعر ابن حمديس في نفس الغرض

كثير ما نجد من المعاني والافكار التي تطرق اليها الشاعر امرؤ القيس في وصف الخيل ولاسيما مما استمده من الطبيعة، قد امتزجت في شعر ابن حمديس في نفس الغرض، وربما يعود ذلك الى ان شاعرنا الاخير اغرم بشعر امرئ القيس ومن الواضح انه اطلع عليه وربما حفظه ولا سيما معلقته المشهورة : قفا نبك ... لذلك نجد ابن حمديس يحاكي هذا الشعر ويتطرق الى اغلب معانيها مع تكرار بعض الالفاظ، ولابن رشيق القيرواني هذه الحالة رأي إذ يرى ان المتأخر اذا تناول معنى لغيره فاجاده باختصاره ان كان طويلا او يبسطه ان كان غامضا او يختار له حسن الكلام ان كان سفسافا او رشيق الوزن ان كان جافيا، فهو في هذه الحالة اولى به من مبدعه وكذلك ان صرفه عن وجهٍ الى آخر .. فاما ان ساوى المبتدع فله حُسن الاقتداء ..لاغيره، فان قصر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه، وسقوط همته، وضعف قدرته[٥١].

سنتتبع صور ابن حمديس في وصف الخيل التي انمزجت من معاني وألفاظ وصور امرئ القيس ومن ذلك صورة الخيل التي قيدت الاوابد فقد انمزجت هذه اللفظة (تقيد الأوابد) مع المعنى الذي تطرق له امرؤ القيس في ذهن وشعر ابن حمديس بقوله [٥٢]:

قيدُ وحش ملاذُ خائرِ وهنٍ وقرى معقلٍ، وحارس ليل

وقوله ايضا [٥٣]:

تُقيّيد بالسيف الاوابد فوقهُ ولو مرّ في آثارهنّ مُقيّدا

وقوله [٥٤]:

ومنغمسٍ في صبغة الليل يَمتطى إلى آجل الآساد قَيدَ الأوابدِ

ففي هذه الابيات الثلاثة امتزجت معاني امرئ القيس مع لفظة قيد الأوابد التي وردت في معلقته في قوله [٥٥]:

وقد اغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل

ثم يستلهم شاعرنا فكرة الاقبال والادبار في حركة الخيل من قول امرئ القيس في صدر بيته[٥٦]:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

فياتي ابن حمديس بالفاظ مرادفة لنفس المعنى قائلاً[٥٧]:

بكل طِرفٍ سَلهبٍ مُطار مَوَجّهِ الإقبال والإدبارِ

ومن عجز البيت السابق يعيد لنا ابن حمديس صورة الخيل الممزوجة بصورة الصخر المنحط من عل مع تكرار بعض الالفاظ ولا سيما (الصخر المنحط) بقوله[٥٨]:

وكأنه مودواهُ صخرٍ حطَّهُ من علوَ سيلٌ لج في تصويبِ

فضلا عن ذلك يمزج من صورة امرئ القيس في وصف هيئة وشكل فرسه[٥٩]:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

فيمزج ابن حمديس من هذا المعنى اكثر من نص منه قوله [٦٠]:

وتراه يدبرُ كالظليم بردفه عُجباً ويُقبِلُ كانتصاب الباشق

وقوله [٦١]:

وأدهمَ ينهبُ عُرضَ المدى ويجري به كلّ عِرْقٍ كريم

بعينـــي عقـــابٍ وشِـــدْقيْ غـــرابٍ وأرســـاغ جـــأبٍ وســـاقَيْ ظلـــيم

اما ما نسجه الشاعر على غرار بيت امرئ القيس الذي يقول فيه [٦٢]:

فالحقنـــــا بالهاديـــــات ودونـــــه جواهرهـــا فـــي صـــرة لـــم تزيـــل

فما جاء من قول ابن حمديس على هذا المنوال قوله[٦٣]:

أطلقتُـــهُ فعقلـــتُ كـــلّ طريـــدة تبغـــي بلحظِـــكَ صـــيدها فتفـــوت

لقطـــتْ قوائمـــه الأوابـــد شُـــرَّداً قـــد كـــانَ منـــهُ لجمعهـــا تشـــتيت

فكأنمـــا جمـــدَ الصُّـــوار لدوْمِـــهِ تحتـــيفلـــيمـــن صـــيدهامـــا شـــيت

وجميع هذه المعاني التي امتزجت بشعر ابن حمديس من شعر في وصف الخيل قد ذكرها، د. سعد إسماعيل شلبي في كتابه ابن حمديس تحت عنوان سرقاته[٦٤]، وفي هذا الصدد علينا ان ندافع عن شاعرنا المتهم بالسرقة ودليلنا في الدفاع هو رأي ابن رشيق الذي مر ذكره فشاعرنا قد أفاد من معاني امرئ القيس الا انه اضاف اليها معاني جديدة فضلا عن انه حسنها ووضح منها، وان لم يكن له كل ذلك فله على الأقل حسن الاقتداء، اذ انه لم ينزل مستواه الشعري عن مستوى الأبيات التي حاكاها واستوحى معانيها، وربما يعود هذا التأثر الى طبيعة ثقافة الشاعر ودراسته لشعر امرئ القيس فكان متأثرا بصيغه سائرا على نهجه مستلهما أفكاره ظاهرا مقدرته الشعرية من خلال محاكاته لهذه الأشعار التي تضعه في مصاف عمالقة الشعر ولا سيما امرؤ القيس .

الخلاصة :

الحمد لله اولا وأخرا ولا يسعنا في هذه الخلاصة الا ان نسلط الضوء على بعض السمات التي تنبه لها البحث والتي تعد خلاصة للموضع، فقد رأينا في هذا البحث ان الشاعرين المشرقي والأندلسي كلاهما اثرت البيئة وطبيعتها في نفوسهم لما تمتعوا بها على اختلاف أجواءها ثم طبعت في أذهانهم الشعرية وبالتالي صبغت صورهم بشتى ألوان الطبيعة ولا سيما في وصف الخيل .

ولاحظنا ان شاعرنا ابن حمديس قد تأثر بامرئ القيس في افكاره ولغته واسلوبه حتى اننا بدأنا ننظر اليه وكأنه شاعر جاهلي لولا ألوان الطبيعة الأندلسية فضلا عن أسلوبه السهل وموسيقاه الخفيفة الرنانة المستمدة من البيئة الاندلسية التي تعود بالشاعر الى أصله .

نرى الشاعر ابن حمديس في اغلب أوصافه قد تعمد الى اعادة نفس صورة الشعرية لامرئ القيس ولكن بألفاظ مختلفة وبأسلوب أكثر إشراقا وسهولة، وربما كانت هذه محاولة منه لمحاكات الشعر الجاهلي وفي نفس الوقت إثبات لمقدرته الشعرية من انه يستطيع بان يأتي بما أتى به فحول الشعراء في الجاهلية.

كلا الشاعرين حاكى الطبيعة الصامتة والمتحركة ومزج بين صفاتها وصفات الخيل وأبدع في الوصف، وتشابهت أكثر الصفات في الوصف بين الشاعرين ولا سيما في وصف تفاصيل الخيل وسرعتها وقوتها فكلاهما وصف ساقيها بالنعامة وعيونها بالعقاب وخفتها بالريح وحركتها بالصخرة النازلة مع السيل ولونها بالليل والصبح والغراب وملاستها وقوتها بالصخر وغيرها من الأوصاف، لذلك نجد أنفسنا امام شاعرين متشابهين في هذا النمط من الوصف وكأنهما عاشا في زمنٍ وبيئة واحدة إذا تجاوزنا بعض الفروق البيئية التي صبغت أشعارهم.

وكما اشرنا في المقدمة ان هذه هي محاولة منا للجمع بين موروثنا الشعري ما بين المشرق والمغرب في غرض شعري واحد ضمن موضوع، واحد فان وفقنا فهذا فضلا من الله، وان أخفقنا فهو حسبنا.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

هوامش البحث:

(١) ينظر المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي، د. احمد طعمة الحلبي،وزارة الثقافة السورية، دمشق 2006 : 63 .

(٢) سنن النسائي الكبرى تاليف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار الكتب العلمية- بيروت - 1411 - 1991، الطبعة: الأولى، تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن:3/35 رقم الحديث 4402 وينظر نفس المصدر :الأحاديث رقم4415-4419.

(٣) لسان العرب، تاليف :محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى : مادة (فرس) .

(٤) ينظر : نهاية الأرب في فنون الادب، للنويري، ط. وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة : 9 / 377 .

(٥) دنيا الحيوان في التراث العربي، حسن محمود موسى النميري،وزارة الثقافة السورية، دمشق 2008 الجزء الاول : 324/1-325 .

(٦) حياة الحيوان الكبرى، للدميري، دار الكتب العلمية : 2/ 285 .

(٧) انساب الخيل في الجاهلية والإسلام وإخبارها، الكلبي، تحقيق احمد زكي الدار القوميو للطباعة والنشر ـ القاهرة : 133 وينظر : 13 وما بعدها، وينظر : البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام، د.مؤيد اليوزبكي، دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد 2008 الطبعة الاولى: 257 .

(٨) ينظر : المخصص لابن سيده، دار الكتب العلمية: 6/177 . وينظر : دنيا الحيوان : 1/ 326، 328 .

(٩) نهاية الارب : 1/1 .

(١٠) ديوان طرفة بن العبد، دار صادر ـ بيروت 1961 : 52 والآمون : الناقة . وينظر : دنيا الحيوان : 1/ 325 .

(١١) دنيا الحيوان : 1/ 325 .

(١٢) ينظر تفاصي القصة كاملة في: حياة الحيوان:1 / 314. وينظر: دنيا الحيوان:1/ 331.

(١٣) حياة الحيوان : 2/ 285 .

(١٤) الحيوان، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، لبنان د.ت : 5/142.

(١٥) دنيا الحيوان : 1/ 325.

(١٦) ينظر : دنيا الحيوان : 1/ 335 . 339 .

(١٧) ديوان ابو تمام، تحقيق : شاهين عطية، دار الكتب العلمية : 1/ 440 . ومثل ذلك ينظر : المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي : 64-78 .

(١٨) ينظر: البطولة في الشعر العربي قبل الإسلام : 256 .

(١٩) الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس، دار الرشيد للنشر بغداد د.ت: 145.

(٢٠) سنن النسائي الكبرى :3/35 رقم الحديث 4402. وينظر نهاية الارب: 9/347 .

(٢١) ينظر : نهاية الأرب : 9/ 376 . وينظر مجمع الأمثال، للميداني، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت: 1/ 360.

(٢٢) حياة الحيوان : 2/ 450، وينظر : دنيا الحيوان : 1/ 350 .

(٢٣) وصف الخيل في الشعر الجاهلي، د. كامل سلامة الدقس، دار الكتب الثقافية- الكويت 1975 : 47.

(٢٤) ديوان المرقش الاكبر، دار صادر : 47 .

(٢٥) ينظر دنيا الحيوان : 1/ 349 – 355.

(٢٦) ديوان عنترة، تحقيق :د. فاروق الطباع، دار القلم - بيروت: 29، والغبوق : شراب المساء وينظر مثل ذلك : ديوانه :320-321 .

(٢٧) ينظر : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها للزوزني والتبريزي،دراسة وتحقيق: محمد رسلان الطحان: دار مهرات للعلوم- سوريا 14:2006- 16. وينظر : الوصف عند امرؤ القيس دراسة تحليلية، نصر الدين فارس، دار المعارف، حمص - سوريا ط1 1988 : 18- 24 .

(٢٨) العمدة،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة التجارية بمصر: 2/28.

(٢٩) ينظر : دنيا الحيوان : 1/ 325، وديوان امرؤ القيس، تحقيق : د. محمد حمود، دار الفكر اللبناني : 17 .
(٣٠) ديوانه : 100 -114 .
(٣١) ينظر : الوصف عند امرؤ القيس :36 - 37 .
(٣٢) ديوانه : 83 .
(٣٣) ديوانه : 8 . وينظر دنيا الحيوان : 1/ 355 .
(٣٤) ديوانه : 59 . مسبطر : طويل .
(٣٥) ينظر : الوصف عند امرؤ القيس :45 .
(٣٦) ملامح الشعر الاندلسي، د. عنر الدقاق، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية - جامعة حلب 1978م ط3 :180 وينظر هامش الاول في هذه الصفحة يشير الى الكتب التي ترجمة لحياة الشاعر.
(٣٧) ينظر ترجمته : موسوعة شعراء الاندلس، محمد العريس، دار اليوسف- بيروت 2005: 91 . وابن حمديس الصقلي شاعرا، د. سعد إسماعيل شلبي، دار الفكر العربي- القاهرة: 3-6، ومختارات من الشعر الأندلسي وفصول في شعر المغرب وصقلية وفي الموشحات والأزجال، د. محمد رضوان الداية، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر :214. وملامح الشعر الاندلسي :180-182 ومقدمة ديوانه:3-21.
(٣٨) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، سعد إسماعيل شلبي، دار النهضة - مصر: 149.
(٣٩) ديوان ابن حمديس،تحقيق:احسان عباس، طبعة دار صادر- بيروت1960:ق47 ص73.
(٤٠) القوت هكذا في الديوان ويقول المحقق: د. احسان عباس: يمكن تاويلها ولعلها (يفوت) او (يخوت) بمعنى ينقض كالعقاب.
(٤١) شرح المعلقات السبع، للزوزني،مكتبة النهضة- بغداد د.ت : 31 . وينظر: شرح المعلقات العشر:50.
(٤٢) ابن حمديس الصقلي شاعرا : 61-62 .
(٤٣) لسان العرب : مادة (جأب)، وتهذيب اللغة : مادة (جأب).
(٤٤) لسان العرب : مادة (ظلم) .

(٤٥) ديوانه : ق276 ص424 .
(٤٦) ن، م : ق213 ص330 .
(٤٧) لسان العرب : مادة (وجه).
(٤٨) وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد 1987 : 260 -261. وينظر نموذج اخر في التحليل : 261-262 .
(٤٩) ديوانه :ق36 ص61 .
(٥٠) ينظر ديوانه: ق90 ص144، ق87 ص137، ق211 ص329، ق212 ص329، ق259 ص401، ق315 ص497 . وغلبها مقطعات . وينظر : وصف الحيوان في الشعر الاندلسي: 29 -34،259- 262.
(٥١) العمدة : 2/ 290-291 .
(٥٢) ديوان ابن حمديس : ق259 ص401 .
(٥٣) ن، م : ق91 ص144.
(٥٤) ن، م : ق87 ص137 .
(٥٥) شرح المعلقات السبع : 25 .
(٥٦) ن، م : 26 .
(٥٧) ابن حمديس الصقلي شاعرا : 289 . سلهب : سريع.
(٥٨) ديوان ابن حمديس : ق36 ص61 .
(٥٩) شرح المعلقات السبع : 29 .
(٦٠) ديوان ابن حمديس : ق213 ص331 .
(٦١) ن، م : ق276 ص424 .
(٦٢) شرح المعلقات السبع : 31 .
(٦٣) ديوان ابن حمديس : ق47 ص73 .
(٦٤) ينظر : ابن حمديس الصقلي شاعرا : 287- 290 .

تطور النظام الاداري في العراق

أ.د.عباس فاضل السعدي
جامعة بغداد / مركز احياء التراث العلمي العربي

تمهيد

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على النظام الاداري في العراق وتطوره منذ القدم الى الوقت الحاضر. وندرة المعلومات وقلة ما كتب عن التخصص الذي يتناول موضوع الدراسة، كان ابرز مشكلة واجهت البحث. لعدم وجود تقسيمات ادارية واضحة ومتفق عليها ولا سيما في الأزمنة الماضية. وجاء هذا البحث على قدر ما اسعفتنا به المصادر، وتلبية لحاجة المكتبة العربية والعراقية منها على وجه الخصوص لسد بعض النقص فيها.

وفي الماضي قسمت الدول الى اقاليم، والاقليم كلمة عربية جمعها اقاليم. وسمي اقليما لانه مقلوم من الارض التي تتاخمه اي مقطوع منها. وبعبارة اخرى انه جزء من الارض. وعلى ما ذكره حمزة بن الحسن الاصفهاني انه الرستاق بلغة سكان الشام والجزيرة، يقسمون بها المملكة، كما يقسم اهل اليمن بالمخاليف، وغيرهم بالكور والطساسيج وامثالها[١].

فالمقدسي (٣٨٠هـ) مثلاً قسم الدولة العربية الاسلامية الى ١٤ اقليماً ادارياً وفقاً لحاجة الدولة الادارية[٢]. وفي هذا يقول: "وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا امصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها واجنادها بعدما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعروفة..."[٣].

ويجعل الاصطخري (٣٤٦هـ) كلاً من بلاد العرب ومصر والمغرب وبحر الروم وبحر الخزر أقاليم قائمة بذاتها، وذلك لان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن

غيرها. وبهذا فإن الاصطخري لايقبل التقسيم الاداري الذي دعت اليه ظروف غير جغرافية، وانما يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها الا اذا جزئتها الطبيعة[٤].

وفي بلاد الشام احتفظ العرب بالتقسيم الاداري الذي كان سائدا قبل الفتح الاسلامي حيث اطلقوا على اقسامها الادارية اسم (الاجناد) فكانت اربعة اجناد واصبحت خمسة في العصر الاموي، واستمر هذا التقسيم الى العصر العباسي[٥].

يفهم مما تقدم ان المملكة تقسم الى عدة استانات او كور او اقاليم، ويقسم الاستان الى عدة رساتيق (وهي الاقضية)، والرستاق الى طساسيج (وهي النواحي). وكان لكل كورة قصبة (مركز) ومدائن ولكل مدينة قرى مربوطة بها ربطا اداريا.

والرستاق في بلاد فارس (كما يقول ياقوت الحموي) هو كل موضع فيه مزارع وقرى، ولايقال ذلك للمدن (كالبصرة وبغداد)، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند اهل بغداد، اي انه يمثل المناطق الريفية.

والتقسيمات المذكورة المعمول بها في بلاد العرب وبلاد فارس قبل الاسلام وبعده، تدخل ضمن اهتمام ما يعرف بالجغرافية الادارية. وقد اعطى ياقوت لها وصفاً، حيث كان يقسم الدولة التي يرد ذكرها في معجمه الى اقسام ادارية وما يضمه كل قسم منها من كور ورساتيق وطساسيج ويتناولها بذكر طولها وعرضها وما تشتهر فيه. وقد يكون لهذا التقسيم كما يذكر كي لسترانج غايات مالية تتعلق بضريبة الارض (الخراج).

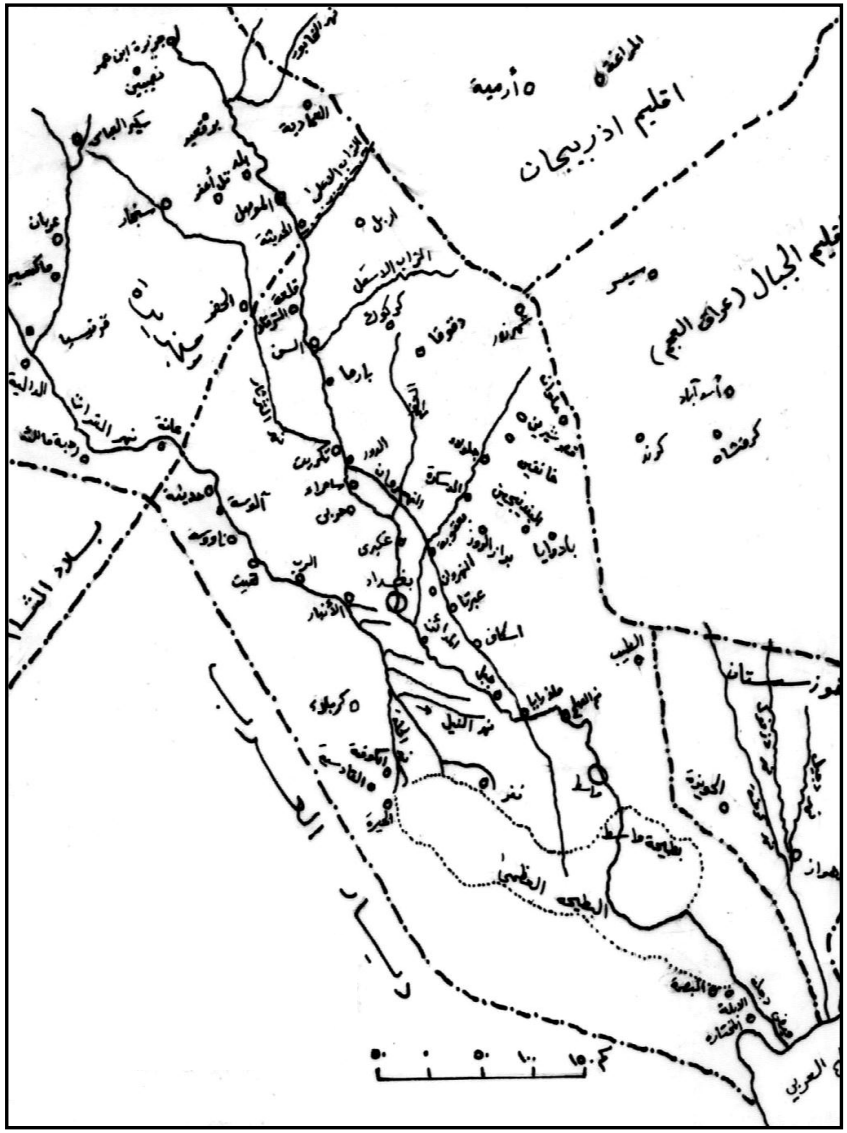
وفي اواخر العهد الساساني وأوائل العهد الاسلامي وردت لمنطقة بغداد اسماء ثلاثة رساتيق واربعة طساسيج[٦]. واستمرت الطساسيج الى وقت متأخر منها طسوجان في الجانب الغربي (قطربل وبادوريا) وطسوجان في الجانب الشرقي (نهر بوق وكلواذى)[٧].

تطور النظام الاداري:

تشير المصادر الى ان اسماء الاقاليم وحدودها ووحداتها الادارية في العراق، بعد الفتح الاسلامي وخلال عهد الدولة الاموية والعباسية، ظلت على ما كانت عليه في أيام الأكاسرة الساسانيين. فكانت بلاد الرافدين (النهرين) وهي العراق الحالي تتكون من اقليمين: الجنوبي ويعرف باقليم السواد (بلاد بابل القديمة)، ويسميه ياقوت الحموي ايضا (العراق العربي)، والشمالي ويمتد الى شمال الاقليم السابق حتى منابع نهري دجلة والفرات، وكان يعرف باقليم الجزيرة[٨] (الجزيرة الفراتية)وهي مملكة نينوى القديمة، وفيما بعد سُمي بولاية ديار بكر.

وفي زمن الفرس كان العراق مقسماً الى ١٢ كورة (استان) باسمائها الفارسية تضم ستون طسوجاً. واستمر هذا التقسيم الى العصر الاموي. ومن بينهاعلى سبيل المثال كورة (استان) الزوابي وتضم ثلاثة طساسيج (الزاب الاعلى والزاب الاوسط والزاب الاسفل) وكورة استان شاذ فيروز وتضم خمسة طساسيج هي : حلوان وتامرا وخانقين و فيروزقباذ و اربل وطسوج الجبل[٩].

ويقصد بطسوج الجبل (جبال العراق) او كما سماها ابن خلدون (جبل العراق)[١٠]وهو غير اقليم الجبل (الجبال) في ايران او كما يسميه البعض خطأ باسم عراق العجم الذي اطلق على القسم الغربي منه في مرحلة متأخرة اسم كردستان وامتدت التسمية الى تركيا ولا علاقة لها بالعراق.



شكل (١) السواد وجنوبي الجزيرة (العراق أو وادي الرافدين) في العصر العباسي

وفي نهاية العصر الاموي اعيد التقسيم الاداري في العراق فاصبح يتكون من خمسة اقسام. وفي العصر العباسي الاول والعصر البويهي اصبح يتكون من ستة اقسام هي: حلوان وبغداد وواسط والبصرة والكوفة وسامراء التي كانت تمتد الى تكريت (على دجلة) وهيت (على الفرات). وكل قسم منها يضم عدد من المدن. كما ظهرت الموصل كوحدة ادارية جديدة بعد فصلهاعن الجزيرة في زمن ابي العباس سنة ١٣٢هـ. فظلت ولاية قائمة بذاتها حتى نهاية القرن الثالث الهجري، حيث أُدمجت مرة اخرى في اقليم الجزيرة[١١]. كما فصلت شهرزور واعمالها من ولاية الموصل في اخر عهد الرشيد وضمت الى اعمال الجبل[١٢]. كذلك فصلت كورة حلوان من العراق وضمت الى اعمال الجبل[١٣]. وفي مراحل لاحقة اعيد النظر في هذه التعديلات.

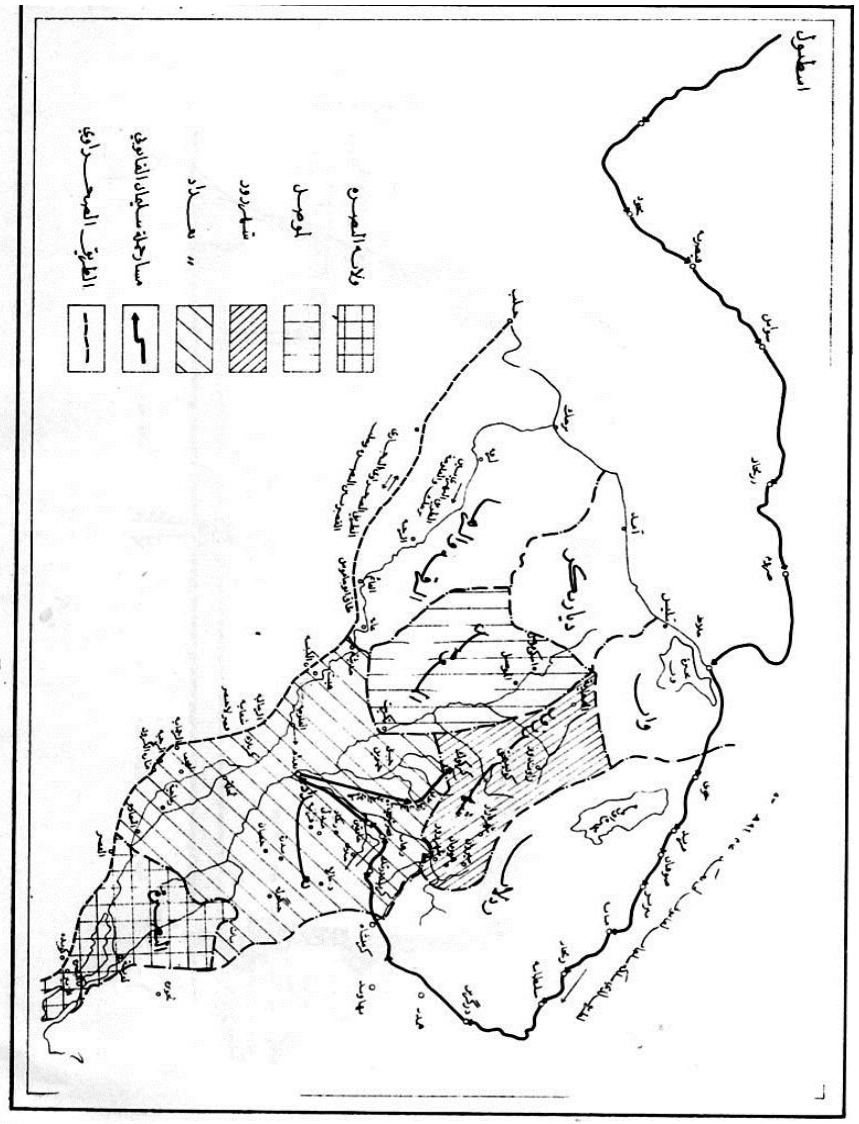
وكان النظام الاداري في العصر العباسي الاول مركزياً، فلم تكن لعمال الاقاليم السلطة التي كانت للولاة في العهد الاموي[١٤].

وفي المرحلة الاخيرة من حكم الدولة العباسية ظهرت في الموصل، وهي عاصمة الجزيرة، امارة أتابكية تمثل ادارتها وتنظيماتها الادارية مظهرا عاماً للادارة السلجوقية التي سبقتها[١٥]. وكانت تتبع الموصل جميع الاراضي الممتدة من سنجار الى شهرزور بالاضافة الى الاراضي الواقعة جنوب شرق تركيا الحالية.

وفي العصر العباسي الاخير (٥٥٢-٦٥٦هـ/ ١١٥٧-١٢٥٨م) كان العراق (*) يضم عشر ولايات هي : اربل وشهرزور(**) وحديثة الفرات وبغداد وواسط والحلة والكوفة وقوسان (***) والبصرة وخوزستان[١٦].

وعندما بدأت اعتداءات المغول على اطراف العراق سنة ٦١٨هـ امر الخليفة الناصر لدين الله اميري الموصل واربل بالانضمام الى عساكره في داقوقا فاستجابا للأمر لمواجهة الموقف[١٧].

وبعد هجوم المغول على بغداد، ابقى هولاكو الوضع الاداري في العراق على ما كان عليه في زمن العباسيين وحافظ على التقسيمات الادارية القديمة[١٨]. وخضع العراق بكامل حدوده الحالية لنفوذ الجلائريين ونفوذ تيمورلنك[١٩]. وعندما يكون مقر السلطان الجلائري في بغداد فإن نفوذ حكمه يمتد الى اقليمي العراق العربي والجزيرة بما في ذلك المدن الجبلية العراقية الحالية[٢٠]. كذلك الحال في عهد تيمورلنك حيث ارسل السلطان حفيده سنة ١٤٠٢م ليحكم كامل العراق بما في ذلك اقليم الجزيرة[٢١].



شكل (٢) التقسيمات الادارية في عهد سليمان القانوني

وعندما احتل السلطان سليمان القانوني بغداد بعد تغلبه على الجيش الصفوي سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م قسم العراق الى ١٧ سنجقا (لواءًا او متصرفية) وقطع منها ٦ سناجق لقواده، واصبحت بغداد ايالة واسعة تتبعها مقاطعات (بغداد والموصل والبصرة) ويحكمها والٍ يعينه السلطان[٢٢].

وفي سنة ١٦٣٨ اصبح العراق بجميع اجزائه يخضع لحكم السلطان مراد الرابع الذي قسمه الى ثلاث ولايات هي (الموصل وبغداد وشهرزور ومركزها كركوك) ثم ضمت البصرة اليه بعد سنوات قليلة[٢٣].

وفي اوائل القرن الثامن عشر انفصلت مقاطعة الموصل عن بغداد وخضعت زمناً لأيالة ديار بكر وكذلك انفصلت من بعدها مقاطعة شهرزور (وكان مركزها كركوك) ثم اعيدتا، بعد زمن، الى حكم بغداد[٢٤].

وفي المرحلة اللاحقة ولا سيما اثناء حكم المماليك في العراق (١٧٥٠-١٨٣١م) قسم العراق الى خمس ولايات هي ولاية بغداد وتضم ١٨ سنجقا (لواءًا) تمتد في رقعة شاسعة من السماوة الى حلوان وقصر شيرين والعمادية ودمير قبو وغيرها. بالاضافة الى ولاية الموصل (وفيها ٦ سناجق) وشهرزور (وتضم ٢٠ سنجقا) والبصرة والاحساء[٢٥].

وظلت ايالات العراق بعد عام ١٨٣١ – كما كانت في الماضي – جزء لا يتجزء من الامبراطورية العثمانية، واستمرت كركوك متصلة بولاية بغداد. وقد عين والي بغداد (علي باشا) الضابط محمود باشا على باشوية كركوك الذي سبق وان حكم الموصل منذ عام ١٨٣٥وتمكن من توطيد الامن فيها[٢٦].

وفي عام ١٢٥١هـ/١٨٣٥م فصلت ماردين عن العراق وضمت الى ديار بكر (الجزيرة). والخارطة التي قدمها المندوب التركي في أرضروم سنة ١٨٤٨م الى لجنة تحديد الحدود التركية الايرانية اظهرت ان راوندوز واربيل والسليمانية هي ضمن ولاية بغداد[٢٧]. وفي عام ١٨٥٠ قل شأن الموصل فانزلت الى مرتبة متصرفية تابعة الى بغداد، وفي عام ١٨٦٢ قل شأن البصرة فأصبحت سنجقاً ملحقا ببغداد[٢٨].

وفي عهد مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢) كان اول عمل قام به خلال مدة حكمه ان اسس البلديات والمجالس الادارية والمجالس الخاصة بالمتصرفيات، ويعد اول من طبق نظام (الولاية الجديد) في العراق، وهو نظام الحكم المحلي الذي سبق ان وضعه وطبقه في الدانوب، وبذلك عمل على توسيع الفكرة الاقليمية[٢٩].

وفي عهده تم تقسيم ولاية العراق التي كانت تتألف من مقاطعتي بغداد والبصرة الى متصرفيات (سناجق)، والمتصرفيات الى اقضية، والاقضية الى نواحي. يحكم السنجق متصرف، والقضاء قائممقام، والناحية مدير[٣٠]. وما تزال هذه التسميات مستخدمه الى الوقت الحاضر. وكانت البصرة مركز سنجق، اما الموصل فاستمرت متصرفية مرتبطه ببغداد، وامتد حكم مدحت باشا الى اورفه وديار بكر[٣١].

ومن اعمال مدحت باشا الاخرى إجراء الاحصاء السكاني لأول مرة، كما قسم بغداد الى محلات واطراف وجعل لكل محلة اسماً وعين عليها مختاراً ومعاون مختار، ورّقم ابواب الدور[٣٢].

وفي عام ١٨٧٥ اصبحت البصرة ولاية من جديد[•] ثم عادت سنجقا في عام ١٨٨٠واعيد تشكيل الولاية في سنة ١٨٨٤. اما الموصل فقد اصبحت ولاية في عام ١٨٧٩ يتبعها سنجقان هما كركوك والسليمانية[٣٣] الا ان بغداد كانت على الدوام تحتفظ بالسيادة على البصرة والموصل، وحتى بعد ان اصبحت كل منهما ولاية ولغاية عام ١٩٠٠ كان والي بغداد يعد كبير الولاة الثلاثة[٣٣-أ].

واستمرت الترتيبات الادارية الجديدة التي ادخلها مدحت باشا مطبقة في العراق ولم يمسها احد، سوى القليل من التبدل، حتى قيام الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤ [٣٤].

ونص الطابو التركي المؤرخ في ٥ صفر ١٣١٠هـ الموافق ١٩٠٨/١١/١٦م على تبعية شهرزور للعراق وكانت تضم كل من كركوك ورانية واربيل وراوندوز وكويسنجق وكفري وجميعها تقع ضمن ولاية الموصل العراقية[٣٥].

وعلى هذا اصبح العراق في العصر التركي الاخير –في عام ١٨٧٩– يحده سنجق دير الزور من الشمال الغربي والبادية من الغرب وولاية ديار بكر (ويتبعها

سنجق المركز وسنجقا ارغنه وماردين) من الشمال، وايران من الشرق. ويضم ثلاث ولايات هي[٣٦]:

اولا: ولاية الموصل التي كانت تضم ثلاثة سناجق هي:

١- سنجق المركز وتتبعه اقضية (دهوك وزاخو والعمادية وسنجار وعقرة).
٢- سنجق كركوك وتتبعه اقضية (اربيل و رانية وراوندوز وكويسنجق وكفري).
٣- سنجق السليمانية وتتبعه اقضية (بازيان وحلبجة وشهرزور وميركة).

ثانيا: ولاية بغداد التي كانت تضم ثلاثة سناجق هي:

١- سنجق المركز وتتبعه اقضية (الكاظمية وسامراء والرمادي وعانة ومندلي والعزيزية والكوت وبعقوبة وبدرة وخانقين).
٢- سنجق الديوانية وتتبعه اقضية (الحلة والشامية والسماوة).
٣- سنجق كربلاء وتتبعه اقضية (الهندية والنجف والرزازة والصحراوي).

ثالثا: ولاية البصرة التي كانت تضم اربعة سناجق هي:

١- سنجق البصرة وتتبعه اقضية (القرنة والفاو والكويت).
٢- سنجق العمارة وتتبعه اقضية (دويريج وقلعة صالح والزبير).
٣- سنجق المنتفك وتتبعه اقضية (مركز الناصرية والشطرة وسوق الشيوخ والحي).
٤- سنجق الاحساء وتتبعه اقضية (الهفوف والقطيف والقطر).

والتقسيم الاداري المذكور الذي استقر منذ عام ١٨٧٩ واستمر حتى سقوط الدولة العثمانية يفند الادعاءات التي يروجها بعض الكتاب المغرضين بخصوص ولاية الموصل من انها الحقت بالعراق بعد تكوين الدولة العراقية الحديثة سنة ١٩٢١ بل ويشير الى امتداد حدود العراق ليشمل مناطق الخليج العربي الممتدة من الكويت الى قطر، وفي مراحل سابقة كانت تمتد الى حلوان وقصر شيرين وخوزستان (الاحواز) وجنوبي شرقي تركيا الحالية.

وقد ادخلت على نظام مدحت باشا بعض التعديلات الادارية قبل الحرب العالمية الاولى بموجب القانونين الصادرين في ١٧ و١٨ من ربيع الاخر سنة

١٣٣٠-١٣٣١هـ/١٩١٢-١٩١٣م حيث اعيد تنظيم التشكيلات الادارية. فمثلا بقيت ولاية البصرة تتكون من اربعة الوية (سناجق) لكن جرت بعض التعديلات على اقضية تلك الالوية[٣٧]، وينطبق الامر ذاته على ولايتي بغداد والموصل[٣٨].

وخلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) غزت القوات البريطانية العراق واحتلت مدينة بغداد في ١١ مايس ١٩١٧وتم الاستيلاء على العراق سنة ١٩١٨ وبذلك انتهى الحكم العثماني وفرض الانتداب البريطاني في ٢٥ نيسان من عام ١٩٢٠ واقام العراقيون ثورة مسلحة في ٣٠ حزيران من عام ١٩٢٠، وكنتيجة لها شهد العراق قيام الحكم الملكي في اب ١٩٢١ وان استمر الانتداب الى عام ١٩٣٢ حين دخل العراق عصبة الامم واصبح من الناحية القانونية دولة مستقلة.

اما التنظيم الاداري فقد استمر ساري المفعول حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى حيث اعيد تقسيم الوحدات الادارية زمن الاحتلال واصبح العراق يتكون من ١٤ لواءًا، ويتألف كل لواء من مركز ومن بضعة اقضية وعدة نواحي، يتبع كل ناحية عدد من القرى. وبغداد هي المرجع الاعلى لمراكز الألوية (المتصرفيات) ومقر الحاكم السياسي العام في عهد الاحتلال البريطاني، والملك في العهد الملكي. وضمت الألوية المذكورة ٦٦ قضاءا و١٧٤ ناحية احتوت على ٩٩١٨ قرية[٣٩] وبلغ عدد سكان العراق في عام ١٩١٩ نحو ٢.٨ مليون نسمة[٤٠].

وبعد تشكيل الحكومة المؤقتة تقرر في ١٢ كانون الاول من عام ١٩٢٠ ان يعاد تنظيم التشكيلات الادارية.

شكل رقم(٣) خارطة العراق لسنة ١٩٢٩

النظام الاداري بعد قيام المملكة العراقية:

بعد قيام النظام الملكي في العراق سنة ١٩٢١ ثبتت التقسيمات الادارية الاربعة عشر، ولكل منها اقضيتها ونواحيها. وتم استحداث تلك الوحدات بارادة ملكية او قبل ذلك بفرمان عثماني.

والالوية التي اصبح العراق يتكون منها، فيها ١١ لواءاً حدوديا امتدت الى الحدود الدولية مع الاقطار المجاورة وثلاثة الوية داخلية هي: الحلة، بغداد ، كركوك.

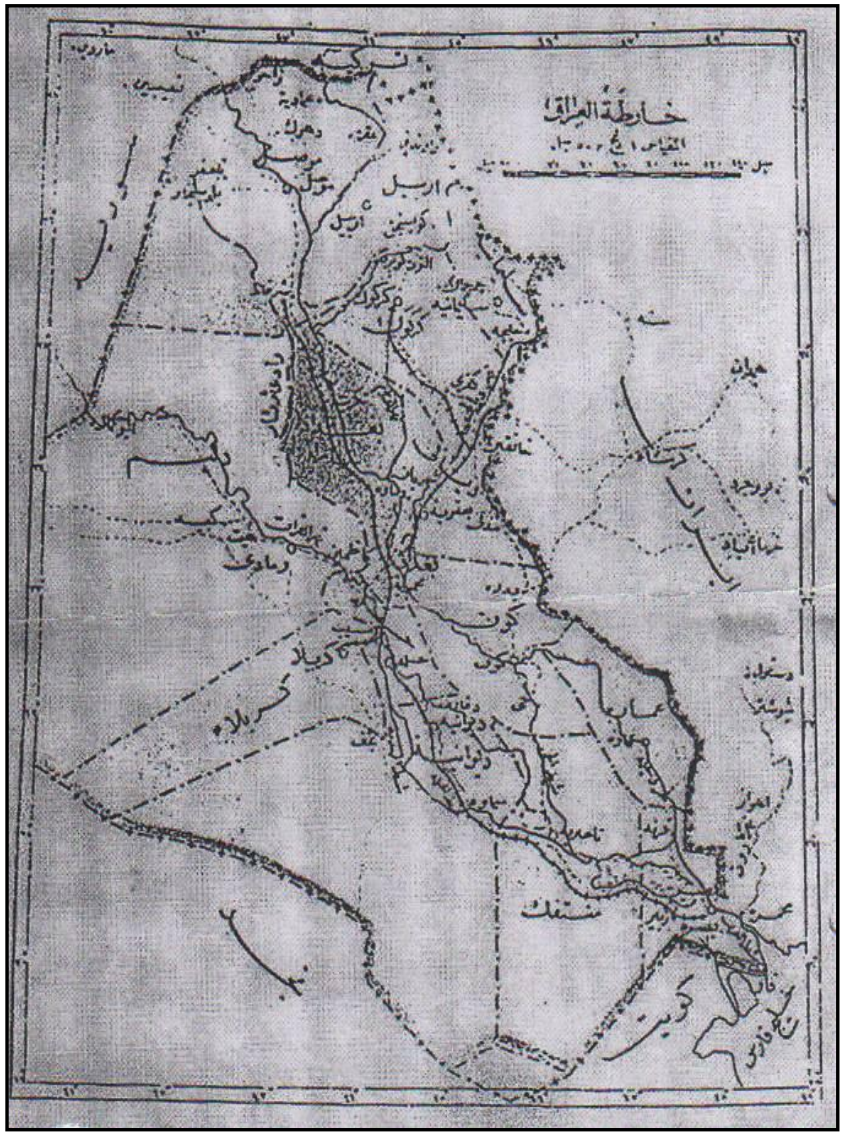
وتظهر الالوية الاربعة عشر المذكورة في خارطة المملكة العراقية لسنة ١٩٢٩[٤١] (انظر شكل٣). كذلك تظهر الخارطة نفسها في دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥-١٩٣٦[٤٢] (انظر شكل ٤).

وفي السنوات اللاحقة حصل تغير في حدود الالوية الغربية بسبب استحداث ثلاث بوادي، وقد يكون استحداثها تم في عام ١٩٤٥ هي بادية الجزيرة والبادية الشمالية والبادية الجنوبية، حيث استقطعت الاولى من الوية الموصل وبغداد والدليم[#]، والثانية من لوائي الدليم وكربلاء، واستقطعت الاخيرة من الوية الديوانية والمنتفك والبصرة. وبذلك اصبح العراق يتكون من ١٤ لواءًا وثلاث بوادي.

وفي عام ١٩٥٢ كانت الألوية الأربعة عشر تضم ٦١ قضاءًا و١٦٩ ناحية[٤٣]، ازدادت الاقضية في عام ١٩٩٧ الى ٨١ قضاءًا، في حين بلغ عدد النواحي ١٥١ناحية[٤٤].

وفي عام ١٩٦٠ تم توزيع البوادي الثلاث والبالغ مساحتها ٢٠٢٥٢٩كم^2 على بعض الالوية المجاورة، حيث ضمت معظم بادية الجزيرة البالغ مساحتها ٢٥٠٤٦كم^2 الى لواء الموصل فاصبحت مساحته ٥٣٢٢٧كم^2 بعد ان كان ٣٣٦٩٣كم^2 والمساحات الباقية اضيفت الى لوائي بغداد والرمادي، والبادية الشمالية البالغ مساحتها ١٠١٣٣٩كم^2 ضمت الى لواء الرمادي[##]، فأصبحت مساحته ١٤٥٢٣٨كم^2 بعد ان كان ٤٢٨٤٩كم^2. اما البادية الجنوبية البالغ مساحتها ٧٦١٤٤كم^2، فقد أُلحق معظمها بلواء الديوانية فأصبحت مساحته ٨٢٩٢٠كم^2 بعد ان كان ١٥٠٨٦كم^2[٤٥]، وما تبقى اضيف الى لواء البصرة[٤٦].





شكل رقم(٤) خارطة العراق من كتاب الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦

وتتضح التغيرات المذكورة عند مقارنة مساحة بعض الالوية المتأثرة باستحداث البوادي الثلاث واعادة توزيعها كما يظهر من جدول رقم (١) الاتي:

جدول رقم (١)

مساحة الالوية المتأثرة باستحداث البوادي عامي ١٩٥٨ و ١٩٦٠

اللواء	المساحة (كم٢)	
	١٩٥٨	١٩٦٠
الموصل	٣٣٦٩٣	٥٣٢٢٧
بغداد	١٢٧٥٢	١٩٣٥٧
الرمادي	٤٢٨٤٩	١٤٥٢٣٨
كربلاء	٦٠٦٠	٦٠٦٥
الديوانية	١٥٠٨٦	٨٢٩٢٠
البصرة	١٢٢٩٥	٢٠٧٠٢

المصدر: دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، ص٥٧

وبحسب قرار مجلس قيادة الثورة رقم (١١) في ١٩٦٩/٥/٢٧تم استحداث لواء دهوك بعد اقتطاعه من لواء الموصل. وبالمرسوم ١٠٦٥ في ١٩٦٩/٩/١٧ تم تحديد لوائي السماوة والديوانية حيث ضم الاول كل من قضاء السماوة والرميثة والسلمان. في حين ضم اللواء الثاني اقضية الديوانية وعفك والشامية وابوصخير.

وبعد صدور قانون المحافظات رقم ١٥٩ لسنة ١٩٦٩ تم استبدال اسم الالوية بالمحافظات. وبموجب قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٣٤٣ في ١٩٧٠/٤/٢ اطلق على محافظة السماوة اسم محافظة المثنى. وبالقرار نفسه غير اسم محافظة العمارة الى محافظة ميسان وبذلك ازداد عدد المحافظات الى ١٦ محافظة .

وبالمرسوم الجمهوري رقم ٤٢ في ١٩٧٦/١/٢٦ استحدثت محافظة النجف بعد اقتطاعها من محافظتي كربلاء والمثنى فاصبحت تضم كل من أقضية النجف والكوفة وأبو صخير وناحية الشبكة. وبالمرسوم ٤١ المؤرخ في ١٩٧٦/١/٢٩

استحدثت محافظة صلاح الدين بعد اقتطاعها من محافظتي بغداد وكركوك وضمت كل من أقضية تكريت وسامراء وبلد وطوز خورماتو. وبالمرسوم ٤١ السابق ذكره غُيرّ اسم كركوك الى محافظة التأميم وضمت قضائي كركوك والحويجة ، وبذلك ارتفع عدد المحافظات الى ١٨ محافظة[٤٧].

وحدثت خلال المدة ١٩٦٨ –٢٠٠٣ تعديلات ادارية في معظم المحافظات أربكت العمل الاداري والعلمي على مستوى المحافظة ووحداتها الادارية الصغرى. وفيما يأتي توضيح تلك التعديلات بعد عام ١٩٦٨ وتصنيفها الى:

١– التغييرات الادارية التي حدثت للمدة المذكورة داخل حدود المحافظة وتمثلت في استحداث، ضم ، فك ارتباط ، الغاء وتغيير اسم... الخ.

٢– التغييرات الادارية التي حدثت للمدة المذكورة والمؤثرة على مساحة المحافظة بسبب تغيير في حدودها الادارية مع المحافظات المجاورة وتمثلت هذه التغييرات بزيادة او نقص المساحة بسبب الاستقطاع او الضم[٤٨].

ويوضح الجدول(٢) عدد التغييرات التي حدثت على المحافظات :

جدول رقم(٢)

عدد التغييرات الادارية داخل حدود المحافظات للمدة ١٩٦٨ – ٢٠٠٣

المحافظة	عدد التغييرات	المحافظة	عدد التغييرات	المحافظة	عدد التغييرات
واسط	٣	البصرة	١٢	ديالى	٨
ميسان	٧	بابل	٧	ذي قار	٤
صلاح الدين	٩	النجف	٨	المثنى	٣
بغداد	١٦	القادسية	٧		
الانبار	١١	كربلاء	٨		

المصدر: المراسيم الجمهورية المنشورة في جريدة الوقائع العراقية للمدة المذكورة (انظر مصدر رقم ٤٩).

وخلاصة القول:

أن أسماء الاقاليم وحدودها ووحداتها الادارية في العراق ، بعد الفتح الاسلامي وخلال عهد الدولة الأموية والعباسية ، ظلت على ماكانت عليه في أيام الأكاسرة الساسانيين ، فكانت بلاد الرافدين (النهرين) وهي العراق الحالي تتكون من اقليمين: الجنوبي ويعرف بأقليم السواد(بلاد بابل القديمة) ، ويطلق عليه ايضاً اسم(العراق العربي) ، والشمالي ويمتد الى شمال الاقليم السابق حتى منابع نهري دجلة والفرات وكان يعرف باقليم الجزيرة(الجزيرة الفراتية) وهي مملكة نينوى القديمة ، ثم قُلصت مساحته باقتطاع اجزاء منه بعد تكوين المملكة العراقية سنة ١٩٢١.

وحصلت تغييرات ادارية في مختلف المراحل التي مرّ بها العراق، منذ عهد الفرس وحتى قيام المملكة العراقية واستمرت لغاية عام ٢٠٠٣، مع تغيير أسماء وحدات ادارية وتباين مساحاتها من مرحلة الى أُخرى.

وتمثلت التغييرات الادارية بتفكيك بعض الوحدات ودمج وحدات غيرهابأُخرى وتشكيل وحدات ادارية جديدة، بعضها صغيرعلى مستوى الناحية وغيرها على مستوى القضاء اوالمحافظة.

المصادر الهوامش:

(١) عباس فاضل السعدي، ياقوت الحموي: دراسة في التراث الجغرافي العربي مع التركيز على العراق في معجم البلدان ، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٢، ص٣٠.
(٢) علي محمد المياح، "مناهج الجغرافية الاقليمية عند العرب في التراث والمعاصرة"، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، المجلد ٤٠، ج١، ١٩٨٩، ص٢٣١، ٢٤٢- ٢٤٣.
(٣) المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ط٢، بعناية دي غويه، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٦، ص٩.
(٤) عباس فاضل السعدي، " نظرة في تراث العرب الجغرافي"، مجلة المورد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، المجلد ٢٥، العدد الثاني، ١٩٩٧، ص٢٠.
(٥) جهادية القره غولي، العقلية العربية في التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام خلال العصر العباسي الأول ١٣٢ – ٢٣٢هـ، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ص١٣.
(٦) احمد سوسة، أطلس بغداد، مطبعة مديرية المساحة العامة، بغداد، ١٩٥٢، ص٢.
(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، المجلد الاول، ١٩٥٥، ص٤٥٨.
(٨) احمد سوسة، الدليل الجغرافي العراقي، بغداد، ١٩٦٠، ص١٢، مصطفى جواد، احمد سوسة، محمود فهمي درويش ، دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، ، مطبعة دار التمدن، بغداد، ١٩٦١، ص٩٣، جهادية القره غولي، مرجع سابق،ص١٢، محمد حسين الزبيدي، العراق في العصر البويهي(٣٣٤- ٤٤٧ هـ/٩٤٥- ١٠٥٨م) ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩، ص٦٨.
(٩) ابن خرداذبة، المسالك والممالك،مطبعة بريل،ليدن،١٨٨٩،ص٥-٦، ٧-٨، كي لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس ، كوركيس عواد، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٤، ص١٠٦- ١٠٨، جهادية القره غولي، مرجع سابق، ص٤٥- ٤٧، احمد علي الصوفي، ارض السواد، مطبعة الاتحاد الجديدة، الموصل، ١٩٥٥، ص١٨.
(١٠) ابن خلدون ،المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ، ص٦٣، ٦٩.
(١١) الطبري ، تاريخ الامم والملوك، ج٢، ص١٤٧، جهادية القره غولي، مرجع سابق، ص٤٧- ٤٨، محمد حسين الزبيدي، مرجع سابق، ص٦٨.

(١٢) البلاذري، فتوح البلدان، ج٢، ص٣٩٧، ٤١٠.
(١٣) اليعقوبي، البلدان، ص٣٦٩.
(١٤) محمد حسين الزبيدي، مرجع سابق، ص٨٠.
(١٥) نوري عبد الحميد العاني، العراق في العهد الجلائري، بغداد، ١٩٨٦، ص٤٠.
(*) كان اقليم العراق (السواد) يمتد في تلك المرحلة من العقر او من قرب حديثة الموصل(وبعضهم يجعله من السن قرب تكريت) عند حدود اتابكية الموصل(في اقليم الجزيرة) شمالاً الى عبادان جنوباً ، ومن العذيب قرب القادسية غرباً الى حلوان شرقاً(القزويني، اثار البلاد واخبار العباد ، طبعة بيروت، ص٤١).
(**) ولايتا اربل وشهرزور ضمتا الى العراق سنة ٦٣٠ هـ/١١٣٢ م، وتغيير موقع المدينتين بين اقليم العراق واقليم الجزيرة واحياناً اقليم الجبل أمر مألوف ويتبع مدى قوة الولا والحكام. وفيما يخص (عراق العجم) لم يجد ياقوت الحموي أصلاً قديماً لتلك التسمية والصحيح عنده(بلاد الجبل) . وأيد العمري فيما ذهب اليه ياقوت في تصحيحه إلا أنه سماها(بلاد الجبال) ، وهي حالياً تقع داخل الاراضي الايرانية (ياقوت ،١٥/٢، القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، القاهرة، ١٩١٤ – ١٩٢٨، ٣٦٥/٤).
(***) هي مجموعة مدن صغيرة وقرى تقع بين النعمانية وواسط.
(١٦) بدري محمد فهد، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير ، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٣، ص١٢٨- ١٣٩.
(١٧) رشيد عبد الله الجميلي،" حملة هولاكو على بغداد"، مجلة المورد ، المجلد الثامن، العدد الرابع، ١٩٧٩، ص٦١.
(18) Nejat Goyunc, und wolf- Dieter Hutteroth , Land an der Grenze, EREN, Istanbul, 1997, pp.289- 291 باللغة الالمانية .
(19) Philip W. Ireland, Iraq: Astudy in Political development, New York, 1938, P. 72.
(٢٠) نوري عبد الحميد العاني، مرجع سابق، ص٣٨، ٥١.
(٢١) حافظ ابرو، ذيل جامع التواريخ، تهران، ١٣١٧ هـ، ص١٧٢، ١٧٦، نوري عبد الحميد العاني، مرجع سابق، ص٤١.
(٢٢) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مرجع سابق، ص٩٣.
(٢٣) لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، بغداد، ١٩٨٥، ص١٠٥- ١٠٦.
(٢٤) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مرجع سابق، ص٩٣.

(٢٥) علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق(١٧٥٠- ١٨٣١م)، منشورات وزارة الأعلام، سلسلة الكتب الحديثة(رقم ٨٤)، بغداد، ١٩٨٥، ص١٥.
(٢٦) لونكريك، مرجع سابق، ص١٥ ومابعدها.
(٢٧) المصدر نفسه، ص٣٣٣- ٣٣٦.
(٢٨) المصدر نفسه، ص٣٣٦.
(29) League of Nations, Question of the Frontier between Turkey and Iraq, Sept.30,1924,p.24.
(٣٠) لونكريك، مرجع سابق، ص٣٧٥ – ٣٧٦، باقر أمين الورد، بغداد(خلفاؤها، ولاتها، ملوكها، رؤساؤها)، دار التربية، بغداد، ١٩٨٤، ص٢٤٩.
(٣١) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مرجع سابق، ص٩٣.
(٣٢) لونكريك، مرجع سابق، ص٣٧٥- ٦، باقر أمين الورد، مرجع سابق، ص٢٤٩.
(•) كان الاتراك يعدون الاحساء قائممقامية ملحقة بالبصرة، وصارت الاحساء سنجقاً في عام ١٨٧١، وفي السنوات اللاحقة صار من المناسب للحكومة التركية أن تنعم بمناصبها الادارية على مختلف امراء الخليج وفي عام ١٩٠٥ تشكل سنجق القصيم في وسط الجزيرة العربية(لونكريك، ص٣٧٥- ٣٧٦).
(33) League of Nations, Op. Cit., p.24.
(٣٣-أ) لونكريك ، العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ لى ١٩٥٠، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١، منشورات الفجر، بغداد، ١٩٨٨، ص١٩.
(٣٤) فاضل حسين ، مشكلة الموصل: دراسة في الدبلوماسية العراقية – الانكليزية- التركية وفي الرأي العام، ط٢، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٧، ص١٠٣.
(٣٥) لونكريك، مرجع سابق، ص٣٧٥.
(٣٦) المرجع نفسه، ص٧٧، ٣٧٦.
(٣٧) الجمهورية العراقية، وزارة الحكم المحلي، الدليل الاداري للجمهورية العراقية سنة ١٩٨٩- ١٩٩٠، ج٢، ط١، الدار العربية، بغداد، ١٩٩٠، ص٣٣١.
(٣٨) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، مرجع سابق، ص٩٤.
(٣٩) المرجع نفسه، ص٩٥.
(٤٠) احمد سوسة، في ري العراق ، ج١، مطبعة الحكومة، بغداد، ١٩٤٥، ص٢٦.
(41) Iraqi Kingdom Map on a carpet 1929(king Faisal Ist.) , واللوح الاصلي محفوظ في خزانة المتحف البريطاني تحت رقم E 153/92687 .

تظهر في أعلى الخارطة سنة ١٣٣٩هـ وتقابل ١٩٢٠م ، وهي تختلف عن السنة المذكورة في أسفل الخارطة وهي ١٩٢٩.
(٤٢) دليل المملكة العراقية لسنة ١٩٣٥- ١٩٣٦، مطبعة الأمين، بغداد، ١٩٣٥.
(#) استقطع ٢٠٨٠٢كم٢ من لواء الموصل و١٠١٨٣كم٢ من لوائي بغداد والدليم (احمد سوسة، أطلس العراق الاداري، مطبعة مديرية المساحة العامة، بغداد، ١٩٥٢، ص٣).
(٤٣) المرجع نفسه(احمد سوسة) ، ص١.
(٤٤) الجهاز المركزي للإحصاء ، تعداد السكان لعام ١٩٩٧.
(##) اصبح لواء الدليم بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ يسمى بلواء الرمادي ، وبعد صدور قانون المحافظات سنة ١٩٦٩ أصبح يسمى بمحافظة الأنبار.
(٤٥) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠ ، مرجع سابق، ص٥٧.
(٤٦) حول تلك التغييرات انظر ايضاً: الكتاب الرسمي ذي الرقم ٢٥٧٨/٤ والمؤرخ في ٢٠٠٧/١٠/١١ الموجه من محافظ كربلاء (د. عقيل محمود الخزعلي) الى وزير العلوم والتكنولوجيا (د. رائد فهمي) رئيس لجنة تطبيق المادة(١٤٠) من الدستور العراقي.
(٤٧) الدليل الاداري للجمهورية العراقية، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٥.
(٤٨) أنظر المراسيم الجمهورية وقرارات مجلس قيادة الثورة الآتية والمنشورة في جريدة الوقائع العراقية:
- قرار مجلس قيادة الثورة رقم(١١) في ١٩٦٩/٥/٢٧.
- المرسوم الجمهوري رقم ١٠٦٥ في ١٩٦٩/٩/١٧.
- قانون المحافظات رقم ١٥٩ لسنة ١٩٦٩.
- قرار مجلس قيادة الثورة رقم ٣٤٣ في ١٩٧٠/٤/٢.
- المرسوم الجمهوري رقم ٤٢ في ١٩٧٦/١/٢٦.
- المرسوم الجمهوري رقم ٤١ في ١٩٧٦/١/٢٩.

فلسفة التأريخ عند آرنولد توينبي

أ. م. د.قاسم حسن آل شامان السامرائي
جامعة تكريت/كلية التربية/قسم التاريخ

مُقَدِّمَة

اختلفت النظرة إلى التأريخ مع اختلاف العصور، وذلك ناجم عن صلتها بعاملين هما التحولات الثقافية والأوضاع الحضارية، وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية وفكرة التأريخ قد تأثرتا بالتطور الحاصل بالفكر العلمي والفلسفي خصوصاً، وقد كان للفلاسفة والمؤرخون مساهماتهم في فلسفة التأريخ، على ان مساهمة الفلاسفة ربما تكون أكبر.

وفي التأريخ ومفهومه، نجد آراء ووجهات نظر مختلفة، نستطيع ملاحظتها ضمن مسارين:

الأول: المسار الذي يحاول استخلاص قوانين وقواعد أو وجهات عامة لطريقة سير وحياة المجتمعات البشرية في التأريخ .

الثاني: يعارض الاتجاه الأول، ويقرر ان التأريخ مجموعة أحداث مفردة لا تحكمها قيم أو مبادئ عامة ولا حتى قوانين، على الرغم مما قد يظهر بينها من صلات وترابط أسباب.

ففي القرن العشرين برز من بين المؤرخين من وضع قاعدة ونظاماً للتأريخ على أسس أكثر علمية، ومنهم الألماني شبنكلر والإنكليزي آرنولد توينبي، وكلاهما تعرض لتأريخ البشرية وناقشه على ضوء قوانين ومفاهيم تحكم التحول الحضاري، ثم تبع ذلك بأن أتخذ نهجهما هذا طريقاً للتنبؤ بمستقبل الحضارة، وكلاهما له نظرته الجدية إلى التمثيل على فرضياته الأساسية، على أننا هنا لابد ان نذكر ان توينبي

كان أوضح فيما أطلقه من مفاهيم وأشمل وأدق مادة علمية أما في وحداته الحضارية وتوضيحاته فقد كان أكثر سعة(*).

لقد كتب توينبي وجهة نظره عند دراسته للتأريخ فكان محورها ((التحدي والاستجابة))، فدرس تأريخ العالم وكتب فيه، وحلل حضاراته، قيامها وسقوطها، فلم تكن آراؤه قد كسبت الرضا التام من الجميع، وهذا أمر وارد تجاه مفكر ولد في بيئة غربية وعاش في مناخ اوربي، وترعرع في أسرة مثقفة لها ارثها الثقافي والعلمي ولها تقاليدها .

وتكمن أهمية توينبي في نظريته التي نظر بها إلى الحضارات العالمية المختلفة على عكس الفلاسفة والمؤرخين الآخرين الذين ركزوا على الحضارة الغربية هاملين الحضارات الاخرى.

امتازت آراء توينبي بالعمق الشديد، وكانت كتاباته تحمل العبارات اكثر مما تطيق من المعاني والافكار، وكأنه يرى من يقرأ له هم العلماء وكبار المثقفين حسب، الامر الذي أوجد ني أمام كتاب فيه من العبارات القوية الغامضة بل والمعقدة بعض الاحيان حتى أعانتني بعض المؤلفات الحديثة على فهمها .

ان دراسة فلسفة هذا العالم ليست سهلة، ولن يكون الباحث قادراً على الإحاطة بفكره ونظرياته بمثل هذا البحث القصير، وعليه فقد وجدت نفسي انتقي من جوهر نظراته للتأريخ ما يكفي فدرست سيرته ونشأته والمؤثرات الفكرية التي كان لها الاثر عليه، ثم بعض المقارنة بين فكر توينبي وهيجل ثم تطرقت إلى نظريته المعروفة التحدي والإستجابة وبعض تطبيقاتها ثم تطرقت إلى فلسفته القائمة على الجمع بين الإتجاهين المادي والروحي، فتناولت بدايات الحضارات وارتقائها وانهيارها واخيراً تحللها واسباب ذلك .

ختاماً أرجو أن أكون موفقاً في استعراضي السريع لفكر هذا العلامة لأقدم هذا الجهد المتواضع إلى أستاذنا الجليل الدكتور عبد العزيز الدوري وقد تدارسنا سويةً في أواخر تسعينات القرن المنصرم فكرة التأريخ وفلسفته أيام الدراسة لنيل الدكتوراه في الجامعة الأردنية بعمان والله ولي التوفيق .

مولده ونشأته :

ولد آرنولد جوزيف توينبي في لندن ١٤ نيسان ١٨٨٩، وينحدر من أسرة متوسطة إذ كان والده يعمل بشركة للشاي، اما والدته فهي حاصلة على شهادة البكالوريوس في التأريخ إذ كانت والدته صاحبة فضل عليه في تعلمه للتأريخ، اذ كانت صحبته لها صحبة فكرية نادرة[١].

أما اسمه فقد أقتبس من اسم عمه (آرنولد توينبي) الذي عاش بين عامي ١٨٥٢-١٨٨٥ وهو الاقتصادي والمصلح الاجتماعي في حين كان جده جراحاً شهيراً هو جوزيف توينبي[٢].

درس توينبي بمدرسة وينشستر وبكلية باليول في اكسفورد لدراسة التأريخ القديم فيها وعين بها بعد تخرجه[٣]، ثم اختير عضواً بالوفد البريطاني لمؤتمر الصلح المنعقد بباريس خلال عامي ١٩١٩، ١٩٤٦، وكان قد شغل منصب استاذ التأريخ واللغات والاداب البيزنطية واليونانية الحديثة بجامعة لندن للفترة من ١٩١٩- ١٩٢٥م إذ كان هذا التأريخ الاخير بداية عمله مستشاراً لوزارة الخارجية البريطانية طيلة ثلاثين عاماً، وحتى تقاعده عام ١٩٥٥م وهو يبلغ السن السادسة والستين[٤].

مؤلفاته:

لتوينبي عدداً من المؤلفات يقف في مقدمتها مؤلفه الضخم دراسة للتأريخ طبع بين عامي (١٩٣٤- ١٩٥٤)[٥]، الذي يقع في اثنى عشر مجلداً، ثم الحضارة في الميزان، وكتاب العلم والغرب، والبقاء في المستقبل[٦]، وتأريخ الحضارة الهيلينية، ومعالجة مؤرخ للدين، محاكمة الحضارة، الحرب والحضارة، أمريكا والثورة العالمية، الثورة الصناعية، التجربة في الحضارة الغربية[٧].

فقد بدأ يفكر في مؤلفه الضخم دراسة للتأريخ عام ١٩٢١م إذ كانت فكرته تختمر في ذهنه عندما كان يشاهد مسرحية (اتتيجونة) لسوفكليس، لكن هذه الفكرة لم تنتقل إلى حيز التنفيذ الا في سنة ١٩٣٠، وإذ اخذ في تأليف اجزاء كتابه التي

بلغت١٢جزءاً على مدى٣١ عاماً[٨]، وانتهى في العام١٩٦١م حيث كان الجزآن الاخيران عبارة عن ردود على نقاده[٩].

المؤثرات الفكرية :

كانت ثقافة توينبي هيلينية دسمة، ففي العام ١٩١١م يكون قد أتم خمسة عشر عاماً في دراسة اللاتينية واثني عشر عاماً في دراسة اليونانية، فكان لذلك التثقيف أثره الناجح في إكسابه مناعة ضد النعرة الثقافية القومية إذ يصعب على الرجل ذي الثقافة الهيلينية أن يقع في خطأ اعتبار المسيحية الغربية افضل مجتمع يمكن ان يظهر في الوجود[١٠].

ففي دراسته يتخذ توينبي بعض المفاهيم العامة مثل مفهوم التبعية أو الالتحاق Affiliation ازاؤه البنوة Appaventation، وعلى ذلك يمكن ترتيب المجتمعات، فمفهوم ((المجتمع البدائي)) يقابل ((الحضارة))، فتوينبي ينفي وحدة الحضارة البشرية ويحسب انحلالها وهماً من حيث الفهم والتقدير، ومنها كذلك فترة الفصل Interregnum، أي فترة الفوضى بين انحلال مجتمع وظهور آخر يلتحق به، ومنها كذلك مفهوم ((البروليتاريا الداخلية)) أو جماهير في مجتمع لا تشعر بارتباط في الوجهة به، كالمسيحية قرب نهاية المجتمع الهيليني، ثم ((البروليتاريا)) أو العالم البربري الذي يحيط بمجتمع معين[١١].

لقد كانت دراسته للمؤلفين القدامى وبالذات الإغريق منهم مصدر الهام له، إذ يقال أن توينبي يمكنه التفكير باللغة الإغريقية مثلما يفكر بالإنكليزية[١٢].

ثم كان نيقولاي دانيلفسكي المفكر الروسي بمثابة الرائد الروحي لتوينبي، فقد نشر هذا المفكر مقالات في مجلة زاريا في العام١٨٦٩ تحت عنوان ((روسيا وأوربا ووجهة نظر في العلاقات السياسية بين العالم السلافي والعالم الجرماني والروماني)) وقد كان المبدأ الهام في تلك المقالات هو المبدأ الذي سبق به توينبي بخمس وسبعين عاماً وموجزه (أن الحضارة هي الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية)[١٣]، وقد تعرض هذا المبدأ لانتقادات شديدة من قبل دارسي الحضارات منذ ما يقرب من مئة

عام، والذي جدده وقال به في ربع القرن الأخير أر نولد توينبي الذي صاغه بقوله ((أن الأمة هي الوحدة البسيطة للدراسة التاريخية وهي ليست ايضاً – في اللغة الثانية من الميزان – مجموع البشرية ككل))[١٤].

ويظهر أن توينبي حاول أن يدرس بصورة مبدئية تاريخ البشرية بصورة تجريبية لينتهي بها الى مبادئ وقوانين تصدق على التاريخ كله، وهو يشير الى أن طريقته استقرائية، فهو يريد ((أن يجرب تناول الشؤون البشرية بالأسلوب العلمي)) وعلى ذلك فقد بدأ بالبحث عن وحدة تكون ((حقلاً مفهوماً للدراسة)) فوجدها في((الحضارة)) الكاملة بالمقابلة ((لاجزاء معزولة منها بصورة مصطنعة مثل الدولة القومية))[١٥].

ويشير توينبي الى المؤرخين الذين أفاد منهم، ومنهم ابن خلدون الذي أشار إليه في عدة مواضع من كتابه (دراسة للتاريخ) فقد رأى توينبي أن ابن خلدون وضع فلسفة للتاريخ من غير مجاملة تُعدّ من اعظم الأعمال التي أبدعها العقل في أي زمان ومكان[١٦].

بين توينبي وهيكل :

هناك تشابه في بعض اوجه التفكير بين توينبي وهيجل بل فقد عُدّت بعض أفكار توينبي امتداداً لآراء هيجل، إذ أعتقد بان التاريخ البشري هو جملة من الحلقات المتناهية زماناً ومكاناً وتمثل كل حلقة منها حضارة، تولد ثم تنموا ثم تتداعى[١٧]، فهذا النمو والانهيار الذي يحدث في تاريخ كل حضارة ما هو إلا مراحل نحو تحقق أعلى للوعي الديني، ولكن على الرغم من هذا التشابه ما بين هيجل وتوينبي في تفسير مسار التاريخ فان خط سير التاريخ عند هيجل متصاعد دائماً يعتمد على الرقي إذ كان هيجل يدرك جيداً أن التقدم التاريخي ترافقه فترات ركود وحركات ارتداد الى الوراء فقد ذكر أن التاريخ العالمي عرف فترات طويلة حين كان التقدم الى الأمام يتوقف، ومع ذلك فظواهر النكوص هذه لا تنفي الاتجاه العام للتاريخ الذي يتمثل في تطوره المتواصل[١٨].

وبالنسبة لغاية التاريخ فهناك توافق ايضاً بين هيجل وتوينبي، فتاريخ البشرية عند هيجل ما هو إلا تطورها الروحي في نهاية المطاف، وصيرورة الروح تكمن في شكل حركات تاريخية متبدلة، ذلك هو العلم الإلهي الذي يوائم بين الروح وبين التاريخ الكلي، فالتاريخ العالمي نفسه حسب رأي هيجل ليس سوى تجلي للروح واكثر من ذلك، فالتاريخ العالمي يتم في المجال الروحي، وليس المقصود هنا الروح الإنسانية بل روح عالمي خارج الزمن يمتزج بمفهوم الله، وبهذا أصبحت قوانين تطور العالم الواقعي قوانين الروح العالمي، وبالنسبة لتوينبي فانه يرى أن المراحل التي تمر بها المدنيات من ميلاد، نمو، وانهيار ما هي ألا مراحل من تحقق أعلى للدين، ولذلك يجب أن ينظر الى هذه المدنيات لافي حدود مصائرها الخاصة بل في حدود إسهامها في التاريخ الديني، ويكون التاريخ الديني هنا المضمون الرئيسي للتاريخ الإنساني، فالتطور التقدمي أذاً في مجال الأديان فقط ونقطة الذروة في تطور التاريخ هي إنجاز الخطة الإلهية، إذ أن غاية الإله من خلق التاريخ من خلال أفعال الناس هو أن يمكننا من أن تصبح لدينا فكرة عن هذه الخطة[١٩].

وهكذا يتفق كل من هيجل وتوينبي على الغاية النهائية للتاريخ، فهما يهدفان الى البرهنة على المفهوم الديني عن مصير البشرية من خلال دراسة مسار تطور التاريخ، ويغلب عند كل منهما الطابع اللاهوتي لمفهوم التاريخ ومساره والغاية النهائية منه[٢٠].

أن توينبي وعندما يستعرض فكره ومنهجه التاريخي تجده قد بدأ من حيث انتهى الآخرون و كما أن صميم منهجه وتصوره التاريخي يتصل بجذور عميقة الغور مع كل من سبقوه، فلا أحد يستطيع أن يحدد من أين بدأ توينبي وأين انتهى الآخرون على وجه التحديد، أن أصالة هذا المفكر تتبع أولا وقبل كل شيء من ذلك الاستيعاب المذهل لنظريات كل من سبقه ثم أحاطته الشاملة التي تبلغ احياناً حد الخوارق في الفكر الإنساني، ولكن الأصالة هنا لاتعني رفضاً مطلقاً لجهود الآخرين على هذا الطريق[٢١].

نظرية التحدي والاستجابة :

وبحكم تجربة توينبي الفكرية الواسعة المدى فقد وجه توينبي ردوداً حاسمة على نظريات الجنس والبيئة فذهب الى أن جميع العوامل البيولوجية وعوامل البيئة لا تكون عوامل مشتركة فيما بينها، وانما تؤلف نمطاً من العلاقات بين العوامل فهي كل متعدد وليست كل منفرد، فيحاول هذا المفكر، بما يحمله من ذهن مستوعب أن يخلق شعوراً شاملاً في قصة نشوء الحضارة مستعيناً في ذلك بكل ما يتوفر من دراسات مقارنة للمجتمعات البدائية الى جانب استخدام ما توصل إليه العلماء في التاريخ والجغرافية[٢٢].

فلقد حاول إعطاء البيئة الطبيعية والجغرافية أهمية خاصة في خلق الحوافز الحضارية وتفسير الأحداث التاريخية، معتمداً في ذلك على مناقشته للنظرية التي اعتمدها الإغريق الهيلينيون والخاصة بالبيئة أساساً حتمياً يمكن من خلاله فهم الخصائص الحضارية للشعوب[٢٣].

انطلق توينبي من أن مادة التاريخ هي حياة أقسام موحدة من البشرية، اسماها ((المجتمعات))، وذكر منها مجتمع ((المسيحية الغربية)) ومجتمع ((المسيحية الشرقية أو البيزنطية)) والمجتمع الإسلامي، والمجتمع الحضري، ومجتمع الشرق الأقصى، وهي مجتمعات لا تزال قائمة كحضارات في الوقت الحاضر، وبالإضافة إلى ذلك يتبين ما يشبه المتحجرات التي تحمل أثار مجتمعات بادت مثل المسيحية النسطورية واصحاب الطبيعة الواحدة، ويصف العلاقات والفوارق بين هذه المجتمعات بأنها عالمية oecumenical، بينما يسمى الفوارق والعلاقات في نطاق مجتمع واحد، مثل ما بين فرنسا وإنجلترا قومية parochial وأهم مهمات المؤرخ تتصل بملاحظة وتمييز هذه الوحدات، أي المجتمعات، ودراسة العلاقات بينها[٢٤].

في البداية يعرض توينبي مقدمة للنظرية التي تفسر عملية التحدي والاستجابة، وكيفية تأثيرها على نشوء الحضارات، فتوينبي يقوم بدراسة مقارنة للحضارات، وأسئلته الرئيسية التي يطرحها هي كيف تظهر الحضارات ولماذا ؟ ثم

كيف تنمو ولماذا ؟ وكيف تنهار وسبب ذلك، فالحضارة تنمو حين تتعرض الحضارة لتحدٍ challenge فتستجيب له استجابة ناجحة Response، وبذلك لا تقتصر على تجاوز المحنة بل تولد نفسها القدرة على مواجهة تحديات مقبلة، وبتوالي المواجهة للتحديات باستجابات اكبر تنمو الحضارة وتنمو حيوية الناس الداخلية[٢٥]، فيستعرض القصص الديني على أساس هذه الفكرة وهي قصة أكل حواء لفاكهة الشجرة التي حذرهم الله منها، إذ ينتهي إلى أن الصراع بين الخير والشر إنما هو حقيقة قائمة، ويتخذ صوراً مختلفة، وتعبر الأسطورة عن حقائق هذا الصراع بين الإنسان والطبيعة من اجل خلق مجتمعه وحضارته، وهنا يؤكد توينبي مرة أخرى أن الحضارة إذاً لم تكن نتيجة لسمو جنس ما، أو نتيجة لبيئة جغرافية معينة، وانما هي نتيجة للاستجابة لتحديات معينة تتسم بالثبات وتستثير الإنسان للقيام بجهد فائق، وهكذا يناقش توينبي ثانية نظرية البيئة التي يعدّها بعضهم أساساً يفهم في ضوئه خصائص الحضارات[٢٦]
.

ومن بين التحديات التي يرى توينبي أنها من حوافز الاستجابة في الكيانات الاجتماعية التحدي الداخلي المتمثل في الجزاء الذي يصيب جزءاً من الكيان الاجتماعي بعطل، فنجد عندئذٍ أن المجموعة البشرية التي يصيبها هذا الجزء فيحرمها بعض قدراتها في مجال ما تتوجه إلى مجال آخر لتبدع فيه وتبتكر، ويرى توينبي أن هذا القانون الاجتماعي له نظيره في الأنواع البيولوجية، فعندما يصاب عضو من الأعضاء بعطب نجد بعض الأعضاء الأخرى تحل محله لتؤدي دوراً تتفوق فيه في مجال آخر، ويطبق توينبي هذا القانون على هجرة الأرقاء المستعبدين الذين وفدوا إلى روما في القرنين المليئين بالمصائب والأهوال، فنجد أن كثيراً من هؤلاء الأرقاء قد بلغوا في نهاية الأمر قمماً عالية في المجتمع الروماني فاصبح منهم الملوك والفلاسفة وكبار الكهان وحققوا معجزة الأيمان بالمسيحية التي أرغمت روما فيما بعد على يد الإمبراطور قسطنطين على الاستسلام الكامل[٢٧].

لم يركز توينبي على الأمم والعصور في دراسته، إنما كان جل عنايته بالمجتمعات والحضارات التي قسمها إلى إحدى وعشرين حضارة لم تبق منها سوى

خمس هي : المسيحية الغربية، والمسيحية الأرثوذكسية، والإسلامية، والهندية، وحضارة الشرق الأقصى، وتضاف إليها مخلفات المجتمعات المتحجرة غير المعينة الشخصية، مثل حضارة اليهود والبارسيين[٢٨].

ويخلص توينبي من آرائه بشان ظهور الحضارات إلى إنها نتيجة استجابة لتحدِ صادر أما عن البيئة المادية واما عن الوسط البشري أو عن كليهما وذلك في ظروف معينة أوردها ضمن مؤلفه[٢٩].

ويرى العلامة توينبي ان للأحداث التاريخية جانبين : مادي وروحاني، وهنا يختلف عن المؤرخين الآخرين الذين تقتصر أعمالهم على التطرق للأحداث التاريخية سردياً من غير استقصاء لدوافعها، أو الذين يفسرونها مادياً مثلما يفعل فلاسفة الاشتراكية الذين ابتكروا فلسفة التفسير المادي للتاريخ، وعلى أساس الناحيتين المادية والروحية يعرض توينبي لبدايات الحضارات وارتقاءاتها وانهيارها[٣٠].

١- بدايات الحضارات :

لا يقبل توينبي بالفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، كما يدحض نظرية استطالة الحضارة القائلة بان مصر هي اصل جميع الحضارات، وعنده أن من بين المجتمعات الحضارية الإحدى والعشرين هناك خمس عشرة حضارة تتصل بصلة البنوة بحضارات سابقة، لكن ثمة ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة من الحياة البدائية تلك، ومن بين الستة هذه هناك ثلاث حضارات مشهورة هي المصرية، السومرية والصينية[٣١].

إذ لا يمكن أن يعزى قيام الحضارات الى صفات معينة في جنس من الأجناس، إذ لايمكن أن يرتبط التفوق الروحي والذهني بلون البشرة، فالواقع أن جميع الأجناس قد ساهمت في انبعاث الحضارة[٣٢].

وبصورة أدق لايمكن اعتبار البيئة هي العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات إلى الوجود، وان كان هذا عاملاً عظيماً ذا خطر في التشكيل الثقافي،

فهناك عامل لايمكن تحديده: هو سيكولوجي في طبيعته، وهو أخطر عوامل انبعاث الحضارات أهمية واشدها ارتباطاً بالقضاء والقدر[٣٣].

وهنا يلتجئ توينبي إلى استعراض الأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشري حكمته كما يلتجئ إلى الأديان، فاستخلص الفكرة القائلة أن الإنسان قد حقق الحضارة ليس على أساس التفوق العنصري، أو ثمرة بيئة جغرافية، ولكنه حققها استجابة لتحدِ موقف ذي صعوبة خاصة، استثار الإنسان لبذل جهد ما، لم يبذله من قبل .

ويعطينا مثلاً على ذلك انبعاث الحضارة المصرية، فلقد كانت الصحراء الكبرى والصحراء العربية قبل فجر الحضارة أرضاً رعوية عامرة بالمياه، ثم أصاب تلك المراعي الجفاف الطويل فجابه سكانها بتحدِ استجابوا له بطرائق مختلفة تمثلت بتمسك البعض بأرضهم وتغيير عاداتهم، فابتكروا نمط الحياة البدوية، فيما نقل آخرون مواطنهم إلى المناطق الاستوائية حيث المراعي فاحتفظوا بطريقة حياتهم البدائية التي مازالوا يعيشونها حتى الآن، فيما لجأ آخرون إلى مستنقعات وغابات الدلتا (دلتا النيل) فجابهوا هذه المستنقعات بما مثلته من تحدِ لهم فعملوا على تجفيفها، وبذلك تمكنوا من إقامة الحضارة المصرية[٣٤].

وهكذا يستخلص توينبي إلى انه : يمكن تفسير بدايات الحضارة في الفرض القائل أن الأحوال الصعبة هي التي تولد الأعمال العظيمة، وهذه الفكرة لا تقتصر على البيئة المادية، وانما تتجاوزها إلى البيئة البشرية إذ نجد البيئة المبتدعة في كل حالة هي التي تلقى الصعوبات المادية أو البشرية، فالأرض البكر تبرز استجابات اشد حيوية من الأرض التي سبق اقتحامها بالفعل وشغلها مقيمون متحضرون فيسروا المعيشة فيها، كما أن الهزيمة الساحقة الفجائية كفيلة باستثارة الجانب المهزوم لترتيب نظام داره والاستعداد لتحقيق استجابة منتصرة، ثم يظهر توينبي استقراءاً مفاده أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل تظهر استطالة اشد إشراقا من جيرانها أصحاب المواقع المحمية، وتستجيب الشعوب والطوائف التي أصابتها النقم لتحدي الحرمان من المشاركة في فرص ومزايا معينة بإبراز طاقة استثنائية

واظهار أهلية غير عادية في الاتجاهات المفتوحة أمامها، ومثلها في هذا الشأن مثل الأعمى الذي تقوى لديه حاسة السمع فتكون قوة خارقة[٣٥].

٢- ارتقاء الحضارات :

يرى توينبي أن الارتقاء الحضاري يحدث حينما تصبح الاستجابة لتحدِ معين، لا ناجحة في نفسها فحسب ولكنها تستثير تحدياً إضافياً يقابل باستجابة ناجحة[٣٦].

فالارتقاء هو عملية تالية لتكوّن الحضارات ويكفلها وجود حالتي (الين و اليانج)، أي انه لابد من وجود انطلاق ومحتوى يحفز الطرف المتحدى الى تحد جديد، ويلهمه استجابة، وهكذا في عملية الارتقاء فهي لاتنتهي ويعطي دعماً لنظرته هذه بمثال عن الحضارة الهلينية التي تعرضت لتحدي زيادة السكان، فالين واليانج هي تعبير عن التحدي والاستجابة، والمصطلحين صينيان، فحالة الين تمثل السكون بينما الياتج تمثل الحركة[٣٧].

إن قوام عملية الارتقاء الحقيقي يطلق عليه توينبي كلمة (التسامي) ويعني بها التغلب على الحواجز المادية، وتعمل عملية (التسامي) على إطلاق طاقات المجتمع من عقالها، لتستجيب للتحديات التي تبدو بعد ذلك داخل النفس اكثر منها خارجها، أي أنها روحانية الطابع اعظم منها ماديته، فعلاقة الفرد بالمجتمع في ظل عملية الارتقاء تقوم على أساس التسامي كما يرى توينبي[٣٨].

أن الارتقاء يتضمن تمايزاً بين أفراد المجتمع الذي يسير في مرحلة النمو، إذ ستبرز بعض الأجزاء استجابة ناجحة في كل مرحلة، فينجح بعضها في تتبع خطاها بفضل المحاكات، ويفشل بعضها في تحقيق الأصالة أو المحاكات على السواء، ومن ثم تتهاوى وسيكون ثمة تمايز بين مصائر المجتمعات[٣٩]، إن هذا التمايز بين الحضارات في الأساليب الفنية لا يخفي عند توينبي طابع الوحدة بين الحضارات الإنسانية وذلك لان ((التنوع الذي يبتدئ في الحياة والنظم البشرية ظاهرة سطحية تحجب خلفها وحدة كامنة دون أن تغيرها))[٤٠]، فمن الواضح أن للمجتمعات

المختلفة سمات مختلفة، إذ يتفوق بعضها في الفن، وبعضها الآخر في الاستنارة الدينية، والآخر في الابتكارات الصناعية، بيد إن غايات الحضارة تتماثل في جوهرها مثلها مثل البذور من نوع واحد، فلكل حبة مصيرها، وأن كانت تشترك جميعها في النوع ولكن يبذرها جميعها (باذر) واحد ليجتني نفس المحصول[٤١].

أن وحدة الطريق الذي رسمه توينبي لموضوعة ارتقاء المجتمعات كان يمر من خلال سلسلة متصلة من عمليات التحدي والاستجابة، ألا أن ذلك لم يوصله إلى القول بتماثل الحضارات من حيث الخصائص والمميزات، بل أكد على إن الحضارات تتمايز عن بعضها لأن تجارب الفئات المتعددة التي تنهض بتلك العملية ليست متشابهة متماثلة إذ أنها تختلف باختلاف الكيفية التي يستجيب أو يرد بها الفرد أو الأقلية الخلاقة أو المجتمع كله على التحديات[٤٢].

ويرى توينبي أن هناك نوعاً من التحديات تفد من الخارج فتستثير الطاقات الإبداعية في المجتمع، ويضرب مثلاً وهو تعرض مجتمع الشرق الأوسط لتأثيرات حضارية تتنافى مع طبيعته، وتتجلى تلك التأثيرات في خضوعه لإشعاعات الثقافة اليونانية بفعل الاحتلال اليوناني ثم الروماني، وقد تمثلت استجابة سكان الشرق الأوسط لهذا التحدي الوافد من الخارج باعتناق الإسلام، إذ اندفع المسلمون بقيادة العرب لاسترداد مجد الشرق الأوسط الذاوي، فقد انبنى على انتصار الإسلام استرداد الشرق الأوسط شخصيته التي أهدرها العدوان الثقافي الهليني أجيالاً طويلة فأصبحت المدن الإسلامية مراكز الحضارة الإسلامية الزاهرة[٤٣].

أما الاستجابات التي تتم بفعل تحديات تنشأ داخل المجتمع فقد شبه توينبي المجتمع الذي يمر بهذه الحالة بالجسم الإنساني، الذي يبتلى بفقد عضو من أعضائه أو ينكب إنسان بخسارة ملكة من ملكاته، تعتبر هذه الخسارة تحدياً يستجيب له الإنسان المصاب بالتخصص في استعماله عضواً آخر أو ملكة أخرى حتى يوازي أقرانه في ميدان النشاط الجديد هذا، وذلك ليعوض ما قصر عنده[٤٤]، وهنا يعطي توينبي عدة أمثلة على ذلك منها تحدي المصريين للقوة المادية البيزنطية باعتناق المسيحية[٤٥]، وتخصص اليهود في الشؤون المالية، والباريسيين في التجارة[٤٦].

٣- انهيار الحضارات :

من الإحدى والعشرين حضارة التي انبعثت الى الوجود لم يتبق سوى خمس حضارات، وهذا يعني ان ست عشرة حضارة قد انهارت، أما أسباب الانهيار فيوجزها توينبي[٤٧]:

١- قصور الطاقة الإبداعية في أقلية المجتمع، وهذه الأقلية هي التي تتولى قيادة أغلبيته العاطلة عن الإبداع ٠

٢- عزوف أغلبية المجتمع عن محاكاة أقليته، وذلك بعد ما يتبين لهذه الأغلبية قصور أقلية المجتمع الرائدة الإبداعية .

٣- تفكك وحدة المجتمع الاجتماعية بفقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة وأغلبيته المحكومة، ثم ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية ثم انهياره .

فنظرية توينبي ترتكز في موضوعة انهيار الحضارات على نظريته في التحدي والاستجابة، فاستمرار التحدي وتكراره في حضارة ما أما أن ينتهي باستجابة على التحدي وتصعد الحضارة في طريق التقدم، واما أن تخفق هذه الحضارة في الرد على ذلك التحدي وفي خلق استجابة إزاء تلك التحديات، فهذه السلسلة المتكررة من الاستجابات المخفقة إزاء هذه التحديات هي في الحقيقة المصدر الأساسي لتدهور الحضارات[٤٨].

٤- تحلل الحضارات :

إن التحلل أو التحجر حسبما يسميه توينبي هو مصير الحضارة، إذ أوضح إن دخول حضارة ما مرحلة الانهيار لايعني بالضرورة تحللها وموتها في القريب العاجل، إذ تمر الحضارة في مرحلة تحللها بثلاثة أدوار أو عصور هي[٤٩] :

أ- عصر الاضطرابات.

ب-عصر الدولة العالمية.

ج-دخول تلك الحضارة مرحلة فراغ ينتهي اما بموت الحضارة او تحجرها.

واعطى أمثلة كثيرة منها ما اعتقده انه من الأمثلة البارزة وهي الحضارة المصرية، فأنه بعد انهيار المجتمع المصري تحت العبء الجسيم الذي فرضه عليه بناة الأهرام، يجد أن هذا المجتمع المشرف على الموت بشكل واضح يرفض أن يموت ويمضي المجتمع المصري ليضاعف فترة حياته[٥٠]، فأذا ما تم حساب مقياس زمن المجتمع المصري لحظة رد الفعل الاستثاري ضد الغزاة الهكسوس في أبان الربع الأول من القرن السادس عشر قبل الميلاد حتى طمس آخر معالم الثقافة المصرية في القرن الخامس الميلادي، سيجد المتتبع إن فترة الالفي سنة هذه تبلغ استدامتها مجموع طول ميلاد المجتمع المصري مع ارتقائه وانهياره، الجانب الأعظم من فترة انحلاله وتحسب هذه الفترات مجتمعة من تاريخ إعادة توكيد المجتمع المصري نفسه أبان القرن السادس عشر قبل الميلاد حتى انبعاثه لاول مرة فوق المستوى البدائي خلال الألف الرابع قبل الميلاد، بيد أن حياة المجتمع المصري في غضون النصف الثانية من بقائه كانت نوعاً من ((الموت في الحياة)) وفي خلال هاتين الالفي سنة اللتين تُعدّان زائدتين عن المقدر في حياة المجتمع المصري، أخذت حضارته التي حفلت حياتها الجارية بالحركة والمعنى، تتباطأ بفتور وتعطل، وفي الواقع عاش المجتمع المصري بفضل صيرورته متحجراً[٥١].

ويرى توينبي ميزان التحلل الحضاري من خلال انقسام الجسم الاجتماعي الى كسور ثلاثة:[٥٢]

أ- أقلية مسيطرة ب – بروليتاريا داخلية ج – بروليتاريا خارجية

فالأقلية المسيطرة هي تلك الطبقة المبدعة التي كانت أغلبية المجتمع تفتدي بها وتحاكيها وتقتفي أثرها في طريق الارتقاء، لكنها تحولت إلى أقلية مسيطرة بعد أن فقدت طاقتها الإبداعية[٥٣].

فيما يصف لنا البروليتاريا الداخلية بأنها الجماهير التي باتت تحكمها الأقلية المسيطرة[٥٤]، فهذه الجماهير باتت تشعر بأنهم ينتمون لهذا المجتمع بأجسادهم فقط، والصفة الأساسية التي تميز هذه الجماعة هي شعورها بأنها محرومة من مكانتها المشروعة في هذا المجتمع[٥٥].

فالبروليتاريا الداخلية هو الوصف الذي أطلقه على الأكثرية المقهورة من قبل الأقلية المسيطرة، هي الوسط الملائم الذي تنمو في داخله بذور الديانة الجامعة التي ستأخذ زمام المبادرة في تقويض ((أركان الإمبراطورية الفاسدة وما ساد فيها من عبادة باطلة للمعايير النسبية وتقديس مهدور للصنميات الفانية في شتى مرافق الحياة الفكرية والاجتماعية ثم تهب الحياة بعد ذلك للحضارة الطالعة))[٥٦].

أما البروليتاريا الخارجية، فهي الشعوب المحيطة بالدولة والتي تتربص بها وتسعى إلى الانقضاض عليها إن ألمّ بها ضعف، وتنشئ مكان المجتمع القديم مجتمعاً حديثاً، فلكل جزء من أجزاء المجتمع وظيفة تتلخص في[٥٧]:

١- تنشئ الأقلية المسيطرة دولة عالمية .
٢- تستجيب البروليتاريا الداخلية الى نداء الروح فتعتنق ديانة عالمية .
٣- تؤلف البروليتاريا الخارجية عصابات حربية بربرية تبتكر أشعار الملاحم مثل الإلياذة والأوديسة لهوميروس ٠

وعلى كل ذلك فأن توينبي يرى ان التاريخ يسير الى غاية أخلاقية، وهو بذلك تقرب اكثر من أسلوب المثاليين في التاريخ، ولم يكتف بتناول التاريخ كله بل تجاوزه الى المستقبل وحاول أن يشير الى احتمالات الحضارة الغربية المقبلة، وبذلك يكون قد تحول من الاجتماع الى ما وراء الطبيعة[٥٨].

فهو هنا يستقرئ ويتوقع أن تخفق الحضارة الغربية في توحيد العالم في أسرة واحدة وكأني أراه يتحدث هنا عن عصر (العولمة والأمركة) الراهن .

وهنا فقط سيحدث الانفجار الذي سيتمثل في انتفاض أبناء الحضارات غير الغربية على التسلط الغربي، فهو يتوقع أن يكون لابناء الحضارة العربية الإسلامية دور فعال في هذه العملية، ولكنه يعود ليضع تطور الأسلحة الحديثة واستخدام أسلحة الدمار الشامل الغربية عائقاً محتملاً، لكنه هنا يتناسى إرادة الشعوب وتصميمها وعقائديتها، كما انه لا يتوقع أن يتفق أبناء الحضارة العربية الإسلامية على مقاومة الحضارة الغربية بسبب عجز التقليدين عن مقارعة الغرب ورفض المجددين لذلك وكأن به يريد بهم أولئك الحكام العرب المعزولين عن شعوبهم السائرين في ركاب الغرب الاستعماري والمتخندقين معه ضد إرادة شعوبهم والساهرين على تطبيق وتحقيق أحلام الاستعمار والصهيونية[٥٩].

إن الفهم الصحيح لفلسفة هذا الرجل التاريخية يكمن في وضعه ضمن إطار المدرسة الإنجليزية المحافظة التي تنحو نحواً مثالياً مسرفاً، وتقيم وزناً كبيراً للفرد البطل والعبقري الملهم الذي يحرك التاريخ، وبالرغم من شموخ عمله من حيث الجهد الكبير الذي يُعدّ بحق أعجازاً في الإنجاز فأنه قد تعرض للنقد والتجريح حتى من قبل مؤرخين من بني جلدته[٦٠].

إن توينبي يستحق منا كل الثناء لمواقفه السياسية المتعاطفة مع القضايا العربية وهي والحمد لله كثيرة وكثيرة وبحاجة ماسة إلى من يناصرها في هذا العصر الجديد من القرن الواحد والعشرين الجديد الذي افتتح بالاستعمار الإمبريالي الأمريكي الجديد ابتداءً باحتلال أفغانستان عام ٢٠٠١ واحتلال العراق عام ٢٠٠٣ والقائمة تترى تطبيقاً لما تذهب إليه أمريكا والغرب الاستعماري من ورائها وتطبل له وتزمّر من مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي يقوم في أساسه على (سايكس بيكو) جديد يجزأ المجزأ ويقسم المقسم ضماناً لسيادة وهيمنة الكيان الصهيوني على المنطقة كلها ، إذ

كان توينبي يبني مواقفه على مناصرة الحريات والعدالة وشجب العنصرية والاستعمار وتحدي النزعات الأرستقراطية الوطنية وتحدي النزعات الفكرية المتسامية[٦١].

وإذا كان لابد لنا من الإجابة على السؤال القائل هل البطل هو صانع التاريخ أم الشعوب هي التي صنعته، فلا بد لنا هنا من أن نرفض هذا الفرز القائم بين البطل وشعبه ذلك الفرز الذي أوقع الخلاف بين المفكرين فيمن يصنع التاريخ البطل أم الشعب .

ورفضنا قائم على أساس واضح وهو إن البطل ابن الأمة ولابد أن يكون قد برز من بين رحمها ليعبر عن آمالها وتطلعاتها، ولا يمكن لشعب أن يحقق أهدافه من غير قيادة نابعة منه مستلهمة لآماله وآلامه تقوده إلى حيث المجد والرفعة، ولذلك فلا البطل وحده يصنع التاريخ بمعزل عن قاعدته الجماهيرية الشعبية ولا الشعب وحده يصنع ذلك التاريخ من غير حُداة يقودون مسيرته نحو الظفر وصناعة المجد، ولذلك فأذا ما كذب الرائد أهله فما هو التاريخ الذي يصنعه شعبه، أو إذا خان الشعب رائده وقائده فما هو التاريخ الذي يصنعه الرائد القائد لشعبه من غيرهم؟.

الخاتمة:

من خلال البحث المتواضم هذا توصلنا الى جملة نتائج هي :

١- ان التحولات الثقافية والأوضاع الحضارية هي السبب في اختلاف النظرة الى التاريخ على اختلاف العصور .

٢- ان محور نظرية توينبي في دراسته للتاريخ هو ((التحدي والإستجابة)).

٣- ركز توينبي في دراسته على كل الحضارات العالمية على عكس الفلاسفة والمؤرخين الآخرين الذين ركزوا على الحضارات الغربية واهملوا الحضارات الأخرى.

٤- ان توينبي وهو من مواليد لندن عام ١٨٨٩م، فإنه مدين لوالدته في الفضل عليه في تعلمه التاريخ، فهي حاصلة على شهادة البكالوريوس في التاريخ .

٥- كانت صحبته لأمه صحبة فكرية نادرة.

٦- ترك توينبي لنا عدداً كبيراً من المؤلفات المهمة، كان من ابرزها مؤلفه الضخم (دراسة للتاريخ) في ١٢ مجلداً.

٧- كانت ثقافته هيلينية،إذ امضى١٥ عاماً في دراسة اللاتينية و١٢عاماً في دراسة اليونانية.

٨- هناك تشابه في بعض اوجه التفكير بين توينبي وهيجل، وقد اعتبرت بعض أفكاره امتداداً لآراء وأفكار هيجل .

٩- اعطى البيئة الطبيعية والجغرافية اهمية خاصة في خلق الحوافز الحضارية وتفسير الأحداث التاريخية .

١٠- لا يقبل توينبي بالفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية، كما يدحض النظرية القائلة بأن مصر هي أصل جميع الحضارات .

١١- يرى توينبي أن الارتقاء الحضاري يحدث حينما تصبح الاستجابة لتحدٍ معين لا ناجحة في نفسها فحسب، ولكنها تستثير تحدياً إضافياً يقابل باستجابة ناجحة.

١٢- درس توينبي انهيار الحضارة وتوصل الى اسباب الإنهيار والتي منها قصور الطاقة الإبداعية في أقلية المجتمع، وعزوف أغلبية المجتمع عن محاكاة أقليته وتفكك وحدة المجتمع الاجتماعية بفقدان الثقة بين أقلية المجتمع الحاكمة وأغلبيته المحكومة، ثم ضياع وحدة المجتمع الاجتماعية ثم انهياره .

١٣- أما تحلل الحضارات أو تحجرها حسب توينبي فيراه هو مصير الحضارة، إذ تمر الحضارة في مرحلة تحللها بثلاثة ادوار أو عصور هي الاضطرابات ثم الدولة العالمية ثم دخول الحضارة مرحلة فراغ ينتهي إما بموت الحضارة أو تحجرها .

الهوامش والتعليقات:

ملاحظة: سأذكر هنا المعلومات كاملة عن المصدر والمرجع عند وروده لأول مرة مما يغنينا عن إعداد قائمة للمصادر والمراجع.

(*) ينظر: الدوري، عبد العزيز،'' فلسفة التاريخ ، عرض تاريخي ''، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثاني، ص٦٥- ٨٤ فلينظر.

(١) علم الدين، نيفين جمعة، فلسفة التاريخ عند آرنولد توينبي ، (القاهرة، ١٩٩١م)، ص١٩.

(٢) شبل، فؤاد محمد، توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث، (لقاهرة، ١٩٧٥م)،ص١٣.

(٣) علم الدين ، المصدر السابق، ص٢٠، إذ تخصص بدراسة تاريخ اليونان والرومان القديم وتعلم اللغتين اليونانية واللاتينية وآدابهما، ينظر :الملاح، هاشم وآخرون، دراسات في فلسفة التاريخ،(الموصل ١٩٨٨)، ص٢١١.

(٤) شبل، فؤاد محمد، المصدر السابق، ص٢٠، ينظر تفاصيل اكثر عن حياته في : الملاح، دراسات، ص ٢١١-٢١٢.

(5) Arnold of History ، 10 Vols oxford . I . III، Astudy J . toynbee . 1934، Iv-Vi 1939،v111- x 1954.

(٦) علم الدين، المصدر السابق، ص٢٠، ينظر التفاصيل عن موسوعة توينبي في : د . عبيد، اسحق، معرفة الماضي من هيرودوت الى توينبي ، ط١،(القاهرة، ١٩٨١م)، ص٢٠ وما بعدها .

(٧) احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، (الإسكندرية،١٩٩٠ م)، ص٢٥٨.

(٨) خطاب، صدقي عبد الله، آرنولد توينبي، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الخامس، ١٩٧٤، ص ص ٢٩٢- ٢٩٦.

(٩) توينبي، آرنولد، مختصر دراسة للتأريخ، ط٢، (القاهرة، ١٩٦٥)،ج٤، مقدمة المترجم فؤاد محمد شبل.

(١٠) شبل، توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث، ص١٣؛ ينظر كذلك، د٠ محمود إسماعيل، البطل التاريخي بين كارلايل وتوينبي، بحث مكتوب على الآلة الكاتبة، نسخة منه لدى الباحث، ص٦.

(١١) الدوري، فلسفة التأريخ، عرض تأريخي، مجلة عالم الفكر، ص٧٨.

(١٢) علم الدين، فلسفة التاريخ عند آرنولد توبيني، ص٢٠.

(١٣) المطيعي، لمعي، آرنولد توبيني، (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص٨ .

(١٤) المطيعي، ن٠م، ص٩.

(١٥) الدوري، فلسفة التأريخ، ص٧٨.

(١٦) علم الدين، فلسفة التأريخ، ص٢١؛ ينظر كذلك د٠ محمود إسماعيل، البطل التاريخي، ص١٠٠.

(١٧) علم الدين، ن٠م، ص٨١، ينظر كذلك صبحي، في فلسفة التاريخ، ص ٢٦٢، وهذا رأي سبقهم إليه العالم ابن خلدون .

(١٨) علم الدين، ن٠م، ص٨١.

(١٩) علم الدين، فلسفة التاريخ، ص ص ٨١- ٨٢، ينظر كذلك صبحي، في فلسفة التاريخ، ص٢٦٢.

(٢٠) علم الدين، ن٠م، ص٨٢، ينظر كذلك إسماعيل، محيي الدين، توينبي، منهج التاريخ وفلسفة التاريخ (بغداد، ١٩٧٧م)، ص١٩ ٠

(٢١) إسماعيل، توينبي منهج التأريخ وفلسفة التأريخ، ص٣١.

(٢٢) صبحي، في فلسفة التاريخ، ص٢٦٥.

(٢٣) الملاح، دراسات في فلسفة التاريخ، ص١٠٥.

(٢٤) الدوري، فلسفة التأريخ، ص٧٨.

(٢٥) الدوري، فلسفة التاريخ، ص ص ٧٨- ٧٩.

(٢٦) صبحي، في فلسفة التأريخ، ينظر علم الدين، فلسفة التاريخ، ص ص ١١٦- ١١٧.

(٢٧) صبحي، ن٠م، ص٢٦٧، إسماعيل، توينبي، ص٣٤ وما بعدها .

(٢٨) توينبي، مختصر دراسة للتأريخ، ط٢، ترجمة فؤاد محمد شبل،(القاهرة ١٩٦٥م)ج١، ص١١٢ وما بعدها، ينظر كذلك : الدوري فلسفة التاريخ، ص٧٨.

(٢٩) توينبي، ن. م، ج١، ص١٧٤ وما بعدها، ينظر كذلك السامرائي، نعمان عبد الرزاق، اضواء على تفسير التاريخ، ط١،(الرياض، ١٩٨٤) ص٥٤ ، ينظر كذلك: الدوري، فلسفة التأريخ، ص٧٩.

(٣٠) توينبي، ن. م، ج١، ص٢٧٥ وما بعدها، ص٣١٣، ٣٤٩، ٤٠٩ حيث يفصل في نمو الحضارات وارتقاءها وتحللها وانهيارها وللتفاصيل ينظر : الملاح، دراسات في فلسفة التاريخ، ص ص ٢١٤- ٢١٥.

(٣١) توينبي، مختصر دراسة للتأريخ، ج١، ص١١٣- ١٢٥، ينظر كذلك : الدوري، فلسفة التأريخ، ص٨٠، أما الثلاثة الباقية فهي المينووية والمايانية والأنديانية إذ قامت الأخيرتان في أمريكا اللاتينية، المصدر والصفحة نفسيهما.

(٣٢) إسماعيل، توينبي منهج التاريخ وفلسفة التاريخ، ص٥١.

(٣٣) علم الدين، فلسفة التاريخ، ص ص ١٢٢- ١٢٣.

(٣٤) شبل، توينبي، ص٦٨، عبيد، إسحاق، معرفة الماضي، ص١٣٥.

(٣٥) توينبي، مختصر دراسة للتأريخ، ج١، ص٣١٧.

(٣٦) توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص٣١٣ وما بعدها، ينظر كذلك : الدوري، فلسفة التاريخ، ص٧٩.

(٣٧) علم الدين، فلسفة التاريخ، ص١٢٤، وعن الين واليانج ينظر : صبحي، احمد محمود، في فلسفة التأريخ، ص٢٦٩.، وللتفاصيل ينظر : الملاح، دراسات، ص ص ٢١٥ – ٢٣٢.

(٣٨) توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص ص ٣١٣- ٣١٤.

(٣٩) توينبي، ن. م، ج١، ص٤٧٨، ينظر كذلك : عبيد، معرفة الماضي، ص١٣٤.

(٤٠) خوري، منح، التاريخ الحضاري عند توينبي، (بيروت، ١٩٦٠م) ، ج١، ص٤٠٤.

(٤١) توينبي، ن. م، ج١، ص٤٧٨، ينظر كذلك : عبيد، معرفة الماضي، ص١٣٤، خوري، التاريخ الحضاري، ج١، ص٤٠٥.

(٤٢) خوري،، التاريخ الحضاري، ج١، ص٣٧.

(٤٣) شبل، توينبي مبتدع المنهج التاريخي الحديث، ص٤٢.

(٤٤) شبل، توينبي، ص ص٤٢- ٤٣.

(٤٥) ينظر شبل، ن. م، ص ٤٨وما بعدها .

(٤٦) ينظر التفاصيل في لمعي المطيعي، آرنولد توينبي، ص٣١، وما بعدها وينظر كذلك: شبل، المصدر السابق، ص١٠٩ وما بعدها .

(٤٧) توينبي، مختصر دراسة للتأريخ، ج١، ص ص ٤١٢- ٤١٣، ينظر كذلك : السامرائي، نعمان عبد الرزاق، أضواء على تفسير التاريخ، ص٦١، ويعقب محمود صبحي على ذلك فيقول ((وهكذا فان المجتمع هو الذي جلب على نفسه عوامل الانهيار قبل ان يجلبها عليه غزو خارجي)) في فلسفة التاريخ، ص٢٧١، ينظر كذلك: الدوري، فلسفة التأريخ، ص٧٩-٨٠، وللتفاصيل أكثر ينظر : الملاح، دراسات، ص٢١٣-٢١٤.

(٤٨) علم الدين، فلسفة التاريخ، ص١٢٩، إسماعيل، محيي الدين، توينبي، ص٧٠ وللتفاصيل الأكثر عن انهيار الحضارات ينظر : الملاح، دراسات، ص٢١٩- ٢٢٠.

(٤٩) خوري، التاريخ الحضاري، ج١، ص٤١١، ج٢، ص٦٤٤.

(٥٠) شبل، فؤاد محمد، توينبي، ص٤٧، عبيد، معرفة الماضي، ص ص١٣٦- ١٣٧.

(٥١) توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص ص١١٤- ١١٥، ينظر التفاصيل في : شبل، توينبي، الفصل الرابع يبحث بالتفصيل في فكرة توينبي عن الحضارة المصرية، ص٥٩ -٧٠.

(٥٢) علم الدين، فلسفة التأريخ، ص١٣٣، وينظر التفاصيل في : توينبي، مختصر دراسة للتأريخ، ج١، ص١٢٨.

(٥٣) توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص١٢٨، وينظر نيفين جمعة، فلسفة التاريخ، ص١٣٣ وللتفاصيل عن الأقلية المبدعة المسيطرة ينظر : خوري، منح، التاريخ الحضاري عند توينبي، ج١، ص ص١٠٨- ١٠٩.

(٥٤) توينبي، ن.م والصفحة، ينظر التفاصيل في: الملاح، دراسات، ص ص٢١٩- ٢٢٠.

(٥٥) جمعة، فلسفة التاريخ، ص٣٤ ولا بد لنا هنا من التوضيح إلى ان توينبي يستخدم مصطلح ((بروليتاريا)).

بمعنى مخالف للمعنى الذي يستخدمه الماركسيون، فهم يقصدون به ((الطبقة العاملة)) التي لا يمتلك افرادها سوى قدرتهم على العمل اليدوي،انظر: الملاح، دراسات، ص٢٣٣.

(٥٦) خوري، التاريخ الحضاري، ج١، ص٤٠.

(٥٧) توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ج١، ص ص١٢٨- ١٢٩.

(٥٨) الدوري، فلسفة التاريخ، ص٨٠.

(٥٩) خوري، التاريخ الحضاري، ج١، ص٨٨- ٨٩.

(٦٠) إسماعيل، د. محمود، البطل التاريخي بين كارلايل وتوينبي، ص٢.

(٦١) المصدر نفسه، ص٤.

بابل وآشور
و(نادي القوى العظمى)
العلاقات الدولية في عصر العمارنة

د. صلاح رشيد الصالحي
جامعة بغداد/مركز إحياء
التراث العلمي العربي/ قسم توثيق بغداد

النظام السياسي لنادي القوى العظمى:

خلال القرون من (١٥٥٠-١٢٠٠ ق.م) أو ما يعرف بعصر البرونز المتأخر، أصبحت دول الشرق الأدنى متكاملة سياسيا ضمن نظام دولي متعارف عليه فيما بينهم، فقد تبلورت في المنطقة خمسة ممالك عظمى يمكن تحديدها من غرب إيران إلى بحر ايجة (Aegean) ومن الأناضول إلى نوبيا (Nubia)، هذه الدول الإقليمية ذات مساحات كبيرة، وعدّ ملوكها أنفسهم بأنهم متساوين بالمنزلة السياسية ومتنافسين أيضا، وتستقر بين الممالك الكبرى – خاصة في سوريا وفلسطين – مجموعة من الدويلات الصغيرة التي دانت بالولاء في اغلب الأحيان إلى إحدى القوى الكبرى والأكثر قوة في ساحة العمليات العسكرية .

لقد دام النظام العالمي في الشرق الأدنى لأكثر من ثلاثمائة عام ضمن دول كبرى:

أولها : مصر في عهد الدولة الحديثة والتي امتدت من العالم الإيجي والى وادي النيل في شمال أفريقيا وكانت تعد آنذاك من اكبر الأقاليم وأوسعهم امتدادا لأنها ضمت أراضي من وسط سوريا وفلسطين شمالا و إلى نوبيا (في شمال السودان) جنوبا.

ثانيا: المملكة الكشية في بابل واقتصر حكمها على وسط وجنوب بلاد الرافدين.

ثالثا: المملكة الحثية (يطلقون على أنفسهم تسمية حاتتي)[١] وتقع في بلاد الأناضول، وحكمت وسط وجنوب تركيا الحالية كذلك أجزاء من شمال سوريا.

رابعا: مملكة ميتاني (Mittani)[٢]، وحكمت من نوزي (ارابخا) (كركوك الحالية) شرقا شرقا إلى حلب غربا، ومن بحيرة فان(Van) في تركيا شمالا إلى نهر الفرات جنوبا.

خامسا : المملكة الآشورية التي نالت استقلالها من التبعية لميتاني، والتي دامت من القرن الخامس عشر ق.م في عهد الملك آشور نادين آخي (١٤٣٠ ق.م) والى استقلالها في عهد آشور اوبالط (١٣٦٦-١٣٢٢ ق.م) فأصبحت قوة عظمى في المنطقة ضمت أراضيها شمال بلاد الرافدين وحتى جبال طوروس،وفي الغرب سعت جاهدة لتوسيع نفوذها باتجاه نهر الفرات .

ولدينا مملكة عيلام (Elam) في غرب إيران وتعتبر قوة سياسية وعسكرية، وظهرت منذ فترة مبكرة حوالي النصف الثاني من لألف الثانية[٣]إلا أنها لم تدخل في تشكيلة الممالك العظمى، لان نظامها السياسي اهتم بدرء الخطر الآتي من القبائل البدوية في هضبة إيران، وأيضا استغلال حالة الضعف السياسي التي تصيب ممالك جنوب بلاد الرافدين_ الممالك السومرية والاكدية ... الخ – لتشن حملة عسكرية الهدف منها السلب والنهب لا غير، لذا لا وجود لمراسلات دبلوماسية بينها وبين باقي القوى العظمى في منطقة الشرق الأدنى القديم، وقد يعود إلى ندرة النصوص العيلامية !، وينطبق هذا على الممالك القزمية المنتشرة على الساحل الايجي في غرب الأناضول فمعلوماتنا عنهم غامضة بسبب غياب المصادر التاريخية، وما نملكه من معلومات وردت في نصوص القوى العظمى كإشارات مقتضبة ضمن حملاتهم العسكرية على مناطقهم التي تتسم بالتمرد واحترافهم القرصنة البحرية لأنها تدر عليهم ثروات أفضل من النشاط الزراعي، وقد أشارت النصوص الحثية شيئا عنهم وعدنهم بؤر للتمرد والعصيان ضد السلطة في حاتوشا، ولا تخلوا النصوص الحثيه من ذكر حملات ملوكهم ضد أشهر مملكة في غرب الأناضول هي ارزاوا (Arzawa) وتهجير سكانها من بعض مقاطعاتهم إلى داخل الوطن الحثي،[٤]، ولدينا رسالتين ضمن

رسائل العمارنة كتبت بلغة الارزاوية، وهذا دليل على ان البلاط الارزاوي لا يملك كتبة باللغة الاكدية، ومع هذا لا يمكن عدها قوة عظمى لان تاريخ المملكة غامض لقلة المصادر عنها[٥]، كما يمكن أن نظيف مملكة الاشيا (Alashiya) (جزيرة قبرص) تركزت قوتها في داخل حدود الجزيرة الغنية بالنحاس والعاج والأخشاب، ولديها موانئ لغرض التجارة البحرية و ملجأ للقراصنة[٦]، ومع هذا لدينا رسائل متبادلة بين الفرعون المصري وملك الاشيا دون ذكر اسمه،واستخدمت فيها كلمة (أخي) في المخاطبة مما يدل على أن ملكها حضي بمنزلة متساوية مع ملوك القوى العظمى ولكن فقط في قلب الفرعون! فلم تصلنا رسائل متبادلة من ملوك آسيا مع الاشيا ماعدا مصر.

أما الدويلات الصغيرة في سوريا – فلسطين ومنها بيبلوس(Bybos) (جوبيلا) (طرابلس الحالية)، دمشق (Damascus)،اوغاريت(Ugarit)،و حلب(Aleppo)، قادش (Qadesh)، امورو(Amurru) ...الخ،فقد عانت من المنافسة للسيطرة عليها، ففي البداية كان الصراع ما بين مصر – ميتاني للسيطرة على ممالك بلاد الشام، ومن ثم حدثت منافسة بين مصر – حاتتي على نفس المنطقة، ومع تغير مراكز القوى في المنطقة حدث صراع ما بين آشور – حاتتي للسيطرة على المنطقة ، فقد كانت الأطماع الآشورية لا حدود لها للوصول إلى سواحل البحر المتوسط، وهكذا اعتبرت الدويلات السورية من وجهة نظر القوى العظمى كدويلات حاجزه (buffer States) ولذلك لم تتطور سياسيا لتشكل دولة موحدة، ولم تسمح القوى الكبرى أن تتحدد تلك الممالك الصغيرة في بلاد الشام في دولة كبرى . وعلى العكس نلاحظ التدخل الحثي في الشؤون الداخلية للدويلات الصغيرة أكثر بكثير من التدخل المصري، فقد عين على مدن كركميش وحلب نواب عن الملك الحثي في إدارة الشؤون السورية نيابة عن ابن عمهم في حاتوشا، فكان إلزاما عليهم حل مشاكل الحدود والقضايا القانونية[٧] والتجارة بين الدويلات الصغيرة و الدول الكبرى[٨]، وحتى فرض عقوبات اقتصادية إذا تطلب الأمر ذلك وحدث هذا مع توغل قوات توكلتي–ننورتا الأول (١٢٤٤–١٢٠٨ ق.م) في عمق جبال طوروس، شمال آشور والى نهر الفرات غربا،وطلب الملك الحثي من تابعه حاكم مملكة امورو أن يتخذ موقف صلب

اتجاه آشور (ملك بلاد آشور عدوي، لذا يجب آن يكون عدوك أيضا، لا تاجر من امورو يذهب إلى بلاد آشور، وأنت لا تسمح لتاجر آشوري بالدخول إلى بلادك، أو يعبر من خلال بلادك، على أية حال إذا تاجر آشوري أتى إلى بلدك تقبض عليه وترسله لي، هذا التزامك تحت القسم المقدس ...)[٩].

العلاقات الدولية في عصر العمارنة:

اكتشفت الرسائل في موقع العمارنة (el-Amārna) الذي يقع على الضفة الشرقية لنهر النيل ضمن محافظة الأقصر حوالي (١٩٠) ميل جنوب القاهرة، وقد عرف الموقع سابقا باسم (أخيتاتون)(Akhetaten) العاصمة القديمة لمصر ولفترة قصيرة (١٣٨٠– ١٣٤٠ ق.م) من القرن الرابع عشر ق.م، وقد شيدها امنوفس الرابع (الأسرة الثامنة عشر) وكان أشهر ملوك مصر قاطبة وقد غير اسمه فيما بعد إلى اخناتون ومعناه (روح آتون)[١٠]، وقد عثر على ألواح العمارنة بين الخرائب المدينة المهجورة بين الأعوام (١٨٨٦– ١٨٨٧ ق.م) وعن طريق الصدفة،عندما عثرت فلاحة مصرية على بعض الرقم الطينية التي وجدت طريقها إلى تجار العاديات، فأثارت دهشة كبيرة بين الأوساط العلمية،فهي ألواح طينية نقشت بلغة بابلية مسمارية، وهذه الرقم شجعت على الحفريات السرية[١١]، وما وصلنا من تقارير عن المكتشفات الأثرية كانت معلوماتها متضاربة، وأصبح من الصعب معرفة أعداد الألواح التي وجدت في موقع العمارنة، فقد ضاعت أو دمرت أعداد من الألواح[١٢]، ومع هذا فهناك أكثر من (٣٠٠) رقيم طيني جاء من ممتلكات تجار العاديات أو من المقتنيات الخاصة وتم الحصول عليها عن طريق الشراء أو الهدية أو المصادرة، وأخذت تلك الألواح طريقها إلى المتاحف العالمية[١٣].ومن بين تلك المجموعة (٤٤) رسالة من الملوك المساوين بالمنزلة السياسية مع الفرعون ،بينما باقي الرسائل أرسلت من قبل حكام المقاطعات التابعة لمصر في سوريا وفلسطين[١٤]، وعدد قليل جدا كتبت من قبل الفرعون (عمارنة ١،٥،١٤، ٣١، ٩٩،١٦٢ –١٦٣،١٩٠،٣٦٧،٣٦٩ –٣٧٠)[١٥].

أعطت الرسائل فكرة واضحة عن العلاقات السياسية المتطورة في تاريخ الشرق الأدنى القديم بين العواصم (بابل، آشور ،اخيتاتون (العمارنة حاليا)، حاتوشا، واشوكاني)[١٦]، ومثل هذه العلاقات التي أفرزتها الرسائل لم تكن وليدة الصدفة إنما تطور دبلوماسي ميز العلاقات السياسية للقرن الرابع عشر ق.م، واعتقد الباحثين في بداية الاكتشاف الأثري للرسائل أنها تمثل (الدبلوماسية الشرقية) لان هناك تشابه ما بين القديم والحديث في العلاقات الخارجية[١٧]، وقد ازدادت معلوماتنا أكثر بعد حملة الاكتشافات الأثرية التي جرت في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي في العاصمة حاتوشا (بوغازكوي حاليا) مما ولد صلة ما بين الوثائق المكتشفة حديثا وما كشف في العمارنة سابقا، فتم إعادة بناء العلاقات الدولية إلى (تل عمارنة –زيتي)(Tell-Amarna-Zeit)[١٨]، كذلك عثر على ارشيفات في دويلات المدن السورية وخاصة في اوغاريت (Ugarit) (موقع رأس شمرا الحالية)[١٩]، وموقع الالاخ (Alalakh)وقام الباحث وايزمن(Wiseman) بترجمة النصوص المكتشفة إلى اللغة الانجليزية[٢٠]، ويجب أن نضع في اعتبارنا بأن تصنيف (عصر العمارنة) لم يؤخذ على أساس تحديد زمني محدد كما ذكر أعلاه إنما استخدم لفترة زمنية أوسع لتشمل فترة أواخر عصر البرونز على اعتبار أننا نتعامل في مجال العلاقات الدولية بين ممالك الشرق القديم، علما بان عصر العمارنة بدأ في السنة الخامسة من إنشاء اخناتون عاصمته العمارنة وعدد سنوات حكمه منفردا في السلطة (١٢) عاما مضافا إليها (٣) سنوات مدة بقاء توت عنخ آمون في العمارنة فيكون المجموع (١٥) عاما لفترة مراسلات العمارنة الشهيرة، ولكن عثر على رسائل تعود إلى عهد امنوفس الثالث قبل تأسيس العمارنة ! الاحتمال الكبير أنها جلبت إلى العاصمة الجديدة وحفظت مع الرسائل الأخرى، وقدر علماء الآثار تاريخ (٥) سنوات تضاف إلى الرقم السابق فيكون مجموع سنوات العمارنة (٢٠) عاما فقط[٢١] ومع هذا فان شكلية الرسائل ومضمونها نراها تغطي مراسلات الملوك حتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م[٢٢]، وعلى ما يبدو بان الباحثين في مجال التاريخ القديم والعلاقات الدولية أعجبتهم تسمية (عصر) على فترة زمنية و نوع معين من المراسلات كما هو في (عصر العمارنة)

لتشمل فترات سابقة عما نحن بصدده فقد أمدتنا التنقيبات الأثرية بارشيفات غنية من الرقم الطينية مما جعل الباحثين يتحدثون عن (عصر ماري) (Mari) (تل الحريري حاليا) و تعود إلى مملكة ماري على المجرى الأوسط لنهر الفرات وازدهرت في القرن الثامن عشر ق.م[٢٣]، إضافة إلى وثائق أخرى من عصر ابيلا (Ebla) وتعود إلى القرن الرابع والعشرين ق.م[٢٤].

أن التفسير السائد لرسائل العمارنة بأنها وثائق دبلوماسية قد شاع هذا التعبير بين المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الشرق الأدنى القديم والباحثين في العلاقات الدولية في الوقت الحاضر، لما طرحته تلك الرسائل من مفاهيم عده حول الأساليب الدولية في المخاطبة وتبادل الهدايا بين الملوك العظام، وقد زادت معلوماتنا بعد عمليات التنقيبات الأثرية في كل من مصر وبلاد الرافدين والأناضول فطرحت جملة من الوثائق تدعم ما ورد من معلومات التي سبق وان ذكرت في رسائل العمارنة، وهذا شجع قسم من الباحثين بقولهم بان الرسائل هي في حقيقتها وثائق قانونية ودولية في آن واحد شأنها شأن المعاهدات بين الدول[٢٥]، حيث تتناول مفاهيم معروفة منها الحرب والسلام ومشاكل الحدود والجزية والأحلاف واستقلال مقاطعات وردود الأفعال ضد تدخلات العسكرية في شؤون الممالك الصغيرة ... الخ وهذه ترد باستمرار في المعاهدات وكذلك النقوش الملكية و التي نطلق عليها حوليات الملوك ولدينا وفرة منها، فقد ذكر الملوك انتصاراتهم وإقرارهم الآمن في مناطقهم وهم يبالغون في ذكر أسماء الملوك المنهزمين ومناطقهم وتقديمهم الولاء والجزية للملك المنتصر، والمشكلة في النقوش الملكية هي في تحديد المواقع المستولى عليها من حيث موقعها الجغرافي ؟ وهل هي مدن أم قرى؟ وهل أسماء الملوك في حقيقتها أسماء رؤساء عشائر أو شيوخ ؟ لأننا نترجم كلمة شار(Šar) الاكدية بمعنى ملك ! من هنا يجب أن لا نتصور بأنهم حكام دول واسعة ! كما أن أسماء المواقع تولد حيرة عبر عنها الباحث ميلارت (Mellaart) وهو يسخر من وصف وتحديد المواقع الأثرية في الأناضول كما وردت في حوليات الملوك الحثيين بقولة (لعبة الحزورة تشبه جغرافية الحثيين)[٢٦]، ونفس الحالة توصل إليها الباحث بورني (Burney (عندما قام برحلة إلى شرق تركيا

متتبعا وصف سرجون الآشوري لسير حملته الثامنة على اوراراتو (٧١٤ ق.م) ضمن منطقة بحيرة فان فوجد غالبية ما ذكره سرجون هي أسماء قرى زراعية وان نص الملك الآشوري مبالغ فيه ولغرض الدعاية[٢٧]، أما بالنسبة لرسائل العمارنة فهي رسائل مقنعة أكثر من النقوش الملكية فيها أسلوب المنطق والمساومة والحجة البلاغية والاستعارة العاطفية وكتبت باللغة البابلية لغة الدبلوماسية العالمية آنذاك فنحن نتوقع بان الكتبة ارتبطوا بالقصور الملكية واستعملوا اللغة البابلية في المراسلات ولا غرابة في حصولهم على مهارات كتابية فقد عثر على ألواح أدبية نقشت عليها ملحمة كلكامش في موقع مجيدو (Megiddo) بفلسطين، وان اللغة الاكدية في القصور العديدة لم تكن تستخدم للأغراض المحلية إنما كانت لغة النخبة في مجتمعات الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر ق.م لان معرفتهم باللغة البابلية كان هدفه إبراز هويتهم الاجتماعية[٢٨] وهذا ينطبق على القصور الملكية في العمارنة وحاتوشا واوغاريت وايمار (Emar) وامورو ... الخ، نحن نرى في بداية الألف الثانية بان البيوتات الملكية في الشرق الأدنى القديم تراسلوا فيما بينهم،ولذلك نلاحظ وجود اختلاف ما بين تلك الفترة من جهة و عصر العمارنة من جهة أخرى، فسابقا كانوا يناقشون في رسائلهم قضايا الرئيسة وخاصة الحرب والسلام والجزية ومشاكل الحدود بينهما، لكن في رسائل العمارنة بين الملوك العظام لا نجد إلا بعض التلميحات لأنهم ركزوا أساسا على تبادل الرسل والبضائع والنساء،بعكس رسائل الملوك الصغار حكام المقاطعات إلى سادتهم الكبار حيث ركزوا على أحوالهم السياسية اليومية في مناطقهم وما جاورهم، فنرى في رسائلهم اتهامهم للتوابع الآخرين بأنهم عديمي الثقة وليس لديهم ولاء للملك، هذه الاتهامات كانت مناورات من اجل المنافسة على البلاد والسيطرة على طرق المواصلات لذا تعد خطاباتهم فيها مبالغة على الأغلب حاولوا تفادي أو تأخير دفع الضرائب والجزية فجلبوا الانتباه بعيدا عن أمنياتهم بذكر خيانة جيرانهم من التوابع، وكذلك ادعوا بان دوافعهم سياسية حتى إذا لم يطيعوا أوامر الفرعون، ونحن نعرف من رسائل العمارنة بان التأثير المصري في سوريا وفلسطين كان واسع الانتشار ولم يظهر التهديد للوجود المصري إلا بعد النهوض الحثي فقد أرادت حاتتي

أن تقطف توابع مصر الشمالية الواحدة بعد الآخر، وهذا النشاط التوسعي ليس بالضرورة إن يقوم به الملك الحثي إنما تكليف احد توابعه من الملوك المحلين وإجباره بالدخول في حروب محلية تافه مع نظرائه[٢٩].

لقد خضعت الدبلوماسية الشرقية للاستبدادية والأنانية من لدن ملوكها وبذلك شكلت القاعدة السياسية التي نراها في تعابير واضحة كما هو في (عمارنة ٤) [(٤-٢٢) ..... لم لا ؟ أنت ملك، أنت تفعل ما تريد ! عندما تعطي ابنتك للزواج من الذي يقول لا ؟ ....)[٣٠]، هذه الصورة شاملة وتنطبق على الملوك العظام، ولكن لابد من الاحترام فيما بينهم، فعدم الاحترام معناه انقطاع الرسائل بينهم،فعلى سبيل المثال حاتوسيلي الثالث ملك حاتتي بعث برسالة إلى أخيه كدشمان انليل الثاني(Kadashman-Enlil) يقول فيها (الفقرة ٦ (٣٦-٥٤) علاوة على ذلك، أخي، كتب لي : فيما يتعلق بعدم إرسال المبعوثين لأن الاخلامو[٣١] معادين لي ولذا أنا قطعت رسلي:، كيف يكون هذا ؟ يا أخي، هل تقطع رسلك بسبب الاخلامو ؟ هل قوة بلادك صغيرة ؟ أخي، ربما اتي- مردوخ- بلاطو (Itti- Marduk- balatu)[٣٢] تحدث بكلمات غير مناسبة عني أمام أخي،ولذا أخي قطع رسله عني ؟ في بلاد أخي الخيول كثيرة مثل القش، هل يجب أن أبعث بألف عربة لمقابلة رسولك في توتول (Tuttul)[٣٣]!، وبهذه الطريقة سوف يبعدون الاخلامو أيديهم عن رسولك !، وقال أخي : سوف لن يسمح ملك آشور من مرور رسولي في بلاده متوجها إلى حاتوشا : بالمشاة والعربات ملك آشور لن يكون بمستوى قوات بلادك.... كيف يتجرأ ملك آشور ليمنع رسولك من اجتياز بلاده ! أخي، أنت ملك عظيم، والحياة الطويلة لك ... أخي، أنظر كيف أنا أحافظ باستمرار إرسال رسولي بعيدا إليك بسبب حبي لأخي، بينما أخي لا يرسل رسوله، هل أخي لا يعرف هذا ؟ .... فقط الملكين بينهما عداء لا يسمحون لرسلهم بالسفر فيما بينهما، لماذا أخي قطعت رسلك؟ .)[٣٤]، نستنتج من هذه الفقرات رفض حاتوسيلي انقطاع الرسل بين بابل وحاتوشا فهو يرفض التبريرات التي قدمها كدشمان انليل الثاني بحجة قبائل الاخلامو المعادية له أو موقف الملك الآشوري الذي يرفض مرور رسل الملك البابلي، وحسب اعتقاد حاتوسيلي ربما السبب

يعود إلى اتي- مردوخ- بلاطو (معنى الاسم مردوخ يمنح الحياة) الذي شغل منصب الوزير ووصي على كدشمان انليل الثاني عندما استلم الحكم وهو ما زال طفلا، ويعتبر من اشد المعادين للحثيين حتى انه كتب رسالة إلى حاتوسيلي الملك الحثي قال فيها: (أنت لا تكتب إلينا مثل الأخ، أنت تضغط علينا كما لو كنا من رعيتك...)، هذه العبارة جعلت حاتوسيلي يصف الوزيرالبابلي بالشرير والحاقد والكاذب وحمله فتور العلاقات بين البلدين .

نادي القوى العظمى:

استخدم هذا التعبير في المقدمة التي قدمها الباحث تادمر (Tadmor) في بحثه (سقوط الإمبراطوريات في غرب آسيا عام ١٢٠٠ ق.م)[٣٥] وقد ركز اصطلاحه على القوى الخمسة الكبرى في عصر العمارنة، ثم استعمل ليفراني (Liverani) هذا المصطلح في بحثه (نادي القوى العظمى)[٣٦] موضحا العلاقات الدبلوماسية بين السادة الكبار، ثم تطرق الباحث ميروب (Mieroop) على الوضع السياسي في الشرق الأدنى مستخدما نفس المصطلح لكن بشكل أوسع في مؤلفه (تاريخ الشرق الأدنى القديم)[٣٧] ليتناول منطقة الشرق الأدنى القديم في أواخر عصر البرونز،أما في هذا البحث فسوف أركز على أهم المشتركات بين القوى العظمى من خلال رسائل ملوك بابل وآشور كما وردت في رسائل العمارنة، ثم أتطرق إلى الوضع السياسي في أواخر القرن الثالث عشر ق.م التي أعقبت العمارنة مباشرة والتي تأثرت بشكل أو بآخر بأسلوب وحياة عصر العمارنة وحتى سقوط قوى (النادي) ! .

عند قراءة رسائل العمارنة المتبادلة بين الملوك العظام[٣٨] نرى فيها نموذج العلاقات الشخصية كما هو في الوقت الحاضر في مجتمعات الشرق وكأنها استعارة من الحالة الاجتماعية المتعارف عليها لتشكل أسلوب المخاطبة بين ملوك الدول الكبرى ولذا يمكن أن تقسيم الاستعارات الاجتماعية المتعارف عليها والتي استخدمت سابقا وحاليا والتي ما زالت متداولة بما يلي :

١- الاستعارة العائلية وتوسيع مبادئ القرية:

نفترض ومنذ زمن بعيد بان العلاقات الخارجية بين المجتمعات البشرية تقوم على أشكال من الكرم وحسن الضيافة والزيجات وتبادل البضائع والخدمات وهذه كانت أساسيات الرسائل، وفي العلاقات الداخلية تبدأ رسائل العمارنة باستعمال الملوك كلمة (أخي) (ahi) عند المخاطبة بينهما، وفي بعض الرسائل تتم المخاطبة بكلمة (أبي) (abi) استنادا إلى عمر الملك واحتراما له وليس لقرابته منهم،وأحيانا يضيف المرسل بعد كلمة أخي تعبير (صهري) وقد استخدم هذا الأسلوب توشراتا (Tušratta) ملك ميتاني(عمارنة ١٩ -٢٣،٢١ -٢٤) في رسائله إلى امنحوتب الرابع (امنوفس الرابع أو اخناتون) على اعتبار زواجه من الأميرة الميتانية تادو – خيبا ويعتقد أنها (نفرتيتي) ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أدلة أكثر من التخمين،وسبق وان تزوج أبيه امنحوتب الثالث (امنوفس الثالث) من الأميرة (جيلو خيبا) (Kelu-Heba) الميتانية ابنة توشراتا (عمارنة ١٩)، وكلمة (أختي) عند مخاطبة ملك زوجة ملك آخر ولدينا رسائل مرسلة من رعمسيس الثاني إلى الملكة (بودوخيبا) زوجة حاتوسيلي ملك حاتتي يخاطبها بتعبير أختي[٣٩] وهذه العبارات متعارف عليها عند المخاطبة بين أفراد الأسر في المجتمعات الصغيرة كالقرية، والحي، والأقارب[٤٠]، واستعمال هذا التعبير له مغزى اجتماعي وما زالت تستعمل حتى يومنا الحاضر[٤١]، ثم يلي ذلك ذكر التحيات للمرسل والمرسل الية (Šulma ša'ālu) (بمعنى السلام)، ويشمل الزوجات والأبناء، الممتلكات، الخيول، العربات الحربية، النبلاء والبلاد ... الخ[٤٢] وهذا الشكل من التحيات في الرسائل من الموروث الثقافي للعهد البابلي القديم وتظهر بجزأين :

الأول : يوضح المرسل بقوله : (بالنسبة لي كل شيء بخير) وكمثال في رسالة برنابرياش الثاني ملك بابل إلى أخيه الفرعون اخناتون (Nimmuwarea)[٤٣] قال فيها: (اخبر نيمووريا ملك مصر، هكذا برنابرياش ملك كردونياش (Karaduniyaš) (بمعنى بابل)، أخوك، بالنسبة لي كل شيء بخير، إليك ولأسرتك زوجاتك،أبنائك، بلادك، نبلائك، خيولك، عرباتك، عسى الكل بخير)[٤٤]، وهناك استخدام آخر للتحيات ففي رسالتي آشور اوبالط (١٣٦٢- ١٣٢٧ ق.م) (عمارنة ١٥-١٦) حذفت هذه الفقرة واكتفي (كل شيء بخير) ثم

أحوال الممتلكات لدى الفرعون ، كما هو في رسالته (عمارنة ١٥) : (إلى ملك مصر، يقول ملك آشور، أتمنى أن تكون بصحة جيدة، وكذلك أسرتك، وبلادك، عرباتك الحربية، و جنودك ...)[٤٥].

أما الثاني : فان التحيات تبدأ (كل شيء بخير معك) ثم يذكر الأسرة والزوجات والأبناء، الخيول، العربات، النبلاء، والقوات (عمارنة ٣٤)[٤٦].

بعد التحيات تدرج المفاوضات بخصوص زيجات الحاكم أو العلاقات السياسية....الخ، ففي رسالة برنابرياش الثاني إلى الفرعون اخناتون (عمارنة ٧) (أطلق عليها درس في الجغرافية) بعد التحيات (Šulma ša'ālu) ذكر الملك البابلي حادثة مرضه، ويتساءل كيف لا يعرف الفرعون بمرضه ؟ (إلى نيبخروريا(قد يكون امنوفس الرابع)، الملك العظيم، ملك مصر، أخي، هكذا برنابرياش،الملك العظيم،ملك كردونياش(بمعنى بابل)،أخوك، بالنسبة لي ولأسرتي،خيولي عرباتي، نبلائي، بلادي، جميعهم بخير.

(٦-٧) إليك، أخي، ولأسرتك، عرباتك،نبلائك، بلادك،عسى الجميع بخير.

(٨-١٣) عندما وصل رسول أخي إلى هنا، لم أكن بصحة جيدة[٤٧]، ولم التقي برسولك[٤٨] ولم يأكل الطعام ويشرب الكحول معي، إذا أنت سألته [.....] ..... فان رسولك سيخبرك بهذا، وباني لم أكن بصحة جيدة،وكانت صحتي قلقة[٤٩]، أنا ما زلت أحاول أن استعيد صحتي[٥٠].

(١٤- ٢٥) علاوة على ذلك، وفي خلال فترة مرضي، أخي اظهر لي عدم اهتمامه، ولهذا من ناحيتي انتابني الغضب ([am-[ta-la) من أخي قلت : (هل سمع أخي باني مريض؟ لماذا اظهر عدم اهتمامه اتجاهي ؟ لماذا لم يرسل مبعوثه ليزورني ؟)، لكن رسول أخي خاطبني قائلا : (أن مصر ليست قريبة،ولهذا لم يسمع أخوك بمرضك، ولم يبعث بتحياته إليك،أن مصر بعيدة جدا من الذي يذهب ويخبر أخوك وبدورة يرسل لك تحياته سريعا، فهل من المعقول أن يسمع أخوك بمرضك ولا يرسل مبعوثه لك؟[٥١].....)[٥٢].

يظهر من مضمون الرسالة بان الملك البابلي لديه مشاكل مع الفرعون[٥٣]، وان المسافة بين البلدين تقارب (٢٠٠٠) كلم فكيف يعاتب برنابرياش أخيه الفرعون على عدم إرسال رسالة تتمنى له الشفاء العاجل، وكأن الملك البابلي يجهل البعد الشاسع بين مصر وبابل! مثل هذه الأفكار نجدها ملائمة في بيئة القرية أو الحي وليس من خلال رسائل متبادلة يحملها رسل عبر مسافات بعيدة، ونفس الغرابة نجدها في (عمارنة ٣) (أطلق عليها زواج، تذمرات، وافتتاح قصر) وهي مرسلة من كدشمان- انليل الأول إلى امنوفس الثالث قال فيها (إلى نيموواريا (Nimu´wareya) ملك مصر، أخي، هكذا كدشمان- انليل، ملك كدونياش، أخوك، أنا بخير لك ولأسرتك، زوجاتك، أبنائك، بلادك، عرباتك، خيولك، نبلائك، عسى الجميع بخير.

(٤-١٢) فيما يتعلق، بابنتي، وبخصوص ما كتبته لي بالزواج منها،هي أصبحت امرأة [٥٤]، هي بالغة، أرسل وفد ليأخذها إلى مصر،..... .

(١٣ ٢٢) ..... عندما احتفلت في مهرجان عظيم[٥٥]، لم ترسل رسولك ليقول لي: (تعال أكل واشرب[٥٦]، ولم ترسل هديه) لها ارتباط بالمهرجان...

(٢٣-٣١) أنا شيدت منزلا جديدا[٥٧]، وقد بنيت [.....] كبير، رسلك شاهدوا شاهدوا المنزل و..... وفرحوا، (الآن) أنا ذاهب لافتتاح المنزل، تعال بنفسك لتأكل وتشرب معي، أنا سوف لن افعل كما فعلت أنت.....)[٥٨].

في مضمون الرسالة عدة نقاط منها موافقة الملك البابلي بإعطاء ابنته كزوجه إلى امنوفس الثالث المعروف عنه بولعه بالنساء فقد ضم قصره زوجات بابليات وأشوريات وميتانيات ومن ممالك التابعة في فلسطين أيضا، كما قدم احتجاج وعتاب للفرعون على عدم دعوته لزيارة مصر وحضور احتفال كبير أقيم بها، ونفس العتاب صدر من ملك الاشيا(قبرص) ورد في (عمارنة ٣٤)، وأخيرا وجه الملك البابلي دعوه للفرعون لزيارة بابل وحضور حفل افتتاح قصره الجديد، وهنا نلاحظ محاولة برنابرياش الثاني بتوجيه (وخزه دنبوس) للفرعون بقوله (أنا سوف لن افعل كما فعلت أنت) بمعنى وجهة دعوه لك لزيارة بابل وأنت لم توجه دعوه لي لزيارة مصر!، ولو نظرنا

من زاوية أخرى هل يعتقد برنابرياش الثاني بان الفرعون يعيش في حي مجاور له ؟ ألا يعرف بعد المسافة بين البلدين؟ ففي نفس الرسالة أكد له الرسل سواء الرسول المصري أو البابلي بان المسافة بعيدة – طبعا بمنظور العالم القديم– بين مصر وبابل، والرحلة تتطلب شهورا في إرسال الرسائل ومثلها في استلام الأجوبة، وهكذا تقبل الملك البابلي جواب رسوله،وعفا على عدم معرفة الفرعون بمرضه لأنه يعرف جيدا وضمنيا بعد المسافة،كما هو في الفقرة التالية من (عمارنة ٧) حيث يقول (بعد ذلك أنا سالت رسولي الخاص وهو أجابني بان الرحلة طويلة، أنا لم أعد غاضبا بعد ذلك، أنا قلت كفى! ....)[٥٩]، ولعل هناك هدف آخر يسير نحو المساومة لأغراض أخرى لدى الملك البابلي وهي طلب الزواج من ابنة الفرعون وهذا الدوران في العبارات ينصب في تلك البودقة[٦٠].

أما في (عمارنة ١١) فالملك برنابرياش الثاني يذكر قضية زواج ابنته وإرسالها إلى مصر والمشكلة تنحصر في عدد العربات القليلة التي ستقل الأميرة إلى قصر الفرعون، ورد بالنص : (إلى نبوخوريا (Naphururea) ملك مصر، أخي، هكذا برنابرياش، ملك كردونياش، أخوك، بالنسبة لي الكل بخير، ولك ولزوجاتك، أسرتك،أبنائك،خيولك، عرباتك، عسى الجميع بخير .

(١٦– ٢٢) عندما أنا قدمت ابنتي الى خاماشي (Haamaššši) رسولك، والى المترجم ميخوني (Mihuni)، هما سكبوا الزيت على رأس ابنتي[٦١]، لكن بالنسبة للشخص الذي سيأخذها إليك، مع خايا (Haya) هناك خمسة عربات ! هل هم سيأخذونها إليك في خمسة عربات ! في مثل هذه الحالة، هل يجب أن اسمح لهم بأخذها من منزلي إليك؟[٦٢]، جيراني الملوك سيقولون : نقلوا ابنة الملك العظيم إلى مصر في خمسة عربات .

(٢٣–٢٨) عندما سمح أبي لابنته أن تسافر إلى أبيك[٦٣] كزوجة له [.....] ٣٠٠٠ جندي معه [.....] .

على ما يبدو بان الملك البابلي يريد إرسال ابنته إلى مصر بالحفاوة والفخامة التي تليق بمكانته كملك عظيم، لذا خمسة عربات من وجهة نظرة قليلة جدا، قياسا

إلى زواج عمة العروس سابقا من امنوفس الثالث حيث نقلت إلى مصر تحت حراسة (٣٠٠٠) جندي !، ولذلك يقول برنابرياش: (جيراني الملوك سيقولون: نقلوا ابنة الملك العظيم إلى مصر في خمسة عربات) وكأن الملوك المجاورين ينظرون من خلف الشبابيك مرور موكب العروس ويتهامسون على بساطة الموكب والمستوى الاقتصادي والاجتماعي والبخل الذي تتصف به عربات العروس لأنها(خمسة عربات فقط) أليست هذه مفردات تستعمل في القرية والحي وما بين الأقرباء ! .

٢-الصداقة والأخوة بين القوى العظمى:

الأساس المشترك لكل الرسائل إنها تبدأ (من الجيد – خلال الشر – إلى الجيد) وهذا الأسلوب متعارف عليه في سرد الأحداث التاريخية والقصص الاجتماعية،ويعود الفضل إلى الكتبة البابليين في ممارستهم لمهنة الكتابة ولديهم قاعدة تستند إليها رسائلهم، فبعد كتابة العنوان ومن بعدها التحيات ثم تليها ذكر لعبارات سابقة وصلت إلى الملك ويتم الرد عليها كما هو في (عمارنة ٦: ٨–١٢) (سابقا،أنت وأبي كنتم أصدقاء الواحد للأخر، وألان أنا سأكون صديقا لكم، أي شيء آخر يجب أن لا يذكر مطلقا غير الصداقة ..)[٦٤]، وكذلك في (عمارنة ٨ : ٨–١٢) (أخي، وأنا، أقمنا صداقة متبادلة، وهذا ما قلناه :كما كان آبائنا أصدقاء بعضهم لبعض، كذلك نحن أصدقاء مع بعضنا البعض ....)[٦٥]، وأيضا (عمارنة ٩: ٦–١٠) (في عهد أسلافي وأسلافك، أقاموا اتفاق صداقة متبادلة، وأرسلوا[٦٦] الهدايا الجميلة بعضهم لبعض، ولم يرفضوا أي شيء جميل .....)[٦٧]، وبنفس الصيغة (عمارنة ١٠ : ٨–١٠) (منذ زمن كراندash (Karaindaš) كان رسل أسلافك يأتون إلى أسلافي بانتظام وحتى الوقت الحاضر، لان أسلافنا كانوا أصدقاء، الآن،أنت وأنا أصدقاء وصل رسلك لي ثلاث مرات ....)[٦٨]، هذه التأكيدات على الصداقة البابلية– المصرية لابد من ورائها حادثه سلبية وعلى ما يبدو يجب أن تحل وبسرعة عن طريق التأكيد بالصداقة منذ أمد بعيد واستمرارها، ومن جهة أخرى يجب أن تضاعف الهدايا لزيادة المحبة والأخوة بين الملكين، ونجد نفس التعبير في رسالة توشراتا (Tušratta) ملك ميتاني

في رسالته (عمارنة ١٩: ٩-١٤) إلى الفرعون امنوفس الثالث (سابقا في وقت أسلافك، هم دائما اظهروا حبهم العظيم إلى أسلافي، وأنت بنفسك ذهبت ابعد من هذا وأظهرت حبك لأبي، الآن، حتى نبقي حبنا الثابت والمتبادل، وأنت قد ضاعفت الحب عشرة مرات، أكثر من الحب الذي أظهرته إلى أبي....)[٦٩].

قد يكون هذا الحب والصداقة حقيقيا خاصة مع تتويج ملك جديد في مصر، عندها لابد من إظهار تعبير له تأثير قوي وفعال من اجل علاقة صداقه جديدة تهدف إلى زيادة كميات الذهب المصري إلى أخوته الملوك في آسيا،ونلاحظ هذا في تتويج اخناتون وقد استشهدنا بفقرات من الرسالتين أعلاه (عمارنة ٦ : ٨-١٢) و (عمارنة ٨: ٨-١٢)، ورسالة توشراتا ملك ميتاني إلى الملكة تي (Teye) زوجة امنوفس الثالث (عمارنة ٢٦) ودعيت باسم (بعض التماثيل الذهبية المفقودة)[٧٠].

أيضا للكتبة البابليين دور مهم في أتباع قاعدة لرسائلهم المتبادلة ضمن محتوى واحد لكل أعضاء نادي القوى العظمى، ويشمل المضمون (رسائل – هدايا– نساء)، ومن الطبيعي تبادل الرسائل لها دور فعال لتفادي الحروب وإقامة سلام و علاقات دبلوماسية بين الدول، ففي (عمارنة ١١ : ظهر اللوح: (٢٢-٢٣) رسالة من برنابرياش الثاني إلى امنوفس الرابع ودعيت الرسالة باسم (المرافق الملائم للأميرة العروس) : (جيراني الملوك يسمعون ذلك، ويقولون : الذهب كثير بين الملوك، هناك أخوة، وصداقة، وسلام وعلاقات طيبة : هو غني بالأحجار النفيسة، وغني بالفضة، وغني بالذهب ....)[٧١]، يعطي ملك بابل اهتمام كبير لجيرانه الملوك سواء كانت ألسنتهم أو عيونهم (عمارنة ١١)، وإذا كنا نرى في المعاهدات والنصوص الملكية ورود قرارات وعقوبات تلي الحملات العسكرية، لان منطق الحرب حسب المفهوم القديم قرار مقدس من لدن الآلهة، لذا تدرج في مقدمة المعاهدات باعتبارها النتيجة الحتمية للخلافات بين الدول، لكن في رسائل العمارنة القضايا العسكرية وما يترتب عنها من عقوبات لا تذكر في العمارنة، إنما ما يحدث من خلافات قد تؤدي إلى انقطاع الرسائل بين الملوك وهذه هي الظاهرة الوحيدة بينهم.

آن توسيع منظور القرية ليشمل كامل الشرق الأدنى القديم انعكس في البحث عن حلول للمشاكل المعقدة بالأقاليم التابعة لمصر في بلاد الشام وفلسطين، وهذا يتطلب سرعة في الاتصالات الدبلوماسية، وعموما الرسائل المتبادلة بين الملوك العظام أكثر مرونة على الرغم من بعد المسافة إلا أن المشاكل اقل تعقيدا، فطلبات الملوك التوابع فيها إصرار على طلب المساعدة العسكرية ضد حركات التمرد آو العصابات الخارجة عن القانون أو التعدي على قوافل التجار المارة في أراضي الممالك الصغيرة،وهذا ما لانلاحظه في مراسلات الدول العظمى فالسفر طويل كما ذكرت ويجب آن يتجنب المبعوث فصل الشتاء حيث البرد و الأمطار، وعموما القوافل ما بين العمارنة (طيبة) والمدن الكبرى الآسيوية زمن الرحلة لا تقل عن (٣٠) يوما إلى واشكاني (عاصمة ميتاني) أو شهر ونصف إلى بابل وحاتوشا، والساعي السريع ينطلق لمرتين في العام بقوافل الحمير،أما في حالة التأخير فان وقت التفاوض وتهيئة القافلة و التحضيرات تأخذ سنه كاملة ما لم يكن هناك سبب معين للتوقف، لكن الباحث كوهين (Kűhne) يرى هناك حسابات في تحديد زمن الرحلة، وللتأخير أسباب متعارف عليها بين الملوك خاصة في حالة التفاوض على الزواج حيث يتطلب الأمر التريث وعدم السماح بعودة المبعوث إلى أن يتم الاتفاق في القصر الفرعوني على الحاجات الثمينة التي ترسل إلى الملك والد العروس[٧٢]، لذا تأخير الرحلة أدركها شركاء مصر الذين انصب اهتمامهم على السمة التجارية للعلاقات المتبادلة، ولهذا بعد المسافة مع البخل الذي يمارسه الفرعون بإرساله كميات قليلة من الذهب جعلت الملك الآشوري اشوراوباط (١٣٦٢-١٣٢٧ ق.م) يتذمر وقدم شكواه إلى أخيه الفرعون اخناتون (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م)، حيث ورد فيها [(٢٢-٢٥) عندما كتب ملك خانيكلبات إلى أبيك في مصر، أرسل أبيك له (٢٠) طالنت من الذهب[٧٣] (يعادل الطالنت (٣٠.٣) كغم)، (٢٦-٣١) الآن أنا[٧٤] في مرتبة مساوية لملك خانيكلبات لكن أنت أرسلت لي .... من الذهب، وهي ليست كمية كافية لدفع أجور رسلي في رحلتهم ذهابا وإيابا)[٧٥]، الشكوى واضحة فبعد استقلالها آشور أصبحت بمرتبه سياسية مساوية مع ميتاني، وحصتها من الذهب يجب أن تكون

مساوية أيضا، هذا الاقتراح الأخير على ما يبدو لي هي محاولة من الملك الآشوري في إقامة نظام دائم وسنوي لإرسال شحنات الذهب وبشكل متساوي بين الملوك، وهذا ما عبر عنه ملك الاشيا (قبرص) إلى أخيه الفرعون (عمارنة ٣٣) [(٢٧-٣٢) و سنه بعد سنه أرسل رسولي لمقابلتك، و أنت من قبلك سنه بعد سنة أرسل رسولك لمقابلتي ..)[٧٦] اعتقد بان ملك الاشيا سعيد بما فيه الكفاية بالتأخير في سير الرسائل وما يرتبط بها من هدايا بين بلاده ومصر.

الرحلات ذات طابع اقتصادي هي الأخرى واضحة أيضا، فقد كان التجار يحملون الرسائل الرسمية بين ملوك نادي القوى العظمى، كما في رسالة الملك البابلي (عمارنة١١: ٨) (إذا صالم (Ṣalmu)،التاجر، عاد إلى هنا (بمعنى عاد إلى بابل) دع رسولك الذي سيأتي لي أن يأخذهم، الأشجار[٧٧] التي تم نحتها من العاج و لونت،والنباتات التي تلائم الريف يجب أن تنحت وتلون وترسل لي ....)[٧٨]، بينما في (عمارنة ٧ : ٧٣) فان صالم رسول فقط [(٧٣-٨٢) علاوة على ذلك، مرتان قافلة رسولي صالم الذي أنا أرسلته لك قد سرقت[٧٩])[٨٠]، وبالنسبة إلى الاشيا (قبرص) (عمارنة ٣٩-٤٠) يتضح بان الموظفين الاشيين ينقلون الرسائل إلى مصر[٨١]، لكن هذا لا يعني عدم وجود تخصص في نقل أوامر الملوك، ففي مسائل المصاهرة الأمر مختلف جدا فالرسل في هذه الحالة يمكن أن نطلق عليهم (سفراء) ويحتلون مكانه عالية في دولهم لأنهم أول من يلقي نظرة على وجه العروس، فلابد أن تروق له حتى ينقل أوصاف العروس فيما بعد إلى الفرعون ، وهناك وإمام الملك والد العروس يتم مسح رأس الفتاة بالزيت ويتم الاتفاق على نقلها كما وهو في (عمارنة ١١: ١٦-٢٢) التي سبق وان استشهدنا ببعض من فقراتها، وكذلك في (عمارنة ٣١ : ١١-١٦) من امنوفس الثالث إلى تارخونداردو (Tarhundaradu) ملك ارزاوا [أنظر، أنا أرسلت لك ارشابا (Iršappa)[٨٢]، مع أمر : "دعنا نرى البنت التي عرضت على الملك ليتزوجها " وهو سوف يسكب الزيت على رأسها، أنا كنت قد أرسلت لك كيس من الذهب من النوعية الجيدة، كما اتفقنا على الحاجات....)[٨٣]، هنا في هذه الرسالة اسم المبعوث ارشابا، أما في (عمارنة ١٩: ١٧-٢٤) من توشراتا ملك ميتاني إلى

امنوفس الثالث يقول فيها[(وبناء على طلب أخي، أنا جعلت ماني (Mane) (المبعوث المصري إلى ملك ميتاني) يشاهدها، وهو ألقى نظرة عليها، وعندما شاهدها مدحها كثيرا، أنا سوف أرسلها إلى بلاد أخي، ولعل شاوشكا (Šauška) و آمون (Aman) يجعلانها عند رغبة أخي ..)][٨٤]، اسم المبعوث ماني، بينما في (عمارنة ٢٠) من توشراتا إلى امنوفس الثالث[(٢٣-٢٧) (خلال ستة أشهر، أنا سوف أرسل كيليا (Keliya).....)]، وفي (عمارنة ٢٦) من توشراتا إلى الملكة تي (Teye) زوجة امنوفس الثالث [(١٩-٢٩) الآن أنت بنفسك قلت إلى كيليا (Keliya)....][٨٥]، في كلا الرسالتين اسم المبعوث كيليا ومعه ماني فقد اشتركا في التخطيط بالزواج بين الأسرتين الملكيتين المصرية – الميتانية . أما في حالة التبادلات التجارية والتي تحتاج إلى سفر طويل بقوافل الحمير فتؤمن إلى التجار،كما ورد في (عمارنة ٣٩) بان الرسل تجار [(١٤-٢٠) هؤلاء الرجال هم تجاري، أخي، دعهم يعودون بأمان فورا ...)]، و في (عمارنة ٤٠)[(٢٤-٢٨) هؤلاء الرجال هم خدم الملك سيدي....)][٨٦]، أما الرسائل الروتينية فتسلم إلى سعاة محترفين مجهولي الاسم، ففي (عمارنة١) مرسله من امنوفس الثالث إلى كدشمان انليل الأول يصف فيها رسل ملك بابل بأنهم (نكرة) و (وقادة حمير) و (كذابين) و(ناقلي أخبار كاذبة) و(مخادعين)، وقد سببوا مشاكل عديدة بين المملكتين ولذا كانت اتهامات الفرعون بان ملك بابل يستخدم مبعوثين تنقصهم الثقة وتنعدم فيهم الدبلوماسية، الحقيقة كانت رسالة الفرعون قاسية وأطلق عليها (شكاوي الفرعون إلى الملك البابلي)[٨٧].

٣-فرض السيطرة على الممالك الصغيرة:

أن غالبية ارشيف العمارنة هي رسائل مستلمة، وعدد قليل جدا كتبت في مصر منها رسالتين هما (عمارنة ١ و ٥)، وقائمة مواد مرسلة إلى ملك بابل (عمارنة ١٤)، ورسالة أخرى مرسلة إلى ملك ارزاوا (عمارنة ٣١)، وبقية الرسائل من الفرعون إلى حكام المقاطعات في سوريا وفلسطين وتضم (عمارنة ٩٩، ١٦٢-١٦٣، ١٩٠، ٣٦٧، ٣٦٩-٣٧٠)[٨٨]، ووجودها في الارشيف له عدة تفسيرات :

أ- هذه الخطابات هي نسخ عن الرسائل الأصلية، تم استنساخها لأنها تضم أمور مهمة يستوجب الاحتفاظ بنسخة عن الأصل باستثناء (عمارنة ١٦٢)على ما يبدو لم ترسل[٨٩]، إلى عزيرو (Aziru) ملك بلاد امورو (Amurru) الأسباب غير معروفة .

ب- أما (عمارنة ١، ٥، ١٤، ٣١) فهي مسودات أو نسخ عن الأصل حفظت على أساس ملف تجنبا للإهمال والضياع أو للعودة إليها إذا تطلب الأمر .

عندما تسلم الرسالة إلى الرسل أو السفراء في بلدانهم فأنهم يسافرون عبر أراضي قد تكون معاديه لهم أو على الأقل ينعدم فيها الأمان، لذا فان مسؤولية توفير الحماية لهم وشمولهم بالضيافة والكرم والى نهاية رحلتهم تقع على عاتق الملوك العظام، ومع هذا يعترض الملوك المحلين طريق المبعوثين فيخضعونهم لدفع الضرائب، لان الزعماء المحليين ورؤساء العشائر يطالبون بنصيبهم من التجارة العالمية التي تعبر أراضيهم، فقد ذكر في (عمارنة ٧ : ٧٣-٨٢) تعرض قافلة مبعوث الملك البابلي إلى الاعتداء والسرقة مرتين من قبل [(... في المرة الأولى بيرياوازا (Biriyawaza)[٩٠]، وفي المرة الثانية قافلته سرقت من قبل بامخو (Pamahu) حاكمك في فاسلاج (vassalage)....)[٩١]]، وبنفس ألصيغه ذكر في (عمارنة ٨: ٨-٢١) [(....الآن، تجاري وهم في طريقهم مع (اخو- تابو) (Ahu-ţabu قد تأخروا في كنعان (Canaan) لقضاء بعض الأعمال، بعد ذهاب (ابو- تابو) إلى أخي في خيناتونا (Hinnatuna) في كنعان، شوم- ادد(Šum- Adda) ابن بالومي (Balumme) و شوتاتنا (Šutatna) ابن شاراتوم (Šaratum) حاكم عكا (Akka) أرسلوا رجالهم وقتلوا تجاري وسلبوا أموالهم..)[٩٢]، على ما يبدو بان الملوك العظام كانوا قادرين على إعادة سلطتهم العليا على رؤساء العشائر والملوك الصغار بمنح الرسل الحماية والأمان وذلك لاحتكارهم المسؤولية الكاملة واستخدامهم القوه والقانون لفرض الأمن، وهناك رسائل تحذير تمنع الملوك المحليين من التعدي وخلق المشاكل، ولدينا إشارات واضحة في (عمارنة ٣٠) رسالة من المحتمل أرسلها توشراتا ملك ميتاني إلى ملك مصر (من الصعب معرفة اسمه) ورد فيها : (إلى ملوك

كنعان،خدم أخي (يقصد الفرعون)، هكذا الملك، أنا (بمعنى توشراتا الميتاني) أرسلت رسولي اكايا (Akiya) بأقصى سرعة إلى ملك مصر، أخي، لا أحد يَحتجزَه، و ساعدوه بالدخولِ الآمنِ إلى مصر، ويُسلّمُ إلى قائدِ القلعةَ المصرية[٩٣] دعوه يَستمرُّ في رحلته فوراً، وعلى مسؤوليتي هو يبدو قلقا ولكن لا يضمر الشر...)[٩٤]، كذلك في (عمارنة ٢٥٥) من موت- باخلو (Mut- Bahlu) إلى ملك مصر [(٨-١١) الملك، سيدي، أرسل خعايا (Haaya)[٩٥] لمقابلتي وقال: " القافلة إلى خانيكلبات..... (٢١-٢٥) دع الملك، سيدي، يرسل القافلة حتى ولو إلى بابل[٩٦]، أنا سأكون مسوؤلا وأوفر حماية قوية من الحرس)][٩٧].

إجراءات الملوك ليست دائما كافيه لحفظ الطرق آمنه أمام قوافل التجار ورسلهم، فحتى الملوك المحليين لم يكونوا أو ليس دائما قادرين على فرض سيطرتهم الكاملة على مناطقهم بما فيه الكفاية، فهناك قرى بعيدة تدار من قبل شيوخ كبار بالسن تقيدهم تقاليد راسخة، و تتحكم فيهم نوازع التسلط والغزو باعتبارها غنيمة مشروعة، وايضا قبائل رعوية متنقلة يصعب معرفة لأي جهة تعود تبعيتها، وحتى جماعات منبوذة من السراق والمجرمين وما إلى ذلك، وهؤلاء مسئولين عن جرائم السرقة والقتل خاصة قوافل التجار فقد كانت فريسة سهلة ومغرية، ومع هذا فان التعامل مع هذه الحوادث يعتمد على مبدأ لمن تعود المقاطعة أولا وعلى ترتيب الهرم القضائي ثانيا، ففي رسائل العمارنة لدينا تلميحات حول هذا النظام القضائي الذي وثق على نطاق واسع أكثر مما ورد في نصوص اوغاريت[٩٨]، وهذا النظام تعززه وثائق رسمية اغلبها معاهدات ورسائل متبادلة بين الملوك الكبار كطرف أول والملوك المحلين ورؤساء العشائر كطرف ثاني، ومن الطبيعي هذه الوثائق كتبت باللغة البابلية وهي لغة مقبولة وشائعة في المحيط المتحضر من منطقة الشرق الأدنى القديم .

٤-الهدايا ضرورية لديمومة الصداقة بين الأخوة:

في إطار رسائل العمارنة الاهتمام ينصب وبشكل كبير على حل المنازعات بين الشركاء وكذلك من اجل الحصول على منافع اقتصادية رئيسية ومنها جدل حول

الهدايا المتبادلة[٩٩]، وأسلوب التعامل بها فهي تدخل ضمن الكرم لذا فان الهدية لا يسأل عنها، ويجب أن تمنح، ويجب أن تقبل وتزداد كمياتها وتقدر قيمتها لذا هناك إصرار في رسائل العمارنة على طلب الهدايا، واختراع الأعذار بالادعاء بإعمال ضخمة ! منها :

أ- **إنشاء قصر جديد:** ففي رسالة من آشور اوبالط ملك بلاد آشور إلى اخناتون (عمارنة ١٦) ورد فيها [(١٣-١٨) .... أنا مرتبط حاليا ببناء قصر جديد، أرسل لي ذهبا أكثر لأني احتاجه لتزين القصر)[١٠٠] .

ب- **وتشيد معبد** : ورد هذا في رسالة برنابرياش ملك بابل إلى امنوفس الرابع أو توت عنخ آمون (عمارنة ٩) جاء فيها [(٦-١٨) ... لماذا أرسلت لي (٢) منه من الذهب؟ أنني الآن مشغول جدا في بناء معبد، وأنا مشغول تماما في تنفيذه، ابعث لي ذهبا أكثر...)[١٠١]، وفي (عمارنة ٤) يؤكد الملك البابلي على ضرورة إرسال كميات كبيره من الذهب خلال أشهر الصيف خلال شهر تموز (Tammuz) أو آب (Abu) حتى ..[(٣٦-٥٠)....وبالتالي استطيع أن انهي العمل الذي بدأت به...)[١٠٢]، وكذلك في (عمارنة ٧) ورد فيها [(٦٣-٧٢) أنا حاليا منشغل بعمل مهم، وسبق وان كتبت لأخي عنه، أرسل لي ذهبا نقيا كثيرا حتى استخدمه في عملي.....)[١٠٣]، وأيضا (عمارنة ١١) جاء فيها [(٢٤-٣٤)....في نهاية هذا العام، أنا أتمنى أن انهي العمل وبسرعة....)][١٠٤].

ج- **وإقامة ضريح** : كما ورد في رسالة توشراتا ملك ميتاني إلى امنوفس الثالث (عمارنة ١٩) وفيها قوله [(٤٣-٤٨) هل بالإمكان أخي أن يرسل لي ذهبا أكثر مما كان يرسله إلى أبي ؟ أنا أقول لأخي : سأبدأ بتشييد ضريح[١٠٥] لأجل جدي،.....)][١٠٦]، وفي (عمارنة ٢٩) يؤكد على إنهاء الضريح [(١٦٢-١٦٥) هل بالإمكان أخي أن يعطيني تماثيل الذهب الصلبة ، وهل بمقدور أخي، أن يمنحني ذهبا أكثر، حتى انهي العمل بما بقي من الضريح،...)[١٠٧]، أحيانا أخرى يزعمون بان أي تأخير في إرسال الذهب قد

يؤخر مشاريعهم، ولهذا يؤكدون على وصولها في الموعد المحدد الذي يختارونه، كما في رسالة كدشمان – انليل الأول إلى الفرعون امنوفس الثالث (عمارنة ٤) أطلق عليها (الخداع الملكي والتهديدات) [(٣٦-٥٠).... لكن إذا لم ترسل الذهب خلال شهري تموز و آب، أنا لن استطيع أن انهي العمل الذي ارتبطت به، ومن ثم ما هي الفائدة من الذهب في هذه الحالة؟ارجوا أن تبعثه بسرعة !.....)][١٠٨]، اعتقد بان الملوك يبالغون في طلباتهم وبإصرار علما بان ما يرسله الفرعون هي هديه وليست جزية كما قد نتصور!.

وقد برع ملوك آسيا في تقديم الأعذار للفرعون سواء بإرسالهم هدايا قليلة القيمة أو تأخير إرسالها، وفي كل الأحوال تلك الأعذار لا تنطلي على الفرعون ! وهي زائفة، فرسائل العمارنة حافلة بهذه التبريرات فعلى سبيل المثال (عمارنة ٣٥) من ملك الاشيا إلى ملك مصر يذكر فيها وباء الطاعون الذي لم يترك عامل واحد لتعدين النحاس : [(١٠-١٥) أنا أرسل لك طيا (٥٠٠) طالنت من النحاس[١٠٩]، كهدية لأخي، أنا أرسلتها لك، أخي،لا تقلق لأن كمية النحاس قليلة، انظر، يد الإله نركال (Nergal)[١١٠] هي الآن في بلادي، وقد قتل جميع الرجال في بلادي وليس هناك عامل نحاس واحد، لذا أخي، لا تقلق.)][١١١]، كما ويعتقد ملك بابل بأنه يقدم عذرا دبلوماسيا في (عمارنة ٤) برفض الفرعون إعطاء ابنته كزوجه لملك بابل [(٦-٧) علاوة على ذلك، يا أخي، عندما كتبت لك بخصوص الزواج من ابنتك، وطبقا لعادتكم بان لا تعطي ابنتك للزواج، وقلت لي : " منذ قديم الزمان لم تعطى ابنة ملك مصر إلى أي شخص كان !، لم لا ؟ أنت ملك! ...)][١١٢]، وفي آخر الرسالة طالب كدشمان انليل الأول بكمية كبيرة من الذهب (٣٠٠٠) طالنت (تعادل (١٠٠) طن) فهل هذه الكميه من الذهب هي مهر لابنته أم ماذا ؟،بينما في (عمارنة ٧) ذكر برنابرياش الثاني ملك بابل إلى الفرعون (يعتقد امنوفس الرابع) سببا آخر بعيد عن ما ورد في الرسالة السابقة : بقوله [(٣٣-٣٩) كما ذكرت فان بلاد أخي فيها كل شيء، أخي لا يحتاج إلى شيء، نحن على أية حال ورثنا عن أسلافنا الملوك علاقات جيدة وطويلة المدى، ولذلك يجب أن نبعث بالتحيات بعضنا لبعض، تلك هي العلاقات

الأخوية التي ستدوم، أنا أرسل تحياتي لك، وأنت تبعث بتحياتك لي.)[١١٣]، هذه ليست أعذار دبلوماسية بقدر ما هي شروط مناسبة من وجهة نظر ملوك آسيا لتبادل السلع مع الفرعون .

في نهاية الرسائل المتبادلة بين أعضاء نادي القوى العظمى، نقرا تبادل الهدايا بينهم، ونلاحظ عدم الرضا بل والجدل حول الكميه والنوعية وخاصة شحنات الذهب المصرية أو الحاجات الذهبية فالذهب المصري مرغوب به من ملوك آسيا فقد وصف على لسان آشور اوبالط ملك آشور (الذهب في بلادك مثل التراب، وبسهوله جمعة من الأرض) (عمارنة ١٦: ١٣-١٨)[١١٤]، وفي رسالة (عمارنة ٢٠ : ٤٦-٥٥) نبه توشراتا الميتاني أخيه امنوفس الثالث بأنه: (في مصر الذهب أكثر من التراب)[١١٥]، أما عن الكميه و النوعية فقد أعرب كدشمان انليل الأول عن استغرابه في (عمارنه ٣ : ١٣-٢٢) بقولة (... عندما أرسلت رسولي إليك، أنت احتجزته لستة سنوات، وأرسلت لي هديه خلال ستة سنوات (٣٠) منه من الذهب فقط وهي تشبه الفضة ...)، وفي (عمارنة ٧ : ٦٣-٧٢) يؤكد برنابرياش الثاني برسالته إلى امنوفس الرابع (....ان شحنة الذهب الأخيرة التي بعثها أخي عليه أن يراقبها بنفسه، وان يختم الذهب ويرسله لي، وبالتأكيد أخي لم يفحص شحنة الذهب السابقة التي بعثها لي بل تكلف بذلك احد ضباطه الذي ختمها وأرسلها ، لأني عندما وضعت (٤٠) منه من الذهب التي أرسلتها لي في الفرن، لم يبق منها غير (١٠) منه، وأنا اقسم هذا ما بقي !)[١١٦]، كذلك أكد برنابرياش الثاني لأخيه امنوفس الرابع في (عمارنة ١٠: ١٩-٢٠) بان (... بالنسبة لرسولك الذي بعثته لي جلب معه (٢٠) منه من الذهب، وعندما وضع الذهب في الفرن لم يبقى منه غير (٥) منه من الذهب و [...] وظهر للعيان بعد تبريده وكأنه مثل الرماد ...)، وفي رسالة طويلة من توشراتا الميتاني إلى اخناتون أشار إلى رداءة نوعية الذهب في (عمارنة ٢٩: ٧٠-٧٥) (... أخي بعث لي تماثيل صنعت من الخشب، وعندما رأيت الذهب الذي أرسله امنوفس الثالث بنفسه كما وعد به، هذا الذهب لم يكن صلبا[...]، أصابني حزن شديد...)[١١٧]، كما أن الحاجات الذهبية المصرية المصنعة على شكل حلي التي يبعثها الفرعون، كانت تصهر في

قوالب ويتم وزنها عند وصولها إلى بابل أو واشكاني (عاصمة ميتاني)، ومن الجدير بالملاحظة فان الجدل حول كمية الذهب ونوعيته ليس بسبب القيمة المالية للذهب إنما زيادة كميته وتحسن نوعيته يعطي فخر وصيت وجاه يحصل عليه ملوك آسيا[١١٨].

لابد من تبادل الهدايا بين الملوك بل وزيادة كمياتها استمرارا للصداقة،كما في (عمارنة ٣٥ : ٥٠-٥٣) من ملك الاشيا (قبرص) إلى الفرعون، وقد ورد فيها [(٤٩-٥٣) أنت لم تضعني بنفس المستوى مع ملك حاتتي أو مع ملك شنعارا (بابل)[١١٩]، مهما كانت الهدية التي يرسلها أخي لي، أنا من جهتي ابعث هديه مضاعفة ..)] ، ونفس الشيء في (عمارنة ١٩) من توشراتا ملك ميتاني إلى امنوفس الثالث [(٦٨-٦٩) هل بالإمكان أخي، أن يبعث كميات كبيره من الذهب وهو خام، ومهما أخي يحتاج لمنزله، اكتب لي، أنا أعطيك ضعفه عشرة مرات أكثر مما طلبته، هذه البلاد هي بلاد أخي، وهذا المنزل هو منزل أخي ...)[١٢٠].

وهكذا نرى بان غالبية الجدل بين الملوك القوى العظمى ينحصر بين مصر من جهة وممالك آسيا من جهة أخرى كما ورد في أرشيف العمارنة، والأساس في هذا التقسيم يعود إلى موقع مصر مقابل الشركاء الآسيويين واحتكارها معدن الذهب الذي أعطى للفرعون أفضلية في المساومة، وهذا دفع إخوته الملوك باعتبار هداياهم مساوية لقيمة الذهب[١٢١]، وعلى أية حال هناك رسائل متبادلة في القرن الثالث عشر ق.م بين الإمبراطورية الآشورية وحاتتي[١٢٢]، و بابل وحاتتي[١٢٣]، وميتاني وبابل، ونجد في مراسلاتهم مواضيع أخرى أغلبها مشاكل حدودية وادعاء بأحقيتهم بهذه المنطقة أو تلك ... الخ، ولا تعتبر مصر محور المراسلات كما عهدنا في عصر العمارنة، لان الوضع قد تغير بعد موت اخناتون وهجرة سلفه توت عنخ آتون إلى طيبة، وتغير اسمه إلى توت عنخ آمون بعد أربعة سنوات من استلامه العرش، ومع هذا خلفائه حاولوا إعادة التوازن السياسي من جديد في المنطقة خاصة في عهد رعمسيس الثاني (القرن الثالث عشر ق.م)، لان مصر تملك قوه عسكريه وكثافة

بشريه وسيطرة اقتصادية وعمق تاريخي فالنظام الملكي قديم وتحكمه قواعد لوراثة العرش قل أن نجد صراع على السلطة إذا ما قارناها مع حاتتي مثلا[١٢٤].

٥- المصاهرة بين ملوك (نادي القوى العظمى):

أن الرفض المصري في منح شركائه الآسيويين منزلة متساوية واضحة جدا، وخاصة في تبادل النساء لغرض المصاهرة، لان النساء متوفرات في كل مكان ولا يدخل عامل الندرة في جعلهن حاجة نادرة مثل الذهب، كما أن الزيجات بين الملوك استمر حتى بعد عصر العمارنة، فقد حدثت مصاهرة بين ابنة اشوراوبالط وتدعى (موباليتات – شخيروا (Muballitat- Sherua) من احد أبناء برنابرياش الثاني ملك بابل وهي مصاهرة سياسية فاشلة، كما تزوج امنوفس الثالث من أميرة آشورية لا نملك اسمها لا باللغة الآشورية ولا المصرية كذلك لا نعرف اسم الملك الآشوري الذي تصاهر مع الفرعون، وتصاهر امنوفس الثالث من ابنة شوترنا (Shuttarna) ملك ميتاني وتدعى العروس (جيلو – خيبا) (Gilu-Khipa)، وسبق للفرعون امنوفس الثالث من عقد مصاهرة مع أخت كدشمان انليل الأول وقد ورد هذا في (عمارنة ١)، وتصاهر أيضا امنوفس الرابع من ابنة توشراتا (Tushratta) ملك ميتاني وتدعى العروس (تادو – خيبا) (Tadu-Khipa) ورد ذكرها في (عمارنة ١٧)، وما بعد عصر العمارنة جرت مراسلات بين حاتوسيلي الثالث ملك حاتتي ورعمسيس الثاني في السنة الثالثة والثلاثين من حكم الفرعون (١٢٤٦ ق.م)، وهناك نقش في معبد بوسمبل يصور الملك حاتوسيلي يجلب ابنته للزواج من رعمسيس الثاني[١٢٥]، وزواج حاتوسيلي الثالث من ابنة كودور – انليل (Kudur-Enlil) ملك بابل (١٢٥٤–١٢٤٦ ق.م) الذي عرف عنه تعاليه وقلة دبلوماسيته اتجاه مصر، ولا نعرف اسم الملكة لا باللغة البابلية ولا بالحثية، كذلك زواج تودحليا من ابنة ملك بابل ربما كدشمان – انليل الثاني لا نعرف اسمها ولكن دعيت باسم ملكة (SAL LUGAL) أو (الملكة العظيمة) (DUMU SAL LUGAL)، أيضا زواج الملك البابلي من ابنة حاتوسيلي الثالث (اسمها غير معروف)، هذه الزيجات جاءت بعد عصر العمارنة مما يدل على استمرارية المصاهرة بين الملوك، الملاحظ في كل ما ذكر أعلاه عدم زواج ملك آسيوي من أميرة مصرية لذا ليس هناك مساواة بين مصر من جهة وباقي

الشركاء! هذا الموقف أشير إليه في (عمارنة ٤) من كدشمان–انليل الأول إلى امنوفس الثالث ورد فيها [(٤–٢٢) .... هل هذا محتمل بعد أن كتبت إليك اطلب الزواج من ابنتك، أخي، لماذا تكتب لي بهذه اللغة ؟ تخبرني بأنك لن تعطيها لي كزوجه وتقول: منذ قديم الزمان لم تعطى بنت ملك مصر للزواج لأي شخص !، ولم لا ؟ ...) [(١٢٦)]، هذا الموقف ربما له دلالات معينه، على الأكثر وراثة العرش في مصر أخذت أسس راسخة، حيث يرث الابن أباه ولأجل اكتساب الشرعية الكاملة لابد للفرعون من الزواج بأخته حتى يحافظ على نقاوة الدم الملكي، لذا من الأفضل القول أن شرعية السلطة تنحصر بالأميرات من البيت الملكي المصري، ومن هنا يخشى الفراعنة من ظهور مدعين بالعرش أمهاتهم مصريات وآبائهم ملوك أجانب، وقد عرف الحثيين هذه اللعبة السياسية، عندما كانوا يجبرون حكام الأقاليم التابعة لهم بعقد اتفاقيات معهم ثم تختم الاتفاقية بزواج الملك التابع من ابنة الملك أو أخته لضمان تولي أبناء الأميرة الحثية العرش،على كل الرفض المصري أثار استغراب الملك البابلي عندما قال (... أنت ملك، أنت تفعل ما تريد، إذا تريد أن تعطي ابنتك من يقول لا!...) (عمارنة ٤ : ٤–٢٢)، اعتقد رد الفرعون يحمل في طياته سخرية بعدم الموافقة على أعطاء آخته كزوجه لملك بابل بل يتمادى أكثر في وصف شريكه البابلي بأنه يبيع بناته بالمال (عمارنة ١ :٦١) (... وهذا شيء رائع انك تعطي بناتك لجيرانك الملوك من اجل أن تحصل على كتلة من الذهب !)[(١٢٧)]، هذا الرد الحاد هو جواب على رسالة سبق لكدشمان انليل الأول بعثها إلى امنوفس الثالث وفيها طلب المصاهرة من ابنة الفرعون (عمارنة ٢) جاء فيها [(٦–١١) فيما يتعلق برسالة أخي حول الزواج تقول : "أنا ارغب بالزواج من ابنتك"[(١٢٨)]، ولم لا تتزوج بابنتي ؟ [....] لديه بنات، لكن أزواجهن يجب أن يكونوا ملوكا أو من دم ملكي، هذا هو شرطي الوحيد الذي أنا أقبلة لبناتي لا أعطي أبنتي لأي شخص ليس من الدم الملكي، (١٢–١٣) وأنت لديك بنات، لماذا لا تعطيني واحدة للزواج؟..)][(١٢٩)]، ومع رفض الفرعون إعطاء إحدى بناته كزوجه لكدشمان انليل نجد الملك البابلي يقدم اقتراح غريب للفرعون (عمارنة ٤) [(٤–٢٢) ..... أنا أقول إلى أخي ما يلي: " بنات شخص ما

كبرن وأصبحن جميلات، أرسل لي امرأة جميلة وكأنها ابنتك، من الذي سيقول أنها ليست ابنة الملك ؟، لكن أنت تمسكت بقرارك ولم ترسل لي واحدة، أليس أنت من ينشد الأخوة والصداقة وكتبت لي حول الزواج الذي يجعلنا قريبين من بعضنا البعض، وأنا لم ارفض...)][(١٣٠)]، هذا الإصرار بالرفض من لدن الفرعون نراه حتى بعد عصر العمارنة، ففي رسالة من رعمسيس الثاني إلى الملكة بودوخيبا (Pudu-Hepa) زوجة حاتوسيلي الثالث، يستفسر عن سبب التأخير في إرسال العروس إلى مصر، وفي نفس الوقت لم تدخل الفرحة في قلب رعمسيس بسبب القلق من ذكر ملك بابل بلقب (الملك العظيم)، ومعرفته بالمصاهرة بين تودحليا الرابع وابنة كودور انليل ملك بابل الذي لا يحمل حبنا للفرعون، فكان رد بودوخيبا سريعا حيث بعثت برسالة إلى رعمسيس، قالت (إذا أنت تقول:" ملك بابل ليس بالملك العظيم، أذن أنت لا تعرف منزلة بابل)[(١٣١)]، وهكذا زواج الحاكم يضع في خانة القيم السياسية والاجتماعية[(١٣٢)].

وهكذا حركة انتقال الأميرات للمصاهرة من آسيا إلى مصر مستمرة، عكس انتقال الأميرات من مصر إلى آسيا متوقفة (منذ قديم الزمان) كما عبر عنه الفرعون، لان رغبة ملوك آسيا إرسال بناتهم إلى الفراعنة ليصبحن (الزوجة الأولى) كما هو معروف في بلاطات آسيا، لكن ما يحدث فان الأميرات الآسيويات في البلاط المصري يصبحن من ضمن حريم الفرعوني ويختلطن بالزوجات والمحضيات كأفراد من العائلة الملكية وهذا يفسر المناقشة التي نقرئها في (عمارنة ١ : ١٠–٥٢) حول مصير أخت كدشمان انليل الأول والتي سبق وان تزوجت من امنوفس الثالث، فقد استفسر الملك البابلي حول مصير أخته هل ما زالت على قيد الحياة أم ماتت؟ وما هي منزلتها في القصر الفرعوني؟ وكان رد الفرعون بان المشكلة ليست في وجود أو عدم وجود الأميرة البابلية، إنما المشكلة في الرسل الذين بعثهم ملك بابل ! فهم دون المستوى المطلوب، لا يعرفون الأميرة شخصيا وليس لديهم خبرة دبلوماسية بمعنى (نكرة، وكذابين..)[(١٣٣)]، هناك مشكلة أخرى برزت بين الملك البابلي والمصري وردت في (عمارنة١) وهي رسالة جواب من امنوفس الثالث إلى كدشمان انليل الأول الذي احتج على خلط العربات البابلية المحملة بالهدايا مع عربات حكام المقاطعات التابعة

للفرعون [(٨٩-٩٨)... وكما ذكرت لي : " هو وضع عرباتي بين عربات حكام المقاطعات، أنت لم تفصلهم في الاستعراض العسكري، وبذلك قللت من شأنها أمام بلدك وشعبك، أنت لم تستعرضهم منفصلين "، سواء العربات كانت هنا أو هناك فالعربات تحتاج إلى خيول من بلادي، وكل العربات في الاستعراض تجرها خيولي ...][١٣٤]، هل يعتقد الملك البابلي بان المشكلة تكمن في الجمهور وأجهزة الأعلام! وان هناك من ينظر وينتقد شكل وحجم وعدد العربات البابلية!، وحتى وضع الأميرات داخل القصر واختفاء أخبارهن عن ذويهن الملوك! وكذلك الاختلاف الواضح في تبادل الهدايا ! كلها تدل على أن الفرعون يشعر بأنه أعلى منزلة ومن ثم لا يعتبر نفسه في رتبه متساوية مع ملوك آسيا .

٦- ملوك متشابهون في تصرفاتهم:

استخدم ملوك نادي القوى العظمى في مراسلاتهم تعبير (أخي) وقد يكون هذا التعبير مقبول لدى ملوك آسيا، لكنه يحتاج إلى تنازل من ملك مصر ويعدل مركزه الإلهي الديني الذي لا يتناسب إلا مع الذهن المصري القديم،وذلك بظهوره بمظهر ادمي اعتيادي في مزاج ملوك آسيا فاعتبروه (أخا)، ولذا أصبح مركز الفرعون مخالفا تماما لمركزه القديم السالف المتميز بالعكوف عن الرعية[١٣٥]، ولهذا استخدم الفرعون كتبه باللغة البابلية ومستشارين يجيدون معرفة تقاليد وديانات شعوب آسيا، فتبادلوا الرسائل وفق أسس اتفقوا عليها ضمنيا ولم يشركوا حكام المقاطعات التابعة بنفس الصيغة إنما وضعوا لهم قواعد للتعامل بينهم وبين التابعين.

(جدول حكم ملوك القوى العظمى في ممالك الشرق الأدنى القديم في النصف الثاني من الإلف الثانية قبل الميلاد ق.م)[١٣٦].

تاريخ	ميتاني	بابل	أشـــور	حاتيتي	مصر
١٥٠٠	باراتارنا الأول				امنحوتب الأول
١٤٥٠					تحوتمس الثالث
١٤٠٠	ارتاتاما الأول				امنوفس الثالث
		كدشمان انليل الأول			
١٣٥٠	توشراتا		اشور اوبلط الأول		اخناتون
		برنابرياش الثاني			
	متي / وازا			سوبيلوليوما الأول	توت-عنخ-آمون
		كوريكالزو الثاني			الفرعون(أي)
١٣٠٠				مورسيلي الثاني	
			ادد- نيراري الأول		حور محب
				مووتالي الثاني	
	عيلام	كدشمان- انليل الثاني	شلمانصر الأول		رعمسيس الثاني
١٢٥٠	اونتاش - نومينا			حاتوسيلي الثالث	
		كاشتلياش الرابع	توكلتي ننورت الثاني	تودحليا الرابع	
١٢٠٠				سوبيلوليوما الثاني	مرنبتاح
	شوتراك- ناخونته				
١١٥٠	كوتير- ناخونته				رعمسيس الثالث
	شالمك- انشوشناك				
			اشور-ريشو- اشخي		
		نبوخذ نصر الأول			
١١٠٠			تجلاتبليزر الاول		
١١٥٠					

فضلا عن اشتراك الملوك في خاصية بناء عواصم جديدة لهم،على ما يبدوا أنها بشكل أو بآخر تشبه القلاع المايسينية (Mycenaean)[١٣٧] المنتشرة على الساحل الإيجي وفي سوريا وفلسطين ولها ما يشابهها في حاتوشا، حيث شيدت القصور والمعابد بشكل محصن وعلى ربوة عالية تحيط بهم الأسوار المنيعة، وكأن رغبة الطبقة الحاكمة بفصل أنفسهم عن بقية السكان، بهذه الخاصيات اخذ ملوك العمارنة ومن بعدهم في تشيد مدنهم الجديدة،ففي عيلام شيدت عاصمة للملك اونتاش نومينا (Untash Napirisha)(١٢٢٠-١٢٠١ ق.م) ولا يزال مكانها غير معروف وقد يكون في مقاطعة انشان[١٣٨]، وفي بلاد الرافدين أقيمت العاصمة دور كوريكلزو (Dur- kurigalzu) (عقرقوف الحالية) (١٣٩٠ق.م)[١٣٩] (معنى الاسم مدينة كوريكلزو) وتقع على بعد (٢٠) ميلا غرب مركز بغداد ، ويبدو أن هذه المدينة الجديدة أضحت العاصمة المفضلة الثانية ربما لتحل محل بابل العريقة[١٤٠]، وقد باشر بإنشائها الملك كوريكلزو الأول وأتممها من جاء من بعده من الملوك الكشيين ، وفي الإمبراطورية الآشورية شيد توكلتي ننورتا الأول عاصمته كار – توكلتي– ننورتا (Kar- Tukulti- Ninurta) (تقع على ضفة نهر دجلة تقابل مدينة آشور) (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) وغطت مساحة (٢٤٠) هكتار وقد أحيطت بأسوار لازالت آثارها شاخصة،كما شيد فيها معبد للإله آشور، وقصران كبيران وقد دلت الوثائق بان المرحلين من سوريا كانوا عمالا ساهموا في تشيد المدينة،لكن حياتها كانت قصيرة، واحتلت فيما بعد مرتبه ثانوية بعد مدينة آشور القديمة[١٤١]، و في مصر أقام امنوفس الرابع (اخناتون) عاصمته (اخيتاتون) (Akhetaten) (العمارنة حاليا)(في الأقصر حاليا(١٩٠) ميلا جنوب القاهرة) والتي ازدهرت في الاعوام (١٣٨٠-١٣٤٠ ق.م) ،كما وأقام الفرعون رعمسيس الثاني عاصمته بررعمسيس (Per- Ramesse)(معنى الاسم بيت رعمسيس) في محافظة الشرقية (٦٠) ميل شمال شرق القاهرة، وبذلك نقل عاصمته من صعيد مصر جنوب إلى الدلتا شمالا محتمل هروبا من سيطرة كهنة آمون في طيبة(Thebes)، ويكون قريبا من سواحل المتوسط وسوريا – فلسطين مركز صراع القوى الكبرى آنذاك، هذه المدن لم تكن قد شيدت لعامة الناس لكن

لسكنى الملك وأبنائه وعلية القوم، وكانت غالبية الأبنية هي (قصور ومعابد) وكانت شامخة عملاقه في المساحة والتزين،وتدل على حصول الملوك على ثروات من مصادر متوفرة منها الحروب و التجارة، وربما أيضا تشير تلك العواصم الجديدة على وجود صراع على السلطة بين الملك والنبلاء وحتى داخل أسرته،ولهذا المدن الجديدة تهدف إلى حماية الملوك وعروشهم بالدرجة الأولى ! .

على أية حال في المدن الجديدة نلاحظ القصور والمعابد جميعها مزينه ومزخرفه برسوم ومنحوتات وعلى نطاق واسع، وهذا يفسر كثرة طلبات الملوك من معدن الذهب في رسائل العمارنة وقد استشهدنا برسالة ملك بابل عند افتتاحه قصره، الذي أثار إعجاب رسل مصر والزوار من البلدان الأخرى على جماله وفخامته (عمارنة ٣)، ومن الطبيعي ضمت هذه القصور ثقافات متعددة من حيث الزخارف والتماثيل و الألبسة أنواع العطور والأطعمة والعقاقير الطبية، والأثاث، والتجهيزات المنزلية .... الخ فقد كان ملوك آنذاك يتبادلون فيما بينهم الخبرات من حيث النحاتين والحرفين والأطباء والمعزين[١٤٢]والكتبة[١٤٣] والحاجات المصنعة وكان للكتبة دور مهم في ترجمة الأساطير وإنشاء القواميس اللغوية وتحرير الرسائل والرد عليها لذا لديهم إلمام تاريخي ولغوي ومعرفة جغرافية ودينيه وبذلك كانوا وبحق طبقة مثقفة أكثر ثقافة ممن يحكم في قصور الملوك العظام، لكن هذه المدن الجديدة انتهت بانتهاء من شيدها! فقد هجرت العمارنة بعد وفاة اخناتون، فبعد اعتلاء توت عنخ آمون العرش هجر العمارنة وعاد إلى طيبة العاصمة الدينية وذلك في السنة الرابعة من توليه الحكم[١٤٤]، وأوضحت التنقيبات الأثرية بان العمارنة احتوت على معبد للإله آتون وقد تميز بساحات مكشوفة واسعة، فضلا عن قصر فخم للملك اخناتون، ومركز للمدينة يحتل وسطها،وعموما الآثار تدل على فخامة المدينة .

كان مقتل توكلتي ننورتا الاول فاجعة كبيرة لآشور فقد حقق الملك الشاب سمعة قوية وتوسع هائل في مساحة الدولة الآشورية طيلة فترة حكمه وحقق انتصارات على الحثيين، وضم ما بقي من مملكة خانيكلبات وأوصل قواته قريبا من كركميش على ضفاف نهر الفرات، لكنه أخطا في احتلال بابل وأهانه شعبها وألهتها

فقد نسي بان بابل ليست ارض برابرة ! يمكن غزوها بسهولة ومتى ما شاء !، فهي بلد عريق و سكانها متحضرين أكثر بكثير من سكان المناطق الجبلية شمال طوروس والتي كان يصول فيها بجيشه[١٤٥] أدى احتلال بابل إلى كسب حقد العناصر المؤيدة للثقافة البابلية في البلاط الآشوري ومن ثم دفع ثمن ذلك حياته، ففي النص البابلي يذكر مقتل ملك آشور: (أما توكلتي ننورتا الذي جلب السوء لبابل فقد ثار عليه آشور – ناصر – ابلي (Aşşur- Naşr- apli) ومعه النبلاء الآشوريون وخلعوه عن العرش، وفي كار – توكلتي ننورتا حاصروه في قصره وذبحوه بسيفه ...)[١٤٦]، لم يكن مقتل الملك الآشوري وليد تمرد فجائي فقد حدث توتر بين المواطنين والحكومة وخاصة تمتع المدن القديمة (منها مدينة آشور) بالإعفاء من بعض أشكال الضرائب فضلا عن الحقوق المتوارثة على الأرض، وقد سعى الملك توكلتي ننورتا من تخفيف الامتيازات الضرائبية للمواطنين لتنفيذ مشاريعه العمرانية وهذا بحد ذاته ولد الاحتكاك وبالتالي مقتل الملك الآشوري الذي لم يتمتع بعاصمته غير الفترة المحصورة ما بين حملته على بابل وحتى نهاية حكمه[١٤٧].

ولا تختلف مدينة دور كوريكلزو في بلاد الرافدين عن مصير أخواتها السابقات، فقد كشفت التنقيبات عن أجزاء من قصورها الفخمة ومعابدها الواسعة، وبرج المدينة (الزقورة) الذي شيده كوريكلزو الثاني وما زالت بعض أجزائها قائمة في موقع عقرقوف، ومع سقوط السلالة الكشية عام(١١٦٨ ق.م) على يد شوتراك– ناخونته ملك عيلام (١٢٠٧–١١٧١ ق.م)[١٤٨] كانت ضربة قاضية أركعت السلالة الكاشية وأنهت وجودها إلى الأبد، ثم هجرت المدينة لتعود بابل إلى سابق مجدها[١٤٩]، ولم يكن نصيب المدن الأخرى مثل بررعمسيس في مصر، وعاصمة الملك اونتاش نومينا في عيلام بأفضل حال فقد هجرت هذه المدن بعد وفاة الملوك المؤسسين لهما . والتشابه هنا ليس فقط في تشيد المدن إنما حتى في أفكارهم فهي الأخرى ماتت، ومنها الانقلاب الديني الذي شرعه اخناتون في التوحيد الوثني انتهى بعد وفاته، لأنه عجز في تقريب أفكاره إلى عامة الشعب فحارب الكهنة ومعهم الإله آمون وخرب معابده العريقة،ونحن نعرف بان الإله آمون لديه شعبية كبيرة عند قدماء المصريين،

بل الكراهية للملك وصلت حتى داخل أسرته فقد هجرته زوجته نفرتيتي عائدة الى مدينة طيبة المقدسة مما يدل على أن حياته الأسرية كانت فاشلة، وقد استخدم سلطته كحاكم مطلق يملك القوة في فرض أفكاره على الشعب الذي انحاز إلى صف كهنة آمون كل هذا دفعة إلى الانعزال في عاصمته العمارنة وبالتالي هجرة المدينة بعد موته، كذلك الكشيين على الرغم من محاولاتهم التقرب إلى شعب بابل إلا أن البابليين كانوا ينظرون إليهم بعين الشك وعدم الثقة ولهذا شيد ملوك كاشي عاصمتهم دوركوريكلزو ابتعادا عن بابل والغريب بعد سقوطهم لم يتركوا اثر ثقافي في بابل فلا نعرف عن لغتهم(لحد الآن توصلنا إلى (٢٠٠) مفردة لغوية كيشية) أو ثقافتهم أو ألهتهم التي احتلت المرتبة الثانية بعد آلهة بابل، وما عرفناه هي أشياء بسيطة مما يدل على تأثرهم بالثقافة البابلية[١٥٠] مع العلم أن أسماء آخر ستة ملوك كاشيين حكموا بابل كانت أسماء بابلية ' كما أن رغبة ملوك آشور بالتوسع وخوض المعارك جعلتهم يفرضون ضرائب على المواطنين مما أدى إلى الاحتكاك بين الملك ومواطنيه فكان مقتل توكلتي ننورتا بداية لعصر مظلم في تاريخ آشور، وقد استمر حتى عهد تجلاتبليزر الأول (١١٥–١٠٧٧ق.م) حيث حصلت آشور على بعض الانتعاش في أحوال البلاد الآشورية[١٥١]، وعلى عكس ذلك وقعت ميتاني فريسة أطماع آشور من جهة وحاتتي من جهة أخرى فكان زوالها محتوما بعد مقتل ملكها توشراتا وتقاسم المملكة بين ولدية وبتأيد جيرانها الأقوياء[١٥٢]. أما حاتتي فان حملاتها العسكرية أدت إلى إضعاف الممالك الصغيرة التي كانت تعمل كحاجز أمام القوى المهاجرة من غرب الأناضول، مما أدى إلى سقوط عاصمتها حاتوشا على يد شعوب البحر (١٢٠٠ ق.م) وأصبحت نسيا منسيا[١٥٣].

الاستنتاجات:

من الواضح بان رسائل العمارنة كانت نتاج مجموعة دولية تقودها حكومات مستقلة تبادلت اتصالات وفق معايير دقيقة نظمت أسس التفاعل فيما بينهم، فقد تم استعارة تعابير تستخدم في (العائلة) و (الحي) و (الأقارب) وهي تناسب الطبيعة البشرية في العلاقات العامة، وأيضا هناك مزيج بين الصداقة والتنافس وحتى الاتفاق بين الأطراف على استمرار تبادل الرسائل فيما بينهم، كما وأن المساومة كانت ماثلة بين أعضاء نادي القوى العظمى فقد سعوا إلى السلام وتجنب الحروب ، وتبادل الهدايا وأفضل ما لاحظناه أن الهدايا تدرج في آخر الرسائل مع ذكر أوصافها ووزنها وكمياتها وعموما هدايا الملوك متساوية من حيث القيمة مع الذهب أو هكذا أراد ملوك آسيا !، كما أن المصاهرة لها دور مهم ولو إنها لم تكن بمنزلة متساوية بين الملوك فقد شذ فراعنة مصر عن القاعدة بعدم منح بناتهم أو أخواتهم كزوجات لملوك آسيا، وهذا له عدة تبريرات أملته التقاليد والعادات في مصر القديمة، كما أن فرض السيطرة على الممالك الصغيرة أمر ضروري فقد نظمت أسلوب التعامل مع تلك الدويلات في سوريا وفلسطين وكيفية تبادل الرسائل مع حكامها المحليين، ولوحظ بان ملوك القوى العظمى كانوا متشابهين في تصرفاتهم وخاصة بناء المدن التي أصبحت تضم ثقافات متعددة بسبب الاتصالات وتبادل الخبرات فيما بينهم . أن نادي القوى العظمى سيطر على الشرق الأدنى القديم خلال الفترة القرنين الرابع والثالث عشر ق.م حيث وصلت الدبلوماسية بينهم إلى أرقى مستوى لها، ونظمت طرق تبادل المبعوثين والسفراء قبل مؤتمر فينا (١٨١٥م) بثلاثة آلاف عام، ولهذا أطلق عليه عصر العمارنة .

الهوامش:

(١) أطلق عليهم في النصوص المصرية القديمة تسمية (خيتا) (Kheta) أو (خت) (Ht)، وفي النصوص الرافدية (خاتي) (Hati) وفي التوراة (حث) (Heth) لكنهم يفضلون تسمية حاتتي وعاصمتهم حاتوشا (بوغازكوي حاليا) في بلاد الأناضول (تركيا الحالية) وسوف استخدم تسمية حاتتي أكثر من التسميات الأخرى: صلاح رشيد الصالحي / المملكة الحثية/ بغداد/ ٢٠٠٧/ ص٥٧-٥٨.

(٢) تعرف أيضا اسم خانيكلبات (Hangalbat) او نهراين (Nahrin) أو نهرايم أو نهارينا وبالاكدية (نهر) وعاصمتها واشوكاني (Washukanni) و مكانها ما زال مجهولا .

(٣) تحدثنا نصوص سرجون الاكدي عن نشاطه العسكري في مناطق الشرقية والشمالية الشرقية للعراق حيث ضم بلاد عيلام مع ذكر قائمة بأسماء الحكام التابعين له : طه باقر/ مقدمة في تاريخ الحضارات / الجزء الأول / بغداد/ ١٩٧٣/ ص٣٦٤.

(٤) حملات الملوك الحثيين ضد ارزاوا بدأت منذ فترة مبكرة تعود إلى عهد حاتوسيلي الأول (١٦٢٠ ق.م) فقد ورد في النص (في السنة التالية،أنا زحفت ضد ارزاوا واستوليت على الماشية والأغنام) وحملات أخرى من جاء بعده من الملوك الأقوياء :
Bryce, T.R: " The Kingdom of Hittites " Oxford (1999) . p.79.

(٥) رسائل ملك ارزاوا هي (عمارنة ٣١-٣٢) وقد كتبت باللغة الحثية بدلا من البابلية، ومضمونها رغبة امنوفس الثالث بالمصاهرة من ابنة تارخونداردو ملك ارزاوا،ويظهر لدية سيطرة على طرق التجارة الرابطة بين آسيا وأوربا بحكم موقعة الاستراتيجي، كما ولدية سيطرة على مناجم القصدير وهي بضاعة مطلوبة من ملوك آسيا كافة .

(٦) اشتكى الفرعون اخناتون إلى ملك الاشيا حول الغزوات التي يقوم بها شعب لوككا(وهم الليسين جنوب غرب الأناضول) على السواحل المصرية وبتحريض ومساعدة شعب الاشيا،لكن ملك الاشيا أنكر مسؤوليته مؤكدا بان بلادة تعاني أيضا من غزوات القراصنة وأنهم في كل عام يستولون على مدنه في الجزيرة: سليم حسن/ مصر القديمة /الجزء الخامس/ القاهرة/ ١٩٤٨/ ص٢٥٣-٢٥٨.

(٧) حول القضايا القانونية يمكن مراجعة حالة اجتماعية شارك فيها يني- تيشوب نائب الملك في كركميش في حلها بين مملكة اوغاريت ومملكة امورو : صلاح رشيد الصالحي / الخيانة الزوجية في الشرق الأدنى القديم/ مجلة كلية التربية بنات /جامعة بغداد/ ٢٠٠٩/ تحت الطبع.

(٨) تقع كركميش (جرابلس) على نهر الفرات وهي ومعها مدينة حلب تحت إدارة ملوك هم نواب عن الملك الحثي وهؤلاء من اصول حثية وتحديدا أبناء عم ملك حاتتي، ولهذا كان الآشوريين يطلقون على مدن سوريا (خاتي) حتى عد سقوط المملكة الحثيه ولفترة طويلة: صلاح رشيد الصالحي/المملكة الحثية ... / ص١٢١-١٢٢.

(٩) نيكولاس بوستغيت / حضارة العراق واثارة – تاريخ مصور / ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي / بغداد/ ١٩٩١/ ص ٩٥.

(١٠) عمر الاسكندري و أ.ج. سفدج / تاريخ مصر / القاهرة ١٩٩٦/ ص٤٨.

(١١) حول الحفريات السرية ما بين (١٨٨٦- ١٨٨٧) والألواح المكتشفة في تلك الفترة والتي تم نشرها :

Anson, R.F: " El-Amarna Tablets " AOAT 8: Neukirchen , Vluyn. Neukirchener Verlag (1970) . Pp. 359- 379.

(١٢) يعتقد ما فقد أو دمر من الألواح يتراوح ما بين (١٥٠-٢٠٠) لوح طيني لكن لا دليل على هذا العدد الكبير لذا هناك شك فيما ذكره الباحثان (Sayce) و (Barton) :

Barton, G.A: " Ancient Babylonian Expressions of the Religious spirit " JAOS 37. (1917) Pp. 23-42.

(١٣) حول دراسة رسائل العمارنة من حيث الاكتشاف ونشر الألواح : صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية في عصر العمارنة/ مجلة كلية التربية/ جامعة تكريت/ ٢٠٠٩/ تحت الطبع.

(١٤) نفس المصدر /ص٢.

(15) Kűhne, C.: " Die Chronologie der internationalen Korrespondez von El-Amarna " AOAT 17 : (1973) . P.50 no.252

(١٦) تعتبر طيبة (Thebes) العاصمة الدينية لمصر فهي مقر الإله آمون، بينما ممفس (Memphis) في الدلتا عاصمة الشمال، أما حاتوشا (Hattusha) بوغاز كوي (Boghazköi) حاليا فهي عاصمة المملكة الحثية في بلاد الأناضول (تركيا الحالية)، بينما مملكة ميتاني عاصمتها واشوكاني (Washukanni)، هذا إضافة إلى آشور عاصمة المملكة الآشورية، وبابل عاصمة المملكة الكشية، وقد شيد الملك كوريكلزو (Kurigalzu) عاصمة جديدة أطلق عليها دور كوريكلزو (عكركوف حاليا).

(17) Bezold, C. ;" Oriental Diplomacy " London . Luzac and Co., (1893).

(١٨) كلمة (Zeit) تعني بالحثية فترة أو عصر والمقصود في العبارة (عصر العمارنة)، ويمكن مراجعة التقرير الأولي للتنقيبات الأثرية في بوغازكوي :

Winckler, H:" Vorläufige Nachrichten über die Ausgrabungen in Boghaz-köi im Sommer 1907 . 1. Die Tontafelunde " Mitteilungen der Deutschen Orientgesellschaft 35 (1907) ; Pp.1-59.

(19)Nougayrol, J.: " Le Palais Royal d , Ugarit IV- Textes Accadiens des Archives Sud archives internationals " Paris ; Imprimerie nationale (1956).

(20) Wiseman, D.J.:" The Alalakh Tablets " London British Institute o Archaeology at Ankara (1953).

(21) Cohen, R and Westbrook, R. : " Amarna Diplomacy " Baltimore (2002) . Pp.13-15

(٢٢) عند مراجعة الرسائل المتبادلة ين ملوك آشور والمملكة الحثية نرى أسلوب رسائل العمارنة ما زالت مستخدما في المراسلات ولغاية القرن الثالث عشر ق.م : صلاح رشيد الصالحي / العلاقات الآشورية – الحثية في القرن الثالث عشر ق.م / بيت الحكمة / بغداد/ ٢٠٠٩ // تحت الطبع.

(٢٣) حول الصراع بين ماري والملك حمورابي :أنطوان مورتكات/ تاريخ الشرق الأدنى القديم / ترجمة توفيق سليمان/ دمشق / ١٩٦٧/ ص١٣٣-١٣٥

وبخصوص العلاقات الدبلوماسية في غرب آسيا خلال الألف ألثانيه قبل الميلاد :

Munn-Rankin, J.M ;" Diplomacy in Western Asia in yhe Early Second Millennium B.C.E." Iraq18 . (1956) Pp. 68-110 // Zaccagnini, C. : " ON Gift- Exchange in the Old Babylonian Period " In studi Orientalistici in ricordo di Franco Pintore ed .O. Carruba, M. Liverani and C. Zaccagnini .Pavia :GJES, (1983) Pp. 189-253.

(٢٤) تقع ابيلا على نهر العاصي في غرب سوريا ويعود ارشيفها زمنيا إلى (٢٣٥٠ ق.م) فقد كتبوا بالخط المسماري وبلغة السامية الغربية و أيضا تحدثوا باللغة البابلية وهذا طبيعي لان الاموريين (Amorite) انتشروا من غرب سوريا والى جنوب بابل تحدثوا بالسامية الغربية والتي لها قرابة كبيرة بلهجة البابلية الاكدية، وبقيت هذه اللغة مسيطرة حتى الألف الأول عندما سيطرة الارامية (Aramaic) وكتابتها الالفباء (alphabetic) التي دونت بها النصوص التاريخية :

Alfonso, A : " Transmission of the Mesopotamian Lexical and Literary Texts from Ebla " in P. Fronzaroli, ed., Literature and

Literary Language at Ebla (Quaderni di Semitistica 18 ; Florence ; Dipartimento di Linguistica, (1992) p. 23.

(25) Korošec, V.: " International Relations according to Cuneiform Reports from the Tell el-Amarna and Hittite State Archives " Ljubljana Zbornik Znanstvenih Razprav (Ljubljana) 23 (1950) Pp.390-397.

(٢٦) هذه العبارة ذكرت في المؤتمر العالمي الرابع حول المنطقة الايجية لما قبل التاريخ في جامعة شفيلد (Sheffield) بانكلترا في نيسان (١٩٧٧) .

(27) Burney , C.:" Urartian Fortresses and Town in the Van Region " (Journal of the British Institute of Archaeology at Ankara) : Vol: 7: Ankara, (1957) Pp. 37-53.

(٢٨) تماما مثل النخبة الأوربية في القرن الرابع عشر الميلادي تحدثت باللغة الفرنسية على اعتبار بأنها لغة الثقافة والحضارة .

(٢٩) تدخل رسائل ربي- حدد (Rib- Hadda) ملك بيبلوس كمثال لما ذكر أعلاه فقد كتب (١٧) رسالة للفرعون اخناتون منها تسعة رسائل مباشرة(عمارنة ٦٨- ٩٥) وأجابه الفرعون بتسعة رسائل أيضا ، كما كتب عبدي - عشيرتو (Abdi- Aširtu) ملك امورو ثلاث رسائل (عمارنة ٦٠-٦٢)،كذلك نائب الملك المصري كتب رسائل كثيرة عن ربي- حدد وشكواه المستمرة من تطلعات عبدي-عشيرتو التوسعية وبتحريض من حانتي : صلاح رشيد الصالحي/ الدبلوماسية البابلية ... / تحت الطبع.

(30) Moran, W. L.: "The Amarna Letters " Baltimore (1992) p.8.

(٣١) أول ذكر لقبائل الاخلامو ود في نصوص شلمانصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) فقد ذكر بأنهم يستوطنون عند حوافي جبال طوروس والى شمال سوريا وفي النص أشار إلى الاراميين أيضا والجيش الحثي وقد دحرهم شلمانصر وذبحهم كالخراف (الجيش الحثي وحلفائه الاخلامو (الاراميين)، أنا ذبحتهم مثل الخراف ...) :صلاح رشيد الصالحي/ الدبلوماسية الآشورية في عصر العمارنة/ مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد/ العدد ٨٧/ ٢٠٠٨/ ص٣٦٩- ٤٠٤

Luckenbill. D.D:" Ancient Records of Assyria and Babylonia "Vol: I Chicago (1926).: p.40.

(32) Leo Oppenheim, A : " Letters from Mesopotamia " Chicago (1967).Pp.129-146.

(٣٣) من الصب تحديد موقع توتول لكن يعتقد أنها قريبة من نهر الفرات في سوريا الحالية ما بين ماري وايمار وهي منطقة كانت تقع على طرق المواصلات الرابطة بين بلاد الرافدين من جهة وممالك سوريا والبحر المتوسط من جهة أخرى .

(34) Backman, G : " Hittite Diplomatic Texts " Second Edition ; Atlanta : Vol 7: 1999 . p. 140.

(35) Tadmor , H.: " The Decline of Empires in Western Asia ca. 1200 B.C.E. " ASOR (1979): p.3.

(36) Liverani , M : " The Great Powers Club " Amarna Diplomacy . Baltimore (2002) Pp. 15-27.

(37) Mieroop, M.Van.De : " A History of the Ancient Near East " Second Edition . Oxford (2007) Pp.129-148.

(38) Artzi, P. and Malamat, A: " The Great King " CDL Press (1993) . Pp. 23-38.

(٣٩) فحوى المراسلات بين الملكة الحثيه والفرعون رعمسيس الثاني تخص زواجه من ابنة الملكة وضرورة السرعة في إجراءات الزواج وإرسال العروس إلى مصر برفقة أبيها هذه الأحداث نضعها بعد معركة قادش (١٢٧٤ ق.م) بمدة خمسة عشر عاما .

(40) Liverani, M.: " Prestige and Inyerest : International Relations in the Near East , circa 1600-1100 B.C.E. Padova : Sargon, (1990) .p.21 , 197-202 , 211-217 //Cohen , R.:" All in the family : Ancient Near Eastern Diplomacy" International Negatiation (1996) Pp. 11-28.

(٤١) نحن اليوم عند الحديث مع رجل كبير في السن لا قرابة لنا معه نطلق عليه (أبي) أو (عمي) أو (خال)، وان كان طاعن في السن نستخدم (جدي) أو (حجي) وأحيانا (زاير)، أما المرأة فتلقب (خالة) و(عمه) أو (بيبي) و(حجية) و(زايره)، وعموما الألقاب غرضها للتقرب والمحبة والاحترام ومثل هذه التعابير قديمة الاستخدام ومن ضمن ثقافتنا المجتمعية الزراعية .

(42) Wiseman ,D.J : " Is it Peace ? " Covenant and Diplomacy " Vetus Testamentum 32 (1982) Pp. 317-322.

(٤٣) في قراءه أخرى (m ni-mu-a/wa/ut-re-a/ia) : Moran,W.L.: op.cit.p. 12.

(44) Ibid: p. 12.

(٤٥) ورد اسم مصر بهذه الصيغة (m[i- iş- şa- ri]) ربما تهجي الاسم اخذ من اللغة الاكديه– الحوريه وكانت منتشرة مفرداتها من بلاد آشور والى حلب وكركميش ، ولعل خضوع آشور إلى التبعية الميتانيه واستقلالها في عهد آشور اوبالط دخلت مفردات ميتانيه كثيرة باللغة الآشورية : صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية الآشورية ..../ ص ٣٦٩–٤٠٤.

(٤٦) هذا الأسلوب يظهر في رسالة ملك الاشيا (Alašiya) (قبرص) في رسالة أطلق عليها (عتاب على رسالة الفرعون) :

Moran,W.L op.cit. p.105.

(٤٧) ترجمة كلمة ik-[šu-da] أكثر دقه من ترجمة ik-[šu-da-an-ni] راجع:

Moran,W.L.: op.cit . p. 14.

(٤٨) a-a-i-[ka-(am)ma] يبدو أن برنابرياش يريد أن يقول لا رسول أجنبي سواء مصري أو غير مصري لم يتناول العشاء معه وتعطي (عمارنة ١: ٦٢–٧٧) نفس المعنى :

Kühne , C.: Die Chronologie der internationalen Korrespondenz von El-Amarna Neukirchen Vluyn :Neukirchener Verlag, (1973) . p.61 n.295.

(٤٩) هناك ترجمة أخرى (كنت سأفقد حياتي، ولا شيء كان سينقذني) لكن هذه الترجمة غير واضحة .

(٥٠) [Ū(Šamnu)].....lauš[nē-ša-an-ni] ترجمة إلى (ولم يشفني أي دواء أعطي لي): Moran, W.L:opcit.p.14 .

(٥١) i-mu-[ra-an-ni] من المفروض تعني زيارة وفد .

(52) Moran, W.L.: op.cit. Pp. 12-13.

(٥٣) على ما يبدو بان برنابرياش لديه مشاكل مع الفرعون كما ورد في مضمون الرسالة منها احتجاز رسول بابل في البلاط المصري سنتان، وقيمة الهدايا التي أرسلها الملك البابلي قليلة بسبب ظروف المناخ الحار وقلة المياه، وما هو مهم هنا يريد برنابرياش ذهبا أكثر لأنه منشغل بعمل مهم وما أرسله الفرعون من الذهب كان قليل وتعرض للسرقة من قبل وكيل الملك المصري فلابد من المراقبة من لدن الفرعون وختم الذهب المرسل إلى بابل بنفسه، فقد زعم ملك بابل بأنه استلم(٤٠) منه ذهب وضعها في الفرن ولم يبقى منها غير عشرة منه فقط، وأخيرا يؤكد على سرقة قافلة رسوله صالم(سالم)

مرتين وهو في طريقة إلى مصر من قبل الحكام التابعين للفرعون، انظر الرسالة كاملة في:/صلاح رشيد الصالحي/الدبلوماسية البابلية .../ تحت الطبع.

(٥٤) كتبت امرأة بهذه الصيغة amīltu = MUNUS أو ?sinnišu راجع :

CAD , A/2, p.47 b.

(٥٥) الهدية كتبت هكذا šulmānī، أما الاحتفال العظيم كان بلا شك واحد من ثلاثة احتفالات أقامها امنوفس الثالث في السنة الثالث عشره من حكمه ، وألسنه الرابعة والثلاثين من حكمه، وألسنه السابعة والثلاثين من حكمه .

(٥٦) كتبت عبارة(أكل واشرب) كما هو بالعربية [akul] ‘ú‘šiti .وباللغة الحثية تعني هذه العبارة استمرار الحياة وتكتب (نوخبز ازاتيني واترما ايكوتيني) (nu an ezateni-ma ekuteni) : صلاح رشيد الصالحي /المملكة الحثية ..../ ص ٩٣.

(٥٧) كتب منزل جديد a[-š eš- É] وردت في (عمارنة ٥: ١٣،١٩)، واقترح [a-nu-um-ma-bī]ta لكن ليس هناك بما فيه الكفاية لحيز على اللوح لإعادة الترميم و anumma لا تستعمل في العهد البابلي الوسيط (الكيشي)، وفي نهاية السطر ina libbi تلائم آثار النقش على اللوح تماما : Moran, W.L.:op.cit . p. 8

(58) Ibid: p. 7.

(٥٩) ورد تعبير (أنا قلت كفى) هكذا ul am-la as-s[a-k]u-[ut] كتبت كلمة (سكوت) كما في اللغة العربية .

Moran, W.L. : op.cit . p. 15.

(٦٠) طلب الزواج من ابنة الفرعون وردت في (عمارنة ٢) أرسلها كدشمان انليل الأول إلى امنوفس الثالث ورد فيها (لديك بنات لماذا لا تعطيني واحدة ؟)، وفي حالة برنابرياش ربما يمهد لنفس الغرض أو يريد أعلى مهر لابنته وبالذهب المصري .

(٦١) المعنى من (سكبوا الزيت على رأس ابنتي)، هو رمز لقبول الأميرة كزوجه للفرعون، واعتقد مسح الشعر بالزيت متعارف عليه في الشرق الأدنى القديم كافة وحتى يومنا الحاضر لتقوية الشعر والقضاء على القشرة، ولا يعني كما قد نتصور سكب كميه كبيرة من الزيت ! وحتما نوعية الزيت تكون فاخرة اشتهرت به بابل واشور، وكان الزيت البابلي يدخل ضمن هدايا الملك إلى الملوك المجاورين ومنهم الفرعون، ولدينا رسالة من حاتوسيلي ملك حاتتي إلى ادد–نيراري الأول يذكر فيها عدم إرسال زيت فاخر لمسح الجسم كهدية بمناسبة توليه العرش كما جرت العادة بإرسال الملوك الهدايا الثمينة بهذه المناسبة :

17: [DUMU.MUNUS-ti ki-i]…. qa-qa-[a]d DU[MU].MU[NUS-ti-ia]
18: ‘ì’ . [GIŠ it-t]a-du-ú

بخصوص رسالة حاتوسيلي راجع :

Backman, G:” Hittite Diplomatic….. Pp.129 . 101.

(٦٢) كتبت منزلي [i-na É-i]a :12، حتما يقصد الملك البابلي بكلمة منزل هو القصر.

(٦٣) كتب هذا المقطع بالاكدية ….[um a-bu-ú-a-a DUMU. MUNUS-SU 23; -u4]، في النص يريد الملك البابلي برناریاش تذكير الفرعون اخناتون بالمصاهرة التي حدثت بين الأسرتين في عهد كدشمان–انليل الأول والفرعون امنوفس الثالث فلدينا رسائل اقرب إلى المساومة بين الملكين السابقين حول قيمة المهر (عمارنة ٢) و (عمارنة ٣) و(عمارنة ٤) أما المهر فهناك رسالتين (عمارنة ١٣) فيها كشف بالحاجات والأثاث المطلي بالذهب والفضة والأحجار الكريمة مع الوزن والوصف الكامل أرسلت من الفرعون امنوفس الثالث إلى الملك البابلي كدشمان انليل الأول،،بينما (عمارنة ١٤) تضمنت كشف بأسماء الأثاث والحاجات المطلية بالذهب والفضة والأحجار الكريمة أرسلت من الفرعون اخناتون إلى برنابرياش كمهر لابنته.

(٦٤) هذه الرسالة من برنابرياش ملك بابل إلى الفرعون امنوفس الثالث، دعيت (عرض اقتراح صداقه) :

Moran, W.L. : op.cit . p. 12.

(٦٥) الرسالة من برنابرياش ملك بابل إلى امنوفس الرابع (اخناتون)، دعيت (مقتل التجار وطلب الثار لهم): Ibid ; p.16

(٦٦) كتبت (أرسلوا) هكذا [i]n-lu-bi-te-ul.

(٦٧) هذه الرسالة من برنابرياش إلى إما امنوفس الرابع أو توت عنخ آمون، ودعيت (ولاءات قديمة وطلبات جديدة):Ibid : p. 18

(٦٨) الرسالة من برنابرياش إلى اخناتون، ودعيت بعنوان(الذهب المصري والنجارين):
Ibid: p. 19.

(٦٩) أطلق على الرسالة (حب وذهب) :

Zaccagnini , C.: “ Lo scambio dei doni nel Vicino Oriente durante 1 secoli XV-XIII . Rome : Centro per le antichita e la storia dell’arte del Vicino Oriente(1973) .Pp. 139-147.

(٧٠) هناك رسالة من ملك الاشيا (قبرص) إلى الفرعون ربما اخناتون (عمارنة ٣٣ : ٩–١٨) (علاوة على ذلك،أنا سمعت بأنك جلست على عرش أبيك، أنت قلت : دعنا

نتبادل هدايا السلام، أنا سمعت تحيات أخي …..)، كذاك رسالة سوبيلوليوما ملك حاتتي إلى الفرعون ذكر باسم خوريا (Huriya) قد يكون امنوفس الرابع أو سمنكارع (Smenkhkare) أو توت عنخ امون (Tutankhamun) (عمارنة ٤١ :١٦–٢٢) (الآن أخي اعتلى عرش أبية، وكما كان أبيك و أنا راغبين بالسلام فيما بيننا، لذا الآن أيضا يجب علينا سويتا آن نكون أصدقاء مع بعضنا البعض،الطلب السريع الذي أنا أرسلته لأبيك،أنا سوف أرسله إلى أخي أيضا، دعنا نساعد كلانا الآخر …) :
Moran , W.L. : " op.cit :(EA 26) .p.84 , (EA 33).p.104,(EA 41) .p.114.

(71) Ibid : p. 22.

(72) Kűhne , C. : “ Die Chronologie der ….. Pp.105-124.

(٧٣) قد تكون كمية الذهب المصري هي (مهر الزواج)، أرسل إلى ابنة أو أخت توشراتا ملك ميتاني وقد ورد هذا في (عمارنة ١٧ : ٤١–٤٥).

(٧٤) محتمل كلمة (a-nu-ma) ربما هي (a-na-ku) وتعني (أنا نفسي) .

(٧٥) (عمارنة ١٦) كتبت هذه الرسالة إلى الفرعون بعد عام (١٣٦٥ ق.م) عندما تحررت آشور من التبعية لميتاني حول احتلال آشور من قبل ميتاني في عهد شاوشتار في القرن الخامس عشر ق.م راجع :أنطوان مورتكات / تاريخ الشرق ……../ ص٢٠٤.

(76) Moran, W.L. : op.cit . p. 104.

(77) GIŠ. MEŠ = iṣṣī. تعني خشب

(78) Ibid : p. 21

(٧٩) كتبت كلمة (سرقت) [ha-ah-t[a-at] .

(80) Ibid : p. 14.

(81) Kűhne, C : “ Die Chronologie der …..p.87 , n .436.

(٨٢) اسم الرسول المصري ارشابا ظهر وبنفس الكتابة بين أسماء الآلهة الحورية (d ir-ša-ap-pa dam-ki-ra-a-ši)، واسم ارشابا هو اله التجارة عند الحوريين (tamgar-eš(š))، أيضا اسم ارشابا اله كنعاني وهو سيد السوق والتجارة .

(83) Adler , H.P. : “Das Akkadische des Königs Tušratta von Mitanni “ AOAT 201 : (1976) Pp.252-253 (83) Moran, W.L.: op.cit. Pp.43-44.

(84) Moran, W.L.: op.cit. Pp.43-44.

(٨٥) بالنسبة للرسالتين راجع : Ibid : Pp. 47 K 84

(٨٦) الرسالتان مرسلتان من ملك الاشيا (قبرص) إلى ملك مصر لم يذكر اسمه، لكن يعتقد بأنه الفرعون توت- عنخ- آمون :
Kűhne , C.: op.cit . p. 87. No. 436

(٨٧) لمراجعة ترجمة رسالة (عمارنة ١): صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابليه .../ ص١٧-١٨.

(88) Kűhne , C.: op.cit . p. 50 . no. 252.

(89) Pintore, F.: " Transid di trupe eschemi epistolary nellu Siria egiziana dell " eta di El- Amarna " OA 11 : (1972) Pp. 101-131.

(٩٠) كتب الاسم هكذا m hi-ri-ia-ma-za .

(٩١) اسم بامخو ربما لقب مصري غير مفهوم لأسم شخصي،ويتقد بان الاسم المساوي له رعبيصو (rābişu) ورد في (عمارنه ١٦٢ : ٧٤)، أما كلمة) فاسلاج (فتعني مصر وتأتي بمعنى (بلادك) ويريد أن يقول الفعل الشنيع تم تحت انف الفرعون :
Moran, W.L. : op.cit.p. 14.

(٩٢) على ما يبدو بان الكاتب أو من روى الحادثة بدل أحرف العلة في المقطع الأول لأسماء الحاكمين راجع : Ibid:p.16

(٩٣) أن كلمة (halzuhlu) تعني (قائد قلعة) وهي إشارة إلى ضابط مصري عالي المستوى عادة يدعى (rābişu)،وبالتأكيد التميز هنا يلاءم قائد قلعة سيلو (Silu) المصري (mr htm n ţr) على الحدود المصرية .

(94) Moran, W.L.: op.cit. p.100.

(٩٥) من المحتمل بان (خعايا) احد الرجال المرافقين للقافلة ويقوم بتبليغ كل الحكام المحلين بأوامر الفرعون وضرورة حماية القافلة في أراضيهم .

(٩٦) ذكر اسم بابل لأنه أراد القول: (أرسل القافلة لأبعد مسافة، حتى ولو كانت بابل، وأنا سأحميها بنفسي، وتحت حراسة مشددة) .

(97) Moran, W.L.: op.cit. p. 308.

(98) Liverani, M.: The Great Powers Club ….. Pp. 95-105.

(٩٩) حول تبادل الهدايا واشكالها راجع :
Mauss, M,:" The Gift" ,New York : Nortin (1967) Originally published as "Essai sur le don " L'anné Sociologique, II série, 1 (1923-1924) Pp. 30-186.

(١٠٠) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية الآشورية .../ ص٣٦٩-٤٠٤.

(١٠١) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية ... / تحت الطبع.

(102) Moran, W.L. : op.cit . p. 9.

(١٠٣) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية ... / تحت الطبع.

(104) Moran, W.L :" op.cit . p. 22.

(١٠٥) كتت كلمة (ضريح) karašku، ولا يعني الضريح هنا محرقة لحرق جثث الموتى.

(106) Moran , W.L. : op.cit . p. 44.

(107) Ibid ; p. 97.

(١٠٨) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية .../ تحت الطبع.

(١٠٩) ذكر النحاس بكلمة (enūma) وهي مثل (anumma)، ويلاحظ بان وحدة القياس الطالنت لم تذكر لكن يفهم بان الطالنت ربما كان على شكل قضبان، أو قوالب والمعروف وزن الطالنت إما ٢٨.٢ كغم أو ٣٥.٢٥ كغم وهو نفس الوزن للقوالب التي استعملت في قبرص، وقد ذكر الوزن في (عمارنة ٣٣ : ٩-١٨) مع اختفاء الرقم الذي يمثل كمية النحاس الذي تم إهدائه إلى الفرعون اخناتون بمناسبة تتويجه على عرش مصر.

(١١٠) يقرأ نركال (dMAŠ.MAŠ) في نص الرسالة، أو في السامية الغربية (Rašpu) أو (Resheph) :
Journal of Cuneiform Studies (New Haven, then Philadelphia , now Baltimore. (1953) Pp.79 ff.

(١١١) كتبت (عامل) (ēpiš) هنا في النص نفهم مجرد تعدين نحاس (AHw) (تصفيه أو تكرير) المهم المعنى غير واضح لكلمة عامل : Moran, W.L.: op.cit . p. 107

(112) Ibid ; letter (4). p.8.

(١١٣) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية ،،، / تحت الطبع.

(١١٤) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية الآشورية ./. ص٣٦٩-٤٠٤.

(115) Moran ,W.L: op.cit . p. 47.

(١١٦) جورج رو : العراق القديم /ترجمة حسين علوان حسين/ بغداد/ ١٩٨٤/ ص٣٤٨.

(١١٧) يراجع رسائل(عمارنة ٣، ٧، ١٠، ١٩) في:97-92 , 19 , 13, 7 .Ibid: Pp.

(118) Zaccagnini, C. : " Lo scambio ….. Pp. 83-85.

(١١٩) في الحقيقة لهذه العبارة ترجمات أخرى (لا تعمل حلف مع .....) أو (لا تقارني مع ...) : Moran, W.L.: op.cit p. 36

(120) Liverni, M. : The Great Powers Club ….. p. 25.

(١٢١) اغلب هدايا بابل اشتملت على أحجار اللازورد الخام (نادرا على شكل عقد) وخيول وعربات حربية وزيوت نوع جيد وعربات حربية ومنسوجات كتانيه وصوفيه وعبيد، أما آشور فأرسلت خيول وعربات ومنسوجات بأنواعها (كتانيه وصوفية) وأحجار كريمه، وهدايا ميتاني شملت معادن وخيول وعبيد، وأرسلت حاتتي هدايا من القصدير ونحاس وخناجر حديدية غالية الثمن، وكذلك ملك الاشيا أرسل هدايا من معدن النحاس بالدرجة الأولى .

(١٢٢) صلاح رشيد الصالحي / العلاقات الاشوريه– الحثية في القرن الثالث عشر ق.م / بيت الحكمه / /بغداد/ ٢٠٠٩/ تحت الطبع

(١٢٣) من أفضل الامثلة للمراسلات التي جرت بين بابل–حاتتي في القرن الثالث عشر ق.م هي رسالة حاتوسيلي الثالث الى كدشمان انليل الثاني: Leo Oppenheim , A. ;"

Letters from Mesooptamia " Chicago (1967) . p. 143

(١٢٤) صلاح رشيد الصالحي/ المملكة الحثيه …../ ص١٨٦–١٨٨.

(125) Macqueen, J.G:" The Hittites and their Contemporartes Asia Minor " London (1975) : p. 49.

(١٢٦) كتبت عبارة (ولم لا ؟) am-mi-ni l[a innaddin] كل الزيجات التي ذكرت أعلاه تم الإشارة إليها مفصلا في : صلاح رشيد الصالحي / ملكات بابليات في البلاط الحثي / مجلة الأستاذ/ العدد ٧٥/ بغداد/ ٢٠٠٨/ ص ٦٢٥–٦٣٢.

(١٢٧) إذا(LU-ta) وأيضا(ra-ši-lu-ta) تترجم (أشخاص محضوضين) أو (أنت تعطي بناتك إلى …) أو (ṭàb-ta) (تنال أشياء جيدة) أو (تنال صداقة) وهذا محتمل أيضا، عموما الرد المصري واضح حتى بعد عصر العمارنة فقد حاولت أرملة توت عنخ آمون (موت–نخمت)(ابنة نفرتيتي ويقرا الاسم بالهيروغليفية (عنخ– سن– آن– آمون) عبر مراسلات لغرض الزواج من احد أبناء سوبيلوليوما ملك حاتتي ليكون زوجا وملكا في مصر دون استشارة رجال البلاط في طيبة، وكانت النتيجة مقتل الأمير (زانانزا)(Zannanza) ابن سوبيلوليوما وهو في طريقه إلى مصر، لان التحالف بين مصر– حاتتي لم يكن في مصلحة بعض الفئات في البلاط المصري، وهؤلاء هم الذين نصبوا الفرعون (أي) (Ay) على عرش مصر خلفا لتوت عنخ آمون ، لان العرف والتقاليد نصت طلب الفرعون الزواج من أميرة أجنبية وليس الملكة المصرية

تطلب أمير اجني للزواج !،حول هذه الحادثة : جرني .أ.ر / الحثيون / ترجمة محمد عبد القادر/ القاهرة/ ١٩٦٣/ ص ٥١ Moran, W.L : op.cit . p. 4 no. 21

(١٢٨) كتبت عبارة (أنا ارغب بالزواج من ابنتك) [DUMU.MUNUS-ka a-ha-aš-še-e]h، بينما كتبت عبارة (وأنت لديك بنات، لماذا لا تعطيني واحدة للزواج) [DUMU.MUNUS.MEŠ-ka i-ba-aš-ša-a-am-mi-ni la ta-a]d-di-na.

(129) Moran, W.L:" op.cit . p. 6.

(١٣٠) صلاح رشيد الصالحي/ الدبلوماسية البابلية … / تحت الطبع.

(131) Singer, I ;" The title Great Princess in Hittite Eimpire " U 23 : (1991) p. 331.

(132) Backman, G.: " Hittite Diplomatic……..letter 128 . p. 131.

(١٣٣) صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية ..../ تحت الطبع.

(134) Moran, W.L.:op.cit. p. 2.

(١٣٥) جيمس هنري برستد/ تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي / ترجمة حسن كمال/ الطبعة الأولى / القاهرة/ ١٩٢٩/ ص ٢٣٢.

(136) Mieroop, Marc. Van. De : op.cit: p. 131.

(١٣٧) صلاح رشيد الصالحي/ المملكة الحثية.... / ص ١٦–١٧.

(١٣٨) سامي سعيد الأحمد ورضا جواد الهاشمي/ تاريخ الشرق الأدنى القديم– إيران والأناضول/ بغداد/بدون سنة طبع / ص ٥٩.

(١٣٩) في عهد كوريكلزو الاول كانت بابل تحصل على كميات كبيرة من الذهب من مصر وفي الواقع يبدو في هذه الفترة ان الذهب حل مؤقتا محل الفضة، وقد نفذ كوريكلزو بتمويل من مصر برنامج تشيد طموح في عدد من المدن (أور، اريدو، اوروك) وأنفقت كميات كبيرة من الذهب المصري في تشيد مدينة محصنة جديدة هي دور كوريكلزو : جوان اوتس/بابل تاريخ مصور/ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي/ بغداد/ ١٩٩٠/ ص١٣٧.

(١٤٠) طه باقر/ المصدر السابق/ ص٤٥٢.

(141(Mieroop, Marc. Van. De : op.cit . p. 183.

(١٤٢) كمثال ورد في رسالة حاتوسيلي الثالث ملك حاتتي إلى كدشمان انليل الثاني ذكر استقبال حاتوشا في عهد مواتالي ملك حاتتي طبيب ويدعى (ربي– شا– مردوخ) (Raba- sha- Marduk) ومعه معزم من ملك بابل وقد أبقاهم مواتالي في حاتوشا

لفترة طويلة للاستفادة من خبراتهم، وفي نفس الرسالة طلب حاتوسيلي نحاتين وقد وعد بإعادتهم إلى بابل مذكرا ملك بابل بأنه سبق وان أعاد النحاتين السابقين في عهد كدشمان – تورجو إلى بابل : Backman, G :op.cit . p.142

(143) Gűterbock, H.G: "A view of Hittite Literature " JAOS 84 : (1964) . Pp.107-115.

(١٤٤) سليم حسن/ مصر القديمة – السيادة العالمية والتوحيد/ الجزء الخامس / القاهرة / ١٩٤٨/ ص ٢٦٠.

(١٤٥) شملت فعاليا العسكرية لتوكلتي ننورتا بلاد كوماني أو اكوميني أو اكوماني وتضم مجموعة من الأمراء يجمعهم اتحاد هش مفكك استطاع الملك الآشوري ان يخضعهم واستثمر غابات طوروس الشرقية في خدمة مشاريعه العمرانية .: هاري ساكز/ عظمة آشور/ ا/ ترجمة خالد اسعد عيسى واحمد غسان سبانو/ دمشق/ ٢٠٠٣ / ص٧١-٧٣

Luckenbill, D.D: " Ancient Record ……" vol. 1 ..Pp. 49-59.

(١٤٦) هاري ساكز/ عظمة بابل / ترجمة عامر سليمان/ بغداد/ ١٩٧٩/ ص ١٠١-١٠٢ // جورج رو/ العراق القديم/ ترجمة حسين علوان حسين / بغداد/ ١٩٨٤/ ص ٣٥٥.

(١٤٧) هاري ساكز/ عظمة آشور..../ ص ٧٣-٧٤.

(١٤٨) سامي سعيد الأحمد ورضا جواد الهاشمي/تاريخ الشرق الأدنى.../ ص٦٠.

(١٤٩) جورج رو/ العراق القديم .../ ص٣٥٥.

(١٥٠) أنطوان مورتكات/ تاريخ الشرق ..../ ص ١٩٠-٢٠١.

(١٥١) طه باقر/ المقدمة ..../ ص٤٨٩.

(١٥٢) لدينا رسالة من ملك ميتاني بعثها الى تودحليا الرابع ملك حاتتي يوضح فيها ماساته فعلا بان بلده تقع بين قوتين آشور شرقا وحاتتي غربا،وهو مجبر على التعامل مع آشور لأنها أقوى منه ولديها أطماع في بلاده : Backman, G :op.cit .p.150

(١٥٣) صلاح رشيد الصالحي / المملكة الحثية .... / ص ٤٥٨-٤٧٤.

المصادر العربية:

١- أنطوان مورتكات/ تاريخ الشرق الأدنى القديم / ترجمة توفيق سليمان/ دمشق / ١٩٦٧.
٢- جرني .أ.ر / الحثيون / ترجمة محمد عبد القادر/ القاهرة/ ١٩٦٣.
٣- جوان اوتس/ بابل تاريخ مصور/ ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي/ بغداد/ ١٩٩٠.
٤- جورج رو/ العراق القديم/ ترجمة حسين علوان حسين / بغداد/ ١٩٨٤.

٥- جيمس هنري برستد/ تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى الفتح الفارسي / ترجمة حسن كمال/ الطبعة الأولى / القاهرة/ ١٩٢٩.
٦- سامي سعيد الأحمد ورضا جواد الهاشمي/ تاريخ الشرق الأدنى القديم- إيران والأناضول/ بغداد/بدون سنة طبع.
٧- سليم حسن/ مصر القديمة – السيادة العالمية والتوحيد/ الجزء الخامس/ القاهرة/١٩٤٨.
٨- صلاح رشيد الصالحي / المملكة الحثية/ بغداد/ ٢٠٠٧.
٩- صلاح رشيد الصالحي/ الدبلوماسية الآشورية في عصر العمارنة/ مجلة كلية الآداب / جامعة بغداد/ العدد ٨٧ / ٢٠٠٨.
١٠- صلاح رشيد الصالحي / ملكات بابليات في البلاط الحثي / مجلة الأستاذ/ العدد ٧٥/ بغداد/ ٢٠٠٨.
١١- صلاح رشيد الصالحي / الدبلوماسية البابلية في عصر العمارنة/ مجلة كلية التربية/ جامعة تكريت/ ٢٠٠٩/ تحت الطبع.
١٢- صلاح رشيد الصالحي / العلاقات الآشورية – الحثية في القرن الثالث عشر ق.م / بيت الحكمة / بغداد/ ٢٠٠٩ / تحت الطبع.
١٣- صلاح رشيد الصالحي / الخيانة الزوجية في الشرق الأدنى القديم/ مجلة كلية التربية بنات /جامعة بغداد/ ٢٠٠٩/ تحت الطبع.
١٤- طه باقر/ مقدمة في تاريخ الحضارات / الجزء الأول / بغداد/ ١٩٧٣.
١٥- عمر الاسكندري و أ.ج. سفدج / تاريخ مصر / القاهرة ١٩٩٦.
١٦- نيكولاس بوستغيت / حضارة العراق واثارة – تاريخ مصور / ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي / بغداد/ ١٩٩١.
١٧- هاري ساكز/ عظمة بابل / ترجمة عامر سليمان/ بغداد/ ١٩٧٩/ ص ١٠١-١٠٢ // جورج رو/ العراق القديم/ ترجمة حسين علوان حسين / بغداد/ ١٩٨٤.
١٨- هاري ساكز/ عظمة آشور/ ا/ترجمة خالد اسعد عيسى واحمد غسان سبانو/دمشق/ ٢٠٠٣.

References

1- Adler , H.P. : "Das Akkadische des Königs Tušratta von Mitanni " AOAT 201 : (1976).
2- Alfonso, A : " Transmission of the Mesopotamian Lexical and Literary Texts from Ebla " in P. Fronzaroli, ed., Literature and Literary Language at Ebla (Quaderni di Semitistica 18 ; Florence ; Dipartimento di Linguistica, (1992).
3- Anson, R.F: " El-Amarna Tablets " AOAT 8: Neukirchen , Vluyn. Neukirchener Verlag (1970) .

4- Artzi, P. and Malamat, A: " The Great King " CDL Press (1993).
5- Barton, G.A: " Ancient Babylonian Expressions of the Religious spirit " JAOS 37. (1917).
6- Backman, G : " Hittite Diplomatic Texts " Second Edition ; Atlanta : Vol 7: (1999).
7- Bezold, C. ;" Oriental Diplomacy " London . Luzac and Co., (1893).
8- Bryce, T.R: " The Kingdom of Hittites " Oxford (1999).
9- Burney , C.:" Urartian Fortresses and Town in the Van Region " (Journal of the British Institute of Archaeology at Ankara) : Vol: 7: Ankara, (1957).
10- CAD , A/2, p.47 b.
11- Cohen,R and Westbrook, R.:"Amarna Diplomacy " Baltimore (2002).
13- Cohen , R.:" All in the family : Ancient Near Eastern Diplomacy" International Negatiation (1996).
14- Gűterbock, H.G: "A view of Hittite Literature " JAOS 84 : (1964).
15- Journal of Cuneiform Studies (New Haven, then Philadelphia , now Baltimore. (1953).
16- Korošec, V.: " International Relations according to Cuneiform Reports from the Tell el- Amarna and Hittite State Archives " Ljubljana Zbornik Znanstvenih Razprav (Ljubljana) 23 (1950).
17- Kűhne, C.: " Die Chronologie der internationalen Korrespondez von El-Amarna " AOAT 17 : (1973).
18- Kühne , C.: Die Chronologie der internationalen Korrespondenz von El-Amarna Neukirchen Vluyn :Neukirchener Verlag, (1973).
19- Leo Oppenheim, A : " Letters from Mesopotamia " Chicago (1967).
20- Liverani, M.: " Prestige and Inyerest : International Relations in the Near East , circa 1600-1100 B.C.E. Padova : Sargon, (1990).
21- Liverani , M : " The Great Powers Club " Amarna Diplomacy Baltimore (2002).
22- Luckenbill. D.D:" Ancient Records of Assyria and Babylonia "Vol: I Chicago (1926).
23- Macqueen, J.G:" The Hittites and their Contemporartes Asia Minor " London (1975).

24- Mauss, M,:" The Gift" ,New York : Nortin (1967) Originally published as "Essai sur le don " L'anné Sociologique, II série, 1 (1923-1924).
25- Mieroop, M.Van.De : " A History of the Ancient Near East " Second Edition . Oxford (2007).
26- Moran, W. L.: " The Amarna Letters " Baltimore (1992).
27- Munn-Rankin, J.M ;" Diplomacy in Western Asia in the Early Second Millennium B.C.E." Iraq 18 . (1956).
28- Nougayrol, J.: " Le Palais Royal d' Ugarit IV- Textes Accadiens des Archives Sud archives internationals "Paris ; Imprimerie nationale (1956).
29- Pintore, F.: " Transid di trupe eschemi epistolary nellu Siria egiziana dell " eta di El- Amarna " OA 11 : (1972).
30- Singer, I ;" The title Great Princess in Hittite Eimpire " U 23: (1991).
31- Tadmor , H.: " The Decline of Empires in Western Asia ca. 1200 B.C.E. " ASOR (1979).
32- Winckler, H:" Vorläufige Nachrichten über die Ausgrabungen in Boghaz-köi im Sommer 1907.1. Die Tontafelunde " Mitteilungen der Deutschen Orientgesellschaft 35 (1907).
33- Wiseman, D.J.:" The Alalakh Tablets " London British Institute o Archaeology at Ankara (1953).
34- Wiseman ,D.J : " Is it Peace ? " Covenant and Diplomacy " Vetus Testamentum 32 (1982).
35- Zaccagnini, C. : " ON Gift- Exchange in the Old Babylonian Period " In studi Orientalistici in ricordo di Franco Pintore ed .O. Carruba, M. Liverani and C. Zaccagnini .Pavia :GJES, (1983).
36- Zaccagnini , C.: " Lo scambio dei doni nel Vicino Oriente durante 1 secoli XV-XIII . Rome : Centro per le antichita e la storia dell'arte del Vicino Oriente (1973).

التكوين السكاني للمجتمع العراقي القديم حتى سقوط بابل ٥٣٩ق. م

م.م. غيث حبيب خليل
جامعة تكريت/كلية الآداب/قسم التاريخ

مُقدّمة:

إن التكوين الاجتماعي للعراق هو نتاج تاريخ طويل من التمازج السكاني عبر التاريخ. وإذا كان ذلك " التكوين " هو الفرز الطبيعي لذلك التاريخ الذي شهد جملة هائلة من الإيجاب والسلب وأنتج تنوعات ثقافية وسلوكية غاية في التعقيد والقوة. ويعد العراق مع الحضارات العريقة في بلاد النيل وبلاد الشام المهد الأول لنشوء أقدم المدنيات في العالم وفيه نشأت أسس الحضارة الإنسانية وتطور فيها التشكيل الاجتماعي والسياسي ومن المصادر الرئيسة التي تأثرت بها ونقلت عنها الحضارات البشرية في أنحاء العالم كافة.

وعليه، فان بنية الثقافة العراقية تختزن في داخلها تنوعات فاعلة تعمل على الأرض وهي مترابطة مع بعضها البعض ترابطا عضويا ولا يمكنها أن تنفصل أبدا، وهي اليوم بأمس بحاجة إلى سياسات مجّردة من كل ميول أو اتجاهات.

إن الهدف من البحث هو التعريف بالموقع الجغرافي للعراق وتسميته وأهم الأقوام التي سكنته ومن رسم حدوده؟ وهل حدوده الحالية هي حدوده التاريخية أم رسمت في بدايات القرن العشرين من فراغ أم لهذه الحدود جذور؟ وهل استيقظ العراقيون هكذا فجأة ليجدوا أنفسهم في بلاد جديدة صنعها ووضع حدودها وتسميتها الإنكليز، وذلك لان الكثير من العراقيين الآن في حال مؤلم ولا يعلمون ذلك وأضاعوا المعاني الحقيقية للوطنية و وفقدان الهوية وروح المواطنة العراقية وذلك نتيجة للظروف الصعبة والتحديات التي مرّت عليهم وتتوالى عليهم منذ زمن، فضلا عن

حالة الفوضى الفكرية واللغوية والسياسية وما نتج عنها من أفكار طائفية خاطئة الهدف منها تدمير الوحدة الوطنية لأطياف المجتمع العراقي والتي بدأت تتناقل على ألسنة الحاقدين والمتربصين بالعراق العظيم هذا البلد الصابر ورغبتهم في تفكيك وحدته ليتسنى لهم تحقيق مآربهم الخبيثة إذ بدا الخلط بين مصطلحات وشعارات وأفكار يتبنوها من دون إدراك معانيها نتيجة جهل ومخططات وفق أجندات أجنبية مبيتّة ومن ذلك مصطلحات (العراق الفيدرالي) و (العراق الاتحادي) وما لهذين المصطلحين من معاني للتفكك السياسي والاقتصادي والبشري وكأن العراق وطنا حديثا لا العراق الذي له جذور تمتد في عمق التاريخ ما تزال بقاياه الفكرية والبشرية موجودة تعيش على أرضه ومنذ آلاف السنين لذا أصبح من المهم توضيح التركيب السكاني للمجتمع العراقي حتى يتسنى للقارئ أن يدرك أن العراق بلد الجميع تظافرت الجهود ولكل عناصره وفئاته في تكوينه.

هذه الأسئلة وغيرها يمكن الإجابة عنها وبسهولة وذلك لعمق وأصاله الحضارة العراقية وتنوع وكثرة المصادر والشواهد التاريخية والآثارية.

أولا: الموقع الجغرافي :

العراق نتاج لعبقرية سكانه وموقعه المميز، حيث بدأ الإنسان في وجوده وتفكيره واستقراره وتنظيمه لأنه كان بؤرة للتجمع والالتقاء البشري عبر التاريخ وكان العراق ملتقى للبشرية برا ونهرا وبحرا، فهو عقدة الوصل بين الشرق والغرب، فالقوافل التجارية والأقوام والهجرات البشرية على مر التاريخ قد رسمت خطوطا عميقة في لوحته الطبيعية من شماله إلى جنوبه، حيث إن موقعة في الجنوب الشرقي من الشرق الأدنى القديم وفي غرب قارة آسيا شكل جسرا بريا يربط بين القارات الثلاث (آسيا، أوربا، أفريقيا)[١].

وهو يمتد مع امتدادات نهري دجلة والفرات مكونا وحدة جغرافية متماسكة وتفصله عن جنوب الأناضول جبال طوروس وعن إيران جبال زاكروس وعن بلاد

الشام بادية الشام، فكان على مر العصور ملتقى للقوافل التجارية التي تربط تجارة البحر المتوسط والخليج العربي ومن ثم المحيط الهندي[٢].

ولموقع العراق اثر مهم في تركيب سكانه فهو في موقعه بين منطقتين تقل فيهما الموارد الطبيعية فمن الشمال والشمال الشرقي مناطق جبلية ومن الغرب والجنوب الغربي مناطق صحراوية ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة هي التي جعلت من العراق محط أنظار الأقوام المجاورة ووجهة للهجرة والاستقرار أو محاولات السيطرة عليه وعلى هذا الأساس يجب أن ينظر إلى تركيب سكانه[٣].

ثانيا : التسمية:

هناك أراء مختلفة عن اصل كلمة " العراق " حيث يرجح بعض المستشرقين إن مصدرها هي مدينة " أورك "المدينة السومرية القديمة (الوركاء حاليا)[٤]. في حين يرى البعض الأخر إن تسمية العراق مصدرها " العروق " نسبة إلى النهرين العريقين: دجلة و الفرات اللذين ولأهميتهما شبها بالعرق أو الوريد[٥]، ويرى البعض الأخر إن البلاد سميت بالعراق نسبة إلى " عروق أشجار النخيل " التي تتواجد بكثرة في جنوب ووسط العراق ولذلك سمي بأرض السواد[٦]. و هناك تسمية أخرى هي تسمية ميزوبوتاميا Mesopotamia باليونانية وتعني بلاد ما بين النهرين وتبنى كثير من الكتاب والباحثين هذه التسمية[٧]. كما أطلق عليه تسمية بلاد بابل أو بلاد آشور[٨]. ومن الباحثين من يرى إن كلمة عراق ذات اصل عربي تعني (الشاطئ) أو (جرف النهر)[٩]. في حين يتفق الاثاريين العراقيين على تسمية (بلاد الرافدين) لما لها من مدلولات أوسع وأشمل لأنها بذلك تشمل كل الأراضي التي يمر بها النهرين العظيمين (دجلة والفرات)، ويبقى اسم العراق هو الاسم الذي يتفق عليه الباحثون في إطلاقه على الأرض التي قامت عليها جميع الدول والممالك على أرضها.

ولو لم يكن اسم العراق قديما قدم وجوده لما اختلف حول ذلك الرواة والمفسرين والمؤرخين والباحثين.

ثالثاً: الأقوام التي سكنت العراق القديم:

سكن العراق كما ذكرنا سابقا وبسبب موقعه الجغرافي وظروفه المناخية التي ساهمت بشكل كبير في تكوين حضارته أقوام عديدة دخلت في التكوين السكاني للمجتمع العراقي القديم ويمكن تمييز عنصرين أساسيين من خلال مخلفاتهم المادية والكتابية كان لهم الدور الأبرز هما السومريون والاكديون فضلا عن أقوام أخرى سنذكرها ولكن بتفصيل اقل:-

١- السومريون :

منذ إن سلط الضوء على أولى مخلفات الحضارة السومرية قبل قرن من الزمن و البحث مستمر لمعرفة أصل السومريين، الذين عُدو من أقدم الشعوب التي استطاعت وضع الحضارة الأولى في القسم الجنوبي من بلاد الرافدين وما يزال شأنهم ودورهم يتضح بصورة اكبر كلما استجدت مكتشفات أثرية أو نصوص سومرية جديدة لتكشف عن جوانب مشرقة من منجزاتهم الحضارية ودورهم في أغناء مسيرة الشعوب بالمعرفة في مختلف جوانب الحياة، ولم يقدم دليل قاطع في أصل السومريين إذ أن كل باحث يعطي رأيه معتمدا أما على أدلة كتابية أو هياكل عظمية أو يعمل مقارنات بين الحضارة السومرية وغيرها من الحضارات و لم يتوصلوا إلى رأي نهائي محدد و قبل الحديث في ألآراء في أصل هؤلاء القوم نذكر المنطقة التي استوطنوا فيها وهي الجزء الجنوبي من السهل الرسوبي لبلاد الرافدين و التي وردت تسميتها في الكتابات المسمارية باسم بلاد سومر بالمصطلح السومري (KI.EN.GI) و بالأكدية (mat-Sumerim)، و لم يحدد معناه على وجه التأكيد فنجده في القواميس اللغوية يطابق الكلمة السومرية (KALAM) و بالأكدية (mat) و هي بمعنى البلاد و لا بد أن البلاد بالنسبة للسومريين تعني (بلاد سومر)[١٠]، و إذا ما ترجم المصطلح حرفيا يكون معنى (KI.EN.GI (أرض سيد القصب وقد عرّف سيد القصب بأنه الإله (انكي)، وهو إله الأرض والماء والحكمة عند السومريين و (أيا) عند البابليين[١١].

وهناك من يعتقد بأن المصطلح (KI.EN.GI) مشتق من أحد أسماء مدينة نفر المقدسة عند السومريين[١٢]، وأصبحت البلاد تُعرف في العصور اللاحقة

بمصطلح (بلاد أكد أو بلاد بابل)، وتشمل النصف الأسفل من بلاد الرافدين إلى الخليج العربي[١٣].

أما عن الآراء التي طرحت بشأن أصل هؤلاء الأقوام فقد كتبت العديد من الدراسات والبحوث منها ما أستند إلى لغتهم أو إلى الصناعات الفخارية أو إلى دراسة الهياكل العظمية.

ومن تلك الدراسات تلك المتعلقة باللغة السومرية ومعرفة أصولها من خلال مقارنتها مع لغات أخرى مندثرة أو متداولة، ومن المعروف إن اللغة السومرية تكاد تكون لغة منفردة بنفسها إذ لا يمكن تصنيفها أو إرجاعها إلى أحدى العوائل اللغوية المعروفة الآن فهي ليست من عائلة اللغات الهندوآرية، وعلى الرغم من ذلك فقد وصفت من نوع اللغات المعروفة باللغات الملصقة (Agglutinative)[١٤]، ولصعوبة اللغة السومرية الملصقة فقد دفعت بعضهم لمقارنتها وفي غالب الأحيان بأسلوب غير علمي مع عدد كبير من اللغات الأخرى من اللغة الصينية والتبتية والدرافيدية والهنغارية، في حين ذهب احد العلماء إلى عدّ اللغة السومرية بمستوى لغة الفولابك[١٥].

وهناك من الباحثين من اعتمد في دراسته للمشكلة السومرية على الهياكل العظمية، ظناً منهم أنه يمكن معرفة جنسهم و سلالاتهم البشرية بمقارنة العظام المكتشفة في المدن السومرية مع ما هو معروف من سلالات بشرية، وقد ثبت من نتيجة تلك الدراسات عدم وجود جنس سومري لا بالمفهوم العلمي ولا بالاعتيادي، فالدراسات الأنثروبولوجية التي أجريت على الهياكل العظمية و التي عثر عليها في مقبرة كيش أظهرت خليطاً من الرؤوس الطويلة و العريضة التي ربما تعود للجماعات التي استخدمت اللغات الجزرية، ولذلك فمن الصعب القول على أي منها سومري. على الرغم مما ذهب إليه الباحثون من إن السومريين كانوا من ذوي الرؤوس المدورة(العريضة) في حين أن الجزريين من ذوي أو أصحاب الرؤوس الطويلة، و يصدق القول نفسه على الجماجم التي عثر عليها في مقبرة العبيد كلها من جنس البحر المتوسط أي من ذوي الرؤوس الطويلة[١٦].

ومن الآراء الأخرى التي طرحت بشأن أصل هؤلاء الأقوام هو حدوث هجرات لأقوام دخلت واستقرت في بلاد سومر، ومن ذلك حدوث تغيرات طرأت في صناعة الفخار وعلى الزخارف المنفذة عليها، وفيما يلي عرض لهذه الآراء:

- **الرأي الأول:** يفترض إن السومريين جاؤوا عبر موجتين الأولى من الشرق و سلكت طريق البحر إلى الخليج العربي، والثانية سلكت الطريق البري عبر إيران و كان ذلك مع مجموعة أخرى من الأقوام نفسها التي هاجرت بعد ذلك إلى وادي السند[١٧].
- **الرأي الثاني:** يقول إن السومريين جاؤوا مهاجرين من أواسط آسيا عن طريق إيران وذلك على أساس التشابه بين الفخار ألعبيدي و فخار إيران[١٨].
- **الرأي الثالث:** يفترض إن السومريين جاؤوا من شمال سوريا وفلسطين وذلك على أساس التشابه بين فخار دور الوركاء مع فخار هذه المناطق ومن المستحيل القول بشكل قاطع بأنه لا يمكن أن تكون هناك حركات عرقية في هذا الاتجاه إذ ليس هناك دليل قاطع في الوقت الحاضر لإثبات حدوثها،إذ يمكن تفسير العلاقة على أساس العلاقات التجارية كما هو مع الهند أو مصر[١٩].
- **الرأي الرابع:** هذا الرأي يربط بين أصل السومريين و بين حضارة جنوب بلوخستان الأولى ومن المحتمل أن تكون هناك علاقة بين حضارة أقوام الهند (خرابا) وبين الأقوام (الهندوآرية) الموجودة حاليا في جنوب الهند، ولكن وجود علاقة عرقية حقيقية بين السومريين وبين أقوام (خرابا) ذات جاذبية خاصة لأولئك الذين يحاولون أن يجدوا صلة لغوية بين اللغة السومرية و اللغة الدرافيدية، وإن هناك دلائل قوية على شكل طرز فنية وأشياء مادية خاصة تبرز علاقات تجارية في الألف الثالث ق.م بين السومريين وأقوام وادي السند أو بلوخستان ومن تلك المظاهر الفنية مناظر طقوسية تتضمن الثور الهندي ذا الحدبة وعثر عليه في كل من أور وكيش وهذا الرأي يحتاج إلى أثبات[٢٠].

أما عن رأي أصحاب المدرسة العراقية والمؤيدين لها هو أن السومريين كانوا مسيطرين على الجزء الأسفل من بلاد الرافدين وهؤلاء كان يطلق عليهم (ذوي الرؤوس

السوداء) وبلادهم هي أرض السواد ولم يكونوا لا جزريين ولا آريين وأن لغتهم التي ظهرت على العديد من نصوصهم لم تكن كذلك لا جزرية ولا هندوآرية، ويستدل أصحاب هذا الرأي على ذلك بكون الحضارة السومرية في بعض عناصرها عبارة عن تطور طبيعي واضح من حضارات عصور ما قبل التأريخ التي ازدهرت في البلاد وسموا باسمهم نسبة إلى البلاد التي سكنوا فيها أخيراً في جنوب بلاد الرافدين،وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أن جميع سكان بلاد الرافدين من شماله إلى جنوبه كانت لهم نفس الآداب والأساطير الدينية والمفاهيم العقائدية نفسها مع بعض الاختلافات غير الأساسية التي كانت الطبيعة والبيئة تفرضها على مستوطنيها وخاصة أذا ما عرفت عنهم أن جوهر هذه العقائد الدينية في العراق هي البيئة والمظاهر الطبيعية، ولا سيما القسم الجنوبي منه بل إن طابع حضارتهم مشتق من بيئة نهرية ذات أحراش وقصب وطمى وغرين وفيضانات وسهول وغيرها[٢١].

وخلاصة القول أنه من المرجح أن يكون أصل السومريين من شمال بلاد الرافدين وأنهم استوطنوا تلك المنطقة منذ عصور ما قبل التأريخ ثم نزحوا تدريجياً إلى مناطق جنوب السهل الرسوبي بعد تعلمهم الزراعة المعتمدة بالدرجة الأولى على الري الصناعي وأسسوا هنالك مدنهم، وهو الرأي السائد لدى أغلب الباحثين وهو ما يمثل اتجاه المدرسة العراقية الحديثة في دراسة المشكلة السومرية.

٢- الجزريون (الساميون):

الجزريون: وهي التسمية التي أطلقت على الأقوام التي جاءت من الجزيرة العربية وقد انتشروا منذ أزمان بعيدة في أطراف الجزيرة ومنها بوادي العراق الغربية، وجزيرة العرب وأطرافها الشمالية وما يعرف بالهلال الخصيب ومن تلك المناطق انحدرت إلى المناطق الأكثر خصوبة مثل وادي الرافدين وسوريا ولبنان وفلسطين وغيرها من المناطق، ومما سهل الاتصال بين الجزيرة العربية من جهة وبلاد الرافدين و بلاد الشام من جهة أخرى هو طبيعة الفرات الأوسط من السهل الرسوبي الذي يتصل اتصالا مباشراً ببلاد الشام مما جعل الأقوام تستقر في تلك المنطقة ومنذ أقدم

العصور و من الجدير بالذكر إن الطبيعة الجغرافية والظروف الاقتصادية التي فرضت تحرك الجماعات البدوية في العصور الحديثة كانت بلا شك هي نفسها التي كانت في السابق قد أدت إلى تحرك الموجات البشرية في العصور القديمة فأن تحرك الجزريين من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال والشمال الشرقي و الاستقرار فيه كان قديما قدم وجودهم فيه[٢٢].

أما عن تسمية (**الساميين**) فقد أطلقه لأول مرة الباحث النمساوي (أوغست لادويك شلوتزر) في عام (١٧٨١) م. وأن هذه التسمية هي نسبة إلى سام بن نوح الذي أقتبسه شلوتزر من العهد القديم (سفر التكوين) الإصحاح العاشر (٢١- ٣١) والإصحاح الحادي عشر (١٠- ٢٦) الذي يتحدث عن أنساب سام بن نوح وأطلق تلك التسمية على الأقوام التي استقرت في سوريا وفلسطين والعراق منذ أقدم الأزمنة وعلى لغاتها المتشابهة. ثم أستخدم المصطلح ليشمل الأقوام العربية الشمالية والأقوام الأكدية والبابلية والأشورية بعد أن ثبت أن لهجات هذه الأقوام ترجع إلى الأصل المشترك نفسه الذي ترجع أليه لغات الأقوام التي استقرت في سوريا وفلسطين وشاع استخدام هذا المصطلح أو التسمية منذ ذلك الحين بين الكتاب والمؤلفين العرب والأجانب على حد سواء للدلالة على الأقوام الكنعانية، الأمورية، العبرية، الأكدية،الأشورية، البابلية، الآرامية، السريانية، العربية الشمالية والجنوبية، وعلى اللهجات التي تكلمت بها وعلى اللهجات التي تفرعت منها، على أن الرأي الحديث أتجه إلى البحث في أصل هؤلاء الأقوام وتسميتهم من الناحية اللغوية وليس من الناحية العرقية. ولا بد من الإشارة إلى إن هناك اتفاقا في الرأي بين معظم الأثاريين وفي مقدمتهم الباحثون العراقيون على ضرورة أعادة النظر في هذا المصطلح الذي لا يستند في الواقع إلى أساس تاريخي مقبول، وإن المفردات (سامي و سامية) تسميات مقبولة طالما استخدمت لأغراض لغوية ولكن لأن اللغات السامية كما أطلق عليها كانت شائعة في منطقة محدودة قبل الفتح الإسلامي الكبير فأن هذا قد دفع بالعديد من الكتاب إلى عدّ الساميين عنصراً خاصاً، أو بالأحرى مجموعة بشرية متناغمة، ويرفض علماء الأنثروبولوجي المحدثون مفهوم (الجنس السامي) لأفراد يشتركون ليس

في اللغة فحسب بل في الخلفية السيكولوجية وفي العادات والتقاليد وفي المعتقدات الدينية أي أن هؤلاء الكتاب يعدّون الساميين شعبا واحدا كبيرا[٢٣].

أما من هم هؤلاء الجزريون فإن نظرية كون الجزيرة العربية مهداً لهم أصبحت في عداد الحقائق والتي فندت النظرية التي تقول أن بلدهم الأصلي هو الصحراء السورية التي كانت مركز انتشار الجماعات الرحالة، فيجب التخلي عن هذه النظري. وكذلك نظرية كونهم من بلاد الرافدين أو إنإفريقيا أو أرمينيا مهداً لهم.

أما متى دخل الجزريون السهل الرسوبي فلا يمكن تحديده على وجه التأكيد ولكن من المؤكد إنه كان منذ فترات قديمة في عصور ما قبل التأريخ كما ذكرت وعن الآراء التي طرحت في هذا الموضوع ما يأتي:

- **الرأي الأول:** يشير إلى أن الجزريين ربما سبقوا السومريين في استيطان بلاد سومر، وإن بعض الباحثين أكدوا على ذلك استنادا إلى أن سكن الموجات الجزرية جنوب بلاد الرافدين أمر طبيعي لقرب الصحراء من جنوبي بلاد الرافدين والاتصال بينهما ولكن من الصعوبة تحديد الوقت الذي دخلت فيه. وإن جداول الملوك السومرية تذكر أريدو بعدّها أول مدينة نزلت فيها الملوكية من السماء قبل الطوفان وتذكر أسم أول ملكين فيها وهما (ألولم– ألاكار) ونجد الاسم له صفة جزرية وربما يوحي بالوجود والتأثير الجزري بين سكانها فضلاً عن المكانة القيادية والإدارية للجزريين ولكن أسم شخص وإن كان ملكاً ليس دليلاً كافياً على ذلك. كما إن موقع مدينة(اريدو) على الجانب الغربي من نهر الفرات في أقصى جنوب بلاد سومر وقربها من شبه الجزيرة العربية يزيد من قوة مركزها التجاري ومشجع على مرور القوافل فيها ومن ثمَّ يزيد من احتمال تأثرها بالعنصر الجزري . وترينا أسماء ملوك مدينة (كيش) البالغ عددهم (٢٢) ملكاً الذين حكموا بحسب جداول الملوك السومرية بعد الطوفان إن فيها أسماء جزرية وعددها(١٢) أسم مثل (كلبم، قالومو، أربئوم..... الخ)، إلى جانب أسماء أعلام جزرية في الألواح والرقم السومرية[٢٤].
- **الرأي الثاني:** يقول بأن الجزريين كانوا قد دخلوا السهل الرسوبي في عصر الوركاء واعتمدوا في ذلك على حدوث تغيير في صناعة الفخار، إذ ظهرت

صناعات فخارية جديدة في ذلك العصر وكانت تحمل تأثيرات الجهات الشمالية والغربية أي من العناصر الجزرية[٢٥].

ومهما كان تأريخ دخول هذه الأقوام إلى بلاد الرافدين فإن أسماء الأشخاص الجزرية تظهر في بعض النصوص المدونة خلال عصر فجر السلالات ويبدو منها إن انتشارهم كان في مناطق مختلفة من أهمها منطقة (كيش) وفي موقع أخر هو موقع تل (أبو الصلابيخ) قرب موقع مدينة نفر في محافظة القادسية، واستنادا إلى نصوص مدينة ماري وبعض الوثائق الأولى يُرى أنهم أصبحوا يشكلون الغالبية من سكان شمال وغرب بلاد الرافدين. وان منهم الاكديون والاشوريون والاموريون.

وهناك فضلا عن هذين العنصرين الرئيسيين أقوام أخرى دخلت العراق واستوطنت فيه وتأثرت بالحضارة العراقية المتمدنة وأخذت منها عاداتها وحتى ديانتها وأسماء آلهتها أي أنهم اقتبسوا العناصر الحضارية واندمجوا في المجتمع ولذلك كان تأثيرهم أما معدوما أو ضئيلا جدا حتى أنهم كتبوا وثائقهم باللغة الاكدية وبالخط المسماري وأضافوا أسمائهم إلى جداول الملوك المتعاصرين كل ذلك يدل على عظمة وقوة الحضارة العراقية بكل أشكالها وتنوعها والتي امتازت بالديمومة والاستمرارية التاريخية[٢٦] ابرزها : .

١-السوباريون:

أتصل سكان بلاد الرافدين منذ أقدم العصور بعدة أقوام خارج البلاد أما عن طريق الاتصالات التجارية أو الفتوح أو الغزو أو الأسفار فأثرت فيهم حضارة بلاد الرافدين كما أثروا فيها، وتغلغل بعض هذه الأقوام إلى موطن هذه الحضارة نفسها فدخلوا في تركيب سكان بلاد الرافدين ومن هؤلاء الأقوام من عرفوا في المصادر المسمارية بأسم (السوباريون)، وقد بدأ ذكر هؤلاء الأقوام منذ عصر فجر السلالات في منتصف الألف الثالث ق.م، حيث يرد ذكرهم لإول مرة في كتابات حاكم لجش (إيأناتم)[٢٧].

أما عن أصل السوباريين ولغتهم فهي غير معروفة لحد الآن وكل ما قيل في لغتهم أنها ليست من عائلة اللغات الجزرية أو الهندو أوربية، وقد أستوطن هؤلاء شمالي بلاد الرافدين في منطقة الجزيرة العليا وشرقي دجلة، وكانت تقع ضمن موطنهم البلاد التي عرفت فيما بعد (بلاد أشور) وذلك قبل هجرة الآشوريين في الألف الثالث ق.م، إذ أزاحوا القسم الأكبر من السوباريين إلى المناطق الجبلية شرقي دجلة، وكان للسوباريين تأثيرات طفيفة لغوية وحضارية دخلت في الثقافة الآشورية من بينها آلهة وأسماء بعض المدن والمواقع[٢٨].

٢-الكوتيون :

وهم اقوام بربرية نزحت من مناطقهم في أواسط جبال زاكروس وهمدان بعد ضعف الدولة الاكدية في عهد آخر ملوكها (شار – كاليشاري ٢٢٥٤– ٢٢٣٠ ق.م)، حكموا العراق قرابة القرن[٢٩].

٣-الكشيون :

لقد غزت العراق في أواخر العصر البابلي القديم أقوام جاءت من الشرق أو من الشمال الشرقي عرفوا بالكشيين. أسسوا سلالة حاكمة جديدة دام حكمها زهاء خمسة قرون. وقد عرف هذا العهد بالعصر البابلي الوسيط الذي يعد من العصور المظلمة في العراق. لم يخلف لنا الكشيون وثائق أو سجلات تاريخية بلغتهم الأصلية وإنما استعملوا لغة بلاد بابل. ويبدو أنهم قد تخلّوا عن ديانتهم التي كانوا عليها ليعتنقوا الديانة البابلية. وقد أسسوا في منتصف عهدهم عاصمة جديدة قرب بغداد الحالية عرفت باسم (دور– كوريكالزو) أي مدينة الملك الكشي كوريكالزو[٣٠].

٤-الحوريون (الميتانيون):

وهم أقوام من بلاد القوقاز نزحت إلى بلاد الرافدين في العصر الآشوري القديم بعد حدوث تغيرات إقليمية وظهور قوى جديدة وانهيار أخرى وأسسوا لهم مملكة في نوزي (يورغان تبة) (وتقع على بعد ١٢ كم جنوب غرب مدينة كركوك حاليا) ومدوا نفوذهم لتشمل مناطق واسعة حتى بحيرة وان في الأناضول ومعلوماتنا عن الميتانيين مستمدة من النصوص المكتشفة في مصر في موقع (تل العمارنة) مرسلة إلى الفرعون المصري (اخناتون) وهي رسائل مدونة بالخط المسماري واللغة الاكدية والتي كانت اللغة الدبلوماسية آنذاك[٣١].

رابعاً: إنجازات العراق قديماً :

إذا انتقلنا إلى نشوء أولى الحضارات في العراق القديم يمكن القول إنها كانت بجهود العراقيين الأوائل في تفاعلهم مع البيئة الطبيعية في وسط وجنوبي العراق. فمن المعروف أن الزراعة تعتمد في العراق دوما على الري الذي كان لا يتم إلا بالسيطرة على الأنهار وإقامة السدود. إن الري– كما هو معروف– كان الدعامة الأساس في الحياة الاقتصادية.

ومن الأمور المعروفة للجميع أن أولى الشرائع المدّونة في العالم قد ظهرت في العراق القديم، وهناك من الإشارات ما يدل بشكل قاطع على ظهور القوانين المدونة في عصور فجر السلالات. إن الشرائع في العراق القديم لم تكن أولى الجهود البشرية في تنظيم الحياة الاجتماعية فحسب بل إنها دوّنت بأسلوب علمي وبلغة قانونية دقيقة. إنها قوانين بهيئة مواد متسلسلة مقتصرة على الشؤون المدنية لا تتعرض للعبادات في شيء[٣٢].

وكان من تمسّك سكان العراق القديم باحترام القانون والنظام أن تصوروا الكون كله على هيئة مملكة تحكمها الآلهة يتجلى فيها مبدأ الطاعة وبخاصة طاعة القوانين والسير بموجب أنظمة المجتمع وأعرافه الشفهية والمدونة[٣٣].

ومن ثمرات الحضارة الناضجة تلك نشوء الصناعات الأولى وكذلك التجارة وبخاصة التجارة الخارجية لجلب المواد الخام التي اعتمدت عليها تلك الصناعات. وما صاحبها من تقدم العلوم الصناعية وفي العلوم الرياضية والفلك وعلم الكون والآداب والفلسفة(٣٤).

وفي سبيل تحقيق الاستقرار والأمن في البلاد، وللحفاظ على هذه المنجزات والمكاسب العظيمة كان من الضروري وجود حكومات قوية مستقرة. وكان الملك في العراق القديم على رأس السلطة حيث عدت سلطته التنفيذية والتشريعية مستمدة بشكل مباشر من الآلهة لحكم البلاد، فهو الذي كان يتولى قيادة الجيش وقت الحرب حيث أن من أولى واجباته المحافظة على حدود الوطن، وكذلك توفير الوسائل الكفيلة التي تساعد البلاد على الرخاء الاقتصادي عن طريق تنفيذ المشاريع الحيوية العامة مثل حفر القنوات والأنهار وبناء المعابد تقرّبا إلى الآلهة. لقد خلّف الكثير من الملوك العراقيين القدماء مآثر كتابية أكدوا فيها ما ذكرناه حتى أن بعضهم قد صوّر نفسه وهو يحمل سلال التراب والآجر رمز قيامه بتنفيذ المشاريع العمرانية الكبرى وبخاصة بناء المعابد تقربا للآلهة. والكثير منهم شرعوا القوانين في سبيل تنظيم الحياة العامة ونشر العدل بين الرعية وظهرت الحاجة الى التوسع والحصول على أراضي خصبة أو مصادر للمياه أو السيطرة على طرق التجارة فتبلورت فكرة الوحدة الوطنية وسعى إلى تحقيقها ملوك وأمراء ومنذ عصر فجر السلالات ومن تلك المحاولات التي قام بلها ملك اوما ومؤسس سلالة الوركاء الرابعة (لوكال زاكيزي)(٣٥). وعلى الرغم من فشله إلا إن محاولته فتحت الباب لمحاولات أخرى وتحققت الوحدة الوطنية لمدن العراق القديم على يد مؤسس الدولة الاكدية (سرجون الاكدي /٢٣٧١ ق.م) أتضح جليا ان القوة بالوحدة فزادت مصادر الدولة المادية والبشرية وتأسس جيش نظامي كبير لحماية حدود العراق لا حدود الدويلات المتنازعة حتى وصل إلى البحر المتوسط واسس هناك مستعمرات اكدية في كبدوكيا وأبرمت المعاهدات لكن على أساس القوة تملي الدولة القوية شروطها كما هو اليوم فانتصر الاكديون نصرا تلو الآخر لكن ذلك انتهى بسبب ضعف السلطة المركزية في اكد في عهد آخر ملوكها كما ذكرت سابقا (شار –

كاليشاري/٢٢٥٤–٢٢٣٠ ق.م) سقطت اكد على يد الكوتيون .وبعده تحققت على يد حمو– رابي ملك بابل من العصر البابلي القديم بعد قضاءه على ممالك أشنونا في الشرق وماري في الغرب وأشور في الشمال وسلالة القطر البحري في الجنوب وأسس حكما مركزيا قويا شرع القوانين والتي شملت كل نواحي الحياة، وتحققت الوحدة في العصر الآشوري الحديث وآخرها في العصر البابلي الحديث، ومن كل ما سبق نجد كيف ان الملوك والحكام في بلاد الرافدين وعلى مر العصور عرفوا أهمية الوحدة والوحدة هي وحدة الأراضي ووحدة السكان على اختلاف انتماءاتهم وأصولهم فانصهروا مع بعضهم البعض مكونين مثالا للوحدة لا للفرقة حتى أن القوانين شملت حتى طبقة العبيد لضمان حقوقهم ومنع الاعتداء عليهم أي كونوا مجتمعا مدنيا متحضرا وغدا رافدا للحضارة البشرية في العالم بما وصل إليه في مجالات الحياة كافة.

بعدها سقط العراق تحت حكم وسيطرة الاحتلال الاخميني عام ٥٣٩–٣٣١ ق.م ودخل عصر جديد هو عصر الاحتلال الأجنبي بسبب ضعف السلطة والتفكك والصراع بين نبونائيد آخر ملوك بابل مع الكهنة في بابل كهنة الإله مردوخ بسبب تغيير العبادة في بابل من(الإله مردوخ الإله القومي للبابليين وبطل قصة الخليقة إلى سين اله القمر) فتفرقت الوحدة وبدأ اليهود بنصب المكائد فتآمروا مع الأخمينيين في إيران ضد بابل وقاموا بفتح بوابات مدينة بابل ليلا فدخلها كورش الاخميني بجيشه بدون مقاومة تذكر، تلاها الاحتلال الأجنبي السلوقي فالفرثي و الاساساني)، وانتهى عصر الاحتلال الأجنبي بالفتوحات الإسلامية وتم فتح العراق سنة ١٥ للهجرة والموافق ٦٣٦ ميلادي بعد الانتصار في معركة القادسية الأولى بقيادة سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وانطلقت منه الفتوحات إلى الشام وإيران وبلاد السند والهند(٣٦).

دخل العراق بعدها مرحلة جديدة تحت راية الإسلام وأنشأت على أرضه مدن جديدة مثل البصرة والكوفة ومن ثم عصر الخلافة الأموية حتى أصبحت مقرا وعاصمة للخلافة العباسية عام ١٣٢ للهجرة الموافق ٧٥٣ميلادي وأنشأت مدينة بغداد

المدورة بأمر من الخليفة جعفر المنصور لتصبح ملاذا للعلماء ومنبرا للشعراء والعلوم كافة[٣٧].

كما أن العراق على امتداد تاريخ الخلافة الإسلامية وبعد سقوط بغداد عام ١٢٥٨م بأيدي المغول وحتى احتلال الأمريكان للعراق عام ٢٠٠٣ م، لم يعرف الانقسام على أساس عرقي أو ديني أو طائفي.. بل عرف التقسيمات الإدارية بأشكالها المختلفة وخصوصا نظام الولايات (الأقاليم الإدارية) باعتبار العراق بلداً موحّداً منذ القدم لقد وجدنا العراق يتشكّل ضمن نظام الشرق الذي كان وراء تأسيسه السلطان سليمان القانوني بتقسيم العراق إلى ولاياته الكبرى الثلاث بغداد والموصل والبصرة، وهي الأقاليم الإدارية التي دامت حتى الاحتلال البريطاني، وخلال تلك الحقبة كانت مصالح العراق مشتركة بين الولايات الثلاث التي يربطها كل من دجلة والفرات.. ولقد تعّززت الروح العراقية وترّسخ مفهوم المواطنة عند العراقيين المتمدنين (الحضر) أي بمعنى: استقرارهم في المكان والفتهم له وتوطنهم فيه واكتسابهم ألوانه وخصائص بيئته.. مكتسبين خصائصه وسماته، بحيث لا يمكن فصلهم عن بيئتهم التي عاشوا فيها أجيالا بعد أجيال. لقد ورثت بريطانيا العراق بشكله الحالي عن الأتراك العثمانيين الذين حكموا العراق أربعة قرون بولاياته الثلاث بحدودها التاريخية. وعليه، فان بريطانيا ورثت حدود الولايات وحدود العراق مع إيران بكل مشكلاتها التي تضمنتها ١٥ معاهدة عقدت على امتداد خمسة قرون.. مؤملا أن نخرج بما ينفع ذاكرتنا اليوم من عِبر و معان .. ولا يمكن التهاون معها أبدا مهما كان هناك من توّجهات مبيتّة لتقسيم وطن اسمه العراق وهذا لابد أن يدركه كل العالم[٣٨].

وخلاصة القول: أن التقسيمات في العراق كانت إدارية فقط على امتداد التاريخ (مثل التقسيمات الحالية / المحافظات والاقضية والنواحي) وهي إدارية بحتة ولم تكن دينية أو طائفية أو قومية عرقية بدءا بتشكيل المدن في العراق القديم، ومن

ثّم: الأمصار في ظل الخلافة الإسلامية ومرورا بالولايات والسناجق (الألوية) في فترة الحكم العثماني[٣٩]، وانتهاء بالمحافظات والأقضية والنواحي في العصر الحديث[٤٠].

كما إن العراق ليس أقاليم مبعثرة وأجزاء متصارعة حتى تتشّكل فيه فيدراليات اتحادية! وهنا لابد أن أشير بأن أي فيدراليات تنشأ في العراق مهما كانت الأجندة دستورية وتتكلم باسم " الوطنية "، فان ذلك سيقسم العراق إلى أجزاء متناثرة لا يمكن أبدا السيطرة عليها، ونحن ندرك بأن العراق له تاريخ ساخن مع جيرانه. ولا يمكن أن يتقبلوا أبدا تشكيل فيدراليات على أراضيهم وأبناء شعبهم، على الرغم من أنهم لا يمتلكون تاريخا وجغرافية موحدة ومتماسكة مثل العراق فكفاهم عبثا وحسدا. إذاً فلماذا هذا السعي المجنون لتقسيم العراق ومن قبل العراقيين أنفسهم؟

اعلموا أن العراق وعلى مر التاريخ كون وحدة جغرافية متماسكة قوية.

فكيف يمكن للعراق الذي يعُد قلب العالم القديم وقلب العالم اليوم أن يحافظ على استراتيجيته إن انقسم على ذاته ليس ضمن اطر وأشكال إدارية كما عاش على ذلك منذ آلاف السنين.. أما إن استخدمت الأعراق والطوائف والخصوصيات المحلية في تقسيم العراق اقاليما أو محافظات فيدرالية، فسوف يفقد العراق ليس استراتيجيته حسب، بل حتى مكانته وكيانه خصوصا وهو يعاني اليوم من أمراض اجتماعية وفكرية خطيرة، ناهيكم عن أن الفيدرالية ليست بندا عاديا، بل إنها مسألة مبدأ ولا اعتقد إن كل العراقيين مجمعين على تطبيقه.

وأخيرا: لابد من كلمة أخيرة إن العراق لم يفهمه أبدا زعماؤه على امتداد القرن العشرين ومن لحق بهم في القرن الواحد والعشرين لما له من خصوصيات تاريخية وجغرافية وضحناها أنفا لم يدركوها.. كما لا يمكنه أن يكون مقسمّا إلى فيدراليات وحكومات محليّة لأن ذلك سيضعف المركز فيه كثيرا، وان حياة العراق الجغرافية والتاريخية والحضارية تقوم على حياة المركز.. إن العراق لا يمكنه العيش بأي صيغة اتحادية إذ

خُلق موحدّا منذ بداياته الأولى وهو قوي أقوى من تحديات اليوم . وإنني أناشد كل العراقيين أن يتنبهوا إلى ما سيفعلونه ليس بأنفسهم فحسب، بل بوطنهم هذا الذي اعتز به القدماء والمحدثين. فهل يريدونه ضعيفا يتقاسمه الآخرون؟

لذلك يتوجب علينا أن نقف إلى جانب العراق بلد التاريخ والحضارة والوحدة وأن نرفض تقسيم العراق على أساس " فيدراليات " تعطي الأقاليم والمحافظات صلاحيات حكومات محلية كل تعمل بما يتوفر لها من صلاحيات، فان هذا تفتيت لوحدة العراق، ولأول مرة في تاريخه.

ختاما: أتمنى أن أكون قد قدّمت مفهوما لمعاني العراق الكبيرة وبعدا تاريخيا نحن بأمس الحاجة إليه في مثل هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي نمر بها لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية ولنقف صفا واحدا فأعداء الأمس هم نفسهم اليوم يتربصون السوء للعراق لأنه يمثل العقدة الأزلية لهم سياسيا ودينيا واقتصاديا وحضاريا .

المصادر والهوامش:

(١) باقر، طه . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الجزء الأول: الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، بغداد، ١٩٨٦، ص،٤٤. وكذلك ينظر: الدباغ، تقي. العراق في عصور ما قبل التاريخ، العراق في التاريخ، بغداد،١٩٨٣، ص،٢١.

(٢) باقر، طه . بغداد، ١٩٨٦، ص،٤٦.
وكذلك ينظر: الدباغ، تقي . البيئة الطبيعية والإنسان، حضارة العراق . ج١، بغداد، ١٩٨٥، ص، ١٧.

(3)Charpin،D.،The History of Ancient Mesopotamia: Civilizations of the Ancient Near East، New York، 2000، V.2، Part،5.P.808.
وكذلك ينظر : الدباغ، تقي .١٩٨٣، ص، ٢٢ .

(٤) تقع مدينة الوركاء على مسافة (٣٠ كم) جنوب مدينة السماوة مركز محافظة المثنى، تتكون المدينة من مجموعة تلال ومرتفعات تبلغ مساحتها (٧ كيلو متر مربع)، نقب الموقع لأول مرة في عام١٨٤٩ من قبل البعثة البريطانية برئاسة (لوفتس) وأستمر حتى عام١٨٥٤، وفي عام١٨٥٦ نقب الموقع من قبل البعثة الألمانية برئاسة (يوليوس يوردان)، واستأنفت التنقيبات مرة أخرى عام١٩٢٨ برئاسة (نولدكه) ثم (لنزن) حتى عام ١٩٦٤، كشفت التنقيبات طبقات عديدة ومن خلال نتائج التنقيبات أرجع تاريخ الاستيطان في المدينة إلى عصر العبيد في الألف الخامس ق.م وحتى الفترة السلوقية، وتم الكشف عن بقايا بنائية تعود إلى عصر فجر السلالات تمثلت ببيت سكني أو ربما يكون قصراً لأحد حكام الوركاء مشيد باللبن المستوي المحدب وجدرانها مملطة بالجص ومزينة بأفاريز من الأعمدة العريضة وتم العثور في أحد الغرف على تمثال لرأس خروف مع رقبة مصنوعة من الحجر الجيري، كما تم العثور على بقايا معبد انانا (عشتار) من الطبقة التي تعود إلى عصر فجر السلالات مشيد باللبن المستوي المحدب، فضلا عن أربعة طبقات من الأبنية التي تعود جميعها إلى عصر فجر السلالات.

(٥) باقر، طه . ١٩٨٦، ص، ١٤.

(6) Roaf، M.، Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East،Oxford، 2003، P. 78.

(7) Postgate، J.N.، Early Mesopotamia، New York، 2003، P. 22.

(8) Kurt، Amelie .، The Ancient near East، New York، 2002، P.27.

(٩) ساكز، هاري . عظمة بايل، ترجمة عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص، ٢٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص، ٢٤.

وكذلك ينظر :

Brinkman، J.A.، Mesopotamia chronology of the historical period، Chicago، 1977، P. 33

(١١) رو،جورج.العراق القديم، ترجمة، حسين علوان حسين، بغداد،١٩٨٦،ص،١٧٣-١٧٨.

(١٢) علي، فاضل عبد الواحد. السومريون والأكديون، العراق في التاريخ، بغداد،١٩٨٣، ص،٢٢٦.

وكذلك ينظر: رو، جورج.١٩٨٦، ص،١١٩، وكذلك ينظر : كريمر، صموئيل نوح. السومريون، تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم، ترجمة، فيصل الوائلي، الكويت، ١٩٧٣.، ص٣.

(13) Labat، R.، Manual D Epigraphic Akkadienne، Paris، 1976، P.312، 461.

(١٤) ساكز، هاري.١٩٧٩، ص٥١.

(١٥) (الفولابك) هي لغة أبتدعها أحد الألمان عام١٩٧٩م في محاولة منه لجعلها لغة عالمية كما تشير إلى ذلك أصل الكلمة الألماني (Vola) و هي بمعنى عالم و (Puk) بمعنى كلام،غير إنها لم تلقى القبول و لم تستعمل قط لهذا الغرض.

(16) Otten،C.M. ،Note on the Cemetery of Eridu، Sumer،Vol.4 ،1948 ،P. 12.

وكذلك ينظر:الأحمد، سامي سعيد. السومريون وتراثهم الحضاري، بغداد، ١٩٧٥، ص١٥.

(١٧) علي، فاضل عبد الواحد. من ألواح سومر إلى التوراة، بغداد، ١٩٨٦، ص٢٦.

(١٨) ساكز، هاري. ١٩٧٩،ص،٥٣ . وكذلك ينظر:علي، فاضل عبدالواحد.١٩٨٦، ص،٢٦.

(١٩) ساكز، هاري.١٩٧٩، ص، ٥٣-٥٤.

(٢٠) فرانكفورت، هنري، و آخرون. ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، بيروت، ١٩٦٠، ص، ١٥١.

(٢١) باقر، طه. ١٩٨٦، ص٦٦.؛ وكذلك ينظر:

Finnegan، J.، Light from the ancient past، London، 1959، P. 29

(22) Cottrell، L.، The land of the two Rivers، London، 1962، P. 42.

(٢٣) عبد الله، عبد الكريم. ملامح الوجود السامي في جنوب العراق، مجلة سومر، العدد٣٠،١٩٧٤، ص،٢٦٢.؛ وكذلك ينظر:علي، فاضل عبد الواحد. ١٩٨٣، ص، ٧٣.

(٢٤) رو، جورج. ١٩٨٦، ص، ٢٠٣: وكذلك ينظر :

حلمي، باكزة رفيق. لغات الجزيرة العربية: العربية أم اللغات السامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧٤، ص١٧٣- ١٧٤.

(٢٥) علي، فاضل عبد الواحد. ١٩٨٣، ص٧٤. ؛ وكذلك ينظر : كريمر، صموئيل نوح. ١٩٧٣، ص،٣٧٣.

(٢٦) الأحمد، سامي سعيد. العصر البابلي القديم، العراق في التاريخ، بغداد، ١٩٨٣، ص١٢٩- ١٣٠.

(٢٧) عبد الله، عبد الكريم. ١٩٧٤، ص٧٠.

(٢٨) باقر، طه. ١٩٨٦، ص، ٧٩.

(٢٩) المصدر نفسه.؛ وكذلك ينظر: باقر، طه. تاريخ العراق القديم، ج١، بغداد، ١٩٨٠، ص، ٨٠.

(٣٠) علي، فاضل عبد الواحد. ١٩٨٣، ص، ٧٨-٧٩.

(٣١) الأحمد، سامي سعيد. ١٩٨٣،، ص، ١٠٣.

(٣٢) سليمان،عامر. القانون في العراق القديم، بغداد، ١٩٨٧.ص،٥.

(٣٣) الدباغ، تقي. الفكر الديني القديم، بغداد، ١٩٩٢، ص، ١٥-١٦.

(٣٤) حول ذلك ينظر : باقر، طه. موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الاسلامية، جامعة بغداد، ١٩٨٠، ص.

(٣٥) (لوكَال زاكَيزي) هو آخر حكام دويلة (أوما) ومؤسس سلالة الوركاء الثالثة، وكان ينتمي إلى طبقة الكهنة فقد كلن أبوه (آواوا) والقراءة السابقة له (بوبو) كاهن الإلهة (نيصابا) إلهة دويلة أوما، وهو على الأرجح يعود لأصول جزرية كما يشير أسم أبيه إلى ذلك.وأتبع (لوكَال زاكَيزي) خلال سنوات حكمه الطويلة سياسة الفتوحات العسكرية فقد أتجه بجيشه جنوباً باتجاه مدينة (أور) وبعض المدن المجاورة، ثم سار بجيشه واتجه

شمالاً إلى مدينة (كيش) وسيطر عليها، ثم دخل (الوركاء) واتخذها عاصمة له مقراً لحكمه وأسس فيها سلالة حاكمة هي (سلالة الوركاء الثالثة)، وحكم فيها ملك واحد هو (لوكَال زاكَيزي) مدة ٢٥ عام، كما ورد في قائمة الملوك السومرية.ويعد بذلك أول من أسس مملكة موحدة في بلاد الرافدين، وأرسى دعائم الوحدة السياسية والحضارية، ولكن لم تكن ظاهرة أتساع نفوذ) لوكَال زاكَيزي(السياسي ومحاولة بسط النفوذ ظاهرة جديدة، فمنذ عهد (أجا) حاكم (الوركاء) كانت هناك محاولات ولكنها غير ناجحة للسيطرة.

أما نهاية هذا الملك القوي فقد جاءت على يد ملك قوي آخر هو الملك (سرجون الأكدي)، مؤسس السلالة الأكدية (٢٣٧١- ٢١١٢ ق.م) ويبدو أن الملك (سرجون الأكدي) تمكن من تجهيز جيش قاده من مدينة (كيش) في حملة عسكرية ضد(لوكَال زاكَيزي)، تمكن خلالها من تحقيق النصر ودخول مدينة)الوركاء(والسيطرة عليها وقام بهدم أسوارها لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ بلاد الرافدين أطلق عليه (العصر الأكدي)، ومؤسسها هو الملك (سرجون الأكدي)، الذي تمكن من تأسيس أول مملكة موحدة امتدت من سواحل البحر المتوسط وكبدوكيا شمالاً حتى الخليج العربي جنوباً.

(٣٦) حول ذلك ينظر : سعيد، مؤيد. العراق خلال عصور الاحتلال الاجنبي، تاريخ العراق، بغداد ١٩٨٣، ص، ٢٣٥-٢٦٨.

(٣٧) حول ذلك ينظر: العلي، صالح أحمد. العراق مقر الخلافة العباسية، بغداد تأسيسها ونموها، تاريخ العراق، بغداد، ١٩٨٣، ص، ٣٦٣-٣٨٦.

(٣٨) حول ذلك ينظر : العابد، صالح. الحكم العثماني الأول، العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣، ص، ٥٧١-٥٨٢.

(٣٩) حول ذلك ينظر :العابد، صالح، و كاظم، علاء موسى. العثمانيون يستعيدون الحكم في العراق، العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣، ص، ٥٨٣- ٦٠٢.

(٤٠) دنكور، الياهو، ودرويش، محمود فهمي. الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦، تم تحريره في بغداد، ١٩٣٧.

نظم المعلومات الجغرافية وتطبيقاتها في مجال الجغرافية الطبية وآثاره البيئية

أ.م.د.محمود حمادة صالح
جامعة تكريت /كلية الاداب /قسم الجغرافية التطبيقية

م.م.عبد الحق خلف حمادة
جامعة تكريت /كلية الاداب /قسم الجغرافية التطبيقية

• مشكلة الدراسة:

تعد تقنيات الاستشعار عن بعد ونظم المعلومات الجغرافية أساليب حديثة لتناول في مجال البحث الجغرافي ومن ثم فأنها نقابل عدداً من المشكلات أهما:

١- القاعدة العريضة من الجغرافيين وخاصة الدول النامية منها الدول العربية ليست على معرفة جيدة بأساليب عملها وطرق استخدامها ومجالات تطبيقاها .

٢- وجود جبهة معارضة انطلاقاً من عدم المعرفة بتقنية GIS والاستشعار عن بعد والاعتقاد إن هذه الأساليب لا تدخل مجال بحث الجغرافي دفاعاً عن المناهج والأساليب المعتادة .

٣- مجال الجغرافية الطبية نفسه مجهول لدى بعض مما يجعل مجال تطبيق التقنيات فيه أمر قليل الشيوع .

٤- وجود عدم فهم واختلاط للأمور (Confusion) لدى البعض الذي يفتقد بان تقنية (GIS) هي حكر على بعض الجغرافيين بحكم التسمية، وهذا غير حقيقي تاريخياً وفعلياً.

• أهداف الدراسة:

تبين أهداف الدراسة الآثار الايجابية العديدة لتطبيق التقنيات الحديثة في مجالات الجغرافية والبحث العلمي، وما يتعلق بموضوعات الجغرافية الطبيعية (Geography Medical)[١] إذ من أهداف الدراسة توضح كيف ان للتقنيتين

أسهمها في إثراء بحوث الجغرافية الطبية في مجال بيئة المرض والرعاية الصحية والخدمات ومعرفة الأمراض المتوطنة وتحقيق استئصال بعض الإمراض او على الأقل تقليص الإصابة بالإمراض وعلى راسها (الكوليرا، والملاريا) اكبر الأمراض فتكاً والمنقولة بواسطة الماء ونواقل المرض .

ومن أهداف الدراسة تعريف الجغرافيين بأهم الدراسات التي نهض بها أصحابها في العالم وهي الاستفادة من الدراسات الطبية في كافة الاختصاصات العلمية وانجاز البحوث والدوريات الطبية وخاصة استخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية فضلاً عن البعد المكاني الذي يضفي على التحليل صفة الجغرافية .

• منهج الدراسة

هو استخدام الدراسات التقنية في الأقاليم الكبرى كما استخدم منهج البحث التاريخي وتحليل الدراسات ذات العلاقة، والخاصة بالجانب الطبي ثم استخدام تقنية نظم المعلومات الجغرافية في المجال الطبي والتحليلي وفي سياق الدراسة، لن يتطرق التحليل كثيراً لشرح التطبيقات المختلفة وطبيعة الدراسات ومناهجهما العلمية المستخدمة في التقنيات والتعبيرات الفنية الواردة في الدراسة .

علاقة التقنيات الحديثة بالدراسة الجغرافية

سبق وان عرفنا على اهمية نظم المعلومات الجغرافية، والتي يمكن استخدامها لاستخراج الخرائط وتحليل البيانات الرقمية وربطهما بقواعد المعلومات الجغرافية لتحديث البيانات وتخزيها وادخالها وربطها بالبيانات المكانية وتحليها وعرضها .

بمعنى توزيع البيانات مكانياً (Spatially) وتكون البيانات احياناً في صور خريطة تحوي خصائص وصفية لمنطقة ما تسجل كخطوط ومساحات ورموز.

ولكن التطور في مجال التقنيات والبرامج في الحاسب الآلي زاد بصورة سريعة وأصبحت نظم المعلومات الجغرافية نوعاً خاصاً من نظم المعلومات التي يتعلق

بتمثيل نموذج ومعالجته يوضح حقيقية وهذا النظم شديدة الارتباط بالخرائط المدعمة بالكمبيوتر [٢].

ونظم المعلومات الجغرافية تعد فوائد جمة لمعظم العلوم بصفة عامة للتطبيقات الجغرافية بوجه خاص واذا ماقصرنا الحديث عن فائدتها لعلم الجغرافية، نجد هناك ثنائية لهذه الفائدة الأولى منهجية تتعلق بإثراء العلوم الجغرافية فكراً ومنهجاً، الأخرى تطبيقية تنفيذية عملية تتعلق بأمور التخطيط والتطوير [٣].

اذا ازداد التركيز في البداية على التطبيقات الطبيعية اثر في تطور GIS مما جعل معظم هذه البرامج المتاحة غير مناسبة لنمذجة الظاهرات الاجتماعية والاقتصادية اذ زاد الاهتمام بتطبيقات GIS في الجوانب الطبية الاجتماعية التي تخص الإنسان وحياته اليومية وتمثيل البيانات المهمة وخاصة الجوانب الطبية السكانية (Go demography)[٤].

لقد وصلت تقنية نظم المعلومات وخاصة الجغرافية البيئية والطبية ومجال البيئة الأساسية والمنافع العامة والبلديات وما الى ذلك من شئون حضرية وقروية علماً بان استخدام GIS في البداية لم يكن قاصراً فقط على الدول المتقدمة، أنما لحقت بها بسرعة بعض الدول النامية ممن أطلق عليها في الماضي القريب تعبير النمور الأسيوية .

تقنية GIS في العلوم الاجتماعية والسكانية

ازداد الاهتمام في تقنية نظم المعلومات الجغرافية وتحليل البيانات السكانية لوحدات مساحية معينة، ورسم خرائط لهذه البيانات ثم تحليلها وتفسيرها في الجوانب الاجتماعية والسكانية وتطبيقها في الجوانب الطبية، يلاحظ ان الاستفادة من التقنيات الحديثة بالنسبة للنواحي الصحية مقارنته بغيرها من النواحي الصحية واستخدام التقنية هو جانبين:

الاول: الدراسات الوبائية للمرض (Epidemiology[٥]) .

والثاني: في الرعاية والتخطيط الصحي والتقني المستخدم للجانبين وكانت بريطانية من اوائل الدول التي استفادت من نظ المعلومات الجغرافية في مجال الرعاية الصحية وكونت قواعد بيانات متقدمة قائمة على أساس مكاني .

آذ أن تقنية نظم المعلومات مناسبة لتحليل كل بيئة المرض ووبائية، وتخطيط الرعاية الصحية، كما كان للجانب الإحصائي واستخدام قواعد البيانات الجغرافية وإضافة الآلة الجغرافية التحليلية والتي طورت لتحليل تركزات السرطان في شمال انكلترا والتطورات م تسجيلات الأمراض وعناوين المرض والترميز الجغرافي .

والجدير بالذكر أن تقنية GIS يجب ان تتطور على أنها أداه سحرية تحل كل المشكلات، ألانها ذاتها التي تعاني من عدة مشاكل اغلبها لا يتعلق بها بقدر ما يتعلق بطبيعة المعلومات والحالة التي تم فحصها، وذلك يتباين حسب المناطق وجميع البيانات على أساس الربط بين النقاط والبيانات الصحية من ناحية والظاهرات المكانية الأخرى من ناحية ثانية وكذلك طول الفترة الزمنية بين التعدادات‌السكانية وصعوبة حساب المرض الحقيقي والمحتمل. لهذا يكون تطبيقات GIS في الجانب البيئي أسهل منه في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية.

لقد استخدمت التقنيات الحديثة في كشف الأمراض وتؤطنها وخاصة في الدول الكبرى مثل الصين اذ تم كشف مرض البلهارسيا في شمال الصين وكذلك مرض الملاريا أكثر الأمراض السائدة في العالم بالاهتمام الأكبر، اذ يصيب مابين ٣٠٠-٥٠٠ مليون شخص سنوياً ويصل نصيب إفريقيا المدراية إلى أكثر من ٩٠% من هذه الإصابة ووفياتها[٦].

وفق الدراسات الحديثة هو معالجة النواحي الصحية واكتشاف القدرات الكامنة وتحليها الدقيق والسبب هو تناول الباحثين موضوعات الجغرافية الطبية باسهامة تقنية GIS والذي سيفتح افاقاً أمام الباحثين .

الجغرافية الطبية

من الوصف و الملاحظة الى استخدام التقنيات الحديثة

تطورت مناهج الجغرافية الطبية مواكبة في ذلك الجغرافية نفسه لذا اعتمدت كتقنية فروع الجغرافيا على ماكان متاحاً في مراحل تطور الجغرافية من أدوات وتقنيات موجودة وأصبح المنهج الكارتوكرافي أهم مدخل الجغرافية الطبية في تطورها .

مثل استخدام الأسلوب الخرائطي في دراسة الصحة والمرض وتوزيع الأمراض والأوبئة وخاصة مرض الكوليرا في مدينة لندن في القرن التاسع عشر وعلى غرار هذة الدراسات تكونتا دراسات حديثة لكشف على الأمراض والأوبئة في كافة إجراء العالم وخاصة في السبعينيات والثمانينيات، اذ أصدرت العديد من الأطالس المتخصصة في الجغرافية الطبية مثل أطلس القوي للوفيات من الإمراض المختلفة في بريطانية وأمريكا واليابان وكذلك أطلس توزيع الأمراض والأوبئة في العالم[٧].

ولكن اثبت أن الطرق التقليدية لرصد الأمراض والأحوال الصحية وتوقيعها على خرائط يحتاج لوقت طويل جهد فائق وتمويل كبير، وكان ذلك من عقبات قصور الأسلوب الخرائطي وخاصة في البيئات الكبرى كأفريقيا المدراية الأقاليم الساحل الأفريقي او حوض الأمازون او شبة القارة الهندية وجنوب شرق أسيا كلها مناطق تحتاج الى تحليل دقيق للأمراض أو الأحوال الصحية بها[٨].

لهذا السبب زادت الإمراض في تلك البيئات بسبب قلة الدعم الصحي والوعي الصحي لدى الإنسان وكذلك ضعف الحالة المعايشة كله أدى إلى انتشار هذه الأوبئة وتفشيها بشكل ملحوظ .

اذ ان هناك ثلاث متغيرات وهي (المناخ والمكان والعمل) على صحة الانسان حيث اوضحت الدراسات ان المتغيرين الاولين يتعلقان بعوامل فيزيائية اما المتغير الثالث فهو يرتبط بالجانب الاجتماعي للانسان[٩].

تطبيق GIS في رصد الأوبئة وتحليلها في البيئات الكبرى

تطورت التقنيات الحديثة في مسح مناطق كبير من العالم عن طريق التطور العلمي الحديث في مجال الاستشعار عن بعد ونظم المعلومات وتحليل الصور والبيانات الفضائية ومراقبة التغييرات الحاصلة في البيئات وتقديم المساعدة لهذه الدولة في حل مشاكلها الصحية والبيئة التي تضر في الجانب الصحي لدى الإنسان ومن هذه الدول الكبرى شرق أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وذلك للتعرف على البيئات الناقلة للمرض والأحوال الصحية المصاحبة لها في تلك الدول[١٠].

اذ ساعدت هذه التقنيات على رصد بؤر الإمراض وتباينها من مكان إلى أخر والتعامل معها وما يترتب من حالات طارئة وتشخيص نواقل الأمراض من خلال إعداد قواعد بيانات لتلك المناطق والسيطرة عليها .

ومن تلك الأمراض الأكثر انتشاراً هو مرض الملاريا والذي حظي بأكثر الدراسات إذ انه أكثر الأمراض المنفردة تاثيراً في صحة البشر على سطح الأرض. ويلاحظ ان أوبئة الملاريا تتأثر بالتغير في البيئات الملائمة لعينة نواقل المرض (Vectors) والأماكن التي تعد بيئة مناسبة لها (Habitats) وهذه البيئات تختلف باختلاف الأنواع والسلالات الخاصة بالملاريا وتنشر في جنوب أفريقيا وجنوب أسيا واثبت الباحثون الذين درسوا هذه المناطق وثبت بعدها ان العوامل الاقتصادية والاجتماعية في غاية الأهمية في تسهيل تفشي المرض[١١].

ويمكن استخدام تقنيات الاستشعار عن بعد نظم المعلومات الجغرافية في رصد هذه المناطق من خلا الصور ومعرفة مدى التغير الذي حدث في البيئات الكبرى ومعرفة المناطق ذات الأوبئة الطفيلية بها قبل وقوعها مما يساعد على التخفيف من أضرارها وخاصة في المناطق المدارية .

دراسة الأحوال المرضية في البيئات المتوسطة

تعد هذه التقنيات الاساس الاول لمعرفة وتحديد هذه الامراض وخاصة في المناطق ذات البيئات المتوسطة والكبرى اذ تعطي سلسلة من الخرائط التي توضح الاصابة بالملاريا ودرجاتها في هذه الدول مما أتاح تخصيص البرامج لمكافحة المرض والاستعانة بتقنية GIS التي ساعدت على اكتشاف موسمية المرض[١٢].

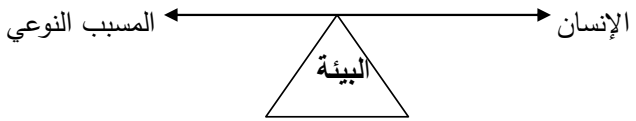
وتزايد الاصابة في الفصل الدفئ والرطب، ووجدا ارتباطاً واضحاً بين المرض وعوامل جغرافية مثل عدم وجود هذه الموسمية للمرض في الاماكن التي تقل في ارتفاعها عن ٦٠٠م، اذ يوجد نمط اصابة للمرض بصفة دائمة، فان التعرف على درجة الحرارة الملائمة لكل نوع من النواقل يعد نقطة البداية وحجر الزاوية في هذه المكافحة، لذا يتطلب معرفة عناصر المناخ ومعرفة البيانات المناخية والبيئة مع الاصابات التراكمية وتحديد اهم العوامل المرتبطة معدلات عالية الإصابة في سنوات معينها .

ومن خلال دراسة العناصر المناخية والبيئية للأمراض ودمجها من خلال GIS وضح أن درجة الحرارة وكمية المطر قد زادت من معدلاتها الإصابة بالملاريا وقد لوحظ من تغيرات الحرارة بين النهار والليل وبين الفصول لها تأثيرها الكبير في درجة انتقال المرض .

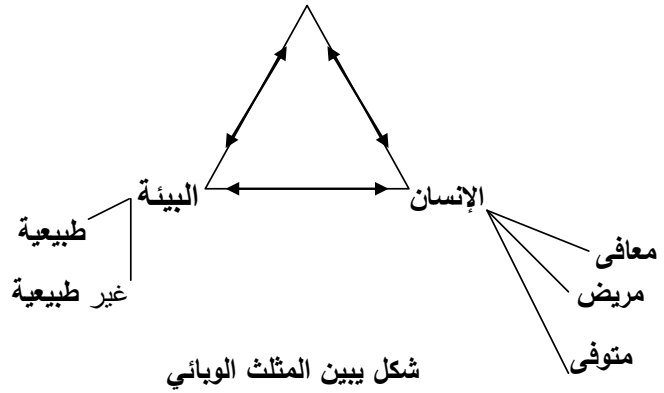
والمشكلة امام تقنيات الاستشعار عن بعد وGIS في المناطق المتوسطة المساحة هو نقص الابلاغ عن حالات المرض او التبليغ عنها لمنظمة الصحة العالمية ولو حظ ان اثر التغير المناخي على التغير في معدلات الاصابة بالملاريا هو اقوى العوامل المؤثرة في هذه المناطق والسبب هو العوامل المناخية ومن خلال تطبيقة التقنيات ان مرض الملاريا هو اكثر الانتشار والتي تم معرفتها من خلال تحليها بواسطة نظم المعلومات الجغرافية المدمجة مع بيانات وبائية .

وبشكل عام نتج مما سبق بان هناك ثلاثة عوامل رئيسية تقرر الصحة ومستوياتها وتسمى بعناصر النظام البيئي[١٣].

١- العامل المضيف (الانسان).
٢- المحيط (البيئة).
٣- محدث المرض (المسبب).



نلاحظ البيئة المحيط بالمسبب النوعي وبالإنسان
نشط ..... المسبب النوعي .....حامل



شكل يبين المثلث الوبائي

تمثيل النظام البيئي بمثلث تشكل عناصر النظام رؤوسه الثلاثة وتشير الأسهم الاتجاه المزدوج الى حالة التفاعل المستمر بين هذه العناصر

ويلزم للاستفادة القصوى من التقنيات المذكورة شروط منها، وجود مقاييس استقرائية على المستوى المحلي تتطور للمستوى الإقليمي والعالمي، وكذلك صياغة فروض جديدة تقترب في الحقيقية لتحليل أنماط نواقل المرض وعوامل الخطر من نقل المرض من مكان لأخر .

والمعروف إن مرض الملاريا يتوقف او يقل عند درجة حرارة اق من١٦ درجة مئوية لأنواع منها وبين ١٦- ١٨ درجة مئوية للأنواع الأخرى، ومع ذلك يمكنها الحياة عند درجات حرارة اقل في أماكن المناخات الصغيرة وتساعد الأمطار والحرارة المرتفعة فجاة الرطوبة الزائدة مع وجود الملاريا في غير مناطقها التقليدية[١٤].

وفي هذه الحالات فان GIS يستخدم الخرائط آلية وتحليل البيانات العقدة للمناطق الأكثر احتمالاً للتعرض للملاريا وذلك بمساعدة تقنية الاستشعار عن بعد ضمن ((الاندسكيب)) او الظروف المناخية من ناحية أخرى لكشف التغير في نمط الناتج تأثيرات ظاهرة النينو .

استخدام تقنية GIS في تحليل المرض في المدن

لعبت تقنية GIS دوراً فعالاً في رصد الأمراض وخاصة في المدن اذ ركزت منظمات الصحة العالمية والدولية في تدعيم استخدامات هذه التقنيات في المدن من خلال البرامج وإدارة المشكلات في المدن واستخدام المؤتمرات الجغرافية التي حدث الجهود على انجاز البحوث في هذه الجانب وخاصة المدن الكبرى التي تتعرض للفيضانات والكوارث ودراسة هذه المدن بشكل مفصل ودراسة الضواحي والقرى التابعة لها .

واستخدام البيانات والخرائط لدراسة المدن وكشف التغييرات التي لحقت بالمدينة بعد تعرض بيئي او طبيعي .

وبمساعدة تقنية GIS وكبرت الصور الأصلية لمقياس ١/١٠٠٠٠ لمعرفة تطور تركيب المدنية وبمساعدة الصور الرقمية تم دراسة علاقة التغيرات بمورفولوجية المدنية وكيف وجدت بيئات صغرى داخلها فيما يخص المرض، وتحديد عوامل الخطر من أتاح رسم السياسة الصحية التي تسمى السكان الأمراض.

ومجالات استخدام التقنيات الحديثة متعدد الجوانب في المدن خاصة بعد زيادة الاهتمام بالحفاظ على صحة البيئة الحضرية، المستديمة وقد زادت في السنوات الأخيرة الدراسات المستخدمة للتقنيات الحديثة في تطبيقات البيئة الاجتماعية والاقتصادية للمدن، ولاسيما مايخص نتائج التعدادت العامة للسكان(١٥).

وقد اختلف استخدام GIS في مدن العالم النامي عنه في مدن العالم المتقدم في نوعية المرض فقط، ففي البلدان النامية كالهند استخدمت في دراسة إمراض معدية وبائية طفيلية وتحليلها مثل الملاريا كما استخدمها ((هيما)) في صياغة برامج فعالة للتحكم في الملاريا .

استخدام التقنيات الحديثة
في مجال الرعاية الصحية والتنمية المستدامة

بان من الضروري استخدام التقنيات الحديثة في مجال الرعاية الصحية والذي دعاء المخططين الى الاهتمام بهذا الجانب الجانب الرعاية الصحية ومعرفة فؤاد هذه التقنيات ومصداقيتها وسرعة تطبيقاتها في هذا الاختصاص .

وبعد ان كان تطبيق التقنيات تطوراً على الدول المتقدمة زاد الاهتمام بتطبيقاتها الدول النامية التي هي أولى بالبحث العلمي المتقدم لمحاربة أطرافها المزمنة وخاصة الوبائية والطفيلية اذ استخدمت هذه التقنيات في تحديد مناطق النفوذ والمناطق التابعة المراكز الخدمية الصحية والعيادات الطبية .

وافادة GIS في تحليل المرض والتعرف الوضع البيئي في مناطق التماس بين منطقيتين ذات نظم صحية متفاوتة المستوى سوء من ناحية نمط المرض ومستوى الرعاية الصحية وساعدت هذه التقنيات على معرفة بؤر التوطن ومكافحة الأمراض المعدية فكل مجتمع له امراضة الديموغرافية والاجتماعية في استجابة للمرض والصحة، مما يستدعي إن تكون استراتيجيا الرعاية الصحية جد متباينة لتتناسب كل

مجتمع وليس اصلح لتحيل هذه البيانات من التقنيات الحديثة. إذا كان الإنسان إبن بيئته، فمن البديهي أن يكون للبيئة بالغ الأثر على مجاله الحيوي، على صحته وسلوكه وشخصيته، وعلى سائر جوانب نشاطه البيولوجي والنفسي والسيكولوجي.

هذه العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة هي مادة الجغرافياالطبية، تدرس أدق التفاصيل، وتعرض لما تخلفه البيئة من ضرر على صحة الإنسان، وما ينتج عنها من أمراض، تهتم بدراسة المرض ونوعه، والبيئة التي ينشأ فيها، وتحدد مسببه وناقله ومضيفه، والمتضرر به ودورة حياته، كما تعرض للظروف البيئية المؤاتية للمسبب وللناقل وللعائل.

إن دراسة من هذا النوع تتطلب من الباحث الإحاطة بإختصاصات عدة، لتعدد المتغيرات التي تدخل في مضمونها ومحتواها، وتعين على فهم أسلوب العلاقة بين المتغيرات في بيئاتها المختلفة.

هذا ما يفسر جدة الابحاث المؤلفة في هذا المجال وندرتها، كما ينوه بأهمية بحثنا هذا، ومدى الجهد الذي بذله الباحث في إعداده، حيث أظهر ثقافة متنوعة شاملة، متعددة الجوانب والإهتمامات، يسرت له أن يكون فتحاً جديداً في مادته وموضوعه(١٦).

اكدت الدراسات والبحوث الى معرفة نمط توزيع الامراض جغرافياً بسبب التباينات المكانية في العالم وان هذا التباين المكاني ترتبط بعوامل بيئية مسببة وناقلة للامراض والاوبئة، ضمن وصف مكاني جغرافي مستفيداً من تنوع الظاهرات وتباينها الاقليمي،ومدى احتمالية استخدام الخرائط في تمثيلها حول انتشار الامراض في جنوب افريقيا من ناحية جغرافية(١٧).

التوصيات والاستنتاجات :

مع ان البحث قد اوضح مسببات انتشار الامراض والاوبئة في مجال الجغرافية الطبية وتفاعلها مع العوامل البيئية التي تتضمن بعضها عناصر انتشار المرض كتلك المتعلقة بالتركزات البيئية والاقليمية في العالم وارتباطها بالطبيعة كانتشار المستنقعات والمناخات المختلفة في العالم، التي تساعد على نمو وتفاعل الامراض ضمن هذه البيئات العالمية .

هذه العوامل كلها ادت الى استخدام التقنيات الحديثة باسلوب جغرافي واضح يعطي منهجية تقنية حديثة لاكتشاف بؤر التوطن والامراض ومعرفة البيئات المسببة والمساعدة لانتشار هذه الاوبئة في مناطق مختلفة من العالم .

ومن دراسة تلك البيئات المتباينة واستخدام التقنيات الحديثة مثل (GIS) والاستشعار عن بعد في هذا المجال خرج البحث بالاستنتاجات الاتية :

١- وجود بيئات مختلفة من العالم تساعد على انتشار الامراض وتنوعها بفعل المناخات المختلفة مما اعطاها صفة السيادة في تلك البيئات .

٢- ان للخصائص الديموغرافية العمر والجنس والعوامل الوراثية اثر كبير في ارتفاع حدوث الصابات بالامراض والاوبئة وتفاعلها مع البيئة المسببة للمرض.

٣- تلوث البيئة ساعد على ظهور تلك الامراض وانتشارها وخاصة في البلدان النامية التي تعاني من سوء الحالة الاقتصادية وسوء التغذية وضعف الثقافة الصحية وقلة المراكز المتخصصة لعلاج هذه الامراض.

٤- الزيادة السكانية متمثلة بالانفجار السكاني والتركز الصناعي والحضري عمل على انتشار الامراض ضمن تلك البيئات .

اما التوصيات فكانت:

١- ضرورة استخدام التقنيات الحديثة في الجغرافية والبيئة وخاصة نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد كي توفر البيانات المطلوبة البحثية واقامة الدوائر الوقائية لرصد تلك الاوبئة.

٢- تحديد البيئات المسببة لانتشار الامراض وفق التحري الحديث واستخدام التقنيات ضمن تحديد مناطقها ورصد بؤرها .

٣- خلق وعي بيئي عالمي مثل اقامة المؤتمرات البيئية والصحية ونشر الوعي الصحي في العالم.

٤- ضرورة العمل على تشجيع البحوث والدراسات التي تتناول موضوع الجغرافية الطبية التي تختص بتوزيع الامراض مكانياً.

الهوامش:

(١) الجغرافية الطبية موضوع فرعي جغرافي يركز على دراسة موضوعين مهمين هما:
١- بيئة المرض (Disease Ecology).
٢- الرعاية الصحية والخدمات.

(٢) محمد عزيز الخزامي، نظم المعلومات الجغرافية، القاهرة،٢٠٠٢، ص١٥٣.

(٣) نظم المعلومات الجغرافية وعصر المعلوماتية، محمد عبد الجواد محمد علي، دار الصفا للنشر والتوزيع،عمان ٢٠٠١، ص١٠٣.

(٤) يعني التعبير عن الجوانب الديموغرافية الطبية، التي يمكن تحليلها من خلال العديد من البرامج الخاصة بالحاسب الالي والتي تعتمد على قواعد البيانات التي تدمج بين الامراض والرعاية الصحية ضمن وحدات سكانية جغرافية بعينها.

(٥) وتعني الوبائية علم الاوبئة ويركز على انتشار الامراض وطرق هذا الانتشار وما يتضمنه من ابعاد مكانية لانتشاره .

(٦) منظمة الصحة العالمية، دراسات في توطن الأمراض والأوبئة، التقرير السنوي للصحة، ٢٠٠٥،٤٢٠.

(٧) دراسات في الجغرافية الطبية، د محمد مدحت جابر، د فاتن محمد ألبنا، مكتبة الانجلوا المصرية، ٢٠٠٤، ص٦٣٢.

(٨) محسن عبدالصاحب المظفر، التحليل المكاني لامراض متوطنة في العراق،دراسة في اسس الجغرافية للتخيطيط الصحي، اطروحة دكتوراه (منشورة) مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٩.

(9) Mcglashan,N..D,Medical Geography- Techniques &Fierd Studies , Methuen &Co,ltd.1973p.3-4.

(١٠) طارق أسامة صالح، الصحة والبيئة، مكتبة المجتمع العربي للنشر، الأردن، ٢٠٠٥، ص٧٥.

(١١) د يعقوب يوسف الكندي، الثقافة والصحة والمرض رؤية جديدة في الانثروبولوجيا المعاصرة، مجلس النشر العلمي،جامعة الكويت،٢٠٠٣، ص٢٨٨-٢٨٩.

(١٢) موسمية المرض تعني زيادة حالات الاصابة في وقت معين من السنة تكون فيه الظروف مهياة لذلك ومن الامثلة زيادة الامراض المعدية كالملاريا والبلهارسيا وخاصة فصل سقوط المطر الصيفي في القارة الافريقية.

(١٣) د.عصام حمدي الصفدي، مبادئ علم وبائيات الصحة، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، ٢٠٠١، ص١٨.

(١٤) احمد حافظ موسى، وآخرون الأمراض المتوطنة بإفريقيا واسيا، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٥، ص٨١.

(١٥) محمد الخزامي عزيز، نظم المعلومات الجغرافية أساسيات وتطبيقات للجغرافيين، منشاة المعارف بالإسكندرية،٢٠٠٤، ص١٤٤.

(١٦) د.محسن عبدالصاحب المظفر، الجغرافية الطبية منهجاً ومضموناً وتحليلاً، مطبعة دار شعاع، ليبيا، ٢٠٠٢، ص٧.

(17) Howe,G.M.World Geography of Human Diseases,Academic press,London,1977,p.p507-528.

المصادر:

١- صفوح خير، البحث الجغرافي مناهجه واساليبة،المقدمة،الرياض،١٩٩٠.
٢- محمد عزيز الخزامي، نظم المعلومات الجغرافية، القاهرة،٢٠٠٢.
٣- محمد عبد الجواد محمد علي، نظم المعلومات الجغرافية وعصر المعلوماتية، دار الصفا للنشر والتوزيع،عمان ٢٠٠١.
٤- منظمة الصحة العالمية، دراسات في توطن الأمراض والأوبئة، التقرير السنوي للصحة، ٢٠٠٥،٤٢٠.
٥- محمد مدحت جابر، فاتن محمد ألبنا،دراسات في الجغرافية الطبية، مكتبة الانجلوا المصرية،الطبعة الاولى،٢٠٠٤.
٦- طارق أسامة صالح، الصحة والبيئة، مكتبة المجتمع العربي للنشر والطباعة، الطبعة الاولى، الأردن،٢٠٠٥.
٧- يعقوب يوسف الكندي، الثقافة والصحة والمرض رؤية جديدة في الانثروبولوجيا المعاصرة، مجلس النشر العلمي،جامعة الكويت، الطبعة الاولى، الكويت،٢٠٠٣.
٨- عصام حمدي الصفدي،مبادئ علم وبائيات الصحة،دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الاولى،عمان،٢٠٠١.
٩- احمد حافظ موسى، وآخرون الأمراض المتوطنة بإفريقيا واسيا، مؤسسة سجل العرب، الطبعة الاولى، مصر،١٩٧٥.
١٠- محمد الخزامي عزيز، نظم المعلومات الجغرافية أساسيات وتطبيقات للجغرافيين، منشاة المعارف بالإسكندرية،الطبعة الاولى،الكويت،٢٠٠٤.
١١- محسن عبدالصاحب المظفر، الجغرافية الطبية منهجاً ومضموناً وتحليلاً، مطبعة دار شعاع،الطبعة الاولى، ليبيا،٢٠٠٢.
١٢- محسن عبدالصاحب المظفر، التحليل المكاني للامراض المتوطنة في العراق، دراسة في الاسس الجغرافية للتخيطيط الصحي،اطروحة دكتوراه (منشورة) مطبعة الارشاد، بغداد،١٩٧٩.

المصادر الاجنبية:

1- Howe ،G.M.World Geography of Human Diseases, Academic press ،London1977 .
2- Mcglashan,N..D,Medical Geography- Techniques &Fired Studies , Methuen &Co,ltd.1973.

الجيمورفولوجيا بين الأفكار القديمة والحديثة
دراسة مقارنة

أ. م.د. محمد عباس حسن
جامعة تكريت /كلية الآداب /قسم الجغرافية التطبيقية

م.م. لطيف مزعل صالح
جامعة تكريت /كلية الآداب /قسم الجغرافية التطبيقية

مُقَدِّمَة

الجيمورفولوجيا هو العلم الذي يهتم بدراسة أشكال سطح الأرض وهي كلمه مشتقة من الأصل الإغريقي (morpho) تعني الأرض والمقطع الثاني (Geo) وتتكون من ثلاث مقاطع الأول(Geomorphology) ويعني علم أو دراسة وبهذا تكون علم شكل الأرض. (logy) وتعني النشأة أو الشكل والمقطع الثالث وهي من فروع علم الجغرافية الرئيسة التي تهتم بدراسة أشكال سطح الأرض التفصيلية والتمييز بينهما من حيث النشأة والتوزيع الجغرافي والعامل والعملية والزمن التي حددت تطور هذه الإشكال، فضلا عن وصفها وتصنيفها وطرق تكوينها فيما أذا كانت من أصل عملية واحدة أو عدة عمليات.

يعد علم الجيمورفولوجيا من العلو م الديناميكية التي تطورت عبر الزمن اذا ما تتبعنا المراحل التاريخية التي مرت بهذا العلم من خلال زيادة حجم الأعمال وأعداد الدارسين فضلا عن تعدد مناهج الدراسة بأساليبها الجديدة التي تم من خلالها التوصل إلى نتائج دقيقة وحقيقية، أن التطور السريع لهذا العلم يتطلب مراجعة تاريخية تتحدد من خلالها جوانبه الحديثة بالرجوع إلى أطواره ألتاريخيه.

تهتم الدراسات الجيمورفولوجيه في عدة جوانب منها نشأة الكون، ونشوء القارات، والوضعية الجيولوجية التي استقرت عليها الصفائح القارية أي نظريات زحزحة القارات،ودراسة الحركات التكتونيه كالزلازل والبراكين كعوامل داخلية والمناخ

وعناصرة كعوامل خارجية وتطورها وأثرها في تشكيل سطح الأرض ودراسة الصخور وكيف تكونت وبنيتها التركيبية .

وعمليات التجوية والتعرية، واثر المنحدرات، والعمليات النهرية وأثارها على سطح الأرض،والآثار التي تتركها عمليات النقل والنحت والإرساب للرياح والجليد التي بمجموعها تحدد الصورة النهائية لشكل سطح الأرض حيث يبدأ التغيير في البنية الداخلية لشكل سطح الأرض عند حدوث ظاهرة تعمل على تشويه الشكل الخارجي مثل حدوث قطع لالتواء نهري فضلا عن استقامة المجرى نتيجة تطور التعرية الجانبية عند رقبة الالتواء،بينما تعزى بداية التغيير إلى مؤثرات خارجية فضلا عن اثر هذه العوامل على حياة الإنسان .كذلك تتطرق في بعض الجوانب التطبيقية بالإشارة إلى دور الإنسان في المشاركة في تغيير شكل سطح الأرض من خلال عمليات الردم والحفر ،واستغلال موارد الأرض بصورة غير عقلانية التي ولدت بدورها استجابة عكسية لكون هذه الطريقة في الاستغلال لاتنسجم مع عناصر البيئة الاخرى.

أن العوامل السابقة بمجموعها تتطلب استحداث دراسات جديدة أكثر شمولية وأكثر دقة في مجال الدراسات الجيمور فولوجيه سميت(الجيمورفولوجيا التطبيقية،علم شكل الأرض التطبيقي) الذي يعرف بأنة(العلم الذي يقوم على استخدام المقاييس والتقنيات الحديثة لمسح أشكال الأرض وتحديد إبعادها وقياس العامل والعملية الجيمورفولوجية التي ساهمت في نشأتها، وتحليل العلاقة بينها، وتطبيق تلك البيانات لتقييم الموارد الطبيعية، ومراقبة التغيرات الحاصلة فيها، لإغراض التنبؤ بالمشاكل التي تجابهها ووضع الحلول لها والتخطيط لاستغلالها بما يتفق مع مكوناتها الطبيعية)[١].

لقد أخذت الدراسات الحديثة بالخبرات القديمة وتطورت الدراسات الوصفية إلى منهج التحليل الكمي بفضل تراكم الخبرات العلمية وتوفر الوسائل الإحصائية والتكنولوجية الحديثة مثل نظم المعلومات الجغرافيه والاستشعار عن بعد،والصور الجوية، والخرائط، فضلا عن الدراسة الميدانية.كما اعتمدت الدراسات الحديثة على الجوانب التاريخية وهذا ما منح العلم طابعا تاريخيا متجددا ميزة عن العلوم الأخرى.

- أصول الجيمورفولوجيا:

لقد كانت الاساطير والظواهر الطبيعية وسائل يستعين بها الإنسان للاجابة على كثير من التساؤلات، مع مرور الزمن تمكنت هذه الأفكار من شق طريقها نحو الحقيقة و بدأ ألا نسان يفكر في دراسة وتحليل كل ما يدور حوله من ظواهر طبيعية واستطاع أن يحمي نفسه من أثارها و كون من خلال هذه التساؤلات والتحليلات مع بعضها نواة لعلم يسمى (الجيمور فولوجيا) وارتبط هذا العلم مع العلوم الاخرى من خلال ارتكازه على معظمها مثل علم الجيولوجيا أولا ثم أقسام الجغرافية الأخرى كون الجغرافية تستمد قوتها في معالجة قضاياها على الجيومورفولجيا بصورة خاصة و على عدد من العلوم الأخرى بصورة عامة.

تبرز علاقة الجيمورفولوجي بالمناخ من خلال ارتباط الإشكال الأرضية بعناصر المناخ مثل الأمطار والرياح والجليد وتبرز شدة تأثيرها في المناطق الأكثر انحدارا المواجهة للأمطار التي تولد سيول ومياه جارية لها دور في تغيير إشكال سطح الأرض.

تعد الانحدارات من أهم الظواهر في الدراسات الجيمورفولوجية التي تكونت نتيجة عمليات قديمة وحديثة لأنها تحدد أشكال الأرض من حيث مناسيبها وتضرسها والخصائص الشكلية النهائية لها.

وتأتي الصخور من حيث الأهمية بعد المنحدرات،إضافة إلى العوامل الداخلية والخارجية التي تؤثر على الصخور وتغير من أشكالها وأحجامها وتحد من اثر عمليات التجوية التي تتولد من جرائها مفتتات التربة التي تكون جاهزة لعمليات النحت والنقل والإرساب، فضلا عن اثر التيارات البحرية والجليد والرياح كل هذه العناصر مجتمعة تكون أشكال الأرض النهائية التي نشاهدها ألان .وهناك بعض الدلائل التي تشير الى دور الحضارات ألقديمه في معرفة وشرح الكيفية التي تكونت بها بعض الظواهر ففي حضارة مصر القديمة أشاروا لشكل الأرض وتصورا أن الأرض على

شكل مستطيل يمتد باتجاه شمالي جنوبي وسطحها أما مستوي او مقعر وهي ظاهرة جيمورفولجية[٢].

- تطور علم الجيمورفولوجيا:

لقد مرت الجيمورفولوجيا بعدة مراحل وأطوار تبلورت من خلالها الأفكار وبلغة ذروتها خلال العصر الإسلامي في القرن الخامس عشر بعد أن عانت فترة من السبات بعد انهيار الامبراطوريه الرومانية حيث كانت الكنيسة تسيطر على الأفكار العلمية، على العكس من الدين الإسلامي، فهو لم يضع القيود على الفكر البشري حيث شجع الرحلات والكتابة والترجمة، كما شجع المسلمين إلى كسب معارف وعلوم الأقاليم التي تم فتحها من قبل الجيش الإسلامي وتدوين وكتابة كل ما يلاحظونه آو يوصف لهم من الرحالة والتجار العرب والأجانب،فضلا عن ماجاء في التوراة والإنجيل في المسيحية واليهودية وما وصل في العصر الجاهلي وصدر الإسلام عن بعض مفاهيم نشأة الأرض، لقد تابع المسلمين العرب نشاطهم العلمي وقادوا المسيرة العلمية الحضارية مواصلين المهمة التي انطلقت من الحضارات القديمة سواء كانت الشرقية او الغربية التي اخذوا عنها وجددوا وابتكروا (فاجتذب ذلك العلماء والحكماء وأهل البحث والعلم ورجال الفن والأدب من جميع الأصقاع فكان من بينهم،الأقباط،والهنود،والكلدان، ولم يصلوا إلى ماوصلوا آلية لولا استعانتهم بغيرهم)[٣].

لقد جمع العرب المسلمين علوم من سبقهم بالإضافة إلى علومهم وترجمة الكتب ونشطوا في الرحلات والكتابة مستندين بذلك على ما أكد علية الدين الإسلامي بقولة تعالى: چچ چ چ چ چ چ[*]، وحديث رسوله الكريم(ﷺ) (اطلب العلم لو كان في الصين)،فضلا عن الدلائل التاريخية في الشعر العربي التي توصف المظاهر الأرضية التي تدل على معرفه مسبقة في هذا العلم كقول الشاعر:

تتنـــاثر الاطـــواد وهـــي شـــوامخ حتـــى تصـــير مـــداوس الأقـــدام[٤].

لم يخطر ببال الشاعر أن يعطينا صورة جيمورفولوجية عن الجبال الشامخة الصلبة قد تتحول إلى أراضي منبسطة هل يعني معرفة الشاعر بهذا الأمر تحت تأثير

عوامل الطبيعة وهي إمكانية تحول الجبال إلى مداوس الإقدام وهذا يدل على قناعة تامة بعدم ثبات الطبيعة .

لقد أعلن العديد من علماء أوربا المشهورين من أمثال(وود وارد، وهويستون) في نهاية القرن السابع عشر على أن(الكرة الأرضية بما فيها من يابسة وماء اتخذت منذ زمن الطوفان شكلها الحالي الذي تقع عليه إبصارنا)[٥].

- العلاقة بين الآراء القديمة والحديثة:

لقد وضحت الكتب السماوية أن الله خلق السموات والأرض ضمن قوانين ثابتة في ستة أيام ثم استوي على العرش وقال تعالى: چ □ □ □ □ □ □ □ □ ى ى يې □ □ □ □ □ □ چ[*] .

بدا الإنسان يفكر بما يحيط به من ظواهر طبيعية منذ وجودة على الأرض حيث بدا يستخدم الجبال بيوتا تقية من أخطار الفيضانات ومختلف عناصر المناخ الاخرى، واستمر في التفكير في أسباب تكوين هذه العوامل والظواهر التي تكونت بسببها إلى وقتنا الحاضر وحسب المراحل الحضارية .

ان العصر الإسلامي قد جمع هذه الأفكار وجعل منها علم تمييز بمنهجيه وعلمية جعلة بمستوى العلوم الاخرى وأطلق عليه اسم علم أشكال الأرض أو سطح الأرض وقد تعددت الأفكار حسب اجتهادات بعض الكتاب والمؤرخين العرب لقد حدد العلماء العرب علم الجيمور فولوجيا بعدد من الظواهر التي سيتطرق الباحثين اليها بشيء من التفصيل لمعرفة مدى التقارب في الافكار وهل هناك افكار متطابقة او متقاربة في تفسير اشكال سطح الارض ومعرفة وهل يمكن الربط بينهما من اجل الوصول الى الهدف المرجوا من هذه الدراسة.

١-نشأة الأرض:

في العصر الا سلامي تعد رسائل أخوان الصفا من أهم المصادر التاريخية التي رفدت معظم العلوم العربي ونستطيع القول أنها من أهم مراحل عصر التطور في الفكر العربي الإسلامي حيث قدمت العديد من الرسائل التي تعكس مدى ماتوصلت إليها العلوم في ذلك العصر لقد عالج إخوان الصفا العديد من الظواهر الطبيعية منها موقع الأرض وتكوين الجبال والعلاقة بين البر والبحر حيث أشاروا إلى ذلك بقولهم (أن كرة الأرض بجملتها وجميع أجزائها عمقها ظاهرها باطنها طبقات ساف فوق ساف، متلبدة،منعقدة، مختلفة التركيب والخلق، ضمنها صخور وجبال صلبة، وأحجار وجلاميد)(٦).

ظهرت العديد من النظريات الحديث في تكوين ونشأة الأرض وشيء منها فيها دلائل صحيحة وأخرى غير واضحة قابلة للتصديق حسب دلائلها.

كذلك أشاروا أيضا إلى كروية الأرض وأشكالها التضاريسية وعمرانها بقولهم(اعلم ياأخي بان الأرض كرة واحدة بجميع ماعليها من الجبال والبحار والأنهار والعمران والخراب وهي واقعه فيالهواء فيها من مركز العالم،والهواءمحيط بها،وملتف عليها من جميع جهاتها)(٧).

ثم يأتي ضمن التسلسل الزمني اليعقوبي(٢٩٧-٣٠٠هجرية) حيث تفرد بمعلومات جغرافية لم يتطرق إليها من سبقه مما جعله أكثر تأثيرا بما جاء به الباحثين، أن علميته دفعته إلى عدم الأيمان بالمنجمين فقد أورد اليعقوبي مقالات (المجسطي) كتاب بطليموس حيث كانت مقالات فلكية بالغة الأهمية من حركات الفلك والأرض ودورانها حول الشمس وموقعها وعلاقة ذلك بطول النهار وحركة الشمس)(٨).

إذا كانت الأرض مكانا هادئا لكان من السهل الحصول على تاريخها كاملا منذ ظهرت أول المخلوقات التي انقرضت وتركت حفرياتها ولكانت طبقات الصخور السفلى هي الأقدم لانهاتحوي أقدم المخلوقات ولكنها غير مستقرة(٩).

أما المسعودي (٣٢٢-٤٠٠هجرية) فيعد من المؤرخين العرب في هذا المجال وقد دون كل ما وصف له من الرحالة والتجار العرب وألف العديد من الكتب أهمها (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وكتاب(التنبيه والإشراف) وأشار الى نشأة الأرض وكتب عن البحار والجبال،المد والجزر، والأنهار والعلاقة بين البر والبحر ودورة الماء في الطبيعة، والمياه الجوفية.

كذلك البيروني(٣٦٢-٤٤٠هجرية)الذي وجد أسمة مكانة في الجغرافية والرحلات كونه مؤلفا واسع المعرفة ذو نشاط وعلم فقد كتب في عدة مجالات كما ورد في كتابه (تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن) حيث يقول (عالمنا ليس بأزلي ولكن لا يمكن تحديد عمرة أو يوم حدوثه بالضبط،ألا أن الحوادث تتابعت في زمن مجهول وليس عندنا من التاريخ او العصور ما يساعدنا في تحديده)(١٠)، فقد تطورت الآراء حسب المراحل الحضارية كما ذكرنا حيث ينظر إلى أشكال الأرض على أنها محصله تفاعل أزلي بين المتغيرات، ومع ذلك تختلف الآراء حسب الخلفية العلمية للباحث، كما اوضح (حسن رمضان سلامة.٢٠٠٤م) حيث جاءت الفكرة الأولى والتي تقول أن بعض العمليات والقوانين الطبيعية التي تعمل ألان هي نفسها قد عملت خلال العصور الجيولوجية ألا أن عملها ليس من الضروري ان يكون بنفس الشدة)، وهذا ينطبق على مبدأ هاتون (١٧٢٦م) (أن الحاضر مفتاح الماضي) كذلك وليام سميث (١٨٦٩_١٨٣٩) مؤسس علم الطبقات لقد دفع كل من الكسندر فان همبولت الذي أكد على مفهوم الجغرافية الحديثة وكارل ريتر (١٨٤٢م) دماء جديدة في ترسيم علم الجغرافية وتعرض لكيفية النشأة والسلاسل الجبلية وتطورها ونسب ذلك إلى الحركات الباطنية وادخل مفاهيم جديدة لدراسة التضاريس وفي عام ١٨٩٤ اصدر البرخت بنك سفرا من جزئيين (مورفولوجية سطح الأرض) فضلا عن دراسة ثور نبري هضبة كلورا دو في الولايات المتحدة ١٩٥٤ واعتبره ديفزعلامة مميزة في تطوير علم الجيومورفولوجيا .وهذه الأفكار اقتبسها من المدرسة الديفزية ١٩٤٣م

٢-الزلازل والبراكين:

فيما يخص هذا الموضوع من نقد ورد ذكره في رسائل أخوان الصفا حيث قالوا في رسائلهم(ثم اعلم ان غرضنا في ذكر حركات العالم وحركات اجزائة الكليات والجزئيات وفنون تصريفها هو بطلان من يقول بقدم العالم وذلك لان الحركات المختلفة تدل على اختلافها،والمتحرك المختلف الأحوال لايكون قديما، لان القديم هو الذي يكون على حالة واحدة، ولا يتغير ولا يستحيل،ولا يحدث له حال)[١١]. كذلك توصلوا إلى حقيقة مفادها أن البراكين ناتجة عن احتراق الكبريت والنفط داخل الأرض.

ولليعقوبي وصف للزلازل والبراكين والحركات الأرضية على ضوء شدتها و تطرق كذلك إلى الحقيقة الزمنية التي تحدث فيها مثل هذه الحركات وما تسببه من هدم كل شيء ومن أشاراته إلى الزلازل التي أصابت مكة يوم مولد الرسول محمد (ﷺ) كذلك أشار إلى زلزال المدائن الذي اخمد نار الفرس التي لم تنطقي أكثر من إلف سنة، وأشار المسعودي إلى البراكين بقوله(جزيرة صقليه وما يليها من جبل البركان ومنه تخرج عين النار التي تعرف(بأطمه)[&]صقليه يستضيء بضوء نارها أكثر من مائة فرسخ)[١٢].

وقال البيروني (ان الثورات الجيولوجية التي كانت تنتاب القشرة الأرضية وما تحدثه من التواءأ ت وارتفاعات وانخفاضات التي ادت برمتها هبوط مناطق شاسعه اخرى تحت البحر)[١٣]، وابتكر نظرية قياس محيط الارض عن طريق وجو د مرتفع يطل على سهل يمتد نحو الافق.

ويقول العالم العربي (ابن سينا٩٥٠هجرية) الذي سمى ابو الجيولوجيا في الزلازل والبراكين(اما جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع، واما جسم هوائي سيال، واما جسم ناري فاذا كان سبب الزلزلة قويا جدا،ضعفت الارض باندفاعه وخروجه وربما خلف نار محرقة وربنا حدثت اصوات هائلة ودوي يدل على شدة الريح)[١٤].

حيث أشار في معظم كتاباتة للعمليات التحت سطحيه، ونوع وتركيب الصخر، واثرها في تشكيل سطح الارض حيث اعتبر آن النشاط البركاني من ابرز مظاهر سطح الأرض (لقد أكد العديد من العلماء العرب ضرورةاستدارة الارض لاستمرار الحياة)[١٥]، ونلاحظ ان الاراء الحديثه مثل راي الدكتور محمد سامي عسل في قوله(ان البراكين عبارة عن اهتزاز سطح الارض او تذبذبها نتيجة الاضطراب وفي توازن ورخاوة الصخور وتوازن جاذبيته على السطح واسفلة)[١٦] وهناك شواهد اخرى تدل على وجود حركه في باطن الارض وانبثاق طاقة من الاعماق وهذه الشواهد تمثلها البراكين[١٧]لقد سجلت انفجارات حديثة خلفت اثار تدميرية كبيرة مثل انفجار جزيرة كراكتوا عام ١٨٨٣ وتطاير ثلثا الجزيرة وفي عام ١٩٠٢ انفجر بركان جزيرة مونسلية في جزر الهند الشرقية.

٣-الصخور:

تتحدد الاشكال الارضية بعناصر المناخ وتاثيرها في نوع الصخور بمعنى ان التركيب الصخري هو الذي يحدد معظم اشكال سطح الارض، فقد ذكر اخوان الصفا في رسائلهم (ان الجواهر المعدنيه مختلفة في طباعها وطعومها والوانها كل ذلك باختلاف بقع معادنها وتغيرات اوديتها)[١٨] وهي ان المعادن تنشأ تحت تأثير عدة عوامل اخرى في باطن الارض وتختلف صخورها باطن الارض ومنها الصلده والمجوفه والمخلخله،(نريد ان نقول كيف يصير الطين اللين احجار تتكسر الاحجار فتصير منها حصى ورملا وكيف ينعقد من ذلك الطين والرمال في قعور البحار حجاره وجبالا)[١٩]، (الكثير من الطين تجف وتستحيل اولا شيا بين الحجر والطين وهو حجر زخو ثم يستحيل حجر اولي الطينات بذلك ماكان لزجا فان لم يكن لزجا فانه يتفتت في أكثر الأمر قبل التحجر[٢٠]. وفي الوقت الحاضر تم تصنيف الصخور إلى صخور نارية ومتحولة ورسوبية والكشف عن تركيبها الكيمياوي وأشكالها وطبيعة تكوينها.

٤- المياه السطحية:

وهي المياه الجارية فوق سطح الأرض التي تكونت نتيجة الأمطار والسيول والينابيع والعيون التي تعمل بصورة كبيرة على تغير شكل سطح الأرض وتعتبر أكثر الظواهر تأثيرا في تغيير أشكال الأرض الاخرى، وقد تطرقت رسائل أخوان الصفا إلى الدراسات النهرية واثر المياه الجارية بقولهم(وأما الأمطار التي تكون على رؤوس الجبال فانها تفيض في شقوق تلك الجبال وخللها وتنصب في مغارات وكهوف وأهوية هناك، وتمتلئ وتكون كالمخزون، وتكون في أسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تمر منها تلك المياه، وتجري وتجتمع وتكون أودية وانهار، وتمر في جريانها راجعة جريانها نحو البحر وتكون منها البخارات والرياح والغيوم والأمطار)[٢١] وأشاروا أن العمليات تجري إلى ألان وأكدوا على استمرارها، وكان لليعقوبي تحليله الخاص حيث اعتبر المياه الجارية احد أهم المظاهر ألطبيعيه في تشكيل سطح الأرض فضلا عن علاقتها مع الإنسان وارتباط حياته الاقتصادية والاستيطان ويقول المسعودي (ومن تقدم عنه وتأخر في علة وانتقال البحار والأنهار عن مواقعها وشباب الأرض وهرمها، وحياتها، وموتها، والكلام في كيفية المد والجزر السنوي والقمري ولاي علة صارت فيض البحار)[٢٢]، وقال أيضا (ليست مواقع الأرض الرطبة أبدا رطبه، ولا موضع اليابسة أبدا يابس،لكنها تتغير وتستحيل لصب الأنهار أليها وانقطاعها عنها ولهذه العلة يستحيل موضع البحر موضع البر، ليس موضع البر أبدا أبدا برا، وليس موضع البحر أبدا أبدا بحرا)[٢٣].

وللبيروني قوله(فإذا علت وأفرط تكايسها حولها نقصت مياه وغارت عيون وعمقت الأودية وتغدرت العمارة وانتقل أهلها إلى غير، وبهذه الفكرة المختصرة سبق العالم الأمريكي وليم موريس ديفز بخمسة قرون في تعريف وتوضيح الدورة الجيمورفولوجية التي يمر بها النهر كذلك قوله، حيث يبلغ الحفر بالقرب من الجبال، وشدة جريان مياه الأنهار واحفر عن تباعد المجرى ورمالات عند الركود واقتراب المضايق)[٢٤].

نلاحظ عند المقارنة بالآراء الحديثة مدى التقارب في الوصول الى الفكرة حيث يقول السير جيكي(فإذا كانت سرعة المجرى المائي ٦/١ ميل في الساعة فأنة لايستطيع أن يحمل أكثر من الطمي الناعم وإذا كانت أسرع بنسبة ٤/١ ميل في الساعة فأنة يستطيع حمل الرمل الناعم وإذا كانت أسرع فإنها تحمل الرمل الخشن)[٢٥] أي هناك تناسب طردي، آذ أن الأفكار موجودة قديما وتم استخدام المعادلة الإحصائية، لاستخراج النتائج النهائية، ويذكر محمد متولي (١٩٧٧) دور العمليات النهرية بأنها تخضع لقوانين نستطيع أن ندرك كيف هذه الأنهار تمكنت من تغيير سطح الأرض وتشكيلة بدأ بشكله الحالي ونستطيع ان نتخيل صورتة المستقبلية في حالة ثبات المناخ.

٥-المناخ :

اهتم علماء العرب بالمناخ وعناصره لما له من اثر كبير في تشكيل سطح الأرض لقد ذكرت كتب فقه اللغة أن للسحاب عند العرب (٢٥٠) اسما وللمطر (٨٤) اسما وفقا لموسم سقوطه[٢٦]، ويشير أخوان الصفا في رسائلهم إلى حدوث التساقط فقد ذكروا أنة أذا (ارتفعت التيارات في الهواء وتدافع إلى الجهات العليا فيكون تدافعه إلى جهة أكثر من الأخرى ويكون من قدامه له جبال شامخة مانعة ومن فوقة له برد الزمهرير مانع)[٢٧]. ويشرح البيروني في المناخ في كتابة (ومااللهند من مقولة.....) يوضح فيها نظام سقوط الإمطار حيث يقول (والهند تمطر مطر الجميع يسمونه (برشكال)وكلما كانت البقعة اشد إمعان في الشمال وغير محجوبة بجبل فهذا المطر فيها اغزر وحدته أطول واقوي)[٢٨]، وناقش اليعقوبي عناصر المناخ في أكثر من مكان وأكد أنة من العوامل المهمة في إنشاء المدن وربط الموقع ودوائر العرض لة علاقة بالمنطقة وصحة البيئة.

ويشر المقدسي في كتابة (كتاب البدء والتاريخ)عن التساقط(فأما الغيوم والسحاب والانداء والضباب فهي بخار يرتفع من الأرض فما غلظ منها صار سحابا او صار ضبابا وغماما،ومنجمون يزعمون أن الشمس تمر بمواضع ندية وبطائح غمر

فتثير سحابا بحرارة مرورها فاذا تكاثف البخار صار غيما والامطار اجتماع ذلك الغيم وانعصاره)[٢٩].

يرجع الفضل للعلماء العرب كونهم أول من أدرك أن الهواء محدود منذ ٩٠٠ سنة ولكنهم لم يستطيعوا بطبيعة الحال أجراء تجارب علمية حيث لم يتمكنوا من الارتفاع في الهواء بأنفسهم حتى عام(١٨٩٨)[٣٠].

لقد تطورت الدراسات المناخية حتى وصلت إلى تحليل المكان وظهور نموذج الجيمورفولوجيا المناخية التي تعطي المناخ دورا أساسي في تحديد خصائص وتوزيع أشكال الأرض، كما أشار كل من بلتير ١٩٥٠، وتريكارت ١٩٥٧، وبودل ١٩٧٣، واو لير ١٩٧٩، فقد عرف كل من تريكارت وكاليه الجيمورفولوجيا المناخية،هي دراسة أشكال الأرض كما يحددها المناخ[٣١].

وتوضح الدراسات الحديثة أن هناك ثلاث عوامل رئيسة هي العمليات الباطنية والخارجية والمحلية هي التي تغير أو مسؤولة على تطور أشكال الأرض حيث تشير العمليات المناخية إلى الطاقة الشمسية وفعل الأمواج التي تسببها الرياح،لقد إثارة الكثير من النظريات الحديثة في تفسير المناخ خلافات متعددة حول نشأة وتطور الأشكال الأرضية والعمليات الجيمورفولوجية ومنها نظرية دورة التعرية(لديفز) التي واجهت العديد من الانتقادات والتي صنفت حسب الأقاليم المناخية،فضلا عن نظرية تطور المنحدرات ، والأراضي الجافة والأقاليم الرطبة.

الجيمورفولوجيا المناخية والنطاقية هي دراسة منظومات الحت الحيوي أو المناخي ((الحيمناخي)) أي مجموعة الحت والتراكم العائدة لشرائط الحرارة والرطوبة والغطاء النباتي بكل نطاق مناخي كبير أن المناخ الحالي لايسود فعلا فوق أوربا الغربية أو الشمالية ألا منذ فترة قصيرة جدا من وجهة النظر الجيولوجية –حوالي عشرة ملايين سنة حيث لم تستطيع الإشكال أن تستبدل معالمها السابقة[٣٢].

٦-التجوية والتعرية:

لقد اهتم العلماء العرب بالعمليات التي تؤثر في الحواف الجبلية من تجويه وتعرية وعزوها إلى الأشعة الشمسية والمياه الجارية والإمطار (أن الاوديه والأنهار كلها تبتدئ بالجبال والتلال وتمر في مسيلاتها وجريانها نحو البحار والآجام (المستنقعات) والغدران والجبال من شدة إشراق الشمس والقمر والكواكب بطول الزمان والدهور تنشف رطوبتها وتزداد جفافا ويبسا وتصير أحجار وصخور ثم الأمطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال إلى بطون الأودية والأنهار)[٣٣].

لقد اشار المسعودي الى نشؤ الرسوبيات حيث قال (ليست مواضع الأرض الرطبة ابدأ رطبة ولا مواضع الأرض اليابس أبدا يابسة ولكنها تستحيل لصب الأنهار أليها وانقطاعاتها عنها ولهذة العلة يستحيل موضع البحر موضع البر)[٣٤]، كما ساهم البيروني في ملاحظات مهمة بخصوص عمليات تشكيل الأرض في كتابه(الهند) ومنه أشار إلى عمليات التتابع الصخري ووجود ترسبات غرينية ورواسب طموية جنوب الهملايا وميزها من حيث النسجة حيث الصخور الغرينية من الجبل خشنة أما البعيدة والمنقولة بفعل المجاري المائية كانت ناعمة بفعل التدحرج والانتقال من مكان إلى اخر[٣٥].

لقد عرفت التجوية في الوقت الحاضر. أنها عملية تأكل وتحلل الصخور بمجموعة من العمليات الكيماوية والفيزيائية التي تعمل على تحللها كيمياويات وتكسرها وتفتتها فيزيائيا وتعني بدورها مدى استجابة الصخور لعناصر الغلافين المائي والحيوي .

فضلا عن تجهز مفتتات متعددة الحجم تكون جاهزة لعمليات التعرية (النقل والنحت والإرساب) وقد كتب ديفز عام ١٩٣٤ حيث وضع أشكال الأرض في قالب زمني تضمن ثلاث مراحل لعملية التعرية، وهي مرحلة الشباب والنضج والشيخوخة . وقد سميت عمليات التعرية والتجوية مؤخراً (كرنولوجيا الهدم) فقد اتخذت من البعد التاريخي والتي أكد عليها كل من شوم ١٩٦٨ وبراون ١٩٧٩.

لقد عملت الدراسات الحديثة على استحداث طرق أخرى لجمع وتحليل ومعالجة وتصنيف وإخراج هذه المعلومات على شكل جداول أو خرائط أو صور، وسميت التقنيات الجغرافية التي تشمل نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد.

لقد كان لعمليات التعرية والتجوية النصيب الأكبر في الدراسات القديمة ومثال ذلك دورة التعرية التي تم توضيحها مفصلاً من قبل البيروني قبل خمس قرون والتي أصبح ويليام مورس ديفز (أبو الجيمورفولوجيا) الحالية عندما أشار أليها بالطرق العلمية آو الإمكانيات الإحصائية الحالية . يعني ذلك كما أسلفنا انه اعتمد كليا على الدراسات العربية الإسلامية ولم يأت بشيء جديد.

أن معظم معالم سطح الأرض هي نتاج عامل آو أكثر من العوامل التي تحفر الأرض وهي المياه الجارية، الأمواج،الجليد والرياح إضافة إلى عمليات تفكك الصخور وانهيارات التربة والصخور بتأثير الجاذبية الأرضية وعوامل التعرية والتجوية.

لكل كاتب أو مؤلف صيغة تعريفية للمنهج من حيث الجوانب العلمية لم يكن للكتاب العربي في هذا المجال سوى الترجمة وإعادة صياغة الموضوع فقط خلال مرحلة المائة سنة الأخيرة بل نستطيع القول أن أساس كل العلوم ومنها موضوع البحث هي أفكار عربية أسلامي.

الاستنتاجات:

١- لقد أثبتت المصادر العربية والمعلومات التي وصلت من خلالها أن للعرب الدورالرئيسي في وضع الأسس العلمية لمعظم العلوم بصوة عامة وعلم الجيمورفولوجيا بصورة خاصة.

٢- توضح الأفكار العربية الإسلامية وماسبقها أن للعرب الفضل الكبير في وصول علم الجيمورفولوجيا الى هذا الحد من التطور والرقي الذي فتح المجال أمام الباحثين لتطوير أفكارهم .

٣- اقتبس معظم العلماء الأجانب أفكارهم من العلوم العربية مثل وليم موريس ديفز الذي سمي أبو الجيمورفولوجيا لكونه اكتشف دورة التعرية علما أن العالم العربي البيروني قد أوضح هذه العملية بالتفصيل قبل أكثر من خمسة قرون ووضح المراحل التي يمر بها النهر بمراحله (الشباب، النضج، الشيخوخة).

٤- تنكر عدد من الباحثين لفضل العلماء العرب حيث اقتبسوا من معارفهم ونسبوها لأنفسهم وأصبحت ماتسمى المدرس الأمريكية للجيمورفولوجيا هي من بنات أفكار العالم العربي البيروني .

٥- من خلال المقارنة اتضح لدينا أن معظم الدراسات العربية هي وصفيه لاتعتمد على أسس تحليلية كمية ولكن أذا ماقيست إلى تلك الفترة فأنها اكتشافات علمية كبيره جدا .

٦- نستطيع القول أن كل ما اكتشف من جديد في هذا الجانب من العلوم مبني على أفكار تاريخية عربية وذلك لان كل فكره تطرق لها الباحثين حديثا نجد لها جذور تاريخية في الكتابات العربية.

٧- تطورت الدراسات وطرق البحث والمناهج نتيجة الإمكانات العلمية التكنلوجيه الحديثة وطوره الدراسات ألقديمه باستخدام التقنيات الجغرافية ألحديثه الكمية التي نقلت الأفكار الوصفية إلى نتائج حقيقية نهائية.

٨- المشاركات العربية العلمية الحديثة لايمكن مقارنتها بعلوم من سبقهم من العرب المسلمين وغيرهم أذا ما تتبعنا المراحل التاريخية للتراث العربي العلمي.

٩- لقد اثري الإرث العربي العلمي علوم من اخذ بأولياته وخسر من ترك أثارة يترفع بها الغير ولذا يتوجب التوجه الى دارسه الإرث العلمي العربي وألتوعيه إلى نشره والأخذ بناصيته .

المصادر والتعليقات:

(*) القران الكريم(سورة يس .اية٤٠) (سورة العلق، اية ١) .
(١) تغلب جرجيس داود، أشكال سطح الأرض، جامعة البصرة، مطبعة جامعة البصرة،٢٠٠٣، ص٣٣.
(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،القسم الأول،بغداد،١٩٥١،ص٣٧.
(٣) معن زيادة، معالم على طريق تحديث الفكر العربي، سلسلة عالم المعرفة،العدد ١١٥، الكويت ١٩٨٧، ص١١٣.
(٤) حمودي عدنان، رسالة الخليج العربي ، العدد٩،السنة ٦، ١٩٨٦، ص: ١٨٧.
(٥) حمودي عدنان، مصدر سابق: ص١٨٦.
(٦) أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وخلان ألوفا،ج٢،دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت،١٩٥٧ ص٩٦- ٩٧.
(٧) أخوان الصفا، مصدر سابق، ص٩٧.
(٨) خالص الاشعب، اليعقوبي،سلسلة نوابغ الفكر العربي،هيئة كتابة التاريخ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،١٩٨٨،ص٤٠.
(٩) باتريك مكولا، ترجمة فؤاد عبد العال،حقائق عن الأرض، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، بدون سنة الطبع، ص٣٥.
(١٠) سري محمود المدرس، الفكر الجغرافي عند البيروني، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث،سنة١٩٨٦،ص.٢٦٥.
(١١) أخوان الصفا،مصدر سابق الجزء (٢) الرسالة (١٧)، ص٥٧٠.
(&) الأطمة-عين النار.
(١٢) فاروق صنع الله العمري، تاريخ علم الأرض، مطبعة جامعة، الموصل، الموصل، ١٩٨٤، ص٣٧.
(١٣) سري محمود المدرس،مجلة المؤرخ العربي، مصدر سابق ص٢٦٥.
(١٤) أبن سينا((الشفاء-المعادن والآثار العلوية))، تحقيق عبد الحليم منتصر وغيرة،الدار المصرية للتأليف والنشر ولترجمه، القاهرة،١٩٦٥، ص١٧.
(١٥) عبدالله يوسف الغنيم،البراكين والحرات والحمأت في التراث العربي الإسلامي، رسائل جغرافيه،الجمعية الجغرافية الكويتية/قسم الجغرافية/جامعة الكويت، ١٩٨٨، ص١٥.
(١٦) محمد سامي عسل،الجغرافية الطبيعية،مكتبة الانجلو المصرية/ القاهرة، ١٩٨٤،ص٦٢.

(١٧) حمودي عدنان، رسالة الخليج، مصدر سابق، ص١٢٤.
(١٨) أخوان الصفا، مصدر سابق،ص٧٥-٨٥.
(١٩) أخوان الصفا، مصدر سابق،ج٢،الرساله١٨، ص٩٢.
(٢٠) فاروق صنع الله، مصدر سابق،ص١٨.
(٢١) حمود عدنان، رسالة الخليج مصدر سابق، ص١٢٥.
(٢٢) المسعودي،التنبه والإشراف، المكتبة العصرية،بغداد،١٩٣٨،ص٦١.
(٢٣) يوسف عبدالمجيد فايد، جغرافية السطح،دار النهضة العربية، بيروت،١٩٧٢، ص٩١.
(٢٤) محمد عباس حسن، مناهج البحث العلمي عند العرب المسلمين في حقول الجغرافية الطبيعية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ٢٠٠١ ص٨٧.
(٢٥) أخوان الصفا، مصدر سابق، ص ٧٣-٧٤ .
(٢٦) سري محمود، الفكر الجغرافي عند البيروني، مصدر سابق، ص٢٦٧.
(٢٧) مطهر ابن طاهر المقدسي،كتاب البدء في التاريخ، الجزء الثاني، نشر كلمان باريس،١٩١١، ص٣٠-٣٢.
(٢٨) باتريك مكولا،مصدر سابق،ص٣٦.
(٢٩) حسن رمضان سلامة،أصول الجيمورفولوجيا، دار المسيرة للنشر والطباعة والتوزيع، عمان،٢٠٠٤، ص٤٤٦.
(٣٠) ماكس ديروو، تعريب عبد الرحمن حميدة، مبادئ الجيمورفولوجيا، دار الفكر المعاصر، دمشق، ١٩٩٧، ص٢٢٣.
(٣١) أخوان الصفا، مصدر سابق، ص٩٣-٩٤.
(٣٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص٩٧.
(٣٣) محمد عباس حسن، مصدر سابق ص٨٧.
(٣٤) حسن رمضان سلامة،مصدر سابق، ص ٣٥.
(٣٥) آرثر- ن- ستريلر، ترجمة وفيق الخشاب، عبد الوهاب الدباغ، إشكال سطح الأرض، مطبعة دار الزمان- بغداد، ١٩٦٤ ص ١٠.

مسح اصناف التربة والوحدات الارضية لتقييم القابلية الانتاجية لحوض خاصة جاي

د.احمد محمد صالم العزي
جامعة كركوك / كلية التربية

مُقَدِّمَة

تعد عمليات المسح الجيو- بيئي كأحدى الانماط الحديثة المستخدمة في الجيمورفولوجيا التطبيقية حيث تستخدم للتعرف على الموهلات تمهيدا لوضع خطط تنموية لاية منطقة.اذ ليس من السهل وضع خطط كاملة للارض ومعرفة استخداماتها المستقبلية مالم نعرف ماهية الارض، كما ان المعرفة الكاملة واجراء المسح التكاملي يحتاج الى معرفة علمية كاملة ومعلومات اولية وحقلية .

يتطلب تصنيف الارض اعداد خرائط مسح التربة ومعرفة خصائصها الطبيعية والكيميائية والفيزيائية والمورفولوجية والبيئية . اذ ان العلاقة الارتباطية بين خرائط التربة واشكال الارض ناشئ بسبب اعتمادها على تصنيف نفس العوامل المسيطرة على نشوء وتوزيع مختلف الترب . وكذلك تعريف نظام الأرض. شكل الأرض . التربة . والنباتات . عمليا شكل الارض هو الغالب على الخارطة وهي المظهر التقريبي للارض ويمكن تصنيفها الى وحدات ذات طابع هندسي وتعطي امكانية قياس وتفسير كل الوحدات المختلفة ومن خلالها يمكن وضع مخطط توضيحي يبين درجة قابلية الوحدات الأرضية الإنتاجية وجدول لوصف تلك الوحدات بأجزائها الطوبوغرافية والتربة واستخدام الارض والنبات والمتغيرات البيئية. فهو علم تطبيقي يعني بتقييم وتقدير الارض وفق مفهوم قابلة وملائمة الارض . ولاجل ذلك تبرز

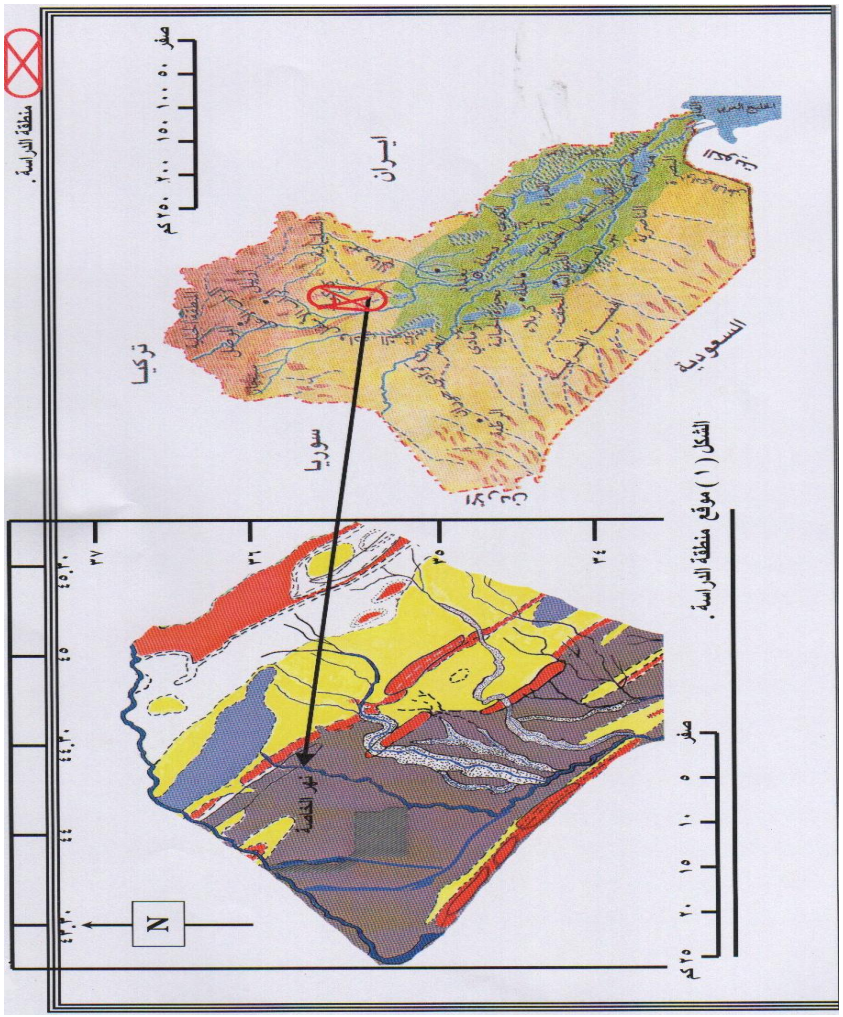
اهمية اعداد خارطة جيومورفولوجية التي تعد وسيلة مهمة لتقييم الارض . نظرا للمعلومات المفصلة التي تتظمنها عن سطح الارض .

بتطور التقنيات الجيومورفولوجية نتوصل لدقة تقييم الاراضي الطبيعية شكلا ومظهرا ويمكن اجراء مسح للموارد الطبيعية ومظهر الارض على شكل خرائط ومن ثم اجراء تقييم للموارد الطبيعية فأن وجدت وحده من الارض بأنها جيدة لنمو الفاكهة سوف يظهر امتداداً مشابهة للارض المناسبة لزراعة الفاكهة اما اذا ظهرت بأنها صخور جرداء او محززة فأن مخاطر مثل هذه، سوف يظهر من خلال الخارطة. تستخدم هذه الطريقة استقرائيا من خلال ظهور مساحات واسعة وصغيرة،ويمكن وصف نظام الارض تخطيطيا بواسطة (مخطط مظهر الارض) والذي يظهر العلاقة بين الانظمة الاخرى ووحدات الارض قد توصف بدقة بنفس المخطط والجدول المستخدم لتفسير وتبسيط سبل المعالجة ومن ثم تقدير الاستخدام الامثل للارض وبما ان الطريقة الاكثر فاعلية هي التقييس والتي اخذ بها وتم قياس الوحدات الارضية للوصول الى المقارنة العددية .

ان شكل الارض يمكن ان يستوفى بدقة اما من الخرائط الطوبوغرافية والصور الجوية ولكن يبقى العمل الحقلى (ميدان تقييم الحقائق العلمية) اذ ان معرفة اهم متغير يكون ابسط أجزاء مظهر الارض يمكن ان تعرف وترسم ومن ثم تتكتل لتكون نموذج من الارض .

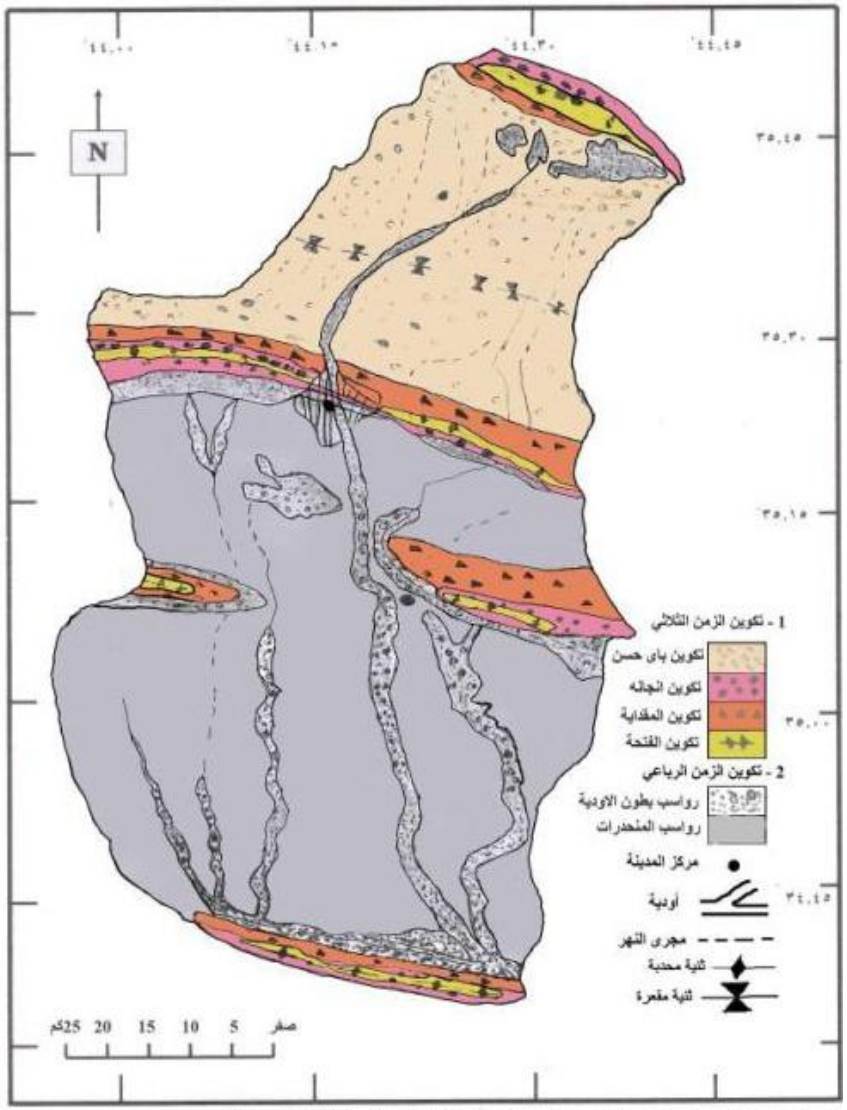
وتهدف الدراسة الى :-

1- ابراز المناطق التي يتوقع حدوث مشاكل فيها تؤثر في تحديد الاستثمار الامثل للارض.
2- ما هي الاستخدامات الاخرى الممكن استغلال الارض لها .
3- تحديد المشروع الملائم والمناسب مع صفات الارض .



المصد: خارطة حوض العظيم محورة من الخارطة البنيوية لمنطقة الدراسة والارضي المجاورة لها مقياس 1/ 250000. وخارطة اقسام سطح العراق مقياس 1/ 500000.

الشكل (2) الخارطة الخارطة البنيوية لحوض خاصة جاي



المصدر : مديرية المسح الجيولوجي و التحري المعدني - خارطة العراق البنيوية مقياس 1/25000 بغداد 1985

اولاً- سمات البنية الأرضية :

تعد البنية الأرضية احد ابرز العوامل المتحكمة في تشكيل مظهر الأرض . وهي احد الخصائص الطبيعية التي ترتكز عليها الأسس الأولية للدراسات الجيمورفولوجيه لكونها ألأساس المادي الذي تعتمد علية، فمن خلالها يتم التعرف على التغيرات الجيمورفولوجيه . المرافقة للتطورات البيئة عبر ألزمن[1].

1- تكوين الزمن الثلاثي :

تتميز منطقة الدراسة بوجود مجموعة من الصخور الرسوبية المتكونة من ترسبات منقولة موادها ومتصلبة بواسطة لاصق طبيعي أو بفعل قوة كاسبة أو أي عملية ميكانيكية أخرى، وعلى شكل مفتتات صخرية والتي تتكون من تجمع أجزاء مشتقة من صخور أخرى. تتباين في النوع والعمر والصفة ودرجة قابليتها لمقاومة العوامل الجيمورفولوجيه ومن خلال الشكل (2) تظهر صخور تكاوين الزمن الثلاثي في منطقة الدراسة وعلى الأغلب من والجركس والكوليش . والمقدادية وبأي حسن . وانجانه والفتحة .ويتضح من خلال الشكل (2) يتواجد تكوين الكولش في طية كورمور متداخلة مع تكوين أجدالة المتكون بشكل رتب من الصخور(جيرية وغرينيه رملية) ذات ألوان رمادية مخضرة وتمتاز بالسلكتة العالية. يتحول إلى حجر مرصوص أوالى حجر طيني في مواضع أخرى مكونة من معادن سلكية المرو –الصوان – والفلدسبار[2].

يتواجد تكوين انجانة في منطقه الدراسة إلا أن الصفة الغالبة لهذا التكوين هي طبيعته المهشمة، المؤلف من الصخور الرملية تكون ذات ألوان حمراء أو بنفسجية تتعاقب ويتخلل طبقاتها أحجار غرينية وطفل . وان هذه الاخيره أكثر تركيزا قرب القاعدة . وتكون الصفة الغالبة لهذا التكوين هو ضعف المقاومة للعوامل الجيومورفولوجية ومن الأسباب التي تقلل من مقاومتها هي تخلل طبقات رقيقه غرينه

وطينية . ويكون تركيزها قربا للقاعدة وتزداد خشونة جسيماتها كلما اتجهنا نحو الأعلى . كما يتبين من خلال الزيارة الحقلية تواجدها بهيئة كتلية تفصل طبقه عن أخرى بشقوق أفقية تملاها محاليل وطبقات من الغرين، كما توجد فيها العديد من الشقوق العمودية يتواجد تكوين المقدادية في منطقة الدراسة والمتآلف من عدة أنواع من الصخور منها طولية بنية تتعاقب مع صخور رملية ناعمة وتتميز الصخور الرملية بمسامية عالية لذا تعد مصدر للمياه الجوفية ونفاذيتها تسمح بتصريف داخلي أكثر من الجريان السطحي فضلا عن ذلك أن الشقوق والصدوع تتفاوت في نفاذيتها ومساحتها وقد ظهر لنا أثناء الزيارة الحقلية أن الطبقات السطحية لهذه الصخور متاثره بكثافة الشقوق المتباينة في الأطوار والاتساع باتجاهات عده مما جعلها عرضه للسقوط لتوالي عمليات التجويه وتركت بالأسفل بهيئة رواسب سطحية من الكتل الرملية الكبيرة تحيطها مفتتات رملية بإحجام صغيره وسميكة ناتجة عن تحطم هذه الكتل أثناء تحركها تنتشر هذه الظاهرة على السفوح المواجه للعوامل الجوية وخاصة الجنوبية الغربية منها وكما تظهر في الشكل (2) تحتوي على الكثير من الحصى على أنواع مختلفة جدا وعلى أحجام وألوان مختلفة ايظا يظهر تكوين باي حسن في منطقة جنبور و كورمور وسلسلة حمرين المطلة على نهر زغيتون سلسلة من المدملكات والصخور الطفلية والاحجار الرملية . تؤلف رسوبيات باي حسن الجروف البارزة والمتوازية من الصخور الرملية تتعاقب مع وديان صغيره تكونت في الصخور الطفلية الهشة تابعة لتكوين الفتحة . ويطابق هذا حدوث كتل مدملكة في الأمكنة التي يوجد فيها صخور طفل وغالبا ما تتغير نسبة المدملكات إلى الطفليات تغيرا جسيما فمثلا ماتم مشاهدته خلال الزيارة الحقلية، ظهرت مدملكات عديدة في أعالي حوض خاصة . تتألف هذه المدملكات من حصى تشبه بطبيعتها حصى المقدادية ولكنها اكبر نوعا ما حتى ليبلغ بعضها قطرا طوله (8–10) انج [3].

2- **تكاوين العصر الرباعي** :

أن اغلب هذه الرواسب تشتمل على طمى وحصى ومفتتات صخرية تفتت موادها من صخور أخرى بأحجام مختلفة ملئت المنخفضات وبطون الاودية ومناطق القدمات إذ تتألف بشكل أساسي من الحصى المشتق من تكوين المقدادية وبأي حسن في حين يشكل الطمى والرمل بأقطارها المختلفة التي اشتقت من تكوينات مختلفة ولا سميا الكولش والجركس، انجانة، المقدادية . وعند الرجوع إلى الشكل (2) يتبين أن الرواسب هذه تشغل بطون الأودية ومصباتها وعلى طول المجاري النهرية لهذا الحوض وكذلك على الاكتاف المرتفعة للنهر أو ما يسمى بالمصاطب النهرية ورواسب السهل الفيضي وكذلك السهل ألتجميعي . كسهل ليلان والحويجه والرشاد . حيث أن الغطاء الطموي لهذه السهول قد غطى بعض التجعدات الطينية . وتتشكل من الطين والغرين والرمل . ويكون سطحها مستوي وقليل الانحدار.

ثانياً- الجيومورفولوجيا:

تتطلب مهام تصنيف الوحدات الأرضية إعداد خارطة جيومورفولوجية التي تعد أساسا للبحث الجيومورفولوجي، إذ أنها تقدم عرضا للعلاقات المكانية والمعلومات ألنظامية والتباين الحاصل على سطح الأرض فتتولد بالتالي إن الأرض يمكن تصنيفها اعتماداعلى جملة متغيرات (البيئة – العمليات – المرحلة الزمنية – الو ضيفة المكانية) فمن خلالها يتم عزل وحدات متشابه تختلف عما جاورها من وحدات أخرى .

عند ملاحظة الشكل (2) نلاحظ إن المنطقة يسود فيها نظام الطيات المحدبة المتمثلة بطية كورمور. وجنبور وحمرين ويسودها نظام هضبي صخري في أعالي الحوض مقطع والبعض منه شديد التقطع (محزز) وكذلك طيه مقعرة محصورة بين سلسلة كورمور وجنبور. المتمثلة بسهل ليلان ألتجمعي وطيه مقعرة تنحصر بين

سلسلتي كورمور وجنبور من جهة وسلسلة حمرين من جهة أخرى والمتمثلة بسهل كركوك والحويجه والرشاد ومن خلال الخارطة البنيوية شكل (2) مجموعهما يشكل مروحة فيضية ضخمه مشكلة سهل تجميعي واسع يتخللها العديد من الأنهار والوديان ومن أشهرها نهر خاصة جاي الذي يعد المجرى الأساس لبقيه الروافد التي تلتقي معه والمتمثلة بنهر كور داره ونهر زغيتون ونهر ملا عبد الله ووادي النفط وسن الفيل وبالتالي يعد احد أهم الرافد المشكلة لنهر العظيم . تتكون كتوف الأنهار بشكل واضح عند المجاري السفلى السهول الفيضية الواطئة معرضة للفيضان، إما السهول المرتفعة فهي أكثر استقرارا تتأثر بفيضان موسمي . تظهر مدرجات سهول فيضية في الأقسام السفلى للأنهار نوع التصريف شجري وعلى سفوح المنحدرات متوازي ومن الملفت للنظر أن الأجزاء السفلى الممتدة أسفل ناحية الرشاد تتقطع بشبكة كثيفة من الأودية وذات صفة مساحية تتصف بصفة الأراضي الاخدوديه . نعتقد إن ذلك تكون بسبب نشاط التعرية المائية واستجابة الصخور لها.

ثالثاً- تصنيف الترب ودرجة قابليتها:

1- **تربة بنية محمرة ذات سمك عميق** :

يتوقف لون التربة على ما يدخل في تركيبها من مواد معدنية او عضوية فل التربات البنية والحمراء تكتسب لونها هذا من اكاسيد الحديد التي تحويها ومن اسمها تتكون من مزيج من التربة البنية (brown soils) والتربة الحمراء (terrarosa soils وتعرف احيانا بترب منطقة البحر المتوسط . تتميز الأولى من اسمها بلون بني واضح العمق 30 سم تقريباً ثم يتحول إلى رمادي حتى أفقر التجمعات الكلسية. تفاعلها قاعدي ومناخها رطب شتاءً وجاف صيفاً أما النبات الطبيعي فيها فأنه خليط اعشاب قصيرة وطويلة لذا فأن المادة العضوية في هذه الترب تتراوح بين 0.8 % من الافق الاعلى منها . واغلب هذه الترب تتوزع في المناطق الواقعة بين كركوك وأربيل

والموصل وتلعفر وزاخو، اغلب مكوناتها من المواد الكلسية و مناخ منطقتها يتميز بشتاء معتدل امطاره تتراوح بين (400 . 600) ملم وموسم جفاف قصير في الصيف لون هذه الترب احمر ومساحتها في العراق قليلة جداً ومنها بمدينة كركوك [4] . ويعد هذا النوع من الترب من الصنف الأول اذ تعد احسن الأراضي الزراعية فهذه التربة عميقة وصرفها جيد وسطحها مستوي . أما خصائصها الكيميائية والفيزيائية فهي ملائمة لنموالنباتات جميعاً لذا فهي تصلح لجميع المحاصيل الزراعية والخضراوات والبساتين كما أنها تخلو من مشاكل محدودة للزراعة وتشغل هذة النسبة من الأراضي اغلب الاقليم السهلي لحوض خاصة جاي وتقدر مساحتها (1314) كم2 وتشكل نسبة مئوية قدرها (27.95 %) من مساحة الحوض الكلية. ويتضح من الشكل (3) والجدول (1) توزيعها المكاني ونسب تشكلها.

2- تربة الليثو سول مع الجبس والكلس :

يعد هذا النوع من التربة من الترب المزيجية ويتكون من ثلاثة انواع من الترب هي تربة الحجر الليثوسولية (lithosols) مع تربة كلسية (calcareous soils) حيث تكون الاولى حديثة التكوين جدا افقها الاعلى ضعيف التكوين وينعدم فيها الافق (B) عمقها ضحل[5]. وتظهر مادة الام بعد الافق الاعلى مباشرة على هيئة مواد ارضية قليلة التفكك وهي عادة اما صخر الكلس او الجيبسوم – كبريتات الكلس المتبلورة . اما مناطق وجود هذه الترب بشكل عام فهي تتواجد على منحدرات المناطق الشمالية المتاخمة للمنطقة الجبلية العراقية ونباتها الطبيعي اشجار سطحية الجذور ومناخهاماثل لمناخ الترب الكستنائية في العراق . اساس المزجة الثانية في التربة تحتوي على كمية من كاربونات الكالسيوم وغالبا مع كاربونات المغنيسيوم تتفاعل بوضوح عندما تعامل بحامض الهايدروكلوريك . تفاعلها قاعدي بسبب وجود كاربونات الكالسيوم الحرة والنوع الثالث من الترب الجبسية بصورة عامة فقيرة بمحتواها من العناصر الغذائية الضرورية ويعزى ذلك الى سيادة المعادن المتميزة بانخفاض سعتها

التبادلية للايونات معدن الا توبوكايت ولهذا فان تسميد هذه التربة كما أثبتت التجارب يعطي نتائج افضل عند زراعتها وتعد نسبة الجبس وعمق الافق الجبسي من العوامل المهمة المؤثرة على نمو النبات والمحدودية الانتاجية لمعظم المحاصيل[6] . تنتشر هذه التربة في منطقة الدراسة في مناطق متفرقة في أعالي الحوض ووسطه حسب ما يظهر في الخريطة(3) و شكلت مساحة قدرها (219) كم2. وبنسة قدره (0.039%) من مساحة الحوض الكلية

3- تربة بنية محمرة ذات سمك قليل :

ان التربة البنية المحمرة (reddish brown soils) تتميز بلون بني محمر في معظم اجزاء التربة والوان هذا اللون يغمق قليلا مع العمق . تفاعلها قاعدي ومناخها يتصف بالحرارة الشديدة والجفاف صيفا مع معدل امطار سنوي يتراوح بين (200 – 400) ملم اما نباتها الطبيعي من نوع حشائش قصيرة معمرة مع شجيرات المادة العضوية . تنخفض فيها الفعاليات الحيوية والتجوية الكيميائية وبهذا تعتبر الطابع المميز لمعظم الترب المحدودة الامطار . وتتوزع بشكل عام في العراق جنوب كركوك بين خانقين وبيجي[7] . وتشكل من حوض خاصة جاي مساحة قدرها (117) كم2 وبنسبة قدرها (0.1 %) وكما تظهر في الشكل (3) والجدول(1).

4- اراضي وعرة مشققة صخرية :

يقصد بالاراضي الوعرة نوع من الطوبوغرافية التي تتعرض معالمها لتغييرات اساسية بفعل عوامل التعرية المائية الجدولية والقنوية التي تمارس اقصى نشاطها اثر حدوث زيادة طارئة في الجريان المائي . ويعود ذلك الى ضعف مواد هذه الاراضي التي في الغالب تكون عبارة عن رواسب هشة وغير متماسكة. ويتحول السطح نتيجة لذلك الى سلسلة من الاقنية المتعمقة والروابي صغيرة الحجم حادة الزوايا والمسلات الرفيعة والاعمدة الترابية غير المنظمة [8].

تعاني هذه الاراضي من مشاكل الانحدار الشديد والتعرية الشديدة جدا ووعورة الارض مما جعلها ان تكون اقل صلاحية لاغراض الانتاج الزراعي بانواعه اذ انها

تصلح لاغراض زراعة الغابات والمراعي في بعض المواقع الصغيرة منها وافضل استخدام لهذه الترب هو الاستفادة منها في اغراض تنظيم الاحياء البرية والسياحة ويتبين من الشكل (3) والجدول(1) انها تتوزع في اعالي الحوض ووسطه وشكلت مساحة قدرها (864) كم2 وبنسبة قدرها (18.38%) .

5- اراضي اخدودية :

تتشكل هذه الاراضي بسبب النشاط المتسارع للمجاري المائية من جهة واستجابة البنية الارضية من جهة اخرى . بسبب تكويناتها الهشة حتى ان المسيلات المائية تتطور باستمرار الى اخاديد عميقة مما جعل تربتها ان تتصف بهذا الاسم وهي تصلح لجميع انواع الزراعة بعد اجراء الاصلاحات وصيانة التربة وتصنف من الصنف الثالث من الترب الجدول (2) ويتبين من الشكل (3) والجدول (1) انها تتوزع في نهاية الاقليم السهلي من حوض خاصة جاي وبمساحة قدرها (1035) كم2 وشكلت نسبة قدرها (22.02%) من مساحة الحوض الكلية .

6- أراضي رديئة مشققة :

اذ تبين من خلال الزيارة الحقلية تتشكل هذه الاراضي من الترب الكلسية شبه الجرداء من النباتات بسبب ضحالة التربة وكثرة التشققات والحزوز الموجودة فيها مما جعلها عرضةً للتعرية باستمرار وتصنف من النوع الثامن من مستوى قابلية الترب الجدول (3) يتبين من الشكل (3) والجدول(1) قدر مساحتها (117) كم2 شكلت نسبة مئوية (2.49%) من مساحة الحوض الكلية .

7- تربة ظفاف الانهار (ترب السهول الفيضية) :

تنتشر هذه الترب على طول اودية الانهار الفيضية لذا انها تكون فيضية متجدة الشباب والخصوبة بما يترسب عليها من ارسابات في مواسم الفيضان وهذه الترب تعتبر من اخصب الترب في العالم . وتكتسب الترب الفيضية خصائصها المميزة الى حدكبير من المواد الاصلية التي اشتقت منها . ومن ثم فان قوامها يتفاوت من الرمل الى الطمى (السلت) الى الصلصال وقد تتفاوت في الون، ونظراً لان

الترب الفيضية تتألف من ارسابات مشتقة من صخور عملت فيها عوامل التجوية لذا أنها مفككة نسبياً وسرعان ما تكتسب خصائص الترب المرتبطة بنفس الضروف المناخية وهذا ما تم ملاحظته لتربة ضفاف الانهار التي تنتشر على طول الاودية المنتشر في حوض خاصة جاي وبكلمة اخرى هي عبارة عن شريط يمتد بمحاذات مجرى النهر وعلى العموم يتكون من الرواسب الناتجة عن مختلف عمليات الحت الرأسي والجانبي التي تنقلها الشبكة المائية من مساحة الحوض النهري بشكل عام والتي يرسبها النهر اثناء جريانه مع تناقص كل من الانحدار وسرعة الجريان وهذا ماتم ملاحظته ميدانياً، وبلغت مساحتها (27 كم2) وبنسة قدرها (**0.001**%) كما في الجدول (1) والشكل (3).

8- تربة بنية ذات سمك متوسط:

ان التربة البنية المحمرة (Redishbrown soils) تتميز بلون بني محمر في معظم اجزاء التربة والوان هذا اللون يعمق قليلا مع العمر . تفاعلها قاعدي ومناخها يتصف بالحرارة الشديدة والجفاف صيفاً مع معدل امطار سنوي يتراوح بين (200–400) ملم اما نباتها الطبيعي من نوع الحشائش القصيرة والمعمرة مع شجيرات المادة العضوية .

تنخفض فيها الفعاليات الحيوية والجوية الكيميائية وبهذا تعتبر طابع مميز لمعظم الترب المحدودة الامطار[9] ويتوزع بشكل عام في العراق جنوب كركوك بين خانقين وبيجي . تتوزع في حوض منطقة الدراسة وكما تظهر في الشكل (3) وبموجب الجدول رقم (1). وقدر مساحتها في حوض خاصة جاي(1008) كم^2 وبنسبة قدرها (21،44%) من مساحة الحوض الكلية .

الجدول (1) مسح وتوزيع الترب في حوض خاصة جاي

نوع التربة	حوض خاصة جاي	
	المساحة	النسبة المئوية

	كم2	
تربة بنية محمرة ذات سمك عميق	1314	27.95
تربة بنية محمرة ذات سمك قليل مغطاة بالحصى	117	2.49
أراضي وعرة مشققة صخرية	864	18.38
اراضي أخدودية	1035	22.02
تربة اليثوسول مع الجبس والكلس	219	4.66
اراضي رديئة مشققة	117	2.49
تربة ضفاف الانهار	27	0.57
تربة بنية ذات سمك متوسط	1008	21.44
المجموع	4701	%100

المصدر :عمل لباحث بالاعتماد على الشكل (3)

رابعاً- تحليل خصائص ترب المنطقة :

يمكن التعرف على انواع نسيج التربة اما بالفحص المرفولوجي بواسطة التحسس (اللمس باليد) او عن طريق قياس النسب المختلفة للرمل والطين والغرين في المختبر. بطريقة الهيدرو متر ويتم بواسطة هذه الطريقة فصل دقائق الترب المختلفة عن بعضها وتعني نسبتها الوزنية ومن ثم استخراج نسجة التربة بواسطة مثلث النسجة الذي يظهر جميع اصناف النسجة مع نسب مكوناتها من الرمل والطين والغرين وان الترب التي تكثر فيها ذرات الرمل الخشنة تتميز بنسيج خشن الملمس ويحس المرء بالخشونة فيها اذا مزج بين اصابعه هذا النوع بينما اذا كانت التربة تظم نسبة عالية

من الذرات الرملية الناعمة والذرات الطينية فأنها تكون تربة طينية غرينية ذات نسيج ناعم وتصنف نسجة التربة بعد ذلك الى عدة اصناف[10].

تم جلب عينات منتخبة لنموذج ارضي منتخب وفق تسلسله في الجدول (2) وحللت في مختبرمديرية زراعة كركوك ودونت في جدول منظم.

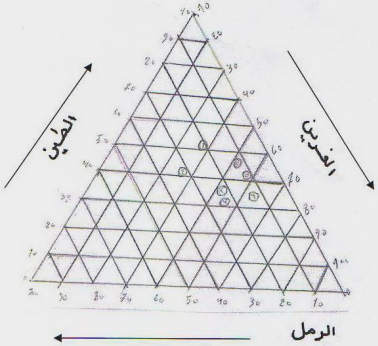
يظهر من الجدول (2) ومثلث النسجة إن ترب المنطقة طينية غرينية لوميه تسود في المنطقة الهضبية الجبلية وذات سمك قليل إلى متوسط تتركز فوق تكوين باي حسن و المقدادية. ويبد ومن نسجتها على أنها مشتقة من هذا التكوين الذي تنتشر فوقها مفتتات من الحصى بمختلف الإحجام . ويزداد سمك هذه الترب في المنطقة السهلية حتى يتحول إلى لون بني احمر . وتعتبر هذه الترب من الصنف الأول والثاني من أنواع الترب، ويمكن تحويلها إلى أراضي أروائية كما إن الجدول (2) يظهر نسبة الحامضة فيها معتدل، تصلح لمختلف المحاصيل الزراعية التي قد تتأثر بالملوحة لقلة انحدار الأرض . وارتفاع معدل ترشيحها الذي يبلغ مابين (2-6) سم /ساعة (10) كذلك توجد في منطقة الدراسة ترب فيضية حديثة تتوزع على الجوانب المحدبة للمجاري الأساسية وكما يظهر في الشكل (2) ولوحظ حقليا ومن ملاحظة الجدول يتبين إن نسبة الملوحة ترتفع في الأودية الضامرة لكونها منطقة منخفضة تنسحب الملوحة من مناطق أكتافها المروية . قد يعود السبب إلى السقي الغير منتظم وعدم صيانة مجاريها المطمورة بالرواسب كذلك تتسم بشكل عام بقلة المادة العضوية لضعف الغطاء النباتي كون المنطقة ذات مناخ جاف وشبة جاف وازداد في العقد الأخير تكرار السنين الجافة مما جعلها ايظا تتصف بالتربة القلوية حيث إن الأس الهدروجيني (التفاعل الكيميائي) عند ما يشير بين (1-6) فأنة يعني إن التربة حامضة، إما اذا كان من (8-14) فهذا يعني أن التربة قاعدية[11] حيث يشيرذلك في المنطقة .

جدول (2) تحليل خصائص بعض ترب المنطقة الفيزيائية والكيميائية

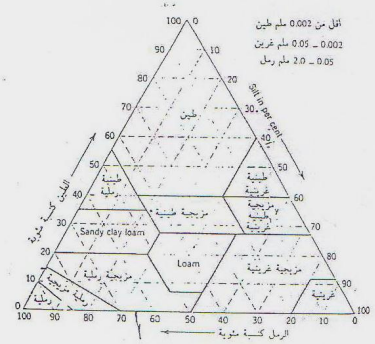
المنطقة الجبلية والهضبية	EC	PH	المادة العضوية	نسجة التربة	النسبة المئوية

				٪			غرين	رمل	طين
اراضي مزروعة ديما	0.89	8.47		1.03	طينية غرينية		28	22	50
اراضي رعوية	1.15	8.44		0.57	طينية غرينية		34	28	38
اراضي منحدرات	1.62	8.76		0.19	طينية غرينية		40.9	12.6	46.5
المناطق السهلية									
اراضي زراعية اروانية					طينية غرنية لومية				
اراضي زراعية ديمية	0.25	8.68		0.5	طينية غرنية لومية		0.28	0.3	0.42
اراضي رعوية	0.36	8.90		0.7	طينية غرنية لومية		0.38	0.18	0.44
اراضي بطون اودية	1.15	8.47		0.6	طينية غرنية لومية		0.56	0.13	0.31
ظامرة	1.62	8.76		0.4	طينية غرنية لومية		0.48	0.16	0.36

المصدر عمل الباحث ثم اخذ عينات من مناطق منتجة وتحليلها في مختبر مديوية زراعة كركوك



تصنيف ترب منطقة الدراسة أعتمادا على الجدول رقم (١) وتم تقريب الأرقام



شكل رقم (٢) مثلث تصنيف النسجة لوزارة الزراعة الأمريكية
Redrawn from U.S Bur. Plant Ind . Soils and Agr .Eng, 1951

جدول رقم (٣) مسح اصناف الوحدات الجيو بيئية

ت	الوحدات الجيوبيئية	المساحة بـ (كم٢)	النسبة المئوية ٪	مراتب استعمال الاراضي حسب قدراتها الانتاجية
١	اراضي المرتفعات وسلاسل الجبال الحواف	١٤٦	٣.١٠	٨
٢	اراضي تعرية الاحدوثات	٢١٩	٤.٧	٥
٣	اراضي هضبة صخرية مشققة	٨٦٤	١٨.٣٧	٦
٤	اراضي حصوية مشققة (رواسب المنحدرات)	١٦١	٣.٤٢	٤
٥	اراضي السهل التجميعي	٢١٦٧	٤٦.٠٩	٢
٦	اراضي بطون الاودية	٨٢	١.٧٤	٧
٧	اراضي اخدودية	١٠٣٥	٢٢.٠١	٣
٨	اراضي السهل الفيضي	٢٧	٠.٥٧	١
	المجمـــــــــوع	٤٧٠١	١٠٠ %	

المصدر : عمل الباحث يالاعتماد على الشكل رقم (٤)

تحليل النظم الأرضية لمنطقة الدراسة

ت	الوحدة الجيوبيئية	مساحة بـ (كم)٢	شكل سطح الأرض	نوع التربة	الغطاء النباتي
١	اراضي حصوية مشققة ورواسب منحدرات	١٦١	تتوزع حول السلاسل الجبلية ,تبدو وكنها مجموعة من المراوح المتلاصقة .كونتها الاودية الموسمية الجريان .والمتمثلة بالرواسب عند تدفقها من المرتفعات عبر خوانق صغيرة ضيقة بأتجاه السهول ذات طابع حصوي وتصنف من الصنف الرابع وتشكل نسبة قدرها ٣.٤٢% من مساحة الحوض الكلية	طينية –غرينية قاعدية	ذات حشائش قصيرة موسمية تنتشر الزراعة الديمية في مناطق متفرقة منها وهي اراضي رعوية جيدة
٢	أراضي سهول فيضية نهرية	٢٧	سهول فيضية ومنخفضات تغمرها مياه الفيضان في اغلب الأحيان ، وتظهر فيها بعض العيون ذات انهار منخفضة تتخللها تضاريس هنا وهناك كونتها عوامل التعرية صنفت من الصنف الاول لتقييم الاراضي شكلت نسبة قدرها ٠.٥٧%	طينية–غرينية والمادة المكونة لها منقولة بمياه الفيضانات	ذات زراعة متنوعة وأشجار طويلة في بعض الأماكن هنا وهناك
٣	أراضي المرتفعات وسلاسل الحواف والهضاب المعرات	١٤٦	تتكون من حافات الكويستات ظهور الخنازير والحواجز تبلغ درجة ميل الطبقات الصخرية لظهورها اقل من ٣٥° في حين تزداد أكثر من ذلك لكل من ظهور الخنازير والحواجز بشكل متعاقب فعلى سبيل المثال يبلغ ميل الطبقات في الجناح الجنوبي مابين ٢٥-٦٠ ° في حين يتراوح جناحها الشمالي مابين ١٢-٣٢ ° (١) والحالة نفسها في بقية الطيات وهذا يعني تركز حافات الكوستات في الأطراف الشمالية من الطيات المحدبة ، وتتواجد ظهور الخنازير والحواجز في الأطراف الجنوبية .أما الهضاب المعرات تنتشر في أعلى السلاسل التلالية والجبلية أو تأخذ أحيانا أشكال طولية متفقة مع اتجاه هذه السلاسل وتصنف من الصنف الثامن لتقييم الأراضي شكلت نسبة ٣.١٠% من مساحة الحوض	طينية غرينية	لاتصلح للزراعة .تشكل مراعي متباينة . تصلح للحياة البرية كونها توفر لها ملاذ ومأوى من الظروف المناخية والضغوط البشرية
٤	اراضي هضبية صخرية مشققة	٨٦٤	ذات طوبوغرافية متغيرة المعالم يتميز سطحها بسلسلة من الاقنية المتعمقة والرواسب الصغيرة الحجم تعاني من مشاكل الانحدارات الشديدة ووعورة الارض تصنف من الصنف السادس شكلت نسبة قدرها ١٨.٣٧% .	طينية غرينية قاعدية تنتشر فوقاها الغطاءات الحصوية	حشائش واعشاب ارض رعوية لكثرة الشعاب والاخاديد متدهورة لاستمرار الرعي فيها تنتشر زراعة ديمية فيها في بعض اجزائها

٥	ارضي سهول بطون الأودية	٨٢	قوات المجاري وحافاتها مغطات بالحصى والرمل ضيقة في معظمها وتتبع عند المصبات وتكثر فيها المنخفضات الطفيفة التقوس وتصنف من الصنف السابع من مستوى القابلية والملاحمة للأراضي شكلت نسبة قدرها ٥١.٧٤% من مساحة الحوض الكلية .
٦	الاراضي الاخدودية	١٠٣٥	تقع الى الشمال الشرقي من سلسلة حمرين كما يتضح من الشكل (٤) تكثر فيها الاشكال الجيومورفولوجية متسببة عن عوامل التعرية المائية وتتصف المنطقة بطوبوغرافية الارض المتموجة تكثر فيها الاحدارات والشقوق الارضية وتلتقي عندها المجاري الاساسية للحوض شكلت نسبة قدرها ٢٢.١%
٧	أراضي تعرية الاحدورات	٢١٩	منحدرات طفيفة الاحدار امتداداتها واسعة يتراوح انحدارها مابين ١-٨ % وهي بمثابة قمات للسفوح المنحدرة بسبب تعرض الصخور الهشة للارل – الصخور الطينية والرملية . الى تعرية مائية تنتشر عليها غطاءات فتاتية رقيقة غير مستقرة من الرواسب وتصنف من المستوى الخامس من مستويات القابلية والملاحمة حسب قدرتها الإنتاجية وشكلت نسبة قدرها ٤.٧% من مساحة الحوض الكلي .
٨	اراضي السهول التجميعية	٢١٦٧	يقع هذا السهل بين سلسلتين كورمور وجمبور مكونة سهل ليلان الذي يقع جنوب شرق مدينة كركوك ويمتاز بتربة بنية مغطاة بحصى خفيف ويتصل بسهل كركوك الحويجة والرشاد وتازة الذي يقع على مروحة كركوك الضخمة تتصف بتربة بنية ذات سمك متوسط والبعض منها عميق العالم الطوبوغرافية فيها قليلة ويصورة عامة يتدرج الانحدار فيها من منحدر الى مستوي يتوفر الماء الجوفي فيها واقيمت بعض الكهاريز مثل كهريز بابجي وتازة وعموما المنطقة ترتفع من جهة الغرب تتجه باتجاه جنوب شرق وينضح ذلك من اتجاه جريان الانهار شكلت نسبة قدرها ٤٦.٩% من مساحة الحوض

٥	طينية –غرينية رملية مغطاة بالحصى المغمن منقولة مع مياه الانهار	تكثر فيها أشجار طرفاء الحلفة والدغل الغالب عليها خالي من النبات الطبيعي								
٦	طينية غرينية لومية قاعدية	تصلح لجميع انواع الزراعة بعد اجراء الاصلاحات وصيانة التربة تنتشر فيها نباتات طبيعية منها حشائش قصيرة وينتشر في بعض اجزائها الشوك								
٧	تربة ضحلة رقيقة السمك وتنتشر فيها المفتتات الصخرية طينية – غرينية	غطاء نباتي مبعثر تصلح مراعي جيدة ويستغل البعض منها للزراعة								
٨	طينية –غرينية لومية قاعدية	تصلح لجميع انواع الزراعة استغلت للزراعة الديمة والبعض منها اروائية عن طريق حفر الابار والارواء الثهري ذات غطاء نباتي طبيعي ينصف بالحشائش القصيرة الفصلية والشوك والعاقول والصفير في البعض منها	*	*						

مخطط (١) يوضح مراتب تصنيف الاراضي حسب قدرتها الانتاجية في حوض خاصة جاي

ت	الوحدات الجيوبيئية	مراتب استعمال الأرض حسب قدرتها الإنتاجية	الحياة البرية	غابات	حشائش ومراعي محدودة	حشائش ومراعي متوسطة	حشائش ومراعي كثيفة	زراعة معتدلة	زراعة كثيفة	زراعة كثيفة جدا
١	أراضي السهول الفيضية النهرية	١	*	*	*	*	*	*	*	*
٢	أراضي السهول التجميعية	٢	*	*	*	*	*	*	*	
٣	أراضي اخدودية	٣	*	*	*	*	*	*		
٤	أراضي حصوية مشققة وروأسب المنحدرات	٤	*	*	*	*	*			
٥	أراضي تعرية الاحدورات	٥	*	*	*	*				
٦	أراضي هضبية صخرية مشققة	٦	*	*	*					
٧	أراضي سهول بطون الأودية	٧	*	*						
٨	اراضي المرتفعات و سلاسل الحواف	٨	*							

* صالحة للاستعمال

أفكار هذا المخطط مستوحات من (I.T.C) الجزء السادس والتصنيف الأمريكي للاراضي والمسح الجيولوجي والتحري المعنى لأنواع التربة في حوض العظيم مع التوثيق الحقلي. انظر كتاك.k.p.krishan eta (1981),p.p138.

الخاتمة:

اولاً الاستنتاجات

1- بلغت مساحة الحوض (4701) كم^2. صنفت الى وحدات أرضية أعتمادا على المتغير الجيومورفولوجي موزعة على ثمانية أصناف من مراتب أستعمال الأرض حسب قدرتها الأنتاجية وطبيعة الأستخدام وتبعا لذلك فأن مساحة الأصناف الواقعة ضمن هذه المراتب تتفاوت من حيث السعة والنسبة المئوية التي تشغلها في الحوض .

2- شكل الصنفين الأول والثاني من مستوى القابلية والملائمة لتقيم الأراضي مساحة قدرها (2194)كم^2 ومايعادل (46.66%) من مجموع مساحة الحوض الكلية تتصف بالسعة والأنحدار الخفيف وذات تعرية مائية خفيفة الغالب عليها غطائية مهدت لزحف التربة والمفتتات الصخرية لذا تعد من الوحدات البنائية ولخصائصها المميزة أصبحت ذات جذب سكاني تطورت فوقها المستقرات البشرية وأستثمرت بالنشاطاتالمختلفة وخاصة الزراعة.

3- بلغ الصنفين الثالث والرابع من مستوى القابلية والملائمة مساحة قدرها (1196)كم^2 ونسبة (25.43%) تتوزع بشكل مبعثر عند أقدام السلاسل الجبلية والمشارف التلالية والهضبية، تستثمر لاغراض الزراعة والرعي وتعاني من تدهور بيئي متوسط .

4- بلغت مساحة الصنفين الخامس والسادس من مستوى القابلية والملائمة لتقييم الأراضي مساحة قدرها (1083) كم^{2}وبنسبة (23.07%) تتوزع بأغلب أجزاء الحوض تتعرض لتعرية مائية شديدة ترتب عليها تشكيل شبكة كثيفة من الأودية وكثرة الحزوز فيها مما جعلها تتصف بغطاء نباتي خفيف وتعاني من تدهور بيئي شديد .

5- شكل الصنفين السابع والثامن من مستوى القابلية والملائمة مساحة قدرها (228) كم^{2}ونسبة (4.84%) تتشكل من الكوستات وظهور الخنازير وحواجز وهضاب

معرات وقنوات مجاري ذات حافات مغطات بالحصى والرمل مما جعلها تتصف بالتدهور البيئي الشديد جدا .

6-أن تضرس الأجزاء الكبيرة من الحوض ووعورتها أصبحت عامل جيومورفولوجية (وسيط طبيعي) لتسريع زيادة نشاط العمليات الجيومورفولوجية المتعلقة بالتعرية المائية والأشكال المرتبطة بها بتوسيع مساحة الأراضي الرعوية على حساب مساحة الأراضي الزراعية حيث شكلت الأراضي التي تعاني من تصحر شديد وفقيرة بغطائها النباتي مساحة قدرها (1472) كم^2 بنسبة (31.33%)

أما الأراضي ذات المستوى المرتفع من حيث القابلية والملائمة الأنتاجية بلغت (3229) كم^2 وبنسبة (68.67%) من المساحة الكلية للحوض.....

ثانياً : المقترحات

1- وضع خطه تنمويه زراعيه للأراضي السهليه من الحوض وأراضي تعرية الأحدورات لتنظيم الأستفادة من مياه الحوض بإستخدام طرق الري الحديثة واختيار التركيب المحصولي الملائم للارض . حيث أظهرت الدراسة بأنها ذات مستوى مرتفع من حيث القابليه والملائمه.

2- تبين من خلال الدراسة بان (1472) كم 2 وبنسبة قدرها 33،31 % من مساحة الحوض تعاني من التصحر الشديد وفقيرة بغطائها النباتي والتدهور ألبيئي يتطور وغياب دور ألآنسان الذي بإستطاعته التخفيف عن الاثار التدميرية عن طريق تقويم المنحدرات من اثار المياه المتساقطة والجارية والمحافظة على الارض من التعري من خلال مايلي:

1- انشاء خطوط عمودية على اتجاه الانحدار بعرض 20سم وعمق 15سم تساعد على زيادة ترشيح الماء وتقليل الانجراف في ألأراضي المنحدرة

2- انشاء مساطب تقام بوضع عمودي على اتجاه الانحدار غرضها زراعة الاشجار والنجيليات للتقليل من الانجراف .

3- آقامة سدود صغيره لأعتراض مسار الجريان المائي في الاخاديد المنحدره التي تساعد على تماسك التربه وحمايتها من تحرك مواردها.

4 – اقامة ندوات و برامج ثقافية زراعية – بيئية تهدف الى تغير نوعية الانسان وتعميق مفهومه البيئي.

المصادر :

(1) شركة نفط الشمال (شعبة الدراسات) دراسة حقل الانفال سنة 1992 ص 26
(2) النقيب :خورشيد محمد 1960 ملخص جيولوجية المنطقة الجنوبية (كركوك) مؤتمر البترول العربي الاول ص26.
(3) احمد محمد صالح العزي / دور العمليات الجيمورفولوجية في تشكيل المظهر الارضي لحوض طاووق جاي – نهر العظيم، رسالة ماجستير، جامعة تكريت، كلية التربية، قسم الجغرافية، سنة 2000، ص 68 .
(4) هيلمونت كونكة وانستون بيرتراند / 1985، صيانة التربة، ترجمة ليث خليل إسماعيل، دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل . ص 40 .
(5) عبد الله قاسم الفخري، الزراعة الجافة أسسها وعناصر استثمارها، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ،1968 ص35 .
(6) عبد الله نجم العاني، مبادئ علم التربة، كلية الزراعة جامعة بغداد، ص53 .
(7) عبد الله قاسم الفخري، الزراعة الجافة أسسها وعناصر استثمارها ،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، 1968، ص35.
(8) حسن رمضان سلامه، أصول الجيومورفولوجيا،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية قسم الجغرافية، الجامعة الاردنية، 2004 ص242.
(9) عبدالله قاسم الفخري، مصدر سابق، ص35.
(10) حمد الله سليمان الدليمي، الترب الملحية والقلوية،من بحوث الدورة التدريبية في مجال ادارة الاراضي المستصلحة والمتملحة،بغداد المنظمة العربية للتنمية الزراعية 1960، ص 33.
(11) المديرية العامة للمسح الجوي، خاريطة الطوبوغرافية مقياس 100000/1 .
(12) مديرية المسح الجيلوجي والتحري المعدني خارطة جيلوجية مقياس 250000/1.
(13) مديرية المسح الجيلوجي والتحري المعدني خارطة رقم (2) أنواع التربة في منطقة حوض نهر العظيم وروافده ، مقياس 250000/1 والتوثيق الحقلي.

المصادر الأجنبية:

(1) K.P.krishan et. Al (1981|) ،soil Investigations of .Kirkuk Adhaim.Irrrigtion Project .(see Stage)،state ،organization for. land. regulation general Establishment for .design،PP.32،84 .
(2) p.Buring (1960)،Soil and soil conditions in iraq exploratory soil map scale 1/500000 Baghdad .
(3) I.T.C. ، <Terain Analysis and Classification using Aeril photographs ، VOL . 6 . ، Netherlands.

الوصف الجغرافي عند المقدسي
في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

م. سحاب خليفة السامرائي
كلية التربية/ سامراء

مُقَدِّمَة

كثيرا ما يتردد على مسامعنا إن عالمنا صغير وأصبح قرية صغيرة كما يقال، هذا صحيح بالنسبة لعالم اليوم فنستطيع أن نجوب أرضنا بوسائل ووسائط النقل الحديثة. أما أرضنا فقد كانت شاسعة الإبعاد بالنسبة لأولئكَ الذين كانوا على ظهرها في العصور الغابرة، إلا إنهم رغبوا في التعرف على الأرض التي يقطنون والسماء التي تحتها يسيرون(وبالنجم هم يهتدون) فمنذ أن ظهر الإنسان على وجه الأرض أُغرم بحب الاكتشافات ولكنه وجد في بداية الأمر صعوبات جمة اضطرته إلى النضال مراراً ضد قوى الطبيعة فكان البحث عن الغذاء والتبادل التجاري ومن ثم ظهرت الدوافع السياسية والدينية. لذا فقد كانت المحاولات الأولى لوصف الأرض أو وصف أجزاء منها غير مستندة إلى المشاهدة بل كانت معلومات استقاها الرواة ممن سبقهم.

وجاء الإسلام ليأمر الإنسان بالسير في الأرض وطلب العلم ففي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بلغت الحضارة العربية الإسلامية شأناً كبيراً في مضمار التقدم والازدهار في شتى ميادين المعرفة ومنها ميدان البحوث الجغرافية فنمت في هذا العصر البحوث العلمية وتقدمت محاولة الكشف عن الحقائق في كل حقل من حقول المعرفة.

فمع بلوغ الأدب الجغرافي ذروته طالعنا المقدسي الذي عاش حقبة من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي

يعد أفضل ما خُط في الجغرافية لأنه عول في كثير مما كتبه على اختباراته الشخصية ومشاهداته العيانية، إذ كانت رحلاته ذات خصب وأصالة ووصف دقيق لما شاهده وعاينه وما سمعه من الثقات وما وجده في الكتب المصنفة.

ولعل سهولة الانتقال بين أرجاء العالم الإسلامي في هذا العصر قد شجعت ذلك الاتصال الوثيق بين أجزائها.

لقد عرض المقدسي في كتابه جوانب عديدة لمظاهر الحضارة التي شاهدها خلال تجواله في البلدان الإسلامية واطلاعه على نواحي الحياة المختلفة بها ومع أن البلاد الإسلامية في عصر المقدسي كانت منقسمة إلى عدة ممالك وإمارات إلا أن العلاقات التجارية والعلمية ظلت قائمة بين تلك الممالك على ما هي عليه بسبب رابطة الإسلام ومما سهل الامتزاج بين المناطق الإسلامية.

وقسم البحث على ثلاثة أجزاء:

تناول الجزء الأول: المقدسي من حيث النسب والنشأة ودراسته وآثاره ورحلاته ثم وفاته و نبذة عن تصنيف كتابه أحسن التقاسيم وأسلوبه في الكتابة.

أما الجزء الثاني: فتناول الجغرافية الطبيعية عند المقدسي.

وتناول الجزء الثالث: الجغرافية الاقتصادية والبشرية إذ احتوى على النشاط الاقتصادي وطرق النقل والمواصلات واهم الإسهامات التي قدمها المقدسي وعوامل ازدهار المدن. واحتوى البحث على الخاتمة فضلا عن الاستنتاجات والتوصيات.

الجزء الأول

اسمه ونسبه:

المقدسي هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المعروف بالبشاري[1]. اشتهر بتسميتي؛ المَقدسي (بفتح الميم) نسبةً إلى بيت المَقدس؛ والمُقدّسي (بضم الميم وتشديد الدال) نسبة إلى المكان المُقدس [2]. وهو بيت المَقدس، وزيادة على هاتين التسميتين لقب بعدة ألقاب وصفات ذكرها لنا في

كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مثل فلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح وورّاق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وشامي وعراقي ومتؤدّب وبغدادي ومتفقه وراكب ورسول [3].

وقد جاءت هذه التسميات والألقاب والصفات(التي قاربت ستة وثلاثين اسماً) منسوبة إلى المناطق التي زارها والإعمال التي زاولها والمهن التي مارسها كما انه كان يعمد أحيانا إلى التنكر وتغيير اسمه والدخول في الطوائف المختلفة لدراسة بيئتها والوقوف على حقيقتها[4].

أما بالنسبة إلى أسرته فان المقدسي يذكر لنا ان اسم جده مدون على حائط عكا[5]. أما أمه فترجع في الأصل إلى مدينة بيار في قومس[6]*.

ولادته ونشأته ودراسته:

يمكننا أن نحدد ولادة المقدسي على وجه التقريب إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار قوله انه أخرج كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) عندما بلغ الأربعين وذلك في سنة 375 هـ. (985–986 م). فتكون ولادته على هذا الاعتبار في سنة 335 هـ (946 – 947م).

أما نشأته فلا نعلم عنها الشيء الكثير ويرجح انه ولد في بلاد الشام وهناك إشارة إلى انه كان في مكة عندما كان في العشرين من عمره ولكننا لم نتوصل إلى معرفة سبب سفره إلى مكة [7]. فقد يكون لأداء فريضة الحج والعمرة أو للتجارة والسفرة العلمية أو الاثنين معاً. انتقل المقدسي في إحدى رحلاته إلى بغداد ودرس على علمائها وتفقه فيها وكان أول أولئك؛ القاضي أبو الحسن القزويني[8].

لازم المقدسي دور الكتب في بغداد وقد استهوته الجغرافية، الأمر الذي جعله يراجع ما كتبه الذين سبقوه في هذا المجال، فاطلع على مؤلفاتهم ودرسها دراسة علمية عميقة وخرج منها متأكداً بان معظم ما كُتب في هذا الموضوع لم يعتمد على المشاهد الفعلية ولا على الرحلة التي تستخلص منها المعلومات الصحيحة والوقائع الطريفة، لذلك نراه يشد الرحال معتمدا على نفسه متنقلاً من إقليم إلى آخر ومن مدينة إلى

أخرى مطلعا على ما فيها من مظاهر الحياة المختلفة. وكانت مدة إقامته في بعض المدن والأقاليم تطول حتى بلغ سنة كاملة كما فعل في اليمن وأحيانا لا تتجاوز بضعة أيام.

وكان المقدسي خلال رحلاته يدون ما يشاهده ويسمعه من ذوي الخبرة أو ممن يثق بهم ويركن إلى صدقهم وقد التقى بمختلف طبقات الناس وأجناسهم ومذاهبهم وإعمالهم وافاد من مقابلته لبعض الملوك والأمراء في اغلب المناطق التي زارها فاطلع على ما كان موجودا من الكتب والخرائط والمعلومات. فازداد خبرة وثقافة وسعة اطلاع وبحسب ما ذكره هو في مقدمة كتابه.

إن حياته كانت صعبة ومتناقضة لم تستقر على حال ثابت. فتارة نجده يعمل بالتجارة وأخرى ينام في المساجد فيطرد منها، وقد أملت عليه ظروفه القاسية هذا السعي لسد نفقات معيشته. فزاول أعمالاً عديدة منها تجليد الكتب والمصاحف، ومن جهة أخرى تولى بعض المناصب كإمامة المساجد بل ويذكر انه عُرضت عليه إدارة الأوقاف كما عمل أمينا لدى بعض الأمراء والملوك والوزراء.

وهكذا نجده يعيش حياة متذبذبة متناقضة قلقة بعيدة عن الاستقرار دون أن تحول تلك المتاعب بينه وبين التأليف [9].

وفاته:

يصعب علينا تحديد تاريخ وفاة المقدسي إذ أن المصادر لم تحدد تاريخها علما بأنه ذكر الخليفة العباسي الطائع في بغداد (الذي تولى الخلافة من سنة 363 هـ (973 م/ 974م) إلى سنة 381 هـ (991 / 992 م) ويرجح ان وفاته كانت حوالي381 هـ/991 – 992م[10]. وهناك من يحدد وفاته في سنة 380هـ – 990م[11].

مذهبه وآثاره :

كان المقدسي على مذهب أبي حنيفة وقد فضله على بقية المذاهب [12]. ومن خلال كثير من النصوص التي أوردها والتي امتدح بها علياً ودافع عنه نستدل انه كان يميل إلى تأييده ويقف ضد معاوية فتراه يستشهد بأقوال الإمام علي (ع) وأخرى يدافع عنه[13].

تبدو مجهودات المقدسي العلمية واضحة جلية في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) الذي كان خلاصة لرحلاته الواسعة وتجاربه الخاصة وحيويته ونشاطه في سبيل علم الجغرافية.

وقد أشرنا إلى انه وضع كتابه في سنة 375 هـ (985/ 986 م) وهو في سن الأربعين (سن النضج عند الإنسان) كما يشير هو (لم أظهره حتى بلغت الأربعين ووطئت جميع الأقاليم)[14].

لقد وضع المقدسي كتابه بمدينة شيراز بفارس بعد أن عرضه على العلماء والأئمة وصدور الزمان يطلعون على مسودته وبعد أن عرض هذه المسودة بصورة خاصة على القاضي المختار عالم خراسان الشيخ الفاضل السيد أبو الحسن علي بن الحسن [15].

لقد عرف العالم الأوربي المقدسي لاول مرة بفضل المستشرق أشبرنجر الذي جلب مخطوطة برلين من الهند [16].

طبع الكتاب:

طبع كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) مع ترجمة فرنسية وشرح وتعليقات باعتناء د ي خويه في ليدن سنة 1906 م وطبع كذلك ضمن الجزء الأول، المكتبة الهندية في كلكتا سنة 1897 م/ 1901م مع بعض الاختصار كما ترجم بقلم رانكنغ وازو [17]. واخيراً بقلم سوفاجيه[18].

رحلاته:

قبل البدء بالحديث عن رحلات المقدسي تجدر بنا الإشارة إلى أن هذه الرحلات اقتصرت على العالم الإسلامي لأنه لم يذكر شيئا يدلل على زيارته للأقطار الأخرى. كما انه لم يكتب عنها شيئا رغبة منه في عدم الاعتماد على النقل أو الاقتباس من كتب المؤلفين الجغرافيين الذين سبقوه بفعل عدم الخوض فيما لم يشاهده من الأقطار عدا إقليمي الأندلس والسند [19].

طاف المقدسي في مملكة الإسلام من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب (في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) [20]*كما يتضح من الخريطة المرفقة.

أما معلوماته عن الأندلس فنقلها كما يعترف هو نفسه في كتابه من حاجين التقى بهما خلال موسم الحج في مكة عام (337 هـ – 987م) [21]. إلا إن معلوماته عنها يسودها بعض الاضطراب لعدم وقوفه بنفسه على حقيقتها لذلك لم تكن الصورة التي قدمها لنا عن الأندلس واضحة جلية لاعتماده على السماع وهو لا يرقى إلى مستوى المشاهدة المباشرة أبدا وبالرغم من ذلك كله فان ما أورده عن الأندلس لا يخلو من الفائدة ولا نغالي إذا قلنا إنها معلومات قيمة في بعض الأحيان.

أما معلوماته عن السند فكانت هي الأخرى ناقصة فلم تكن كمعلوماته التي قدمها عن بقية الأقاليم لأنها اعتمدت هي الأخرى على السماع أيضا[22]. ويشك بعض المؤرخين في زيارته لصقلية لكن معلوماته عنها تبدو واضحة كما ان كراتشكوفسكي يرى ان المقدسي زار صقلية معتمدا على ما قدمه أماري الذي حلل روايته عن هذه الجزيرة [23].

عصره الذي عاش فيه:

لقد عاصر المقدسي عدة دول إسلامية في المشرق والمغرب فحين زار بغداد كانت تخضع للحكم البويهي أي في عصر الخليفة الطائع (363 –381 هـ)، (973 – 974 م) أما جولته في المشرق فكانت في عهد حكم السامانيين الذين اتصل بهم وأشاد بقوتهم وعاصر الفاطميين وشهد خلافة العزيز بالله الذي امتد نفوذه من شمال

أفريقيا إلى الأجزاء الساحلية من بلاد الشام بالإضافة إلى الحجاز وأصبحت الدولة الفاطمية في عهده مركزاً للحضارة الإسلامية في المغرب [24].

تصنيف الكتاب:

إن كتاب المقدسي من الكتب الجغرافية العظيمة ووثيقة مهمة لكل من يبحث في جغرافية الأقاليم التي درسها المقدسي سواء كانت دراسته في الجغرافية الطبيعية أو البشرية أو الاقتصادية[25]. صنف المقدسي كتابه سنة 385 هـ [26]. إذ لم يتبع في تصنيفه سنن الذين سبقوه فهو يقول ((اجتهدت بان لا اذكر شيئا مما سطره البلخي والجيهاني والهمداني والجاحظ وابن خرداذبة ولا أشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة ولا اسرق من تصانيفهم))[27].

قسم المقدسي الأقاليم التي ذكرها في كتابه إلى ديار العرب (جزيرة العرب والعراق وآقور(آشور) والشام ومصر والمغرب) وديار العجم المشرق (دوله آل سامان) والديلم والرحاب (أرمينيا وأذربيجان) والجبال (إيران الشمالية) وخوزستان وفارس وكرمان والسند وقد تناول أيضاً بادية العرب والإقليم الأوسط من إقليم العجم (المفازة)[28].

أسلوبه في الكتابة:

يلتزم المقدسي السجع في كتابه وهو يبرر اتباعه لهذا الإسلوب بقوله ((إن العوام يحبون القوافي والسجع)) [29]. ومع انه كان مولعا بزخارف السجع،. فيقول مثلا عن إقليم العراق ((لطيف الماء عجيب الهواء.... أليس به البصرة التي قوبلت في الدنيا وبغداد الممدوحة في الورى والكوفة الجليلة وسامرا)) [30].

وهو وان يعتمد على العرض الجغرافي القائم على المشاهدة في الوصف فانه كذلك يعتمد على طريقة المقارنة في وصف المواقع الجغرافية وهو الأسلوب العلمي البحت ممثلا بقول عن الفسطاط بأنها ((أهل من نيسابور واجل من البصرة واكبر من دمشق)) [31].

الجزء الثاني

الجغرافية الطبيعية عند المقدسي

آراؤه الجغرافية:

من خلال قراءة كتابه أحسن التقاسيم يظهر بان المقدسي يذكر في خصائص الأقاليم الوصف العام للأقاليم الجغرافية وصفة جميع المواقع الجغرافية والتي جاءت نتيجة تجواله وخبراته وكذلك عن طريق السماع من العامة وكذلك يروي القسم الآخر عن بعض العلماء كالجاحظ وغيره او لا ينسبها إلى أحد فيقول (يقال). ومع ذلك فقد برزت بعض الآراء منها اعتقاده بكروية الأرض(كرة موضوعه في جوف كالمحة في جوف البيضة). وقد قسم الأرض إلى قسمين : نصف الكرة الشمالي ونصف الكرة الجنوبي يفصلهما خط الاستواء[32]. وقد جعل المقدسي الأقسام رباعيات مخالفا بذلك بقية العلماء الذين يقولون بالسباعيات[33].

الوصف المناخي:

اتبع المقدسي في وصف الأقاليم المناخية فيصف الحالة المناخية لموقع جغرافي وربما أهمل الموقع الآخر ثم ان الوصف المناخي لم يأت إلا عابراً ضائعا بين الصفات الأخرى للموقع فمثلا يقول (بغداد في مصر السلام،... هواء رقيق، وعلم دقيق،كل جيد بها وكل حسن فيها)[34].

و قد وصف بعض المواقع بصفة مناخية وجعلها ملازمة لها فمثلا يقول في صنعاء بأنها (طيبة الهواء) [35]. واستعمل مصطلحات مناخية وهي(الهواء الرقيق، الهواء الطيب، قوية الهواء، الهواء الصحيح، خليقة الهواء، جيدة الهواء، هواؤها عجيب). فيقول في شيراز بأنه بلد (معتدل الهواء طيب في الصيف وفي الشتاء)[36]. وان هواء الشام متوسط اي معتدل الحرارة إذن المقصود به هو الاعتدال في حرارة الهواء.

وقد ورد هذا الاصطلاح الشامي كثيرا في وصف مناخ المواقع الجغرافية منها الطائف وآقور والإسكندرية ومن المصطلحات الأخرى (عجيب الهواء) كخاصية من خصائص مناخ العراق. أما (الهواء اليابس) فقصد به الهواء الجاف وقد استعمل

المقدسي طريقة المقارنة في الصفات المناخية أيضاً فتراه مثلا يقول عن مصر بأنها (اشد حرا من سواحل الشام) [37].

والمقدسي يذكر الفصول؛ فيذكر أحدها دون ذكر الآخر فقد يذكر الصيف ولا يذكر الشتاء وكذلك فانه يذكر الليل ويترك النهار فأقرا ما يقوله في مكة (انهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف) [38]. وهذا يرجع إلى دفء مكة شتاءً من الناحية المناخية واعتدال مناخ الطائف صيفاً؛ وهذه إلتفاتة طريفة من المقدسي ينقله هذا التفسير الجغرافي للآية القرانية: چ ٻ ب ب ٻ ٻ پ پ ٻ چ[39]. ويقول عن الطائف ايضا (الطائف مدينة صغيرة شامية الهواء باردة الماء..) [40]

ومن الأوصاف الطريفة يذكر المقدسي بان سيراف هي باب جهنم من شدة الحر، وكذلك يصف البرد في إقليم الجبال بأنه شديد فترى خدودهم في الشتاء مشققه[41].

وأما الرياح فقد ورد ذكرها في منطقة فاران فإنها تكون قويه بحيث تغرق المراكب[42]. واما الرياح التي تهب على البصرة فإنها إذا كانت جنوبية ترفع الحرارة حتى أنها تسخن الماء (وهذه تسمى محليا بالشرجي) أما إذا هبت الرياح الشمالية الباردة فتكون طيبه ومريحة [43].

التساقط: نوعيته وتوزيعه الجغرافي:

لقد ذكر المقدسي الندى بأنه يسقط في إقليم الشام في فلسطين كل ليلة في الصيف وفي بيت المقدس يسقط ثلج قليل. أما في مصر فان الاسكندرية غزيرة الأمطار. إما في إقليم المشرق (جانب هيطل) فان كش كثيرة الأمطار والثلوج. واما جانب خراسان في غزنين يسقط ثلج كثير، وأما إقليم الديلم فهو كثير الأمطار في طبرستان. وأما آمل فكثيرة الأمطار في الصيف. وأما إقليم الجبال ففي الري وهمدان يسقط الثلج والجليد وفي إقليم السند يقع الثلج في منطقة بنجور [44].

التضاريس:

الجبال:

ذكر المقدسي أنّ في جزيرة العرب يوجد جبلان هما جبل طي وجبل سينا[45]. وكذلك يذكر المقدسي ان في إقليم آقور يوجد جبل يسمى الطور وهو جبل من جبال الجنة كما يصفه لنا المقدسي[46]. وفي إقليم الشام يوجد جبل زيتا وجبل طرطوس وجبل بانياس[47]. ويصف لنا المقدسي ان في بلاد الشام ايضاً جبالاً حمراً يسمى ترابها الصمغة وجبالاً بيضاً يسمى ترابها الحوارة وجبال زيتا وجبال صيدقا ويذكر المقدسي ان جبل زيتا يطل على بيت المقدس وجبل صيدقا بين صور والقدس[48]. ويصف لنا المقدسي بركان صقلية في إقليم المغرب وهو جبل تفور منه النار كل عشر سنوات [49]. أما إقليم المشرق جانب هيطل يوجد جبال الرحبة وجبال تسمى معادن الفضة [50]. ويصف لنا المقدسي ان في خراسان جبلاً يسمى بنجهير ويوجد في نيسابور جبل ترابه اسود به يكتبون الرسائل وجبال في جانب هيطل ونيسابور يقطعون منها الملح[51]. وفي إقليم الديلم جبل جرجان وفيها جبال عامرة على نعت لبنان [52].

أما في إقليم الرحاب يوجد جبال فيها الأعسال (العسل) وجبل على حدود شمكورة وجبل الحارث وجبل الطائف [53]. اما في إقليم الجبال فيوجد جبل بيستون منيع أملس لا يرتقى إليه وفيه غار وفيه عين يجري منها الماء وجبل دنباوند ممتنع جدا يرى من نحو خمسين فرسخا وكذلك جبال النحر[54].

أما إقليم فارس ففيه جبال جوما وهندوان كثيرة المعادن [55]. وأما إقليم كرمان ففيه جبال منيعة وله دخله مقوسة عند البحر وفيه جبال القفص [56]. واما إقليم السند ففيه جبال أعظمها وامنعها جبال كركسكوسه (سياه كو) [57]. ويصف لنا المقدسي ان في إقليم المغرب يوجد جبل يدعى او يسمى طارق[58].

البحار:

يذكر المقدسي انه لم يرى في الإسلام إلا بحرين احدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان فإذا بلغ مملكه الإسلام دار على جزيرة العرب وله خلجان كثيرة وشعب عدة وقد اختلف الناس في وصفه والمصورون في تمثيله فمنهم من جعله شبه طيلسان يدور في بلد الصين والحبشة وطرف بالقلزم وطرف بعبادان وقد اطلق عليه المقدسي تسمية البحر الصيني [59].

اما البحر الآخر؛ فخروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس يخرج من المحيط عريضا ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام وينقل لنا المقدسي حكاية فحواها أنه سمع مشايخ المغرب يفسرون الآية الكريمة چٱ ٻ ٻ ٻ پ پچ[60]. قال المغربان هذان الوجهان من هذا البحر مغرب الصيف عن يمينه ومغرب الشتاء من يساره وسمعت جماعه منهم يذكرون انه يضيق في حدود طنجه وهو كما يذكره المقدسي (بحر الروم) [61].

اما الجيهاني فقد جعلها خمسة بحار زاد بحر الخزر وخليج القسطنطينية ونحن اقتصرنا على ما أنبأ الله في كتابه حيث يقول چپ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤچ[62]. والبرزخ من الفرما إلى القلزم مسيرة ثلاثة أيام وقيل إنما أراد الله تعالى بالبحرين العذب والمالح لأنهما لا يختلطان[63].

الثروات المعدنية:

وفي جزيرة العرب يوجد من الثروات الحديد والرصاص والذهب واللؤلؤ[64]. وفي بلاد الشام توجد معادن الرصاص والحديد في جبال بيروت [65]. وفي مصر يوجد معادن الرخام ومعدن يسمى زاج الحبر لم نر مثله [66]. وفي إقليم كرمان معدن الفضة ومعادن من الحديد[67]. وفي إقليم المغرب توجد معادن المرجان [68]. وفي إقليم المشرق جانب هيطل جبال معادن الفضة ومعادن الحديد وجانب خراسان يوجد معادن الفضة وفي نيسابور توجد معادن الرخام والفيروز ومعادن الفضة [69].

الجزء الثالث

الجغرافية البشرية والاقتصادية عند المقدسي

ان سعة رقعة الدولة الإسلامية في عصر المقدسي قد اشتملت على عدد من الأنهار المهمة ففي إقليم العراق نجد نهري دجلة والفرات وفي إقليم المشرق نهر جيحون وفي مصر نهر النيل و نهر الشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران ونهر الرَّس ونهر الملك ونهر الاهواز واضاف ان هناك خمسة عشر نهرا اخرى مهمة عدا الأنهار الآنفة الذكر[70].

نظام الري:

وصف المقدسي نظام الري في الأقاليم التي زارها فذكر ان الجزيرة العربية اعتمدت في زراعتها على مياه الآبار واتخذت القنى وسيلة من وسائل توزيع المياه[71]. واعتمدت المدينة المنورة في سقياها على قناة غزيرة [72].

ومن المناطق التي اعتمدت زراعتها على الآبار منطقة عُمان التي كانت ترفع إليها المياه بواسطة البقر، أما العراق فيعد وجود النهرين دجلة والفرات عاملاً حاسما في تاريخه وعليها يعتمد رواة المزارع وكان الري السيحي في منطقة البصرة كما هو الحال في الوقت الحاضر. وقد ساد في منطقه البصرة نظام خاص للري اذ انتشرت فيها شبكة من القنوات تستمد مياهها عن طريق ظاهرة المد التي تملا هذه القنوات مرتين في كل اربع وعشرين ساعة فتروي الحقول والبساتين ونوه المقدسي بان للبصرة نهرين هما نهر الابله والمعقل [73].

اما بالنسبة لإقليم الشام فقد بين لنا المقدسي انهم كانوا يعتمدون على ثلاثة مصادر هي الأنهار والامطار والعيون [74]. وكذلك تنظيمات الري في إقليم المشرق تعتمد على مياه نهر جيحان وكانت القوانين المتعلقه في شرق فارس متشعبة كل التشعب فكان في مرو ديوان يسمى ديوان الماء [75]. أما إقليم الديلم فقد كان يعتمد في زراعته على الأنهار التي كانت تنحدر من الجبال وكذلك إقليم الرحاب يعتمد أيضاً على الأنهار في زراعته وكذلك إقليم الجبال يعتمد على الآبار والأنهار وإقليم خوزستان يعتمد في زراعته على الأنهار بواسطة النواعير [76]. وتكون مصادر مياه

إقليم فارس من الابار والبرك [77]. وفي إقليم المغرب اعتمدت القيروان بالدرجه الاولى على مياه الامطار[78].

الإنتاج الزراعي:

ذكر المقدسي أصنافا من الحاصلات الزراعية مثل الفواكه والحبوب والرياحين والخضر وأنواع الثمار، ووزع هذه المحاصيل توزيعا جغرافيا ممتازا يمكن الاعتماد عليه في تبيان مزروعات كل منطقه من المناطق التي زارها إلا انه لم يشر إلى مواسم زراعة هذه المحاصيل وقد ذكر لنا المقدسي في حقل الخصائص للأقاليم نماذج لما تشتهر به تلك المناطق فيقول ان إقليم الجبال يزرع فيه الزعفران بكثرة وفي إقليم الرحاب تتوافر الثمار،وفي كرمان ذكر لنا التمور وفي السند الزرع على البَعْلُ*[79].

أما الحاصلات التي ذكرها حسب الأقاليم، ففي إقليم الجزيرة تزرع الفواكه كالرمان والزبيب والعنب الجيد وهكذا يكون في منطقة الطائف [80]. وتحيط البساتين والنخيل مدينة يثرب أما الذرة فتنحصر زراعتها في الأجزاء الجافة جنوب الجزيرة العربية وفي جده كانت الظروف ملائمة لزراعة البن وفي جريب يزرع الموز وفي السودان تزرع الحبوب [81]. ووصف المقدسي إقليم العراق بأنه قليل الثمار [82]. بحيث اقتصرت الزراعة في الجنوب على الاراضي المحيطه بالأنهار والممتدة على ضفاف القنوات اما في الشمال فكانت المزارع على ضفاف الأنهار او الاماكن التي يكون فيها نزول الامطار [83]. وكانت البصرة اهم منطقة لزراعة التمور وكذلك اشتهرت البصرة بزراعة برتقالها وليمونها وكذلك قصب السكر والعنب. وفي منطقه تكريت تجود زراعة السمسم[84].

ونشطت الزراعة في منطقة الجزيرة على ضفاف النهرين وروافدهما وكانت الزروع الكثيفة في منطقة الخابور حول مدينة الخابور وعلى ضفتيه وامتدت بساتين وحقول مدينة راس العين على ارض واسعة يبلغ طولها حوالي عشرين فرسخا كما ان معظم مدن الجزيرة كانت محاطة بمزارع واسعة وبين لنا المقدسي وجود زراعة الأقطان في هذا الإقليم [85].

كما ان الشعير كان يزرع بكثرة في منطقة الجزيرة وخاصة حول الموصل لذلك اعتبرت الجزيرة المخزن الذي يمول العراق لاسيما بغداد بالحبوب في أوقات الشدة. وفي إقليم الشام ذكر لنا المقدسي حاصلات متنوعة أجملها بقوله؛ الشام بلد الموز والنخيل والنيل بلد الرخص والفواكه والخس من البقل. لعل ذلك التنوع جاء نتيجة لاختلاف التضاريس الأرضية واختلاف المناخ من منطقه إلى أخرى في هذا الإقليم ففي المناطق الحارة الرطبة ذكر لنا زراعة قصب السكر كما في طبرية وصور، وزراعة الموز كما في أريحا وبما ان هذا الإقليم يشرف على البحر المتوسط فانه تبع في زراعته إقليم البحر المتوسط. واشار المقدسي إلى زراعة الكروم والأعناب والتفاح والزيتون والتين في هذا الإقليم كما إن الظروف الطبيعية ساعدت على إنبات الأشجار الطبيعية الجبلية [86].

وازدهرت الحياة الزراعية في إقليم المغرب حتى قال المقدسي : انه غابت في الزيتون مدنه وبالتين والكرمات أرضه ففيه الانجاص والتفاح والنخيل والتين والأعناب وتجود فيه زراعة الحبوب والزعفران واللوز والسفرجل والزيتون والجوز والرمان، أما عن الأندلس فانه بلد الحبوب وفيه اشجار الزيتون والتين والأعناب والتوت[87]. وفي خراسان ذكر لنا المقدسي إنها اشتهرت بزراعة الفواكه ووصفها بأنها لذيذة ونفيسة فهناك الأعناب والسفرجل وكذلك ازدهرت بهشت بزراعة التين والزيتون والحبوب كزراعة الأرز كما يوجد الثوم ولكثرة الأشجار توفر الحطب فيها[88].

أما إقليم الديلم فوصفه المقدسي ؛انه إقليم الفواكه وتوجد فيه ألارزاز (مزارع الرز) والزيتون والأترنج والخرنوب والعنب والزيتون والرمان والبطيخ والتين ومن المخضرات الباذنجان وكذلك إقليم الرحاب توجد فيه زراعة الزعفران وفي إقليم الجبال حيث تلائم الطبيعة نمو الاشجار الطبيعية للمنطقة الباردة توفرت اشجار الجوز والخوخ واللوز والبطيخ والاعناب والتفاح [89].

وأما إقليم خوزستان (عربستان، الاحواز) فقد توفرت فيه الفواكه المختلفة كالأعناب والاترنج والانجاص والرمان والكمثرى والرطب هذا زيادة على الارزاز (مزارع الرز) وقصب السكر والرياحين [90]. اما بالنسبة لإقليم فارس فكان تنظيم هذه

البلاد الجبلية متنوعا منذ عهد الساسنيين فكانت فيها قلاع صخرية بعيدة المنال وغابات؛ واشراف (نبلاء) يملكون أراض واسعة فكان هذا من دواعي تكوين النظام الاقطاعي منذ ذلك الحين حتى ان المقدسي يقول ان اكثر الضياع بها مقتطعة وكانت تلك الضياع تنتج كثيراً من الفواكه والحاصلات الزراعية كالنخيل والاترنج والزيتون والعنب والليمون والجوز واللوز [91]. ويصف المقدسي محصولات إقليم كرمان بانه يشتهر بزراعة الجوز والكمون والبابنج هذا بالاضافه إلى ان إقليم السند يشتهر بزراعة الارزاز والموز والنخيل وهي من منتوجات المناطق الحاره هذا بالاضافه إلى توفر المراعي الواسعه في هذا الإقليم [92].

الثروة الحيوانية

وزع المقدسي الثروة الحيوانية على الاقاليم التي زارها فقال ان اكثر الاقاليم صوفا واجودها ألباناً واعسالاً الجبال واكثرها لحوما الرحاب وكانت الخيل تربى في بلاد كثيرة وكان لكل من العرب والفرس في امر الخيل تقاليد خاصة. وفي إقليم الجزيرة العربية ذكر لنا المقدسي مناطق انتاج العسل مثل منطقة العويند والسروات اما المناطق الساحلية فقد اشتهرت بصيد الأسماك وفي العراق توفرت الأسماك بالإضافة إلى اللحوم الأخرى والألبان وكذلك إقليم الشام كانت طبرية كثيرة الأسماك وفي عمان تكثر الأغنام وإقليم الشام اشتهر بتربية الجاموس وفي المغرب يكثر النحل فينتج العسل في برقة وطرابلس وفيها الألبان أيضا وفي القيروان اللحوم الجيده وكذلك إقليم مصر فقد توفرت فيه الأسماك بالاسكندرية والفسطاط وكذلك اشتهرت مصر بانتاج الجلود وفيها الحمير والبقر[93]. واشار إلى وجود دابة التمساح في نهر النيل[94].

اما بالنسبة لإقليم الديلم فقد وصفه المقدسي بأنه إقليم الصوف. وأشار إلى وجود بحيرة يكثر فيها السمك كما اشار إلى كثرة المراعي في هيطل وفي جيحون سمك كثير وكذلك توفرت فيها الأغنام. أما خراسان فقد توفرت اللحوم الجيدة وكذلك تربية الأغنام [95]. وفي إقليم الرحاب توجد الاعسال والأغنام والحيوانات والبغال والجياد كما اشتهر هذا الإقليم بإنتاج الألبان وذكر المقدسي وجود الأغنام المعروفة

بالبازهر بإقليم فارس الذي اشتهر في صيد الأسماك. اما إقليم السند فقد كان مشهورا بمراعيه الواسعة حيث تربى المواشي وكذلك توفر الجاموس بكثرة في هذا الإقليم [96].

النشاط الاقتصادي : طرق النقل والمواصلات:

أسهمت الطرق (البحرية، النهرية، البرية) بتيسير الانتقال بين البلدان فكان لها أثرها المباشر في نشاط التجارة الخارجية بين الدولة العربية الاسلامية والبلدان القريبة والبعيدة منها، كما اسهمت في تدعيم الاتصال الحضاري بين العرب والامم الاخرى فأنجحت العلاقات الثقافية والعلمية والتجارية بين الدولة الاسلامية وتلك البلدان.

اما إسهام الطرق النهرية، فلها اهميتها من ناحية اخرى، فوجود الانهار اسهم في نمو النشاط التجاري الداخلي، وسهل عملية انتقال البضائع والمسافرين بين المدن الاسلامية، إذ شكلت هذه الانهار همزة الوصل بين المدن وخاصة منها تلك الواقعة على ضفاف الانهار، الطرق النهرية.

كانت طرق المواصلات النهرية في مملكة الإسلام قليلة وذلك بسبب قلة الأنهار فلم يجد المقدسي في جميع تلك المملكة الشاسعة إلا اثني عشر نهرا كبيرا تجري فيها السفن وهي دجلة والفرات والنيل وجيحون والشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران والراس ونهر الملك ونهر الاهواز [97].

إلا ان المقدسي قد كشف لنا أهمية بعض الأنهار في الملاحة فذكر ان حركة الملاحة كانت نشيطه في دجلة كما بين أهميه هذا النهر بوصفه حلقة وصل بين أرمينية وبغداد فكانت البضائع تنحدر في دجلة من أرمينية إلى بغداد ماره بالموصل [98].

ويصف لنا المقدسي أهمية السفن في النقل الداخلي ببغداد فيقول (والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن ترى لهم جلبة وضوضاء. وثلث طيب بغداد في ذلك الشط) ويتحدث المقدسي عن ضحالة نهر دجلة بعد واسط الأمر الذي ادى إلى استعمال القوارب الصغيرة والمسطحة [99]. ويبدو ان دجلة كان كطريق للملاحة اكثر أهمية من طريق الفرات بالرغم من ان القوارب في الفرات كانت تصعد

فيهما السفن مما يدل على نشاط الملاحة في هذه المنطقة من جهة وصلاحية النهر للملاحة فيها من جهة أخرى. أما في مصر فكان النيل يصلح للملاحة بصورة واسعة حتى تعجب المقدسي عند زيارته لمصر من كثرة المراكب السائرة والرابية هناك [100].

الطرق البحرية:

قضت الظروف الطبيعية بان تتنوع الملاحة البحرية في الدولة الإسلامية في بحرين منفصلين البحر المتوسط (بحر الروم) والمحيط الهندي (البحر الصيني حسب تعبير المقدسي) وقد حال دون اتصال البحرين برزخ السويس فكانت البضائع الواردة من الهند وشرقي آسيا إلى أوربا وشمالي إفريقية تفرغ حمولتها في شمال البحر الأحمر وتنقل برا إلى سواحل البحر المتوسط وبالعكس[101]. ويبدو ان الناس لم يكونوا يتجرأون على ركوب البحر الأحمر من غير مقاتلة كما يذكر لنا المقدسي ذلك لحماية القوافل التجارية من قراصنة البحر[102]. ويذكر لنا المقدسي ان جزيره سقطرى (سومطره) جنوب الجزيرة العربية في مدخل المحيط الهندي كان يكثر فيها القرصان. وكانت المراكب اذا مرت بها لاتزال في هلع حتى تتجاوزها. وكانت تأوي إلى هذه الجزيرة بوارج قرصان الهند ليقطعوا الطريق على المسلمين[103]. * وبين لنا المقدسي ان عدن وسيراف وعمان كانت مرافئ المملكة الإسلامية على البحر الصيني [104].

ويلي هذه المرافئ في الاهمية البصرة على شط العرب وديبل على مصب نهر السند اما هرمز فكانت فرضة كرمان. وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين افريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر حتى أن المقدسي دعاها دهليز الصين[105].

ويحدثنا المقدسي انه سمع عن عدن ان من دخلها بالف درهم فسيرجع بالف دينار ومنهم من دخلها بكندر[*] فرجع بثمل ما دخل به كافورا. دلاله على رواج التجارة في عدن وعلى اهميتها في التبادل التجاري [106]. اما البصرة الواقعة على شط العرب فكان بينها وبين البحر مرحلتان ولما كان الخليج ضحلا عند مصب دجلة العوراء فقد انشأ منار في البحر تسترشد به السفن القادمة إلى البصرة [107].

الطرق البرية:

وصف لنا المقدسي طرق المواصلات في المناطق التي مر بها وقد اختتم كلامه عن كل إقليم من الأقاليم الإسلامية بذكر المسافات وتنقسم معلوماته عن هذه المسافات إلى قسمين ذكر في الاول طرق المواصلات الداخلية التي تربط بين اجزاء الإقليم وفي الثاني الطرق الخارجية التي تربط بين الاقاليم الاسلامية وعندما كان المقدسي يسافر من بلد إلى اخر يذكر لنا مراكز المواصلات في الطرق التي يسلكها ويصف ما يشاهده من المعالم المختلفة فيها فقال مثلا (ان في بعض طرق خوزستان كانت توضع حباب الماء في الشوارع والطرق على مراحل الطريق ويذكر انه ربما حمل اليها الماء من بعيد) [108]. وذلك لأن اهل عربستان جلهم من العرب آنذاك. واهتم المقدسي بصوره خاصه بذكر مصادر المياه في الطرق، فقال يصف الطرق إلى مكة من جادة الكوفة (فخذ من زُباله وهي عامرة واسعة المياه إلى الشقوق 21 ميلا ثم إلى البطان29ميلا ثم الثعلبية29ميلا هي ثلث الطريق عامرة كثيرة البرك بها آبار عذبه) [109]. كما وصف لنا كثرة الطرق التي رآها في مفازة الفرس فقال ((فرأيت في الطرق والمعارج مالا أحصيه وهي جبال كلها فيها رمال قليلة وعقاب هينه وسباخ صعبه وسرود وجروم ونخيل وزروع ورأيت اسهلها وأعمرها طريق الري واصعبها طريق فارس واقربها طريق كرمان وكلها مخيفة من قوم يقال لهم القفص)) [110](*).

إسهامات المقدسي الإقليمية:

لعل ابرز اسهامات المقدسي الإقليمية هي طريقته في تقسيم البلد إلى وحدات جغرافية فقد قسم سوريا وفلسطين إلى اربعه أقاليم رئيسيه هي : الجبال والهضاب الشرقية. والغور (وادي الخسف). وبلاد السامره وجوديا. والسهل الساحلي. وأورد المقدسي في كل الأقاليم وصفا للتضاريس الأرضية ومجاري المياه والمدن والحاله الاقتصادية والمناخ وقام بالعمل نفسه في تقسيمه لمصر.

والمقدسي بوصفه فلسطينياً هو اول من استخدم مفهوم (المناخ السوري) ويعني به مناخ البحر المتوسط بشتاء ممطر وصيف جاف وهذا ما لاحظه ودرسه عند وصفه لمدينة الطائف في الحجاز قال الطائف مدينة صغيرة شامية الهواء باردة الماء اكثر فواكه مكة منها موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيد والفاكهة الحسنه وهي على ظهر جبل غزوان يجلد الماء بها عامتها مدابغ اذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا اليها [111].

ونجد في وصف المقدسي للجزيرة العربية وبلاد فارس ومصر تفاصيل اكثر مما نجده عند الاصطخري وابن حوقل. اما في وصف النيل فيقول فلا ذقت ولاسمعت ان في جميع الدنيا ماء احلى منه ؛إلاّ نهر المنصورة (يقصد به نهر السند)[112].

وقد قسم المقدسي مصر إلى سبعة وحدات ادارية (كورة) وذكر في كل كورة منها اهم مدنها اضافه إلى عاصمتها وبعد ان اورد تفاصيل اوليه عن تلك التقسيمات ووصف عاصمة كل منها على حده، وقد جعل المقدسي إقليم مصر على سبع كور ستة منها عامرة هي من نحو الشام والجفار ثم الحوف ثم الريف ثم الاسكندرية ثم مقدونيا ثم الصعيد والسابعة الواحات[113].

عوامل قيام المدن وازدهارها:

ويصف لنا المقدسي عوامل قيام المدن وازدهارها ففي كلامه على إقليم الجزيرة اوضح ان المدن اقيمت على مياه الابار والعيون وان الحياة اعتمدت عليها ففي المزدلفة ذكر لنا عدة برك وقال (لعرفة قناة تخر) وفي (الجحفة آبار يسيره) وبها (عين قريبة منها وبركة كبيرة) [114]. كما ان الحياة في يثرب اعتمدت على الحياض تملأ من قناة تنحدر فيها الماء[115].

وفـي إقلـيم آقـور (الجزيـرة) اقيمـت المـدن علـى الأنهـار كمـدينتي الموصـل والحديثة وكان الاعتماد على الآبار في المناطق التي تبعد عن النهر (دجلة) [116]. واقيمت المدن المهمة في الشام على مجاري الأنهار مثل مدينة حلب على نهر قويق ودمشق على نهر بردى[117].

وفي إقليم مصر اعتمد قيام المدن على نهر النيل اما بالنسبة للأقاليم الغربية فاعتمدت الحياة فيها على مياه الامطار وذلك لعدم وجود مياه الأنهار فيها وكذلك اعتمدت مدينة طرابلس على مياه الابار والامطار، ومدينة القيروان على خزن المياه في مواجين وصهاريج يجمع فيها ماء المطر [118]. وفي المشرق كانت اهمية الأنهار كبيرة ايضا في قيام المدن اذ قامت عدة مدن على ضفاف نهر جيحان اذ قامت عليه كورة خوارزم وقصبة الجرجانية وكورة قواديان وترمذ وتركز السكن في إقليم خورستان على الأنهار كما ان في إقليم هيطل وإقليم الرحاب قامت عدة مدن على ضفاف الأنهار إذ قامت تبريز بين عدة انهار [119].

اما في إقليم الجبال فقد اعتمدت الحياة على الأنهار والآبار معا [120]. وازدهرت المدن بكثرة الأنهار في إقليم خوزستان(الاحواز) وفي إقليم فارس نشأت المدن على الأنهار والآبار فقد قامت مدينة أرجان على الأنهار والآبار معا، ويصف المقدسي التجارة بأنها ذات اثر مهم في قيام المدن فيبين لنا ان هناك مدناً اشتهرت بالتجارة بحكم موقعها الجغرافي الذي جعل منها مركزا للتجارة كمدينة البصرة التي تقع على شط العرب ومدينة الموصل التي تقع على نهر دجلة وازدهرت الفسطاط مركزا تجارياً لموقعها على نهر النيل وكانت عدن في جنوب غرب الجزيرة العربية مدينة تجارية بفضل موقعها على البحر وازدهرت بعض المدن تجاريا نتيجة الالتقاء طرق المواصلات البرية عندها مثل مكة المكرمة.

فبالرغم من اهميتها الدينية فانها تقع على ملتقى الطرق بين الشمال وجنوب الجزيرة العربية من جهة والطرق الموصلة بين شرق وغرب الجزيرة العربية من جهة ثانية فموقعها هذا جعل لها اهمية تجارية كانت سببا في ازدهارها [121].

الخرائط عند المقدسي:

ويصف لنا المقدسي بعد أن حدد وقسم الأقاليم ورتب الكور ووصف المدن والبحار والخلجان والأنهار وضع الخرائط والتي تميزت بحدود الأقاليم والمدن؛ فكانت طرقها باللون الاحمر وجعل رمالها الذهبية بالصفرة وابحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهودة بالغبرة [122].

الخاتمة/ النتائج والتوصيات:

لقد ابرز المقدسي في دراسته ووصفه للأقاليم شخصية كل إقليم في خلاصة موجزة واهم ما تشتمل عليه هذه الخلاصة عادة هو إبراز أهم سمات المناخ والمذاهب الدينية واللغات ومصادر الثروة والأسواق..

وعموماً تمخض البحث على بعض النتائج وكما يلي :-

1- كان لسيادة الدولة الإسلامية وتشجيع الخلفاء دور في توسع نطاق البحث عن الأقاليم.

2- امتاز الوصف الجغرافي عند المقدسي بالتنظيم الدقيق في كتابه، فعرض فيه جوانب عديدة لمظاهر الحضارة التي شاهدها خلال تجواله في البلدان الإسلامية واطلاعه على نواحي الحياة المختلفة فيها.

3- لم يول المقدسي الجغرافية الطبيعية اهتماما في جميع الأقاليم بدرجة واحدة.

4- اهتم المقدسي بالملاحظة الشخصية بالدرجة الاولى وجعل اسفاره الشخصية المصدر الأساس لجمع المعلومات المكانية. (فيقول؛ اجتهدت ان لا اسطر فيه مما سطره الاخرون).

5- المقدسي لم يهتم بذكر العجائب كبقية الجغرافيين الذين سبقوه وان وجدت فإنها قليلة.

6- ان المعلومات التي قدمها المقدسي في كتابه كانت متفاوتة من حيث المادة التي يقدمها بين إقليم وأخر.

7- اخذ المقدسي بالتقسيم الطبيعي للأقاليم وادخل مفهومي إقليم العرب وإقليم العجم عند دراسته لمملكة الإسلام واعتمد في تقسيماته الإقليمية على التدرج الحجمي عند تقسيمه للوحدات السياسية فقسمها إلى أقاليم وكور ونواحي ورساتيق....

8- المعلومات التي قدمها المقدسي من الناحية الجغرافية ؛ تمتاز بالدقة والتفصيل.

التوصيات:

1- الاهتمام بدراسة الأدب الجغرافي العربي لما يحمله من تراث عريق فنجد الكثير من النظريات والقوانين في مؤلفاتهم والتي نسبت إلى علماء الغرب خطأً.

2- إن كثيرا مما خطه علماء العرب لم يصل إلينا إلا أسماء بعض من مخطوطاتهم لذا ينبغي إعادة النظر في إمكانية توفيرها وتحقيقها لتتوفر للباحثين والدارسين.

3- نحن مطالبون بالبحث عن تراثنا المفقود لنعيد لأجدادنا تاريخ العلمي.

هوامش:

(1) إسماعيل باشا البغدادي،هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، المجلد الثاني، ط3، مطبعة وكالة المعارف ستامبول 1955 ص62-63 / الزركلي، الأعلام، ج6، ط3، مطبعة كوتشاتسوماس، بيروت، 1979ص21.

(2) اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، القسم الأول، نقلة إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة الإدارة الثقافية جامعة الدول العربية، 1957 ص209. / جلال الدين ابن أبي الحسن علي ابن أبي الكرم ابن الأثير، ت630 هـ، اللباب في تهذيب الأنساب، ج3، القاهرة، مكتبة القدسي1957 ص 169.

(3) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، دار صادر بيروت، ليدن،1909 ص 43.

(4) عبدالرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب،دار الفكر، دمشق، 1995 ص 255-263.

(5) المقدسي، مصدر سابق، ص 163.

(6) عبد الرحمن حميدة، مصدر سابق ص 255.

(*) : (قومس) كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي ذيل جبال طبرستان واكبر ما يكون في ولاية ملكها وقمتها المشهورة دامغان وهي بين الري ونيسابور ومن مدنها المشهورة بسطام وبيار.
للمزيد من المعلومات ينظر / ياقوت الحموي، معجم البلدان ج8، طبعة مصححة ومنقحة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص 102.

(7) عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري ومنهجه في دراسة كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،ط1، مطبعة النعمان،النجف الاشرف، رسالة ماجستير (منشورة). 1973 ص 23.

(8) أبي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط1، ج7،المكتبة العربية، بغداد 1931 ص463.

(9) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص25.

(10) إسماعيل باشا البغدادي، مصدر سابق، ج2، ص 62 –63.
(11) صبري محمد حسن، الجغرافيون العرب، ج1، مطبعة القضاء، النجف الاشرف، 1958 ص138.
(12) المقدسي، مصدر سابق ص 127.
(13) المصدر نفسه، ص 42–43.
(14) المصدر نفسه، ص 8.
(15) المصدر نفسه، ص 66.
(16) كراتشكوفسكي، مصدر سابق، ص 208.
(17) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق ص 3–4.
(18) كراتشكوفسكي، مصدر سابق، ص 212.
(19) المقدسي، مصدر سابق،ص 222– 475.
(20)*انظر الخريطة(1) المرفقة للمناطق التي زارها المقدسي في نهاية البحث.
(21) كراتشكوفسكي، مصدر سابق، ص 209.
(22) المقدسي، مصدر سابق، ص 57.
(23) كراتشكوفسكي، مصدر سابق، ص 209.
(24) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص 32 –33.
(25) احمد أبو سعد، أدب الرحلات، ط1، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت،1961ص80.
(26) آدم متز،الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ط3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957، ج2، ص 2.
(27) المقدسي،مصدر سابق، ص3.
(28) صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، المركز العربي للطباعة والنشر بيروت، 1981، ص 44.
(29) المقدسي، مصدر سابق، ص5.
(30) المصدر نفسه، ص113.
(31) المصدر نفسه، ص197.

(32) المصدر نفسه،ص58–59.
(33) المصدر نفسه، ص42–43.
(34) المصدر نفسه، ص119.
(35) المصدر نفسه، ص33.
(36) المصدر نفسه، ص429.
(37) المصدر نفسه، ص202.
(38) المصدر نفسه، ص95.
(39) قريش الآية(1–2).
(40) المقدسي، مصدر سابق،ص102.
(41) صباح محمود محمد، مصدر سابق، ص50.
(42) المقدسي،مصدر سابق،ص11–12.
(43) صباح محمود محمد،، مصدر سابق، ص51.
(44) المصدر نفسه ص50–51.
(45) المقدسي، مصدر سابق، ص67.
(46) المصدر نفسه، ص137.
(47) المصدر نفسه، ص151–156.
(48) المصدر نفسه، ص188.
(49) المقدسي، مصدر سابق، ص348.
(50) المصدر نفسه، ص384.
(51) المصدر نفسه، 333.
(52) المصدر نفسه، ص356.
(53) المصدر نفسه، ص373– 380.
(54) المصدر نفسه، ص393.
(55) المصدر نفسه، ص432.
(56) المصدر نفسه، ص498.
(57) المصدر نفسه، ص490.

(58) المصدر نفسه، ص348.
(59) المصدر نفسه، ص10–12.
(60) الرحمن الآية 17.
(61) المقدسي، مصدر سابق، ص14.
(62) الرحمن الآية 19– 22.
(63) المقدسي، مصدر سابق، ص16.
(64) المصدر نفسه، ص97–101.
(65) المصدر نفسه، ص99.
(66) المصدر نفسه، ص197.
(67) المصدر نفسه، ص280.
(68) المصدر نفسه، ص339.
(69) المصدر نفسه، ص331–380.
(70) المصدر نفسه، ص19.
(71) المصدر نفسه، ص80.
(72) المقدسي، مصدر سابق، ص83.
(73) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص246– 249.
(74) المقدسي، مصدر سابق، ص325.
(75) المصدر نفسه، ص330.
(76) المصدر نفسه، ص374.
(77) المصدر نفسه، ص444.
(78) المصدر نفسه، ص225.
(79) المصدر نفسه، ص65.
(*) البَعْلُ: وهو ما سقته السماء، وقال الأصمعي ما شُربَ بعروقه من غير سقي ولاسماء ينظر/ الرازي، محمد بن ابي بكر، مختار الصحاح،ج1، مكتبة لبنان، بيروت،1995ص24.
(80) المصدر نفسه، ص79.

(81) المصدر نفسه، ص86.
(82) المصدر نفسه، ص113.
(83) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص257.
(84) المقدسي، مصدر سابق، ص123.
(85) المصدر نفسه،ص141.
(86) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق ص258–259.
(87) المقدسي، مصدر سابق،ص234.
(88) المصدر نفسه،ص317.
(89) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص262.
(90) آدم متز، مصدر سابق،ج2، ص305.
(91) المقدسي، مصدر سابق، ص408.
(92) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص263.
(93) المصدر نفسه، ص263–264.
(94) المقدسي، مصدر سابق، ص208.
(95) المصدر نفسه، ص303–314.
(96) عدي يوسف مخلص ، مصدر سابق، ص265.
(97) المقدسي، مصدر سابق، ص19.
(98) المصدر نفسه، ص138.
(99) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص270.
(100) المقدسي، مصدر سابق، ص198.
(101) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص271.
(102) المقدسي، مصدر السابق، ص12.
(103) المصدر نفسه، ص14.
(*) ان هذه المنطقة هي ذاتها التي تشهد هذه الايام أعمال لقرصنة البحرية وبشكل واسع اذ قد يكون لطبيعة المنطقة ولموقعها الجغرافي أثر في ذلك.
(104) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص271–272.

(105) المقدسي، مصدر سابق، ص34.

(*) الكُندر، بالضم / ضرب من العلك الواحده كندره قال الاطباء هو اللبان(نافع لقطع البلغم جدا). ينظر/ عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص272.

(106) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص272.

(107) المقدسي، مصدر سابق، ص12.

(108) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص272-273.

(109) المقدسي، مصدر السابق، ص107.

(110) المقدسي، مصدر سابق، ص488.

(*) قوم القفص: كانوا قطاع طرق لاخلاق لهم يسرقون الاموال ويرمون صاحبها بالحجارة حتى الموت وقد غزاهم عضد الدولة وافنى أكثرهم. ينظر/ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الفكر – بيروت، بدون سنة نشر ص381-382.

(111) المقدسي، مصدر سابق، ص79.

(112) المصدر نفسه، ص208.

(113) المقدسي، مصدر سابق ، ص193-194.

(114) المصدر نفسه، ص77.

(115) المصدر نفسه، ص80.

(116) المصدر نفسه، ص157.

(117) المصدر نفسه، ص155.

(118) المصدر نفسه، ص378.

(119) عدي يوسف مخلص، مصدر سابق، ص178-189.

(120) المقدسي، مصدر سابق، ص396.

(121) عدي يوسف مخلص،مصدر سابق، ص179-180.

(122) إبراهيم المشهداني، الفكر الجغرافي وطرق البحث، مطبعة جامعة الموصل، 1985م ص60.

المراجع والمصادر:

❖ **القرآن الكريم**.

1- ابن الأثير،جلال الدين ابن أبي الحسن علي ابن ابي الكرم، ت630 هـ، اللباب في تهذيب الأنساب، ج3، القاهرة، مكتبة القدسي 1957.

2- البغدادي، إسماعيل باشا،هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، المجلد الثاني، ط3، مطبعة وكالة المعارف ستامبول 1955.

3- حسن، صبري محمد، الجغرافيون العرب، ج1،مطبعة القضاء، النجف الاشرف،1958.

4- الحموي، ابي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي البغدادي، معجم البلدان، طبعة مصححة ومنقحة دار احياء التراث العربي، بيروت.

5- حميدة،عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب،دار الفكر،دمشق، 1995.

6- الخطيب البغدادي، ابي بكر احمد ابن علي الخطيب البغدادي ت463 هـ، تاريخ بغداد، ج7، ط1، المكتبة العربية، بغداد سنة 1931 ص .

7- الرازي،محمد بن ابي بكر،مختار الصحاح،ج1،مكتبة لبنان، بيروت،1995.

8- الزركلي، الأعلام، ج6، ط3، مطبعة كوتشاتسوماس، بيروت، 1979.

9- أبو سعد، احمد، ادب الرحلات، ط1، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت،1961.

10- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليانوفتش،تاريخ الأدب الجغرافي،القسم الاول نقلةإلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم،مطبعة الإدارة الثقافية جامعةالدول العربية سنة 1957.

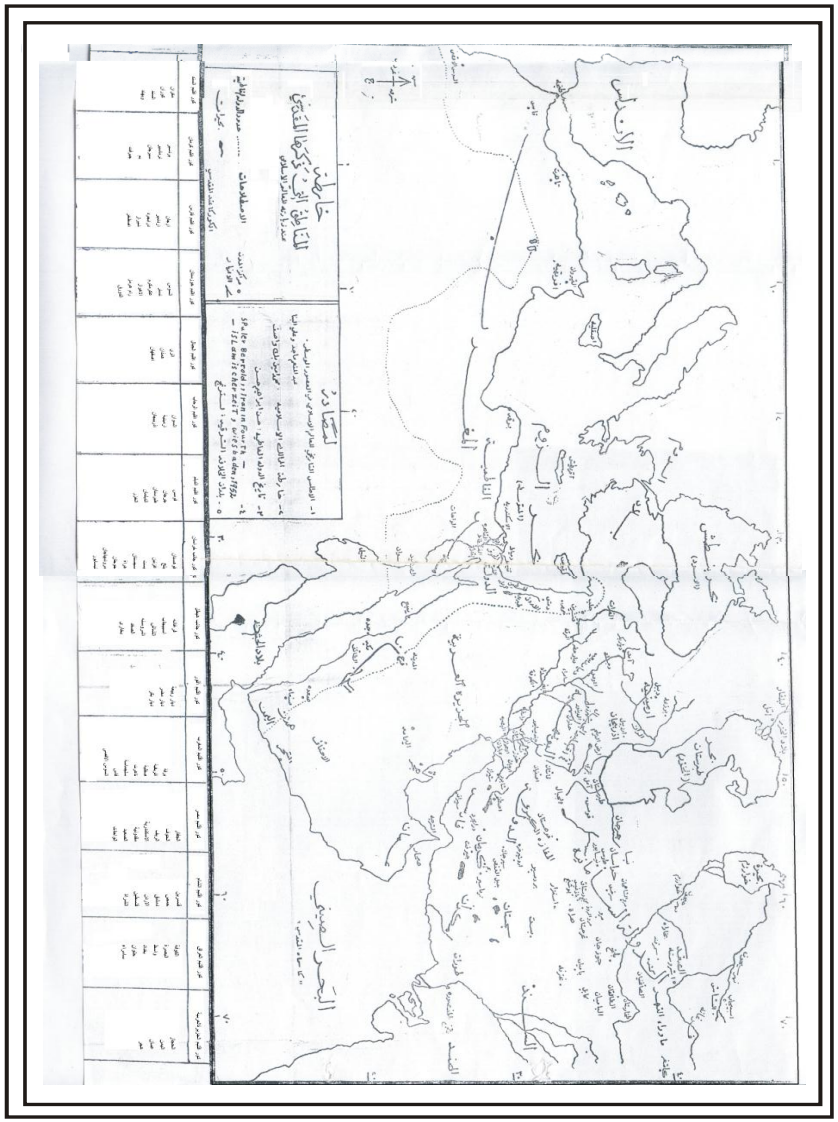
11- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج2، ط3، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1957 .

12- محمد، صباح محمود، دراسات في التراث الجغرافي العربي، المركز العربي للطباعة والنشر بيروت، 1981.

13- مخلص، عدي يوسف، المقدسي البشاري ومنهجه في دراسة كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ط1، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، رسالة ماجستير (منشورة). 1973.

14- المشهداني، إبراهيم، الفكر الجغرافي وطرق البحث، مديرية مطبعة الجامعة، الموصل، 1985.

15- المقدسي، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي بكر، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ط2، دار صادر بيروت، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة ابريل سنة1909.



دور المؤسسات التربوية في تنمية المسؤولية الاجتماعية عند الاطفال

(الاسرة والمدرسة انموذجا)

((دراسة ميدانية لعدد من الأسر والمدارس الابتدائية في محافظة ديالى))

د. عبـــــدالرزاق جـــــدوع محمـــــد

جامعة ديالى/مركز ابحاث الطفولة والامومة

مُقَدِّمَة

ان المسؤولية الاجتماعية التي تنميها المؤسسات التربوية عندالطفل منذ سني حياته المبكرة، عبرعملية التنشئة الاجتماعية تبرز في مؤسستين اساسيتين هما الاسرة و المدرسة، والتي تسهم كل منهما في تعليم الطفل المهارات الاجتماعية، ولعب الأدوار الوظيفية وبلورتها في شخصيته واكسابه القيم الايجابية، و الحميدة ونبذ القيم السلبية والضارة والتمرس بالاعمال وادائها على نحو ينمي المجتمع، ويمكنه من بلوغ اهدافه الاجتماعية المرجوة، من اجل تربيته وتقويمه والارتفاع به الى مستوى التحديات التي تواجهه و تواجه مجتمعه، ولا يكون ذلك الا من خلال تعميق المسؤولية الاجتماعية لديه ليكون مدركاً لما ينتظره المجتمع منه من اعمال ومهام تضمن مسيرة المجتمع التقدمية. وملماً بطبيعة القيم التي يتحلى بها ليكون اداة فاعلة في البناء، واعادة البناء، والتغير الاجتماعي المنشود، وتقع على عاتق هاتين المؤسستين (الاسرة والمدرسة) مهام جسيمة باعتبارهما الاساس التعليمي الاول للطفل لما لهمامن دور فاعل في نشاطاته المختلفة من (علمية وادبية وفنية) لاشباع ميوله وهواياته واستثمارها وانماء قوى الابداع والانتاج لديه،لكي يوجه هذا الابداع والابتكار لخدمة المجتمع لينمو عنده الاحساس بالانتماء للجماعة، والدور الاجتماعي الذي يجب ان يقوم به ليكون مواطن صالح مستنير يدرك ما له وما عليه من واجبات تجاه مجتمعه وبيئته، وكما تعول عليه تربية المواطن تربية جسمية وعقلية وخلقية، ليترجم ما تعلمه الى انماط سلوكية مرغوب فيها، فتعلمه التربية الاسرية مثلا كيف يحافظ على الكلمة

تصدر منه وكيف يكون مسؤولاً عنها كما يكون مسؤولاً في العابه، فيعدل بين اقرانه في اللعب كما يعدلوا معه ويلاعبهم بروح المسؤولية من حب ومساواة ومرح في صدق واخلاص.

ثم يتعلم في المدرسة انماط سلوكية اخرى مرغوب فيها تعزز ما تعلمه في الاسرة، فيتعلم مثلا كيف يحترم نفسه، وكيف لا يفعل الخطا وان غفلت عنه اعين الرقباء، ولا يغش في الامتحان ولو تركه المعلم وحده مع كتبه و محاضراته، وكيف يعطف على الضعفاء ويبذل لهم ماستطاع من معونة، فيعود الاعتزاز بنفسه وبمدرسته و بمجتمعه، و ان يفكر بغرض نبيل له في الحياة يسعى لتحقيقه، حتى اذا ما اتم دراسته، وتخرج كان معلماً مسؤولاً اوطبياً مسؤولاً او مهندساً مسؤولاً او فناناً مسؤولاً، ام موظفاً مسؤولاً وعلى الجملة انساناً مسؤولاً، ولا يتحقق كل ذلك ما لم يكن هناك تنسيق و تعاون بين المؤسسات التربوية من اسرة أو مدرسة ووسائل اعلام وغيرها من المؤسسات، هذا التعاون الذي يفضي الى التزام الطفل تجاه مجتمعه، خصوصاً عندما يكون المجتمع بحاجة الى جهوده، فيتعلم من خلال هذا الالتزام تفضيل المصلحة الجماعية على المصلحةالذاتية، بالاعتماد على نفسه وجهوده الفردية التي تخدم مصلحة الجماعة والمجتمع، لتنمو بداخله الطاقات الكامنة لكي يكون انساناً فاعلاً و مؤثراً بابتعاده عن الاعتماد على الاهل و استنجادهم في كل كبيرة و صغيرة،لذا ندعو القائمين على تربية الطفل الى تفهم معاني السلوك الذي يبديه او يعبر عنه، وان لا يجعلوا حياته تسير سيراً عشوائيا بدون اي ضابط او وازع . بل تسير على وفق تنظيم ساعات يقضيها خلال يومه في تحضير دروسه، و مساعدة اهله، او مشاهدة برامج التلفاز ، وقضاء اوقات فراغه، ليتعلم من ذلك احترام قيمة الوقت و الحرص عليه كمسؤولية اخرى تضاف الى مسؤولياته.

يتالف **البحث** من **مقدمة** واربعة مباحث اساسية **اولها** :التنشئة الاسرية والمدرسية وعلاقتها بالمسؤولية الاجتماعية، **وثانيها** :مجالات المسؤولية الاجتماعية في الاسرة والمدرسة، **وثالثها** اساليب التنشئة الاجتماعية في الاسرة والمدرسة وعلاقتها بالمسؤولية الاجتماعية، **ورابعها** التحديات التي تواجه الاسرة و المدرسة في تعميق المسؤولية الاجتماعية، ثم **الاستنتاجات والمصادر العلمية** . واني اذ اقدم ثمرة جهدي المتواضع،ارجو ان اكون قد وفقت في ان اقدم للمشتغلين ببحوث الطفولة شيئا فيه جدوى وغناء .

الباحث

المبحث الاول

التنشئة الاسرية والمدرسية وعلاقتها بالمسؤولية الاجتماعية

يهتم هذا المبحث بتعريف مفاهيم التنشئة الاسرية والتنشئة المدرسية، والمسؤولية الاجتماعية، ثم توضح علاقة التنشئة الاجتماعية في الاسرة والمدرسة في تنمية وتعميق المسؤولية الاجتماعية عند الطفل وهي كما ياتي :

أ- التنشئة الاسرية والمدرسية:

تعرف التنشئة الاسرية بانها العملية التي تتبناها الاسرة، والتي تستطيع من خلالها تمرير الافكار والقيم الى الابناء بحيث تسهم في بلورة ادوارهم وتكامل شخصياتهم كافراد فاعلين في المجتمع[1]، من خلال مجموعة من الاساليب النفسية والاجتماعية التي تستعملها الاسرة بقصد اكساب الطفل سلوكاً او تعديل سلوك موجود بالفعل[2]، كما تعرف بانها عملية نفسية – اجتماعية يواجهها الفرد ويخضع لها بدءً بميلاده وانتهاءً بوفاته، لكي يصبح شخصاً اجتماعياً مواكباً للمراحل العمرية التي يعيش فيها[3]، وتعرف ايضا بانها المؤسسة التي عن طريقها يكسب الطفل اللغة والاتجاهات والتوقعات وطريقة الحكم الصحيح والخاطئ وتنسيق حركاته وانماط سلوكه وتطور شخصيته المتمركزة حول ذاته الى شخصية اجتماعية[4].

تعرف التنشئة المدرسية بانها تعليم الاطفال وتربيتهم من خلال تبسيط التراث الثقافي وخبرات الكبار لهم، وتقديمها في نظام تدريجي يتفق وقدراتهم[5]، بالاضافة الى تنشئتهم وتكوين شخصياتهم تكويناً يمكنه من التفاعل والتكيف مع المجتمع والعمل على تطويره .

ب-المسؤولية الاجتماعية :

تعرف المسؤولية الاجتماعية بأنها الشعور الواعي، والمدرك لالتزامات الفرد تجاه جماعته ومجتمعه، كما تعرف بانها مجموعة التزامات بذمة الفرد، والتي تدفعه الى العمل من اجل المجموع من اجل تنمية المجتمع والدفاع عنه[6].

كما تعرف بانها الوعي الاجتماعي الذي يجسده الفرد في تفكيره وعلاقته بالآخرين، هذا الوعي الذي يجعله يفضل المصلحة الجماعية على المصلحة الذاتية[7].

والآن سنتناول علاقة الأسرة والمدرسة في ترسيخ المسؤولية الاجتماعية عند الاطفال.

ج- علاقة التنشئة الاسرية والمدرسية بالمسؤولية الاجتماعية:

تلعب الاسرة دوراً كبيراً في تعليم الطفل النواحي الاجتماعية التي تعزز قيمة المسؤولية لديه: كالتفاني والإيثار والتضحية في سبيل الآخرين، والتصدي للاخطار التي يتعرض لها المجتمع، او التي تسيء الى سمعته، كما تحاول الاسرة الحفاظ على ابنائها من الوقوع في مهاوي الانحراف والجريمة، وارشادهم الى المعارف التي توضح لهم فضائل المسؤولية الاجتماعية لاسيما المحافظة على المجتمع من الامراض والاخطار والتحديات.

كما تنمي الاسرة عند الطفل مفاهيم الوفاء والاخلاص والعدالة ليحصل في المستقبل على اعتبار اجتماعي محترم بين الناس، ذلك لان الدوافع المصلحية والنفعية والوصولية تجعله يستفاد مادياً،ولكن على حساب مركزه وقيمته وسمعته الاجتماعية[9]، وامر كهذا يتوقف على يقضة الضمير الاخلاقي وعلى وجود قدوة حسنة تمارس السلوك الخلقي في الحياة الواقعية،بحيث يكون الطفل مشاهداً مشاركاً في هذه الممارسات[10]، وهكذا يتعلم الطفل منذ الصغر على ان هناك علاقات تربطه بالمجتمع قائمة على الاخذ والعطاء، فالطفل يشبع حاجته الى الانتماء ويلتزم بقيم المجتمع الذي يعيش فيه وينتمي اليه، ولا يتم له ذلك الا من خلال معاونة الاسرة له على اكسابه الضمير الاجتماعي[11]، وعلى هذا الاساس نجد ان كل فرد في الاسرة مسؤول عن اسرته، وليس للرجل ولا للمرأة ان تقول لا ابالي، فكل فرد مسؤول، ويجب ان يشعر ان سعادة البيت، او شقاءه نتيجة تيقضه باحتمال العبء او الهرب منه[12].

ان المدرسة تكمل دور الاسرة في تنمية قيمة المسؤولية الاجتماعية عند الطفل من خلال تقوية المشاعر الجماعية لديه وحثه على الاعتماد على نفسه في نجاحاته وانجازاته، كذلك ارشاده الى احترام الملكية العامة لانها ملك الجميع، وتدريبه على الشعور بـ (نحن) وليس بـ (انا) وتقوية الروابط الاجتماعية بينه وبين المجتمع[13]، وتوجيهه على المحافظة على الثروات الطبيعية والوطنية والحرص على سمعة الوطن، وتأدية الواجبات باخلاص والالتزام بالمهام المنوطة به، والشعور بالمسؤولية وتحمل الامانة والدفاع عن الوطن والتضحية من اجله[14]، واشعاره بضرورة التعاون الاجتماعي واحترام الاخرين، والاعتزاز بالوطن والاستعانة بالماضي كدعامة قوية صالحة لبناء الحاضر[15]، كذلك تعلمه المدرسة حب الوطن والشعب، والعمل المتواصل على تقدم المجتمع والحفاظ على سمعته[16].

المبحث الثاني

مجالات المسؤولية الاجتماعية في الاسرة والمدرسة

ساتناول في هذا المبحث مجالات المسؤولية الاجتماعية التي تعتمدها الاسرة والمدرسة في زرع هذه القيمة عند الاطفال، متقصيا بذلك الجوانب الايجابية والسلبية التي تمارسها الاسرة والمدرسة، بوعي منها او بغير وعي،وهذه المجالات هي على النحو التالي :

أ- تنمية الوعي الاجتماعي لدى الاطفال :

ان الاسرة هي الاستمرار المادي للمجتمع، وهي التي تزوده باعضاء جدد عن طريق النسل، وتتولى الاستمرار المعنوي لهذا المجتمع، وذلك بتلقين الاعضاء قيمة ومعايير سلوكه واتجاهاته، من اجل تقبل المجتمع له، وتقوم الام بتبصير الاطفال بهذه الضوابط[17]، وتبصرهم بالظروف الاجتماعية الصعبة التي يمر بها المجتمع والتصدي لها وتطويق اثارها، وتعلمهم ان الوحدة والتعاون بين الفئات الاجتماعية الموجودة في الساحة هما السبيلان القويمان لمواجهة كل الاخطار والمشكلات التي يتعرض لها المجتمع[18]. لكن جهل الام واعتقادها بالخرافات والاساطير، وخوفها منها

ونقل هذا الخوف بشكل لا واع الى الاطفال عندما تقصها عليهم، يساهم في استتباب مشاعر الخوف غير المبرر في نفوسهم واضعاف ثقتهم بانفسهم، الأمر الذي يضطرهم الى اللجوء الى الاخرين كمصدر للاطمئنان والاتكال عليهم بشكل مفرط، خوفا من تحمل المسؤوليات المترتبة عليهم حين يكونوا راشدين مستقلين، واعضاء فاعلين في المجتمع[19]. فلا بد من ايمان الاطفال بقدراتهم على القيام بواجباتهم والتزاماتهم بانفسهم، وأخذهم الحقوق المقابلة لهذه الواجبات، ذلك ان المواطنه السليمة تقوم على الكفاءة الاجتماعية وفهم العمليات الاجتماعية كالتعاون والتنافس والصراع من اجل تفهم الحياة والتكيف لها[20].

يعتقد (دوركهايم) ان الطفل في طور ما قبل الدراسة يكون في سن صغيرة تتسم بضيق الافق العقلي، وتحد هذه القدرات العقلية القاصرة من مبادئ الطفل الاخلاقية، كما تتصف حياته العاطفية بالسذاجة، وتصطبغ افكاره بالبساطة والسطحية والضعف، ولا تسمح حياته النفسية، ان يقوم سلوكه على اساس عقلاني[21]، ومتى دخل الطفل المدرسة الابتدائية فان احياء وعيه الاجتماعي، وتحسين حياته الاجتماعية والاقتصادية يتطلب نشر التربية الاساسية، ومكافحة الامية بين الكبار ليدركوا واجباتهم ويسهموا جميعا في تقدم المجتمع[22]. ولا يكون ذلك الا بتحسين الحياة الاجتماعية والاقتصادية لان العقل يضمر ويضعف ويضيق بضمور الظروف الاجتماعية والاقتصادية، والخوف من الاعتداءات الداخلية والخارجية[23]، لذا يحتاج المجتمع الى تحديث المؤسسة التربوية وعقلنتها، لتحرر الذات الواعية والمدركة، من دون تفريط بالقيم الثقافية العليا، فالعقلنة هي تنشئة الاطفال على وعي العصر وقبوله والتكامل معه، وهذا من عمل المنهج المدرسي[24]، كل ذلك من اجل تعويد الطفل التفكير الناقد والاسلوب المنطقي في التفكير من خلال مناقشته بابسط المسائل والاشياء[25]. لكن الواقع يكشف ان اسلوب التعليم المدرسي يغلق الباب امام التساؤل والحوار بحيث لايجرؤ احد من الاطفال على طرح سؤال او ابداء رأي مختلف[26]، كما ويعلم الطفل على ان عدم المعرفة عيب، لذا لا يجرؤ على قول لا اعلم، فيلجأ الى طرق ملتوية بهدف تمويه عدم معرفته .

ب- تنمية السلوك الاجتماعي لدى الاطفال:

تقوم الاسرة بحفز اساس الهيكل الاجتماعي في سلوك الطفل لكي تنشئ فيه متطلبات ذلك من اجل ان يصبح احد عناصر مجتمعه، اي يتم التخطيط لتحويله من آدمي الى فرد حامل السمات الاساسية لمقومات البناء الاجتماعي[27]، وتتحمل الام هذه المسؤولية الى سن الثالثة من عمر الطفل، ومنذ الثالثة الى الخامسة تتحمل الاسرة كلها المسؤولية الكاملة لتنشئته اجتماعيا[28]. لكن الحرمان الاجتماعي يؤدي الى عدم اكسابه السلوك الاجتماعي . لذا تحاول الاسرة احاطته بالاستقرار والامن الاجتماعي وابعاده عن مواطن الانحراف والجريمة، وتوحيد افكاره وممارساته وتحويل سلوكه من سلوك انفعالي غريزي الى سلوك منطقي عقلاني، علما ان تقويم سلوكه يشارك في تنمية المسؤولية الاجتماعية لديه[29].

اما المدرسة فانها تحاول اشراكه في ممارسات تساعده على انماط من السلوك السوي، وتعلمه العادات السلوكية التي تتفق مع قيم وعادات وتقاليد المجتمع[30]، وتلقنه الاتجاهات الانسانية السليمة كالتسامح والتعاون والايثار وتحقيق الانسجام بين هذه العواطف، بما يؤدي الى استقرار الحياة الوجدانية للطفل[31]، وتحاول المدرسة ايضاً تخفيف المشكلات والاعباء التي يواجهها الطفل كالخوف والخجل والعدوانية لاسيما في مراحل دراسته الاولى[32]، وعندما يلتقي بزملائه في المدرسة والبيت فانه يبدء بالتوافق مع البيئة الجديدة، والتكيف مع زملائه ويحصل على معارف جديدة[33]، فالمدرسة هي خير اداة لاكساب الطفل انماط السلوك التي تتوافق مع المجتمع .

ج- تربية الطفل على اشغال الاعمال الوظيفية :

تقوم الأسرة بتعليم الاطفال مختلف العلوم و الفنون والاختصاصات التي يحتاجها المجتمع و ذلك من خلال ارسالهم الى المدارس، وحثهم على الدوام المستمر، من اجل التخصص في الموضوعات التي يحتاجها المجتمع، وتوفر لهم كل ما من شانه ان يمكنهم من الاستفادة من الدراسة و التحصيل العلمي، ومن ثم زجهم في الاعمال التي تتلائم مع تدريبهم و تخصصهم المهني و العلمي[34]. ذلك ان

التعليم اداة اساسية للمجتمع في اداء الوظائف، وتبدا حلقات هذا النظام برياض الاطفال مرورا بالمدرسة، بيد اننا نجد ان كثير من الاباء يدفعهم حرصهم على نجاح ابنائهم في حياتهم الدراسية، و ما بعدها الى التدخل و التحكم في اختيار نوع الدراسة والعمل الذي يشغله الابناء بعد تخرجهم، وسبب ذلك هو تطلعهم الى مستوى افضل لحياتهم وحياة ابنائهم، ولكن هذا التدخل يجب ان يقترن بتفهم الاباء لمستويات ابنائهم الدراسية، و استعداداتهم و ميولهم، فقد يكون الابن من ذوي الميول العلمية، وعندئذ يكون موفقا في دراسته لو اتجه الى التعليم الصناعي او التجاري[35]. ودليل ذلك اني وجدت اثناء دراستي الميدانية ان المدارس المهنية و الصناعية في محافظة ديالى قيد الدراسة، قليلة بالمقارنة بالمدارس الثانوية البالغ عددها (310) مدرسة، اذ بلغ عدد المدارس المهنية (13) مدرسة تضم(2293) طالبا وطالبة، والمدارس التجارية وعددها(2) مدرسة وتضم (340) طالباً و طالبة بالقياس الى عدد طلاب التعليم الثانوي البالغ (805،87) طالباً وطالبة، اما معاهد المعلمين والمعلمات فيحتوي على (16) معهد يضم (4437) طالباً و طالبة[36]، وعندما يلجا اكثرية الطلبة الى التعليم الثانوي، ويلتحقون بالجامعة يجدون تدخل الاهل مرة اخرى في تحديد الكلية التي سيدرس فيها الطالب دون اخذ رايه، ومراعاة ميوله واتجاهاته، فقد يفرض الاب رغبته على ابنه ويختار له كلية الطب، لانه يرغب ان يكون له ابن يعمل طبيبا، بينما يكون الابن راغبا في ان يكون مهندسا، وهكذا يضغط الاب ويستجيب الابن فيتعثر في دراسته، لذا لابد ان يتبصر الاباء باهمية التعرف على المستويات االعقلية و الميول والاستعدادات لابنائهم[37]، اذا ارادو لهم ان يقدموا خدمة حقيقية لمجتمعهم.

اما المدرسة فانها تعد الطفل اعدادا خلقيا وفكريا و بدنيا، فتعلمه مبادى العلوم، وتربي شخصيته الانسانية، وتنمي ارادته حتى يصبح مواطنا صالحا، لاسيما انها تعتمد على دروس التربية الوطنية و الاجتماعية في الصف الخامس و السادس، وهذا لا يعني ان تكون الصفوف الاولية خالية من هذه المفاهيم من اجل ان يتواصل الطفل في تعلم هذه المبادئ الاخلاقية لتصبح جزءا من شخصيته فيما بعد، فبالتعلم والتدريب تستطيع المدرسة رفع كفاية الطفل وتاهيل قدراته، فالتعليم اداة اساسية من

ادوات التنمية ووسائلها[38]، وتخريج التلاميذ من المدرسة، وزجهم في مجال الخدمات و الاعمال و المرافق العامة، لتطمين احتياجات المجتمع المتزايدة، فالشهادة رخصه لدخول العمل و يتحدد اجره بناء على نوع مسؤلياته، و الشهادة تفرض قيمة الاجر بصرف النظر عن نوع العمل ومسؤلياته[39].

د- تربية الطفل على كيفية زيادة الانتاج:

من مهام الاسرة في تربية الابناء، هي حثهم على زيادة الانتاج وتحسين نوعية الخدمات التي يقدمونها للمجتمع، وزيادة الانتاج تعني توفيرالسلع في الاسواق بكميات كبيرة، وانخفاض سعرها وزيادة الطلب عليها يرفع معدلات انتاجها ويوسع كفاءتها الانتاجية، وهذا ما يزيد كمية الارباح لارباب العمل،ويحفزهم على ادخال التقنيات والطرق الحديثة في الانتاج[40]، ولايتم انماء القدرة الانتاجية في المجتمع ما لم تتنوع صنوف التعليم،ويتعزز التعليم المهني والذي سبقت الاشارة اليه،وفي مختلف المراحل وتفتيح العقول، وتمكينها من اساليب التفكير العلمي، وترويضها على الاستقلال، والمبادرة وتحمل المسؤليات، و التبعات وادراك المشكلات وسلوك السبل الصحيحة لحلها[41] وهناك حاجة في نفس الطفل تتضمن هذه الحاجة الاحساس بالكفاءة في الاعمال التي تتصل بالكبار من قبيل اتقان المهارات، وتعلم كيفية التعامل مع الاخرين ومن خلال الانجاز يشعر الطفل بنفسه كشخص مستقل لهُ هدف وباستطاعته التاثير على البيئة التي تحيط به[42].

اما في المدرسة فالتعلم يعد الاداة القادرة على تاهيل قدرات الانسان فنياً والذي بواسطته تتغير علاقة الانسان بالبيئة في سعيه للكشف عن اسرارها و سيطرته على مواردها و استثمارها من اجل توفير الرخاء الاجتماعي و الاقتصادي[43]. لذا لابد من الاهتمام بالتعليم الابتدائي، و تحسينه ورفع مستواه لانه الحد الادنى الذي لايستغنى عنه في اعداد المواطن المستنير الذي يعرف كيف يشق طريقه في الحياة العملية،ولا ننسى ان كل اصلاح اجتماعي و اقتصادي يبدأ بنشر التعليم الابتدائي واصلاحه[44]، ذلك ان التعلم في المجتمع العربي بشكل عام يركز على المعرفة

النظرية الاسترجاعية و يجعل التفوق في هذا المجال الطريق للحراك الاجتماعي من خلال نظام التعليم، و من سار بهذا الطريق سمي ناجحاً، والا كان راسبا وهكذا يصبح تكافؤ الفرص في متابعة التعليم حكرا على اولئك الذين يتميزون بالسيطرة على مجالات المعرفة النظرية، مما يلقى في الظل مجالات للحراك الاجتماعي وفي نواحي تتطلبها قطاعات التنمية و الانتاج[45] و تحت عبارة (الاستثمار في الانسان) قفزت التربية الى مصاف راس المال في العملية الانتاجية، و كشفت عن وجود ترابط بين التنمية و التعليم، حتى اصبح العالم المتقدم يعتمد في منتجاته الصناعية المتفوقة على المهارات التي يملكها عمالها، بما في ذلك قدراتهم التنظيمية و التي ترجع الى التربية و ليس راس المال المتوافر[46]. و قراءة متانية لواقع التعليم في محافظة ديالى، لا سيما في فترة التسعينيات من القرن الماضي تكشف لنا رسوب اكثرية الطلبة في المواد العلمية التي تتطلب قدرات عقلية عالية قائمة على الفهم و الاستيعاب، و ياتي على راس هذه المواد الرياضيات، ثم العلوم[47]، و يبدو ان السبب في ذلك هو طابع الحفظ و التلقين او البصم الذي انفردت به اغلب مدارسنا الابتدائية بل حتى المدارس الثانوية والجامعات، وما كراسات الطلبة و ملازمهم الا دليل على اعتماد هذا الاسلوب في اكتساب المعرفة .

هـ- حث الاطفال على كيفية الدفاع عن مجتمعهم:

تنهض الاسرة بمهمة حث الابناء على ضرورة الدفاع عن المجتمع وحمايته من الاخطار و التحديات، و ايقاض عقولهم وضمائرهم وتعميق المسؤليات لديهم للدفاع عن قضايا المجتمع الوطنية، و تعميق الشعور الوطني عند الابناء و توجيهم لمواجهة الفتن و الانقسامات، و مضاهر التصدع التي قد يشهدها المجتمع، وخلق حالة من التماسك التي تقوي اركان المجتمع وتمكنه من تحقيق اهدافه[48]، كما تقوم الاسرة بتعليم الابناء رفض الأفكار و الممارسات الفوضوية والتصدي لها و محاربتها وحالة كهذه تجعل اعداء المجتمع يخفقون في تحقيق اهدافهم الشريرة و الخبيثة[49]. وقد اثبتت الدراسات العلمية ان التعليم السياسي للطفل الامريكي يبدأ من السن الثالثة،

اي قبل دخوله المدرسة، فهو يرتبط عاطفيا برموز بلده وصور نظامها السياسي، قبل ادراكه للعالم السياسي بوقت طويل، فهو في مستهل حياته يعبر عن اعجابه بتلك الاشياء المحلية، ويعقب ذلك تعلقه برموز السلطة العامة، وبعد بلوغه سن الثامنة عشر تزداد معرفته بمفاهيم اكثر تجريداً كالتصويت والديمقراطية والحكومة[50]، وهكذا تتحسن الاخلاق الفردية وترتقي ويوضح ذلك خلق التعاون، وتغليب النزعة الاجتماعية على النزعة الفردية، والشعور بـ (نحن) على الشعور بـ (انا) . وخلق التعاون يتطلب شعور عميق بان الفرد نتيجة لمجتمعه، وهذه العقيدة تؤدي الى شعور بوجوب سداد هذا الدين، وسبب الشعور بـ (نحن) متأخر في الطبيعة عن الشعور بـ (انا) . شأن المجتمع في ذلك شأن الطفل لا يشعر بوجوده الابنفسه، ويريد ان تكون الدنيا كلها له[51]. فـ (انا) تدل على الفردية و(نحن) تدل على الاشتراك، وقد اشتقوا من (انا) الانانية بمعنى حب الذات، والاستئثار بمصالحها الشخصية، ولم ينسبوا الى (نحن) فيقولوا (النحنية) للدلالة على الشخص وغيره[52]. وقد كشفت لنا الدراسة الميدانية في محافظة ديالى ان نسبة عالية من الاطفال لا يؤثرون الاخرين على انفسهم، وليست لديهم الشجاعة في قول ما يريدونه، بل لا تشغلهم احداث المجتمع .

اما المدرسة فانها تقوم بتدريس التلاميذ مبادئ التربية الوطنية والاجتماعية بالاضافة الى تدريسهم القراءة والكتابة، فهي تعلمهم مثلا المثل العليا كالديمقراطية وحكم القانون، واعطائهم المعلومات التي من شأنها توسيع مشاعرهم المبكرة والمرتبطة بالوطن[53]، ويبدأ الاطفال في مرحلة المراهقة بتحمل بعض واجبات المواطنة مثل التصويت والخدمة في القوات المسلحة، والانتقال من دائرة الانا الضيقة الى الدائرة الاجتماعية الاوسع والذي يعني استيعاب الافراد لهيكل وعمل النظام الاجتماعي، والتسليم بان التصرف الجماعي سبيل لحل المشكلات السياسية[54]. كما يقع على عاتق المدرسة دور مهم وهو نشر الافكار والقيم الوطنية بين الناشئة وترسيخها في نفوسهم، وحثهم على الالتزام بها والتصرف بموجبها[55]، ويبقى ان توظف هذه المبادئ الاجتماعية والاخلاقية في نظامنا التعليمي توظيفا موضوعيا من اجل خدمة الاهداف الوطنية، وتحرير الانسان فكرا وارادة[56].

المبحث الثالث

اساليب التنشئة الاجتماعية في الاسرة والمدرسة وعلاقتها بالمسؤولية الاجتماعية عند الطفل

نتناول في هذا المبحث اساليب التنشئة الاجتماعية التي تعتمدها الاسرة والمدرسة، في تربية الابناء وتدريبهم على قيمة المسؤولية الاجتماعية، سواء كانت هذه الاساليب ايجابية او سلبية، مثال على ذلك عدم استطاعة الاسرة على تدريب الاطفال على انماط السلوك المتطور وتمسكها بالمعايير والقيم والتقاليد البالية التي لا تساير تطورات العصر، مثل قضية خروج المرأة للعمل[57]، مثل هذه الاسرة تجهل الاساليب الصحيحة والسليمة في تنشئة الاطفال، هذه الاساليب التي تعتمد الرعاية المكثفة والملازمة المستمرة للابناء اثناء عملية التدريب والتعلم[58]. وسنتناولها بشئ من التفصيل في اساليب التنشئة في الاسرة والمدرسة وهي كما يلي:

أ- اساليب التنشئة الاجتماعية في الاسرة و علاقتها بالمسؤولية الاجتماعية:

عندما تجهل الاسرة الموازنة بين اساليب اللين و الشدة عند تربية الاطفال، وتبنيها استعمال مبدا الثواب و العقاب في التنشئة وعدم امتلاكها الرؤى السليمة نحو القيم الايجابية المطلوب زرعها عندهم و القيم المنحرفة لكي لا تكون اداة للهدم[59]، مثل هذه الاسرة تقتل شخصية الطفل وتروضه على التقيد الاعمى لعادات المجتمع وتقاليده و قيمه،مما يضطره الى الامتثال لها حتى لا يرفض من قبل اسرته، وبناء شخصيته على صورة الاخرين، فهي تعاقب الابتكار الذي يقوم به و تكافئ المقبول من المجتمع، حتى وان كان مبتذلاً . و يعود منذ البداية على الاهتمام بما يقوله الاخرون، و اما رايه فلا يعول عليه ولا قيمة له، فتعلمه الاسرة اتقان فن المسايرة و ارضاء الاخرين، ولو تم ذلك على حساب حقوقه المشروعة، وان كان الاخرون على خطأ و هو على صواب، واعطاءه معلومات جاهزة غالبا ما تكون خاطئة، ثم تخضع الاسرة الطفل لمن هم اكبر منه سناً لاحترامهم فقط، ولا ينصب التركيز على الصفات الشخصية المميزة للفرد بل على السن كفضيلة بحد ذاتها، لذا تبرز المشكلة من خلال

عدم افساح المجال امام النشئ الطالع لاظهار قدراته ولتحمل المسؤوليات الاجتماعية[60].

و بذلك يضيع الطفل في الاسرة التي يهيمن عليها الاب و المجتمع، القائم على الابوية، و بهذا تكون الاسرة شديدة الوطاة، مما يهيئ الطفل لان يطيع في شبابه، لا ان يقارع او يناقش، و تنمي فيه الالتواء و الازدواجية، و الاعتماد على الكبير في كل شئ والاهم من ذلك هو ان يكون الولد مطيعاً مؤدباً، متاخرا في الاطلاع على شؤون الحياة، متفوقا على الاقران، والا فالاكثار من الاستهزاء بشخصيته ومقارنته مع الغير، و الالحاح على فشله، فالقمع من الاسرة سببه شيوع مواقف غير عقلانية و خرافية في صفوف غالبية الناس، الامر الذي يؤدي الى احكام سيطرة الوضع القائم على الناس و جعلهم يرفضون اي تغير اجتماعي[61].

لذا يتوجب على الاسرة تدريب الطفل على الاستقلال بدلا من الهيمنة و التسلط على تصرفاته، لان ذلك يقتل عنده اي اتجاه نحو الاعتماد على النفس[62]. و عليها ان لا تتعجل نموه قبل الاوان و تحميله مسؤليات لا تتفق و عمره، وحرمانه بذلك من سعادة الطفولة، ومن فرص النمو التدريجي السليم، و افساح المجال له للعب والعبث دون تذمر الاباء و انزعاجهم، و على الاسرة ان تكون عادلة في معاملة الطفل، فالجزاء الذي توقعه يجب ان يكون قائما على تقدير موضوعي للموقف وليس على اساس عاطفي، وان تكون معتدلة في التسامح مع ما يرتكبه الطفل من اخطاء كما يجب ان يكون التوجيه بالاخطاء وقتيا متعلقا بالموقف القائم.

ب- اساليب التنشئة الاجتماعية في المدرسة وعلاقتها بالمسؤولية الاجتماعية:

تمارس المدرسة احيانا اساليب تربوية خاطئة لا تقل عن الاساليب الخاطئة التي تنتهجها الاسرة، و مثال على ذلك اساليب القهر الفكري المباشر عن طريق التلقين (البصم)، وقطع الطريق على كل محاولات التلميذ في مجال التساؤل والحوار فالتلقين يشكل العامل الاساس للتعليم داخل المؤسسات التربوية دون فهم الطفل لما يدرسه[63]. و نتيجة ذلك تكون درجات الطلبة المنخفضة جدا في المواد التي تحتاج الى قدرات عقلية و ذكائية، كمادة الرياضيات و مادة العلوم، وكما اشرنا الى ذلك فيما مضى، واحد اساليب هذا التلقين هو تقيد المعلمين بالطرق التي تعلموها في الكتب، او اخذوها من غيرهم من غير ان يكيفوها، بحسب تجاربهم اثناء التدريس، و عدم قدرتهم على تقويم عقل الطفل و تقوية ارادته و شخصيته[64] كما ان هناك العلاقات الاستبدادية التي تاخذ الشكل العمودي، و المتمثلة في علاقة المدير بالمعلمين، و المعلمين بالتلاميذ والتي غالبا ما تتسم بالاهتمام بالمظهر دون الجوهر، بالاضافة الى اشاعة الخوف بين التلاميذ اثناء الدروس، و فتور متعة المعلمين في التعليم داخل الصفوف، وهناك في الطرف الاخرالحرية المطلقة التي يمنحها بعض المعلمين للتلاميذ، و التي تصل الى حد الفوضى في مواجهة المواقف التربوية، وحسم المشاكل التعليمية،كرد فعل للسيطرة الدكتاتورية،[65]. بالاضافة الى ذلك فان هنالك اساليب خاطئة تتبعها بعض الاسر و المدارس من دون وعي منهما، وهي مجالس الاباء والمعلمين، وهذه المجالس لا تنعقد بشكل مستمر طوال السنة الدراسية، وحتى وان انعقدت، فهي لا تركز على المشاكل الحقيقية التي يعاني منها الاطفال، فالمدرسة لا تكترث كثيرا لهذه المجالس، وكذلك الاسرة لا يهمها متابعة ابناءها بشكل متواصل، وكما اظهرت ذلك نتائج الدراسة الميدانية في المحافظة[66]. و التربية المدرسية لكي تثبت جدواها لابد من معرفة عدد الاطفال الملتحقين بالمراحل التعليمية، بحسب الشرائح العمرية التي ينتسبون اليها، ودرجة انتظام الاطفال في عملهم المدرسي، و طول المدة التي يقضونها، في المدارس ومراحل التعليم التي يقضونها[67].

وعثرت على دراسة ميدانية في مديرية تربية محافظة ديالى حول ظاهرة التسرب الدراسي في التعليم الابتدائي اعدت خلال فترة الثمانينات من القرن الماضي، و قد وجدت في هذه الدراسة حقائق كشفت لي ان الظروف الصعبة التي كان العراق يمر بها لاسيما فترة حرب الثماني سنوات، قد تركت اثار واضحة على تلكؤ انتظام الاطفال بالدوام المدرسي، واظهرت الدراسة ان عدد المتسربين في الريف اعلى منه في الحضر، وكان مجموع المتسربين خلال السنة الدراسية (1986-1987) هو (417) طالبامتسربا وعدد العائدين منهم(185) عائد. و اوردت الدراسة والتي حددت من سنة 1979-1987 معلومات تبين ان اعلى نسبة سجلت في الاعوام (1980-1986) وبينت الدراسة ايضا ان اكثر الجهات المساهمة في ارجاع التلاميذ الى مقاعدهم الدراسية كانت من خلال الاتصال باولياء امورهم كما بينت الدراسة ان اهم الاسباب التي ادت الى هذا التسرب هو اتجاه التلاميذ، نحو الاعمال الحرة، وضعف الضبط الاسري، وتنقل الاسر من منطقة الى اخرى، والمسافات البعيدة التي تفصل القرى المتناثرة عن المدرسة، وصعوبة الوصول اليها من قبل التلاميذ و ضعف الادارات المدرسية خاصة في المناطق الريفية، و ضغط الاسرة على الابناء لترك المدرسة واجبارهم على العمل في المحاصيل الزراعية ورعي الحيوانات، وضعف دور مجالس الاباء والمعلمين في متابعة المتسربين[68]. و قد اثبتت دراستنا الميدانية ان هناك قصور في متابعة الاباء ابنائهم في المدرسة بشكل منتظم ويبدو ان هذه المشكلات االتي اصابت التعليم يعود كثير من اسباب وجودها الى تلك المنعطفات الصعبة التي مر بها المجتمع العراقي، لا سيما بعد ثمانينات القرن العشرين،اذ تركت تلك الفترة اثارها الواضحة على التعليم والتربية بشكل عام.

المبحث الرابع

التحديات التي تواجه الاسرة والمدرسة في تعميق المسؤولية الاجتماعية عند الطفل

يتناول الباحث في هذا المبحث ابرز التحديات الاجتماعية التي تواجه الاسرة والمدرسة في تنمية و تعميق المسؤولية الاجتماعية عند الطفل، تلك التحديات التي تعيق هاتين الموسستين في تربية الطفل،تربية تقوم على اساس التعاون، وتظافر الجهود من اجل خدمة الجماعة والمجتمع، والتي يمكن تناولها بالنقاط التالية:

أ- تدني الوعي الاجتماعي:

حينما يكون الوعي الاجتماعي متدنيا في الاسرة فانها تكون غير قادرة على غرس قيمة المسؤولية الاجتماعية عند الطفل، والتمييز بين ما هو نافع وما هو ضار، والاسرة في هذه الحالة تخلط ما بين القيم الايجابية و السلبية، ولا تعلمهم ما هية ادوارهم الوظيفية، مما يجعلهم لا يميزون بين الحقوق والواجبات، وعدم تمييزهم يقتل احساس العدالة فيهم، وتولد نازع القسوة عندهم مما يجعلهم غير متكيفين للمجتمع وناقمين عليه[69]. فالوعي الاجتماعي للطفل يحتاج الى مزيد من الحرية الفردية، التي تتيح له فرص اكثر للاستقلال، ويبدو ان اسلوب التنشئة الصارم هو الذي يعوق تعبير الطفل الصريح عن نفسه، وتعويق بناء شخصيته، وتمكينه من المشاركة الايجابية الفاعلة في المجتمع، وامر كهذا يؤدي الى عدم قدرة الطفل على النقد والبناء والابتكار[70]. ولهذا يصبح الطفل خجولا وبائسا وعاجزاً عن الاخذ والعطاء مع اقرانه في المدرسة والمجتمع، ويكون منطويا على نفسه يجتر وساوسه وهو اجسه، ويكون قلقا حساسا، يعاني من عدم الثقة في النفس ومن آلآم الوحدة وتوقع الخطر[71]. كذلك حينما تؤكد التربية الاسرية للطفل على ان المشاكل الاجتماعية هي فوق مستوى ادراكه الآن وهي اكثر تعقيدا من ان يدركها،وعليه ان ينتظر حتى يبلغ مستوى ادراكها، وينتج هذا الاسلوب عن حالة من السخرية والشك في كل شيء مقول او مطبوع، والشك في جدوى كل ما يعلم، ونتيجة ذلك هو تجافي التفكير الناقد تغطية

للعجز عنه[72]. كما يقضي المجتمع بان تحل روح الخضوع بدل روح الاقتحام، و روح المكر بدل روح الاقدام و روح التراجع بدل روح المبادرة[73]. هذا العجز الذي يشل الطفل ويعطله نابع من حالة العزل الاجتماعي والحرمان العاطفي الذي يبقيه على تفرده، وعدم تحويله من فرد الى شخص . فالتفاعل الرمزي والاحتضان الاسري يحولان الفرد الى انسان بواسطة استخدام آليات التانيس، لتفعيل قدراته الذكائية واستعداداته الاجتماعية لكي لا يكون متوحشا وخائفا من الاخرين[74] ان من واجب التربية المدرسية تبني وعيا جديدا لطبيعة الطفل من حيث هو فرد متميز، وواجب التربية رعاية فرديته، وتمكينها من اكتمال بزوغها،من غير تعويق او تعطيل، وعدم وأد الاصالة الفكرية عند الطفل،وعدم التاكيد على معرفة الحقائق المنعزلة التي لا تعطي تفسيرا تكامليا[75]. ولكن الدراسات العلمية تكشف لنا تاثير المدرسة الكبير على شخصية الفرد، ذلك ان الطفل يتصور ان القاعدة الاخلاقية شيء مقدس لا تنتهك حرمته، ويتعين ان يشعر شعوراً ذاتياً بما للقاعدة الاخلاقية من صفات تجعله يخضع لها طوعيا، ولن تكون الطاعة اخلاقية الا باحترامها[76]. كما تكشف التربية المدرسية ايضا ان الطفل ليس مواطن عالمي ينكر حقيقة وطنه، ولا مواطن انعزالي يحتقر الاوطان الاخرى ويبغضها، بل مواطن واعي يدرك واجباته الوطنية والانسانية، ومن واجب معلمي التربية الوطنية والاجتماعية ان يوجهوا الطفل توجيها انسانياً قائما على الائتلاف والتعاون،على اساس الحق والمساواة والانسانية[77]. ورغم كل ذلك نجد ان بعض المربين يلجأ لى زج الطفل في مواقف يضطرونه فيها الى الكذب، وهذا امر لا يتفق واصول التربية السليمة، او انهم يضيقون عليه في المبالغة في تربيته على الصدق فيطلبون منه الصدق في كل كبيرة وصغيرة، وفي كل عبارة يقولها ويصرون ان تكون صادقة،مائة في المائة[78]. ونتيجة ذلك يتحول الطفل الى شخص مزدوج الشخصية . ودليل ذلك كثرة حالات التهرب والرسوب في المدرسة الابتدائية، وقد كشفت لنا البيانات الاحصائية للعام الدراسي 2005–2006 ان عدد التلاميذ الراسبين بلغ 516،35 منهم (322،31) كان سبب رسوبهم الفشل في الامتحان، و (173،3) كان سبب الرسوب تجاوز ايام الغياب، وهناك اسباب اخرى كانت محصلتها (1021)

. كما تبين ان اكثر الراسبين هم من تلاميذ الصف الخامس ابتدائي، اذ بلغ عددهم (10559) من مجموع الراسبين والبالغ (516،35). وبلغ عدد الناجحون التاركون (2526). واما الراسبون التاركون، فقد بلغ عددهم(2678) . وتبين ان اكثر التاركين هم من طلبة الصف الخامس، وكان عددهم (544) من مجموع عدد التاركين والبالغ(2151)[79]. ويبدو ان الصف الخامس منعطف حاسم في حياة التلميذ في المرحلة الابتدائية،ففيه يتعرض التلميذ الى مجموعة من الدروس الجديدة كالحساب المتقدم والعلوم واللغة الانكليزية، والتربية الوطنية،اضافة الى المستوى النوعي لهذه المواد في التعلم وامام هذه المواد الدراسية الكثيرة والمطالب العديدة،يكون التلميذ عاجزعن التكيف ومواجهة كل ذلك، لذا يتعرض الى الرسوب،او ترك المدرسة نهائيا، لاسيما اذا كان غير متجاوب مع ما يطلب منه من واجبات دراسية .

ب-تضارب الجماعات الاجتماعية:

من اهم المعضلات التي تواجه الاسرة في تنمية المسؤولية الاجتماعية عند الابناء، انتماءهم الى جماعات اجتماعية مختلفة كالمدارس وجماعات اللعب، والجوامع والتجمعات المحلية، وكل جماعة تزود الابناء بخبر وتجارب و معلومات تختلف عن تلك التي تزودهم بها الجماعات الاخرى، فقد تركز الاسرة على تربية ابنائها على انماء المسؤولية عندهم، ولكن جماعة اللعب، او وسائل الاعلام، او المجتمع قد تزودهم بمعلومات متناقضة، فجماعة اللعب قد تمني عندهم القيم الفردية وهذا خلاف ما تريد الاسرة، فيحدث التضارب والتصادم بين قيم الاسرة وقيم جماعة اللعب، والذي يؤدي بدوره الى تصدع الشخصية عند الابناء وعدم قدرتها على بناء المجتمع[80]. وهذا التناقض يقود الى بلورة النزعة الفردية و الانانية عند الطفل، ويبرز ذلك جليا في سياق الاسرة، حينما تنمي اعتماد الفرد الكلي عليها واندماجه فيها، وبالتالي يتولد من خلال ذلك الشعور بان مسؤوليته الاساسية هي اتجاه الاسرة وليس نحو المجتمع الاكبر، وفي الحالات التي يوجد فيها تناقض بين المطالب الاسرية، والمطالب المجتمعية، تتغلب كفة المطالب الاسرية[81]، كما ويظهر التضارب بين

مطالب الجماعات الاجتماعية في ادوار الفرد، اذ يحدث صراع في ادواره، فعندما تطلب الجماعات من الفرد الواحد الذي يشغل ادوارا مختلفة القيام بمهام وواجبات في نفس الوقت، والفرد لا يستطيع القيام بذلك للتضارب بين الاوقات او محدودية قدراته، وهنا يقوم الفرد بتنفيذ ما تريده منه جماعة واحدة كالاسرة مثلا[82]. ويؤكد الدكتور علي الوردي على ان الانظمة المتناقضة من القيم في المجتمع هي التي تقود الى تناقض شخصية الفرد، فالناس اذا تعلموا مثلا عليا مناقضة لما اعتادو ا عليه من اخلاق وعادات،فانهم يحلقون في مواعظهم تحليقا مثاليا عاليا بينما هم في واقع حياتهم على ضد ذلك[83].

يواجه الفرد في حياته محطتين بالاضافة الى الاسرة، وهما (المدرسة والجماعة العمرية) ولكل منها احكام ومعايير تختلف عن الاخرى، وفي المحطة الثانية وهي المدرسة يحل الفرد فيها فترة زمنية طويلة يكتسب فيها العديد من الاحكام والمعايير التي لا يجدها في اسرته، وجماعته العمرية وقد لا يجدها في الجماعات الاجتماعية الاخرى[84]. ففي الاسرة مثلا قد يمنع الطفل ان يتحدث مع والده وهو جالس،و يحرم عليه ان يواجه مشاكله بمفرده، وعليه ان يسمع ما يقال له دون اعتراض، فالأسلوب الاسري اذن يتعارض مع ما تطلبه الحياة المدرسية، هذا التعارض بين الاسرة والمدرسة من الصعب ان يؤدي الى تنشئة سوية للطفل[85].

ج- تغليب المصلحة الذاتية على المصلحة الجماعية :-

تواجه الاسرة مشكلة تغليب المصلحة الذاتية على المصلحة الجماعية، تلك المشكلة التي تؤدي بالاسرة الى فشلها في تدريب الطفل على فهم اهمية الروح الجماعية، وفن التعامل مع الاخرين، والعمل كعضو ضمن فريق، فما من عمل حضاري انجز الا وكان نتاج مجهود تنظيمي جماعي، يتضمن تظافر الجهود التي يبذلها فريق من الافراد يساهم كل منهم بدوره في ايصال العمل الى شكله النهائي، والتعامل مع فريق يتطلب المرونة والسلاسة وروح المسؤولية والموضوعية، ضمن اطار احترام مختلف افراد الفريق لبعضم البعض . وفشل الاسرة يكمن ايضا في

هروب الفرد من تحمل المسؤولية نظرا لخوفه من الفشل، وعدم اقدامه الا في حالات نادرة على دراسة فشله دراسة موضوعية تمكنه من معرفة الاسباب والدوافع الحقيقية التي ادت به الى الفشل، مع العلم بان دراسة الفشل دراسة موضوعية تعد بداية النجاح[86].

وكما تواجه الاسرة مشكلة المصالح الذاتية عند الاطفال تواجه المدرسة هذه المشكلة ولذلك فانها تحاول تعليمهم ثقافة وطنية، اذ توجههم نحو تعلم تاريخ مجتمعهم وتراثه الفكري وطرقه الشعبية، وتشجعهم على التغني بالوطن من اجل انماء الروح الجماعية عندهم ونبذ الروح الفردية والانعزالية[87]، وتنمية القيم الاصيلة كالايثار وتحمل المسؤولية والتواضع والاخلاص في العمل، ومحاربة القيم السلبية الضارة كالانانية وحب الذات وضعف الشعور بالمسؤولية تجاه العمل الاجتماعي[88]. بيد ان واقع حياة الافراد يكشف ان القيم الايجابية كالايثار والتضحية غدت امورا تنتمي الى عالم الكتب وساحات التعليم، وفي سبيل الخلاص الذاتي يلجا الافراد الى وسائل شتى لا تحكمها معايير اخلاقية،من انتهازية الى زلفى الى خداع الى تحايل الى تنافس مقيت، الى غيرها من المواقف التي يريد الفرد ان يحصل منها او يصطاد فيها، وحسب ظروف الموقع الذي يجد المرء فيه اثناء المفاوضة بين مصلحته الذاتية ومصلحة المجموع[89]. وواجب التربية المدرسية هنا اخراج الطفل من دائرة (الانا) الضيقة الى الدائرة الاجتماعية الاوسع، والتي تعني زيادة في استيعابه لهيكل وعمل النظام الاجتماعي ككل وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية المكونة له، والتسليم بان التصرف الجماعي سبيل لحل المشكلات الاجتماعية، وان ظهور هذه النزعة لدى الافراد امر حيوي في تخطيط السياسة[90].

من اسباب سيطرة النوازع الفردية والجماعية شيوع مظاهر التحضر والتنمية، والتحديث والتصنيع، هذه المظاهر التي تصدع وحدة المجتمعات المحلية والمؤسسات وتفكك القيم والممارسات السلوكية، وتوسع الهوه الحضارية بين العاملين المادي والمثالي، وهذه المظاهر تضعف وسائل الضبط الاجتماعي، مما يؤدي الى تحويل سلوك الطفل من سلوك ملتزم ومنضبط الى سلوك متسيب ومنفلت وانفعالي[91]، مما

يؤثر ذلك سلبا في مسيرة المجتمع ونهوضه وتقدمه، وامر كهذا يجعل من الصعب على الاسرة والمدرسة زرع قيم المسؤولية الاجتماعية عند الابناء وتنميتها في شخصيتهم .

المبحث الخامس

نتائج الدراسة الميدانية

اظهرت نتائج الدراسة الميدانية الحقائق التالية:

1- هناك ضعف وقصور في قدرة الاسرة و المدرسة على تسليح الطفل بالوعي الاجتماعي من حيث الايمان بقيم المسؤولية والثقة بالنفس، والاهتمام بالجماعة والمجتمع على حساب نفسه واسرته والتعاون مع الاصدقاء، والاعتراف بالتقصير اذا وقع منه .

2- اما فيما يتعلق بتربية الطفل وتنمية سلوكه الاجتماعي، فقد تبين ان هناك عدم حضور لبعض الاطفال في المدرسة بشكل متواصل، كما ان هناك من الاطفال من يساعد والديه بعد الدوام الرسمي، وهناك تقصير من قبل بعض الاباء في زيارة المدرسة بانتظام، وبينت النتائج ان بعض الاطفال يعبثون بدفاترهم ولوازمهم المدرسية .

3- اما من ناحية التعليم والتدريب على الاعتماد على النفس، اظهرت النتائج ان بعض الاطفال غير مواظبين على الدوام بشكل متواصل وفعال، كما ان اكثر الاطفال لا يعتمدون على انفسهم في حل مشاكلهم.

4- ان بعض الاطفال لا يتعاونون كثيرا في تقديم الخدمات للمجتمع، فالمبادرة بالعمل من اجل الصالح العام تكاد تكون متدنية، كما ان هناك ضعف في استعداد الاطفال لخدمة الناس، وبعضهم لا يؤدي ما يطلب منه باندفاع عالي .

5- هناك قصور لدى بعض الاطفال فيما يتعلق بالدفاع عن المجتمع، فهم لا يكترثون كثيرا بايثار الاخرين على انفسهم، وليس لدى بعضهم الشجاعة الكافية في قول ما يريد بصراحة ووضوح، كما ان احداث المجتمع لا تشغلهم كثيرا .

ب-التوصيات:

1- توعية الاسرة والمدرسة على كيفية غرس الوعي الاجتماعي للاطفال ليكونوا مدركين للمسؤوليات و المهام الجسيمة التي تناط بهم في المستقبل .
2- ارشاد الاسرة و المدرسة على انتهاج اساليب تربوية ايجابية قائمة علىأ لموازنة بين اللين والشدة، وغرس القيم الايجابية في شخصيات الاطفال و الاهتمام بالانجازات والابتكارات التي يقدمونها.
3- ضرورة توحيد الجماعات الاجتماعية مبادئها وقيمها الخاصة بتنمية قيمة المسؤولية الاجتماعية عند الاطفال .
4- توجيه الاسرة والمدرسة على ضرورة الالتزام بالجوانب الجماعية والتعاونية، وتجنب النزعات الانانية والمصلحية والنفعية، بحيث يكون الدافع هو العمل لمصلحة المجموع .
5- ضرورة قيام وسائل الاعلام بتوجيه المربين على الاهتمام بالاطفال وتنشئتهم على تغليب المصالح الوطنية على المصالح الذاتية .
6- حث الاسرة والمدرسة على تربية الاطفال على حب الوطن والتعلق به والذود عن حياضه بالقول والفعل .
7- ضرورة قيام الاسرة والمدرسة باشراك الاطفال بعمليات تساعدهم على تعلم القيم الاجتماعية والعادات السلوكية الايجابية التي تتفق مع قيم المجتمع .
8- حث الاسرة والمدرسة على تدريب الاطفال على كيفية تقديم الخدمات والاعمال للمجتمع من خلال حصولهم على الشهادات التي تؤهلهم لخدمة المجتمع وتدريبهم على كيفية زيادة الانتاج .
9- قيام الاسرة والمدرسة بتبصير الاطفال بالظروف الاجتماعية الصعبة التي يمر بها المجتمع، والتصدي لها وتطويق اثارها وتعلمهم ان وحدة المجتمع وتعاونه هما السبيلان القويمان لمواجهة كل الاخطار التي يتعرض لها المجتمع .

المصادر والاحالات:

(1) الحسن، حسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤليه الاجتماعية، مجلة شؤون عربية، جامعةالدول العربية، القاهرة، حزيران، 1999. ص 50.
(2) نفس المصدر السابق، ص 51 .
(3) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، دار الشروق للنشر، عمان، 1994، ص 84.
(4) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1982، ص 186.
(5) نفس المصدر السابق، ص 204-205.
(6) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤوليه الاجتماعية، مصدر سابق، ص51.
(7) نفس المصدر السابق، ص52.
(8) نفس المصدر السابق.
(9) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، مصدر سابق، ص 112.
(10) اسماعيل، محمد عماد الدين (د)، الاطفال مرآة المجتمع، عالم المعرفة، الكويت 1986، ص 300.
(11) قناوي، هدى محمد (د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مكتبة الا نجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص359.
(12) امين، احمد(د)، فيض الخاطر، ج 9، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955.ج 9، ص 288.
(13) نفس المصدر السابق ص 28.
(14) مادة التربية الوطنية والاجتماعية للصف السادس الابتدائي، مطبعة تونس، ط 4، بغداد، 2007م، ص17.
(15) صليبا، جميل (د)، مستقبل التربية في العالم العربي، منشورات عويدات، بيروت، 1967، ص62.

(16) مادة التربية الوطنية والاجتماعية للصف الخامس الابتدائي، شركة الوفاق للطباعة، بغداد، 2005، ص40.
(17) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 359 .
(18) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص54.
(19) نصار، كرستين (د)، موقف الاسرة العربية من اظطراب الطفل، دار جروس برس، ج5، طرابلس، لبنان، 1993، ص 60 .
(20) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مصدر سابق ص 76.
(21) فرح، محمد سعيد (د)، الطفولة والثقافة والمجتمع، دار المعارف، الاسكندرية، 1980، ص 107 .
(22) صليبا، جميل(د)، مستقبل التربية في العالم العربي، مصدر سابق، ص 278.
(23) اركون، محمد (د)، قضايا في نقد العقل، دار الطليعة، بيروت 2000، ص 288 .
(24) رضا، محمد جواد (د)، العرب والتربية والحضارة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص 232.
(25) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 161.
(26) نصار، كرستين (د)، مواقف الاسرة العربية من اضطراب الطفل، مصدر سابق ص125.
(27) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، مصدر سابق، ص 12.
(28) فرح، محمد سعيد (د)، الطفولة والثقافة والمجتمع، مصدر سابق، ص 22 .
(29) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص55.
(30) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 66.
(31) عبد الوهاب، محمد سعيد، دراسة بعض مشكلات الاطفال، مطبعة شفيق، بغداد، 1975، ص5.
(32) جرجس، ملاك، مشاكل الصحة النفسية للاطفال، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1985، ص5.

(33) فرح، محمد سعيد (د)، الطفولة والثقافة والمجتمع، مصدر سابق، ص 52 .
(34) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص55.
(35) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مصدر سابق ص 195-196.
(36) مديرية محافظة ديالى، قسم التخطيط و الاحصاء، للعام 2007-2008 .
(37) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مصدر سابق ص 195.
(38) صليبا،جميل (د)، مستقبل التربية في العالم العربي، مصدر سابق، ص 246.
(39) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1988، ص227.
(40) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص56.
(41) نصار، كرستين (د)، مواقف الاسرة العربية من اضطراب الطفل، مصدر سابق ص132.
(42) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 198.
(43) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مصدر سابق ص 282.
(44) صليبا،جميل(د)، مستقبل التربية في العالم العربي، مصدر سابق، ص 243.
(45) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، مصدر سابق، ص229.
(46) رضا، محمد جواد (د)، العرب والتربية والحضارة، مصدر سابق، ص245.
(47) مديرية محافظة ديالى، قسم التخطيط و الاحصاء .
(48) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص56.
(49) الحسن، احسان محمد (د)، علم الاجتماع السياسي، مطابع جامعة الموصل، الموصل، 1984، ص238.
(50) الجوهري، عبد الهادي (د)، دراسات في علم الاجتماع السياسي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1985، ص42 .
(51) امين، احمد(د)، فيض الخاطر، ج 5، مصدر سابق، ص 307.

(52) نفس المصدر السابق، ج 9، ص28.
(53) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص64.
(54) الجوهري، عبد الهادي (د)، دراسات في علم الاجتماع السياسي، مصدر سابق، ص43.
(55) الحسن، احسان محمد (د)، علم الاجتماع السياسي، مصدر سابق، ص229.
(56) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، مصدر سابق، ص274.
(57) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 60.
(58) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص57.
(59) نفس المصدر السابق.
(60) نصار، كرستين (د)، مواقف الاسرة العربية من اضطراب الطفل، مصدر سابق ص122.
(61) شرابي، هشام (د)، النظام الابوي و اشكالية تخلف المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1991، ص 60.
(62) فرح، محمد سعيد (د)، الطفولة والثقافة والمجتمع، مصدر سابق، ص 225 .
(63) نصار، كرستين (د)، مواقف الاسرة العربية من اضطراب الطفل، مصدر سابق، ص126.
(64) صليبا، جميل (د)،مستقبل التربية في العالم العربي، مصدر سابق، ص 407.
(65) سرحان، منيرالمرسي، في اجتماعيات التربية، مصدر سابق، ص 207.
(66) نفس المصدر السابق، ص 226.
(67) رضا، محمد جواد (د)، العرب والتربية والحضارة، مصدر سابق، ص 247.
(68) خماس، علي، وجواد، عبد الجبار، ظاهرة التسرب في التعليم الابتدائي في محافظة ديالى، المديرية العامة لتربية ديالى، 1987، ص 3-4 .
(69) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص54.
(70) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 60.

(71) جرجس، ملاك، مشاكل الصحة النفسية للاطفال، مصدر سابق، ص52.
(72) رضا، محمد جواد (د)، العرب والتربية والحضارة، مصدر سابق، ص 235.
(73) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، مصدر سابق، ص167.
(74) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، مصدر سابق، ص 87.
(75) رضا، محمد جواد (د)، العرب والتربية والحضارة، مصدر سابق، ص233.
(76) فرح، محمد سعيد (د)، الطفولة والثقافة والمجتمع، مصدر سابق، ص 111 .
(77) صليبا، جميل (د)، مستقبل التربية في العالم العربي، مصدر سابق، ص 65.
(78) جرجس، ملاك، مشاكل الصحة النفسية للاطفال، مصدر سابق، ص71.
(79) مديرية محافظة ديالى، قسم التخطيط و الاحصاء، احصاءات تربوية للعام 2005-2006 .
(80) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص59.
(81) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، مصدر سابق، ص166.
(82) الحسن، احسان محمد (د)، النظريات الاجتماعية المعاصرة، مطبعة الرسائل، بغداد، 2005، ص 163.
(83) الوردي، علي (د)، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، لا يوجد تاريخ ومكان نشر، ص 293 .
(84) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، مصدر سابق، ص 136.
(85) قناوي، هدى(د)، الطفل تنشئته وحاجاته، مصدر سابق، ص 33.
(86) نصار، كرستين (د)، مواقف الاسرة العربية من اضطراب الطفل، مصدر سابق ص134.
(87) العمر، معن خليل (د)، علم اجتماع الاسرة، مصدر سابق، ص 126.
(88) الحسن، احسان محمد (د)، علم الاجتماع السياسي، مصدر سابق، ص235.
(89) عمار، حامد (د)، في بناء الانسان العربي، مصدر سابق، ص28.
(90) الجوهري، عبد الهادي (د)، دراسات في علم الاجتماع السياسي، مصدر سابق، ص44.
(91) الحسن، احسان محمد (د)، دور الاسرة العربية في تنمية المسؤولية الاجتماعية، مصدر سابق، ص59.

دور الأخصائي الاجتماعي في تنمية وتنظيم المجتمع

م.م محمد عبدالله محمد المفرجي
جامعة كركوك/ كلية التربية

الفصل الأول

الإطار النظري والمصطلحات العلمية للبحث

أولاً:الإطار النظري:-

١- مشكلة البحث:

تفتقر مؤسساتنا الادارية والبحثية الى عدد من الخبراء والمستشارين ومنهم الاخصائي الاجتماعي (المنظم الاجتماعي) الذي تدرب للقيام بهذه المهمة من خلال تغذيته بالمهارات النظرية والميدانية ، حيث تقع على عاتقه مسؤولية تنظيم المؤسسات والعمل على تنميتها من خلال ابداء الاراء وتقديم النصح والمشورة واذا تطلب الامر يقوم باعداد دراسات تتناول المشكلة المراد حلها ، بالاضافة الى عدم الفهم لدور هذا المنظم وقد يكون السبب في ضعف ثقة القادة الاداريين بالمهارت والامكانيات التي يمتلكها او التي يجب ان يقدمها .

حيث يمكن للاخصائي الاجتماعي المتخصص في مجال الخدمة الاجتماعية ان يساعد وبالتعاون مع القادة الاداريين على تنظيم المؤسسات او المجتمع المحلي الذي يعمل فيه وكذلك مواجهة المشكلات التي يعانيها المجتمع بما يسهم في تحقيق اكبر قدر من الفاعلية والنمو لهذا المجتمع.

٢- أهمية البحث:

تكمن اهمية البحث فيما يأتي:-

١-لفت الانتباه الى الدور الذي يمكن ان يؤديه الاخصائي الاجتماعي في مساعدة المجتمع على النمو والتقدم .

٢-التعريف بالمهارات والقابليات التي يمتلكها في مجال تنظيم المجتمع وتنميته.

٣-امكانية استفادة القادة الاداريين والمجتمع المحلي من خبرات ومهارات الاخصائي الاجتماعي واستثمارها في تنمية المجتمع وتنظيمه.

٣- هدف البحث:

يهدف البحث الى:

١-التعرف على الفعاليات التي يمارسها الاخصائي الاجتماعي ومدى تأثيرها في تنمية وتنظيم المجتمع في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

٢-بيان دور الاخصائي الاجتماعيفي تحقيق النمو والتقدم للمجتمع الذي يعمل فيه.

ثانياً:المصطلحات العلمية:

١- الدورRole:

الدور هو السلوك المتوقع من شاغل أو لاعب المركز الاجتماعي[١].

ويقصد بالدور السلوك أو التصرف المتوقع من شاغل المركز الاجتماعي، فالمركز الاجتماعي هو الذي يحدد طبيعة الدور الاجتماعي أي التصرفات المتوقعة أو النشاطات والفعاليات التي يقوم بها الفرد بعد إشغاله لمركزه الاجتماعي[٢].

ويعرف الدور في علم الاجتماع بأنه السلوك المتوقع من الفرد الذي يشغل موقعا أو منصبا اجتماعيا معينا.ويكون الدور غطاء شاملا من السلوك المميز اجتماعيا، يوفر وسيلة لتعريف وضع الفرد في المجتمع، ويعمل أيضاً كإستراتيجية ليكون بمستوى الأوضاع المتكررة وللتعامل مع ادوار الآخرين(مثل ادوار الاباء مقابل الأبناء)[٣].

والاجتماعيون يرون أيضاً أن الدور يدل على المطالب البنائية للسلوك أي المعايير التي ترتبط بمركز معين وهي شيء خارج الفرد وتقود الفرد إلى أداء منظم والدور هو أسلوب الفعل في البناء وتحدده معايير المجتمع التي تتضمن ثبات السلوك الإنساني وهو مرتبط بالبيئة الاجتماعية[٤].

٢- الأخصائي الاجتماعي Social worker:

يعرف الدكتور احمد زكي بدوي الأخصائي الاجتماعي:- بأنه ذلك الشخص الحاصل على دراسات اجتماعية معترف بها وعلى تجارب عملية وعلمية، ويكرس كل أو بعض وقته للعمل في مهنة الخدمة الاجتماعية في هيئات وميادين منظمة لهذه المهنة[٥].

ويعرف الأخصائي الاجتماعي بأنه الممارس المهني المؤهل عمليا ونظريا في المعاهد والمدارس المتخصصة لتعليم الأخصائيين الاجتماعيين الذين يمكن أن نطلق عليهم تسمية المتخصصين الاجتماعيين تمييزا لهم عن غيرهم من العاملين في ميادين الرعاية الاجتماعية من متخصصين في علم النفس والاجتماع والتربية...الخ)[٦].

٣- التنمية The Development:

تعني النمو المدروس على أسس علمية والذي قيست أبعاده بمقاييس علمية سواء كانت تنمية شاملة ومتكاملة أو تنمية في إحدى الميادين الرئيسية مثل الميدان الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي أو الميادين الفرعية كالتنمية الصناعية أو التنمية الزراعية .

وعرفت هيئة الأمم المتحدة التنمية على إنها العملية التي يمكن من خلالها توحيد جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمعات المحلية ولمساعدتها على الاندماج في حياة الأمة والمساهمة في تقدمها بأقصى قدر مستطاع[٧].

٤- تنمية المجتمع Community Development:

هي عملية تعبئة وتنظيم جهود أفراد المجتمع وجماعاته وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية بأساليب ديمقراطية لحل مشاكل المجتمع ورفع مستوى أبنائه اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ومقابلة احتياجاتهم بالانتفاع الكامل بكافة المارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة[٨].

وعرفت الأمم المتحدة مفهوم تنمية المجتمع بأنها العملية التي يتم بمقتضاها توجيه الجهود لكل من الأهالي والحكومة لتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات المحلية لمساعدتها على الاندماج في حياة الأمم والإسهام في تقدمها بأقصى ما يمكن[٩].

٥- تنظيم المجتمع Community Organization:

يعرف روسRoss تنظيم المجتمع بأنه عملية من عمليات الخدمة الاجتماعية يتمكن بها المجتمع من تحديد حاجاته وترتيب هذه الحاجات حسب الأولويات والأهداف وبحسب أهميتها ثم محاولة استثارة بواعث الناس وإذكاء الثقة وإيقاظ الرغبة للعمل على مقابلة هذه الحاجات وتحقيق الأهداف والتعرف على الموارد التي تتصل بهذه الحاجات ثم القيام بإجراء يتصل بها الأمر الذي يقود إلى نمو روح التعاون والتضامن في المجتمع بما يحقق وحدته المنشودة[١٠].

وهناك تعريف يؤكد أن تنظيم المجتمع إحدى طرق مهنة الخدمة الاجتماعية لدعم الجهود المشتركة في مختلف المستويات المجتمعية للتصدي للحاجات والمشكلات المجتمعية طبقاً لخطة تحشد الموارد الحالية والمستقبلية في إطار السياسة العامة[١١]، وتنظيم المجتمع هو النهوض عن طريق العمل المحلي بالمناطق التي تكون فيها مستويات المعيشة مرتفعة نسبياً، والخدمات الاجتماعية متقدمة بالنسبة لغيرها لكن تحتاج إلى درجة أعلى من التضافر والمبادأة من جانب المجتمع لذلك يتجه تنظيم المجتمع نحو تحقيق رفاهية المجتمع[١٢].

الفصل الثاني

المهارات المهنية للأخصائي الاجتماعي في تنظيم المجتمع

نقصد بمهارات الأخصائي الاجتماعي طبيعة ونوع ما يقوم به من أعمال عند تطبيقه وممارسته لطريقة تنظيم المجتمع في حدود الإطار العام للدور المهني للأخصائي الاجتماعي بصفه عامة[١٣]. ويعمل المنظم الاجتماعي في أجهزة تنظيم

المجتمع، وهذه الأجهزة تنظيمات اجتماعية ذات تركيب مادي ومعنوي وذات كيان وظيفي، وتسعى إلى تحقيق أهداف عن طريق قيامها بوظيفتها وتحقيق أغراضها.

والتنظيمات الاجتماعية كالحالات الفردية تنبع من ظروف المجتمع، وتتأثر بالعوامل الموجودة فيه وتخضع للدوافع والمواقف المختلفة السائدة. وتتميز التنظيمات أيضا بديناميكية متفاعلة تشكلها وتغيرها الظروف التي تمر بها، بحيث تتلائم مع المواقف الاجتماعية والاحتياجات والإمكانيات.

وتعتبر التنظيمات الاجتماعية من أهم سمات المجتمعات الحديثة حيث مطالب الإنسان الكثيرة والتي تتطلب تنظيمات دينية وثقافية ومهنية وسياسية، وهذه التنظيمات الاجتماعية ضرورة ملحة لمواجهة حاجات الإنسان.

ويمكن اعتبار التنظيمات الاجتماعية بداية مرحلة التخصص التي تؤدي في المستقبل إلى وجود متخصصين ومهنيين في المجتمعات المختلفة ليؤدوا عملهم في هذه التنظيمات(١٤).

ومن بين هؤلاء المتخصصين هو الأخصائي الاجتماعي المشتغل بتنظيم المجتمع والذي يمكن أن نلخص دوره من خلال قيامه بالأعمال التالية أو المساهمة فيها:-

١- وضع سياسة جهاز تنظيم المجتمع وتحديد أهدافه في ضوء السياسة العامة للمجتمع.
٢- العمل على مساعدة مجلس الإدارة أو اللجان التي يسند إليه العمل معها لتأدية مهمتها بنجاح.
٣- القيام بالبحوث والدراسات للتعرف على احتياجات المجتمع ومشكلاته وموارده وإمكانياته.
٤- وضع خطة العمل على أساس الأهداف التي يحددها سكان المجتمع لإشباع احتياجاتهم وحل مشكلاتهم.
٥- العمل على تنسيق جهود هيئات ومؤسسات وجمعيات المجتمع لمنع تكرار أو تضارب الخدمات التي تقوم تلك الوحدات بتقديمها لسكانه.

٦- العمل على حل المشكلات أو الصراعات أو التناقضات التي قد تنشأ بين أفراد وجماعات وتنظيمات المجتمع.
٧- العمل على إيجاد بعض المشروعات العامة التي تستفيد منها الوحدات الممثلة في جهاز تنظيم المجتمع والتي تفيد المجتمع في نفس الوقت.
٨- العمل على اكتشاف القادة الشعبين أو الطبيعيين والمساهمة في تدريبهم لتحمل مسؤوليات أنظمة الرعاية الاجتماعية في المجتمع.
٩- القيام بمد الهيئات والمؤسسات والجمعيات الموجودة في المجتمع بالمنشورات الفنية.
١٠- تنظيم المؤتمرات والاجتماعات والندوات ونشر المطبوعات التي قد يحتاجها المجتمع.
١١- العمل على تشجيع تطوع أفراد المجتمع للمساعدة في برامج وأنشطة الرعاية الاجتماعية وتنظيم هذا التطوع.
١٢- العمل على تحسين مستوى الخدمات التي تقدمها الهيئات والمؤسسات والجمعيات لسكان المجتمع.
١٣- تنظيم مكتب أو قسم للاستعلامات بجهاز تنظيم المجتمع ليتعرف السكان عن طريقه على الهيئات والمؤسسات والجمعيات الموجودة بالمجتمع.
١٤- قياس الرأي العام لسكان المجتمع وتحليله وعمل الدعاية العلمية اللازمة للرد عليه.
١٥- العمل على مؤازرة المشروعات الحكومة وتشجيع سكان المجتمع على مساندتها وتدعيمها والاستفادة منها.
١٦- تسجيل جميع الأعمال والأنشطة والمشروعات والبرامج التي يقوم بها جهاز تنظيم المجتمع والتأكد من أنها تسجل بدقة.
١٧- تقويم جميع أعمال المشروعات وأنشطة وبرامج جهاز تنظيم المجتمع لقياس مدى نجاحه أو فشله في تحقيق أهدافه(١٥).

وجهات النظر لدور الأخصائي الاجتماعي في تنظيم المجتمع

على الأخصائي الاجتماعي المشتغل بتنظيم المجتمع القيام بمجموعة من الوظائف أو الأدوار من اجل تحمل المسؤوليات المناطة به، وهذه الوظائف أو الأدوار ترتبط ببعضها البعض وتكمل بعضها البعض وتتداخل وتتشابك مع بعضها البعض بحيث تبرز في شكل دور مهني متكامل يمارسه الأخصائي الاجتماعي في المجتمع الذي يعمل معه.لذلك قام كثير من المتخصصين والمهتمين بتنظيم المجتمع بتقديم وجهات نظرهم فيما يجب أن يقوم به الأخصائي الاجتماعي من تلك الأدوار، أهمها ما يأتي:-

أولاً:تقسيم روس Ross لدور الأخصائي الاجتماعي:-

١- دور المرشد:-

وهو دور رئيس للمنظم الاجتماعي حيث يعمل كمرشد يساعد قادة المجتمع الشعبيين وقادته المهنيين على إيجاد الأساليب المناسبة لتحقيق أغراض مجتمعهم.وهناك بعض المبادئ الخاصة بدور المنظم الاجتماعي كمرشد وهي:-

أ- **المبادأة:**- يجب أن تتوفر لدى المنظم الاجتماعي قدرة المبادأة، فدوره كمرشد يجعل من واجبه العمل على استثارة شعور الأفراد نحو حياة أفضل، ذلك لان كثيرا من المجتمعات تشعر بالرضى والقناعة بالحياة التي يعيشها أفرادها، ولا يرغبون في التغيير أحيانا، مما يتطلب من المنظم الاجتماعي المبادأة في العمل بخلق الشعور بالحاجة إلى التغيير.

ب- **الموضوعية:**- يحاول المنظم أن يكون موضوعيا تجاه ظروف وأحوال المجتمع، فالمنظم الاجتماعي يتقبل موقف المجتمع كما هو رغم عدم موافقته وعدم اقتناعه بالظروف الموجودة في المجتمع.

ج- **التعرف بالمجتمع:**- يتعرف ويعمل المنظم الاجتماعي مع المجتمع ككل وهذا أفضل من أن يعمل مع أي جزء معين من أجزائه أو جماعة من جماعاته، أو مؤسسة من مؤسساته.

د- **تقبل المنظم الاجتماعي لدوره:**- يجب أن يتعلم المنظم الاجتماعي كيف يتقبل دوره ويرتاح لأدائه، كما أن أداء دوره هذا يحتاج لقدر كبير من التنظيم، والمنظم الذي لا يشعر بالراحة عند أداء هذا الدور (دور المرشد) بحدوده الواضحة المحددة يفشل في عمله.

هـ- **تفسير وتوضيح دوره:**- يجب أن يتعلم المنظم الاجتماعي كيف يفسر ويوضح دوره بعد فترة معقولة من عمله مع المجتمع[١٦].

٢- دور الممكن:-

إن دور الممكن هو تسهيل مهمة عملية تنظيم المجتمع، ولكن هذا الدور يختلف ويتشعب ويتعقد حسب المواقف التي يتعامل معها المنظم الاجتماعي، ويمكن تحديد هذا الدور بما يلي:-

أ-**إثارة وتنظيم مشاعر عدم الرضى عن ظروف المجتمع وأوضاعه:**- هذا الدور يتطلب من المنظم أن تتوفر المهارة لديه في التعامل مع الإنسان وفي تحويل المشاعر السلبية والعدوانية إلى مشاعر أكثر ايجابية، وفي مساعدة الأفراد والجماعات لكي يروا أن كثيرا من مشاكلهم الشخصية هي في حقيقة أمرها مشاكل مجتمعية.

ب- **تشجيع الجهود المنظمة:**- يتجه المنظم الناجح نحو مساعدة الجماهير على فهم نفسها والشعور بمشاكلها وهو في هذه الحالة يجب أن يكون أكثر استعدادا للحركة المتزنة المناسبة في معظم المواقف التي يعمل فيها، وبتعاون جماعي هادف، وهذا هو الأساس الضروري لأية عملية تنظيم للنهوض الاجتماعي، أو لنمو المجتمع.

ج-**دعم العلاقات في المجتمع:**- يسعى المنظم إلى زيادة مقدار الإشباع الذي يحصل عليه أفراد المجتمع من العلاقات الشخصية بينهم، ومن العمل التعاوني المشترك.

د-التأكيد على الأغراض العامة:- المنظم الاجتماعي في مجال تنظيم المجتمعات يعمل ليساعد على تحقيق الأهداف المتفق عليها، ويتم ذلك بالتخطيط الكفء الفعال، وبزيادة مقدار المجتمع على مواجهة وحل مشاكله.

٣- دور الخبير:-

المنظم كخبير يعمل على تنمية وتنظيم مجتمعه بتزويده بالحقائق الجديدة والخبرة المهنية والموارد المادية والمشورة اللازمة لمعرفة الطرق المناسبة التي يحتاجها ويتطلبها العمل. وفي مجال تنظيم المجتمع يقوم الأخصائي الاجتماعي (المساعد والممكن) بدور تدعيمي، لكنه كخبير قد يواجه الجماعة بالحقائق والمفاهيم المساعدة لها والتي تمنحها مزيدا من الثقة في حركتها ويمكن توضيح أعمال الخبير أثناء عمله مع المجتمع بما يلي:-

أ- تشخيص المجتمع:- يقوم المنظم كخبير بتحليل وتشخيص المجتمع، لان معظم المجتمعات لديها قدر ضئيل من الفهم لتركيبها والتنظيمات القائمة فيها.

ب-إجراء البحوث:- المنظم الاجتماعي يجب أن يكون قادرا على إجراء الدراسات والبحوث بنفسه.وهو في هذا يصنع سياسة وخطة البحوث بما يضمن لها تحقيق الأهداف.

ج-المعلومات اللازمة عن المجتمعات الأخرى:- يجب أن يعرف المنظم الاجتماعي على ما اجري من بحوث ودراسات وتجارب في مجتمعات أخرى، ويمكن للمجتمع أن يتعلم من المجتمعات الأخرى ويستفيد من الحقائق والنتائج الخاصة التي تصل إليها تلك المجتمعات.

د-التوجيه بطرق العمل المناسبة:- يجب أن يكون لدى الأخصائي الاجتماعي خبرة ومعرفة بطرق وعمليات تنظيم المجتمع، بحيث يستطيع تزويد المجتمع بقدر مناسب من المشورة التي تفيد في العمل الاجتماعي.

هـ-المعلومات الفنية:- يجب على الأخصائي الاجتماعي أن يعرف جيدا ويكون قادرا على تزويد المجتمع بالمصادر والموارد المادية المختلفة اللازمة لوضع الخطط الفنية.

و-التقييم:- يجب أن يكون الأخصائي الاجتماعي قادرا على تقييم عمله ومحاولة تفسير الطريقة التي يتم بها العمل الإنمائي أو التنظيمي.

٤- دور المعالج الاجتماعي:

يعمل بعض الأخصائيين الاجتماعيين مع المجتمعات كمعالجين اجتماعيين، وهو عمل تخصصي دقيق يتطلب مقدرة وخبرة ومهارة فائقة، والمعالج الاجتماعي هنا لا يعمل على مستوى الفرد أو الجماعة، ولكن يعمل على مستوى المجتمع كله وذلك يعني تشخيص وعلاج المجتمع ككل.

والأخصائي الاجتماعي أثناء عمله على مستوى المجتمع يجد مجالاً واسعاً لعمليات تشخيصية عديدة، ومن هذه العمليات محاولة معرفة ما يأتي:-

أ- تاريخ المجتمع وظواهره المختلفة من الناحيتين الديناميكية والاستاتيكية القائمة فعلاً في المجتمع.

ب- الوظائف والأدوار الاجتماعية، والعلاقات الموجودة بين هذه الوظائف وتلك الأدوار ،وتشمل هذه الأدوار القيادات الطبيعية والوظيفية القائمة في المجتمع[١٧].

ثانيا: تقسيم نيوزتتر لأدوار المنظم الاجتماعي:-

حاول نيوزتتر صاحب فكرة تسمية طريقة تنظيم المجتمع بطريقة العمل بين الجماعات للقيام بتحديد ادوار المنظم الاجتماعي استنادا إلى خبرته الطويلة في طريقة تنظيم المجتمع.وفي رأيه أن ادوار المنظم الاجتماعي تنقسم إلى:

١- العمليات الإدارية:-

وهي تتعلق بتهيئة جهاز تنظيم المجتمع للقيام بمسؤولياته بكفاءة مع توفير جميع الإمكانيات الإدارية التي تساعد هذا الجهاز على القيام بعمليات تنظيم المجتمع

وهذه العمليات تتضمن التأكد من وجود العدد اللازم من العاملين ذوي التخصصات المطلوبة لمسؤولياتهم في جهاز تنظيم المجتمع.

٢- العمليات التربوية:-

في هذه العمليات يقوم المنظم الاجتماعي بأعمال تتصل بشؤون التدريب والتثقيف وعمليات التربية والتعليم سواء فيما يختص بالعاملين داخل أجهزة تنظيم المجتمع، أو في الهيئات الاجتماعية أو فيما يختص بالقيادات أو المتطوعين أو استخدام وسائل الاتصال وعمليات العلاقات العامة ومع الجماهير الخارجية لتوعيتهم بمسؤولياتهم ليشاركوا بقوة وايجابية في عمليات النهوض بمجتمعهم. والعمليات التربوية يمكن أن تكون مباشرة أو غير مباشرة، رسمية أو غير رسمية.

٣- العمليات المهنية بين الجماعات:-

في هذه العمليات يكون الاهتمام في العمل بين الجماعات مركزا على خدمة المجتمع ومسؤولية المنظم الاجتماعي تتجه نحو المجتمع ككل، لذلك فان دوره مع أعضاء الجماعات في أجهزة تنظيم المجتمع سواء القيادات المهنية أو الشعبية أو القيادات السياسية الذين هم في الواقع ممثلين للمجتمع هو دعم التعاون بينهم وتنسيق جهودهم لأنه حلقة الوصل لهذه القيادات للقيام بمسؤولياتها تجاه المجتمع.

٤- العمليات الإنشائية والإنمائية لتحقيق التغيير الاجتماعي المرغوب:-

ان عمل المنظم الاجتماعي في المجتمعات يكون غالبا موجها نحو إحداث التغير الاجتماعي في العمل على التحرك بالمجتمع نحو التقدم والتنمية بصفة مستمرة وهذا يمكن تحقيقه بإتباع الأسلوب العلمي القائم على منهاج التخطيط وعلى مهارة وقدرة المنظم الاجتماعي. فدور المنظم الاجتماعي في العمليات الإدارية والمهنية والتربوية كلها عمليات تحقق التنمية والتقدم المطلوب الوصول إليهما[١٨].

ثالثا:-التقسيم الكامل للأدوار :-

ذهب قسم من العلماء إلى ضرورة إلمام المنظم بكافة الأدوار التي يمكن أن يمارسها خلال عمله المهني وان تكون له خبرة ودراية بهذه الأدوار وهي:-

١- دور المرشد:-

ويعني مساعدة الأخصائي المنظم للمجتمع على إيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف هذا المجتمع، وفي الاتجاه الذي يختار المجتمع السير فيه.

٢- دور الممكن:-

في هذا الدور يكون التركيز على الخطوات المتسلسلة للعملية التي يكتشف المجتمع من خلالها احتياجاته ويسعى لتحقيقها.

٣- دور الخبير:-

ويشير إلى قيام المنظم بتقديم المعلومات والحقائق بشكل مباشر في بعض الحالات ولكن دون ان يتدخل ليحدد لقادة المجتمع ما يجب ان يفعلوه أو يصر على ضرورة إتباعهم لمعرفته المتعمقة.

٤- دور المعالج:-

يتلخص دور المنظم في مساعدة قادة المجتمع المحلي على تحديد مشكلات المجتمع التي تهدد تكامله وتماسكه، والتعبير عن مشاعرهم تجاهها والآليات الكفيلة بحلها.

٥- ممارس عمليات بين الجماعات:-

وهنا يختلف عمل عن ممارس عمليات مع الجماعات (أخصائي خدمة الجماعة) حيث يتلخص دوره هنا في العمل مع ممثلي الهيئات والمنظمات المختلفة في المجتمع حيث لا يهتم بهم كأفراد ولكن يهتم بإشباع احتياجات الجماعات والهيئات التي يمثلونها وبتحسين العلاقات بينهم فضلاً عن تأكده من صدق تمثيلهم لها[١٩].

٦- ممارس عمليات إدارية:-

بمعنى إعداد البناء الملائم للقيام بالعمليات السابقة:وجود لجان كافية، وجود موظفين أكفاء، توزيع المسؤوليات، تنظيم الإشراف المالي والإداري، تنظيم برنامج للعلاقات العامة.

٧- ممارس عمليات تربوية:

في هذا الدور يقوم المنظم بأعمال التدريب والتثقيف والتوعية سواء للعاملين في الجهاز، أو للعاملين في الهيئات والمنظمات الممثلة في الجهاز، أو في المجتمع المحلي ككل.

٨- ممارس عمليات إنمائية إنشائية:

يتلخص هذا الدور في العمل على إيجاد الموارد المادية والمالية والبشرية والتنظيمية التي تساعد في تحقيق أهداف المجتمع المحلي.

٩- دور الوسيط:-

ويلجأ المنظم الاجتماعي للقيام بهذا الدور في حالتين:

أ- ان يكون سكان المجتمع المحلي على غير دراية بالموارد المختلفة المتاحة في المجتمع، فيقوم بدور الوسيط ليوصلهم إلى مصادر الخدمات الموجودة في المجتمع والتي لا يعرفون كيفية الوصول إليها.

ب- إذا كانت هناك منظمات في المجتمع يرغب السكان في تغيير سياستها ونظمها، أو توسيع نطاق خدماتها، أو رفع مستوى هذه الخدمات فيقوم بدور الوسيط بين هذه المنظمات وبين سكان المجتمع.

١٠- دور المدافع:-

المنظم هنا يقف إلى جانب المستفيدين ويتولى قيادتهم في جهودهم التي تحاول التأثير على بعض المنظمات.

١١- دور المنشط:-

المنظم هنا يصعد من تدخله فهو لا يقف عند مجرد الوساطة أو حتى الدفاع ولكنه يتبنى قضايا سكان المجتمع أو بعض فئاته ويتوحد تماما معهم.

١٢- دور المخطط:-

ومهمة المنظم في هذا الدور جمع الحقائق، وتحليلها وحساب اتجاهاتها في المستقبل وتقدير الاحتياجات، وتحليل البدائل الممكنة لإشباع هذه الاحتياجات، ووضع البرامج لتنفيذ سياسات معينة.

١٣- دور المستشار :-

ويقوم المنظم في هذا الدور بمعاونة من يحتاج مساعدته سواء من حيث حل، أو مواجهة، مشكلة قائمة أو متوقعة. وعلاقة المنظم بالمجتمع هنا – أو بقياداته أو بالمسؤولين عن بعض منظماته – علاقة مؤقتة. فالمستشار ليس له أي سلطة على من تقدم إليه الاستشارة[٢٠].

١٤- دور المحلل :-

وتنحصر مهمة المنظم هنا في جمع البيانات، وتحليلها وتفسيرها. والمخطط يعتمد على دور المحلل ولكن الأخير لا يهدف إلى وضع خطة لبرنامج أو مشروع وإنما يقف عند مستوى التحليل والتفسير والتشخيص.

١٥- دور المنظم للتغيير :-

لا يكفي ان نضع الخطة وإنما المهم وضع هذه الخطة موضع التنفيذ .وان عملية التنفيذ صعبة والاستمرار في تنفيذ الخطة أصعب .لهذا لا يكفي الاعتماد على جهود المتطوعين لتنفيذ الخطة وإنما على المنظم ان يشرف بنفسه على التنفيذ .

١٦- دور المنظم كمدير للبرنامج :-

يتشابه هذا الدور مع دور المنظم للتغيير في تركيزه على تنفيذ خطة معينة، ولكن دور المنظم للتغيير يتحدث عن مستوى مجتمع محلي بكامله أما هنا فالحديث يقتصر على مستوى منظمة تضع برنامجاً معيناً .

١٧- دور المستثير:-

وتتلخص مهمة المنظم في هذا الدور في استثارة سكان المجتمع من خلال استخدام حالات عدم الرضا التي يشعر بها هؤلاء السكن وذلك حتى يصل بهم إلى الإيمان بمساندة التنظيم القائم أو التفكير في انشأ تنظيمات جديدة تعمل على تحسين مستوياتهم وإشباع احتياجاتهم وحل مشكلاتهم[٢١].

الستراتيجيات التي يستخدمها أخصائي تنظيم المجتمع

إن المنظم الاجتماعي يعتمد إستراتيجيات معينة أثناء ممارسته لأدواره المختلفة في تنظيم المجتمع وهذه الستراتيجيات هي:

أولا: إستراتيجية الإقناع:

تفترض هذه الإستراتيجية ما يلي:

أ- انه يسهل اتفاق الجماعات المختلفة في الرأي على أساس القيم التي يعتنقها أفراد هذه الجماعات.

ب- إن التغيير في القيم لا يمكن إحداثه إلا من خلال الإقناع[٢٢]، ويلتزم الأخصائي الاجتماعي بالتكتيكات الخاصة بهذه الإستراتيجية للتأثير على الجماعات المختلفة بالمجتمع لإصدار القرار المراد الوصول إليه، وتتلخص هذه التكتيكات فيما يأتي :-

1- مساعدة الجماعات على الشعور بأن أهدافها الخاصة تتفق والتغير الاجتماعي الذي يمر به المجتمع.

2- توفير الطمأنينة للجماعات لتتأكد بأنها لن تضار أو تحرج في عمل من الأعمال .

3- معاملة الجماعات بطريقة ودية وعلى أساس الثقة الكاملة وتجنب العنف والبعد عن التهديد.

4- الاعتراف بمكانة كل جماعة واحترام شعورها ودوافعها واتجاهاتها وكذلك احترام كل فرد منها.

5- العمل على اختلاط اكبر عدد من أفراد الجماعات ببعضهم وتسهيل الاتصالات بينهم.

6- التزام الصراحة الكاملة في كل ما يتخذ وبالنسبة لكل جماعة من الجماعات[٢٣].

ثانياً :- إستراتيجية الضغط :-

تفترض هذه الستراتيجيات ما يأتي :-

أ- ان الجماعات المختلفة في المجتمع لا تتفق أحياناً في الرأي إلا إذا تأكد لها ان مثل هذا الاتفاق في صالحها، وذلك من خلال موازنة الفوائد التي ستحصل عليها بالإضرار التي ستصيبها .

ب – ان النزاع لا يمكن استبعاده من الحياة الاجتماعية ، وان السلام ما هو إلا تغيير في الصورة التي يبدو عليها النزاع .

ج- ان النزاع لن يخرج عن كونه اختلافاً أو عدم اتفاق في وجهات النظر المختلفة، وفي الاهتمامات والآراء والقيم[٢٤].

وتعتبر عمليات المساومة والمفاوضة التي تتم بين الجماعات المختلفة في المجتمع بتوجيه من الأخصائي الاجتماعي أساس العمل في هذه الإستراتيجية. ويلتزم الأخصائي الاجتماعي بالتكتيكات الخاصة بها للتأثير في تلك الجماعات لإصدار القرارات المراد الوصول إليها. وتتلخص هذه التكتيكات فيما يأتي :-

1- العمل على تقوية الجماعات الضعيفة في المجتمع والتي تعتبر صاحبة المصلحة الحقيقية في التغير لكي لا تعتمد على الجماعات الأقوى والمعارضة للتغيير.

2- إقناع الجماعات المعارضة بأن الجماعات الضعيفة لديها من أسباب القوة ما يساعدها على تحمل أية تضحيات في سبيل تحقيق التغيير المطلوب .

3- التقليل من شأن الامتيازات التي تضطر بعض الجماعات للتنازل عنها في سبيل الاتفاق مع الجماعات الأخرى لتحقيق التغير المطلوب .

4- ممارسة الضغوط المادية والمعنوية على جماعات معينة .

وعلى الرغم من وجود اختلافات أساسية بين كل من الإستراتيجيتين وانفراد كل منهما بتكتيكات خاصة بها، إلا انه يوجد بعض التداخل بينهما، وقد تستخدم إحداهما تكتيك الأخرى .

ويجب على الأخصائي الاجتماعي المشتغل في تنظيم المجتمع ان يكتسب المهارة اللازمة لاستخدام كل من الإستراتيجيتين، ولكنه يجب ان يركز دائماً على إستراتيجية الإقناع لأهميتها من حيث تعليم سكان المجتمع الحياة الديمقراطية السليمة عن طريق الممارسة العملية. وان لا يلجأ المنظم إلى إستراتيجية الضغط إلا بعد الاعتراف بالفشل الكامل نتيجة لاستخدام استرتيجية الإقناع[٢٥].

الفصل الثالث

تنظيم المجتمع وتنميته

علاقة تنمية المجتمع بتنظيم المجتمع :

يكاد يجمع بعض الأخصائيين الاجتماعيين على ان تنمية المجتمع جزء من عمل أخصائي تنظيم المجتمع سواء أكان هذا في مجتمعات حضرية أم ريفية متقدمة أم نامية. وان تنمية وتنظيم المجتمع برغم إنهما ظهرا في مجتمعات متباينة إلا إنهما متشابهين في نواحي كثيرة حيث يمكن النظر إلى تنمية المجتمع من خلال أربع زوايا :-

1- عملية تتضمن تغيرات مقصودة وفيها يتركز التأكيد على ما يحدث للناس اجتماعياً ونفسياً.
2- طريقة أو أسلوب لاستخدام عملية من العلميات لتحقيق هدف.
3- برنامج يتضمن مجموعة من الإجراءات تحقق أنشطة محددة سبق تصميمها أو التخطيط لها .
4- حركة تصبح فيها تنمية المجتمع بداية وأساسا لنظام[٢٦].

ومن جانب أوجه الاختلاف والشبه بين تنمية المجتمع وتنظيم المجتمع، يحدد Arthur Gunham أوجه الاختلاف في الأتي :-

1 – تتعامل تنمية المجتمع مع الحاجات الأساسية وخاصة التي لها مردود اقتصادي أكثر من تنظيم المجتمع التي تهتم أولاً بالجوانب الاجتماعية.

2- تهتم التنمية بإحداث التغيير مباشرة، أما تنظيم المجتمع فيتم ذلك عن طريق إحداث التغيير من خلال المنظمات الاجتماعية.
3 – تمارس تنمية المجتمع على مستوى المجتمع المحلي، بينما تنظيم المجتمع يمارس على عدة مستويات من بينها المجتمع المحلي.
4 – تتم ممارسة تنمية المجتمع بأسلوب ديمقراطي، بينما تنظيم المجتمع يلتزم بذلك إلى حد ما.
5- تشارك كافة التخصصات في برامج تنمية المجتمع – أما طريقة تنظيم المجتمع فهي تمارس من خلال مهنة الخدمة الاجتماعية.
6 – برامج تنمية المجتمع نابعة من المجتمع نفسه – بينما برامج تنظيم المجتمع غالباً ما تكون حكومية.
7 – تتحقق أهداف برامج تنمية المجتمع من خلال استخدام إستراتيجية الوفاق، بينما تنظيم المجتمع يستخدم كل من إستراتيجية الوفاق والصراع[٢٧].

ويمكن الرد على أوجه الاختلاف هذه في ضوء تحديد أوجه التشابه وهي:-

1- طريقة تنظيم المجتمع تهتم بالجوانب الاجتماعية لإحداث التغيير ويتم ذلك من خلال دعم مشروعات ذات عائد اقتصادي.
2- القول بان تنمية المجتمع تحدث بطريقة مباشرة، وتنظيم المجتمع يحدث التغيير من خلال تنظيمات اجتماعية، قول ينقصه الدقة العلمية .
3- ان كافة التخصصات لابد وان تشارك في برامج تنمية المجتمع ولكن لابد من وجود مهنة تحدد مسؤوليتها في ضوء سد الثغرات بين التخصصات المختلفة، وتكاد تنطبق مواصفات المهنة التي تقوم بهذه المسؤولية على الخدمة الاجتماعية .
4- طريقة تنظيم المجتمع إحدى طرق الخدمة الاجتماعية، والتي تستهدف إحداث التغيير بمواصفاتها الإستراتيجية المهنية أو الأسلوب العلمي الذي تستخدمه مهنة الخدمة الاجتماعية للعمل مع المجتمع لإحداث التغيير الاجتماعي المقصود.

5- ان طريقة تنظيم المجتمع كإحدى طرق الخدمة الاجتماعية تعمل وتمارس مسؤوليتها من خلال المعطيات الفلسفية لهذه المهنة، والتي تؤمن بقيمة الإنسان وحقه في تقرير مصيره وان يعيش حياته بالطريقة التي يراها مناسبة، وهذا تعبير على الممارسة الحقيقية للديمقراطية .

6- ان الأدوات المستخدمة في كل من تنمية المجتمع، وتنظيم المجتمع متشابهة أو متطابقة تماماً .

7- ان مبادئ تنظيم المجتمع تتشابه أيضاً مع مبادئ تنمية المجتمع .

8- الادعاء بان تنظيم المجتمع يختص بالمجتمعات الحضرية، وتنمية المجتمع تختص بالمجتمعات الريفية يعتبر أمراً مخالف للحقيقة.

9- معظم التناول لمحتوى طريقة تنظم المجتمع في الوقت الحالي يؤكد على تنمية المجتمع المحلي إحدى مسؤوليات طريقة تنظيم المجتمع ، ولكن تنمية المجتمع بالنسبة لطريقة تنظيم المجتمع تتم من خلال منظور الخدمة الاجتماعية ولذلك كانت هناك بعض الآراء التي ترى ان كل من تنمية المجتمع وتنظيم المجتمع وجهين لعملة واحدة ، ولكن إذا تطلعنا إلى مصطلح التنمية الاجتماعية Social Development فأن الأمر يختلف حيث ان التنمية الاجتماعية اشمل من مصطلح تنظيم المجتمع[٢٨].

مجالات التنمية التي تساهم فيها طريقة تنظيم المجتمع

ان قضية التنمية من أهم قضايا العالم المعاصر وأصبح موضوع التنمية ذو أهمية دولية كبيرة بحيث يعتبر اليوم من أهم قضايا العلاقات الدولية .ومما لاشك فيه ان هناك ارتباطاً قوياً بين تنمية المجتمع وتنظيم المجتمع لدرجة ان هناك من ينظر إليهما كعملية واحدة[٢٩].

وتتميز الدول النامية بمجموعة من سمات التخلف والتي يمثل القضاء عليها هو التحدي الصريح الذي يواجه عملية التنمية .

والأخصائي الاجتماعي الذي يقوم بتطبيق طريقة تنظيم المجتمع في إطار خطة التنمية يمكنه استخدام معلوماته وخبراته ومهاراته وأساليبه التي اكتسبها خلال

إعداده، إذ ان جميعها صالحة للتطبيق في كل من التنمية والتنظيم لدرجة تجعل التفرقة بينهما صعبة وغير ملموسة في بعض الأحيان .

وتتلخص أهم المجالات التي يمكن ان تساهم فيها طريقة تنظيم المجتمع في عملية التنمية فيما يأتي:-

1-التنمية الاقتصادية:-

تعني التنمية الاقتصادية زيادة ملحوظة في الدخل القومي وفي نصيب الفرد منه وتستمر لفترة طويلة قد تمتد إلى جيل أو جيلين وتتخذ خلالها صورة تراكمية، فعلى تنظيم المجتمع ان يؤازر التنمية الاقتصادية ويساهم فيها بقدر تسمح به طريقته العلمية وإمكانياته المهنية .

وتحاول طريقة تنظيم المجتمع ان تعرف الشعب بأهداف الخطة حتى يتحمس لها ويعمل على تحقيقها، متعاونة في ذلك مع الأجهزة السياسة والشعبية. وتؤدي طريقة تنظيم المجتمع هذه الوظيفة على المستوى القومي والمحلي وحتى على مستوى الوحدات كالمصنع والمدرسة، بحيث تجد خطة التنمية التربة الصالحة لنموها ونجاحها على كل المستويات .

2-إزالة العوائق الاجتماعية التي تعرقل التقدم الاقتصادي:-

من المعروف ان بعض العوامل الاجتماعية تعرقل زيادة الإنتاج المادي، وطريقة تنظيم المجتمع قادرة على المساهمة في إزالة هذه العراقيل ليتمكن الاقتصاد القومي من الازدهار .

فمعظم المواطنين يميلون إلى إنفاق كل دخولهم لان مستوى الدخول اقل من مستوى إشباع حاجاتهم، والمنظم الاجتماعي يستطيع ان يقوم ببعض البرامج التي تهدف إلى إقناع سكان المجتمع بالحد من استهلاكهم وتكوين المدخرات[٣٠].

3-القضاء على المشكلات المصاحبة لعمليات التنمية:-

يجب ان تتغير أنظمة المجتمع في تناسق واتزان حتى لا تتغير بعض الأنظمة بمعدل اقل من تغير أنظمة أخرى، فتحدث المشكلات الاجتماعية. ففي المجتمع الحضري تتفكك الروابط الاجتماعية التي تجمع بين الأفراد في الجماعات الأولية الصغيرة كالأسرة، وشعور الفرد بالعزلة مما يؤدي إلى إصابته بالأمراض

النفسية والاجتماعية. ونتيجة التفكك وضعف الروابط تظهر بعض المشكلات الاجتماعية مثل انحراف الأحداث وارتكاب الجرائم.

وفي هذا المجال تلعب طريقة تنظيم المجتمع دوراً هاماً في العمل على حل هذه المشكلات وفقاً لما يأتي:-

أ- إجراء بحوث تساعدها على التنبؤ بحدوث مشكلات ثم وضع خطة لدرء وقوع مثل هذه المشكلات أو التقليل من معدلات وقوعها.

ب- تماشي خطط تنظيم المجتمع الوقائية والعلاجية مع خطط التنمية القومية، وذلك لتوفير الإمكانيات المادية الكافية ولمسايرة خطط تنظيم المجتمع للتغيرات التي تحدث.

ج- تحديد المشكلات الشائعة في المجتمع والعمل على علاجها على المستوى القومي والمحلي مستخدمة في ذلك أساليبها العلمية.

4- تأكيد الحرية الاجتماعية:-

الحرية الاجتماعية تعني تحرير المواطن من كل القيود الاجتماعية التي تعوقه عن ممارسة حقوقه والتزاماته وحريته السياسية، كما أنها تعني تأكيد بعض القيم الهامة لسكان المجتمع، ومن أهمها تأكيد قيمة الإنسان وكرامته والمحافظة عليهما، فالظروف الاجتماعية السيئة التي يعيش فيها الفرد تحول دون المحافظة على كرامته الإنسانية. ومن ثم فالحرية الاجتماعية هدف في حد ذاتها ومن واجب المجتمع ان يعمل على تحقيقها .

وبرامج الرعاية الاجتماعية المنظمة هي التي تكفل تحقيق الحرية الاجتماعية وطريقة تنظيم المجتمع من أهم الوسائل التي تجعل برنامج الرعاية أكثر نجاحاً وفاعلية، إذ تساهم هذه الطريقة في نجاح برامج الرعاية الاجتماعية من خلال عدة طريق أهمها:-

أ- جعل الخدمات الاجتماعية ذات طابع إنتاجي.

ب- تحسين مستوى أداء برامج الرعاية الاجتماعية.

ج- توصيل برامج الرعاية الاجتماعية إلى المواطنين بما يفيدهم والأسلوب الذي يحفظ لهم كرامتهم[٣١].

النتائج:-

من خلال النتائج التي توصل إليها البحث نلاحظ وجود دور كبير للأخصائي الاجتماعي في مجال تنمية وتنظيم المجتمع يكون ذلك من خلال الأتي:-

1- تبين أن للأخصائي الاجتماعي دور في إيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف المجتمع من خلال توفير فرص العمل والتعليم والرعاية الصحية.

2- اتضح أن للأخصائي الاجتماعي دور في مساعدة الناس الذين يعانون من الفقر كي يمارسوا حقوقهم وان يسخروا الموارد وان يتقاسموا المسؤوليات التي تمكنهم من العيش الرضي وتوفير أسباب الراحة لأسرهم ومجتمعاتهم البشرية.

3- ظهر أن للأخصائي الاجتماعي المهارات والإمكانيات في تقديم المعلومات والمشورة للمؤسسات والجماعات في المجتمع وقد يصل الحال إلى تقديم المعلومات و المشورة للسلطات العليا الرسمية في المجتمع من خلال ما يملكه من معلومات في المجالات المختلفة.

4- تبين أن للأخصائي الاجتماعي المقدرة على مساعدة قادة المجتمع والفئات الأخرى فيه لتحديد المشكلات والعمل على حلها كأن يقوم بدراسة التنمية وتخلفها في مدينة معينة في المجتمع ووضع الحلول لها وقد يساهم في جزء من عملية علاج هذه المشكلات من خلال ما يملكه من خبرات وإمكانيات.

التوصيات:-

1- رفد المؤسسات الحكومية بالأخصائيين الاجتماعيين لغرض القيام بالاستشارات والبحوث ذات العلاقة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية في تلك المؤسسات.

2- إنشاء مركز أبحاث في كل محافظة للقيام بالاستشارات والأبحاث المتعلقة بتطوير وتنمية المجتمع ومن مختلف الاختصاصات (الاجتماع، الخدمة الاجتماعية، البيئة، الاقتصاد، الهندسة، الصحة....).

3- سعي وزارة التعليم العالي والبحث العلمي إلى تشجيع الأخصائيين الاجتماعيين في أقسام الاجتماع والخدمة الاجتماعية للقيام بالأبحاث المتعلقة بتنمية وتنظيم المجتمع.

المقترحات:-

1- القيام بأبحاث ميدانية على مستوى العراق حول دور الأخصائي الاجتماعي في مجال التنمية المجتمعية للوقوف على أهمية هذا الدور بشكل اكبر.

2- التعرف على تجارب الدول الأخرى في هذا المجال (عربياً وإقليمياً ودولياً) وصياغة هذه التجارب بما يلائم مجتمعنا العراقي والاستفادا منها.

الهوامش:

(١) دنكن ميشيل: معجم علم الاجتماع،ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الرشيد للنشر، بغداد،1980، ص253.

(2) T. Parsons & E. Shills ،Toward ،A General Theory of Action ،Cambridge ، Harvard University press ، 1952 ، P.190 .

(٣) عبد الباسط عبد المعطي: تحليل اجتماعي للعلاقة بين التعليم والعمل، مجلة التربية، قطر، العدد 109، السنة 23، 1994، ص205 .

(٤) زينب عبد الله محمد: دور البيئة المدرسية في سلوك العنف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، 2005، ص12.

(٥) احمد زكي بدوي: أصول الخدمة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 1974، ص59 .

(٦) إبراهيم بيومي مرعي: اتجاهات الرعاية الاجتماعية ومداخلها المهنية، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، ط1، 1983، ص121.

(7) United Nations، Social Progress Through Economic Development ، U.N. Report، New York، 1956، P.8 .

(٨) احمد زكي بدوي :معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1982 ، ص72 .

(٩) عبد الهادي الجوهري: قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1983، ص74.

(10) Ross، M. Community Organization، Theory & Principle، Harper and Brothers، New York، 1955، P.39 .

(١١) احمد كمال احمد : تنظيم المجتمع ، ج1 ، ط1 ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، 1973 ، ص145 .

(١٢) احمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مصدر سابق ، ص74 .

(١٣) سيد أبو بكر حسنين:طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، مكتبة الانجلو مصرية،القاهرة، ط1 ، 1974، ص455.

(١٤) احمد كمال احمد، وآخرون: طريقة تنظيم وتنمية المجتمع، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، 1970، ص204-205.

(١٥) سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، مصدر سابق، ص456-458.

(١٦) احمد كمال احمد، وآخرون:طريقة تنظيم وتنمية المجتمع، مصدر سابق ، ص205.

(١٧) احمد كمال احمد، وآخرون:طريقة تنظيم وتنمية المجتمع، مصدر سابق ، ص218.

(١٨) احمد مصطفى خاطر: طريقة تنظيم المجتمع ـ مدخل لتنمية المجتمع المحلي- استراتيجيات وادوار المنظم الاجتماعي،المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1984، ص197-200.

(١٩) فوزي بشري احمد: محاضرات تكميلية في تنظيم المجتمع،المعهد العالي للخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، 1985، ص82.

(٢٠) المصدر السابق نفسه ، ص 84 .

(٢١) المصدر السابق نفسه ، ص86 .

(٢٢) المصدر السابق نفسه ، ص77.

(٢٣) سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، مصدر سابق، ص475.

(٢٤) فوزي بشري احمد: محاضرات تكمليه في تنظيم المجتمع ، مصدر سابق ، ص78.

(٢٥) سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية وتنظيم المجتمع، مصدر سابق، ص476.

(٢٦) احمد كمال احمد: تنظيم المجتمع مبادئ وأسس ونظريات، ج1، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، 1970، ص141.

(٢٧) احمد مصطفى خاطر: طريقة تنظيم المجتمع ـ مدخل لتنمية المجتمع المحلي- استراتيجيات وادوار المنظم الاجتماعي، مصدر سابق ، ص62 .

(٢٨) المصدر السابق نفسه، ص65 .

(٢٩) سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية وتنظيم المجتمع، مصدر سابق، ص 531.

(٣٠) المصدر السابق نفسه ، ص 556 .

(٣١) سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، مصدر سابق، ص 562.

المصادر:

١- إبراهيم بيومي مرعي: اتجاهات الرعاية الاجتماعية ومداخلها المهنية، ط1، مكتبة المعارف الحديثة، القاهرة، 1983.
٢- احمد زكي بدوي: أصول الخدمة الاجتماعية، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية،1974.
٣- احمد زكي بدوي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، 1982.
٤- احمد كمال احمد: تنظيم المجتمع، ج1، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1973.
5- ـــ: تنظيم المجتمع مبادئ وأسس ونظريات، ج1، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، 1970.
6- ـــ، وآخرون: طريقة تنظيم وتنمية المجتمع، مكتبة الوعي العربي، القاهرة،1970.
٧- احمد مصطفى خاطر: طريقة تنظيم المجتمع ـ مدخل لتنمية المجتمع المحلي- استراتيجيات وادوار المنظم الاجتماعي،المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1984.
٨- دنكن ميشيل: معجم علم الاجتماع، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الرشيد للنشر، بغداد،1980.
9- زينب عبد الله محمد: دور البيئة المدرسية في سلوك العنف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، 2005.
١٠- سيد أبو بكر حسنين: طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، ط1، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة،1974.
١١- عبد الباسط عبد المعطي: تحليل اجتماعي للعلاقة بين التعليم والعمل، مجلة التربية، قطر، العدد 109، السنة 23، 1994.
١٢- عبد الهادي الجوهري: قاموس علم الاجتماع، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، 1983.
١٣- فوزي بشري احمد: محاضرات تكميلية في تنظيم المجتمع، المعهد العالي للخدمة الاجتماعية،الإسكندرية، 1985.
14- Ross، M. Community Organization، Theory & Principle، Harper and Brothers ، New York، 1955.
15- T. Parsons & E. Shills، Toward، A General Theory of Action Cambridge، Harvard University press، 1952.
16- UnitedNations،Social Progress Through Economic Development ، U.N. Report، New York، 1956.

المسرح وسيلة اتصال لخدمة المجتمع

أ.م.د.ضياء أنور حبش
جامعة تكريت/كلية الآداب/قسم الإعلام

الفصل الأول

الإطار المنهجي

مشكلة البحث والحاجة إليه:

أن وسائل الاتصال قد أثرت بشكل كبير في عمق الحياة البشرية في العصر الحديث بإيصال المعلومات في لحظة وقوعيها وهذه الوسائل قد تطورت بشكل كبير على مختلف أنواعيها إضافة إلى المعلومات و الأخبار و البرامج و الثقافة الأدبية و العلمية و الصحية و غيرها. والمسرح ذو التاريخ العريق رافق مسيرة الإنسان منذ ٢٥٠٠ سنة و هو يقدم معلومات و نصيحة و نقد و تحريض و ترفيه. والحاجة قائمة لهذه الدراسة من خلال أهمية العلاقة بين المسرح و الأتصال بالجماهير وما تتركه من أثر على المتلقي والمجتمع. والمشكلة قائمة مع السؤال التالي :هل المسرح وسلية أتصال لخدمة المجتمع ؟

أهمية البحث: تأتي أهمية البحث من خلال كشف العلاقة بين الاتصال والمسرح والمتلقي ويفيد المهتمين_بالمسرح والإعلام.

هدف البحث: هل المسرح وسيله اتصال تخدم المجتمع ؟

حدود البحث: المسرح العالمي ووسائل الاتصال.

تحديد المصطلحات: الاتصال " يعني انتقال المعلومات أو الأفكار أو الاتجاهات أو العواطف من شخص إلى جماعة أو جماعة إلى شخص أو جماعة أخرى من خلال الرموز "[١].

والباحث يتفق مع هذا التعريف.

الفصل الثاني

الإطـــار النـــظري

المبحث الأول

محطات مهمة في تاريخ المسرح :

المسرحية في ابسط أشكالها نشاط فني قبل أي شي آخر، الفن نشاط أبداعي متعدد الوجوه مارسه الإنسان لإعادة خلق الحياة في مجتمعه بوسائل وأساليب مختلفة، وهو لذلك يعتبر شكلا من أشكال الوعي الاجتماعي، و النشاط الإنساني الذي رافق الإنسان منذ أقدم العصور.

أن الرقص أقدم الوسائل التي كان الناس ينفسون بها عن انفعالاتهم من خلال عاداتهم وطقوسهم وما تفرضه العادات والتقاليد وهم بذلك يقتربون بهذا الرقص أو الفعل البدائي للمسرح وهم بعيدين عن الفعل الدرامي الذي نسميه مسرحية، ومع تطور وتعمق الوعي الديني عند الإنسان ازداد الطابع المسرحي المصاحب لأداء الشعائر الطقسية لذلك يؤكد أكثر الباحثين على المسرحية نشأت وتطورت عن أصل ديني[٢].

إضافة إلى ذالك هناك ممارسات أخرى مارسها الإنسان مثل أعياد الزراعة أثناء فصول السنة وغيرها ونجد ذلك عند أقدم وأهم الحضارات القديمة وهي في مصر من خلال عبادة (اوزيرس) وفي العراق من خلال عبادة (تموز) وعند الإغريق لعبادة (ديونيسيوس) والذي تطور واستمر من دون الآخرين هذا الرقص الإغريقي إلى المسرح الإغريقي الذي بدأ بشكل بسيط معتمد على المجموعة(الجوقات) والممثل الواحد الذي تطور إلى اثنين ثم ثلاثة ممثلين مما تبع ذلك اختلاف في كتابة النص المسرحي بحيث" كانت المسرحية من أول عهد اليونانيين بها إلى أيام الملهاة ألحديثة تمتزج بالدين وجزءا من احتفال رسمي مقدس "[٣].

ويعود الفضل إلى الممثل الأول (شبس) لظهور التراجيديا الذي قام بالمبادرة الأولى للتمثيل على مرتفع بين الجمهور وهو يحيط به، إضافة إلى ثلاثة أسماء

مهمة في مجال التراجيديا وهم :(اسخيلوس وسوفكلس ويوريبيدس) والتراجيديا هي احد ركني الدراما الأساسيين والثاني هي الكوميديا ويطلها الكاتب (ارستوفانيس)وهما نوع من أنواع الأدب وجد لغرض أن يمثل على خشبة المسرح، ويرتكز على ثلاثة عناصر أساسية هي موضوع ومجموعة ممثلين وعاملين وجمهور يشاهد هذا العمل الفني ويستلم الرسالة المراد إيصالها له في خلال الموضوع بواسطة خشبة مسرح تمتلك تقنيات مساعده على إيصال الدلالات الكثيرة إلى المتلقي.

وتقوم الدراما الإغريقية على الصراع القائم بين طبقات المجتمع أو بين الشعوب أو الأمم إضافة إلى الصراع الحياتي أو المصيري لمجموع الشخصيات التي تؤلف كفتي الصراع " أن التراجيديا بعد أن نشأت أول الأمر مرتجلة على أيدي ناظمي الديثرامبوس، وأخذت تتقدم قليلا قليلا من خلال اكتشاف المزيد من عناصرها الأساسية واستعمالها إلى أن أخذت شكلها النهائي "[٤].

وأول كتابها الكبار هو اسخيلوس الذي كتب خلال الربع الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، وكتب ما بين ٧٢-٩٠ عمل مسرحي لم يصل منها إلا سبع مسرحيات فقط، ويعتبر اسخيلوس مكتشف الصراع وكيفية تصويره في أعماله عندما ادخل الممثل الثاني[٥] كذلك انتقل بالمسرحية في شكلها البدائي الكورالي البحث إلى بداية طريق التراجيديا وطور في ملابس الشخصيات والأدوات المسرحية للمنظر المسرحي ومن أعماله : مسرحية الفرس ومسرحية الضارعات.

ويعود الفضل إلى سوفوكليس (٤٩٧-٤٠٥ ق.م)الذي ادخل الممثل الثالث إلى أعماله وخاصة الثلاثية الاخيره الاوديسية.وبالمقابل قد قلل من عدد الجوقة أو المجموعة وزاد الاهتمام بالقيمة الدرامية والصيغة المسرحية والابتعاد عن النغمة الدينية والاعتناء بالشخصية الإنسانية ومشاكلها وصراعها من اجل كسب حقوقها ومن أعماله : اوديب ملكا، والكترا، وجاكس وغيرها. والثالث هو يوريبدس (٤٨٥-٤٠٦ ق.م) حيث تضاءل دور الجوقة بشكل كبير وزاد الاهتمام بالملامح الفردية للشخصية، وازداد الاهتمام بالمشاكل الحياتية والاجتماعية وطرح مواضيع اجتماعية ومنها

المشاكل ألنسائية البحتة ومن أعماله : ميديا، النساء الطروادیات، فجينيا في اوليس وغيرها.

أما الجزء الثاني وهي الكوميديا الإغريقية التي جاءت باسم مؤلفها ارستوفانيس (٤٤٨-٣٨٥ ق.م)، ومن المعروف أنها نشأت عن طريق الارتجال وبعدها تطورت وأصبحت لا تختلف عن التراجيديا بشيء من ناحية بنائها وسماتها. أما موضوعاتها فكانت سياسية تتعرض لشخصيات مهمة ومعروفة بالمجتمع بالنقد والتوجه والاستهزاء لتقويمهم لخدمة المجتمع وخدمة الفرد الإغريقي[٦]. ومن مسرحياته هي الضفادع والزنابير.

واستمر الحال في العصر الروماني واستمرت بناية المسرح التي حصل عليها التطور والفخامة وضخامة الأعمال المسرحية المقدمة على خشبة المسرح وهي البداية لتغير اتجاه المسرح الديني إلى المسرح الدنيوي وما تم مناقشته أمور حياتيه بسيطة بحته وساذجة أخذت بالتدني بالمسرح الروماني.

وقد ظهر كتاب أمثال هوراس (٦٥ -٨ ق.م) و سينيكا (٤ ق.م – ٦٥ م) الذي يعود الفضل لهم بأعاده المسرح الروماني للحياة من خلال أعمالهم الرصينة[٧].

بعد ذلك انتكس المسرح ولم يصل إلى ما وصل إليه الكتاب الأربعة في مجال التراجيديا والكوميديا إضافة إلى ظهور الديانة المسيحية التي حرمت المسرح وحاربته، واقتصر على بعض النشاطات الساذجة جدا ذات الموضوعات التافهة وامتاز بالخلاعة والكلام البذيء والغير مقبول مما ساعد على محاربته. ولكن المسرح عاد واستمر بشكل بسيط لسببين هما :حاجة المجتمع لهذا الفن والطاقات والمواهب الفنية لدى الإنسان وحاجته لعرضها.لذلك وعت الكنيسة واستفادت من هاتين النقطتين لاستخدام المسرح في خدمة الكنيسة وما تروجه من أفكار للدين الجديد بين الناس من خلال المسرحيات التي تسمى (الأسرار والمعجزات)التي قدمتها الكنيسة بواسطة قساوستها ورجالها وبنايتيها وبقية متطلبات العرض المسرحي من أدوات وإكسسوارات وشموع وثريات[٨] وهنا نقف عند محطة مهمة وهي انطلاق المسرح من كنف الكنيسة إلى خارجها بعد ضاق ذرعا بتعاليمها ووصاياها ونصوصيها التي تتحدث عن حياة

السيد المسيح (ع) وأصحابه والجنة والنار، إضافة إلى اكتشاف الإرث الحضاري للثقافة اليونانية والرومانية وظهور العقول الجامعية، فمن أوائل المبادرات التي ظهرت تقليد للمسرح اليوناني والروماني في ايطاليا في حدود عام (١٥١٥ م) وهي مسرحيات تقليد لسينيكا وهوراس وغيرهم[٩]. وفي انجلترا والتي سميت بالدراما الاليزابيثيه وهي مسرحيات تاريخيه كتبت على يد الكتاب جون ليلي و بن جونسن ومارلو وتوماس كيد وان هذه الفترة خلقت تقاليد ما قبل وليم شكسبير وهي أعمال اعتمدوا فيها القوانين الكلاسيكية وقوه المواضيع التي تم طرحها ومناقشتها وهي الأساس لظهور كاتب مثل وليم شكسبير الذي طور شعره ونثره لغرض الوصول إلى الهدف السامي لمسرحياته إضافة إلى الرقي في ذائقة المشاهد لمسرحياته وهي تمتلك كل المواصفات والأسس والحبكة والموضوع وغيرها[١٠].

وشكسبير يمتلك موهبة فذة في اختيار الموضوعات التي طرحها وبناء الشخصيات والتحكم بالكلمات على لسان شخصياته الكبيرة، لذا كان يعد شكسبير خارج عصره أو الزمن الذي عاشه لهذه الموهبة.وقد ألف في المجالات كافة التراجيديا والكوميديا والمسرحيات التاريخية، وعالج الشخصيات المريضة نفسياً قبل ظهور علم النفس مما يدل على عبقريته فقد "جمع بين القوة الدافعة لعصر النهضة والتي تجمع بين المعرفة والتعطش للقوه والفكرة البروتستانتية للمواطن الصالح "[١١] لذلك نرى البناء الخلقي للدراما عنده يعتمد على الإيمان الذي لا حد له بمقدره الإنسان على العمل والمعرفة والشعور، ومن أهم مسرحياته : الملك لير، ماكبث، عطيل، أليلة الثانية عشر، هنري الرابع.

وتزامن ظهور المسرح بعد ذلك في اسبانيا وفرنسا ففي اسبانيا ظهر على أيدي كتاب كبار أمثال بلوب دي فيجا (١٥٦٢ -١٦٣٥) الذي ألف المئات من المسرحيات وقد أسس تقاليد المسرح الاسباني وكتب في الدراما البطولية.والكاتب كالدرون (١٦٠٠-١٦٨١) وكان غزير الإنتاج مثل سابقه وكانت مسرحياته مبنية على أساس الحرفية والابتكار وتعالج موضوعات مسائل الشرف والعلاقات الاجتماعية باتجاه نحو الدين والتقاليد الاجتماعية[١٢].

للمسرح الفرنسي ثلاث أعمدة مهمة في مجال التأليف المسرحي وهم : كورني وراسين وفي مجال الكوميديا موليير.وبيتر كورني (١٦٠٦-١٦٨٤) أول الكتاب وظهوره حدثاً كبيرًا في مجال المسرح وكونه أول من أرسى قواعد المأساة في القرن السابع عشر واغلب مسرحياته مأخوذة عن الأدب اليوناني، وقد أصابت مسرحياته النجاح الكبير لدى الجمهور بروعة أسلوبه الجديد، عاش حياه نجاح وإنتاج لكنه في نهاية حياته واجهة المشاكل وقلة الإنتاج، ومن أهم أعماله السيد، هوراس، سنا، بوليوكت، هرقل، اوديب. وجان راسين (١٦٣٩-١٦٩٩) الذي تميز بتثبيت أسس وعناصر كتابه المسرحية واختلف عن خلفه في أن جعل شخصياته تتحدث في الزمن الذي يعيشونه مما جعل الجمهور يحب مسرحياته لأنها تعالج معاناتهم بكل أشكالها إضافة إلى أن راسين تعلم وتثقف في طبيعة جميلة وبيئة راقية مما ساعد على بناء شخصياته مع رهافة حسه وتحسسه للجمال، وهو شغوف بالمسرح اليوناني وبالذات الكاتب سوفوكليس وبقية الكتاب الآخرين. ومن أهم أعماله : افجيني، متريدات، اندروماك، بايزيد، فيدر. وفي مجال الكوميديا كان موليير (١٦٢١-١٦٧٣) واسمه الحقيقي هو جان باتست بوكلان.ويعود الفضل لموليير بالخروج بالمسرح الكوميدي عن الإطار القديم إلى أسلوب جديد من خلال طرح موضوعات هادفة وذات مغزى اجتماعي، لذلك يعد موليير من ابرز من كتب في مجاله وهي المسرحيات الكوميدية وكان لمكان ولادته وتربيته الأولى والأثر الكبير في بناء شخصيته الفنية وما تركه هذا المكان المزدحم وهو سوق شعبي الذي عاش فيه وما انطبع في ذاكرته والتي عكسها في أعماله المسرحية من موضوعات تم مشاهدتها ومناقشتها وكانت محببة عند مشاهديه، إضافة إلى دراسته الواسعة للعلوم بتأثير والده الذي كان يعمل في البلاط الملكي على أساس تهيئة موليير لنفس العمل ولقاء الملك والأمراء والنبلاء والتعامل معهم والذي فتح أمام موليير أبواب جديدة في الثقافة والعلوم والفنون والفلسفة وبالتالي انعكس بشكل ايجابي على أعماله وفنه[١٣]. ومن أعماله : مدرسه الأزواج، طرطوف، دون جوان، عدو المجتمع.

بعد هذه الأسماء اللامعة في مجال العمل المسرحي أصاب أوربا فترة انتكاس خلال القرن الثامن عشر في انكلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وغيرها، ولكن يجب أن لاننسى ما قدمه بعض الكتاب مثل لسنج وشلر في ألمانيا وفولتير وبومارشيه في فرنسا والغيري جولديني في ايطاليا وصمويل فوت وجولد سمث في انكلترا وهم من مهد الطريق لظهور أسماء كبيره في مجال العمل المسرحي والتأليف وكان ذلك في حدود القرن التاسع عشر حيث ظهرت الرومانتيكية كرد فعل على الكلاسيكية الجديدة، وأول ما ظهرت في الدول الاسكندينافية على يد جوته وشلر وانتشرت في انكلترا وايطاليا وروسيا وغيرها[١٤].

ظهرت الطبيعية كنتاج لمفهوم جديد لعلاقة الإنسان بالكون وللمكان الذي يمثله في المجتمع واستجابة لتغيرات حياتيه واجتماعيه وصناعية وحتى في الإحساس واللغة لغرض الوصول إلى وهم الطبيعة وتطبيقها بشكل حرفي على خشبة المسرح. فكانت المسرحية مشابه لجزء مقتطع من الحياة الإنسانية بكل شيء، وهذا دفع بالكثير من المهتمين بالمسرح للخروج من هذا الإطار الضيق وهي الطبيعة وشروطها إلى الأوسع منها وكان في الواقعية التي أخذت الطبيعية ونسقتها بشكل مناسب لغرض تقديمها على خشبة المسرح.

ولكن الاستمرار على هذا الحال من المحال فوجد العاملين بالمسرح أساليب درامية جديدة أخرى بالتأليف والإخراج وحتى التقنيات المسرحية بحيث تم تقديم العمل المسرحي باتجاه رمزي وهذا الاتجاه جاء مع كل الاتجاهات الأخرى التي جاءت بعدها مثل التعبيرية والتجريدية.

ومن الامثلة لمحطات مهمة من كتاب المسرح العالمي في تلك الفترة واللذين ألفوا ضمن قواعد وأساليب الاتجاهات المسرحية هنرك ابسن الذي بدا الإنتاج بعد عام ١٨٥٠ وجاءت مسرحياته التي يعمل على أخراجها متقلبة بين الطبيعية والواقعية والرمزية وأعماله هي :براند وأعمدة المجتمع وهيداجابلر والأشباح و أيولف الصغير وغيرها.فمن خلال أعماله السابقة نجد ابسن قد طور تجربته كفنان وتطويره للشكل الدرامي، وهذا واضح في تسلسل كتابته للأعمال وكما في مسرحيته (البطة البرية)وهي

محاولة للتوصل إلى وحدة جديدة في الشكل وتطوير مفهوم الرمز في نصوصه كما في مسرحية (عندما نستيقظ نحن الموتى) وهو بذلك يحاول الوصول إلى شكل درامي مكتمل(١٥).

وظهر أوجست ستريند برج الذي ألف في الرمزية وتجاوزها إلى التعبيرية حيث بدا يكتب في عقده الثاني من عمره حيث استوحى من التاريخ أول أعماله وكان ذلك عام ١٨٧٠ وبعدها حاول التجديد في الشكل الدرامي والمسرحي لأعماله المسرحية مثل (الطريق إلى دمشق) وسوناتا والشبح وغيرها، لذلك جاءت أشكاله الدرامية مخالفة لما موجود في زمانه وكان رافضا للتفسيرات الزائفة التي تؤكد على تجربة الكاتب وعليه قبول هذه التجربة بما فيها من غرابه وقوه على السواء(١٦).

وفي روسيا ظهر كتاب أمثال تشيكوف وغوركي وتشيكوف كتب في الطبيعية وتحول إلى الواقعية في حدود القرن التاسع عشر ولكنه يعتبر من المؤسسين للرمزية ويعود الفضل في مهارته في ألكتابة إلى الكشف عن الشخصية من خلال حواراتها الطويلة كما في مسرحية طائر البحر وغيرها. والكاتب غوركي الذي ألف بما يمس العلاقات الاجتماعية ومعالجة أوضاع الطبقة المسحوقة من المجتمع كما في مسرحية الحضيض(١٧).

وفي انكلترا ظهر الكاتب الساخر برناردشو الذي تميز بقدرته على السخرية والفكاهة ومهارته في معالجة المسائل الجدلية والكاريكاتيرية، وله أعمال منها (العودة إلى متوشالح) و (القديسة جان) و (تلميذ الشيطان) و(بيت القلوب المحطمة) وغيرها... وشو صحفي ثوري يحرص على. الإصلاح السياسي والأخلاقي والفني والديني وتمثل في دعوته المثل والتقاليد الاجتماعية.

وفي ألمانيا ظهر صاحب المسرح الملحمي برتولت برخت الذي يقال عنه انه صريح وخفي في آن واحد وهو بسيط ومعقد معا، أشاد كثيرا بالماركسية، وهو لاينتمي إلى المسرح الأرسطي الذي يتميز بآثاره الشفقة والرحمة للوصول إلى التطهير بل يؤمن بالوعظ الاحتجاجي والإقناع وهو باحث عن المثل الإنسانية والقيم الخيرة عند

الإنسان وهذا واضح في أعماله مثل أوبرا القروش الثلاثة ودائرة الطباشير القوقازية والأم شجاعة وغيرها.

وهناك أسماء كثيرة ظهرت هنا وهناك في أوربا وأميركا وحتى العالم العربي في حدود القرن الماضي وكل منهم كتب حسب توجهه وانتماءه، ورافق ذلك ثورة على قيم المسرح القديم وما به من شروط وقواعد تم كسرها بواسطة المخرجين المسرحيين الذي بدأ دورهم في العملية المسرحية بداية القرن التاسع عشر وأصبحوا مؤثرين في العمل الفني كون المخرج هو الذي يقوُم مجموعة العمل الفني بعد استلام النص المسرحي وهو مسؤول عن كل صغيرة وكبيرة عن أقامة بنية العرض المسرحي بعد أن كان نصاً مكتوب. أمثال أبيا وكوردن كريج و ماير هولد.وهذا النشاط السابق للمخرجين فرز تجارب كثيرة في مجال تقديم العرض المسرحي وخاصة بعد العقد الخامس من القرن الماضي تقريبا فأصبح الفنان المسرحي" يخاطب وجداناً جديداً وان يعكس بصدق كل ما في هذا الوجدان من تعقيد وثراء وأحياناً تضارب وتسارع " (١٨). من هذه التجارب في المسرح تجربة المسرح الفقير للمخرج البولندي كروتوفسكي والذي أكد على الممثل فقط والذي يعوض عن بقية العناصر المسرحية الأخرى بحركاته الجسدية لذلك مكان العرض كان أمامه مفتوح في اختياره مع ابسط الشروط الفنية لأنه خالي من التقنيات وهذا المسرح لا يحتاج " ألا للتعبير الجسدي والصوتي الذي يقوم به ممثلون " (١٩).

والمخرج المعروف أليا كازان الذي يؤكد في أعماله على الارتجال في مسرحيته أثناء التمارين وكذلك العرض المسرحي وهو يرجو من الممثل أن يكتشف الشخصية التي يمثلها والتعرف عليها وعلى سلوكها لغرض وصولها إلى المتلقي. والمخرج ارتو صاحب مسرح القسوة الذي نادى بالشكل على حساب الكلمات بوسائل مثل الموسيقى والرقص والفنون التشكيلية وغيرها. وتجارب المسرح البيئي الذي هو دائم البحث عن بيئات جديدة واكتشاف الشيء الجديد الذي يجذب الجمهور لمشاهدة عروضه والاستفادة منها وتجارب المسرح المفتوح الذي يعتمد على الممثل بأرتجال

الحوار وهو يناقش الأمور السياسية التي يعاني منها الفرد وعروضه دائما خارج مسرح العلبة.

وطرق المسرح أبواب الاتجاهات الأدبية والتشكيلية من الكلاسيكية إلى الطبيعية والواقعية وبعدها جاءت الرمزية. ومن بداية القرن العشرين وظهور الآلة وبداية الحروب الكونية أخذت أفكار الفنان والمبدع تدعو إلى الثورة على واقعه تنادي بتحرير الإنسان من الظلم الذي وقع عليه ويخلصون الإنسان من مشاكله التي هي قد " تتخذ شكلا دينيا أو اجتماعيا أو فلسفيا أو سياسياً "[٢٠] وكان واضحاً في الاتجاهات التعبيرية والتجريد والسريالية التي أرادت القضاء على الإرث الحضاري القديم وخلق قيم جديدة وأكد أن ذلك يدخل ضمن سعادة الإنسان.

وفي العالم العربي يمكن القول بأن العرب قد عرفت أشكالا مختلفة من النشاط المسرحي قبل ظهوره نهاية القرن التاسع عشر. ولكن كل هذا النشاط لم يتطور بالشكل المطلوب للدراما بسبب القيود الاجتماعية التي فرضها الدين الإسلامي إضافة إلى حياة البداوة التي عاشتها الشعوب العربية.ومن أشهر هذه النشاطات هي خيال الظل الذي يعتمد السخرية والضحك وما يسمى بالحكاءون الذين يعبرون عن مشاكل الناس ومعالجتها وتحويلها إلى مشاهد هزلية. وفي زمن الخليفة المتوكل (ألدولة العباسية) ظهرت جماعه تسمى (السماجة) وهم مقلدون للناس بمظاهر مضحكة و" لم يتخل المتوكل عن حبه لتمثيل السماجة، وإنما صنع لنفسه مقصورة يرى منها العرض عن بعد، أي انه بنى مسرحا بدائياً "[٢١] وهذا النشاط ظهر في مصر ودول المغرب العربي. والبداية الحقيقية للمسرح كانت عام ١٨٨٤ عندما عاد مارون النقاش بتجربة التأليف المسرحي من فرنسا وقدمها في لبنان بشكل مسرحي يمتلك شروط العرض المسرحي، والرائد المسرحي احمد أبو خليل القباني الذي استفاد من القصص الشعبية التي كانت تقص بالمقاهي، وانتشر بهذا الشكل بين الدول العربية مع الفارق البسيط فيما بينهم. وتؤكد المصادر أن عقد الخمسينات كان ألانطلاقة الصحيحة للمسرح بعد تجارب بسيطة قبل هذا التاريخ. ولكن عودة الدارسين بالخارج في دول أوربا وأميركا إلى أقطارهم ساعد على تركيز أسس الدراما بشكل صحيح، ففي المغرب ظهرت

تجارب قام بها الطيب ألصديقي وهي تجارب شبيهه بما قدم في أميركا وأوربا أضافه إلى المسرح التقليدي. وفي مصر هناك الكثير من المبدعين على كل الاصعده في التأليف والإخراج والتمثيل والنقد وقربهم من دول أوربا وأقامه المهرجانات والتجارب المسرحية، وكذلك في بلاد الشام ودول الخليج.و في العراق فكان عقد الخمسينات من القرن الماضي هي الانطلاقة الصحيحة للمسرح العراقي بعد عودة الدارسين من الخارج وتأسيس أكثر من فرقة مسرحية قدمت الكثير من المواضيع المحملة بالأفكار الاجتماعية والسياسية ومحاربة المحتل وغيرها، وكان هناك الكثير من التجارب ألحديثة والمشاركة بالمهرجانات خارج القطر أضافة إلى المسرح التقليدي[٢٢].

المبحث الثاني

وسائل الإعلام

التلفزيون وخصائصه:

أن للتلفاز مزايا وخصائص لا تتوفر لغيره من وسائل الاتصال و هذا ما دفع الجميع لاستخدامه على نطاق واسع لتحقيق أهداف وغايات الناجحة وتزايد هذا الاستخدام تبعا لتطور آليات استخدامه وسعة انتشاره ولاسيما بعد أن أصبح اجتياز الحدود في متناول اليد وهذا ما يجعلنا نقول أن العالم أصبح ليس قرية صغيرة بل شاشة صغيرة. أن أهمية التلفاز الذي يتمتع بهذه المزايا ليس بوصفه " وسيلة عادية من وسائل الإعلام وإنما هو أهم الوسائل التي اخترعها الإنسان على الأرض "[٢٣] وان قدرته على الوصول إلى قطاعات واسعة من الجماهير لا توفرها أي وسيلة أخرى تعد إحدى المميزات التي تيسر أثره في نقل المضامين وتحدد عناصر القوة التي تسهل مهمته في نقل الأفكار والخبرات من خلال انه يعد من الوسائل الاتصالية الأساسية للمشاهد في تلقي الثقافة من خلال ما يوفره من مزايا اللون والحركة والصورة والتقريب والتحريك للأشياء الثابتة والدراما وغيرها. ويمتلك القدرة على تحقيق السبق الصحفي ونقل الأحداث لحظة وقوعها وهو قادر على التأثير بالمتلقي بحكم واقعية عملية التغطية الإخبارية التي يمارسها بفضل الصورة التي تعبر عن الأحداث

بمصداقية. وقدرته على مخاطبة مختلف فئات وشرائح المجتمع بجميع مستوياتها الثقافية والوصول إلى مناطق جغرافية نائية بفضل التطور التقني. ويمتلك فعالية عالية لها اثر في نفوس المتلقين لدرجة اختلاط الأمور عند بعضها وعدم قدرتهم على التميز بين الواقع والخيال فيعد في هذا " وسيلة مهمة من وسائل الإقناع والوصول إلى الأفراد كذلك يتمتع بقدره عالية على جمع أفراد الآسرة حول شاشته ليشعروا بدفء الحياة المنزلية"[٢٤]. وجمع أبناء الشعب الواحد وخلق أحساس بالمسؤولية لديهم إزاء الأعمال التي تقوم بها الدولة ويؤدي إلى صدور ردود فعل قوية ضد النظام في حالة سوء استخدام السلطة، ويعمق شعور الفرد بالانتماء للوطن وخلق أحساس لدى المتلقي بالمشاركة المباشرة بالعملية السياسية حين يتابع الناس نشاطات المسئولين من شاشته ويستمعون إلى احاديثم من الفقرات الإخبارية[٢٥] وتجسيد المعاني بفضل إمكانياته في "الاستعانة بكل العناصر السمعية والبصرية والرمزية واللفظية فضلا عن سهولة التعرض له لأنه لا يحتاج إلى مهارات "[٢٦]. فالتلفاز بوصفه جهاز إخباريا ينفرد بميزة الواقعية إذ انه يقدم لنا الأحداث والوقائع في منازلنا بصورة متكاملة اقرب إلى الواقع إذ أن الصوت والصورة عاملان حيويان يؤثران تأثير هام في حياة الأفراد اليومية والعادية ويتصلان بالانفعالات المختلفة لكل فرد ما دام يستطيع السمع والأبصار، إذ أن الصورة من أحسن الوسائل المقنعة فإذا اقترن الخبر الإذاعي برؤيته على الشاشة الصغيرة مصورا في موقعه فان ذلك ادعى إلى تصديقه فالوسائل المرئية الإخبارية لها أثرها وفاعليتها إذ تستحوذ على الاهتمام الكامل للمشاهدين وهو بذلك يشكل قوالب جديدة أو الجمع بين قالبين أو أكثر لإيجاد شكل جديد وقدرة وإمكانية اكبر على التأثير بالمشاهدين وإيصال المعلومة إليهم وهو الهدف الأكبر[٢٧]. ويلعب التلفزيون دورا أساسيا في بناء النسيج السياسي للديمقراطية لانتشاره ومنه يعبر القادة السياسيون عن وجهات نظرهم ويلتمسون المساندة لسياستهم وبالمقابل ينقل ما يفكر فيه الناس إلى السياسي ولذلك نرى إمكانية هذه الخدمة للتطور العلمي الكبير. ويقوم بتقديم خدمة أخرى في منازل الناس بحيث يغنيهم عن الذهاب إلى أماكن أخرى قد تكلفهم جهدًا ومالاً أو لايقدرون الوصول إليها لذلك " فالتلفاز وسيله تيسير الإعلام للناس من

دون مشقة "[٢٨] فهو يقوم بنقل المباريات والاحتفالات والمظاهرات والفعاليات وحتى " خبرات الأشخاص والحياة في أعماق البحار وفوق قمم الجبال بل وحتى على سطح القمر "[٢٩].

مميزات الصحافة كوسيلة اتصال :

للصحافة في كل بلدان العالم وظائف أساسية منها تقديم المعلومات والأفكار الجديدة عن الأحداث أو القضايا أو المشاكل التي تشغل الرأي العام وتفسير الأخبار اليومية والتعليق عليها بما يوضح أبعادها وجوانبها المختلفة. كذلك التثقيف عن طريق نشر المعارف الإنسانية المختلفة التي تضيف إلى القاريء أبعاد جديدة حول تلك المواضيع والصحافة تقوم بالتوعية السياسية و سياسة الحكومة ومواقفها المختلفة من قضايا المجتمع ونشر الأفكار والفلسفات التي تدافع عنها ضد خصومها فهي تعبئ الجماهير لخدمة نظام سياسي أو اجتماعي والمساهمة في التنمية الوطنية وتكوين الرأي العام في المجتمع والتأثير في اتجاهاته وتقوم بالدفاع عن الأديان والمقدسات والقيم والمبادئ ضد دعوات الإلحاد وغيرها إضافة إلى التسلية والإمتاع لتخفيف العبء عن النفوس. أن الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى أصبحت منبرًا يعبر من خلالها الناس عن آرائهم ومصالحهم وشكواهم بصفحات خاصة تؤدي إلى مد جسور الثقة بين الجماهير والسلطة من جهة وبين الجماهير والصحافة من جهة أخرى لان كافة الدساتير في بلدان العالم تنص على حق الفرد في التعبير عن رأيه فعلى وسائل الإعلام بما فيها الصحافة إن توسع دائرة مسؤولية الفرد في جميع القرارات من خلال ما تنشره حول مختلف القضايا التي تهم الجمهور وان ذلك يؤدي إلى أثارة حماس الناس للمشاركة في الحياة العامة و يدفعهم للتفكير في إيجاد الحلول السليمة لمشاكلهم العامة[٣٠]. أن من أهم واجبات الصحافة أمام المجتمع هو تقديم المعلومات بنزاهة وصدق حول القضايا المتعلقة بالصالح العام حتى يستطيع الجمهور الحكم على القضايا التي تهمهم ويستطيع مراقبة أنشطة الحكومة وأعمالها و " ينتقدها نقدًا بناءاً إذ إن الصحافة هي التي تمثل الجمهور "[٣١]. أن النقد والبناء يعد أساسا من أسس

الصحافة الجادة إذ تقوم بدور المفتش العام وتكشف العيوب والانحرافات المختلفة من خلال مراقبتها لإعمال المؤسسات والدوائر المختلفة، فان الخدمة التي تقدمها الصحافة للجمهور هي خدمة جوهرية للفرد والمجتمع[٣٢]. وعلى الصحفي أن يلتزم بشرف المهنة التي تقوم على أسس وقيم اجتماعية وإنسانية واضحة مستمده من مصالح الجماهير وحقائق المجتمع فيفسر الأحداث من دون أي تحيز قد ينجم عن مصالحهَ الخاصة أو سوء الفهم أو انعدام الوعي لذلك يتضح دور الصحافة لدى الناس سلبا أو إيجابا توجيها أو أفسادا فان تأثيرها على الرأي العام سلاح ذو حدين ومن هنا تتضح خطورة الصحافة فهي تتمثل بأنها " وسيلة من وسائل الرأي العام بما تنشره من أخبار وآراء وتوجيه وإرشاد وفي الوقت نفسه هي وسيلة من وسائل التعبير عن الرأي العام والمرآة الصادقة التي ينبغي أن تعكس ما في المجتمع "[٣٣]. فالجريدة هي خدمة وليست سلعة كونها تقدم المعلومات في مجتمع تزداد فيه تعقيد الروابط بين الفرد والجماعة نتيجة لتعقد ظروف الحياة. فمسؤولية الصحافة هي كشف الفساد ومعالجة المشاكل إضافة إلى المراقبة من اجل حماية المجتمع والدفاع عن مصالحة وتبني أسلوب الرقابة الجماهيرية الذي يساعد على رصد ومتابعة حالات الفساد فضلاً عن انه يعمل على توجيه الحس العام لدى الفرد والعاملين بأجهزة الدولة بصورة خاصة ضد ممارسات الفساد الإداري من خلال عرض تشخيصات ميدانية لأسباب هذا الفساد[٣٤].

مميزات الاذاعه كوسيلة اتصال :

يمكن وصف هذه المميزات بأن المستمع يصنع الصورة فلا توجد وسيلة من وسائل الاتصال تداني الراديو في صياغة الصورة لدى المستمع فهي وسيلة عمياء كونه يعتمد في التلقي على أذن المستمع فقط إلا انه وسيلة قادرة على أثارة خياله ففي اللحظة التي يخرج فيها الصوت من مكبر صوت جهاز الاستقبال يبدأ المستمع على الفور بشكل تلقائي في تحويل ما يسمعه إلى صورة يكونها في خياله وبذلك " تكون صورا أصيلة يصنعها كل مستمع على ذوقه ووفق ما يهوى ويحب"[٣٥] ففي التلفاز مثلاً تكون الصورة محددة بحجم الشاشة ومساحتها وعمقها ومكوناتها ماثلة أمام عين المشاهد قابلة للنقد والتقييم ومعروضة للرفض أو القبول فهي من صنع مجموعة من العاملين يعتريها بالضرورة النقص وعدم الكمال على العكس من ذلك في الراديو حيث يقوم المستمع بنفسه بصنع الصورة التي يرضى عنها والتي يمكن أن نطلق عليها الصورة الكاملة لذلك " فأن من يكتب في الراديو عليه أن يختار الكلمات الموحية بالصورة "[٣٦] إذ لايبتعد المتحدث في الراديو عن أذن المستمع ألا بالمسافة بين فمه والمايكروفون بعكس التلفاز حيث تكون هناك مسافة تفصل بين المرئيات والمشاهد. وتعني هذه الخاصية بالنسبة للراديو إنما يخرج منه يدخل مباشرة إلى ذهن المستمع دون عوائق كما تعني أيضاً إن مايكروفون الاذاعه ليس نظام للخطاب العام وإنما هو وسيلة للحديث مباشرة إلى المستمع الفرد والإذاعة تمتاز ببساطة الإنتاج والتشغيل وقله الكلفة فهي تعتمد على مذيع ومايكروفون وتمويل بسيط لنصبها وتشغيلها عكس الوسائل الأخرى التي تحتاج إلى مجموعة عاملين وكلف عالية. وهذا ما ينطبق على الجمهور الذي يرى سهولة استقبال البث الإذاعي وقلة كلفته بالنسبة له. تمتاز الاذاعة بالتوقيتات الصارمة التي يحتم على المتلقي التواجد بقرب المذياع والاستماع بشكل جيد لان السمع هو الأداة الوحيدة لفهم ما يقال وبدون أعادة . ولكنها تسمح للشخص بالقيام بإعمال أخرى مع سماعه للمذياع عكس بقيه الوسائل الأخرى. وان العاملين بالإذاعة يجب أن يكون اختيارهم للمواد بشكل راقي وجيد ويخضع لشروط لان لا بديل

أمام المستمع ألا ما يقدم وهذا ما لانجده مثلا في الصحافة فالمتلقي ينتقل بين موضوعات الجريدة بحرية وإذا لم تتحقق هذه النقطة يقوم المتلقي بغلق الجهاز والتخلص من ما يسمع لذلك فان افتقار الإذاعة للمساحة يفترض أن يكون اختيار المادة الإذاعية مكثفًا ومحكومًا بمنطق ونظام مع التركيز على الجوهر والتغاضي عن التفصيل الغير مهم وعلى كاتب الراديو أن يحرص على الاختصار المفيد والمهم والتكثيف غير المخل بصيغه الجملة واستخدام الألفاظ والتعبيرات والكلمات التي توضح المعاني بشكل مباشر[٣٧]. أن اختيار الشخص المناسب للصوت الجميل هو الأساس في هذه الوسيلة وهو ثروة هائلة إذ يجمع بين الدفء العاطفة الإنسانية والغضب والألم والضحك والبكاء إذ تتوقف حيوية الإذاعة على تنوع الأصوات وتعدد طبائعها حيث يراعى تنوع الصوت عند اختيار المخرج الإذاعي لفريق العاملين وحتى الضيوف هذا التنوع بين شخصية وأخرى وتشابه الأصوات والابتعاد عن الاختلاط عند المستمع. وتقدم الإذاعة بجدارة وفاعلية جميع أنواع الموسيقى والغناء الكلاسيكي والغناء الشعبي وقد ثبت أن الاستماع إلى الموسيقى من خلال الراديو أمر يبعث في النفس الراحة والبهجة والإثارة والفضول وبما يتلاءم مع ذوقنا ومشاعرنا فان الموسيقى والكلام في الراديو يتم اختاره لنا من قبل أشخاص آخرين [٣٨]. من هذه الزاوية يقدم لنا الراديو الجديد الذي لا نتوقعه ويحقق عنصر المفاجئة حيث لا نعلم سلفاً تفاصيل ما سيقدم لنا فالتنويهات التي يذيعها المذيعون للترويج عن برامجهم تصمم بحيث تجذب الجمهور وفي نفس الوقت لانفعل كل شي.

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن أهمية الإذاعة كوسيلة اتصالية تبرز من كون أن للكلمة المذاعة سحرها وتأثيرها الخطير فهي تعد من أقوى الوسائل في التأثير على الجماهير ولها قوتها الإيحائية فهي تصل إلى كل إنسان في كل مكان وأي زمان وتمتاز المادة الإذاعية بإمكانية تسجيلها وأذاعتها أكثر من مره وفي كل مره تكتسب قوه إضافية مما يزيد تأثيرها.

ومما ساعد على بيان أهمية الوسائل السابقة هو تطور استخدام الفضاء الخارجي وكان بداية عام ١٩٥٧ بإطلاق الاتحاد السوفيتي قمره الصناعي الأول

(اسبوت نك ١) ثم جاءت اختراعات أخرى ساعدت على تطوير هذه التقنية الراقية وخاصة عندما دخلت أقمار الاتصالات وتطوير الألياف البصرية حيث " يعد نظام الاتصال عبر الأقمار الصناعية من احدث الوسائل والتطورات في علوم الاتصال في العصر الحديث "[٣٩]. وفي عام ١٩٧٠ أصبح الاتصال ألتلفازي حقيقة في المنازل بدون محطات أرضية بعد أن كانت المحطات الأرضية تستلم من الأقمار ثم تبثها إلى التلفاز عبر محطات التقوية.أن التطور الكبير في ذلك جعل الفضاء يمتلئ بمئات الأقمار الصناعية التي تؤدي دورا إعلاميا مما ساعد على نشر وتطوير كل مناحي الحياة وتطوير الإنسان بمختلف الثقافات وخاصة عندما تعددت الفضائيات ببرامج بثها.

ومما له علاقة بالأقمار الصناعية ظهور الانترنيت الذي أصبح مقياس في تطور الشعوب لما يمتلك من ثوره معلوماتية ووسائل الاتصال الجديدة. وجاء ظهور الانترنيت في العقد الأخير من القرن الماضي واختلف في تعريفه حسب الحاجة فهو " يعتمد على عمل وحاجة الشخص الذي يريد تعريفه حيث يرى المستخدم العادي للانترنيت بشكل مختلف عما يراه المهني المهندس "[٤٠]. والانترنيت عبارة عن شبكه كمبيوترات ضخمه متصلة مع بعضها البعض وهو يخدم مجموعه كبيره من المستخدمين تزداد بشكل سريع تصل إلى نسبة ١٠٠% سنويا والانترنيت مشتق من مسمى شبكة المعلومات الدولية واهم ما يميز هذه الشبكة هي اللامركزية في حق نشر ما يريده الفرد في كل الموضوعات وقلة الكلفة وسهولة الاستخدام[٤١].

ما أسفر عنه الإطار النظري :

١- الرقص أقدم الوسائل للتعبير عن عادات وطقوس الشعوب وهو يقترب من المسرح البدائي.
٢- ظهور الممثل الأول (شبس) على منصة وهو يمثل وحوله الجماهير.
٣- ظهور المسرح الإغريقي بكتابه الكبار اسخيلوس وسوفكليس ويوربيدس وارستوفانيس وظهور المسرح الإغريقي الذي يسع آلاف المشاهدين.
٤- استمر المسرح عند الرومان وعندها بدا يهبط بمستواه وموضوعاته.

٥- حرم الدين المسيحي المسرح وتحول في موقفه إلى استغلال المسرح لنشر أفكاره بين الناس.
٦- اكتشاف الإرث الحضاري الإغريقي والروماني على يد العقول الجامعية.
٧- ظهور وليم شكسبير مع كتاب آخرين في بلدان أوربا كان لهم الدور الكبير على تطوير النص والعرض المسرحي.
٨- ظهور كتاب مثل كورنيه وراسين وموليير في فرنسا اعتمدوا الإرث الحضاري الإغريقي في اختيار الموضوع.
٩- ظهور الاتجاهات المسرحية بعد الكلاسيكية وهي الطبيعية والواقعية.
١٠- ظهور ابسن وسترنبرج في الرمزية والتعبيرية.
١١- نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين بدأت التجارب الحديثة للمسرح من ناحية العرض والنص والعلاقة مع الجمهور.
١٢- لم يكن للمسرح العربي تاريخ بسبب التقاليد والأعراف ولم يظهر ألا نهاية القرن التاسع عشر.
١٣- هناك تجارب عربية بالمسرح بالقرن العشرين.
١٤- ان التلفاز جهاز متطور فعال بين أفراد المجتمع وقادر على المشاركة في كل الأحداث.
١٥- ان الصحافة منبر إعلامي مهم لمناقشه كل الأمور التي تمس الفرد في المجتمع.
١٦- نجد أهميه الإذاعة من خلال مميزاتها الكثيرة وأثرها في تغيير وجهات نظر المستمعين وتعميق الجيد أو غيره بينهم.
١٧- للتطور العلمي الأثر الكبير في تطوير وسائل الأعلام منها الأقمار الصناعية وشبكة المعومات (الانترنيت).

الفصل الثالث

إجـــراءات البـحث

م١ :إجراءات البحث :

١.مجتمع البحث : المسرح بشكل عام منذ نشوءه عند الإغريق في ٥٠٠ ق.م إلى التجارب الحديثة بالقرن العشرين.

٢.عينه البحث: هو مجتمع البحث كونه يتم مناقشتها بشكل فترات أو أسماء أو اتجاهات.

٣.أدوات البحث : اعتمد الباحث على ما جاء في ما أسفر عنه الإطار النظري وما توفر من دراسات مجاوره للموضوع المبحوث.

٤.طرائق جمع المعلومات والبيانات : استخدم الباحث الطريقة التاريخية والوصفية وتحليل النماذج وتفسيرها للوصول إلى النتائج.

م٢:

يجب أن لانقارن المسرح بفكرة الدراما لان الدراما أدب يقتصر على الكلمة و الحوار وبعض التعليمات التي تخص بناء الشخصية وتصوير أبعادها ومواقفها، وكل ذلك يتم بواسطة اللغة (الدايلوج). أما المسرح : فهو المكان المعاد فيه بناء الكلمة وفقا لإيقاع حركه الدور في أطار مادة العرض، إضافة إلى طاقة الممثل وموهبته في تجسيد الشخصيات وجعل الدراما فعل حي على خشبة المسرح مع بقية عناصر العرض الأخرى مثل المنظر ولإضاءة و الأزياء وغيرها وكلها مجتمعة تدفع بالفعل إلى الحياة والحركة. فالمسرح روح الحياة في حاضرها وكشف قيمتها وعلاقتها المستقبلية فهو أساس عملية الخلق الفني لكل الفنون الأخرى لأنه ينفرد بتقديم الحياة في تقنيته ومعماريته وامتلاكه شكلاً مجسدًا بجميع صورها وهو تطور في المسرح لتنطلق إلى المستقبل. فهو تجسيد للوعي الاجتماعي وإحساس بواقع الحاضر ومستقبله لذلك جاء المسرح القديم غير مكتمل الصورة المسرحية والحس الجمالي والمتعة المرجوة منه أنما قدم نماذج لطقوس دينية وقدم رسالة بني جنسه بعظمة الآلهة والتي تعبد وبعض الظواهر الطبيعية مثل البرق والمطر مع أصواتها وقوتيها وتأثيرها من خلالها عظم الآلهة المسئولة عن تلك الظواهر بطقوس ذات نهج منظم نوع ما ومدروس مع أشعار تقال هنا وهناك تقديسا لهذا المعبود أو غيره وهو في كل

ذلك اعتمد على تقليد الحيوانات في زيه وصورته وحركته. لذلك كانت هذه الأفعال هي مادة إعلامية تصل إلى المشاهدين والمشتركين على السواء بواسطة أداة هي المسرح البدائي الأول، ويعتمد معنى المسرح على ثلاث معاني هي: الأولى ما قبل التاريخ الذي يعتمد السحر للخلاص من شر الطبيعة، والثانية عصور التاريخ القديم والذي صار فيها النص مدون وتم تجسيده على خشبه المسرح، عندها تطور المسرح والنص والممثل والتقنيات، والثالثة فيها تطور كل شيء في المسرح وأكد على الوجود الإنساني من خلال تنوع الشخصيات وأهدافها ومشاركه بقيه عناصر العرض المسرحي في العمل الفني.

والمسرح يعتمد على المخرج والمؤلف والممثل والجمهور مع بقيه العناصر الأخرى، و الجميع يحول بنية النص إلى بنية عرض قائمة في مكان هو المسرح، فالمخرج الذي دخل حديثا للعملية المسرحية وأصبحت له مكانة مرموقة وله حصة في عملية الإبداع الدرامي ووضع خطة العمل وتنفيذها بإشرافه " أن فن الإخراج يبدأ عندما يعبر المخرج عن مضمون المسرحية ويكون مترجماً أميناً لأفكارها"[٤٢].

كذلك المؤلف الذي يضع بنية النص الخاضعة للشروط المسرحية وطرح الأفكار الجريئة وبناء الحدث ورسم الشخصية وخلق ضرورات الترابط بين الحدث والشخصية وتواصلهما معا للوصول لهدف المسرحية، وللجمهور الذي هو عنصر مهم فبدونه لا يمكن أن يقدم عمل مسرحي، وهذا الترابط يكون من خلال " نقل فكرة المسرحية وهدفها إلى النظارة "[٤٣] ويتم ذلك عن طريق الممثل وقدراته وموهبته بالتمثيل ووسائله الخاصة مثل الجسد والصوت مع نظام الحركة وأفعاله وانفعالاته الحسية والعقلية، كل ذلك يحتاج من الممثل أن يكون مخلصاً في تصوير مادتة في التدريب والممارسة التي تؤدي إلى توافق الانفعال الداخلي مع المظهر الخارجي للجسم كي تكون حركه الجسم طبيعية مع الشخصية التي يمثلها " أن المثل الأعلى للممثل أن يصبح أداة معدة أعداداً فائقاً لخدمة المؤلف، وهو يحتاج من اجل ذلك إلى تربية تقنية تكسب وجهه وصورته الليونة المطاوعة للتعبير "[٤٤] فالجمهور الذي يحس

بالنص وفكرة العمل ويتذوق الصورة المسرحية التي تؤلفها بقية عناصر العرض المسرحي الأخرى مثل الإضاءة والمنظر والأزياء والماكياج والإكسسوارات والموسيقى.

فالمسرح اليوناني كان يقدم مادة دينية ورسالة واضحة، يأتي الجمهور إلى المكان المقرر وهي بناية المسرح وهناك منهاج منظم لتقديم هذه الطقوس الدينية.

هذه الطقوس أخذت تذوب بظهور الكتاب المسرحيين الثلاثة : اسخيلوس وسو فكلس ويوربيدس وأصبح المسرح يقدم صراع قائم بين الآلهة أو بين الإلة والملوك أو بين أبناء الشعب، والمسرحية مكتوبة ضمن الشروط القاسية للكلاسيكية القديمة وما تقدمه من صراع يتصاعد حتى يصل عملية التطهير عند المشاهد من خلال ما تمر به الشخصية من مصائب.

وكان الجمهور مولع بهذه العروض المسرحية ويعتبرها طقساً دينياً والواجب حضورها ببناية المسرح التي تسع لأكثر من خمسة آلاف شخص وتستمر هذه الاحتفالات والأعياد والعروض المسرحية لأيام " فلم يكن المسرح بالنسبة للإغريق صورة من صور الهرب الرومانسي في الحياة ...فقد كان على العكس تجربة جوهرية في حياتهم تتعمق في شجاعة وأمانة ورجولة، مجموعة من أهم مشكلات الحياة الأساسية، كما كان تجربه يشارك فيها المجتمع بأكمله "[٤٥].

والمسرح الروماني الذي هو امتداد للمسرح الإغريقي بكتابه المعروفين بلوتوس وترنس وسنيكا اللذين كتبوا بما أراد الجمهور من موضوعات اجتماعية أخذت بالهبوط بمستواها الفني وما تناقشه من أمور تخص المواطن، وتم التركيز على المواضيع الهابطة ذات الإسفاف الكبير في كل مقومات

العرض الفني إلى أن ظهر الدين الجديد (الديانة المسيحية) التي حاربت هذا المسرح لما فيه من إسفاف وخلاعة وخروج عن الذوق والأخلاق.

ولكن هذه ألعداوة تحولت إلى صداقة قائمة على استغلال المسرح لخدمة مصالح الكنيسة ونشر أفكار الدين الجديد من خلال مكان وهو الكنيسة ومرافقها وغرفها، وكتاب وممثلين هم الكهنة والقساوسة، وعناصر أخرى هي أثاث الكنيسة ومذابحها وإضاءة تأتي من شبابيك الكنيسة الملونة وشموعها لان " المسيحية قد

فاقت غيرها من الديانات في الاهتمام بإبراز دراما العالم والضمير الإنساني...ذلك لان تاريخ البشرية في نظرها ليس ألا مأساة الصلب وآلامه "[٤٦] أما الجمهور المراد إن تصل لهم الرسالة فهم رواد الكنيسة وموضوعات تناقش وتتحدث عن حياة السيد المسيح (ع) وصحبه والجنة والنار والحساب والعالم الأخر، وتسمى هذه المسرحيات الأسرار والمعجزات.

لم يستمر المسرح طويلاً في كنف الكنيسة فقد ضاق ذرعا بتعاليمها وأسلوبها الرتيب الذي اقتصر على النصح والإرشاد، فخرج بشكل بسيط إلى الشارع والساحات العامة بعد أن قدم عروضه أمام الكنيسة أول الأمر، وكان الناس يتجمعون حول العربات التي تحمل العاملين والمعدات البسيطة للعرض المسرحي، أما النصوص فكانت ذات رسائل بسيطة للناس تعالج أمور حياتيه بشكل ساخر وهي المسرحيات الأخلاقية.

وهذه الفرق الجوالة بعرباتها قد قدمت أعمال مسرحية ورسائل إلى الجمهور وهي وسيلة اتصال ناجحة كانت بذات الزمان وقد لبت حاجة الإنسان ليسمع ما ينقصه من معلومات وأخبار إضافة إلى الجانب الترفيهي الذي يهدف له المسرح في ظل فترة مظلمة يسودها التخلف والجهل والحروب الطاحنة بين الأمم.

في عصر النهضة وفي حدود القرن السادس عشر تم اكتشاف الإرث الحضاري القديم ليستقي منه المسرحيون أعمالهم الجديدة ومخاطبة الناس بلغة جديدة وأسس جديدة لكتابة المسرحية مع موضوعات مختلفة عما قدم سابقا ساعدهم في ذلك مهندسين ومصممين لمعمار المسرح الذي قدمت فيه المسرحية بمشاهدها وفصولها المتعددة فكان من اليسير الانتقال من مشهد إلى آخر بمفردات منظرية بسيطة وإضاءة تكاد تكون مهمتها الأولى هي أضاءه الممثلين والمكان للمشاهدين، لذلك قدمت مسرحيات شكسبير ذات المشاهد والأماكن المتعددة التي تجاوزت (٢٥) مشهد للمسرحية الواحدة على خشبة معمار متصلة به بشكل يوفر الرؤية الجيدة للمتلقي الذي جاء متابع هذا العمل وقد اختلفوا في مستوياتهم الاجتماعية من ملوك وأغنياء وعامة الشعب، هذا المكان فرض نفسه في استقطاب الجمهور له موهبة الكتاب

أمثال وليم شكسبير الذي استطاع أن يقدم أعمال يحبها ويتابعها الجمهور وهي تناقش أمور الحياة بما فيها من مشاكل تخص شخصية الرجل والمرأة والحكام والملوك وغيرهم. وهذه المسرحيات لازالت تقدم ليومنا هذا على خشبة المسرح برؤيا جديدة إضافة إلى تقديم السينما وشاشات التلفزيون.

حصل المسرح الفرنسي كل رعاية ملكيه وخاصة عندما كتب كورنيه وراسين وموليير في مجال الكوميديا هذه الرعاية انعكست بشكل ايجابي على تقديم الأعمال المسرحية لعلية القوم (البلاط الملكي) ثم لعامة الشعب، وتم متابعة الموضوعات المطروحة بشكل متواصل ومحبه بحيث اثر ذلك في عملية التلقي من قبل الناس، وأصبحت المسرحيات ذات اثر فعال في نفوس الناس، وأصبح الكتاب محميين من قبل البلاط الملكي لما يقدمه من موضوعات تناقش الحياة وما فيها من موضوعات إضافة إلى الموضوعات القديمة المطروحة في المسرح اليوناني والروماني.

وتجاوز ذلك عندما قدم كتاب مثل ابسن وسترنبرج موضوعات جريئة في وقتها مثل حرية المرأة وأوربا تذكر غلق الباب من قبل نورا وهي تطالب بحريتها كذلك مناقشة الموضوعات النفسية واختلاف الشخصية المريضة نفسياً بواقعية ورمزية، وتقريبا نفس المواضيع تم طرحها من قبل كتاب أمثال برنادشو وبراندلو وكذلك المسرح الروسي مما دفع المتلقي متابعة هذه الأعمال وإحساسه بأنها متنفس له.

في المسرح الحديث ومن خلال ما أحدثته التطورات العلمية وخاصة في مجال الاهتمام بالمسرح وخشبته أدت إلى تحسين التقنيات المسرحية مما اثر على جماليات الشكل والصورة المسرحية وبالتالي على بنيه العرض المسرحي. فما قام به المصمم المسرحي السويسري (أدولف آبيا) في مجال الإضاءة المسرحية وخلق جو مسرحي جديد وتحديد وقت وزمان الحدث المسرحي.وعلاقة الضوء بالظل وعلاقتهما مع الممثل ذو الأبعاد الثلاثة وهذا ما نراه في مسرحية (دون جوان) التي تميزت فيها الصورة المسرحية وأعطت أشكالاً مغايرة تم التعرف عليها من قبل الجمهور والذي وجد في المسرحية سمة جديدة على المسرح فأقبل عليها لأنه " أدرك قوه الإضاءة الهائلة كأداة لتشكيل المكان "[٤٧].

وفي انكلترا ظهر مبدع آخر ومصمم لبنية العرض المسرحي وهو كوردن كريك (١٨٧٢-١٩٦٦) الذي أضاف إلى المسرح شكل جديد بأعماله التي اقتربت إلى الفن التشكيلي، مع إضافة الأشكال الهندسية والخطوط والتغير المستمر للمنظر مما دفع بالجمهور إلى متابعة هذه الأعمال والإقبال عليها لما فيها من روابط بين المتلقي وبنية العرض إضافة إلى مضمون العمل المسرحي الذي يحمل رسالة حتما مثل مسرحية هاملت.

وهناك أسماء أخرى جربت على خشبة المسرح أعمالها المسرحية بأشكال وصور وأساليب جديدة على أساس النصوص الجديدة وما تحمله من أفكار يراد إيصالها إلى المتلقي، فجاك كوبو (١٨٧٩ -١٩٤٩) الذي اعتمد على جسد وانفعالات الممثل لخلق صورة جديدة مع بقيه العناصر الأخرى فهو غير في شكل خشبة المسرح وأضاف أليها أجزاء من معمارية المسرح ومكان جلوس المشاهدين، مما أعطى دفعة أخرى للمتلقي لمتابعة العرض المسرحي والسعي لمشاهدة هذه التجارب الجديدة.

والفنان بسكاتور صاحب المسرح الوثائقي أو السياسي اعتمادًا على الخلفيات الفكرية والسياسية والاجتماعية للصراع القائم في الدراما لخدمة مصالح الجمهور وإيصال الأفكار برسائل مسرحية إلى المتلقي، فقد استخدم التقدم التقني والعلمي في مسرحية مثل السينما والسلايد والصور والإضاءة الحديثة والمناظر الدوارة فهو " يريد مسرحاً يعبر عن الحاجات الأساس للجماهير " [٤٨] وهذا واضح في عمله المسرحي (بيت آل اتريوس). وكان مسرحه موجه إلى الطبقة العاملة فتابع هذه الشريحة من المجتمع وقدم لهم أعماله ورسالته الفكرية خارج مسرح العلبة.

والمبدع الروسي فيسفولد مايرخولد (١٨٧٤-١٩٤٠) وهو احد تلاميذ المبدع ستانسلافسكي الذي ابتكر مبادئ جديدة بالمسرح وهو مبدأ الاسلبة ومبتعدا عن التأويل في أعماله المسرحية وغير في شكل بنية العرض من خلال استخدام المسطحات الهندسية بإشكالها المختلفة لإنتاج قيم تشكيلية جديدة تخدم العرض المسرحي وخلق الدهشة والصدمة عند المتلقي بواسطة تقنيات العرض إضافة إلى النصوص المسرحية

المحملة بأفكار جديدة تعبر عن حاجات الجمهور كما في مسرحية (هيدا جابلر)لابسن ودون جوان.

ماكس راينهارات (١٨٧٣-١٩٤٣) الذي اعتمد المسرح الشرقي وما فيه من طقوس وحركات وتقاليد الذي حرر الممثل من علاقته ببقية عناصر العرض المسرحي وخلق بدلاً عنها علاقة جديدة من الجمهور لكسر ألطريقة الإيهامية السابقة بالعرض المسرحي مما جعل الممثل دائم التفكير في وضعه الجديد لا تقمص الشخصية. إضافة إلى إدخاله الستائر الملونة الكبيرة على صورته المسرحية بدلاً من المفردات ألمنظرية الضخمة وهو بذلك يخلق علاقة حميمية مع جمهوره المسرحي وخاصة على جعل خشبة المسرح وقاعة العرض (الجمهور) ضمن مساحة واحدة كما فعل في مسرحية (المعجزة) والبحث عن فضاءات جديدة لجذب الجمهور لمشاهدة عروضه مثل (اوديب ملكاً) و (الاوديسا) ومسرحيات وليم شكسبير بأساليب جديدة وأماكن مقترحة لخلق رغبة عند المتلقي لمتابعة عروضه المسرحية.

والبحث عن شكل مسرحي جديد يملأ بالصورة والأصوات ويؤكد القوى السحرية الكامنة في الفراغ المسرحي وهذا ما بحث عنه انتونين ارتو (١٨٩٦-١٩٤٨) وهو بذلك يؤكد على أن " يهجر الواقع الذي يعكسه الواقعيون إلى العالم وغير المرئي الميتافيزيقي بحثاً عن حضارة أخرى "[٤٩] وهو بذلك يبحث عن صورة مسرحية من خلال حركات الممثلين وإشاراتهم وأعطى للحوار الدور الثاني في العرض المسرحي كما في مسرحية (حلم) و (فكتور).

ومن المسرحين الذي أكد على أهمية المسرح كوسيلة اتصال مهمة للجمهور لنقل الأفكار والتقاليد ما جاء به تولد برخت (١٨٩٨-١٩٥٦) الذي قدم مسرحاً واقعياً معتمدًا على المسرح الشرقي وجاء بمنهج جديد وهو التغريب. واعتمد على النظرية الماركسية في مسرحه وجعلها الرسالة الأهم فيه وما التجديد والابتكار والخروج عن تقاليد مسرح العلبة بكسر الجدار الرابع وإشراك الجمهور إلا رد فعل للأفكار الجديدة والصناعة الجديدة التي عرفها الإنسان بداية القرن العشرين إضافة إلى النزاعات الكبيرة التي أدت إلى الحروب الكونية فهو قد تجاوز حالة الإيهام القديمة بالنسبة

للجمهور وتقمص الشخصية بالنسبة للممثل إلى حالة المشاركة والوعي بما يقدم على خشبة المسرح.وهو الذي أسس المسرح المسمى (المسرح الملحمي) بصور مسرحية متعددة وأسلوبه الجديد لمعالجة النص المسرحي كونه " إيذاناً بدخول عصر جديد في فهم الدراما"[٥٠] فالمسرح التقليدي يخاطب قضية الإنسان مع القدر ويعمل على تحقيق الشفقة ثم التطهير عند المشاهد بينما يؤكد المسرح الملحمي على استفزاز المتلقي ليحمله مسؤولية المشاركة في العمل المسرحي والقناعة به ثم التفكير فيه ليدفعه للتغير وتغير ما حوله والثورة على الأوضاع الباليه والتي تتقاطع مع مصالحه، وهنا تأكيد على مسرح برخت أداة تحفيز فاعلة للجمهور لدفعه للمطالبة بحقوقه وهو يؤكد على " اجتناب كل ما يثير الإيهام من مشهد الشارع ذلك الإيهام الذي يمثل احد المميزات الرئيسية للمسرح الاعتيادي "[٥١]. والأمثلة كثيرة لمسرحه ومن تأليفه. وإضافة إلى التجارب والصيغ الجديدة للمسرح وهدفها تحسين الأداء والصورة وبالتالي جلب الجمهور لحضور العروض وإيصال الرسالة جاء البولندي جيرزي كروتوفسكي بمسرحه الفقير الذي يفتقر إلى كل المستلزمات المسرحية والعناصر المشاركة وهو بذلك يصوغ صورة جديدة يعتمد بها على الممثل فقط وما يقدمه هذا الممثل بأشكال جمالية راقية لشد انتباه المتلقي كونه " نقطة الانطلاق أو الغرض العلمي الذي يشكل أساس هذه التجربة، ومن خلال الجمهور وعن طريق أعادة تشكل استجاباته واكتشافها من جديد نصل إلى جوهر المسرح "[٥٢] مما تدفع بالجمهور بالمشاركة بالعمل المسرحي كونه طقسا خاصا يشارك فيه الجميع وبشكل واسع أذ "تستدعي هذه المشاركة توريط المتفرجين بشكل كامل بالعرض "[٥٣].

ومن خلال ما تقدم نرى التأكيد على العلاقة بالجمهور وقد عزز هذه العلاقة (بيتر بروك) بالبحث عن لغة عالمية مشتركة وأكد على المسرح الطقسي ومصطلح (المساحة الخالية) بأن يجعل خشبة المسرح خالية ألا من حركة الممثل لذلك جاء بمسرحه مؤثرات صادمة وصرخات وأقنعة ودمى وملابس طقسية واستخدام التغيرات في الإضاءة " وكانت الطقوس هي التعبير عن هذا اللاوعي الجماعي الذي يربط الناس بعضهم ببعض ويحفظ لهم وحدتهم الاجتماعية والشعورية "[٥٤] وهو يرى أن

السياقات اللغوية والثقافية ما هيه ألا حواجز تعمل على أعاقه التواصل الكوني، من هذا المنطلق كانت فرقته المسرحية عالميه الطباع ولها مواضيع بمناقشة وضع الإنسان ونقد الحروب وهو يستلهم الأساطير الشرقية لعمل ذلك مثل مسرحية (الطيور) و (المهابهارتا).

وفي بداية القرن الماضي جاءت تجارب كثيرة واستمرت مع سابقاتها على أساس بناء علاقة بين العمل الفني والجمهور ومتابعته في أماكن تواجده والخروج من مسرح العلبة إلى الفضاءات المتعددة بما فيها من خصوصيات مختلفة الواحدة عن الأخرى وعن مسرح العلبة. والذي ساعد على تقديم عروض غريبة بعض الشيء عن ما كان يقدم من عروض مسرحية من ناحية الشكل والمضمون، واهم هذه الأسماء المجددين هو (ايوجينوباربا) الذي أكد على أن الإنسان هو الأهم في العرض المسرحي فاعتمد التمارين ألمكثفة للممثل وسماها التمارين (البيوميكانيك) واعتماد المسرح الشرقي وبالذات الهندي والكاثاكالي في صياغة المسرح الجديد وهو الهارب من حدود المسرح التقليدي إلى الشارع ليقدم عروضه المسرحية وليتفاعل مع المتلقي لغرض وصول رسالته الإعلامية كذلك اختار فضاءات مثل السيرك والهياكل العمرانية والمعابد والآثار القديمة فمسرحه " لا يتميز بوجود تيار معين بل تنوعت فيه نقاط الاتصال "[٥٥]. ونتيجة للتطور العام في كل وسائل الاتصال الأخرى وكذلك في أساليبها جعل من المسرح نموذج آخر خاضع للتطور وابتكار الأساليب الجديدة لغرض تحقيق أهدافه بين الجمهور، ومن هذه التجارب المسرحية الجديدة هو مسرح المستقبل الذي أكد على تقديم مضمون فيه تحفيز للجمهور ويضعه في المواجهة الصريحة لثقافة الأخر ومبادئ الوجود والأخلاق وهذا واضح في عروضه المقدمة في أماكن غير مسرح العلبة مثل (ألوان) و(الأيادي).

والمسرح البيئي الذي ابتدعه (ريتشارد ششنر) الذي أكد على تقديم مشاهد العرض في أماكن مختلفة من صالة العرض لإيجاد فرصه للمتلقي لرؤية المشهد المسرحي من أماكن مختلفة حيث يكون التفسير مختلف حسب ثقافته فهو " مسرحا

ذاتيا... حيث يقوم كل من المتفرجين بإدراك مسرحية مختلفة "[٥٦] وكان واضحا في مسرحية (الأم شجاعة)و (الشرفة).

وتجربة المسرح المفتوح للمخرج (جوتشايكين)الذي اعتمد على بدايات الحضارة الإنسانية وإيجاد تصرفاتهم ولغتهم من خلال التمارين المسرحية قبل العرض المسرحي ويتم التأكيد على الإمكانيات التعبيرية للممثل وغيرها. ومضمون المسرح هو كشف المجتمع الاستهلاكي بأسلوب ساخر ومشاركة الجمهور في العرض كما في مسرحية (الحية).

وفي العقد السادس من القرن الماضي ظهرت تجربة جديدة هو مسرح الشمس (أريان مون شكين) للتعبير عن رسالة موجهة إلى الطبقة العاملة ومناقشة الأمور السياسية و الاجتماعية بأسلوب جديد وتقنيات مبتكرة في تقديم العرض كمسرحية (المطبخ) و(جنكيزخان) ومسرح الشمس اعتمد على تعدد المنصات التي يقدم عليها المشهد المسرحي واختلاف زوايا الرؤيا للعمل المسرحي مع إضاءة مبهره وملابس وإكسسوارات غريبة.

وقسم من التجارب اعتمد الجانب التشكيلي واستخدام المفردات ألمنظرية الجاهزة وهذا ما فعله الفنان (تادوش كانتور) و(جوزيف شاينا) فمسرحهم " يتسم بالتفسير من خلال الرؤيا التشكيلية التي تصبح بديلاً في أعماله عن رؤية أدب المسرح "[٥٧] وقسم من التجارب قدمت على المسرح الدائري الذي يحيط به الجمهور من كل جوانبه وهو يفرض قواعد على استخدام التقنيات المسرحية لعدم حجب الرؤيا وحتى الممثل، وان مفردات المنظر تستخدم بشكل رمزي للدلالة على المكان وهذا المسرح يعيدنا إلى العلاقة القديمة بين المتفرج والممثل في قاعة العرض ونمو هذه العلاقة الحميمة والتي يتم فيها التفاعل الكامل في ما بينها.

أما المسرح العربي وعلاقته بالجمهور فهي علاقة بسيطة جدا في القديم كانت النشاطات المسرحية مقتصرة على دار الخلافة وعلية القوم أما عامه الشعب فكانت تجتمع حول الحكاءون أو مشاهده خيال الظل. ولم يجد المسرح جمهوره ألا عندما ظهر المسرح بشكل تتكامل فيه الصورة المسرحية وقد اختصر هذا الحضور على

الأماكن التي تقدم فيه العروض المسرحية بالمناسبات العامة أو الخاصة والحضور مقتصر على المدعوين فقط، وان بناء دور العرض المسرحي ساعد على استقطاب الجمهور بمشاهدة العروض مع تطورها وتقنياتها وبفنانين موهوبين طوروا هذه الموهبة بالدراسة والمشاهدة والمشاركة خار بلدانهم ز ولكن يبقى المسرح العربي يتعثر بسبب عدم دعم الدولة له للنظرة الدونية له وعزوف العنصر النسوي بالمشاركة وهي عنصر مهم في تجسيد الشخصيات. وبعد العقد الخامس وفي العراق قد قدمت مجموعة عروض مسرحية ناجحة كانت لعوده الدارسين بالخارج الأثر الكبير على تطور هذا الفن وبناء قاعات خاصة بالعروض ليأتي الجمهور لمشاهدة مسرحية تعالج مشاكلهم الاجتماعية والسياسية وطرح مواضيع تمس احتياجاتهم والتنفيس عن رغباتهم في ظل أنظمة مسيطرة على كل شيء.

النتائج ومناقشتها :

١- نجد أن العلاقة قوية بين المسرح وجمهوره في المسرح الإغريقي لأنه جاء للمشاركة في الطقس الديني والمتعة بأعياد ديونيسيس.

٢- الجمهور في المسرح الروماني يذهب للمتعة والترفيه.

٣- جعلت الكنيسة من المسرح وسيله اتصال لنقل أفكارها إلى روادها.

٤- في مسرح شكسبير كانت المتعة وسماع الأشعار والاستفادة من المواضيع المطروحة أو المقدمة على خشبة المسرح.

٥- رعاية ملوكية للمسرح الفرنسي مما يدل على رقي هذا الفن ومتابعة عروضه من قبل الجمهور.

وهذا ما كان في فرنسا والدول الاسكندنافية

٦- الإقبال الكبير من قبل الجمهور لمشاهدة التجارب الجديدة الخارجة عن المعقول للمجاميع المسرحية وما كانت تطرحه من مواضيع مهمة وجديدة تخص الإنسان والمجتمع.

٧- عدم الإقبال من قبل الجمهور العربي لمشاهدة المسرح أول الأمر وتطور هذا الإقبال في مرور الزمن والتطور الحضاري لوجود أعراف وتقاليد اجتماعية.

الاستنتاج :

أذن أن المسرح أداة اتصال بالجماهير لتوصيل رسالة ولكن بشكل متفاوت بين الشعوب في المجتمعات كافة.

الهوامش :

(١) د.محمد عبد المنعم خفاجي، التفسير الإعلامي للسيرة النبوية، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩٢ ص١٥. انظر: د.جميل نصيف التكريتي، قراءه وتأملات في المسرح الإغريقي، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة دراسات (٣٨٥)، الجمهورية العراقية ؛١٩٨٥ ص٧٣-٧٥.

(٢) شلدون تشيني، تاريخ المسرح في ثلاثة ألاف سنه، ت: دريني خشبه، القاهرة: المؤسسة العامة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ب ت ص ٤٥.

(٣) أرسطو طاليس، فن الشعر، ت: عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣، ص٣٩.

(٤) انظر: د.جميل نصيف التكريتي ، المصدر السابق، ٩٢ ص.

(٥) انظر: المصدر نفسه ص٧٢-٩٥.

(٦) حسين رامز محمد رضا، الدراما بين النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٧٢ ص ٨١-٨٤.

(٧) انظر: جيمس لافر، الدراما أزيائها ومناظرها، ت: مجدي فريد، القاهرة المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر والطباعة، ١٩٦٣، ص٨٧-٩٥.

(٨) انظر: فرانك م. هوايتنج، المدخل إلى الفنون المسرحية، ت: كامل يوسف وآخرون، دار المعرفة، مطبعة الأهرام التجارية، ألقاهرة ؛١٩٧٠ ص ٤١-٥٥.

(٩) انظر: حسين رامز محمد رضا، الدراما بين النظرية والتطبيق، المصدر السابق، ص٨٨-٩٠.

(١٠) انظر: المصدر نفسه، ص٩٢.

(١١) انظر: المصدر نفسه، ص٩٩-١٢٣.

(١٢) انظر: محمد حموده، من أعلام المسرح العالمي، مذاهب وشخصيات، ع ٣٩، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة: ب ت ص ٧-١١ و٤٢-٤٧ و٨٥-٩٦.

(١٣) انظر: فرانك.م.هوايتنج، المدخل إلى الفنون المسرحية، المصدر السابق، ص ٨٦ - ٩٢.

(١٤) انظر: ريموند وليمز، المسرحية من ابسن إلى اليوت، ت: فايز اسكندر، وزاره الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطبعة مصر، مصر: ١٩٦٣ ص ١٣٠-١٤٨.

(١٥) انظر: المصدر نفسه، ص ١٥٣-١٦٦.

(١٦) انظر: روبرت بروستاين، المسرح الثوري (دراسة في الدراما ألحديثة من ابسن إلى جان جينيه))، ت: عبد الحليم البشلاوي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة: ب ت، ص ١٢٣- ١٣٠.

(١٧) د.سمير سرحان، تجارب جديدة في الفن المسرحي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان: ت ب ص ٥.

(١٨) د.سمير سرحان، تجارب جديدة في الفن المسرحي، المركز العربي للثقافة والعلوم، بيروت، لبنان: ت ب ص ٥.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٥.

(٢٠) عبد الغفار مكاوي، التعبيرية في الشعر والقصة والمسرح، المكتبة الثقافية (٢٦)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١ ص ١٨.

(٢١) د. على الراعي، المسرح بالوطن العربي، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهريه، المجلس الأعلى الوطني للثقافة والأدب، الكويت: ١٩٨٠، ص ١٥.

(٢٢) انظر: المصدر نفسه ، ص ١١- ٤٧.

(٢٣) نوال محمد عمر، فن صناعه الخبر في الإذاعة والتلفزيون، القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٣، ص٢١.

(٢٤) محمود ادهم، فنون التحرير الصحفي بين النظرية والتطبيق، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٤ ص١٦٩.

(٢٥) انظر: د.محمد حمدان مصالحة، الاتصال السياسي، عمان: دار وائل للنشر، ٢٠٠٢، ص ١١٤-١١٥.

(٢٦) علي الجابري، تقنيات الخبر في الفضائيات العربية، عمان: عمرون للدراسات والنشر، ٢٠٠٦ص٣٤.

(٢٧) د.كرم شلبي، فن الكتابة للراديو والتلفزيون، جده: دار الشروق، ١٩٨٧، ص ٨٢-٨٣.

(٢٨) فاروق علي عمر، وسائل الاتصال الحديثة والرأي العام، أطروحة دكتوراه غير منشوره، جامعة بغداد كلية الإعلام، ٢٠٠٤، ص ٨٦.

(٢٩) د.عبد الرحمن محمد العيسوي، علم النفس الإعلامي، بيروت: دار الراتب الجامعية، ٢٠٠٤، ص٦١.

(٣٠) انظر: د.لؤي مجيد حسن البلدواي، الخصائص المهنية للصحفيين العراقيين، أطروحة دكتوراه غير منشوره، جامعة بغداد، كليه الآداب، قسم الإعلام، ١٩٩٦، ص ٦٨.

(٣١) د.جيهان احمد رشدي، نظم الاتصال، ج١، ط١، القاهرة: دار الفكرالعربي، ١٩٧٢، ص١٦٢.

(٣٢) انظر: د.فاروق محمد أبو زيد، مقدمة في علم الصحافة، القاهرة: مركز التعليم المستمر، ١٩٩٩، ص١٦.

(٣٣) د.خليل صابات، وسائل الإعلام نشأتها وتطورها، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٦، ص٨١.

(٣٤) انظر: صالح خليل أبو أصبع، الاتصال الجماهيري، عمان: دار الشروق، ١٩٩٩، ص١٦٥.

(٣٥) د.ماجي الحلواني، مدخل إلى الإذاعات الموجهة، القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٨٢، ص٩.

(٣٦) يوسف مرزوق، المدخل إلى حرفية الفن الإذاعي، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٥، ص٥.

(٣٧) انظر: احمد طاهر الإذاعة والسياسة الدولية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠، ص١٨-١٩.

(٣٨) عبد النبي خزعل جاسم، الإذاعات العراقية الموجهة، رسالة ماجستير غير منشوره جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الإعلام، ١٩٨٨، ص ١١٠.

(٣٩) صالح مصطفى الاتروشي، المايكروف والحياة، سلسلة الثقافة العلمية (٢١)، بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٩، ص ٧٩.

(٤٠) عبد الملك ردمان الدناني، الو ظيفة الإعلامية لشبكة الانترنيت، ط١، القاهرة: دار الفجر ٢٠٠٣، ص ١١١.

(٤١) انظر: سعود صالح كاتب، الإعلام القديم والإعلام الجديد، جده: مكتبة الشروق، ٢٠٠٣، ص١١٠-١١٢.

(٤٢) كمال عيد، دراسات في الأدب والمسرح، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر: ١٩٦٦ ، ص ١٨٧.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١٨٦.

(٤٤) سعد اردش، المخرج في المسرح المعاصر، عالم المعرفة (١٩) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩ ص٣١.

(٤٥) فرانك.م.هوايتنج، المدخل إلى الفنون المسرحية، المصدر السابق ، ص٢٤.

(٤٦) احمد شوقي قاسم، المسرح الإسلامي، دار الفكر العربي، مطابع الرجوي، عابدين: ١٩٨٠.
(٤٧) جوليان هلتون، نظريه العرض المسرحي، ت: نهاد صلحيه، الإبداع الفكري، الشارقة: ٢٠٠١ ص ١٣٥.
(٤٨) عقيل مهدي يوسف، نظريات في فن التمثيل، بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، كلية الفنون الجميلة، ب ت ص ١٩٢.
(٤٩) سعد اردش، المخرج في المسرح المعاصر، المصدر السابق ص ٢٦١.
(٥٠) عطيل مهدي يوسف، نظريات في فن التمثيل، المصدر السابق ص ٢٢٩.
(٥١) اريك بنتلي، نظريه المسرح الحديث، ت: يوسف عبد المسيح ثروت، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد: ١٩٧٥ ص٧٧.
(٥٢) سمير سرحان،تجارب جديدة في الفن المسرحي،المصدر السابق، ص ٩-١٠.
(٥٣) كريستوفر، أينز، المسرح الطليعي من ١٨٩٢-١٩٩٢، ت: سامح فكري، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٤ ص ٢٨٩.
(٥٤) سمير سرحان، تجارب جديدة في الفن المسرحي، المصدر السابق، ص ١٠.
(٥٥) قاسم بياتلي، دوائر المسرح (تجربه الاودن وانتربولوجيا المسرح)، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت: ٩٩٨ ص ٧.
(٥٦) كريستوفر، أينز، المسرح الطليعي من (١٨٩٢-١٩٩٢)، المصدر السابق، ص ٣٣٧.
(٥٧) زيجموند هنبر، جماليات فن الإخراج، ت: هناء عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٣ ص ٢٢٧.

عادات تعرض الشباب الجامعي العراقي لوسائل الإعلام العراقية واستخداماته لها والاشباعات المتحققة منها

(دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعة تكريت عام 2009).

د. سعد سلمان عبد الله
جامعة تكريت/ كلية الآداب .قسم الإعلام

مُقَدِّمَة

شهدت وسائل الإعلام العراقية منذ الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 تطورات سريعة وهائلة في مجال إنتاج وتوزيع واستقبال الرسائل الإعلامية . ولقد تزايد الاهتمام بين باحثي العلوم الإنسانية عامة وباحثي الإعلام بصورة خاصة حول جهود المؤسسات الإعلامية في المجتمع لمواجهة السيل المتدفق وغير المتوازن من دول الشمال المتقدم الى دول الجنوب المتخلف الذي يحمل أملاً وتهديداً في ذات الوقت للحكومات والمواطنين في كل أنحاء العالم .

وتعد بحوث الجمهور من البحوث المهمة للتعرف على عادات الجمهور في التعرض لوسائل الإعلام وكيفية استخدامه لها وتفضيله وأهم دوافعه المتحققة من التعرض والاستخدام لهذه الوسائل، لاسيما وان مهمة وسائل الإعلام هي التعرف على الاحتياجات الحقيقية للجمهور وإرضاء رغباته، وعندما تنجح وسائل الإعلام في إرضاء هذه الاحتياجات فأنها تضمن إقبالاً وتجاوباً[1]. ويعدُّ هذا البحث مهماً وذلك لأهمية معرفة رجع الصدى في مجال الإعلام، فمعرفة ردود الأفعال تجاه ما يقدم للجمهور هامة للمخططين وصانعي القرار لتعديل الرسائل، أو جعلها تتوافق مع

الجمهور المتلقي، وتزداد هذه الأهمية عند ربطها بجمهور الشباب، والذي يعدّ ركيزة المجتمع وأمله في مستقبل أفضل[2]. وتأتي أهمية هذا البحث كذلك انطلاقاً من كون الشباب الجامعي مشارك وفعال ويستخدم وسائل الاعلام لتحقيق أهداف مقصودة فضلاً عن ان هذا الجمهور هو الذي يختار الوسائل والمضمون الذي يناسبه ويشبع حاجاته . ولهذا فان الاستدلال على المعايير الثقافية السائدة يأتي من خلال استخدام الجمهور لوسائل الإعلام وليس من خلال محتوى الرسائل التي تقدمها وسائل الإعلام . وتبعاً لهذا التصور فان العملية الإعلامية والاتصالية في العراق بحاجة ماسة إلى بحوث الجمهور لأهميتها في عملية التخطيط والتنفيذ والمتابعة انطلاقاً من الأسس والعناصر العلمية اللازمة لتلك العملية .

مشكلة البحث:

طرأت العديد من التطورات على البيئة الإعلامية العراقية خاصة بعد ستة أعوام على الاحتلال الأمريكي للعراق من ظهور 54 فضائية و114 إذاعة و268 صحيفة عراقية بين مجلة وجريدة[3]. ويهدف البحث إلى التعرف على عادات وأنماط تعرض الشباب الجامعي في جامعة تكريت لوسائل الإعلام العراقية واستخداماته لها، والاشباعات المتحققة من ذلك الاستخدام، انطلاقاً من كون المشكلة في هذا البحث هي موقف غامض وظاهرة تحتاج إلى تفسير وقضية ممكن إدراكها أو ملاحظتها ويحيط بها شيء من الغموض[4]، لذا فهي تحتاج إلى البحث والدراسة العلمية للوقوف على مقدماتها، وبناء العلاقات بين عناصرها ونتائجها الحالية[5].

ويمكن هنا تحديد مشكلة البحث في (التعرف على كيفية تعرض شباب جامعة تكريت إلى وسائل الإعلام العراقية، ورصد عادات التعرض واهم دوافع التعرض، واستخدامات شباب جامعة تكريت لوسائل الإعلام والاشباعات المتحققة من ذلك

الاستخدام) . وتنبع من مشكلة البحث عدة تساؤلات يسعى البحث للإجابة عنها واهم هذه التساؤلات هي:

1- ما مدى الانتظام في التعرض لوسائل الإعلام لدى شباب جامعة تكريت ؟
2- ما أنماط التعرض لوسائل الإعلام لدى الشباب الجامعي في جامعة تكريت ؟
3- ما أهم أسباب التعرض لوسائل الإعلام لدى شباب جامعة تكريت ؟
4- ما أسباب عدم التعرض (لغير المتعرضين) لوسائل الإعلام لدى الشباب الجامعي في جامعة تكريت ؟
5- ما عادات تعرض شباب جامعة تكريت لوسائل الإعلام ؟
6- ما هي استخدامات شباب جامعة تكريت لوسائل الإعلام والاشباعات المتحققة من ذلك الاستخدام ؟

مجتمع البحث:

يعرف مجتمع البحث بأنه المجتمع الذي يستطيع الباحث أن يختار منه عينة البحث، والذي يرغب في تعميم النتائج عليه[6]. وسوف يختار الباحث عينة البحث بأسلوب العينة الاحتمالية أو العشوائية، نظراً لان جميع أفراد المجتمع الأصلي للبحث معروفين ومحددين وهم عينة من طلبة كلية الآداب بجامعة تكريت للعام الدراسي 2008. 2009 وبواقع (200) طالب وطالبة بنسبة متساوية .

أداة البحث :

اعتمد الباحث على استمارة استبيان صممت لأغراض هذا البحث بعد عرضها على لجنة من المحكمين[7]. وقد تم الاعتماد على استمارة الاستبيان كأداة لجمع للبيانات وذلك لكونها قليلة التكاليف، وتتناسب مع العينة الموزعة في جامعة تكريت . كذلك فان أسئلة الاستبيان غير قابلة للتغيير وتجمع بين الأسئلة المغلقة والمفتوحة والمغلقة المفتوحة في آن واحد، مما يتيح مجالاً لعينة الدراسة كي تعبر عن

نفسها بحرية تامة ووضوح . وقد أبدى المحكمون ملاحظات تتعلق بصياغة بعض الأسئلة وترتيب البعض الآخر، ثم أجرى الباحث بعد ذلك اختباراً أولياً على عينة قوامها (10%) من حجم العينة الأصلية بلغ حجمها (20) مفردة . ولتحقيق ثبات الاستمارة استخدم الباحث أسلوب إعادة الاختبار (Test – Retest) على استمارة الاستبيان لمعرفة صلاحيتها للاستخدام حيث تم تطبيقها على عينة قدرها (10%) من إجمالي العينة ثم أعاد التطبيق على نفس المبحوثين للتأكد من فهمهم لطبيعة الموضوع وثبات إجاباتهم، ولقد تم حساب معامل الارتباط بين التطبيق الأول والثاني فكانت قيمته (90%)، وهي قيمة عالية تشير الى ثبات استمارة الاستبيان كمقياس .

الوسائل الإحصائية :

استخدم الباحث في تحويل التكرارات في كل فقرة من فقرات الإستبانة النسبة المئوية كوسيلة إحصائية وفقاً للقانون الآتي[8]:

$$\text{النسبة المئوية} = \frac{\text{العدد الجزئي}}{\text{العدد الكلي}} \times 100$$

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث في إطاره النظري على نظرية التعرض لوسائل الإعلام ونظرية الاستخدامات والاشباعات المتحققة منها، حيث تتناول هاتين النظريتين تأثيرات وسائل الإعلام على أفكار الجمهور ومشاعرهم وأحكامهم إزاء القضايا أو الأحداث أو السياسات أو الحكومات من خلال إبراز بعض القضايا وتجاهل قضايا أخرى . وقد اقتضت طبيعة البحث استخدام المنهج الوصفي بوصفه انسب المناهج العلمية المستخدمة لتحقيق أهداف المسح . وقد روعي أن يكون التعامل منهجياً مع

المادة العلمية في ضوء القواعد والأساليب المستخدمة في البحث العلمي وما يقتضيه ذلك من تحديد للمعلومات ووصفها وتحليلها وتفسيرها[9].

ونظراً لطبيعة البحث التفسيرية التي تستهدف التعرف على تعرض شباب جامعة تكريت لوسائل الإعلام ومضامين الاستخدامات والحاجات والاشباعات لوسائل الإعلام العراقية، فقد اعتمد الباحث على المنهج الوصفي باستخدام استمارة استبيان خصصت لاستطلاع رأيهم بوسائل الإعلام، من حيث عادات وأنماط تعرضهم لوسائل الإعلام والاستخدامات والاشباعات المتحققة منها.

المبحث الأول

مفهوم التعرض لوسائل الإعلام والاستخدامات والاشباعات المتحققة

يقصد بالتعرض لوسائل الإعلام استقبال الجمهور للوسيلة الاتصالية أو الرسالة الاتصالية[10]. ويعدّ التعرض أحد أركان العملية الاتصالية لاسيما وأنه يحقق استقبال الأفراد للوسائل والرسائل في إطار عملية مقصودة تستلزم امتلاك المتعرضين لمهارات اتصالية[11]، ويختلف الأفراد في مدى تعرضهم لوسائل الإعلام، وكلما زاد عمق التعرض دل على وعي الجمهور بالرسالة الإعلامية[12]، والتعرض لوسائل الإعلام قد يكون اختيارياً أو غير اختياري، وفي التعرض غير الاختياري، إذا تناقضت معلومات جديدة مع المعرفة التي لدى الفرد تحدث حالة تنافر تؤدي إلى تحريف أو إساءة فهم الرسالة، أو يتجنب هذه المعلومات أو ينساها أو يقلل من تنافره بتغيير آرائه . أما التعرض الاختياري فقد يكون هو نفسه إنتقائياً، ويعني إلا يعرض الفرد نفسه إلا للمعلومات التي يرغب في التعرض لها فعلاً، لذلك فان الرسالة يجب أن تأتي بحسب اهتمامات الجمهور الذي توجه إليه، كما أن عملية إشباع الحاجات من المعلومات تتم عن طريق ما يأتي[13]:

1- التعرض لوسيلة إعلامية محددة .

2- السياق الاجتماعي الذي تستخدم فيه الوسيلة، كالاستماع إلى الراديو بانفراد أو مشاهدة التلفزيون مع الجماعة، وقراءة الصحف في ظروف معينة .

أما نظرية الاستخدامات والاشباعات فتهتم هي الأخرى بدراسة الاتصال الجماهيري دراسة وظيفية منظمة، وتنظر الى الجماهير على إنها فعالة في انتقاء أفرادها لرسائل وسائل الإعلام[14]، خلافاً للنظريات المبكرة كنظرية التأثير المباشر لوسائل الإعلام أو ما تسمى بنظرية الرصاصة السحرية التي تنظر الى الجماهير على إنها كائنات سلبية وتتصرف بناءً على نسق واحد، فابتعدت النظرية عن هذه الفكرة وأحلت محلها فكرة ترى أن وسائل الإعلام تسعى لإشباع حاجات الجمهور، فابتعدت عن نظريات التأثير المباشر وجاءت فكرة التأثير غير المباشر أو المحدود لوسائل الإعلام [15]. فنظرية الاستخدامات والاشباعات تنظر الى العلاقة بين مضمون وسائل الإعلام والجمهور نظرة جديدة تفترض ان قيم الناس واهتماماتهم ومصالحهم وميولهم وأدوارهم الاجتماعية هي الأكبر تأثيراً وفاعلية على سلوكهم، وان الناس بصورة اختيارية ينتقون ويكيفون ما يستقبلونه في ضوء هذه الاهتمامات . والنظرية حسب تصورات ولبرشرام تهتم بالتفاعل بين المتلقي الوسيلة من ناحية علاقة الاستخدام بالإشباع[16]، أي ليست وسائل الإعلام هي التي تحدد للجمهور نوع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها بل أن استخدام الجمهور لتلك الوسائل لإشباع رغباته يتحكم بدرجة كبيرة في مضمون الرسائل الإعلامية التي تعرضها وسائل الإعلام[17]، وان اعتماد النظرية على مبدأ (التعرض الاختياري) يعني أن الإنسان يعرِّض نفسه اختيارياً لوسائل الإعلام ورسائله التي تلبي رغباته وتتفق معه ذلك ان نظريات التأثير الاختياري وهي:(نظرية الفروق الفردية، ونظرية الاختلاف الاجتماعي، ونظرية العلاقات الاجتماعية) استخدمت لفهم الناس ومعرفة كيفية اهتماماتهم وتأثرهم بوسائل الإعلام[18]، ففي الأربعينيات من القرن الماضي أدى إدراك تأثير الفروق الفردية

والاختلاف الاجتماعي على السلوك إزاء وسائل الإعلام الى رؤية جديدة بين الجماهير وسائل الإعلام، وشكلت هذه الرؤية تحولاً من رؤية الجماهير على إنها عنصر سلبي غير فعال الى رؤيتها بأنها فعالة في انتقاء أفرادها لمضمون مفضل في وسائل الإعلام . فقد وجد مكويل في استعادته للعديد من الدراسات أن هناك قدراً من الاتفاق بين مختلف الباحثين فيما يتعلق بطبيعة ومستويات التعرض والإشباع، وانتهت الدراسات الى ان الرضا والإشباع في استخدام وسائل الإعلام يظهر عند الأفراد فيما تحققه هذه الوسائل من حاجات[19]. وبموجب هذه النظرية فان الناس قد لا يتعرضون للرسائل التي يتوقعون أنها غير شيقة أو غير مفيدة، وان تعرضوا لها فإنهم سوف يتجاهلونها أو ينسوها، فالفرد عندما يشاهد التلفزيون لا يعطي اهتماماً متساوياً للمعلومات الواردة في البرنامج لان بعض هذه المعلومات غير مفيدة له، أما البعض الآخر فانه مفيد بشكل ما وبالتالي يتعرض له ويتذكره.

المبحث الثاني

العوامل المؤثرة

على تعرض واستخدامات الشباب الجامعي لوسائل الإعلام

إن العوامل المؤثرة على تعرض واستخدامات الشباب الجامعي لوسائل الإعلام تتعلق بتفضيل الجمهور لوسيلة إعلامية معينة على غيرها، أو مضمون محدد، أي ما يخص تكوين الجمهور وتأثيره على الاختيار. ويمكن توضيح ذلك عن طريق ما يأتي :

1- **التعليم** : اتفقت الدراسات على أنه كلما ارتفع المستوى التعليمي لدى الإنسان كلما زاد استخدامه لوسائل الإعلام، فيزيد الإقبال على قراءة الصحف مع ارتفاع المستوى التعليمي، وان الوسائل المسموعة لا تتطلب نوعاً من التعليم إلا في

بعض البرامج الثقافية العالية، أما الوسائل المطبوعة فتستلزم نوعية من الجماهير تكون على درجة معينة من التعليم أدناها معرفة القراءة[20]، وان المتعلمين يختارون البرامج الجادة في الإذاعة على حين يختار الأقل تعليماً البرامج الترفيهية الخفيفة[21].

2- **السن** : تتباين حاجات الناس واهتماماتهم الترفيهية والاجتماعية والسياسية باختلاف مراحلهم العمرية، فكل مرحلة عمرية لها توجه خاص في اختيار رسائل ووسائل الإعلام. فأثبتت دراسة (صباح ناهي) ان فئة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين (21-30) سنة هم الأكثر تعرضاً لوسائل الإعلام ويقل التعرض مع ارتفاع السن[22]وتنطبق النتيجة على التعرض للتلفزيون ذلك ان الشباب هم الأكثر تعرضا للتلفزيون على حين إن من أعمارهم (50) سنة فما فوق هم اقل تعرضاً[23]، على حين أثبتت دراسة (ليلى حسين السيد) ان التلفزيون هو أكثر وسائل الاتصال التي يحرص كبار السن على التعرض لها، يليها الراديو ثم الصحف واهم المضامين التي يحرصون على التعرض لها في وسائل الاتصال هي الموضوعات الدينية والأخبار والبرامج السياسية والثقافية والصحية [24]، على حين نجد الأطفال وصغار السن يفضلون المواد الترفيهية على المواد الجادة، وكلما ارتفع السن تحول الاهتمام من موضوعات الخيال الخفيف الى الموضوعات غير الخيالية أي الجادة[25].

3- **الجنس** : ان الاختلافات بين الرجل والمرأة نابعة من اختلاف وظائف كل منهما واهتماماتهم الاجتماعية والتربوية والثقافية، وكذلك اختلافات تتعلق بأوقات فراغ كل منهما، فأثبتت دراسات في المملكة المتحدة إن النساء يشاهدن التلفزيون أكثر من الرجال، وان الرجال يقرأون الصحف أكثر من النساء [26]، وهذا ما أثبتته دراسة (صباح ناهي) وهو أن الإناث أكثر تعرضاً للتلفزيون من الذكور، وبالنسبة

للإذاعة كانت نسبة التعرض متساوية بين الذكور والإناث، أما التعرض للصحف فكان الذكور أكثر تعرضاً من الإناث[27] وأشارت دراسات أخرى أن النساء اقل اهتماماً من الرجال بالشؤون العامة في وسائل الإعلام، وان النساء تميل إلى قراءة القصص الخيالية في المجلات ومتابعة المسلسلات اليومية وبرامج الاقتصاد المنزلي في المدة الصباحية في الإذاعة، على حين يميل الرجال لقراءة المواد غير الخيالية، والى مشاهدة البرامج التلفزيونية والأفلام التي تحتوي على مشاهد الإثارة والعنف[28].

4- **الدخل** : إن عامل الدخل له أيضاً علاقة باستخدام وسائل الإعلام، ذلك انه كلما زاد دخل الإنسان زاد استخدامه لوسائل الإعلام، وهذا ينطبق على قراء الصحف أكثر مما ينطبق على مستمعي ومشاهدي الإذاعة والتلفزيون، ذلك ان أصحاب الدخل المنخفض يملكون مجالاً أضيق للاختيار بين نشاطات وقت الفراغ، فلا يتاح لهم السفر أو ممارسة الرياضة غالية المعدات والتكاليف أو حضور العروض الموسيقية والمسرحية والسينمائية او القيام بالرحلات، أو شراء الأجهزة التقنية الحديثة (كأجهزة الفيديو وكاميراته، والعاب الفيديو والكومبيوتر)، لذا فأن من المتاح لهم سماع الإذاعة ومشاهدة التلفزيون[29].

5- **الأدوار والظروف والمكانة الاجتماعية** : تؤدي إلى تشكيل صورة نموذجية عن استخدام وسائل الإعلام بالشكل المقبول اجتماعياً، حيث يشير بلوملر Blumler إلى ان مجالات الحياة تدفع الإنسان للتعرض لوسائل الإعلام، كي يتكيف مع ظروف وإمكانات اجتماعية وثقافية وسياسية تشكل لديه حاجة الى المعلومات التي يمكن ان يجدها عن طريق استخدامه لوسائل الإعلام . وبما ان التعرض تتحكم به الظروف الخارجية والصدف فضلاً عن لعوامل أخرى فأن استمرارية التعرض لأشكال معينة من المواد الإعلامية تشكل مؤشراً على أهمية إرضاء

الحاجات الإنسانية، وهذا الإرضاء يشكل عاملاً في تقوية هذا السلوك من التعرض وإستمراريته[30].

6- **الوقت**: كلما ارتقى الإنسان في سلم الحضارة كلما زاد وقت فراغه، لاسيما وان المخترعات الحديثة تعمل على زيادة وقت الفراغ، ووقت الفراغ هذا هو من نتاج المجتمع الصناعي وتلعب وسائل الإعلام دوراً كبيراً في شغل أوقات الفراغ . ويمكن قياس وقت الفراغ بكمية الأوقات الحرة غير المرتبطة بالعمل[31]، وفي العصر الحديث ازداد وقت الفراغ لدى الأفراد مما جعلهم يتجهون نحو وسائل الإعلام لقضاء اغلب أوقات الفراغ معها لما تتمتع به هذه الوسائل من قدرة على جذب الجماهير، وان المضامين التي تبثها هذه الوسائل تشدهم بدرجات متفاوتة[32].

7- **الثقة بالمصدر** : ان الثقة بالمصدر هي درجة الصدق التي يوليها المستقبل للمصدر او الرسالة الاتصالية، وان الثقة بالمصدر تهئ لاستهواء الجمهور مما يدفعهم الى قبول المضمون، ولذلك تسعى مصادر الاتصال المختلفة الى نيل ثقة جماهيرها بأساليب مختلفة، وان المعيار الحقيقي للثقة بالمصدر من قبل المستقبل هنا هي ما يتصوره عن المصدر بصرف النظر عن الواقع[33].

8- **عادات التعرض** : تعني عادات التعرض[34] الإجابة عن الأسئلة الخاصة بكيفية القراءة أو الاستماع أو المشاهدة، وان الفرد يكيف تعرضه لوسائل الإعلام بالشكل الذي ييسر له عملية التعرض إذ يبذل اقل جهد ممكن فهو يختار الوقت والمكان المناسب بالشكل الذي يتفق مع سماته العامة والسمات الاجتماعية والفردية[35]، والعادات الاتصالية التي يكونها الإنسان هي التي تمكنه من تحقيق أهدافه فهناك من يفضل الصحافة أو الإذاعة أو التلفزيون، والمهم ان الشخص

يختار الوسيلة التي يعتقد أنها تلبي حاجاته وتشبع رغباته، أو الوسيلة التي يسهل استخدامه لها حسب ظروفه الشخصية .

9- **الخصائص النفسية** : لا يمكن إهمال الخصائص النفسية التي تؤدي إلى الاقتناع أو عدمه، كخصائص تقدير الذات، والقلق، والتفتح الذهني، والتأثر بالآخرين، وهي خصائص لها دور في التأثر والاقتناع بالرسائل الإعلامية . أما الخصائص الأخرى مثل الاضطرابات النفسية، والمرض النفسي، والعداء، والعزلة الاجتماعية والهواجس فلها تأثير في الاستعداد المنخفض للاقتناع[36].

نتائج الدراسة الميدانية:

حاول البحث عبر التكامل في إطاره النظري، ومنهجه، وأدواته، التعرف على عادات شباب جامعة تكريت في التعرض لوسائل الإعلام، وكيفية استخدامه لها وتفضيله، وأهم دوافعه المتحققة من التعرض والاستخدام لهذه الوسائل، ولاسيما التعرف على الاحتياجات الحقيقية لعينة من طلبة كلية الآداب بجامعة تكريت كعينة ممثلة للشباب الجامعي بلغت (200) طالب وطالبة. وقد أظهرت النتائج ما يأتي :

النتائج الخاصة بالصحافة

1- تباينت اختيارات الشباب الجامعي في جامعة تكريت للصحف المحلية المفضلة، وكانت الأفضلية لصحيفة الوطن، تليها صحيفة المنتصف، ثم صحيفة دار السلام، ثم صحيفة الصدى . إذ أوضحت الدراسة الميدانية ان نسبة(50%) منهم يقرأون صحيفة الوطن، بينما يقرأ (19%) منهم صحيفة المنتصف، في حين يقرأ (16%) منهم صحيفة دار السلام . وجاءت أدنى مقروئية للصحف المحلية بنسبة (15%) لصحيفة الصدى . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (1)

يوضح أسماء الصحف العراقية التي يقرأها شباب جامعة تكريت ونسبتهم المئوية

المرتبة	أسم الصحيفة	عدد القراء	نسبتهم المئوية
1	صحيفة الوطن	100	%50
2	صحيفة المنتصف	38	%19
3	صحيفة دار السلام	32	%16
4	صحيفة الصدى	30	%15
	المجموع الكلي	200	%100

2- أظهرت نتائج البحث أن أغلب المتعرضين لوسائل الإعلام من الشباب الجامعي العراقي يفضلون قراءة الصحف المحلية لأسلوبها في عرض الأخبار بالدرجة الأولى، ثم للتحليلات التي تقدمها حول الأحداث بالدرجة الثانية، ثم بسبب التعود على قراءتها . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (2)

يوضح أسباب تفضيل الشباب الجامعي للصحف التي يقرأها ونسبتهم المئوية

المرتبة	سبب التفضيل	العدد	النسبة المئوية
1	لأسلوبها في عرض الأخبار	122	%61
2	للتحليلات التي تقدمها حول الأحداث	60	%30
3	للتعود على قراءتها	18	%9
	المجموع الكلي	200	%100

3- أظهرت النتائج أن الشباب الجامعي في جامعة تكريت نادراً ما يقرأ صحيفته المفضلة في ظل الظروف الحالية وبعضهم يقرأها مرة أو مرتين في الأسبوع،

والبعض الآخر يقراها من ثلاثة إلى أربعة أيام . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (3)

عدد المرات التي يقرأ فيها الشباب الجامعي الصحف العراقية ونسبتهم المئوية

المرتبة	عدد المرات في الأسبوع	العدد	النسبة المئوية
1	نادراً ما يقرأ الصحف	118	%59
2	مرة أو مرتين في الأسبوع	56	%28
3	ثلاثة إلى أربعة أيام في الأسبوع	26	%13
	المجموع الكلي	200	%100

4- أوضحت نتائج البحث أن أهم الأساليب التي تستهوي الشباب الجامعي في جامعة تكريت عند قراءته الصحف هي أن يتصفح الجريدة بسرعة، ثم يختار الموضوعات التي يبدأ بقراءتها . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (4)

أهم الأساليب التي تستهوي الشباب الجامعي عند قراءته الصحف العراقية ونسبتهم المئوية

المرتبة	أهم أساليب الشباب الجامعي في قراءة الصحف	العدد	النسبة المئوية
1	يتصفح الجريدة بسرعة ثم يختار الموضوعات	97	%48،5
2	يبدأ بقراءة الصفحة الأولى والأخيرة	92	%46
3	قراءة صفحة معينة	11	%5،5
	المجموع الكلي	200	%100

5- يرى (55%) من الشباب الجامعي ان عدد الصفحات في الصحف العراقية كافية تماماً، بينما يرى (40%) من أفراد العينة ان عدد الصفحات قليلة في

حين يرى (5%) منهم انها كافية أكثر من اللازم . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (5)

آراء الشباب الجامعي في عدد الصفحات في الصحف العراقية ونسبتهم المئوية

المرتبة	رأي أفراد العينة	العدد	النسبة المئوية
1	عدد الصفحات كافية تماماً	110	%55
2	عدد الصفحات قليلة	80	%40
3	عدد الصفحات كافية أكثر من اللازم	10	%5
	المجموع الكلي	200	%100

6- أظهرت نتائج الدراسة الميدانية ان شباب جامعة تكريت لا يجد في الصحف العراقية كل ما يحتاجه ويريده وبنسبة (67،5%)، بينما كان رأي البعض الآخر انه يجد في الصحف العراقية كل ما يحتاجه وبنسبة (32،5%) من إجمالي عدد أفراد العينة . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (6)

رأي الشباب الجامعي في الاشباعات التي توفرها لهم الصحف العراقية ونسبتهم المئوية

المرتبة	الاشباعات التي توفرها لهم الصحف العراقية	العدد	النسبة المئوية
1	لا يجد في الصحف العراقية كل ما يحتاجه ويريده	135	%67،5
2	يجد في الصحف العراقية كل ما يحتاجه ويريده	65	%32،5
	المجموع الكلي	200	%100

7- يحصل شباب جامعة تكريت على الجريدة عن طريق شراؤها بنسبة (45%)، ويحصل عليها عن طريق الاستعارة من آخرين في الجامعة أو المنزل بنسبة

(35%)، بينما يحصل عليها مجاناً من الجامعة بنسبة (20%) من إجمالي العينة . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (7)

طريقة الشباب الجامعي في الحصول على الصحف العراقية ونسبتهم المئوية

المرتبة	طريقة الحصول على الصحف	العدد	النسبة المئوية
1	عن طريق شراؤها	90	%45
2	عن طريق الاستعارة من آخرين في الجامعة أو المنزل	70	%35
3	يحصل عليها مجاناً من الجامعة	40	%20
	المجموع الكلي	200	%100

النتائج الخاصة بالتلفزيون :

جاءت نتائج البحث لتؤكد ما يأتي :

1- أظهرت نتائج البحث أن الشباب الجامعي في جامعة تكريت يفضل التلفزيون كأقرب وسيلة إعلامية لاهتماماته، وقد كانت الإذاعة ابعد الوسائل الإعلامية لهذه الاهتمامات .

2- يشاهد التلفزيون دائماً (64%) من إجمالي عدد أفراد العينة بينما يشاهده أحياناً (26%) منهم ونادراً ما يشاهده (10%) منهم . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (8)

تعرض الشباب الجامعي للتلفزيون ونسبتهم المئوية

المرتبة	تعرض الشباب الجامعي للتلفزيون	العدد	النسبة المئوية
1	يشاهد التلفزيون دائماً	128	%64
2	يشاهد التلفزيون أحياناً	52	%26
3	نادراً ما يشاهده	20	%10
	المجموع الكلي	200	%100

3- أظهرت نتائج البحث ان الشباب الجامعي في جامعة تكريت يفضل متابعة قناة الشرقية، ثم قناة صلاح الدين، ثم قناة البغدادية، ثم قناة بغداد، تليها قناة العراقية . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (9)

يوضح مرتبة وأسماء القنوات التلفزيونية المفضلة لدى شباب جامعة تكريت ونسبتهم المئوية

المرتبة	أسم القناة المفضلة	العدد	النسبة المئوية
1	قناة الشرقية	136	%68
2	قناة صلاح الدين	22	%11
3	قناة البغدادية	16	%8
4	قناة بغداد	16	%8
5	قناة العراقية	10	%5
	المجموع الكلي	200	%100

4- أشار المبحوثون الى إنهم يتابعون القنوات التلفزيونية لوجود برامج مفضلة لديهم ممثلة من خلال الجدول الآتي :

جدول رقم (10)

يوضح البرامج التلفزيونية المفضلة لدى شباب جامعة تكريت ونسبتهم المئوية

المرتبة	البرامج المفضلة	العدد	النسبة المئوية
1	الأخبار والبرامج السياسية	90	%45
2	الأغاني والبرامج الفنية	50	%25
3	البرامج الرياضية	42	%21
4	البرامج الثقافية	18	%9
	المجموع الكلي	200	%100

5- توزعت أوقات مشاهدة التلفزيون على مستويات عدة، إذ يشاهد المبحوثون التلفزيون حسب وقت الفراغ بنسبة (61%)، بينما يشاهده البعض منهم ليلاً بنسبة (37%)، في حين يشاهده الآخرون وقت الظهيرة والعصر بنسبة (12%) من إجمالي العينة . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (11)

يوضح أوقات المشاهدة التلفزيونية المفضلة لدى شباب جامعة تكريت ونسبتهم المئوية

المرتبة	أوقات المشاهدة	العدد	النسبة المئوية
1	يشاهد التلفزيون حسب وقت الفراغ	122	%61
2	يشاهد التلفزيون ليلاً	72	%36
3	يشاهد التلفزيون وقت الظهيرة والعصر	6	%3
	المجموع الكلي	200	%100

6- يفضل الشباب الجامعي مشاهدة التلفزيون مع العائلة بنسبة (59%)، بينما يشاهده (31%) منفرداً، في حين يشاهده (10%) مع الأصدقاء . ويمكن إيضاح ذلك عن طريق الجدول الآتي :

جدول رقم (12)

يوضح عادات المشاهدة التلفزيونيةالمفضلةلدىشبابجامعة تكريتونسبتهمالمئوية

المرتبة	عادات المشاهدة	العدد	النسبة المئوية
1	يشاهد التلفزيون مع العائلة	122	%61
2	يشاهد التلفزيون منفرداً	72	%36
3	يشاهد التلفزيون مع الأصدقاء	6	%3
	المجموع الكلي	200	%100

7- إن أهم أسباب مشاهدة التلفزيون بهدف التسلية والترفيه بنسبة 60%، ثم الرغبة في زيادة المعلومات بنسبة 40% .

النتائج الخاصة بالإذاعة

جاءت نتائج البحث لتؤكد ما يأتي :

1- أكدت نتائج البحث أن (50%) من الشباب الجامعي في جامعة تكريت يفضلون سماع إذاعة صلاح الدين، و(47%) يفضلون سماع إذاعة جمهورية العراق، بينما يفضل آخرون سماع إذاعة راديو سوا بنسبة 3%.

2- أشارت النتائج إلى أن أكثر دوافع تعرض الشباب الجامعي في جامعة تكريت للإذاعة هي : الحاجة إلى متابعة برامج الاتصال المباشر (هموم المواطن) بنسبة 37%، تليها الأخبار بنسبة 33%، والأغاني بنسبة 25%، ومن ثم البرامج الرياضية بنسبة 5% .

3- أظهرت النتائج أن الشباب الجامعي يستمع يومياً الى الإذاعة مدة نصف ساعة بنسبة (66%)، وأكثر من ساعة بنسبة (27%)، وأكثر من ساعتين بنسبة 7%.

4- أظهرت نتائج الدراسة أن (44%) من أفراد العينة يرون ان ساعات الاستماع اليومية المفضلة للبث الإذاعي لديهم هي ليلاً، بينما يرى آخرون ان ساعات الاستماع المفضلة هي صباحاً بنسبة (42%)، في حين يستمع 4% منهم الى الإذاعة عصراً . أما أماكن الاستماع الأكثر تفضيلاً لديهم فهي البيت بنسبة 58% والسيارة بنسبة 42% .

الهوامش :

(1) سعيد محمد السيد وحسن عماد مكاوي : الإخبار الإذاعية والتلفزيونية (القاهرة : مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 1999م)، ص111 .

(2) عبد الرحمن العزي : دراسات في نظرية الاتصال، ط1؛ سلسلة كتب المستقبل العربي (28) (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية،2003م) ص115. وكذلك ينظر : د. عبد الرحيم أحمد درويش : العلاقة بين تعرض الشباب الجامعي للمسلسلات التلفزيونية العربية التي يعرضها التلفزيون المصري وادراك الهوية الثقافية للمجتمع المصري، بحث منشور في كتاب الاعلام المعاصر والهوية العربية، ج3، القاهرة، كلية الإعلام، 2004، ص916.

(3) مؤسسة بروكينغز الأمريكية : مؤشرات واقعية على تحسن الأوضاع في مجالات الأمن والاعمار- الأرقام المتعلقة بالحالة الأمنية في العراق، دراسة منشورة في صحيفة الوطن الكويتية بتاريخ 27/3/2009 .

(4) حميد جاعد محسن الدليمي : أساسيات البحث المنهجي، ج 1، بغداد : شركة الحضارة للطباعة والنشر،2004م)، ص34 .

(5) محمد عبد الحميد : البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، ط1، القاهرة: عالم الكتب، 2001م، ص70.

(6) فرج الكامل : بحوث الإعلام والرأي العام . تصميمها وإجراؤها وتحليلها، القاهرة : دار النشر للجامعات،2001م، ص88.

(7) تألفت لجنة المحكمين من الذوات :

أ. د عدنان ياسين مصطفى (دكتوراه اجتماع) كلية الآداب / جامعة تكريت .

أ.م.د حمدان خضر سالم (دكتوراه إعلام . صحافة) جامعة بغداد / كلية الإعلام .

أ. م .دضياء أنور حبش (دكتوراه فنون جميلة- مسرح) كلية الآداب /جامعة تكريت.

(8) عامر إبراهيم قنديلجي : البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية، ط2، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2002م، ص 134 .

(9) د. محمد منير حجاب : أساسيات البحوث الإعلامية و الاجتماعية، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003، ص 78 .
(10) د. هادي نعمان الهيتي : الاتصال الجماهيري ـ المنظور الجديد، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، 1998م، ص42.
(11) أحمد زكي بدوي : معجم مصطلحات الإعلام،القاهرة : دار الكتاب المصري، 1985م، ص154.
(12) محمد منير حجاب : الموسوعة الإعلامية، القاهرة : دار الفجر، 2003 م، مج1، ص150 .
(13) تيسير مشارقة : مدخل الى الدراسات الإعلامية : نظري . ط1 (رام الله : بيت المقدس للنشر والتوزيع، 2002م)، ص88.
(14) د. محمد منير حجاب : المعجم الإعلامي، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2004، ص 584 .
(15) آرماند ماتيلار وميشيليه ماتيلار : نظريات الاتصال، ترجمة أديب خضور، دمشق، المكتبة الإعلامية، 2003، ص 162 .
(16) عبد الله الطويرقي : علم الاتصال المعاصر، ط 2، الرياض، مكتبة العبيكان، 1997، ص 255 .
(17) د. محمد عبد الله الحصيف : كيف تؤثر وسائل الإعلام ؟، الرياض، مكتبة العبيكان، 1998، ص 26 .
(18) ملفين ل. ديفلر وساندرا بول روكيتش : نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، ط 3، القاهرة، الدار الدولية للنشر والتوزيع، 1999، ص 266.
(19) د. محمد عبد الحميد : دراسة الجمهور في بحوث الإعلام، القاهرة، عالم الكتب، 1993، ص 62- 63 .
(20) جبارة عطية جبارة : علم اجتماع الإعلام، الإسكندرية : دار الوفاء،2001م، ص231.
(21) د. جيهان رشتي : الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، القاهرة، عالم الكتب، 2001، ص405.

(22) صباح ناهي فجر الخزاعي : "خصائص الجمهور العراقي وعاداته في التعرض لوسائل الإعلام ". أطروحة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1999م، ص302.
(23) المصدر نفسه، ص 278 .
(24) ليلى حسين السيد : احتياجات كبار السن من وسائل الاتصال، بحث منشور في المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، العدد (1)، القاهرة : مركز بحوث الرأي العام، كلية الإعلام بجامعة القاهرة، 1998، ص75 . 79.
(25) جبارة عطية جبارة : مصدر سابق . ص231.
(26) فاطمة القليني وآخرون : علم الاجتماع الإعلامي، القاهرة : مكتبة زهراء الشرق، (د.ت)، ص96.
(27) صباح ناهي الخزاعي : مصدر سابق . ص301.
(28) فاطمة القليني وآخرون : مصدر سابق . ص96.
(29) المصدر نفسه : ص 97 .
(30) نور الدين عبد الجواد : الإعلام والرسالة التربوية، بحث منشور في : مجلة رسالة الخليج العربي.ع7 . السنة2. .1983م .ص72–ص73 .
(31) د. زكي الجابر : الإعلام والمؤسسة التعليمية – الطلاق الذي لم يكتمل الثلاث . بحث منشور في مجلة رسالة الخليج العربي . ع7. السنة2. 1983.ص44.
(32) جبارة عطية جبارة : مصدر سابق، ص234– ص235.
(33) د. هادي هادي نعمان الهيتي : الاتصال الجماهيري في العراق– وسائله واتجاهاته السياسية، اطروحة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى كلية الإعلام بجامعة القاهرة عام 1980م، ص21.
(34) العادة : هي سلسلة متعاقبة من الفعاليات يقوم بها الفرد بطريقة ثابتة وبشكل معين كلما توفر منبه معين يستلزم الاستجابة لها بذلك النمط من السلوك . انظر : علي الأمير : فسلجة النفس، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، 2002م، ص76.
(35) د. محمد عبد الحميد : دراسة الجمهور في بحوث الإعلام، مصدر سابق، ص106.
(36) د. احمد زكي بدوي : مصدر سابق، ص45.

مصادر البحث:

1- **أحمد زكي بدوي** : معجم مصطلحات الإعلام،القاهرة : دار الكتاب المصري، 1985م.
2- **آرماند ماتيلار وميشيليه ماتيلار** : نظريات الاتصال، ترجمة أديب خضور، دمشق، المكتبة الإعلامية، 2003 .
3- **تيسير مشارقة** : مدخل الى الدراسات الإعلامية : نظري . ط1 (رام الله : بيت المقدس للنشر والتوزيع، 2002م) .
4- **جبارة عطية جبارة** : علم اجتماع الإعلام، الإسكندرية : دار الوفاء،2001م.
5- **جيهان رشتي**:الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، القاهرة، عالم الكتب، 2001.
6- **حميد جاعد محسن الدليمي** : أساسيات البحث المنهجي، ج 1، بغداد : شركة الحضارة للطباعة والنشر،2004م .
7- **زكي الجابر** : الإعلام والمؤسسة التعليمية ـ الطلاق الذي لم يكتمل الثلاث . بحث منشور في مجلة رسالة الخليج العربي . ع7. السنة2. 1983.
8- **سعيد محمد السيد وحسن عماد مكاوي** : الإخبار الإذاعية والتلفزيونية، القاهرة : مركز جامعة القاهرة للتعليم المفتوح، 1999م .
9- **صباح ناهي فجر الخزاعي** : خصائص الجمهور العراقي وعاداته في التعرض لوسائل الإعلام، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى كلية الآداب بجامعة بغداد عام 1999م .
10- **عامرابراهيم قنديلجي** : البحث العلمي واستخدام مصادر المعلومات التقليدية والإلكترونية، ط2، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2002م .
11- **عبد الرحمن العزي** : دراسات في نظرية الاتصال، ط1؛ سلسلة كتب المستقبل العربي (28)، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية،2003م .
12- **عبد الله الطويرقي** : علم الاتصال المعاصر، ط 2، الرياض، مكتبة العبيكان، 1997 .
13- **علي الأمير** : فسلجة النفس، بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، 2002م .

14- **فاطمة القليني وآخرون** : علم الاجتماع الإعلامي، القاهرة : مكتبة زهراء الشرق، (د. ت) .
15- **فرج الكامل** : بحوث الإعلام والرأي العام . تصميمها وإجراؤها وتحليلها، القاهرة : دار النشر للجامعات،2001م .
16- **ليلى حسين السيد** : احتياجات كبار السن من وسائل الاتصال، بحث منشور في المجلة المصرية لبحوث الرأي العام، العدد (1)، القاهرة : مركز بحوث الرأي العام، كلية الإعلام بجامعة القاهرة، 1998 .
17- **محمد عبد الحميد** : البحث العلمي في الدراسات الإعلامية، ط1، القاهرة : عالم الكتب، 2001م .
18- ـــ : دراسة الجمهور في بحوث الإعلام، القاهرة، عالم الكتب، 1993.
19- **محمد عبد الله الحصيف** : كيف تؤثر وسائل الإعلام ؟، الرياض، مكتبة العبيكان، 1998.
20- **محمد منير حجاب** : أساسيات البحوث الإعلامية والاجتماعية، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2003.
21- ـــ: المعجم الإعلامي، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2004.
22- ـــ: الموسوعة الإعلامية، القاهرة : دار الفجر، 2003 م، مج1.
23- **ملفين ل. ديفلر وساندرا بول روكيتش** : نظريات وسائل الإعلام، ترجمة كمال عبد الرؤوف، ط 3، القاهرة، الدار الدولية للنشر والتوزيع، 1999 .
24- **نور الدين عبد الجواد** : الإعلام والرسالة التربوية، بحث منشور في : مجلة رسالة الخليج العربي.ع7 . السنة2. .1983م .
25- **هادي نعمان الهيتي** : الاتصال الجماهيري – المنظور الجديد، بغداد : دار الشؤون الثقافية ، 1998م .
26- ـــ : الاتصال الجماهيري في العراق . وسائله واتجاهاته السياسية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى كلية الإعلام بجامعة القاهرة عام 1980م.

الخطاب الإعلامي في ظل تحدي العولمة الاتصالية
جدلية العلاقة بين المضمون والتقنية والتأثير

د. سلام خطاب أسعد
جامعة تكريت /كلية الآداب – قسم الإعلام

مُقدِّمة

في عصر ثورة المعلومات واختراق الشبكات الفضائية والأقمار الاصطناعية لحدود الدول وانتشار أدوات نقل وتسجيل وعرض الأفلام السينمائية وغيرها من الوسائل الإعلامية المختلفة لم يعد الإعلام في عصرنا الراهن مجرد أداة لنقل العلم والمعرفة إلى الآخرين وتقديم الخدمة الإخبارية والتعليمية والترفيهية كما كان مخططا له إن يقوم به وإنما أصبح من الشمول والأهمية في عصر تكنولوجيا الاتصال وانفجار المعلومات كظاهرة للعصر الجديد الذي نعيشه وهو عصر غزو التكنولوجيا المعاصرة من خلال خطاباتها المتصاعدة بالقوة والتأثير لاتجاهات وقيم وثقافات الأمم بما تحمله من أيديولوجيات تتعارض مع القيم والأفكار الوطنية أو القومية لشعوب هذه الأمم أو مع الاعتبارات السلوكية والمضامين الاجتماعية– الثقافية لها– ولعل خطورة دور الإعلام لا تكمن فقط في كونه سلاحاً ذا حدين مزدوج التأثير إذا يمكن أن يستخدم في إغراض الهدم بنفس القدرة والفعالية التي يستخدم بها في إغراض البناء وإنما لصعوبة إمكانية التمييز المبكر بين السلبي فيه والايجابي من رسائله ومضامينه وخطاباته فضلا عن إن وسائله وأساليبه من ذلك النوع الذي يتعذر مقاومته ومنعه من الوصول إلى أهدافه إلا من خلال وسائل مقاومة فعالة ومن خلال إعلام مضاد فعال وليس من خلال محاولة منعه بالوسائل التقليدية التي اثبت الوسائل التكنولوجية الحديثة فيه صعوبة واستحالة تحقيق ذلك وبخاصة فيما يتعلق بالبث الفضائي المباشر أو لتقنية الانترنت وغيرها من وسائل الاتصال المتطورة الحديثة...

مشكلة البحث:

تتلخص مشكلة البحث بان هناك علاقة ارتباطية متصاعدة في عصرنا الراهن بين مضمون الخطاب الإعلامي المقدم من خلال وسائل الإعلام المختلفة وبين التقنية الحديثة المتطورة لهذه الوسائل التي تحدث تأثيرات متعددة بالجمهور المستهدف وبخاصة إذا ما كان هنالك تحريف متعمد لمضمون الخطاب الإعلامي – الاتصالي بحيث تتفاوت درجة فعالية الحوار بالسلب أو الإيجاب على طبيعة الهدف المقصود من كل عملية اتصالية– إعلامية على حده وأيضا على كفاءة الجهاز المستخدم وقوة الوسائط الاتصالية وعلى انتماء مصدر المعلومات ونوعية ارتباطاته ومصالحه المادية والمعنوية التي يريد تحقيقها.

فرضية البحث:

تقوم فرضية البحث على الإجابة عن التساؤلات الاتية:–

1– هل إن الإعلام يقدم خطابة الاتصالي بصورته الموضوعية المفترضة أم إن هناك تلاعب أو تحريف متعمد بمضمون هذا الخطاب؟
2– ما مدى تأثير التكنولوجيا المعاصرة للاتصال علىمضامينالخطاب الإعلامي؟
3– ما هي التأثيرات المحتملة لهذا الخطاب عندما يستثمر أو يستخدم لإغراض الهدم وليس البناء؟
4– هل هناك إمكانية ما للحد من هذه التأثيرات السلبية لمضمون هذا الخطاب؟

منهجية البحث:

يقوم البحث على اعتماد منهج البحث الوصفي لوصف وتحليل هذه الظاهرة التي أصبحت شائعة ومنتشرة في العديد من وسائل الإعلام الحديثة حيث يستثمر الخطاب الإعلامي في تحقيق وتنفيذ مأرب ومصارع غير ذات فائدة ألا لمن يملك هذه الوسائل أو يديرها لصالحه.

هيكلية البحث:

يتضمن البحث ثلاث مباحث رئيسية هي :–

1- مفهوم الخطاب الإعلامي ومضامينه الاتصالية.
2- حدود تأثير تقنية الاتصال على مضامين هذا الخطاب.
3- مجالات تأثير هذا الخطاب الإعلامي على الفرد والمجتمع. بالإضافة إلى الاستنتاجات والتوصيات والخاتمة.

المبحث الأول

مفهوم الخطاب الإعلامي ومضامينه

أولا :- مفهوم الخطاب الإعلامي:

الخطاب في اللغة مصدر للفعل خَطَبَ: خَطَبَ وخاطبه بالكلام : وعظ وقرأ وخاطبّه والخطاب ما يكلم به الرجل صاحبه[1] والخطاب : حديث، محادثه، مقاله، خطبه، محاضره[2]. أما المفهوم الاصطلاحي للخطاب فيعرفه الدكتور(محمد عابد الجابري) بأنه (النص وهو رسالة من الكاتب إلى القارئ فهو خطاب، فالاتصال بين الكاتب والقارئ إنما يتم عبر النص مثلما الاتصال بين المتكلم والسامع إنما يتم عبر الكلام أي عبر الإشارات الصوتية[3]، إما(ميشيل فوكو) فيعرفه بأنه (النصوص والأقوال كما تعطي مجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها المنطقية آو تنظيمها البياني)[4] والخطاب هو أي (منطوق لو فعل كلامي يفترض وجود راوٍ ومستمع وفي نية الراوي التأثير على المستمع بطريقة ما)[5] والخطاب هو (بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر أو هو هذه ألوجهه من النظر موضوعه في بناء استدلالي أي شكل مقدمات ونتائج وتقديم وجهة النظر هذه إلى القارئ بالصورة التي تؤدي مهمتها لدى الأخير في الإخبار والإقناع)[6].

ويميز الجابري بين قراءتين للمتلقي، قراءة استنساخية، تقف عند حدود التلقي المباشر، وقراءة تأويلية، تقدم وجهة نظر، وهي القراءة التي يعتمدها الجابري ويقترحها وهذه القراءة يسميها (القراءة التشخيصية والتي حلل بها مجموع نصوص الفكر العربي المعاصر وما اسماه بـ(الخطاب العربي المعاصر)، وينظر الى تعدد مفاهيم الخطاب في الأدبيات الفلسفية والعلمية والسياسية والأدبية من منظور موحد بسبب الاستخدام

الشامل لمفهوم الخطاب دون وضع إطار تعريفي له في حقل واحد من حقول المعرفة[7]. ويرى فوكو في حفريات المعرفة، (إن الإبهام الذي يحيط بتعريف الخطاب يعود إلى اختلاف الفهم وتطوراته عند الباحثين في النظرة الى لفظ الخطاب، وهو كل ما أنتج بوساطة الأدلة او باعتباره مجموعة من أفعال الصياغة والجمل والقضايا إلى اعتبار الخطاب مجموعة من الأدلة من حيث هي عبارات يمكن تعيين وجودها الخاص)[8]. اذ تعود اللغويون إعطاء لفظة (الخطاب) معنى لا يطابق المعنى الخاص بالنسبة لمستخدمي لفظة الخطاب في العلوم السياسية والاتصالية ويعني مفهوم الخطاب (نظام تعبير مقنن ومضبوط)[9]. ويعد هذا النظام في جوهره بناء فكرياً، يحمل وجهة نظر، وقد جرت صياغته في بناء استدلالي أي بشكل مقدمات ونتائج بين مخاطب (بكسر الطاء ومخاطب بفتح الطاء) ضمن عملية التوصل والاتصال، وبعبارة اخرى فان (الخطاب) يعني المعرفة المنظمة بجانب محدد من الواقع، او ظاهرة محددة، ومن ثم يمكن الحديث عن خطابات متعددة، سياسية واخرى فلسفية ... الخ[10].

ومر مفهوم (الخطاب) منذ ظهور الدراسات الألسنية على يد (دي سوسور) في محاضراته اللغوية الشهيرة بتطورات عدة، فقد كانت كتب النحو تطلق (الخطاب) في البداية على اقسام الكلام، واصبح يعني في اللسانيات البنيوية، الكلام في حركية التواصل، أي اللغة التي يستعملها الافراد، ويمثل في جوهره الوحدة التي تساوي او تفوق الجملة، الا ان اللسانيات المعاصرة ترى ان الخطاب يعني كل تعبير يتجاوز الجملة، وهو قائم على مجموعة من العلائق تربط بين الجمل، وعند القيام بعملية التحليل تكون الجملة اصغر وحدة يحلل اليها الخطاب[11].

وفي تاريخ اللسانيات، نجد ان علماء اللغة يميزون بين الخطاب وبين الحديث، ذلك ان الحديث يمكن ان يجمع في عينة لغوية واحدة، ويحلل عناصر صغرى بدءاً بالصوت أي (النوينم) باعتباره اصغر وحدة، في حين ان تحليل الخطاب يسير في اتجاه اخر، اذ ان الجملة هي الوحدة الصغرى[12]. وقد وضعنا الاختلاف في التحليل والتفسير أمام ضرورة ورود التعريفات المتعددة للخطاب[13]:

أولاً : يعرف معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (الخطاب) انه (مجموعة التعابير الخاصة التي تحدد بوظائفها مشروعها الإيديولوجي).

ثانيا : وعرفه (فوكو) هو (النصوص والأقوال كما تعطي مجموع كلماته ونظام بنائها وبنيتها المنطقية او تنظيمها البياني).

ثالثاً: فيما تعرفه بعض الأدبيات البنيوية على انه (الطريقة التي تشكل بها الجمل نظاماً متتابعاً تسهم في نسق كلي متغاير ومتحدد الخواص، وعلى نحو يمكن معه ان تتألف الجمل في خطاب بعينه تشكل نصاً منفرداً، وتتألف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطاباً أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد).

رابعاً : كما يسير مصطلح الخطاب الى (نظام فكري يتضمن منظومة من المفاهيم والمقولات النظرية حول جانب معين من الواقع الاجتماعي وبغية تملكه معرفياً، ومن ثم تفهم منطقه الداخلي، وذلك بعلاقة فكرية محددة تنظم بناء المفاهيم والمقولات بشكل استدلالي يحكم الضرورة المنطقية التي تصاحب عملية إنتاج المفاهيم).

وهذه التعريفات لابد ان تقدم أمامنا مجموعة من الحقائق المتعلقة بماهية الخطاب في واقعة المادي، باعتباره مكوناً من أشياء منطوقة ومكتوبة وبعملية إنتاج الخطاب وتوزيعه، وبالمنظومة التكوينية التي تتحكم بعملية التفاعل بين طرفي الممارسة الخطابية، وبأشكال هذه المنظومة حيث تأتي سلطة الخطاب لتكون الأداة التي بها ومن اجلها يقع الصراع وللاستحواذ على السلطة التي يمثلها الخطاب ذاته[14].

ثانياً:- الخطاب الإعلامي: تحريف المضمون:

يعد مصطلح الخطاب حديث الاستخدام في ميدان الإعلام، وهو مصطلح يقع ضمن العلوم اللغوية، ولا تساع دلالة الخطاب واستخدامه في العلوم الاجتماعية وبضمنها الاعلام واللغة ظاهرة اجتماعية تتحدد على وفق شروط وظروف اجتماعية وهي لاتعبر عن المجتمع وتعكس ظروفه فحسب، بل تشكل جزءاً اسياسياً منه، ومن هذه الزاوية تسللت معظم الاستخدامات السائدة لمصطلح الخطاب بمعناه غير اللساني[15]، حتى استخدم الخطاب على مختلف الازمنة في تحديد ماهية المجتمع وهويته .وهناك عدة انماط من الخطاب ضمن التشكيلة الخطابية يعبر عن طريقها عن هذه الوظائف[16].

أ-الخطاب المباشر الذي يتسم مضمونه بالمباشرة وهو خطاب حواري يستغني عن التقنيات المجازية .

ب-الخطاب الضمني ويتعارض مع الخطاب المباشر، ويهدف الى إيصال المعنى عن طريق رموز تأويلية غير مباشرة، او يتميز بامتلاكه قدرة حدسية وتوليد مستويات من التأويل الى ما لا نهاية .

ج -الخطاب الإيحائي ويتحدث عن موضوع معين قد يكون في بعض جوانبه مباشر ولكنه يوحي بأفكار أخرى، فهو لا يهدف الى إيصال مضمونه عبر رموز مباشرة أو ضمنيه[17]، وهذا بالطبع لا ينفصل في معناه ومغزاه عن مصطلح الإعلام الذي يعد ضرورياً لتحديد مفهوم الخطاب الإعلامي، وبالنظر لخصوصية استخدام مصطلح الإعلام في اللغة العربية، وصعوبة تحديده أكاديمياً، بحكم كثرة تداوله دون الاهتمام بدلالته[18]، فقد يستخدم بدلاً عن مصطلح الاتصال الجماهيري الذي يشير الى بث رسائل الى مجموعات كبيرة من الناس على اختلاف مستوياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وعلى اختلاف أماكن وجودها بوسائل الاتصال الجماهيري كالمذياع والتلفاز وغيرها. وان العملية الإعلامية هي شكل من أشكال التفاعل الإبداعي مع الواقع الموضوعي تهدف الى الإسهام في تكوين الاتساق

المعرفي والقيمي والسلوكي عند المتلقي من خلال تشخيص الواقع ومواكبة تطوراته ومتغيراته، دون الارتباط بالأنظمة والانهماك في ترويج شعاراتها ورموزها وتقديم خطاباً تعبوياً مثقلاً بالمضامين الإيديولوجية ومستخدماً لغة خشبية من اجل إخفاء الخلل والقصور البنيوي في هذه الأنظمة[19]. وعلى ضوء ذلك يمكن القول ان الخطاب عملية اتصالية لها مستويات عديدة كالخطاب السياسي والاعلامي وغيرهما، وبذلك يمكن تعريف الخطاب الاعلامي بانه(عملية اتصالية، ينقل فيها رسائل الى جمهور كبير غير متجانس وغير معروف للقائم بالاتصال، وتستعين بوسائل الاتصال لنقل تلك الرسالة كالمذياع والتلفاز والسينما والصحف والكتب، وتتمثل وظيفتها الأساسية بالإخبار والترفيه والتعليم والإقناع، وتهدف الى التأثير وليس مجرد إرسال الرسائل، فلا قيمة للاتصال دون تحقيق اهداف، ولإنجاح للاتصال دون إحداث تأثير[20]. وإذا كان مضمون او محتوى الرسالة او الخطاب الإعلامي يرتكز على عناصر محددة، تتمحور حول وظيفة مراقبة البنية العامة، وحصر فعالياتها، ونقل أخبارها والتزود بمعلومات عنها، وإعطاء معلومات حولها، وبناء ما هو محدد في كثير من الأدبيات الإعلامية، فانه في الوقت نفسه يرتكز على وظيفة أخرى مكملة لكنها اعتبرت أساسية في السياق البنائي للعملية التواصلية، وهي وظيفة التأثير، لكن هذا التأثير رهن تطور المضمون الثقافي الإعلامي لوسائل الإعلام وبالأخص القنوات الفضائية[21].

إن البت فيما إذا كان مضمون الخطاب الإعلامي محرفاً أم لا لا يتوقف فحسب على دقة معلومات محدده بل أيضا على تعريف لمضمون هذا الخطاب وقيمة الإخبار أو المعلومات الواردة فيه ويتبين من عدد من التعارف المقدمة بصورة تقليدية لمضمون هذا الخطاب من حيث الإخبار والمعلومات التي يتضمنها إن تتوفر لها عدة عناصر لعل من أهمها إن يجري تداولها بسرعة عقب الحدث وان تثير الاهتمام على نطاق واسع وان تتضمن معلومات لا يكون المستقبل (القارئ أو المستمع آو المشاهد) قد تلقاها من قبل وان تمثل خروجاً عن النمط اليومي المعتاد للحياة وان تشمل على المعلومات تفيد في التوصل إلى قرارات وغيرها من العناصر الأخرى إلا إن المناقشة

الجارية حول صحة وتحريف المضامين الواردة بالخطاب الإعلامي تؤكد على جدوى الفائدة التي يستمدها الناس من الاتصال والإعلام من خلال شتى أنواع الرسائل التي ينقلها المحتوى (تحقيقات صحفية، تعليقات، مقالات , دراسات تحليليه..الخ) وذلك من خلال الاتصال الشفهي أو وسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة والأفلام والكتب والوسائل البصرية وغير ذلك .

لقد أكدت ندوة جنيف للاتصالات التي انعقدت تحت شعار (الاتصالات في 2015) من إن الاتصال سيتغير ملامحه من حيث الرسائل والمضمون والتأثير حيث سيكون ذلك منطلقا لتغير جذري في نمط الحياة البشرية حيث إن القوة التي تميز وسائل الاتصال والإعلام في عصرنا الراهن رافقتها تغير جذري كذلك في مفهوم السيادة الوطنية للدول حيث أصبحت النشاطات الحديثة للاتصالات مترابطة أكثر فأكثر تتجاوز الحدود وتتخطاها بسهوله فاتحه بذلك مجالا جديداً لتدفق البرامج التلفزيونية الفضائية وغيرها من وسائل الإعلام الحديث ورسائله وهي بذلك قد غيرت مفاهيم السيادة الوطنية التي تأثرت باتساع مجال عمل ونشاط وسائل الإعلام التي يمكن إن نقول انه أصابها نوع من (الانفجار) ان صح التعبير من خلال السيل المتدفق من التطورات التكنولوجية الحديثة مما احدث واقعاً جديداً يقول بان المتحكم في التقدم التكنولوجي هو الذي يسيطر في مجرى الإحداث التأثيرات . إن التطورات المستقبلية (الفنية) في مجال البرمجيات والمعلوماتية والاتصال والإنتاج السمعي والبصري ستخلق واقعاً جديداً يشير إلى صعوبة الحفاظ على الذاتية الوطنية والخصوصية الثقافية والمصالح الاقتصادية والاستقلالية الفكرية والمعايير والقيم الاجتماعية في ظل هكذا التطور متسارع[22].

إن نجاح وسائل الإعلام في مجال تحريف محتوى الخطاب الإعلامي وتضليل المتلقي يرتبط بعدة عوامل لعل من أهمها[23]:-

1- سياق الإحداث والأوضاع الراهنة (الوقت والحدث، استباق الحدث، تهيئة الأذهان للحدث).

2- نفسية المتلقي واستعداده الذهني لتقبل الخطاب الإعلامي الموجه (التحصين من التأثير المقابل).

3- طبيعة النظام الاجتماعي ومدى استقراره.

4- العلاقات الدولية ومدى تفاعلها وطبيعة استثمار وسائل الإعلام ضمنها في حالة الصراع أو التعايش السلمي.

5- الإحداث الداخلية المؤثرة على طبيعة علاقة المتلقي بالنظام السياسي القائم وأجهزته الإعلامية والثقافية.

6- الإمكانيات الفنية للوسيلة الإعلامية التي يقدم من خلالها الخطاب الإعلامي.

7- قوة الرسالة الإعلامية (صياغتها بشكل مؤثر) لجذب الانتباه والاهتمام لدى جمهور المتلقين.

يقول الباحث الإعلامي الفرنسي (ميشيل كولون) في كتابه (احذروا الإعلام)[24] إن المعلومات التي تقدمها وسائل الإعلام المسيطرة هي في حقيقتها دعايات بارعة لان المعارف التي توصلها إلى الناس هي تلك التي تفيد الطبقة السياسية السائدة وهي في الغرب على مستويين للجماهير إعلام وسيله ودعاية ولأصحاب القرار معلومات واقعية.وان مضامين الخطاب الإعلامي التي تقوم على مرتكزات أساسية أبرزها :

أ- الإثارة

ب- الصراع

ت- التوقع

ث- الغموض

ج- الواقعية

ح- المصداقية

وغيرها تصبح تقليدية في زمن تحريف المضمون لصالح غايات ومصالح وأهداف أخرى قد لا نجدها في أجنده الإعلام التقليدي.

المبحث الثاني

حدود تقنية الاتصال وتأثيراتها على مضمون الخطاب

تشكل التقنية بالنسبة للإعلام أهميه كبرى لأنها الميدان التي تختصر فيه إمكانات احتلال سبل التوجيه بالرموز والإشارات اللازمة لما يتطلبه تطور الرأسمالية العالمية الاندماجية لكي تحقق هذه الرأسمالية أفضل ظروف الأداء بحيث تكون مرجعاً جماعياً للتطور الاجتماعي والثقافي والإنتاج وموجهاً للابتكارات التي تتكيف مع هذه الدوافع بحيث يتحقق التكامل بين التقنيات والخطابات الاقتصادية والسياسية والثقافية تحت تأثير المجال التقني، إن من ملامح العصر الإعلامي الحالي سهولة انسياب المواد الاتصالية والمعرفية في العالم حيث تتضاءل الحدود والحواجز على مستوى العالم وتسيطر الدول الأقوى تقنياً على المادة المناسبة وتتحكم في أنتاجها وتدفقها وبالتالي تكيفها وفق مصالحها الحضارية والثقافية والسياسية، فالقرن الحالي هو قرن التعددية الاتصالية وليس إعلام الدولة الواحدة وسوف تسهم هذه التعددية إذا ما أحسن استثمارها واستغلالها وفق مراميها المشروعة والايجابية في إعادة التوازن للاتصال الإعلامي وفي تنوع وسائل التعبير ودعم شتى الخصوصيات المكونة للذاتية الثقافية وإتاحة المجال لنشر المعلومات وفق مضامينها الموضوعية الواقعية إلا إن واقع الحال يقول بغير ذلك حيث إن قدرة الإعلام من خلال رسائله ومضامينه على التأثير على القيم داخل الذاكرة الجماعية للشعوب والأمم وإشكالية التعامل مع الموروث الحضاري والثقافي يحطم كل ما هو معروف ومألوف من دور لتنظيم الايجابي المفترض لوسائل الاتصال والإعلام حيث تمتلك الشبكات الالكترونية الإعلامية الحالية في قنواتها لغة ودلالات تشكيل خريطة اجتماعية وسياسية وثقافية أدراكية جديدة لمجتمعات العالم تعتمد على ما يسمى التدفق الحر للمعلومات وإعادة تشكيل الوعي الإنساني بأطر جديدة يخلقها ويعزز من نجاحها التفاعل بين تقنية الاتصال المتطورة المتسارعه في النمو ومضامين الرسالة الاتصالية المتصاعدة في أساليب الصياغة والإنبهار و التشويق والقدرة على جذب الانتباه وبما تتيحه التقنية

الجديدة من إمكانات ضخمة في نقل المعرفة وتخزينها وتبويبها وإعادة توزيعها وتوظيفها وفق أهداف وغايات محددة يسعى للوصول إليها القائمين أو المالكين لها[25].

لقد اختلفت الآراء وتعددت في مجال تفسير العلاقة بين الخطاب الإعلامي وتقنية الاتصال ففريق يرى إن نمو النشاط العلمي ضمن الخبر الثقافي – الاجتماعي المعرفي إلى الحد الذي يبدو معه انه قد اخذ دور ومكانها الأسرة أو الثقافة وغيرها من وسائل التربية والتنشئة الاجتماعية فيما يرى ناخرون بان الانتصار الحديث للعلم يخوله على الأقل التحكم في ثقافة المجتمع بجامعها فيما يرى فريق ثالث إن خطر الغزو الثقافي يلوح في الأفق عندما يصبح الفرد والمجتمع واقعين تحت نفوذ وتأثير جهات خارجية متنفذه[26].

لقد تفاعل العلم (تقنية الاتصال والمعلومات) مع الحضارة من خلال وسائل الإعلام والثقافة كمضمون ورسالة تفاعلا اولياً ايجابيا من خلال مفهوم عقلي حول تصور مستقبل هذا الكون ومستلزمات تطويره والمحافظة عليه والاعتراف المصير المشترك للإنسانية بأسرها إلا إن هناك موقفان متقابلان حول هذه العلاقة ينموان الأول من طغيان النموذج الحضاري – الثقافي الغربي من خلال التقنيات الحديثة للاتصال بينما يعرب الثاني نتناوله بقدرة هذه التقنية على تقديم ثراء معرفي من خلال الاستفادة القصوى من ثورة المعلومات والاتصال وربطها بإيقاع العصر وإحداثه وتطوراته لذلك فان الموقف المقترح اتخاذه للتعامل مع حدود هذا التفاعل بين التقنية والمضمون يتراوح بين الدعوة إلى الانغلاق وهو غير متاح تقنيا والدعوة إلى الذوبان إمام طغيان الثقافة الوافدة وهو متاح تقنيا وتعتمد النظرية المتوازنة على الإحاطة بما تمثله وسائل الإعلام الخارجية من ثقافة معينة تحمل قيما خاصة وتعبر عن مصالح ومنطق القوى المسيطرة والسائدة عالميا ومصالحه الاقتصادية والسياسية وإذا كانت هذه التقنية سوف تربط المتلقي في كل مكان في إرجاء المعمورة بما يحدث في العالم أنيا وترتقي بمدارك واهتمامات جمهور المتلقين فإنها من جانب أخر ستعمل على تخطيط الاتجاهات والسلوك والقيم وتجعلها تدور في إطار موحد[27]. ونظره إلى ما

تقوله الباحثة الأمريكية (ايلي فيزيل) (من إن اكبر انجاز تحقق في القرن العشرين هو هذا الذي نشهده، فنحن إذ نلقي المسافات ندرك إننا أخوة أينما كنا) أو ما يقوله الباحث الفرنسي (سيرج لاتوش) (انظر إلى الشوارع خالية انه زمن دلاس*)[28]. والعبارتان السابقتان تصفان تأثير تقنية الاتصال في حياتنا المعاصرة حيث إن الصور المقدمة من خلال وسائل الإعلام والاتصال شكلت إطار الثقافة الجديدة للعالم التي تحولت تدريجياً من ثقافة ألكلمة إلى ثقافة ألصورة ومن ثقافة القراءة إلى ثقافة المشاهدة.

وإذ تصبح الساحة العالمية حالياً خاضعة الى سيادة التكنولوجيا المتطورة وإذا تبقى هذه الساحة في أيدي القلة المتنفذة المالكة لها وحيث تبدو الهوة شاسعة بين طموحات الإفراد والجماعات والأمم وبين هذه القلة أصبح لزاما اللجوء الى حلول واقعية وموضوعية لهذه الإشكالية ولعل الدعوة إلى نظام إعلامي عالمي جديد ووضع قواعد مهنية للعمل ضمن مفهوم القرية الكونية التي تعكس سيادة الإشكال الغالبة لوسائل الاتصال كالأقمار الصناعية ومحطات البث غير الوطنية على العالم والى حق الإنسان في إن يتصل على ضوء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو من المطالبات الملحة لعدد كبير من دول العالم في مقدمتها دول العالم النامي التي تشعر بالحاجة إلى انتباه مضاعف عند التعامل مع التكنولوجيا المعاصرة لان هذه الوسائل تنقل معها ضمناً قيما خاصة طابعها الأساسي هو (الاستهلاك) وهمها بعد ذلك إيقاع اكبر عدد تملكه من البشر في شبكة (الإغراء) الإعلامي وهو إغراء لا يمكن إن ينجح في مجتمع يمتلك الإرادة والوعي والقدرة على التخطيط والرفض ولهذا فان الشركات الضخمة المسماة بغير الوطنية أو العابرة للقارات ترصد الكثير من الجهد والمال لإيقاع الكتلة الاجتماعية والقومية تدريجياً بشباك الهم الاستهلاكي المتواصل أي إخلاؤها من الوعي وتحريرها سلباً من الإرادة[29].

إن التلاعب بالأفكار من خلال تقنية متطورة للاتصال يشير إلى دعوة غايات أساسية من خلال استخدام أساليب هدفها الإقناع ومن ثم التحكم بمصائر الآخرين وهذه الأساليب أو الغايات تتفاوت بين الإثارة الوفيرة وسيادة النمطية وغياب التنويع

بالآراء والتخلي عن الجدل الجاد وتقليص ما من شأنه تأييد فاعلية الإنسان والإكثار من ترويج الاستهلال كلها توقع المتابع أو المستقبل للرسائل الاتصالية إلى أكثر من شخصية واحدة تتعامل مع المرء على انه العالم الحقيقي وتتخذ من قيمة وإيحاءاته معاييرها القيمة كما إن حجب الحقيقة وإغراق القارئ أو المتابع بركان من المعلومات التي لا تجعل منه بالضرورة مواطناً أحسن اطلاعاً وحسب مبادئ العرض والطلب المعروفة يتم تزويد الجمهور بما يرغب فيه مع مساع حثيثة لترويج المناسب من الأفكار والقيم المتوافقة مع مصالح القلة المسيطرة على مقاليد الأمور[30] . ويمكن إجمال إخطار ثورة تقنية الاتصال على مضامين الخطاب الإعلامي في عدة مجالات لعل من أهمها[31]:

أ- تداخل الرسائل الاتصالية المبثوثة بحيث تخلق جو من الاتصال الكاذب أو المزيف.

ب- من يسيطر على هذه التكنولوجيا سواء أكان قوة ظاهرية أو خفية يسعى للتأثير على السلوك الاجتماعي والاقتصادي والحضاري للمتلقي لصالحه.

ج- تنميط المنتجات الثقافية وتقنية معالجة المعلومات وإنتاج المعايير التي تشكل رغبات وحاجات الناس.

د- إعادة تشكيل نظم التعليم وأنماط حياة المستقبلين.

هـ- إعادة تشكيل الهوية الثقافية الذي يرافقه زعزعة الهوية القومية سياسياً واقتصادياً.

و- استغلال شركات الإعلان لهذه الإمكانات لجعل الاتصال السمعي- البصري سوقاً لبيع المشاهد إلى المعلن التجاري.

ز- استمرار التناقص القائم بين النزوع الديمقراطي المتزايد للعصر الراهن وبين احتكار القلة المتقدم لوسائل الإعلام والاتصال يهدد وبمزيد من الفوضى والتردي في هذا المجال في ميدان العلاقات الدولية.

المبحث الثالث

مجالات تأثير الخطاب الإعلامي

من الحقائق الثابتة إن وسائل الإعلام تؤثر في مجرى تطور البشر وان هناك علاقة سببية بين التعرض لوسائل الإعلام والسلوك البشري وذلك على الرغم من صعوبة الإثبات والعلاقة بين السبب والأثر لكل الإفراد إلا إننا نجد إن(برنارد برسلون) قد نضع إطاره المعروف للإجابة عن الأسئلة الخاصة بآثار الاتصال حيث قال (بعض أنواع الاتصال لبعض أنواع القضايا تؤدي إلى اهتمام بعض البشر بمحتوى وسائل الإعلام في ظل بعض الظروف مما ينتج عنه بعض أنواع الأثر)[32] ويحلل برسلون العبارة السابقة بالقول إن اثأر الاتصال عديدة ومتنوعة الشدة وقد تكون قصيرة الأمد أو طويلة الأمد، ظاهرة أو مستترة، قوية أو ضعيفة يمكن حدوثها من أي عدد من جوانب الرسالة الإعلامية ويمكن اعتبارها نفسية أو اجتماعية أو سياسية واقتصادية ويمكن إن تؤثر في الآراء أو القيم ومستوى المعلومات والمهارات والذوق والسلوك[33].

ويمكن إن تقدم وجهة نظر برسلون ملخصاً دقيقاً لوصف اثأر وسائل الإعلام من خلال مضامين خطابها الاعلامي على جمهور المتلقين والتي يمكن إجمالها بي[34]:-

1- التأثير على المعرفة والإدراك والفهم.
2- التأثير على الاتجاهات والقيم.
3- التأثير على تغير السلوك سواء أكان السلوك مقبول أو مرفوض اجتماعياً .

وستناول هذه التأثيرات بشيء من التفصيل كلا على حده :

أولا:- التأثير على المعرفة والإدراك والفهم:-

تتحكم بالمستقبل للخطاب الاعلامي عوامل الانتقائية في اختيار نوعية الوسيلة الإعلامية التي يختارها أولا ومن ثم الرسالة الاتصالية التي ينجذب إليها دون غيرها من الرسائل التي تبث أو تقدم يوميا بالمئات من وسائل إعلامية مختلفة. إلا إن

الوسيلة الإعلامية من خلال نجاحها في إثارة اهتمام المستقبل باستثمار خواص التقنيات الحديثة في مجال الاتصال مع الأساليب الفنية المتقدمة بصياغة مضامين الرسالة الاتصالية تستطيع إن تولد لديه أولا حاله الوعي (المعرفة) وصولا إلى حالة الإدراك والفهم وهذا ليحدث لا من خلال اعتماد أسلوب تكرار العرض والتجانس فيه نتيجة للتفاعل الحاصل بين محتوى الرسالة مع الخبرات الشخصية أو التجارب السابقة لدى الجمهور فان حالة الإدراك والفهم سوف تحدث لديه ولذلك يرى (ولبر شرام)[35] إن وسائل الإعلام يمكن إن توسع الأفاق فهي تجعل الإنسان يرى ويسمع ما لا يستطيع إن يعرفه بالخبرة المباشرة ويتعرف على أشخاص لم يكن يعرفهم لولا تعرضه لوسائل الإعلام . والسؤال المهم الذي يطرح نفسه هنا هل إن إطار المعرفة الذي يقدمه هذا الخطاب للمستقبل هو إطار حقيقي وواقعي أم انه يمكن إن يخلق لدية إطارا معرفياً كاذبا أو مزيفا بحيث يحاول المستقبل له إن يماثل تجربته وحياته مع تجارب الآخرين ألمقدمه له والتي قد تكون مغرقة أو مفرطة بالخيالية أو ألمثاليه أو قد يقترب هذا الخطاب من مفهوم الدعاية التي هي جهود اتصالية مقصوده ومدبره يقوم بها الداعية مستهدفا نقل المعلومات ونشر أفكار واتجاهات معينة تم إعدادها وصياغتها من حيث المضمون والمعرفة والشكل وطريقة العرض بأسلوب يؤدي إلى أحداث تأثير مقصود ومحسوب على اتجاهات وسلوك فئات من الجمهور في الاتجاه الذي يستهدفه الداعية وذلك بهدف السيطرة على الرأي العام والتحكم بالسلوك الاجتماعي للجماهير[36].

ثانياً:- التأثير على الاتجاهات والقيم:-

تشير معظم الدراسات التي أجريت في ميدان الاتصال على إن وسائل الإعلام تقوم بدور ملموس في تكوين الآراء أكثر مما تساهم في تغيرها ومن أهم هذه الدراسات ما توصل إليه عالم النفس (ليون فستنجر) الذي أطلق على هذه العملية اسم (التنافر المعرفي) والافتراض الاساسي لديه هو أن شعور الفرد بالتنافر النفسي يحفزه على محاولة التخلص من هذا التنافر حتى تحقيق الانسجام النفسي من خلال السعي

بايجابية ونشاط لتجنب المواقف والمعلومات التي تزيد من هذا التنافر[37] فيما لاحظ كلا من (لازر سفليد) و (ميرتون) إن وسائل الإعلام تصغي المكانة والقوه على بعض الإفراد والجماعات من خلال التركيز الاعلامي عليهم ونشر إخبارهم واكسابهم الشهرة بما يمنحهم قدر من السلطة والنفوذ والتفرد على غالبية الناس ويصبح سلوك وأراء هولاء الأشخاص ذو دلالة بالغة على عامة الناس[38].

إن التأثيرات الأخلاقية المعنوية التي تحدث نتيجة الرسائل الإعلامية وطبيعة المعلومات التي يكون لها تأثيرات على معتقدات الإفراد ومستوى الأخلاق الفردي والاجتماعي يعتمد بدون شك على وجود معلومات ايجابية أو سلبية مقدمة من خلال كل الرسائل إن وجد ومثل هذه المعلومات في وسائل الإعلام يمكن إن يكون لها تأثير معنوي على الإفراد الذين يعتمدون على نظم وسائل الإعلام في إطار التأثيرات الوجدانية التي سيكون لها تأثير مهم في تشكيل الاتجاهات وكذلك القيم ويمكن إن نجد في فترات التوتر الاجتماعي والسياسي عدد من الاتجاهات والقيم التي يتم تشكيلها من خلال عرض السمات الشخصية لبعض الجماعات العرقية أو الفئات أو المهن وغيرها[39].

ثالثا:-التأثير على تغير السلوك سواء أكان مقبول أو مرفوض اجتماعياً:-

اهتمت البحوث الإعلامية بدراسة اثأر وسائل الإعلام الضارة اجتماعياً والآثار المفيدة اجتماعياً لها على سلوك الإفراد والجماعات وغالبا ما يتم دراسة هذا الأثر على السلوك في سياق أوقات الفراغ لدى الفرد حيث يزداد التعرض لوسائل الإعلام وبخاصة الوسائل التي لا تحتاج إلى مهارات معينة أو جهد كبير مثل مشاهدة التلفزيون أو الاستماع إلى الراديو أو التردد على دور السينما . وتشير هذه الدراسات إلى اثر ملموس لبعض هذه الرسائل وبخاصة التلفزيون على أنماط حياة الأسرة، التحصيل الدراسي للأبناء، أوقات نوم الأطفال وكذلك ما يتعلق بالسلوك الانتخابي وفي تغير ولاء الناخب من حزب لأخر وتدعيم الاتجاهات السياسية الموجودة أصلا

وهذه الدراسات أكدت على توفر عدة عوامل الظروف تدفع بالإنسان إلى تغيير السلوك يعتمد معظمها على طبيعة الشخصية الفردية والقيم والدوافع الفردية والمخاطر المستقبلية للحدث والمخاطر الاقتصادية والاجتماعية لهذا التحول ويبقى المستفيد الحاسم لتغير السلوك هما هو تفاعل التعرض لوسائل الإعلام مع الخبرات الشخصية[40].

إلا إننا نشير هنا إلى ظاهرتين بارزتين في تأثيرات الخطاب الإعلامي على تغير السلوك أولهما هو (تقمص الأدوار) أي تمثل الشخصيات المرغوب في السينما أو التلفزيون وغيرهما من وسائل الاتصال والسعي إلى استبدال الرداء الاجتماعي بشيء جديد سواء كان سيارة أو منزل أو غير ذلك وبطبيعة الحال فقد لا تكون قدرات الإنسان المادية متوافقة مع ذلك فيلجأ إلى أساليب منحرفة يتعلمها من نفس الوسائل للوصول إلى هذه الغايات وثانيها ظهور حالات العنف بشكلها الإجرامي وهي ظاهرة انتشرت في العالم خلال القرن الماضي بشكل مفرط للغاية ساعدها في ذلك الضخ المتواصل المتصاعد لمشاهد العنف والجريمة وإخبارها وتطوراتها من خلال وسائل الإعلام والتي أضفت التكنولوجيا الحديثة عليها أجواء من الإبهار والتشويق والإيهام جعل الكثير من الإفراد يتعلقون بها ويقعون في مكائدها.

الاستنتاجات:

1- ان تحدي العولمة الاتصالية الذي برز بعد التطورات التي أصابت الواقع السياسي الدولي فرضت على وسائل الاعلام ان تطور من اساليبها وتقنياتها لكي تواكب هذا التغيير .
2- ان وسائل الإعلام استثمرت إلى جانب وسائل السياسة الخارجية الاخرى في تنفيذ مصالح وأهداف القوى المهيمنة على الواقع الدولي مما افرز تغييرا في مهام هذه الوسائل .
3- تأثر مضمون الخطاب الإعلامي بالتقنية الحديثة التي ميزت تكنولوجيا وسائل الإعلام والاتصال وأضفت عليه مزيدا من التأثير والفعل لم يكن متوفرا في الوسائل التقليدية.
4- جدلية العلاقة الوثيقة بين مضمون الخطاب الإعلامي وتقنية وسائل الاعلام والاتصال أفرزت تأثيرات فاعلة لهذا الخطاب على مستوى الفرد والمجتمع.

التوصيات:

1- ضرورة تعزيز دور وسائل الاعلام الوطنية من خلال خطاب إعلامي مؤثر لرفع درجة الحصانة الذاتية الفردية والمجتمعية تجاه الخطابات الإعلامية الوافدة.
2- ان تستثمر هذه الوسائل التقنيات الحديثة في حقل الإعلام والاتصال بما يعزز من دورها وتأثيرها الداخلي او الخارجي .
3- ان التعامل مع الواقع الجديد لدور وسائل الإعلام العالمية يتطلب اتخاذ موقف متوازن لا يدعوا إلى الانغلاق والانعزال التام عنها أو الذوبان الكامل في خطاباتها وأساليبها بل البحث عن هوية ثقافيه وحضارية وطنية وقومية تتعامل بثقة مع هذا الواقع .
4- ضرورة تعزيز دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية مثل المدرسة والأسرة وغيرها لكي تحد بشكل ما من التأثيرات السلبية المتوقعة لوسائل الإعلام الخارجية على المجتمع وبخاصة النشئ الجديد .

الخاتمة:

إذا كان الخطاب الإعلامي القديم لا يتجاوز الحدود القومية للدول عبر الوسائل الإعلامية التقليدية المعروفة فان الوسيلة التكنولوجية الحديثة قد امتدت به إلى خارج أو عبر الحدود القومية لتشكل ظاهرة العصر الجديد ولتسقط نهائيا سيادة الدولة الوطنية في مجال احتكار والتحكم بمصادر المعلومات التي يتلقاها المواطن، وإذا كانت الأداة أو الوسيلة الإعلامية لا تحدد المضمون والوسيلة أهمية بالغة معا فمن خلال الأساليب الفنية الحديثة بالصيانة والإخراج والحذف والإضافة والتلاعب بالمعلومات فان مضامين الخطاب الإعلامي قد تعرضت إلى التحريف المتعمد الذي يسعى القائمين ورائه أو من يملك أو يسيطر على هذه الوسائل أن يحقق مصالحه الذاتية أو أن يتخذ المضمون الطابع الثقافي والفكري له كمصدر للمعلومات أو كمسيطر على دقة التكنولوجيا الحديثة لذا نرى إن وسائل الإعلام الغربية عموماً في خطاباتها الإعلامية تكاد تمارس التعتيم على الفضيلة والحياة الطبيعية والعمل باجتهاد ومثابرة الذي يميز الحياة في العديد من دول العالم بينما تركز على أخبار الكوارث والاضطرابات الخطيرة في هذه البلدان ولا يكاد ياستهويها سوى إخبار المال والجنس لتكون موضوعاً رئيسياً لها كما إن حالة من الاغتراب الثقافي الحضاري يجري نشره واقتسامه عالمياً على نحو غير متكافئ ليغدو مشروعاً بتأثيرات القوه السياسية والاقتصادية والعسكرية للقوى المهيمنة على مسارات مضامين هذه التقنية فيما تجد الإبداعية الفكرية والثقافية الوطنية والقومية نفسها إزاء حالة تبعية الثقافة تبدو بالفعل خارجية وغريبة عن الوقع الوطني تعمل على إعادة تشكيل الهوية الحضارية الثقافية الاجتماعية من جديد للعديد من المجتمعات والشعوب على أسس وضوابط جديدة أفرزها الواقع الدولي الذي تبلور في نهاية القرن العشرين والذي يشير إلى مزيد من الفوضى والتردي في ميدان العلاقات الدولية.

الهوامش:

(1) قاموس المنجد، ط2، دار المشرق، بيروت، 1986، باب خطب.

(2) منير بعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، بلا ت، ص55.

(3) د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر – دراسة تحليلية نقدية، دار الطليعة، بيروت، 1982، ص8.

(4) مشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة سالم ياقوت، المركز الثقافي، الدار البيضاء، بلا ت، ص34.

(5) ترفتان تودوروف، اللغة والأدب في اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت 1993، ص 48.

(6) د. محمد عابد الجابري، م.س.، ص8.

(7) المصدر نفسه، ص 8 .

(8) مشيل فوكو : مصدر سابق، ص 31 .

(9) المصدر نفسه : ص 34 .

(10) د.محمد عابد الجابري : الخطاب العربي المعاصر بيروت، دار الطليعة، ط2، 1985، ص128.

(11) د . حميد سميسم : الخطاب الإعلامي العراقي بين النظرية والتطبيق، المؤتمر القطري الاول للإعلام –2001، ص2.

(12) د. سعد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، 1985، ص83.

(13) المصدر نفسه، ص 83 .

(14) د. حميد سميسم : مصدر سابق، ص5 .

(15) جليل وادي حمود : الخطاب الإعلامي وإدارة الأزمة السياسية الدولية، رسالة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى جامعة بغداد –كلية الاداب، قسم الاعلام عام 2000، ص25.
(16) محمد حمود حسن – الخطاب الإعلامي في الصحافة الإسلامية العراقية – رسالة ماجستير غير منشورة – بغداد – كلية الإعلام،2004،ص36.
(17) اروى خالد هاشم العاني : الخطاب الدعائي الإسرائيلي الموجه ضد العراق، رسالة ماجستير (غير منشورة) بغداد– كلية الآداب، قسم الإعلام 1994)، ص 60 .
(18) د. هادي نعمان الهيتي: اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، بغداد، دار سامر، 1997، ص7.
(19) د. أديب خضور : الإعلام العربي الموجه الى الآخر – مقارنة منهجية، مجلة الإذاعات العربية، العدد(20) 2002، ص62.
(20) جليل وادي حمود : مصدر سابق، ص 45 .
(21) د.محمد طلال : الإعلام العربي والآخرون، مجلة الإذاعات العربية – العدد (2) لسنة2002، ص37.
(22) شون ماكابرايد، أصوات متعددة وعالم واحد، تقرير اللجنة الدولية لمشكلات الإعلام، الشركة الوطنية للطباعة، الجزائر،1983، ص5.
(23) مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس، العدد1994،3، ص32.
(24) سرجي لاتوش، تغريب العالم،ترجمة خليل كلفت، دار العالم الثالث، القاهره1992،ص7.
(25) ميشيل كولون، احذروا الإعلام، ترجمة ناصر السعدون، دار الحرية للطباعة، بغداد،1994،ص21.
(26) ميشيل ماثان، الاتصال الإقليمي أو اتصال الجوار، من بحوث ندوة الهوية الثقافية والوطنية وتكنولوجيا الاتصال،القاهرة، تشرين اول،1991،ص12.

(27) د.محسن خضير، تقنية الاتصالات الفضائية وأثارها الثقافية، مجلة القافلة، المملكة العربية السعودية، العدد الأول، حزيران،1994،ص36.
(28) د. محسن خضير، م.س، ص37.
(29) م. س، ص38 .
(30) د.محسن الموسوي،تكنولوجيا وسائل الاتصال وإشكالاتها القيمية، مجلة قضايا عربية، بيروت، العدد24، شباط 1982،ص86.
(31) المصدر نفسه، ص108.
(32) فدريكو ماريو، نظرة في مستقبل البشرية، ترجمة د.محمود علي مكي، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة، القاهرة، 1990،ص232.
(33) د. حسن عماد مكاوي و د. ليلى حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1998، ص361.
(34) م. س،363.
(35) د.محمد عبد الحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير،ط3، عالم الكتب، القاهرة،2004،ص85.
(36) د. حسن عماد مكاوي، م.س، ص398.
(37) د. سوزان القليني، الاتصال ووسائله ونظرياته، دار الفكر المعاصر، القاهرة،2006،ص26.
(38) د. حسن عماد مكاوي، م.س، ص398.
(39) د.محمد عبد الحميد، م.س،304 .
(40) د. حسن عماد مكاوي،م.س،ص40 .

مصادر البحث:

1- قاموس المنجد،ط2، دار المشرق،بيروت،1986.
2- منير بعلبكي، قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت،بلا ت.
3- د. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1982.
4- ميشيل فوكو،حفريات المعرفة،ترجمة سالم ياقوت،المركز الثقافي،الدار البيضاء، بلا ت.
5- ترفتان تودروف، اللغة والأدب في اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي، بيروت،1993.
6- شون ماكبرايد، أصوات متعددة وعالم واحد، الشركة الوطنية للطباعة، الجزائر 1983.
7- مجلة الإذاعات العربية، اتحاد إذاعات الدول العربية، تونس،ع.3. 1994
8- سرجي لاتوش، تغريب العالم، ترجمة خليل كلفت، دار العالم الثالث، القاهره،1992.
9- ميشيل كولون، احذروا الإعلام، ترجمة ناصره السعدون، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1994.
10- ميشيل ماثان، الاتصال الإقليمي أو اتصال الجوار، من بحوث ندوة الهوية الثقافية والوطنية وتكنولوجيا الاتصال، القاهرة،1991.
11- د. محسن خضير، تقنية الاتصالات الفضائية وأثارها الثقافية، مجلة القافلة، المملكة العربية السعودية،ع1، حزيران،1994.
12- د.محسن الموسوي، تكنولوجيا وسائل الاتصال وإشكالاتها القيمة، مجلة قضايا عربية، بيروت،ع24،شباط،1982.
13- فديرريكو ماريو، نظرة في المستقبل البشرية، ترجمة د. محمود علي مكي، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة، القاهرة،1990.
14- د. حسن عماد مكاوي و د. ليلى حسين السيد، الاتصال ونظرياته المعاصرة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،1998.
15- د.محمد عبد الحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، ط3، عالم الكتب، القاهرة،2004.
16- د.سوزان القليني، الاتصال ووسائله ونظرياته، دار الفكر المعاصر، القاهرة،2006.

17- د . حميد سميسم : الخطاب الإعلامي العراقي بين النظرية والتطبيق، المؤتمر القطري الاول للإعلام -2001.
18- د. سعد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الدار البيضاء، 1985.
19- جليل وادي حمود : الخطاب الإعلامي وإدارة الأزمة السياسية الدولية، رسالة دكتوراه (غير منشورة) قدمت الى جامعة بغداد كلية الاداب قسم الإعلام عام 2000 .
20- محمد حمود حسن : الخطاب الإعلامي في الصحافة الإسلامية العراقية – رسالة ماجستير غير منشورة – بغداد – كلية الإعلام،2004 .
21- اروى خالد هاشم العاني : الخطاب الدعائي الإسرائيلي الموجه ضد العراق، رسالة ماجستير (غير منشورة) بغداد– كلية الآداب، قسم الإعلام 1994) .
22- د. هادي نعمان الهيتي: اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، بغداد، دار سامر، 1997 .
23- د. أديب خضور : الإعلام العربي الموجه الى الآخر – مقارنة منهجية، مجلة الإذاعات العربية، العدد(20) 2002 .
24- د.محمد طلال : الإعلام العربي والآخرون، مجلة الإذاعات العربية – العدد (2) لسنة2002 .

الدعاية مفهوماً وتعريفاً وأسلوبا

دراسة تحليلية عن الدعاية(الإسرائيلية) خلال حربها الأخيرة على غزة

لعام (2008-2009)

م.جمال عسكر مضحي
كلية الآداب / قسم الإعلام

م. ياسين طه موسى
كلية الآداب / قسم الإعلام

مُقَدِّمَة

إذا كان الصراع السياسي هو تصادم إرادات وقوى خصمين أو أكثر حيث يكون هدف كل طرف من الإطراف تحطيم الأخر كلياً أو جزئياً تتحكم إرادته بإرادة الخصم ومن ثم يمكنه إن ينهي الصراع بما يحقق أهدافه وإغراضه إذا كان هذا هو مفهوم الصراع السياسي فان الصراع الإعلامي الدعائي هو احد إشكال ذلك الصراع وتجسيده حركيا فالإعلام هو احد الوحدات التي يتكون منها نظام إدارة الصراع، فهو أداة سياسية من أدوات الحركة السياسية للقائد أو لصانع القرار السياسي والإعلام هو خط هجوم أول خط دفاع أخير وقد أصبح التحرك الإعلامي احد خصائص الدول المعاصرة وتغيير مهم في وظائفها الاتصالية، وفي ظل التقدم العلمي والتقني المتصارع وبعد تشعب المتغيرات الدولية وتعقيداتها تعددت وظائف الإعلام ومهامه بحيث أصبحت السياسة تحتمي تحت مظلة الإعلام ووسائله للتعبير عن رؤيتها وخططها وهكذا أصبح التحرك الإعلامي والدعائي أداة مهمة في إدارة الحرب النفسية والصراعات السياسية ووسيلة فعالة في تشكيل اتجاهات الرأي العام بما ينسجم مع أهداف صانع القرار السياسي وبحثانا هذا وفي حرب إسرائيل الأخيرة على غزة كانت أساليبها الدعائية تتضمن (3) مباحث:

المبحث الأول: منه يتحدث عن الدعاية مفهوما وتعريفا وأسلوبا.

إما المبحث الثاني: فيتحدث عن الدعاية الصهيونية مراحلها وأساليبها ووسائلها.

إما المبحث الثالث: فيتطرق إلى الأساليب التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) في حربها الأخيرة على غزة بالإضافة إلى النتائج التي توصل إليها البحث.

أهمية البحث:

في عالم معقد كعالم اليوم لا يمكن إدارة الصراع بجهود فردية أو جزئية لذا فان عملية الإدارة تتطلب المواجهة بالعديد من الوحدات التي تنصهر جميعا في نظام إدارة الصراع والعلاقة بين هذه هي علاقة تفاعل وترابط مستمر ويمثل الإعلام إحدى تلك الوحدات التي يتكون منها نظام إدارة الصراع.

ويمثل التحرك الدعائي مقدمة لإدارة الصراع وأنة هيئ الميدان الذي سوف يتعين على صانع القرار إن يتحرك فيه في إعداد لميدان الصراع منطلقا من حقيقة إن الإعلام هو خط الهجوم الأول وهكذا يلازم التحرك الإعلامي عملية إدارة الصراع في علاقة تبعية وترابط ذات تنسيق على مستوى الفكر والإدارة والأهداف والانتقال إلى موقف جديد بعد نجاح، أو فشل فان الإعلام يؤدي اخطر وظائفه وهو التخفيف من حدة الفشل أو التضخم من قوة النجاح وخلال المواجهة السياسية التي كانت قائمة بين حماس و(إسرائيل) حيث تأججت لتصل ذروتها بالعدوان (الإسرائيلي) على قطاع غزة وخلال تلك المواجهة دارت عجلات الدعاية (الإسرائيلية) وبشكل متوازي مع خطط القتال مستخدمة كافة الأساليب الأخلاقية وغير الأخلاقية لتحقيق أهدافها غير المشروعة بالإضافة إلى وضع كافة وسائل الاتصال الجماهير وأخر ما توصل إلية الإنسان من اختراع الكتروني في خدمتها ويأتي البحث هذا ليوضح الأساليب والطرق والأدوات التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) خلال عدوانها العسكري على قطاع غزة...

مشكلة البحث:

تعد السياسة والاقتصاد والإعلام والعمل العسكري هي الأركان الرئيسية التي صاغت حرب غزة ومجرياتها وتطوراتها والذي يعني رجال الإعلام هو دراسة الجانب الإعلامي باعتباره احد تلك الأعمدة والميدان الأكثر وضوحاً وتميزاً في تلك المواجهة

والأداة الأكثر خطورة من أدواتها وذلك التصدي للصراع الإعلامي والدعائي الذي مارسته (إسرائيل) عبر وسائل الإعلام...

أهداف البحث:

يسعى البحث بالإجابة عن الأسئلة التالية:-

1- كيف جندت (إسرائيل) وسائل الاتصال لخدمة أهدافها السياسية؟

2- ما هي التكتيكات والأساليب التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) إثناء الحرب؟

3- هل نجحت الدعاية (الإسرائيلية) في تحقيق أهدافها؟

حدود البحث:

موضوع البحث هو أساليب الدعاية (الإسرائيلية) في الحرب التي شنت على قطاع غزة للفترة من (2008/12/17 ولغاية 2009/1/17).

المبحث الأول

الدعاية

مفهوم الدعاية:

الدعاية كعملية منظمة هدفها التأثير على الرأي العام كأداة من أدوات الصراع السياسي بصفة عامة والسياسة الخارجية بصفة خاصة[1] لم تظهر إلا في أوائل القرن العشرين وذلك بعد إن اقترنت الحرب العلمية الأولى بتحول الدعاية من مجرد فن وتجارب إلى علم ذي قواعد يقوم على أسس مدروسة[2] وقد تكونت تبعاً لتكون مجال العمل الملائم لها وهو مجال الجمهور فتوفرت لها إمكانيات استعمال التقنيات الحديثة والاتصال والدعاية كنشاط يهدف إلى محاولة التأثير في الإفراد والجماهير والسيطرة على سلوكهم وذلك في مجتمع معين وزمان معين وهدف معين وقد أظهرت الممارسات الدعائية خلال القرن العشرين مفهوم الدعائية الكلية الذي يفترض التزاوج بين الرموز.

بالإضافة إلى اثر الثورة البلشفية في روسيا أصبحت الدعاية ظاهرة تنتشر في العالم كله[3]. ويعود أصل الدعاية إلى العصور الوسطى عام 1623 عندما أنشا البابا اربأن الثامن إدارة باسم (congregation-OF-PROPAGNDA).

والتي تعنى بالمهام الخارجية للكنيسة الكاثوليكية أي التبشير ما وراء البحار وهذه الكلمة مشتقة من الفعل (PROPAGATE) ومعناه التنشئة والتنمية ومفهومه نشر الآراء والعادات ونقلها من شخص إلى أخر ومن جيل إلى أخر ....

وتراوحت وجهات نظر الباحثين عند تحديدهم لمفهوم الدعاية واختلفت هذه المفاهيم وفقاً لوجهات نظرهم وأرائهم واتجاهاتهم وطريقة ممارستهم للدعاية ووفقا لطبيعة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية للبيئة التي تمارس فيها وللعصر الذي تعكسه للوصول الى الهدف بأقل وقت ممكن[4].

تعريف الدعاية:

لقد ورد الكثير من التعريفات والتي لايمكن إن نحصيها نحن أو غيرنا من الباحثين فقد وجدنا أنها تنطوي على كافة أنواع الدعايات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ووردت تعريفات من عدة نبين البعض منها وهي :-

1-الدكتور النفساني الاجتماعي (كمبال يونج): يعرفها أنها استخدام مقصود ومخطط للرموز عن طريق الإيحاء والرسائل النفسية المماثلة يرمي إلى تغيير وتيسير الآراء والإشكال والقيم والاتجاهات ومن ثم القيام بعمل في الاتجاه المدبر له، وقد تكون علنية واضحة أو سرية مكتومة وتحدث ضمن إطار من البيئة الاجتماعية والثقافية التي لا تنجح بدونها[5].

إما الماركسيون فيفسرون الدعاية على أنها تعليم لجماعات منتقاة من الجمهور تستعين بأساليب عقلانية وتهدف للتأثير على الوعي وجعل الإفراد يتسمون بسلوك سياسي يتسم بالعنف[6].

وهنا يعرفها الدكتور عبد القادر حاتم بأنها فن إقناع الآخرين بان يسلكوا في حياتهم سلوكاً معينا ما كانوا ليسلكوه بدونه[7] وأيا كانت المفاهيم للدعاية، فهي لاتعني

سوى حقيقة واحدة هي خضوع الإنسان المعاصر للهيمنة الكاملة لصفوات القوة في المجتمع سواء كانت هذه الصفوات سياسية أو اقتصادية أو عسكرية أو فكرية – دينية وغير دينية وكل هذه الصفوات تستهدف من خلال الدعاية تغيير مواقف الإفراد والجماعات أو التأثير فيها وعلى نحو يتوخى تحقيق الأهداف أو مصالح هذه الصفوات وان محاولة ضبط هذه المواقف تتخذ إشكالا خفيه أو ظاهرة أن التطور السريع لوسائل الاتصال الجماهيرية في المجتمع المعاصر اوجب إن يتم تفسير وتبرير أي حدث أو عمل سياسي لأغلبية الجماهير وفي كل الأماكن إذا ما أريد كسب تأييد تلك الجماهير وضمان موافقتها عليه لان أخبار هذا الحدث ستنتشر وعواقبه ستكون لها سعة انتشار الإخبار وسرعة انتقالها أيضا وهذا أدى إلى إخفاء الطابع الجماهيري على العمل السياسي حيث لم يعد كافياً أن تشرح السياسة للقلة فقط أو إن يتم إقرارها من قبل تلك القلة قبل تنفيذها[8] وهكذا أضحى التحرك الدعائي والإعلامي حقيقة واضحة في نطاق العلاقات الدولية أثر المتغيرات التي طرأت على خصائص المجتمع المعاصر ممثله بطغيان الإبعاد الإيديولوجية وانهيار الحواجز بين المجتمعات السياسية وسيطرة النواحي الجماهيرية على السلوك السياسي ثم التطور الهائل في تكنولوجيا أدوات الاتصال الذي قاد إلى إن يكون الاتصال الدعائي والحرب النفسية إحدى أدوات تنفيذ السياسة الخارجية لأي دولة[9].

ومنذ الحرب العالمية الثانية أصبح الصراع الدعائي واضحاً يعبر عن قواعد واضحة من حيث التعامل ولم تعد كلمة الإعلام تفهم على أنها مجرد أدوات لنقل المعلومات الجماهيرية إنما هي تشمل كل ما له من صلة بالتعامل النفسي وعليه صار التحرك الدعائي والإعلامي علماً قائما بذاته يملك قواعده وألاعيبه بل ويملك فلسفته المستقلة والمتميزة تبعاً لنموذج التعامل النفسي ويمكن تحديدا أربعة أهداف يسعى إليه التحرك الإعلامي والدعائي لتحقيقها وهي[10]:-

1- هو أداة لنقل المفاهيم وزرع المدركات.
2- هو أداة لتشويه الأفكار وخلق البلبلة وتدعيم عدم الثقة في القيادة.
3- هو أداة لتحطيم الثقة في الذات القومية.

4- هو أداة لخلق تطلعات طبقيه تقود إلى تشققات في الجسد القومي.

وفي ضوء ذلك فان التحرك الإعلامي في إطار الصراع الدعائي يهدف إلى خلق القناعة المنطقية في الداخل والخارج بدعوة أو قضية أو ازمه معينه ومن ثم فهو يحتضن مفاهيم الإعلام –الدعاية–الحرب النفسية حيث تكون التفرقة بين هذه المفاهيم الثلاثة شبه مستحيلة لان الدعاية والحرب النفسية تتم من خلال الإعلام.

كما إن الإعلام وخاصة في ألازمات يتصف عادة بأنه إعلام غير محايد فهو يختلط في هذه الحالة مع الدعاية ويصبح التمييز بينهما صعباً فالإعلام يسعى إلى تقديم الحقيقة المجردة بينما تسعى الدعاية إلى التأثير في أراء الإفراد وسلوكهم فالاختيار المعتمد للإخبار وإعادة صياغتها في أوقات الأزمات تحقق الأهداف نفسها التي يسعى رجل الدعاية إلى تحقيقها[11].

أنواع الدعاية:-

إن اكتشاف الحاجة إلى المعلومات عن العالم كان أول قانون استخلص بصورة تجريبية عن التبعية الناس لأولئك الذين ينتجون وينشرون الإخبار الضرورية لهم.

وقد غدا إدراك هذا القانون مقدمة أولية موضوعية لإنشاء منهج العمل المعروف باسم الدعاية[12] والدعاية التي اجتازت طريقاً طويلا من تطور إشكالها المفعمة بمضامين مختلفة ومتناقضة أحيانا تبعاً لمهام الصراع الطبقي والسياسي والفكري فيمكن تقسيمها وفقا لتلك الاعتبارات إلى عدة أنواع هي :-

1- وفقاً لطبيعة المصدر تنقسم الدعاية إلى:-

- **الدعاية البيضاء**:- وهي الدعاية الواضحة والشفافة المكشوفة وغير المستورة بمعنى أخر هي عبارة عن نشاط علني من اجل هدف محدد ويكون ذلك في الصحف والإذاعة وسائل الاتصال الأخرى
- **الدعاية السوداء**:- وهي الدعاية الخفية المستورة وتقترب من الإشاعات المجهولة المصدر وتقوم عادة على نشاط المخابرات والعملاء السريين ولا تكشف الدعاية

السوداء مطلقا عن مصادرها الحقيقية فهي تنمو وتتوالد بطريقة سرية وذلك في داخل ارض العدو أو على مقربة منها وتعد من أسوء أنواع الدعاية

- **الدعاية الرمادية**:- وهي الدعاية المقنعة والموجهة في خطابها وعناصرها تخفي أمور غير تلك المعلنة وهي الدعاية التي لا تخشى من إن يقف الناس على مصادرها الحقيقية والدعاية التي من هذا النوع تعد دعاية غير مباشرة وهي اقوي تأثير من الدعاية المباشرة.

2- وفقاً للمضمون تنقسم الدعاية إلى[13]:-

- **الدعاية السياسية**:- وهي الدعاية التي تهدف إلى خلق فعل سياسي من خلال استخدام كافة الوسائل والأساليب الممكنة لتحقيق هذا الهدف وهكذا نجد دعاية المذهب السياسي تتخذ من الأسلوب الإعلاني وسيلة للتأثير في الجمهور، والدعاية السياسية هي أساسا عملية تلاعب بالعواطف تستهدف الوصول إلى خلق حالة من حالات التوتر الفكري والشحن العاطفي الذي لابد وان يؤدي إلى تشويه التتابع المنطقي فهي عملية إقناع ونادراً ما يكون صحيحاً في جميع عناصره وعن طريق الدعاية السياسية يمكن تعليم الإفراد الأكثر معارضة والتأثير عليهم.
- **الدعاية التجارية**:- تلعب الدعاية التجارية دوراً حاسماً في الحياة الاقتصادية للشركات والمؤسسات والدول والإفراد في حالة استغلالها بالشكل الجيد فهي تعتمد أساسا على المهارة في طريق البيع والإعلان بيد إن خبراء الدعاية والحرب النفسية اخذوا عن فن الدعاية التجارية أسلوب استثمار الاتجاهات النفسية القائمة واستغلال العواطف والمشاعر الإنسانية.
- **الدعاية الاجتماعية**:- وهي دعاية ترتبط بالمجتمع وتهدف أساس المجموع دون التضحية بالفرد وهي محاولة لنشر فكر بواسطة وسائل الاتصال الجماهيرية تؤدي بالجمهور بأن يتخيل بناءاً سياسياً واقتصادياً أو إن يساهم في سلوك ما[14].
- **الدعاية الدينية** :- وهي التي ترادف الدعوة أو التبشير وهناك العديد من الأنواع الأخرى للدعاية منها:

أ-الداخلية والخارجية

ب- التكتيكية والإستراتيجية

ت- الكامنة والظاهرة

إلى أخره من التسميات التي اختلف على إطلاقها المختصين في هذا المجال إلا إن الدعاية تقسم إلى قسمين إثناء الحرب وتقسم هنا تبعاً لمحتواها إلى الحرب الحقيقية وهي التي تفصح فيها الدولة عن الأوضاع الحقيقية والى الحرب المضللة والتي نصفها حقيقة ونصفها كاذبة[15] وهي :-

1- **دعاية التفرقة** :- ويستهدف منها تفتيت وحدة العدو والحد من قابلية مقاومته.

2- **الدعاية المضادة** :- ويستهدف منها تفنيد فكرة العدو أو أسلوبه .

وسائل الدعاية :-

تتعدد وسائل الدعاية وإشكالها فعمل الدعاية هو التحدث عن الفكرة في كل مكان إذ ليس لها حدود في تباين إشكالها فالداعية يستخدم جميع الوسائل المعروفة في الإعلام والنشر لبث دعايته والوسائل هي[16]:-

1- المطبوعات على اختلاف أنواعها من كتب ونشرات وصحف.

2- الوسائل الصوتية وتشمل الخطب والإذاعات والأغاني منها الأغاني السياسية والهزلية.

3- الصور الفوتوغرافية كانت أو كاريكاتورية والصور هي الوسائل الأكثر استقبالاً وفاعلية لان إدراكها يتم مباشرة ولا يحتاج إلى جهد.

4- المسرح والتلفزيون والأفلام السينمائية.

5- القنوات الفضائية.

6- شبكة المعلومات الدولية والانترنيت.

وهناك أهمية كبرى في اختيار وسيلة الدعاية لان هدف الدعاية هو التأثير في اكبر عدد ممكن من الجمهور لهذا يتعين على من يقوم بالدعاية إن يعرف من هم الذين سيوجه إليهم دعايته حتى يستطع إن يستخدم الوسيلة التي تحقق له الغرض

المنشود من دعايته وقد يلجا القائم بالدعاية إلى استخدام أكثر من وسيلة وللغرض نفسه.

أساليب الدعاية:-

إن الدعاية الفعالة يجب إن تقوم على عدة أسس كي لا تفشل في أداء مهمتها وهي إقناع الآخرين بوجهة نظرها وأول هذه الشروط هي إن تقترن الدعاية بالحقائق[17] فالدعاية التي يكشف كذبها سرعان ما ينصرف الناس عنها وعلى الدعاية إلا تناقض نفسها سواء عبر مختلف الوسائل في فترة واحدة أو عبر وسيلة أو عدة وسائل في فترات مختلفة فالأساليب التي تتبعها الدعاية هي :-

1- **أسلوب التضخيم والتشويه** :- أي تضخيم وتوجيه الخبر ليخدم إغراض الدعاية.

2- **أسلوب التكرار** :- أي أنها تكرر بدون ملل موضوعاتها الرئيسية ولكن التكرار الصرف يولد الضجر لذا يجب عرض الموضوع بأوجه مختلفة فان ثبات الموضوع وتنويع العرض هي صفة رئيسية لجميع أنواع الدعاية[18].

3- **أسلوب الإثارة** :- وهو اشد مبالغة من الدعاية بمعنى أنها المبالغة في استخدام التكتيك الدعائي بحيث يصبح فن الإثارة والتهيج غرضاً في حد ذاته[19].

بحيث تعبئ أجهزة الدعاية الجماهير تعبئة حماسية عالية ذات طابع عاطفي يهدف إلى إن تتخذ الجماهير موقفاً معيناً إزاء مشكلة ما .

4- **أسلوب التحريض** :- وهو النشاط الذي يهدف إلى نشر إخبار ومعلومات عن الوقائع والإحداث والإعمال من المواقف المحددة التي تتخذها هذه الوسيلة أو تلك كما يهدف إلى تشكيل وإيجاد علاقة مع موقف من هذه الوقائع والإحداث والإعمال[20].

5- **أسلوب تحويل الأنظار والانتباه** :- ويستخدم لصرف انتباه الناس عن القضية المثارة إلى موضوع جديد يوازي تلك القضية.

6- **أسلوب الاختلاف والتحريف والتزييف والحذف**.

7- **أسلوب الاستضعاف والاستنطاق** : للتأثير في نفوس الإفراد والحكومات وتعتمد عليه الصهيونية في نشر دعايتها ضد الدول العربية.

المبحث الثاني

الدعاية الصهيونية

ينبغي إن تنقل المعلومات بموضوعية وبدون أي تشويه أو تحريف هذا هو الإعلام، لكن إذا كان الأمر غير ذلك فهو نوع من أنواع الدعاية وليس أعلاما، يتضح هذا المعنى ومن خلال مرافقة الدعاية الصهيونية.

حيث نشأت هذه الحركة كحركة إيديولوجية سياسية في القرن التاسع عشر وحتى وقتنا الحاضر وتكيفها مع كل مرحلة من المراحل التي مر بها المشروع الصهيوني وكانت الدعاية الصهيونية منذ مؤتمر (بال) بسويسرا عام 1897 مبنية على ربط يهود العالم ببعضهم البعض وكسب تأييد الحكومات المختلفة لتطوير الاستيطان الاستعماري في فلسطين؛ والدعاية الصهيونية تعد احد دعائم أساسية ثلاث يستند إليها الصراع العربي الإسرائيلي[21].

1- صراع عسكري
2- دبلوماسية نشطة
3- نشاط الدعاية المنظمة

إن كلاً من هذه الأدوار يكمل الأخر ولكل منها تكتيكه الخاص إن الدعاية الصهيونية تخضع لتخطيط محدد من حيث الأهداف والأدوات وهذا التخطيط يستند إلى منطق فكري واضح ومترابط ؛ إن قوة الدعاية السياسية التي تشنها إسرائيل ضد العالم العربي تستند إلى منهجيه متماسكة ومتكاملة وتكمن في الأمور التالي[22]:-

أ- التوقيت الدقيق والملائم:- الذي يمهد لأي نشاط سياسي أو دبلوماسي أو لعدوان عسكري أو لافتعال ازمه معينة إزاء أي دولة أو جماعة في العالم.

ب- القدرة والخبرة في توظيف مجموعة من العلوم المتكاملة لخدمة الدعاية (علم النفس/علم الاجتماع/التاريخ الثقافي والاجتماعي والعسكري).

ت- الدعاية الموجهة إلى العالم العربي شعوبا وحكومات تستهدف تقويض الإيمان بالوطن وبالمؤسسات وبالجيش وبأداء رجال السياسة.

يقول (مناحيم بيغن) في احد مؤلفاته (يجب إن نعمل ونعمل بسرعة فائقة قبل إن يستفيق العرب من سباتهم فيطلعوا على وسائلنا الدعائية فإذا استفاقوا ووقعت بأيديهم تلك الوسائل وعرفوا دعاماتها وأسسها فعندئذ لن تفيدنا مساعدات أمريكا)[23].

وانطلاقا من هذه ألنقطه فقد مرت الدعاية الصهيونية ومنذ نشأتها بست مراحل حاسمة من حيث القوى التي تتعامل معها والغرض أو الهدف التكتيكي لكل مرحلة من المراحل على النحو الأتي[24]:-

1- **المرحلة الأولى** :- وتمثلت في مساعي الحركة الصهيونية لاستصدار وعد من بريطانيا التي كان لها حق الانتداب على فلسطين مما يتيح لها الانطلاق في مشروعها، وقد حصلت على هذا الوعد عام 1917 من وزير الخارجية البريطاني (آرثر جيم بلفور) مما يعرف (بوعد بلفور) وكان الشعار الدعائي الذي رفعته آنذاك (فلسطين ارض بلا شعب لشعب بلا ارض).

2- **المرحلة الثانية** :- التآزر بين الحركة الصهيونية والانتداب البريطاني لتأسيس الدولة اليهودية وقد كثفت الحركة الصهيونية من شكلها الدعائي الدولي مستفيدة من حالة الفوضى التي اكتنفت العالم خلال الحرب العالمية الثانية وتوجهت إلى مراكز الثقل الدولي الجديد أي الولايات المتحدة الأمريكية والى الرأي العام الأمريكي والقوى الدولية سعياً لإقرار حقها في إقامة دولة يهودية على ارض فلسطينية وتوجت مساعيها باعتراف الرئيس الأمريكي (هاري ترومان) بالدولة الإسرائيلية بعد دقائق من إعلانها ثم صدور القرار 181 الذي انهي المرحلة الثانية مكتملا بإنشاء الدولة اليهودية والتي نالت اعتراف دولياً.

3- **المرحلة الثالثة**:- مرحلة الهدنة وفيها ركزت إسرائيل دعايتها على التأكيد رغبتها بالسلام متجاهلة في تلك الدعاية النتائج المترتبة على اغتصابها لفلسطين وحقوق الشعب الفلسطيني ومركز دعايتها على إن الصراع هو صراع سياسي بين دول

متجاورة وهو نزاع يمكن إن يحل بالتفاوض دون ذكر أي شيّ عن جذور الصراع ونتائجه والماسي التي رافقته وبدأت الدولة العبرية تظهر للمجتمع الدولي إن الدول العربية لا تريد السلام بل تهدف إلى اجتثاث الشعب اليهودي مستفيدة من الدعاية التي إقامتها حول المجازر النازية بحق الشعب اليهودي (الهولوكوست) في الحرب العالمية الثانية.

4- **المرحلة الرابعة**:- انصب اهتمام الدعاية الصهيونية على عامل التفوق الإسرائيلي واستفادت من انتصارها العسكري لعام 1967 لتحول الدعاية إلى حرب نفسية ضد العالم العربي مستهدفة كسر إرادته وتحطيم الروح المعنوية لديه وزعزعة ثقته بنفسه .

5- **المرحلة الخامسة**:- والتي بدأت بحرب 1973 وتمكن العرب من كسر التفوق العسكري الإسرائيلي وإلحاق الهزيمة بإسرائيل في أكثر من موقع استراتيجي مما أفسح المجال لبدء عملية التسوية من جديد.

إن المتتبع للدعاية الصهيونية في مراحلها الخمس يمكنه إن يلاحظ ذلك التآزر بين أنماط تلك الدعاية والمراحل التي مر بها المشروع الصهيوني ويرى كيف إن تلك الدعاية تتبدل وتتكيف بما تتطلبه كل مرحلة من مراحله بحيث يكون التكامل قائما بين الدعاية والعمل السياسي والعسكري .

6- **المرحلة السادسة** :- بدأت بتولي (اريل شارون) مقاليد الحكم في إسرائيل إلا انه ورغم توظيف تكنولوجيا الاتصال من انترنت وقنوات فضائية بدأت الدعاية الصهيونية تدريجياً تفقد الأرضية التي وقفت عليها طوال السنوات الماضية ومنذ ذلك الوقت بدأت الملايين يخرجون في مظاهرات في مشارق الأرض ومغاربها وفي قلب تل أبيب تندد بالمذابح الإسرائيلية.

الأسس الإيديولوجية للدعاية الصهيونية

إن المتتبع لنشاط الحركة الصهيونية يستطيع أن يستنتج من خلال عملها التنظيمي بعض مميزات هذه الإيديولوجية التي اعتمدت عليها الحركة في نشاطها الدعائي ويمكن تلخيصها بالأمور التالية[25]:-

1- الزعم بأبدية العداء للسامية (وهو العنصر الذي ينتمي إليه يهود العصر القديم) في كل زمان ومكان.
2- القول بحتمية عودة اليهود إلى فلسطين باعتبارها ارض الميعاد التي سيجتمع فيها اليهود بعد الشتات.
3- الادعاء بوجود حضارة عبرية قديمة وبالتالي تميز اليهود بقومية أساسها الدين وليس فقط باعتبارهم جماعة دينية تندمج مع الشعوب التي عاشوا في كنفها وان للثقافة العبرية أفضالها على العالم وحضارته اجمع.
4- التأكيد على تمييز العنصر اليهودي على غيره من العناصر وان العالم مدين له بانجازاته العلمية والفنية المعاصرة.

أن هذه العناصر المترابطة يمكن اعتبارها أساسا لإيديولوجية تبريرية تستهدف فرض عقيدة الاستعمار الاستيطاني على فكرة القرن العشرين وقد عملت الدعاية الصهيونية بكل قواها على ترسيخ فكرتي أبدية المعاداة للسامية والتمايز على سائر الشعوب والطوائف الأخرى في الخصائص المكونة للعنصر اليهودي.

أهداف الدعاية الصهيونية:

تتنوع أساليب الدعاية الصهيونية وتتغير وفقا للظروف ولكنها تنطوي بصورة ثابتة على هدف استراتيجي أساسي تجاه الأخر وخاصة تجاه العرب وهي تحطميه والهيمنة عليه والسعي إلى إلغاء جميع قدراته أو شل فاعليتها هذه الدعاية تتكامل مع إستراتيجية السياسية والعسكرية لإسرائيل ومن بين الأهداف التي تركز عليها الدعاية الصهيونية عليها[26].

1- العمل على تشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين.
2- العمل على تجميل صورة (إسرائيل) من خلال العمل على توسيع النشاط الإعلامي والدبلوماسي الإقليمي والدولي.
3- العمل على فرض وجود الكيان الصهيوني على العرب كدولة لاتقهر ولا تزول وإبراز الشعور بالتفوق ازاء العرب .
4- إيجاد مجال حيوي لدعم الكيان الصهيوني سياسيا واقتصاديا ومعنويا من قبل دول العالم المختلفة.

ويستهدف المخطط الصهيوني من وراء تحقيق الأهداف تحقيق هدفين أساسيين يحددها الدكتور (مختار التهامي) على النحو التالي[27]:-

أ- تجنيد يهود العالم تحت ضغط الشعور بالاضطهاد والتمييز، وذلك للمساهمة في مخطط الصهيوني الامبريالي لخدمة مصالح الرأسمالية اليهودية وسائر المصالح الاستعمارية المرتبطة بها.
ب- استغلال عقدة الذنب لدى شعوب العالم وأوربا بصفة خاصة بإلقاء عبء اضطهاد اليهود عليها خلال الأزمنة التاريخية المختلفة.

أدوات الدعاية الصهيونية:

تستخدم الدعاية الصهيونية مجموعة من الأساليب الدعائية المبنية على التحليل العلمي وعلى الخبرات المتراكمة في مجالات الاتصالات والإعلام والدعاية وذلك من اجل الترويج لأهدافها وقضيتها كما يضاعف من فاعليتها استثمار للعديد

من القنوات والأدوات المتاحة لها أو التي تمكنها من الوصول إلى شرائح وفئات شتى من الرأي العام.

إما الأدوات التي تستعملها الصهيونية فهي متعددة ومنها[28]:-

1- أجهزة الإعلام الجماهيرية(إذاعة-تلفزيون-صحافة)
2- وسائل الاتصال الشخصي.
3- الجاليات اليهودية المنتشرة في كل إنحاء العالم
4- المنظمات غير الحكومية وتشمل :-
أ- الوكالة اليهودية أو المنظمة الصهيونية العالمية.
ب- الهستدروت (الاتحاد العام لعمال إسرائيل).
ت- بعض الأقليات من الوطن العربي وفي العالم .

المبحث الثالث

أساليب الدعاية الصهيونية في حربها الأخيرة على غزة

في بداية هذا المبحث نود إن نوضح الأتي :-

-لم نعتمد في هذا البحث على الكتب كون الحرب حديثة ولم تصدر عنها أية مؤلفات لذا اعتمدنا على مايلي :.

1- الفضائيات (الجزيرة -العربية-الشرقية-LBC).
2- الإذاعات (سوا-مونت وكارلو-صوت العراق الحر-BBC).
3- مواقع عديدة من شبكة الانترنت.

حيث تم تدوين وجمع عدد من التحليلات والإخبار الخاصة المسؤولين(الاسرائيلين) إثناء الحرب التي كانت تمتد من الفترة 2008/12/27 ولغاية 2009/1/17 حيث استمرار الدعاية (الإسرائيلية) عملها وهي لم تتوقف أبدا ولكن المقصود بفترة الحرب فقط

فقد مارس الإعلام (الإسرائيلي) حملة دعائية مركزة كانت تستهدف تصوير ما يجري من حرب ضد الشعب الفلسطيني ومقاومته في قطاع غزة على أنها مجرد

مواجهة مع حركة حماس وبالطبع بعد نفاذ صبر (إسرائيل) على الصواريخ الفلسطينية التي تسقط على مدن الجنوب (الإسرائيلي) فقد استخدمت تلك الدعاية عدة أساليب لتحقيق هدفها وهي :-

أ- **أسلوب التكرار** :- والذي يعد من انجح الأساليب للتأثير في الرأي العام حيث يعتمد هذا الأسلوب على استثارة المشاعر والانفعالات والتركيز على بعض محاور انفعالية تجاه عواطف الجماهير ويعمد إلى التكرار مع التنويع إلى إن تبلغ الجماهير مرحلة الإقناع .

لقد مهدت وسائل الاعلام الصهيوني الى مشاهديها وقرائها بأن حدثا جللا سيحدث خلال الفترة القادمة وهو ماحصل فعلا. : لقد أطلقوا اسما معنويا على عدوانهم وحربهم هو ' الرصاص المصبوب ' كناية عن القوة والجبروت والمقدرة على كسر المقاومة،وسخونة وجدية المعركة، لان الرصاص الساخن حين يُصب على الشيء يكون له مفعول الحرق والإيذاء والألم والتأثير المباشر.

فالخطاب الإعلامي (الإسرائيلي) صب جل اهتمامه على إن حرية هذه ضد حركة حماس معتبراً إياها خطرا ليس عليه فقط فحسب وإنما على النظام العربي عموماً مصداقاً لتأكيد إن كبار المسؤولين والمتحدثين الرسميين (الاسرائيلين) في المستويين السياسي والعسكري وتداخلاتها من أن (إسرائيل) لا تستهدف الشعب الفلسطيني بل تستهدف حماس التي تقوم بإطلاق الصواريخ، كما هو الحال في المؤتمر الصحفي لوزيرة الخارجية (الإسرائيلية) (تسيبي ليفني) الذي عقدته في القاهرة حيث تحركت فيه (ليفني) وقتها بملابس سوداء تنذر بالموت الأتي لأهالي غزة تحدثت من القاهرة بكلمات تم تفسيرها على أنها إعلان للحرب مستخدمة كلميتها الشهيرتين ((كفى يعني كفى)) وقد ورد مفردة حماس إثناء المؤتمر بشكل لافت للانتباه[29].

كما رافقت وزيرة الخارجية الصهيونية (تسيبي لفني) ممثليين لعدد 60 دولة في جولة على جنوب فلسطين المحتلة أكدت خلالها على ضرورة أن تدعم القوى الدولية التحركات الصهيونية ضد قطاع غزة.

ب- **أسلوب حصر المسؤولية**:- استخدمت الدعاية (الإسرائيلية) هذا الأسلوب من حيث التركيز على عمليات إطلاق الصواريخ من قطاع غزة وتحميل حماس مسؤولية ذلك ولا يتوقف السعي (الإسرائيلي) في هذا المجال على محاولة إيجاد حواجز شعورية بين حركة حماس والشارع الفلسطيني باعتبار إن الحرب لا تستهدف الفلسطينيين في قطاع غزة وفق الادعاء (الإسرائيلي) بل ويذهب التوجه إلى محاولة تأليب الرأي العام الفلسطيني ضد حركة حماس بما يتوافق وبشكل واضح جدا مع مضامين المنشورات التي ألقتها الطائرات العسكرية في قطاع غزة ولأكثر من مرة في اليوم فتلك المنشورات تؤكد من إن الجيش (الإسرائيلي) لا يستهدف المدنيين أي أهالي غزة وتحذرهم من حركة حماس التي ستجلب لهم الدمار وذلك في محاولة لضرب الروح المعنوية للجبهة الداخلية العالية للتصدي لأي عدوان خارجي، بالإضافة إلى ذلك نلاحظ إن الدعاية (الإسرائيلية) في هذا المجال تجنبت الإشارة إلى باقي الفصائل الفلسطينية أو اذرعها العسكرية التي تقف في صفوف المواجهة والتصدي ومن هذا نستنتج إن الدعاية (الإسرائيلية) تهدف من وراء ذلك ومن خلال ما تم مشاهدته عبر القنوات الفضائية من قصف جوي ومدفعي للقطاع أنها تساوي بين السياسي والعسكري ومعهم الإنساني والأكاديمي والإعلامي، وهي بذلك تعطي مصداقية لتصريحات مسؤوليها بشان ما تقوم به حركة حماس والمردود السلبي المنعكس تجاه تلك الإعمال مما يؤدي إلى خلق حالة من عدم الثقة والارتياب ما بين حركة حماس والأذرع والفصائل الأخرى والشعب الفلسطيني.

ج- **أسلوب إطلاق النعوت** :- هذا الأسلوب مارسته الدعاية (الإسرائيلية) ومنذ فترات طويلة من السنيين تجاه العرب بشكل عام وتجاه الشعب الفلسطيني بشكل خاص فقد اختارت الدعاية (الإسرائيلية) عدد من المفردات والتي تدخل ضمن إطار مكافحة الإرهاب وهو نفس الأسلوب الذي مارسته الدعاية الأمريكية إبان القصف الذي تعرضت إليه واشنطن عام 2000/9/11 فقد رفع الرئيس

الأمريكي السابق (جورج بوش) شعار مكافحة الإرهاب ومن هذه المفردات التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) (إرهابيو حماس) يحتجزون سكان غزة كرهائن ويستغلون النساء والأطفال كدرع بشري ونعوت أخرى مثل (مسلحو حماس)و(محربوحماس)و(مليشيات حماس الارهابية).

د- **أسلوب الكذب** :- لقد مارست الدعاية (الإسرائيلية) هذا الأسلوب ومنذ احتلال فلسطين ولحد ألان وذلك من اجل تبرير ما يرتكبه المسؤولين (الاسرائيلين) من جرائم يحق الشعب الفلسطيني خصوصاً والشعب العربي عامة ففي الحرب الأخيرة على غزة وقع الكثير من الضحايا ودمرت بنايات ومؤسسات ودوائر ومدارس بالإضافة الى بيوت (مساكن وعمارات مدنية) وقصف مساجد ودور العبادة، حيث استخدمت الدعاية (الإسرائيلية) هذا الأسلوب لتبرير ما فعلوه وخير مثال على ذلك عندما قصفت مدرسة (الفاخورة) التابعة للأمم المتحدة في مخيم جباليا للاجئين ادعى الجيش (الإسرائيلي) إن مقاتلي حماس قد أطلقوا من منصة إطلاق قذائف الهاون التي كانت منصوبة في المدرسة وكدليل على ذلك عرض التلفزيون (الإسرائيلي) صوراً جوية كانت تظهر بالفعل المدرسة ومنصة الإطلاق غير انه بعد فترة قصيرة اضطر الجيش (الإسرائيلي) الاعتراف إن هذه ألصوره كانت قد التقطت قبل أكثر من 30 سنة فكل رضيع يموت يتحول بوفاته إلى مقاتل حماس وكل مسجد يتم قصفه يتحول منذ تلك اللحظة إلى قاعدة لحماس ويتحول كل منزل سكني إلى مستودع للسلاح وكل مدرسة تتحول إلى غرفة قيادة تابعة للإرهاب وهذا ما تعمل علية الدعاية (الإسرائيلية) حيث أنكرت الحقائق واللقاء اللوم على الخصم في مقتل المدنيين الفلسطينيين مثل حجة (نحن لم نفعل هذا وهم جعلونا نفعله): قصف المؤسسات الإعلامية كما حدث مع مبنى فضائية الأقصى، ومبنى جريدة الرسالة،وقصف برج الشروق وبرج الجوهرة المكتظتان بالمكاتب الإعلامية الدولية والعربية والمحلية، وقصف بيوت الصحفيين وقتلهم كما حدث مع الصحفي إيهاب ألوحيدي وعائلته والصحفي علاء مرتجى وعائلته ... كل ذلك بغرض التأثير على العمل الإعلامي في نقل الحقيقة،والتأثير السلبي في صياغة الرواية، وترويع

وتخويف الإعلام كي لا يتعامل مع رموز المقاومة ورجالاتها. : يُضاف إلى هذه الأساليب المباشرة من العدو، التصريحات والمقالات والتحليلات من بعض المتحدثين والكتاب والمحليين سواء الفلسطينيين أم العرب والتي تحمل حركة حماس المسئولية، وتُبرأ الاحتلال،وتنشر المعلومات المغلوطة والكاذبة والمبرمجة وخاصة الأكاذيب التي تدعي أن هناك عشرات الشهداء من معتقلي فتح السياسيين وهم يدركون انه لا معتقلين سياسيين في سجون الحكومة في غزة، وهم يدركون كذب ذلك ولكنهم يمارسون دورا محددا لهم للفت الأنظار عن بشاعة وحجم الجريمة ويقدمون خدمة للاحتلال.

هـ- **أسلوب التضليل**:- حيث اعتمدت الدعاية الصهيونية على مبدأ التضليل بصفة عامة،ومن خلال الاختصار والاختزال والاعتماد على الابهام والغموض والتلاعب بالالفاظ حتى لايعتقد المتلقي أنه اعلام كاذب ومن الموضاعات الاساسية التي طرحها الاعلام الصهيوني قضية البقاء وامن اسرائيل في مواجهة الجماعات الارهابية ودائما ما يؤكد الاعلام الصهيوني بأنهم يحاربون الارهاب ويدافعون عن انفسهم ولهذا سمي بجيش الدفاع[30].

الوسائل التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) في تحقيق أهدافها

لم تقصر هذه الحرب الدعائية على وسائل الإعلام المرئية كالفضائيات وإنما ركزت على الفضاء الالكتروني فما إن بدأت حرب الطائرات والدبابات على قطاع غزة حتى اندلعت حرب أخرى على الهواء بين نشطاء الانترنت العرب والمسلمين من جانب ونشطاء مواقع (الإسرائيلية) من جانب أخر حيث تفوق فيها الصهاينة نسبياً لأنهم ركزوا على كسب ود وتعاطف الأجانب بالأكاذيب بمخاطبتهم باللغة الانكليزية ويحدد الدكتور (جيمس زغبي[#] عدد من الوسائل التي استخدمتها الدعاية الإسرائيلية وهي[31]:-

1- استخدام الصورة النمطية التي استقرت طوال أجيال لصالح (إسرائيل)[# #] على سبيل المثال إلى إن ثمة صورة نمطية لدى البعض هي إن الصراع في حقيقته يتمثل في الإنسانية (الإسرائيلية) في مواجهة المشكلة (الإسرائيلية) فان التغطية الإعلامية عادة ما تبدأ بكيفية تأثير المشكلة على الشعب (الإسرائيلي) وإظهاره على شكل قصص خيرية تظهر هم فائقين من الصواريخ التي تطلقها المقاومة ومعاداة السامية ومحاولة الإرهاب الفلسطيني محاربتها والقضاء عليها .

2- استغلال المجندات (الإسرائيليات) والعاملات في مجال العلاقات العامة والتوجيه ودفعهن إلى الواجهة للتحدث باسم الجيش (الإسرائيلي) .

3- قصف الصحافيون الأجانب عبر البريد الالكتروني (الرسائل القصيرة) بمعلومات تنقل وجهة نظر الجانب (الإسرائيلي).

4- إنشاء محطة فيديو خاصة على موقع (يوتيوب) هدفها إثبات إن من يقتلهم الجيش (الإسرائيلي) هم من مقاتلي حماس المسلمين لا المدنيين الأبرياء .

5- استغلال موقع (توتير) وهو موقع العلاقات الاجتماعية استعانت به القنصلية (الإسرائيلية) في نيويورك لتبرير العدوان على قطاع غزة عبر مجموعة من المحاضرات، وفي إحدى الندوات بالقنصلية عبر برنامج (تويتر) الذي يخول لمستخدمه التواصل والنقاش المباشر مع مستخدمين آخرين تمكن مستخدمو البرنامج من كل إنحاء العالم من طرح أكثر من (400) سوأل على القنصلية وتتبع النقاش أكثر من (3) ألاف مستخدم للبرنامج اقنع الكثير منهم بوجهة النظر (الإسرائيلية)[32].

6- توفير العديد من الأشخاص الذين يتقنون اللغة الانكليزية وغالبا ما يكونون مولودين في الغرب للتحدث إلى وسائل الإعلام بحيث يمكن نشر وجهة نظرها وبأسلوب مبسط ومقنع.

7- كما جند الصهاينة اطقما اعلامية استغرق تدريبها اشهرا طويلة لتكون جاهزة للمعركة، وقد أكد ذلك البرفسور (دوف شنعار)المحاضر في جامعة بن غوريون في بئر السبع والذي قال في تصريح لوكالة فرانس برس ان اسرائيل تعلمت من

تجاربها السابقة استخدام العلاقات العامة ووسائل الاتصالات للتوجه الى الدبلوماسيين لتعريف العالم اسباب الحملة العسكرية وتفاصيلها .

8- ممارسة القرصنة على اثير الاذاعات المحلية ووجهوا رسائل رعب وتخويف للمواطنين وتزويدهم بمعلومات كاذبة ومفبركة عن المقاومة وزعمائها .

وفي أدناه جدول يوضح الأهداف التي رسمتها (إسرائيل) ابتغاء تحقيق الاستجابات المطلوبة وكما يلي :.

الموضوع الفكرة	التوجيه	الاستجابة المطلوبة
حشد القوات (الإسرائيلية) في المناطق المحيطة بقطاع غزة	تبرير وجودها – بيان أهمية ذلك للغرب والعالم	التأييد والتعاطف
الموقف صورة حماس	اختلاف ممارسات بشعة ونسبها إليها	الرفض والكراهية
الموقف ضد حماس دولي وليس (إسرائيلي)	إبراز انتهاك حماس للشرعية والقانون الدوليين	كسب تأييد الرأي العام العالمي
(إسرائيل) لا تريد الحرب لكنها أرغمت عليها بسبب مواقف حماس	التركيز على تحميلها المسؤولية التي ستترتب عليها خسائر البشرية المادية التي ستقع	التأييد والموافقة والتعاطف
انتهاك حماس لحقوق الإنسان	نسب ممارسات وأفعال بشعة لمقاتلي حماس والزعم بان حماس لا تحترم حقوق الإنسان	الكراهية والتحريض

رغم تلك الأساليب والوسائل التي استخدمتها الدعاية (الإسرائيلية) في حربها إلا أنها لم تحقق النجاح طيلة أيام الحرب أو بعدها والسبب في هذا يعود إلى عدة أسباب[33]:-

1- التباين الكبير جدا بين عدد القتلى في صفوف الشهداء الفلسطينيين والقتلى (الإسرائيليين).

2- صور الأطفال الفلسطينيين المشوهين على شاشات التلفزيونات العالمية وكذلك القصص المروعة للمدنيين المحشورين في ساحة الحرب.

3- قصف مدرسة (الفاخورة) التابعة للأمم المتحدة التي كانت تؤوي (40) مدنياً قتل وجرح عدد كبير منهم.

4- استخدام الفسفور الأبيض والمحرم استخدامه في المناطق السكانية.

5- قصف الأطفال الأربعة الذين عثر عليهم يتضورون جوعاً قرب جثة أمهم بعد إن كانت القوات (الإسرائيلية) دمرت بيتهم على رؤوسهم.

مما جعل ردود أفعال الدول الغربية التي كانت تؤيد الحرب والتي أسموها بالحرب الدفاعية عن الشعب (الإسرائيلي) إن تتغير تجاه وقف الحرب فوراً والمطالبة بمحاسبة الضباط(الاسرائيلين) المسئولين عن إدارتها بعد إن تغير موقف الرأي العام لكثير من الدول مما دفع (إسرائيل) بعد هذه المجزرة إن تعمل على تحسين صورتها ومحو صور جرائمها الشنيعة في قطاع غزة من ذاكرة العالم حيث أجرت وزارة الخارجية (الإسرائيلية) اتصالات مع شركة أمريكية للعلاقات العامة وطلبت منها خطة علاقات عامة مفصلة من شانها تحسين صورتها بعد الهجوم[34] بالإضافة إلى إجراءات احترازية تضمن سرية كبار الضباط الذين شاركوا في الحرب.

المصادر والهوامش :-

(1) د. حامد ربيع –نظرية الدعاية الخارجية، مكتبة القاهرة –الحديثة– القاهرة/1972/ص10.
(2) د.احمد بدر –الاتصال بالجماهير بين الإعلام والدعاية والتنمية /الكويت/وكالة المطبوعات /1982/ص203.
(3) أ.ب–نولكيس /الأدب والدعاية /ترجمة د. موفق الحمداني –بغداد /دار الشؤون الثقافية العامة /1986/ص8.
(4) د.جيهان رشتي /الدعاية واستخدام الراديو في الحرب النفسية /القاهرة،دار التوفيق النموذجية للطباعة /1985/ص163.
(5) د. فخري الدباغ /غسل الدماغ، دراسة نفسية اجتماعية لظاهرة التمذهب وتحويل الاتجاهات /بيروت/المؤسسة اللبنانية للنشر /1970/ص630.
(6) د.محمد منير حجاب، الدعاية السياسية وتطبيقاتها قديماً وحديثا القاهرة /دار الفجر للنشر والتوزيع /ط2/2002/ص17.
(7) د. محمد عبد القادر حاتم، الإعلام والدعاية –نظريات وتجارب مكتبية الانجلو المصرية/1978/ص140.
(8) دانييل كاتز/ الإعلام والرأي العام وترجمة د.محمود كامل المحامي /القاهرة دار نهضة مصر /1982/ص255.
(9) د. حميدة سميسم، الحرب النفسية المضادة في أزمة الخليج /مجلة أفاق عربيه العدد/11/لسنة 1990 بغداد /ص74.
(10) د.حامد ربيع، الحرب النفسية في الوطن العربي /بغداد /دار واسط /1981ص317.
(11) د. جيهان احمد رشتي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة دار الفكر العربي/1978/ ص615–616.
(12) مجموعة من علماء النفس، علم النفس الاجتماعي وقضايا الاعلام والدعاية وترجمة نزار عيون السود/دار دمشق للطباعة والنشر 1978/ص26.

(13) د. السيد عليوة،إستراتيجية الإعلام العرب–القاهرة –مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب /1978/ص176.
(14) د.محمد منير حجاب – مصدر سابق /ص35.
(15) موسى زناد /الحرب النفسية – مقلاً عن محمد فاضل زكي/الدعاية العربية امام التحديات الصهيونية /بغداد/ المؤسسة العامة للصحافة والطباعة /1968 /ص9وص10.
(16) د. شاهيناز طلعت / الدعاية والاتصال –دراسة تطبيقية على الوثائق السرية البريطانية عن ثورة مصر 1919/مكتبة الانجلو المصرية –1987/ص176.
(17) د.محمد عبد القادر /دور الإعلام في التنمية /بغداد /دار الرشيد للنشر/1982/ص105.
(18) د.محمد عبد القادر /دور الإعلام في التنمية –مصدر سابق ص106.
(19) د. زيدان عبد الباقي /وسائل وأساليب الاتصال في المجالات الاجتماعية والتربوية والرادارية والإعلامية /دار غريب للطباعة /القاهرة/ط2/1977/ص486.
(20) د.حميد جاعد / الإعلام والديمقراطية بين الدعاية والتحريض /مجلة الباحث الإعلامي / كلية الإعلام /بغداد /العدد الثاني 2006/ص29.
(21) د محمد كمال القاضي /الدعاية السياسية والحرب النفسية – القاهرة /المركز الإعلامي للشرق الأوسط (2001–2002) ص47.
(22) د. محمد منير حجاب /الدعاية السياسية مصدر سابق ص86.
(23) د. هاني الرضا – دار ( ) عمار – الرأي العام والإعلام والدعاية /بيروت / المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع عام 1998/ ص321وص232.
(24) د. رفيق سكري /مدخل في الرأي العام والإعلام والدعاية ()–لبنان،1984، ص51.
(25) د. حسن صبري الخولي / سياسة الاستعمار الصهيوني تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين المجلد الأول، القاهرة –دار المعارف –1973، ص33.
(26) د.هاني الرضا – د.رامز عمار– الرأي العام والإعلام والدعاية / مصدر سابق/ص234.

دور الملصقات الجدارية في حملات الدعاية للانتخابات

م. م. عـــذراء إســـماعيل زيـــدان
جامعة تكريت/كلية الآداب/قسم الأعلام

مُقَدِّمَة

أن للكلمة أهمية عند الإنسان سواء كانت منطوقة أو مصورة أو مكتوبة وهي الوسيلة الاتصالية الأولى التي عبر عن طريقها الإنسان عن الدعاية التي تؤثر على الفرد وتجتذبه .

وينصب جوهر الدعاية الانتخابية عبر الملصق الدعائي على قدرته في إحداث التأثيرات والتعبير عن أراء وتغير القناعات لدى جمهور الناخبين بالاتجاه الذي يريده القائم بالعملية الدعائية ولمعرفة الأسس الموضوعية والفنية في كيفية وصول الرسالة الدعائية .إلى ملايين الناخبين في وقت واحد وتحديد احتياجاتهم بالشكل الذي يسمح للمرشحين بالشروع بإطلاق دعايتهم عبر ملصقاتهم وبالمستوى الذي يتلاءم مع متطلبات وأمال الجمهور .

وبعد تطور التاريخي والتقدم العلمي الحديث أصبحت الدعاية علما له أصوله وأنواعه وقواعده فاستخدمت للسيطرة على الفكر والسلوك داخل المجتمع الإنساني وقد احتلت الدعاية الانتخابية مكانة مهمة في علوم الأعلام والاتصال إذ أنها تعني مجموعة الأنشطة والفعاليات التي يزاولها القائمون بها لتحقيق أهدافهم السياسية سواء كانوا من المرشحين أو القادة الحزبين والبرلمانين .

مشكلة البحث:

أن الميزة الرئيسية التي تميز بها البحث العلمي هي وجود مشكلة محددة تسترعي الانتباه من يدرسها ويحللها بتفاصيلها كلها والإحاطة بحيثياتها للوصول إلى

(27) د. سعد سلمان – الدعاية الصهيونية الموجهة إلى العراق خلال الحرب العراقية الإيرانية –بغداد – دار الشؤون الثقافية العامة 2002، ص27.

(28) د.مختار التهامي–الرأي العام والحرب النفسية–دار المعارف–القاهرة 1990 / ص24.

(29) احمد فواد أنور – الصحافة الدينية في إسرائيل بين قضايا الصراع مع العرب والتناحر الداخلي /القاهرة/عالم الكتاب،2006، ص317.

(30) http://www.attajdid.ibfoldef.asp

(#) الدكتور جيمس زغبي /من ابرز الوجوه العربية الأمريكية في الإعلام الأمريكي وينتمي للحزب الديمقراطي ويرأس المعهد العربي الأمريكي .

-http://www ()mericainarabic.comldefauit.

(31) http:www.Zope.gidsh-shalom.org.home.

(##) الصورة النمطية /عرفها معجم ويبستر (أنها تصور عقلي شائع بين إفراد وجماعة معينة يشير إلى اتجاه هذه الجماعة نحو شخص معين أو شي بعينه).

(32) http: //www. Islamoline.net.servlet.

(33) من خلال متابعة ما تم بثه الفضائيات وخاصة قناتي الجزيرة والعربي .

(34) مقال (إسرائيل تستخدم شركة دعاية أمريكية لتحسين صورتها) للكاتب محمد حميدة في 2009/1/16 * نقلا عن موقع الانترنت

http://www.eloph.com/wep/bolitics.

أسئلة تساهم في أيجاد حلول لإزالة ذالك الغموض والتحقيق فيه عن طريق ثلاث خطوات:

أ – الإحساس بالمشكلة ب – تحليل المشكلة ج – تقويم المشكلة

تتخلص مشكلة البحث في التعريف بدور الملصقات جداريه في الانتخابات العامة بتطبيق معلومات البحث نظريا على دور هذه الملصقات في العملية الانتخابية التي تجري بلدان العالم .

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث العلمي من أهمية المشكلات التي تشيرها الموضوعات التي تتناولها والمجالات التي تمتد أليها، وبما أن البحث العلمي يجب أن يسخر لخدمة المجتمع ويتفاعل مع قضاياه .

فان هذا البحث يتجاوب مع تجربة الدعاية الانتخابية عبر الملصقات الجدارية للانتخابات لذا فان أهمية البحث تكمن بالإسهام في سد النقص الحاصل في البحوث العلمية التي تتناول تطبيق الأسس العلمية للحملات الدعائية والتي تؤدي بدورها إلى استمالة وتحفيز الناخبين بالاشتراك في العملية الانتخابية،وعليه تأتي أهمية البحث باستخدام الملصق الدعائي للأسباب الآتية

١– التركيز على قدرة الملصق في إيصال الرسالة إلى الناخبين.

٢– إسهامه في إثراء المجال التخصصي في حقل الأعلام والدعاية الانتخابية بصورة خاصة.

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى الإجابة على الأسئلة الآتية :–

١– ما هي العناصر الأساسية التي تشكل بناء الفني للملصق ألجداري ؟

٢– ما هي الرسالة التي تقدمها الملصقات الجدارية باعتبارها وسيلة اتصال جماهيري في الحملات الانتخابية والإعلامية ؟

٣– هل يمكن أن تعتبر الملصقات احد وسائل الأعلام والاتصال ؟

المبحث الأول
نشأة الملصق ألجداري وتطوره وأهميته في الدعاية الانتخابية

أولا : **مفهوم الملصق**

ثانيا : **نشأة وتاريخ تطور الملصق في العالم**

ثالثا : **أنواع الملصقات الجدارية**

رابعا : **خصائص الملصق ومميزاته**

المبحث الأول

الملصق الجداري مفهومه ونشأته وتطوره وأنواعه وخصائصه

١- مفهوم الملصق :-

الملصق وسيلة اتصالية تتجه إلى جمهور غير متجانس يتم عن طريقه تقديم المضمون الذي يتمثل بالمعاني والدلالات والرسوم والخطوط والألوان وبقية عناصر الأخرى لتحقيق الغرض الذي وجد لأجله[٢]. وترى في هذا التعريف أن قيمة الملصق تكمن في فكرته ووضوحها أي أن يكون متوازنا في ناحية القيمة الوظيفية والفنية، وبما أن الملصق وسيلة للفهم المتبادل بين المرسل والمستقبل وإقناع المستقبل بما يحمله المرسل من أفكار وأراء لها مساس بحياة المتلقي بصورة مباشرة وغير مباشرة ومفهوم الملصق في القواميس اللغوية معناه لصق " ل ص ق " (لصيق) به بالكسرة (لصوقا) بالضم و (التصق) به و (الصقه) به غيره[٣]. وتطلق كلمة ملصق على الإعلانات المطبوعة أو المرسومة على الخشب او الورق او أي مادة أخرى تلصق على الجدران المخصصة لذلك لتؤدي إحدى الوظائف الدعائية والإعلامية والسياسية والاجتماعية والفنية والإرشادية والتعليمية لنقل أيدلوجيتها للتأثير في الجماهير وكسبها باعتبارها وسيلة اتصالية سهلة النقل والأفكار والمعاني إلى فئات المجتمع المختلفة بصورة عامة .

٢- نشأة الملصق وتطوره في العالم :

مرت الملصقات بمراحل مختلفة سواء في مجال التوظيف الدعائي وفي مجال التصميم والطباعة واستخدام المواد الأولية فضلا عن التطور الصناعي وألزماني والمكاني إلى أن وصلت على ما هو عليه في الوقت الحاضر وتشير بعض الدراسات إلى أن نشأة الملصق تعود إلى السنوات الأولى لاختراع الطباعة من قبل الألماني جوتنبرغ عام (١٤٣٨،١٤٤٥) عند اختراع أول آلة طبع خشبية وكانت اغلب الملصقات تحتوي على مادة كتابية شملت بيانات ملكية او تخمينات ضريبية تلصق في الكنائس او في الأماكن العامة[٤].

وبعد ذلك المصمم (وليم كاكستون) (William Kakston) عام ١٤٧٧ الذي قام بتطوير مكائن الطباعة أكثر قدرة وإمكانية على الطبع فكانت مدعاة اهتمام لطبع الملصقات والمنشورات الدعائية والتجارية يكلفه اقل[٥]. وفي أواخر القرن السادس عشر انتشرت الملصقات الدعائية الإعلانية وكان من أبرزها الملصق الذي أصدرته جماعة تجارة الأسماك في بريطانيا والمحفوظ حاليا في جمعية الآثار في لندن[٦]. ويعد أول إعلان ينشر على شكل نصيحة ولم يظهر بشكله المعروف ألا في عام ١٦٥٥، ومع بداية الثورة الصناعية وما رافقها من تقدم في مجال المواصلات والاختراعات التي تحققت في ميدان الطباعة الميكانيكية التي ساهمت في تقدم أنتاج الملصقات المختلفة .

ومن هذا التطور شهد الملصق أمكانية طباعة الصور والرسوم الملونة للملصقات الدعائية وللمسرحيات الاستعراضية بكلفة قليلة وسهولة الانتشار وقد أنتجت مؤسسة (روستون) في باريس ملصقات ملونة يعود تاريخها إلى عام ١٨٤٥[٧].

وظل الملصق مابين عام ١٨٧٠ وحتى الحرب العالمية الأولى مرتبطا بالمبدأ التجاري وتبث للملصق مرحلتين الأولى بين عام١٨٧٠ – ١٩١٩ عندها كان الملصق جزا من عمليات التجارية والمرحلة الأخرى ابتداء من عام ١٩١٩ حتى وقتنا الحاضر وقد تحقق في ظهور الملصق السياسي مما هيأ له تطوير علاقته بالجماهير واستخدام الملصق السياسي منذ الحرب العالمية الأولى في بداية الأمر وأصبح وسيلة دعائية استخدمت تشجيع التجنيد للدخول في القوات المسلحة لغرض القتال عن طريق أثارة مشاعرهم[٨].

كما شملت مواضيع الملصقات العلاقات والصلات العميقة التي تربط أفراد الأسرة الواحدة، وعندما قامت الثور الفرنسية ١٧١٩ استخدم الثوار الكلمات الرنانة لإيصال أفكارهم إلى شعبهم، وأثبتت الخطب التي كان يطلقها القادة مقدرتها على جدب انتباه واهتمام الناس وتوعيتهم[٩].

وقد ساهمت الملصقات التي استخدمت أثناء الحرب العالمية الأولى مساهمة فعالة في أثارة روح العداء البغيض بين الأطراف المتنازعة . وبعد الحرب العالمية

الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ظهرت تطورات سياسية وفكرية جديدة أوجدت نتائج تعارض الحروب وتدعو للسلام[١٠]. وفي الستينات من القرن العشرين ازدادت أهمية الملصقات السياسية التي تعد السبب في تعميق علاقتها بالجماهير، ففي كوبا عام ١٩٥٢ ظهرت ملصقات لها تأثيرات دعائية وكانت لهذه الدولة مكانة متميزة في تاريخ الملصق إذ امتازت الملصقات بإيجاد قرابة بين لغة المجتمع وأعمال المصممين[١١]. وفي العقدين الأخريين من القرن العشرين شهد الملصق تطورا وانتشارا واسعا .

١- الملصق والاتصال السياسي :

أن معنى كلمة اتصال في اللغة العربية هو المعنى نفسه في اللغة الانكليزية (Communication) وهو اسم الفعل (Communicate) لذا فأن الفعل في اللغة العربية يتصل بمعنى يبلغ الشيء والاسم في العربية بمعنى المعلومات المبلغة او الرسالة الشفوية او الخطية وتبادل الأفكار والمعلومات عن طريق الإشارات[١٢].

والاتصال السياسي هو احد وظائف النظام السياسي يعبر عن واقع معين ويمد بالحقائق دون تشويه او تحريف أي كلما استخدمت الأحزاب السياسية الحاكمة قنوات اتصال جيدة وفعالة تنقل أليهم نبض الجماهير وتطلعاتها ومواقفها واتجاهاتها فضلا عن التعليمات والإرشادات التوجيهية للحزب الحاكم، يزداد التواصل بين الحاكم والمحكوم بصورة جيدة ومستمرة[١٣]. والاتصال السياسي هو ذلك الجزء من النشاط الاتصال الذي تقوم به الهيئات المختصة في بث المعلومات والأفكار والمواقف عن الشؤون الحكومية والذي يعكس أهدافا سياسية محددة تتعلق سياسية تؤثر في الحكومة او الرأي العام او الاتجاه الخاص للأفراد او الشعوب عن طريق وسائل الاتصال المتعددة[١٤].

العناصر السياسية التي يقوم عليها الاتصال السياسي : -

- **النشاط السياسي :** وهو مضمون عملية الاتصال السياسي .
- **القائم بالاتصال :** وهو السياسي او الإعلامي او شخص من عامة الناس .
- **الوسيلة :** وهي كل وسيلة اتصال تجسد النشاط السياسي الذي تمارسه الحكومة والإعلاميين وأفراد الشعب في كالملصقات والصحف والأجهزة السمعية والمرئية.
- **التنظيمات :** كالأحزاب والاتحادات .
- **التجمعات :** الأقل تنظيما كالنوادي والجمعيات .
- **وسائل الاتصال الجماهيري :** (الصحف، الفضائيات، الإذاعة، الملصقات) .
- **المناسبات الخاصة :** (المهرجانات، المظاهرات، التجمعات)[١٥].

وان الاتصال السياسي: هو عصب العملية الانتخابية والدعائية وهو صورة في صور الاتصال وتنطبق عليه القواعد المعروفة جميعها في العملية الاتصالية، والاتصال السياسي .

ويتميز بخصائص معينة لغرض التأثير الذي ينتج عنه ردود الفعل، ويكون السلوك السياسي نابعا من طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم وتبرز حالة الشعور واللاشعور بالرضا عن الحاكم وتفتخر بالانتماء او عدم الشعور بالارتياح او الاهتمام بالجماعة[١٦].

وظائف الملصق السياسي : -

الملصق السياسي رسالة اتصالية ذات مضمون دعائي تعبر عن اتجاه البرنامج وأهداف الجهة السياسية التي تقوم بتوجيه حسب الظروف المتاحة (زمانية او مكانية) ويمكن تلخيص وظائف الملصق بالاتي[١٧].

١- **الأعلام والأخبار :** اتخذت هذا المسار منذ أقدم العصور وبما أن الملصق وسيلة اتصالية سريعة الانتشار وسهلة الإدراك لذا لجئت الكيانات السياسي إلى استخدام الملصقات لغرض نقل الأهداف إلى الجمهور والتأثير فيه عن طريق المضامين التي ينقلها سواءا كانت في الصورة او الحرف او الكلمة او الرموز[١٨].

٢- **الدعاية :** من الصعب وجود عمل سياسي بدون نشاط دعائي يعمل على تبسيط الأهداف والبرامج التي تروم على استمالة الجمهور او (الرأي العام) وبما أن الملصق السياسي رسالة ذات مضامين واتجاهات مختلفة تهدف إلى التأثير الرأي العام فقد استخدمته الكيانات والأحزاب السياسي كأداة دعائية لتميزه بالإيجاز وبالبساطة[١٩].

٣- **تحديد الهوية :** بما أن الملصق وسيلة اتصالية بصرية تحمل مضمون مرسلها أي الجهة التي أنتجته وصممته لذا فلا يحمل شعار او اسم الحركة او الحزب الذي يطلع بالمواطن أن يميز او يفرز هويات الأحزاب عن طريق الملصق الذي عرف باسم الجهة التي أنتجته[٢٠].

٤- **التثقيف والتوعية :** لعب الملصق دورا مهما في مجال التثقيف والنوعية والإرشاد لأنه ساعد على نشر الثقافات السياسية والاجتماعية والفنية والتوجيه في شرائح المجتمع عن طريق لصقه وتوزيعه[٢١].

شروط نجاح الملصق : -

هناك ثلاثة شروط أساسية على مصممي الملصقات او الدعاية الأخذ بها وهي :

١- **التوقيت المناسب :** إذ يجب الالتزام بالوقت المناسب والملائم لطرح موضوع الملصق لان ذلك يضمن تفاعل الجمهور مع الموضوع وتعود نسبة الاستعداد والتقبل للملصق إلى استعداد الجماهير لتقبل الأفكار فلا بد من أن يرتبط بتوقيت زمني محدد ومكان معين[٢٢].

٢- **التعبير عن الحقيقة :** أن أكثر مصممي الملصقات يجسدون أفكارا واقعية وإحداثا تكون سياسية او دعائية او توجيه او إرشادية او تربوية او ثقافية او اجتماعيه فلا بد أن يكون الملصق فيه جانب كبير من الصدق رغم وجود المبالغة في تجسيد المضامين داخل ملصقات الفضاءات[٢٣].

٣- **الاختيار الصحيح للمفردات :** أن الاختيار الأفضل للكلمات يلعب دورا في أسلوب التأثير في العواطف والانفعالات مع اخذ بنظر الاعتبار عن الحشو غير المبرر له في النص والتعارف والعناوين مع بقية العناصر الأساسية، ومن خلال الوحدة والانسجام بين المظهر العام للملصق والمادة المذكورة[٢٤].

أنواع الملصقات :

يرتبط الملصق بالحياة اليومية للإنسان ويلعب دورا مهما في المناسبات الوطنية والدينية ودور الملصق هو تغلب على المشكلات التي تظهر في المجتمع والبيئة التي يعيش فيها الإنسان على طريقة السعي لتحقيق أهدافه والملصق المتميز يحتوي على اقل ما يمكن من المعلومات ويتضمن عنوانا مختصرا لان المتلقي يلاحظ ويقرأ مثل هذه الملصقات أثناء مروره بالشارع او المكان العام ولا يكون لديه الوقت الكافي لقراءة عنوان طويل مع تفاصيل كثيرة[٢٥].

هناك أنواع من الملصقات هي :-

١- **الملصقات السياسية :-** وهي الملصق الذي يرتبط ارتباطا مباشرا بالجماهير لكونه وسيلة بارزة لإيجاد الوعي الثقافي إلى جانب الوعي السياسي، ويعد الملصق السياسي ذو طابع فكري سياسي موجه يشمل الإحداث السياسية ويعمل على تجسيد الأفكار والشعارات ويكون فاعلا بقدر معين من التأثير لدى المتلقي واستقطابه حول موقف وفكرة معينة[٢٦].

٢- **الملصقات الإرشادية :-** وهي الملصقات التي تتعلق بالأفكار والخدمات والمنشات المعروضة للجمهور الذي لايعرف شيئا عنها مثلا : الدفاع المدني، المرور، الداخلية، والقطاع الصناعي والزراعي، والشؤون الاجتماعية، وتتمثل وظيفة الملصق الإرشادي بأنها تمد الجمهور بالمعلومات التي تيسر له الحصول عليها عن طريق الملصق لغرض اتخاذ تدابير احترازية من الزلازل والحرائق والأوبئة والفيضانات والكهرباء والماء وغيرها[٢٧].

٣- **الملصقات الدعائية :-** وهي التي تستخدم للدعاية السياسية او لسلعة تجارية او صناعية والترويج عنها في الأسواق والأماكن العامة والطرق الخارجية والهدف

منها هو الربح وقد استخدمت الملصقات الدعائية للمرشحين كسب أصوات الناخبين عن طريق أظهار المرشحين لصورهم ولبرامجهم الانتخابية وقد ظلت الملصقات الدعائية تلعب دورا في كسب الجمهور سواء كان سياسيا او اجتماعيا او ثقافيا[٢٨].

٤- **الملصق التعليمي** :- ويستخدم في مجال التربية والتعليم والتجارة ووظيفته تعبر عن سلوك المتعلم نتيجة تفاعله مع تلك الملصقات وللملصق التعليمي أهداف تعليمية وتربوية واجتماعية ثقافية وترفيهية، كما يستخدم في وسائل الإيضاح عند التدريس في المراحل الدراسية كافة[٢٩].

٥- **الملصقات الثقافية والفنية** :- وهي تلك الملصقات التي تصدر عن المؤسسات الثقافية والإعلامية والتي تعطي للجوانب الثقافية والإعلامية والفنية أهمية كبرى عن طريق الملصقات ومن أهدافها تغطية الفعاليات والمهرجانات الثقافية عن طريق عرضها في المعارض .

٦- **الملصقات السياحية** :- وهي الملصقات التي توظف للدعاية السياسية لإبراز نشاط المرافق السياحية التي يتضمنها الموقع السياحي سواء كان اثريا او دينيا وإعطاء انطباع مؤثر عن الخدمات التي تقدمها الجهة المعلنة وإيصال صورة الواقع السياحي عن تلك المواقع التي لا يستطيع المشاهد الوصول أليها[٣٠].

٧- **الملصقات التجارية** :- وهي الملصقات التي تخلق في أذهان الجمهور صورة للجهة المعلنة وابرز تصميم الشعار الذي يمثل المنتوج كالأجهزة والمعدات والسيارات والديكورات والإكسسوارات والعطور والملابس والمنتجات الغذائية والأجهزة الطبية وأجهزة الاستخدام المنزلي، ويعمل الملصق التجاري على إعداد الثقة بالمنتج وجدب انتباه المستهلك إلى تلك السلعة وإبراز فوائدها والأغراء به لشرائها .

خصائص الملصق ومميزاته :-

للملصق ألجداري خصائص عدة ويمكن إيجازها بالاتي :

١- **الإيجاز** :- كلما كانت عناصر الملصق التبغرافية مختصرة ومركزة ومطبوعة بأحرف كبيرة وبلغة مفهومة من قبل المستقبل (المتلقي) للرسالة الدعائية تمكن

المتلقي من التركيز والإدراك والفهم بسرعة لان الملصق يتطلب قراءة سريعة ربما تكون بثواني معدودات[٣١].

٢- **البساطة** :- على الملصق الدعائي أن يكون ذا تعبيرات بسيطة سواء كان ذلك باستخدام الرموز والحركات والدلالات وحتى الصور وان لأتكون متداخلة فيما بينها وان تعبر عن الأفكار بصورة بسيطة يتفهمها المجتمع بكل طبقات ولا تكون مشوشة في فضائياتها ومتداخلة في عناصر بنائها .

٣- **القراءة** :- على المصمم او المرسل جذب انتباه وشد البصر باتجاه الملصق عن طريق طرح مضمون منفرد او فكرة جديدة او عن طريق الحجم والمكان الذي يعرض فيه ملصقاته ومن الملاحظ أن الملصق ألجداري يتبع نظاما تقييما موجه إلى المتلقي الهدف منه إيصال الرسالة الدعائية التي غالبا ما تكون ذات هدف واحد وفكرة واحدة .

٤- **مميزات الملصق** :- أن أهم ما يميز الملصق انه ذا مضمون فكري ونفسي واجتماعي يجسد الأفكار والشعارات والرموز في كل حقبة تاريخية وعلى هذا الأساس تميز الملصق بصفات عدة مميزة عن بقية وسائل الاتصال[٣٢].

١- **الملصق وسيلة سهلة الاستخدام والنقل** :- حيث يمكن أن تثبت او توضع في الأماكن الملائمة او المستهدفة مما يسهل عملية الوصول إلى المستقبل لغرض التأثير او الإقناع.

٢- **الملصق يوصل المعلومات التي من الصعوبة إيصالها** :- بواسطة الوسائل الاتصالية الأخرى لذا عد الملصق وسيلة على الرغم من انه لا يكون محددا بزمان ومكان معينة او مطلق .

٣- **يعد الملصق وسيلة اتصالية بصرية سريعة التلقي** :- تتماشى ومتطلبات العصر سواء في استلام او تفسير أي فكرة او رمز.

٤- **بما أن الملصق وسيلة حضارية** :- وذلك باستخدامه للإغراض والأهداف المختلفة منها الدعائية، السياسية التوجيهية، الإعلانية، التعليمية، السياحية، الثقافية .

المبحث الثاني
العناصر التبوغرافية في تصاميم الملصقات الجدارية

مُقَدِّمَة

يعد الملصق فنا" شعبيا" ذا مخزون أيديولوجي وحضاري يعتمد على اللغة التصورية كوسيلة نقل واتصال وتأثير عن طريق لغة موجزة ذات مفردات محددة ومعبرة عن الحدث الذي يجسد فيها كالصورة والألوان والعناوين والشعارات السياسية والملصق الدعائي يوظف الكثير من الرموز والحركات التي تنقل رسالة صامتة تسعى إلى مخاطبة البصرية وتهدف إلى أن يكون لها تأثير قوي مما يوجه الأنظار تجاه تلك الرسالة البصرية المقصودة(٣٣).

أولا : العنوان Title :

يعد العنوان عنصرا" تبوغرافي"ا أساسيا" في بناء الملصق وتحديد هيكله العام وتتفاوت أهميته تبعا لنوع الموضوع، فضلا" عن انه يسهم في التعريف بطبيعة الملصق وبمحتواه ويظهر العنوان على أنواع منها الرئيسية والثانوي (الفرعي) ويكتب بشكل موجز وواضح لغرض سهولة استيعابه بسرعة لإبراز معطيات المضمون بصورة مختصرة، وتلعب العناوين عن طريق سمك حروفها وألوانها دورا" كبيرا" في تحقيق الهدف الدعائي والاتصالي للملصق(٣٤)، ويمكن إيضاح ذلك من خلال جدول الأتي .

جدول رقم (١) يوضح عدد الكلمات التي يحتويها العنوان المميز

ت	عدد الكلمات التي يحتويها المضمون	نسبة من قرؤوا العنوان
١	من١ – ٣	٨٧، ٣%
٢	من٤ – ٦	٨٦، ٢%
٣	من٧ – ٩	٨٤%
٤	من١٠ – ١٢	٨٢، ٥%
٥	أكثر من ١٢	٧٧، ٩%

• الجدول، نقلاً عن عزا لدين شموط:لغة الفن التشكيلي وعلم الإرشادات البصرية

المبحث الثاني
العناصر التبوغرافية في تصاميم الملصقات الجدارية

أولا : العنوان .

ثانيا : الصور والرسوم والتخطيطات .

ثالثا : الشعار.

رابعا : الأسس النفسية لتأثيرات الملصق الدعائي الانتخابي .

يتضح من الجدول الأنف الذكر أن العنوان القصير من ١-٣ كلمات يتمتع بأعلى نسبة وذلك لسهولة قراءته ولكن هناك عوامل لها اثر كبير على القراءة مثل الشكل واللون والحجم.

كما تصنف العناوين أما حسب الشكل آو المضمون وكما يلي :

١- العناوين حسب الإشكال:

أ – **العنوان الاستفهامي** :– يصاغ بشكل سؤال لجذب انتباه المتلقي وتشجيعه الإقبال نحو الملصق.

ب – **العنوان بشكل آمر** :– وتوجه المعلومات فيه إلى الجمهور المستهدف بشكل أمر مثلا (انتخب القائمة رقم كذا) .

ج – **العنوان الفضولي** :– يعتمد هذا العنوان على استخدام كلمة واحدة او جملة غير كاملة بهدف أثارة فضول المتلقي ودفعه إلى محاولة معرفة الإجابة او الشرح المطلوب عن طريق الملصق .

٢- العنوان حسب المحتوى :

يمكننا أن نلاحظ أن العنوان حسب المحتوى يتخذ الأشكال الآتية :–

أ – **العنوان المحدد للهوية** : يصمم لتحديد اسم الجهة او المؤسسة او الكيان الذي يصدر الملصق .

ب – **العنوان الوظيفي**: يركز على أبراز المنافع المترتبة على اعتماد مسلك توجيهي او أرشادي.

ج – **العنوان الإخباري** : ويعد مدخلا مباشرا ذا صيغة خيرية تركز على الجديد في المعلومات بحيث ترفع المتلقي إلى المتابعة .

د – **العنوان الانتقالي** : وهو العنوان الموجه إلى فئة معينة وليس للأفراد كلهم كونه يستهدف قطاعا معينا من المتلقيين[٣٥].

ثانيا : الصور والرسومات والتخطيطات :-

١– **الصورة** : اعتاد الإنسان منذ القدم إن يعبر عن أفكاره ومشاعره بالرسوم والصور حتى بعد اختراع الكتابة، إذ تعتبر الصور والرسم لغة عالمية تجد طريقها إلى العقل بسهولة ويفهمها الجميع على مختلف مستوياتهم الثقافية والفكرية والصورة عنصر تبوغرافي مهم في بناء الملصق أيا كان شكله او حجمه او طريقة أخراجه،وأكدت الأبحاث أن قيمة الملصقات المصورة ازدادت قدرتها على جذب الانتباه عن الملصقات غير المصورة بمقدار ٥٠ %[٣٦].

أنواع الصور:

أ – **الصورة الخطية** :– وهي الصورة الخالية من الدرجات الظلية المتباينة باستناء احتوائها على الخطوط.

ب – **الصورة الظلية** :– تحتوي على درجات ظليه مختلفة حيث تحول الصور الطباعة باستخدام الشكل لتوليد تجزئة الظلال المتدرجة من الظل إلى النور على أصل الصور الفوتوغرافية وبشكل دقيق .

٢– **الرسوم والتخطيطات** : يشار إلى الرسوم عادة باسم الإيضاحات إذ تحتوي نسبة كبيرة من الملصقات على الرسوم لأنها تستخدم العديد من الأغراض[٣٧].

ويعد التخطيط نوعا" من التعبير الفني الذي يستند على الرسم بقلم الرصاص او الفحم او الريشة ويمتلك درجة لونية قليلة[٣٨].

٣– **وظيفة الصور والرسوم في الملصق الدعائي:**- أن فعالية أي تتأثر تأثيرا ملحوظا باستخدام الصورة والرسوم وذلك لأنها تؤدي دورا وظيفيا ونفسيا هادفا عن طريق[٣٩] ما يأتي :

أ– إضفاء المصداقية على الملصق .

ب – دعم المعاني الواردة في النص وتوسيعها :– بشكل يفهم الرؤية البصرية وإظهار الفكرة بشكل مادي ملموس .

ج– أحداث تأثير عاطفي واستجابة سريعة : بتقريب الفكرة للمتلقي عن طريق صورة الحدث والموضوع .

د– جذب انتباه الغالبية العظمى من المتلقيين إلى الملصق الدعائي وحسب نوعية الجمهور الذي يستهدفه للوصول أليهم أي أن الصور والرسم تستطيع وظيفيا أن تحدد نوعية المتلقين.

المبحث الثالث
الدعاية الانتخابية مفهومها والتخطيط لها ووسائلها وأساليبها

أولاً : الدعاية الانتحابية

١-مفهوم الدعاية الانتخابية

٢-تعريف الدعاية الانتخابية

ثانيا : أساليب ووسائل الدعاية

١-الأساليب الدعائية عبر المراحل التاريخية

٢-وسائل الدعاية

ثالثا : العلاقة بين وسائل الأعلام والعملية الدعائية

و – تقوم الصورة والرسوم بعملية الاتصال البصرية :– بدرجة كفاءة أعلى من الكلمات التي يتكون منها النص الكتابي[٤٠].

ثالثا : الشعار :

الشعار في معجم أكسفورد (عبارة مؤثرة يسهل تذكره ويستخدم للإعلان والترويج لبعض الأشياء او لتوضيح أهداف جماعة او منظمة)[٤١]، والشعار كما عبر عنه الدكتور علي حسين طوينه هو (رسالة اتصال تجد في عبارة موجزة لا ليس فيها ولا مضمون يعبر عن فكرة او قضية او موقف او رأي يتعلق بالشأن السياسي او أي كان حدوده الجغرافي أيا كانت موضوعاته او قضاياه وترمي إلى التأثير على الجمهور المستهدف لتحقيق غايات سياسية محددة[٤٢].

رابعا : الأسس النفسية لتأثيرات الملصق الدعائي الانتخابي:

تدل الدراسات في ميدان علم النفس على أن الملصق الدعائي الناجح هو الذي يحقق الهدف الذي من اجله صمم وتم إيصاله إلى الجمهور المستهدف لكي يفي بفرضه هذا ما يأتي عن طريق تضافر الجهود وفق المميزات الآتية :–

١– جذب الانتباه	Arrest Attention
٢– أثارة الاهتمام	Arouse Interest
٣– تحفيز الرغبة	Create Desire
٤– الاستجابة	Response
٥– تدعيم الأفكار	Backing Ideas

الملصق الدعائي الناجح هو الذي يستطيع أن يجذب انتباه الناخبين ويثير اهتمامهم حول الموضوع المطروح ويخلق لديهم الرغبة في مضمون الفكرة والإقناع بها، ثم الاستجابة لها وتدعيمها، والفكرة هي الأساس في عملية الاتصال، إذ أن الملصق الدعائي الانتخابي الناجح هو ليس مجرد مجموعة من الصور والرموز والشعارات والنصوص والحركات التي تم تنسيقها وإخراجها من قبل المصمم بشكل متناسق بل هي أفكار مطروحة عن طريق دراسة خصائص واحتياجات الوسيلة الإعلامية[٤٣].

المبحث الثالث

الدعاية الانتخابية الوسائل والأساليب

أولاً" : الدعاية الانتخابية:

١- مفهوم الدعاية الانتخابية :-

يعود مفهوم الدعاية الانتخابية بمعناه الحديث إلى بداية الاختلاط بين الدعاية والإعلان ولكن أيهما وليد الأخر، فالدعاية التي كانت تنظم كما يذكر يوليس قيصر او شارلمان او لويس الرابع عشر لم تكن في مجملها غير (إعلان شخصي) يقوم به الشعراء والرسامون التاريخيون ورسامو الأشخاص فيطلق على عملية الدعاية الانتخابية (السوق السياسي) إذ يعامل المشرح معاملة السلعة التي يراد تسويقها حتى تثبت في الأذهان إذ أن النجاح في الانتخابات أنما هو تتويج لحملة إعلامية ناجحة تبدأ بدراسة السوق السياسي عن طريق البحث والاستقصاء واستطلاعات الرأي المتعددة في أوساط المشرحين والأحزاب(٤٤).

مفهوم الدعاية الانتخابية اشمل وأوسع من اصطلاح الحملة الانتخابية بما يتبادل إلى الذهن أن اللفظ بالنسبة للحملة الانتخابية قد ينحصر على الانتخابات وان الدعاية الانتخابية تدرج في مضمونها كل من الانتخابات والاستفتاء(٤٥).

- تعريف الدعاية الانتخابية :

- تعرف حسب علماء اللغة والقانون والاجتماع والنفس والعلوم السياسية والصحفيين نجد أنهم يتفقون على أن الدعاية (فن التأثير والممارسة والسيطرة والإلحاح والتغير والترغيب او الضمان لقبول وجهات النظر او الآراء والأعمال او السلوك).
- عرفها الباحث (نورمان جان باول) : الدعاية هي نشر الآراء ووجهات النظر التي تؤثر على الفكر او السلوك او كليهما معا(٤٦).
- تعريف حامد عبد السلام زهران : الدعاية الاستعمال المخطط لأي نوع من الأنواع وسائل الإعلام يقصد التأثير في العقول وعواطف جماعة معينة او صديقة لغرض استراتيجي او تكتيكي(٤٧).

جدول رقم (٢)

يبين تصنيفات الأساليب الدعائية في نظر الخبراء

ت	جان ماري دومیناك	معهد تحليل الدعاية الأمريكية	براون وهولستي	وايت وشارلس
١	التبسيط	- أطلاق قوالب جامدة - قاعدة أطلاق الشعارات البراقة	- استخدام القوالب النمطية - أطلاق التسميات - الإحباط كبش الفداء	- جذب الانتباه وربط المسايرة بالرسالة الدعائية - الوضوح أطلاق التسميات
٢	التضخيم والتشويه	- الحشد الانتقائي - الاختيار والتشويه وتغير الحقائق والأرقام	- الاختيار - الحزن في الطرح ومستوى الجمهور المتلقي - الحشد الانتقائي للواقع	- المبالغة والكذب - القابلية للتصديق - الكذب - عرض القضايا على أية حقيقة - التجاهل
٣	التوزيع	–	التكرار	التكرار
٤	التحويل	التحويل	التحويل	التلميح والغمز
٥	الإجماع والعدوى	- الإجماع من الناحية الكمية تأثير الغالبية وعريه الجوقة - الإجماع من الناحية الكيفية تأثير المكان الشخصية اللامعة	- اللحاق بالركب الكمي - الدلالة بالاقتران كيفي	- استخدام العاطفة وغريزة القطيع كمي - الاعتماد على مصدر موثوق كيفي
٦	التبسيط التحويل + الإجماع العدوى	البساط الدهائية	مستوى الجمهور المتلقي	التشخيص

● الجدول نقلاً عن حامد عبد السلام زهران، علم النفس الاجتماعي .

ثانيا : أساليب ووسائل الدعاية:

١- الأساليب الدعائية عبر المراحل التاريخية :

عرفت النشاطات الدعائية بأنها قديمة قدم المجتمعات البشرية وان تعبير الآراء والقناعات عند الإنسان هي الأخرى قديمة قدم التاريخ نفسه وربما يعدها بعض المؤرخين أقدم من التاريخ المسجل للبشرية .

فقد وضع العراقيون القدماء قواعد وأسس للدعاية التي استخدموها في حروبهم معتمدين على الفعل القتالي فمارس الأشوريون النشاط الدعائي للتأثير على معنويات أعدائهم فيما برع الفراعنة في إتقان فنون الأعلام والدعاية أثناء الحرب يماثلهم في ذلك الصينيون القدماء الذين استخدموا أسلوب التسعير بالخصم وهو نوع من أنواع الدعاية يسبق بدا الحرب الفعلية(٤٨).

حيث نجد المفكر الصيني (صن تزو) قد أوصى في كتابه (فن الحرب) في القرن الخامس قبل الميلاد بضرورة استعمال الأبواق والطبول على نطاق واسع أثناء القتال ليلا". كما أوصى (تزو) بنشر قصص الخداع وهو ما يسمى اليوم (بإستراتيجية الرعب) ونجد أن فكرة دعاية الفعل موجودة أيضا من القدم إذ يتجلى ذلك في اغتيال قادة العدو(٤٩).

وهكذا واصل التقدم التقني للدعاية تطور مع مرور الوقت مستفيدة من بروز الصحافة بعد اختراع الطباعة، وقد حققت الدعاية نجاحا في تنوع أساليبها على مر العصور مستفيدا من التطور الهائل في تكنولوجيا التقنيات .

وقد بدأت أولى المحاولات في تحديد الأساليب الدعائية لمعهد تحليل الدعاية الأمريكية الذي انشأ عام ١٩٣٩، وقد وضع القواعد الأسلوبية المعروفة باسمه ثم تلت ذلك محاولات الفرنسي (جان ماري دومنياك) ثم العالمان (براون وهولستي) وأخيرا صياغات (وايترالف وسيمنس شارلس) التي تعد من بمجموعها المحاولات العلمية الفنية الرائدة بعيدا عن الانطباعات الشخصية والمفاهيم والقيم الأيدلوجية وكما مبين في جدول (٢) .

ثالثا :- العلاقة بين وسائل الأعلام والعملية الدعائية :

أكدت الدراسات الحديثة أن وسائل أعلام لها دور أساسي في العمليات الانتخابية والحملات الدعائية، فالمرشحون السياسيون الذين يسعون إلى التأثير على الناخبين يستخدمون في وسائل الأعلام مهاراتهم اللغوية في تقديم المعلومات التي تتعلق ببرامجهم الانتخابية، فوسائل الأعلام هي انعكاس للبيئة السياسية أي أنها مرآة للأحداث والصراعات والتفاعلات المحلية والإقليمية ووسائل الأعلام تستخدم التكنيكات الدعائية لحث الناس على تكوين اتجاه او اتخاذ نمط سلوكي معين وتنطوي ذلك على معلومات او حكمة عميقة او تعبير عن معانات او تشير إلى توثر او صراع(٥٠).

أصبحت الوسائل الدعائية ذات مستوى عال من التأثير والفعالية لم تصله أي مرحلة سابقة من تطور العلاقات الدولية، وتعد الدعاية من سمات العصر البارزة إذ أطلق على القرن العشرين قرن الدعاية، فالدعاية سلاح قوي يتميز بأهميته وتأثيره الذي لا يقل خطرا على أسلحة الفتك والدمار الشامل بمعنويات العدو، وخلق حالة من الإرهاب النفسي والاندحار المعنوي وزعزعة الثقة بالنفس، فالكلمة والصورة من اخطر وأسرع وسائل الإعلام تأثيرا في الجماهير، فأن الأعلام وما يرتبط بيه من وسائل ومضامين وأدوات توثر في التغيير السياسي وذلك بتطوير القيم والمعتقدات السياسية في أطار الاتجاه الذي يحول الناخب من اتجاه إلى أخر(٥١).

الوظيفة السياسية للأعلام تتصل بشكل وثيق بما يجري على الساحة من متغيرات وتحديات، ويستخدم فيها الأعلام سلاحا مؤثرا وهذا أما تستثمره الأحزاب للعمليات الانتخابية عن طريق الشبكات الإذاعية والتلفازية الصحافة الالكترونية والملصقات المرئية .

النتائج والاستنتاجات:

١- أن أكثر الوسائل شيوعا في الدعاية الانتخابية بعد الوسائل المرئية هو الملصق ألجداري .

٢- أن معظم الملصقات تخاطب الناخبين بأسلوب الترغيب .

٣- جذب شد انتباه الناس (الناخبين) بصورة الناخب وتنسيق الفني في التصميم .

٤- استخدام العبارات الجذابة لشد الناخب للملصق وشعارات الوطنية .

٥- أن معظم الملصقات الدعائية الانتخابية تعد بالدرجة الأولى على الاستمالات العاطفية .

٦- أن أحجام الملصقات الدعائية مختلفة منها العمودية او الأفقية حيث توفر مساحة تصميمية جيدة ورؤية نموذجية للناخب.

التوصيات:

١- العناية الفائقة بالعبارات التي تستخدمها الملصقات كونها تؤثر في المتلقي (الناخب).

٢- يمكن إن تحدد الجهات الرسمية أي المفوضية العليا للانتخابات احجام الملصق.

٣- تحديد أماكن لصق الملصقات الجدارية الدعائية إثناء الحملات الانتخابية .

٤- الاهتمام بالإخراج الفني والتصميمي للملصق من حيث التوزيع للصورة والكلمة.

الهوامش:

(١) **حميد جاعد محسن الدليمي** :- أساسيات البحث المنهجي – بغداد : شركة الحضارة، ٢٠٠٤، ص ٣٤.

(2) Bevlis Hillier : Posters .New York . 1970 .p-13.

(٣) **عادل كامل** : مسيرة الفن بعد عشر سنوات من الثورة حملة أفاق عربية العدد ١١، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٧٨، ص ٢٣.

(٤) **خليل صايات** : الإعلان تاريخه وأسسه وفنونه، ط ١، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٦، ص٢٤.

(٥) **علي طالب حميدي** : القدرات التصميمية للملصق، وسائله وإنتاجه وأهدافه الإعلامية، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة حلوان، كلية الفنون التطبيقية، ١٩٩٨، ص٧٦.

(٦) **توماس مونرو**: التطور الفنون ج٣، ترجمة محمد علي، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٢، ص١٨.

(٧) **احمد بن علي بن أبي بكر ابن عبد القادر الرازي**: مختار الصحاح، زينة محمود خاطر، القاهرة، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ٨٩٨٣ ص ٥٩٧ .

(8) Maurice Richairds the Riseand of the Poster New York–1974 p-16.

(٩) **خليل إبراهيم الو اسطي**: المقامين الفكرية وعناصر التصميم الفني للملصقات السياسية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الفنون الجملية، ١٩٨٧.

(10) Waves Hillier Posters New York 1974-p -124.

(١١) **ضياء العزاوي**: فن الملصقات في العراق- بغداد – وزارة الأعلام – السلسلة الفنية ٦٢- مكتبة الآداب – ١٩٧٤.

(١٢) **يوسف مرزوق** : مدخل إلى عملية الاتصال، الإسكندرية، دار معرفة الجامعية، ١٩٨٨، ص ٣١.

(١٣) **يوسف مرزوق** : المصدر نفسه، ص١٩٥ / ١٩٦.

(١٤) **احمد بدر** : الاتصال بالجماهير بين الأعلام والدعاية والتنمية، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٨٤، ص٥٧ .

(15) **محمد عبد الجبار** : الاتصال في مجالات الإبداع الفني والجماهيري، القاهرة، بدون دار نشر،١٩٩٩، ص٣٥.

(١٦) **يوسف مرزوق** : مصدر سابق، ص ١٩٨.

(١٧) **محمد حمدان مصالحة** : الاتصال السياسي مقترب نظري وتطبيقي، عمان، دار وسائل للنشر، ١٩٩٤.

(١٨) **إبراهيم او عرقوب** : الاتصال السياسي ودوره في التفاعل الإبداعي، عمان، دار المجدلاوي، للنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ص٢٧.

(١٩) **محمد حمدان مصالحة** : الاتصال السياسي، مصدر سابق، ص٢٧.

(٢٠) **محمد عبد الجبار** : الاتصال في مجالات، مصدر سابق، ص٨٣.

(٢١) **يوسف مرزوق** : مصدر سابق، ص٢١.

(٢٢) **تويلر ناثان** : حوار الرؤيا، مدخل إلى تذوق الفن والتجربة الجمالية، ترجمة خليل، مراجعة جبرا إبراهيم جبرا، ج١، ط١، بيروت،١٩٩٢، ص٧٠ .

(٢٣) **عبد الجبار منديل**:الإعلان بين النظرية والتطبيق، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٩، ص١٢٧.

(٢٤) **توماس مرنو** : التطور في الفنون، مصدر سابق، ص٥٧.

(٢٥) **عبد الجبار منديل** : الإعلان بين النظرية والتطبيق، مصدر سابق، ص ١٧٧-٢٢٠.

(٢٦) **خليل إبراهيم الو اسطي** : مصدر سابق، ١٩٧٨، ص٢٤.

(٢٧) **عساف محمود** : أصول الإعلان، القاهرة، دار النشر العربي، بلا سنة نشر، ص٣٠.

(٢٨) **ضياء العزاوي** : مصدر سابق، ص ٦٤ .

(٢٩) **عبد الجبار منديل** : مصدر سابق، ص٢٨.

(٣٠) **سمير محمد حسين**: فن الأعلام في الصحافة، القاهرة، بلا دار نشر، ١٩٧٧، ص٥.

(٣١) **عبد الجبار منديل** : الإعلان بين النظرية والتطبيق، مصدر سابق، ص٢٨.

(٣٢) **نصيف جاسم محمد**: مدخل في التصميم الإعلاني، بغداد، وزارة الأعلام،٢٠٠١، ص٦٨.

(٣٣) **عز الدين شموط** : لغة الفن التشكيلي وعلم الإرشادات البصرية، ط١، الأردن، جامعة البنات الأردنية، ١٩٩٣، ص١٦٥.

(٣٤) **انتصار رسمي موسى** : أخراج وتصميم الصحف العراقية من عام ١٩٨٢- ١٩٩٣ – أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الأعلام،١٩٩٨، ص١٩.

(٣٥) **سمير عبد الرزاق العبدلي**: الترويج الإعلاني، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

(36) **Hotch Kiss :** Anout Line advertising New York - P-361.

(٣٧) **يوريس بيوتوفسكي** : الإنسان وعمله، ترجمة الدكتور : ممدوح عزمي، موسكو، دار نشر نوفوسيتي، ص١٦.

(٣٨) **محمد عارف** : فن الرسم اليدوي، ط٢، منشورات دار الثقافة العامة، بغداد، ١٩٨٥، ص٢٣.

(٣٩) **طارق مصطفى أبو بكر عثمان:** الرسوم والتخطيطات في الصحف العراقية وعلاقتها بالتصميم،رسالة ماجستير غير منشورة،جامعة بغداد،كلية الفنون الجميلة، ١٩٩٧، ص١٦.

(٤٠) **احمد زكي صالح** : علم النفس في الإدارة الصناعية، القاهرة، دار النهضة العربية، بلا سنة نشر، ص ٤- ٧.

(41) A . S . Hornty – Oxford Adranced Learners Dictionary Of Current Englishm Oxpord anirersity Press-London – 1974 – p 825.

(٤٢) **علي حسين طوينه** : الشعارات السياسية، دراسة وصفية للشعارات السياسية غير موقعة في مدينة بغداد، بحث غير منشور، ٢٠٠٣، ص٣.

(٤٣) **خليل إبراهيم الو اسطي** : مصدر سابق، ص ٣٥.

(٤٤) **عمر حلمي فهمي** : الانتخاب وأثره الحياة السياسية والحزبية، مصدر سابق، ص٢٣٧.

(٤٥) **رمزي الشاعر** : النظرية العامة لفنانون الدستوري، ط3، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٣.

(٤٦) **نقلا محمد عبد القادر حاتم** : الإعلان والدعاية نظريات و تجاري، القاهرة، دار الفكر العربي، بلا سنة نشر.

(٤٧) **حامد عبد السلام زهران:** علم النفس الاجتماعي، ط٣، القاهرة، دار نافع، ١٩٧٤، ص١٣١.

(٤٨) **سعد سلمان المشهداني** : الدعاية الصهيونية في العراق، ١٩٢١ – ١٩٥٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١، ص٤٨.

(٤٩) **سعد سلمان المشهداني** : مصدر سابق، ص٥٠ .

(٥٠) **سمير محمد حسين** : فن الأعلام في الصحافة، مصدرلسابق ، ص ٣٠.

(٥١) **محمد عبد الجبار** : الاتصال بالجماهير، مصدرلسابق، ص ٢٥ .

المصادر:

أولا : الكتب العربية:

١- **احمد بن علي بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي** : مختار الصحاح (زينة محمود ظاهر)، القاهرة، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٣ .

٢- **احمد بدر** : الاتصال بالجماهير بين الأعلام والدعاية والتنمية، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٨٤ .
٣- **احمد زكي صالح** : علم النفس في الإدارة الصناعية، القاهرة، دار النهضة العربية بلا سنة نشر .
٤- **حامد عبد السلام زهران**: علم النفس الاجتماعي، ط٣، القاهرة، دار نافع، ١٩٧٤.
٥- **خليل صابات**: الأعلام تاريخه وأسسه وفنونه، ط١، القاهرة، المكتبة الانجلو المصرية، ١٩٩٦.
٦- **رمزي الشاعر**: النظرية العامة للقانون الدستوري، ط٣، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٣.
٧- سعد سلمان المشهداني : الدعاية الصهيونية في العراق، ١٩٢١- ١٩٥٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠١ .
٨- **سمير عبد الرزاق العبد لي** : الترويج والأعلام ، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٩٣.
٩- **سمير محمد حسين** : فن الأعلام في الصحافة، القاهرة، بلا دار نشر، ١٩٧٧.
١٠- **عادل كامل** : مسيرة الفن بعد عشر سنوات من الثورة، مجلة أفاق عربية، العدد ١١، بغداد، وزارة الثقافة والأعلام، دار الشؤون الثقافية العامة،١٩٧٨.
١١- **عبد الجبار منديل** : الإعلان بين النظرية والتطبيق، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٩.
١٢- **عزالدين شموط** : لغة الفن التشكيلي وعلم الإرشادات البصرية، ط١، الأردن، جامعة البنات، ١٩٩٣.
١٣- **عساف محمود** : أصول الأعلام القاهرة، دار النشر العربي، بلا سنة نشر .
١٤- **علي حسين طوينه** : الشعارات السياسية، دراسة وصفية للسفارات السياسية غير موقعة في مدينة بغداد، غير منشور، ٢٠٠٣.
١٥- **عمر حلمي فهمي** : الانتخاب وأثره في الحياة السياسية والحزبية، جامعة عين الشمس، دار الثقافة الجامعية، ١٩٨٨.
١٦- **محمد حمدان مصالحة** : الاتصال السياسي دورة في التفاعل الإبداعي، عمان، دار المجدلاوي للنشر والتوزيع، ١٩٩٣.
١٧- **محمد عارف** : فن الرسم البدوي، ط٢، منشورات دار الثقافة العامة بغداد، ١٩٨٥.
١٨- **محمد عبد الجبار** : الاتصال في مجالات الإبداع الفني والجماهيري، القاهرة، بدون نشر، ١٩٩٩.
١٩- **هناء العزاوي** : فن الملصقات في العراق، بغداد، وزارة الأعلام، السلسلة الفنية ٦٢، كلية الآداب،١٩٧٤.

٢٠- **يوسف مرزوق** : مدخل إلى عملية الاتصال، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨.

ثانيا : **الأطاريح والرسائل الجامعية**:

١- **على طالب حميدي** : القدرات التصميمية للملصق وسائله وإنتاجه وأهدافه الإعلامية، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة حلوان، كلية الفنون الجميلة، ١٩٨٧.
٢- **انتصار رسمي موسى** : أخراج وتصميم الصحف العراقية، من عام ١٩٨٢ – ١٩٩٣، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)،جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الأعلام ، ١٩٩٨.
٣- **طارق مصطفى أبو بكر عثمان** : الرسوم والتخطيطات في الصحف العراقية وعلاقتها بالتصميم رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة بغداد، كلية الفنون الجميلة، ١٩٩٧ .
٤- **خليل إبراهيم الواسطي** : المضامين الفكرية وعناصر التصميم الفني للملصقات السياسية في العراق، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة حلوان، كلية الفنون التطبيقية، ١٩٩٨.

ثالثا : **المصادر الأجنبية**

1- Berlis Hiller Posters New York .1970 . P.13.
2- Maurice Richairds. The Riseand Of Poster .New york .1974 .p 16.
3- Waris Hillier .Poster .New york . 1974 . p124 .
4- A.S.Hornly- Oxford Adranced Learners Dictionary Of Current Enghish . Oxpord unirer sity press – London – 1974 – p 825.

The Use of Drama as a Mean of Criticism

Ansam Riyadh Al-Maaroof
College of Education
University of Tikrit

Abstract

This Paper, handles one of the recently written and performed Arabic plays, Yamama Bida (2007), a play written by Gamal Bekheit, directed by Hosam Aldeen Salah and performed on the stage of Al-Salam theatre in Cairo, its plot is derived from another Arabic context, 'Awdat Al-Ruh. The paper examines the new play as a critical text about the old one. In addition to these Arabic works, the paper presents two English plays one of them is built upon the other. The first is one of the most popular plays in modern English theatre, Rosencrantz and Guildenstern Are Dead written by Tom Stoppard who uses the story of another play too, Hamlet with special changes to present a work fits modern age rather than Elizabethan age. The paper examines how Stopper's play can be regarded as a critical text built upon the original Hamlet. Throughout the examination, the paper concludes that there are many such plays which can be used inside the class to enhance the students' critical comprehension and how drama can be used as a mean of critical process.

Yamama Bida (2007), a play written by Gamal Bekheit, directed by Hosam Aldeen Salah and performed on the stage of Al-Salam theatre in Cairo can be seen as a critical commentary text on Tawfiq El-Hakim's quasi- autobiographical novel, 'Awdat Al-Ruh (Return of the Spirit) (1927). Bekheit tries to present a contemporary version of the original text that fits the twenty-first

century Egyptian society that reflects their social crises and touches modern man's soreness. In this experience Bekheit gives the audience a new adaptation of an old novel to help them identify their own social dilemma and confront their reality. Of course, to inspire their ability to change the undesired circumstances.

يمامة بيضاء..؟

يمامة بيضاء ومنين أجيبها..!!

طارت يا نينة عند صاحبها..!!

وخطفها البلبل وطار وياها..!!

أصله يا نينة يعرف لغاها..!![1].

The title of the play is derived from the above lovely poetry which is written in the Egyptian dialect. The playwright's choice of the opening verse of Dawood Husni's popular 1920s' song, Yamama Bida, "A White Dove" perhaps to indicate the time period of the original text's action: the 1920s and 1930s. What is distinctive regarding this poetry is the nice objective attitude the deceived lover had towards his unfaithful beloved. Though his beloved left him alone, he found an excuse for her unfaithfulness. He said that she left him for the sake of another lover who could understand her. He flew with her, i.e. they had many things in common and they were alike in appearance as well as in spirit. This is absolutely rare in this lover's situation, i.e. his understanding for the motivations of his beloved.

White dove is a very rare kind of dove which has a distinctive voice, "to coo" that carries a combination of sadness with satisfaction and peace. This combination is the same of that which Egypt has as Bekheit indicates in Yamama Bida, the play, i. e. Egypt is not happy but it is still satisfied with its fate, and lives in peace. The playwright uses the image of the white dove

to symbolize Egypt for its uniqueness and having the combination of sadness with satisfaction and peace. The unfaithfulness is towards her lovers, its people, the Egyptians. The playwright suggests that Egypt is no more faithful but to its rulers because they have the power to deal with its wealth and fortunes and thus govern its fate. Nevertheless the real lovers: the people, are unable to have their opportunity of good living in their country.

Another perspective is suggested by Mahir Hassan in his essay, "Yamama Bida: a lot of singing and politics, a little of theatre" published in Al-Arabi newspaper no. 1094, he says that the white dove is a symbolic objective correlative of all the precious values such as egalitarianism, freedom, justice, nationalism, and love[2]. The political critical aspect in the new text is very obvious especially in the song:

"يا عم بيع .. ما هي متباعة .. وحياتنا عملوها بضاعة ..
باعوا الكتـــاب والكـــلية .. باعوا الخيال والحرية..
باعوا سيرتنا الهلالية .. باعوا الدوا والشجاعة ..
بـاعـوا هـوانـا ومـصـــانـعـنـا ..
حتـى قـمـرنـــا الـلـي آســرنـا
خطفوه أولاد البياعة"...[٣].

The above song has been added to the new text of the play as a reaction to the government's decision of sailing the public properties. Hence, the playwright criticizes this decision in this literary text by adding an additional poem making the new text more reflective to the undesired circumstances. What Bekheit does in his play is helping the audiences confront their reality to imply the idea of reformation by using an old text in a new, modern and critical form though not in a highly esteemed way because in this new adaptation:

Bekheit kept the plot, rendering the most part of it in narration, interspersed with simulated re-enactment of certain scenes. Rather than a serious inquiry into the consciousness of a

nation or the conscience of a writer, into what really happened to make us all believe that Nasser was really the reincarnation of Osiris and he goes along with his atrocities thinking they were for the common good, the show was simply designed as a vehicle for popular singer Ali El-Haggar and all the hopeful comedians in the Modern Theatre Troupe. Each one of them, and they were many, seemed to need Nasser's coercive intelligence men to force them off the stage and stop them ad-libbing ad infinitum. It was clear none of them had read either book and they used El-Hakim farworsethanhewouldhaveused his famous donkey….Throughout you felt that every performer had his or her eye on something other than the publicized project -- a critique of 'Awdat Al-Ruh -- and that both the adaptor and director were encouraging them to do so[4].

But as I think, he gets benefit of using Al- Hakiem's old novel to criticize the modern reality, i. e. By using an old text, Bekheit gives himself some space of freedom to criticize the bad aspects he diagnoses without being the original defiant.

Attending the performance of this play was the reason behind writing this research, for it inspires the idea of using drama as a way of critical educational process. Thus, pedagogy is rescued from a narrowly rationalist stance that ignores the body as a site of investment and desire as a productively mobilizing force. Borrowing Henry A. Giroux's words:

By viewing schools as political and cultural sites as well as instructional institutions, I have tried in my writings to provide educators with the categories and forms of analyses that will help them to become more critical in their pedagogies and more visionary in their purposes. Schools are immensely important sites for constituting subjectivities, and I have and will continue to argue that we need to make them into models of critical learning, civic courage, and active citizenship"[5].

And in viewing colleges, schools, teachers, and educators as vital institutions and actors in the struggle over radical democracy. Without question, this is a project that will provoke, incite, and open up new spaces for understanding the diverse bequest that education in general and critical education in particular has to occupy within the next decades in modern world. Hence, this paper is intended to address the teachers in our country as well as the teachers in the third world countries to speak about the importance of the critical educational theory and its value in redefining schooling as a crucial, democratic public sphere.

In this respect, it is important to define Critical process or Critical Pedagogy as a teaching approach which attempts to help students question and challenge domination, and the beliefs and practices that dominate. In other words, it is a theory and practice of helping students achieve critical consciousness. Ira Shor defines it as :

Habits of thought, reading, writing, and speaking which go beneath surface meaning, first impressions, dominant myths, official pronouncement, traditional clich'es, received wisdom, and mere opinions, to understand the deep meaning, root causes, social context, ideology, and personal consequences of any action, event, object, process, organization, experience, text, subject matter, policy, mass media, or discourse(6).

The national report, A Nation at Risk in 1983 is of much debate about the role of schools and teachers. Two major arguments start from A Nation at Risk: (a) that schools and colleges must prepare students for a competitive world economy and (b) that schools and colleges must meet the needs of diverse cultures(7).

In this tradition the teacher works to lead students to question ideologies and practices that the students themselves

consider tyrannical, including those at school or college, and encourages libratory collective and individual responses to the actual conditions of their own lives. The teacher works just like the playwright does when writing a play that is a commentary on an old novel or any other texts. The teacher will deal with his students while the playwright addresses the audiences, but they have the same objective that is to inspire the reaction of the addressee.

The student often begins as a member of the group or process, (including religion, national identity, cultural norms, or expected roles) he or she is critically studying. After the student reaches the point of revelation (received wisdom) where he or she begins to view present society as deeply problematic, the next behaviour encouraged is sharing this knowledge, paired with an attempt to change the repressive nature of the society.

Studying Critical process and specially drama in the process of teaching at the college level in the Arabic countries is a very important modern and promising field in pedagogy. The use of drama in education is to enhance the capacity of the students to criticize, confront, and to change their societies' knowledge and reactions towards modern events in the way that coup the progress of the world around them.

Drama is able to develop a critical conversation, that is, a conversation which invites resistance and argument because it is dealing with tension and conflict. In this way drama resists the appeal to resolve contradictions in a false harmony. By allowing argument and conversation, drama, in its own form and in its own structure, can show the contradictions of social reality.

Cecily O'Neill (1991) is correct in pointing out that the language of transformation is found in the vocabulary of theatre. "Theatre metaphors illuminate an idea of teaching that is essentially dialogic, and therefore dynamic, democratic, social,

demystifying, and open to transformation"[8] The drama teacher must operate inside the process by affirming the skills learned from their own theatre and using them in their drama teaching. The idea is for one to build on the other because the power of theatre gets lived out on the classroom floor.

The whole process is built on a point that culture is the expression of human consciousness shaped by social living. Richard Courtney says that the expression of culture comes in dramatic forms. It is important to apprehend that each society develops its own dramatic models, which form division of our cultural inheritance. However, we have to ask how drama is used to objectify a given culture either through conscious intent or simply as a result of deep-rooted attitudes[9]. it should be guarded against allowing drama to be used to diminish and invalidate certain cultures. We cannot abandon our schools or colleges to the demands of any one cultural group. We have to realize that teaching drama is a cultural activity; Reynolds and Skilbeck call drama a cultural project.

Two kinds of curriculum and teaching strategies may be distinguished: those which supply students with the means to interpret, evaluate, and redefine what they are taught, and those which encourage agreement and passive acceptance. It is within the power and should be part of the responsibility of the teacher to encourage pupils to be more reflective, critical, and analytic[10].

Catherine Belsey expresses this critical quest when she refers to Bertolt Brecht's invitation to his audience to become actively engaged in criticizing his plays. Brecht wanted the audience to be more than customers of his art, to go further than admiration for his brilliance, and to really see the play[11].

Courtney tells us that the cultural patterns of the audience essentially modify playwriting and acting and that there is a close

interdependence between the theater, the audience, and the performance[12]. Students need to be involved in the process of making drama. Teachers should allow students to think like playwrights, performers, designers, and directors.

Even though schools and colleges should not take their guide from proficient theatre, the process of theatre needs to be brought into the classroom. This process calls for intellectual, physical, and emotive activity[13]. This fact is in a positive way when a large number of college students and teachers writing and presenting their own plays. These plays usually grow out of the shared life of a community and are performed for the public and in this way become part of the produced culture of that society. This public value alone speaks to the critical possibilities of drama because here we are not talking only about performance but about a process that is essential to cultural construction. Drama in this occurrence is not simply a reflection of culture but a critical contact with that culture. A presented drama not only reflects the culture from which it grew but can help that culture change. One of the prospectives for drama is that it can play a part in reformulating culture just as it does in objectifying it. Drama is always produced and interpreted within given social conditions, yet it is not simply determined by such conditions. Drama, like other forms of art, must face up to the real world around it. There is an interdependence between culture, economics, and drama. Drama teachers should look to the world of the students and not limit themselves to plot, character, and form, which are important aspects of drama but are not necessarily transformative.

Drama can be presented as a form of cultural production to enable students to utilize their bodies and minds in the service of being able to link language with experience, desire with declaration, and knowledge with social responsibility. In

presenting drama as a form of production the project tries not to separate the educational process from politics and aesthetics from the wider configurations of ideology and power. Yet it does not reduce aesthetics or drama to a doctrinal perspective in which an educational process of drama collapses into either a particular ideology or decline of morality. On the contrary, it tries to link the educational process and drama to the possibilities of human society, the power of collective struggle, and the hopes that allow the students think and act otherwise. Drama and the critical educational process are informed by an ethical discussion, one that reveals how the body is disciplined, how identity is constructed, and how subject positions are inscribed within the play of domination, power, and agency.

In this respect there is an integration between drama and critical process in the sense that the body is more than a place of repression, more than an object shaped by the instrumental discourses of dominating critiical practices. The relation between the performance and production of the plays can become both the object and the subject of critical engagement by politicizing the area of the aesthetic and the ground of drama. It is important for the students to engage in actual plays as part of a broader attempt to understand not only themselves and their relations with others, but also how the dynamics of power operate in the intersection of school and society.

An important step in this project is demanded from the students that they are to write plays as part of a larger critical process of asserting their sense of activity and their complex connections with daily life. It is an important step in achieving the goal of making the students bring their problems out, and trying to present certain solutions. This step is essential for the students because it can be done in a way that does not cause any embarrassment for the students. The play to be acted or written

is about unknown persons, thus the students can say everything about anything freely.

There are many good examples for using drama as a method of critical process such as Shakespeare's Hamlet. 19th century critic William Hazlitt praised Hamlet by saying that, "The whole play is an exact transcript of what might be supposed to have taken place at the court of Denmark, at the remote period of the time fixed upon."[(14)]. Though it is clearly a verification to the realism of Shakespeare's tragedy, there is something strange and confusing in Hazlitt's analysis.

To put it straightforwardly, Hamlet is most absolutely not a realistic play. Not only are the actions conveyed in the drama far-fetched, the dialogue that brings it to the reader is overdramatic and often exaggerated. The thrilling monologues delivered throughout the play are melodramatic speeches rather than authentic dialogues. Frequent references to acting and theatre, principally surrounding the presence of the players, provide to make the audience alert of the play instead of drawing them into it. Moreover, Richard David suggests that the presentation of the man Hamlet , with all his implications, by a great actor on the stage is a more direct, a more comprehensive, and a more remarkable communication than is to be received from the most sensitive reading of the text[(15)]. The performance of the play gives the characters their lively individuality to make them be believable.

In Shakespearean tragedies the leading character is usually a person who arouses our sympathy and admiration. A recurring motif in serious drama is the imposition of some duty to be performed. The performance of his duty often leads to the loss of reputation, love, or life[(16)]. In the case of Hamlet, He is told to take revenge on his father's murderer.

HAMLET:
WHERE wilt thou lead me? speak; I'll go no further.
GHOST.:
Mark me.
HAMLET:
I will.
GHOST:
My hour is almost come,
When I to sulphurous and tormenting flames
Must render up myself.
HAMLET:
Alas, poor ghost!
GHOST. Pity me not, but lend thy serious hearing
To what I shall unfold.
HAMLET:
Speak; I am bound to hear.
GHOST:
So art thou to revenge, when thou shalt hear.
HAMLET. What?
GHOST:
I am thy father's spirit;
Doom'd for a certain term to walk the night,
And for the day confined to fast in fires,
Till the foul crimes done in my days of nature
Are burnt and purged away. But that I am forbid
To tell the secrets of my prison-house,
I could a tale unfold, whose lightest word
Would harrow up thy soul; freeze thy young blood;
Make thy two eyes, like stars, start from their
spheres;
Thy knotted and combined locks to part,
And each particular hair to stand an end,
Like quills upon the fretful porpentine:

But this eternal blazon must not be
To ears of flesh and blood.--List, list, O, list!--
If thou didst ever thy dear father love,--
HAMLET:
O God!
GHOST:
Revenge his foul and most unnatural murder.
HAMLET:
Murder!
GHOST:
Murder most foul, as in the best it is;
But this most foul, strange, and unnatural.
HAMLET:
Haste me to know't, that I, with wings as swift
As meditation or the thoughts of love,
May sweep to my revenge.
GHOST.:
I find thee apt;
And duller shouldst thou be than the fat weed
That roots itself in ease on Lethe wharf,
Wouldst thou not stir in this. Now, Hamlet, hear:
'Tis given out that, sleeping in my orchard,
A serpent stung me; so the whole ear of Denmark
Is by a forged process of my death
Rankly abused: but know, thou noble youth,
The serpent that did sting thy father's life
Now wears his crown.
HAMLET:
O my prophetic soul!
My uncle!
GHOST:
Ay, that incestuous, that adulterate beast,
With witchcraft of his wit, with traitorous gifts,--
O wicked wit and gifts, that have the power
So to seduce!--won to his shameful lust

The will of my most seeming-virtuous queen:
O, Hamlet what a falling-off was there!
From me, whose love was of that dignity,
That it went hand in hand even with the vow
I made to her in marriage; and to decline
Upon a wretch, whose natural gifts were poor
To those of mine!
But virtue, as it never will be moved,
Though lewdness court it in a shape of heaven;
So lust, though to a radiant angel linkt,
Will sate itself in a celestial bed,
And prey on garbage.
But, soft! methinks I scent the morning air;
Brief let me be.--Sleeping within my orchard,
My custom always in the afternoon,
Upon my secure hour thy uncle stole,
With juice of cursed hebenon in a vial,
And in the porches of mine ears did pour
The leperous distilment; whose effect
Holds such an enmity with blood of man,
That, swift as quicksilver, it courses through
The natural gates and alleys of the body;
And, with a sudden vigour, it doth posset
And curd, like eager droppings into milk,
The thin and wholesome blood: so did it mine;
And a most instant tetter barkt about,
Most lazar-like, with vile and loathsome crust
All my smooth body.
Thus was I, sleeping, by a brother's hand
Of life, of crown, of queen, at once dispatcht:
Cut off even in the blossoms of my sin,
Unhousell'd, disappointed, unaneled;
No reckoning made, but sent to my account
With all my imperfections on my head:
O, horrible! O, horrible! most horrible!
If thou hast nature in thee, bear it not;

Let not the royal bed of Denmark be
A couch for luxury and damned incest.
But, howsoever thou pursuest this act,
Taint not thy mind, nor let thy soul contrive
Against thy mother aught: leave her to heaven,
And to those thorns that in her bosom lodge
To prick and sting her. Fare thee well at once!
The glow-worm shows the matin to be near,
And 'gins to pale his uneffectual fire:
Adieu, adieu, adieu! remember me. [Exit.

HAMLET:

O all you host of heaven! O earth! what else?
And shall I couple hell?--O, fie!--Hold, hold, my heart;
And you, my sinews, grow not instant old,
But bear me stiffly up.--Remember thee!
Ay, thou poor ghost, while memory holds a seat
In this distracted globe. Remember thee!
Yea, from the table of my memory
I'll wipe away all trivial fond records,
All saws of books, all forms, all pressures past,
That youth and observation copied there;
And thy commandment all alone shall live
Within the book and volume of my brain,
Unmixt with baser matter: yes, by heaven!--
O most pernicious woman!
O villain, villain, smiling, damned villain!
My tables,--meet it is I set it down,
That one may smile, and smile, and be a villain;
At least I'm sure it may be so in Denmark:

[Writing.

So, uncle, there you are. Now to my word;
It is, 'Adieu, adieu! remember me:'
I have sworn't[17].

He knows that his uncle Claudius has murdered his father, married his mother, and claimed the throne of Denmark. This revenge means that Hamlet would become a murderer himself and possibly lose his own life. Hamlet is a good colliery for critical pedagogy because it contains so much raw material for perplexing. It offers overt patterns of power relationships, value system, historical circumstances, and social commentary. On a more exacting intensity, one of the great values of the role of Hamlet as a tool for critical analyses is the question of his sanity or his insanity. In fact Hamlet uses his insanity as a tool to interrogate the people and circumstances of the court.

Students can make use of this scalpel of insanity to cut into other aspects of life in the house of Denmark. Working with their teachers, students could do some exploring with Hamlet and question him as he roams about the castle. Students could write or improvise a companion script that would allow them to interview servants or be present at royal meetings. These departures from Shakespeare's script would give students an opportunity to step outside the established fiction to make critical fiction of their own.

Another useful critical device would be for students, in role as courtiers, to write a letter to a present-day classmate. This convention would enable students to examine the different culture of the writer and the receiver. A student could write a newspaper viewpoint about the significance of the insane activities going on in court. Whose sanity could students question?

Another newspaper report is about how the relations of social and governmental power, found in Hamlet, compared to the social and governmental setting in any Arabic country? Can students use the context of Royal Denmark to shed light on Iraq, or any other Arabic country?

Hamlet had been rewritten many times by many writers one of them is Tom Stoppard's Rosencrantz and Guildenstern Are Dead in 1967 which is regarded as a critical companion script. This script is written outside the play about the Prince of Denmark and as such offers some unique insights into how existing dramatic fiction can be used for purposes of critical pedagogy. Rosencrantz and Guildenstern encounter Hamlet, as they do in the Shakespearean version, but Stoppard in his version gives them a life of their own. They are able to tell us things about the court of Denmark that we could never get from Hamlet. They in a sense become critical tools for our questions.

Teachers, in struggling to invent a critical process, can certainly learn from Rosencrantz and Guildenstern are Dead, and Yamama Beda, for these plays are very helpful examples of using drama in critical process in Arabic and English. In the same way, any play written in another context to comment on an original text to fit a certain modern situation can be considered as a critical process.

The core of this project is to use critical practices organized around the production and the reading of plays that enact scenes that prophesize the relationship between history, identity, and power. At the same time, it tries to deepen the possibilities of an aesthetic that is at once critical, political, and emancipatory. In this respect, drama becomes a site where critical process comes alive; i.e., it offers an opportunity to employ the critical categories of voice, difference, and community in ways that integrate the dialectical relationship between affective and rational investments, individual experiences, and the collective stories that mark out our sense of place, culture, and community. Drama becomes the dwelling place in which identities can affirm their differences. Students can speak from the diverse locations of their own histories, and strive to engage their desires within rather than outside of the movement of the body, creative expression, and the language of theory.

Bibliography:

Belsey, Catherine. Critical Practice. London: Routledge, 1980.

Brockett, Oscar. The Essential Theatre. New York: Holt, Rinehart and Winston. 1976.

The Contemporary Authors. In gale.cengage.com/pdf/navguide/conauth_nvg.pdf

Courtney, Richard . Rarest Dream. London: NATD, 1984.

David. Richard, Shakespeare in the Theatre. Cambridge: Cambridge University Press,1974.

Hassan, Mahir."yamama Beda: alot of singing and politics, a little of theatre", Al-Arabi Newspaper. no. 1094.

Hazlitt, William. "Characters of Shakespeare's Plays: Hamlet." Essays in Criticism. Second ed. Ed. Cyrus Hoy. New York: Norton, 1992.

National Commission on Excellence, "A Nation at Risk: An Imperative for Educational Reform." Education Week, April 27, 1983.

O'neill.Cecily, Drama Guidelines. London: Heineman Educational Books, 1976.

Reynolds, John and Malcolm Skilbeck. Culture and the Classroom. London: Open Books Publishing Ltd., 1976.

saied2007.jeeran.com/archive/2007/9/ - 927k

Shakespeare,William.The Works of William Shakespeare.. New York: Oxford University Press. 1938.

Shor, Ira. Empowering Education: Critical Teaching for Social Change. Chicago: Chicago University Press,1992.

Stoppard, Tom. Rosencrantz and Guildenstern are Dead. New York: Grove Press, 1967.

Wright, Lin. "Theatre Education for Everyone." Design for Arts in Education 92, no. 4(1991).

Notes:

(1) It is an old Egyptian poem for unknown poet made a song in the beginning of the twenties of the 20th century.
(2) Mahir Hassan, "yamama Beda: a lot of singing and politics, a little of theatre", Al-Arabi Newspaper. no. 1094.
(3) Quoted in: saied2007.jeeran.com/archive/2007/9/ - 927k.
(4) Nehad Selaiha. "Wingless dove". In Al-Ahram Weekly. Issue No. 879,10-16 January 2008).
(5) Henry A. Giroux's speech is quoted in The Contemporary Authors. In gale.cengage.com/pdf/navguide/conauth_nvg.pdf.
(6) Shor, Ira. Empowering Education: Critical Teaching for SocialChange.Chicago:Chicago University Press,1992,p.129.
(7) National Commission on Excellence, "A Nation at Risk: An Imperative for Educational Reform." Education Week, April 27, 1983, pp. 12-16.
(8) Cecily O'Neill. Drama Guidelines. London: Heinemann Educational Books, 1976, p. 23 .
(9) Richard Courtney. Rarest Dream.London: NATD, 1984. p.43.
(10) John, Reynolds and Malcolm Skilbeck. Culture and the Classroom.London: Open Books Publishing Ltd., 1976. p.85.
(11) Catherine Belsey. Critical Practice. London: Routledge, 1980.p. 55.
(12) Courtney,50.
(13) Lin Wright, "Theatre Education for Everyone." Design for Arts in Education 92, no. 4(1991):18-20.
(14) William Hazlitt. "Characters of Shakespeare's Plays: Hamlet." Essays in Criticism. Second ed. Ed. Cyrus Hoy. New York: Norton, 1992. p.164-69.
(15) Richard David. Shakespeare in the Theatre. Cambridge: Cambridge University Press,1974. p.6.
(16) Oscar Brockett. The Essential Theatre. New York: Holt, Rinehart and Winston. 1976. p.15.
(17) Shakespeare, William .The Works of William Shakespeare. New York: Oxford University Press. 1938. P, 676-78.

Between Absence and Presence: The Female's Position and Possession in Eugene O'Neill's *The Iceman Cometh*

Enas Muhammad Alsamaray
Tikrit University
Samara College

The moment the women's war dust settles, they succeed breaking the tradition to introduce a powerful voice that has changed the literary and the social scene forever. Whether the message has always been positive is controversial. But for Eugene O'Neill, the innovator who influenced the American theatre during one of its momentous periods of development, this issue is tackled from an extremely new and unique treatment.

In *The Iceman Cometh*, one of O'Neill's most significant plays, for instance, O'Neill chose to give the most important female characters no voices of their own. He even deprived them from physical presence onstage. Actually, in an art focuses on a present action in which events are presented not narrated to an audience, this strategy – the use of the absent female – is one avenue worth exploring. Essentially, however, many plays are built round the quest for the absent male, neglecting the profound loss modern drama may play out for the absent female whose presence is always taken for granted.

So, in order to better understand the concept of the absent female, the female which is central to the dramatic action but never appears on the stage, one needs first to define the nature of the absent character and its unique construction in dramatic literature. This will be section one.

An absent mother and wife in O'Neill's *The Iceman Cometh*, their position and possession would be the concern of

section two. Despite their absence, the male characters continue to discuss, remember and manipulate them to such an extent that these offstage female characters displace a dominant presence even in their absence.

Discussion of the results of the study is found in the conclusion.

I. Who is The Absent Character?

Since Aristotale, mimesis, the imitation or direct presentation of an action in drama has been given a privileged position. Espousing the unities of place, time and action has been considerably an attempt to assure its effectiveness – by proposing the contraction of dramatic action. As a result, there has been the increased use of the narrated discourse to the foreground in order to emphasize the dramaturgy of that which is not present, but which is always represented or mediated through the discourse of an Other.

Yet modern drama is a drama of reflection in the sense that it focuses on a present action in which events are presented, not narrated to an audience. Peter Szondi, for instance, defines drama as "always primary, its internal time is always the present" (Rosefeldt: 4). He argues that:

Drama, not only takes place in the present, but also demands a presence that can be seen and heard. Moreover, drama demands an embodied presence. More than poetry or fiction which depends on an imaginative response, drama ia an attempt to bring into physical presense that which absent. (Ibid.).

Focusing on presenting is by all means at the core of this discourse. But of prime importance, however, is the need to lookout and understand the other face of the icon, i.e. the workings of that which is not present or absent. This understanding can be achieved relatively by recognizing the nature of the absent character.

Essentially, the absent character is a character who never appears in the plot and therefore, is never on stage, for his appearance would instantly give him unmediated presence. Following the same line of reasoning, formalist critics divide dramatic action into two modes: fabula (story) and sjuzet (plot). Story according to Elaine Stone and George Savona "is the basic narrative outline; plot, the means by which narrative events are structured, organized and presented"(Guerin: 102).

In other words, the story may include actions that have taken place before the beginning of the play. Evelyen, Hickey's dead wife in *The Iceman Cometh*, for instance, is never seen or presented to the audience. As a character she exists in the gaps or margins of the dramatic present; she is part of the story, the overall narrative, but not apart of the plot, the sequence or presented actions. Evelyn is an absent character.

Along the same line, the absent character cannot appear in a flashback. This character cannot be presented, even in the domain of memory. For example, in Wendy Wasserstein's *Uncommon Women and Others* (1979), a group of women from a prestigious women's college has a reunion. One member of the group is conspicuously absent; nevertheless, when the play flashes back in time, this character is present in an embodied form and speaks for herself. She is not an absent character because she speaks for herself and affirms her presence (Rosefeldt: 4).

Nonetheless, although cannot physically be presented into the plot, the absent character must be dealt with even if it was through metonymic substitutions, iconic representations, psychological displacements, or uncanny doubles. (Rosefeldt: 2002,p.10). In Ibsen's *Hedda Gabler* (1890), a father's gun is associated with the father and becomes a metonymic representation of the father or a metonymic substitution for him.

The ever present picture of Tom Wingfield's absent father in Tennessee Williams' *The Glass Menagerie* (1945), however, is a clear representation of the father and his world. Tom's father never appears; yet he is frequently mentioned by Tom, his mother and his sister and is significant both to the plot and the thematic structure of the play.

Furthermore, most absent characters are not only liminal figures but also figures moving toward presence. In a world out of his or her control, the absent character may be…dead like the father in August Strindberg's *The Pelican*(1970)

or alive like the father in Strindberg's *Miss Julie* (1888), asupernatural being like God the Father in Peter Shaffer

Equus(1973) and John Pielmeier's *Agnes of God*(1982) or an animal like the runaway dog in William Inge's *Come Back, Little Sheba*(1950).The character may be imaginary like the child in Edward Albee's *Who is Afraid of Virginia Woolf*?(1962)or the skeletal remains of a once-live child as those found in Sam Shepard's *Bured Child*(1979).Or evenamysteriouslike Mr.Godot in *Waiting for Godot* (1954). (Rosefeldt: 5).

Thus so various and diverse are the types of the absent characters. Considerably, so clearly and closely connected with absence is that of the absent father. Alex Pirani claims that it is the " father's business to be absent: away hunting, earning living, functioning in the wider world." (Cross: 6). He is free from "body ties" and detached from maternal concerns".

The mother, on the other hand, displays the physical presence of motherhood for maternity" as Sigmund Freud notes, "is proved by evidence of the senses". So, the female's absence unleashes a chain of desire that can never be satisfied. Along the same line however, feminism as a movement focused upon what is absent rather than what is present, reflecting concerns with the

silencing and marginalization in a particular culture, a culture organized in favour of men. (Guerin: 222).

Unsurprisingly, the moment absence replaced presence; the absent female becomes a focal character in her absence. Because she exists only in the margins of the dramatic present, she becomes an influential outside force who determines the trajectory of other characters who are absorbed with recreating her presence. Thus the absent female is a liminal figure, halfway between being missing and present, life and death, past and present, the" what was" and" the never will be", a presence that is always being deferred.

From a psychological point of view, the female subject, for both Freud and Lacan, is different from the male. But unlike Freud, Lacan theorizes that: "the female difference is seen in the mirror stage (the reflected image presents an autonomous body image that the subject assumes to be his)" (Hall: 8).However, nowhere is this strategy better demonstrated than in a drama where the female doesn't even have a voice of her own due to her absence.

Following the same line of thinking, not only is fiction haunted by recreating the female's presence, but it wagers its very status and existence on the question of the absent female. For the male's desire to perceive himself as whole and complete promotes him to search for an "other" present being or absent to create the sense of psychic completion for him.

In practice, O'Neill's choice of psychoanalytic theory to explore the female physic enables him to create female figures of outstanding power and complexity and to explore feminine interiority with extraordinary insights.

II. Between Absence and Presence: The Female's Position and Possession in Eugene O'Neill's *The Iceman Cometh*

Jim Tyron in *The Moon for the Misbegotten*, said "there is no present or future -- only the past happening over and over again"(Jr.:41). Nowhere this impression reaches its highest than in *The Iceman Cometh* simply because the stage is filled with repetitions. In 1939 O'Neill himself looks back to 1912 only to encounter characters who themselves look further back. Yet in a curious way, these undesired but irrepressible repetitions are all hovering around offstage females. As if unable to seize a moment to inhabit a present, without being haunted by these absent females, they transformed their lives "into narrative where it can be recast as possibility" (Bigsby: 23).

The need of O'Neill's women for their men,on the other hand, was so great. It seems that O'Neill understands the female role well. Trudy Drucker quoted him as saying, "The role a woman should play is that of sacrifice to her man" (Ibid: 198).That may be why his imagination produces so many women who have no other desires than to do just that. It may also be why so many of his men felt threatened and controlled by the women they need so much.

In other words, he portrayed many oppressed women, but his idea of an exploited woman's point of view was different. His women tended to be completely fulfilled by their relationship with men. They were not concerned with any individual achievements. In *Desire under the Elms* (1924), however, O'Neill dramatizes a couple who reestablish "their love so that they need to rely on nothing outward" (Hall: 19). O'Neill focused on female representation even further in *Strange Interlude* (1928), calling it his "woman play"(Ibid.).

More importantly, if *Strange Interlude* is his "woman play", in *The Iceman Cometh* O'Neill's representation of women is the means by which the play and the male character become dramatic and interesting:

what I've tried to write is a play where at the end you feel you know the souls of the seventeen men and women who appear- and women who don't appear- as well as if you'd read a play about each of them.(Bigsby: 16).

By highlighting the absence of "women who don't appear" and yet demonstrating the importance of the feminine via stereotypical female memories, as well as the prostitutes on stage, *Iceman* aptly illustrates O'Neill's rare insight into the female figures which, though absent/ are of remarkable power and complexity.

Overtly, it would appear that the icemen uphold their illusions so well that they do not need the presence of the feminine. At essence, the absent women are crucial to the perpetuation of these illusions especially for people who, as Michael Manheim notes, "These people are closest to one another when most comforted by their illusions and farthest from one another when they are most insecure about their illusions"(Hall: 27).

From a feminist perspective, the play is extremely compelling. Through the male characters' manipulation of the offstage female, O'Neill clearly shows how men create feminine fantasies in order to exist. The absent character of Harry Hope's long-dead wife, Bessie quickly establishes this process and its benefits. Wistfully avoiding Hoe's anger after his drunken slumber, his colleagues invoke Bessie's name: "It was one of those nights when memory brought poor old Bessie back to you" (O'Neill, *The Iceman Cometh,* 68)*1*. (Subsequent reference will

be to this edition and will be sited by page number). Hope responds with a melodramatic flourish:

Yes, that's right, boys. I remember now. I could almost see her in every room just as she used to be -- and it's twenty years since she-- (His throat and eyes fill up. A suitable sentimental hush falls on the room) (Ibid.)

Really, by Harry's repletion pf the myth of Bessie, he can manipulate his memory of her in order to support his present pipe dreams and this very process illustrates the advantages of an absent female. Ironically, so overcame with pain, Hope the grieving husband gains a sense of identity by playing his lack of the lost "Madonna". Consequently, this lack allows him not to take any responsibility for his actions. Hickey, attuned to Hope's sentimental denial of his resentment, unmasks him: "She was always on your neck," he prods, "making you have ambition and go out and do things, when all you wanted was to get drunk in peace". (117)

In this case, Harry's state of sloth together with his melodramatic narrative, help dispelling Bessie's feminine threat and support him with comic relief.

This relief is exactly the same in form for all the women who don't appear in the play. Simply, they do not cause any disturbance in the harmonic balance of masculine illusions and the dualistic perceptions of female illusions that underlie and sustain these fantasies. Ironically, all Hope's pipe-dreamers can see the folly of then other fellow's but non of their own.

Outstandingly, O'Neill refused to have *Iceman* produced at the outset of World War II because he felt its focus on pipe dreams would be inappropriate for the American war effort. However, in an interview he gave during the rehearsals of the Guild production of *Iceman* in 1946, O'Neill implicitly linked pipe dreams to what one might now label the concept of ideology

(the American Pipe Dream): "This American Dream stuff gives me a pain,..., if it exists, as well tell the whole world, why don't we make it work on small *Hamlet* of the United States?" (Pfister: 102). O'Neill underplays the social reasons for why these fallen pipe-dreamers have no wish to go out.

Theodore Hickman's arrival represents the therapeutic means of freeing the illusory equilibrium of Harry Hope's much more drastically. In many ways, this arrival does serve as an effective dramatic device to bring truth about identity and gender. He advised his barroom" boys and girls": "I know from my experience it's bitter medicine, facing yourself in the mirror with old false whiskers off" (80). Hickey realizes that he who unmasks others hold power over others. He pretends to believe they can turn their gaze inward and unmask their fictional defenses though in fact he knows they cannot. The effect of these revelations is disastrous. For through his interactions with the other characters, the play exposes the illusory nature of the men's narratives and perceptions of female characters.

Similarly, the play demonstrates that the male characters, motivated by the need for personal power, raise illusory feminine characters through their memories. In this way, Ann C. Hall argues that "all the men are "icemen" who ice over the threat that femininity poses in order to make mirrors of their female counterparts" (Hall: 33).

As Hickey's long-winded confession illustrates, he has not entirely removed his misconceptions of femininity from his own life. During this speech Hickey describes Evelyen as a Madonna, the archetypal selfless, loving and forgiving wife and mother. In reality, the audience never knows whether or not she ever truly forgives his trespasses. She is, after all, seen only through Hickey's eyes, and it is convenient for him to believe in her happiness (Cross: 5).

What's more, Evelyn's Madonna role offers no place for female sexuality. Hickey wants both Madonna and prostitute embodied in the same woman. He even mentioned that he wished that Evelyn could commit adultery and be more like those women he paid to laugh at his jokes. Such a desire, however, shatters his illusions about himself: "I got so I'd curse myself for a lousy bastard every time I saw myself in the mirror" (203).

The aggression Hickey channeled inward was also directed outward at Evelyne. Throughout the course of his confession, however, Hickey becomes more confused by his ideology of femininity. He initially tells the roomers that he killed Evelyn for her own good to put her out of her misery and thereby to transform her into a Madonna or a saint. He, of course, inadvertently tells too much:

I remember I stood by the bed and suddenly I had to laugh. I couldn't help it, and I knew Evelyn would forgive me.I remember I heard myself speaking to her, as if it was something I'd always wanted to say: "Well you know what you can to with your pipe dream now you damned bitch!" (207).

Evelyn, too, has a pipe dream. She wants him to live up to her expectations of him. No matter which gender role she played a Madonna or a whore. She is damned if she does, damned if she didn't. Hickey justifies his actions by defining Evelyn as a whore who has desires of her own.

Following his outburst, the new version of Evelyn is something Hickey cannot accept, and he retreats like the other dreamers, to his original image of his absent female: "No! That's a lie! I never said -- ! Good God, I couldn't have said that! If I did, I'd gone insane! Why I loved Evelyn better than anything in life" (207). A life of insanity, For Hickey, is better than his Madonna illusions being stripped away. Tellingly, he prefers a life where he loses himself, or rather, his perception of himself.

Larry Slade is the one exception to this process. He is doomed to see "both sides of the question"(33). At the opening of the play, Larry is content with his "grandstand" existence, yet,

like the others his physical position inside the group signifies his reliance on the community of dreamers to perpetuate his illusion. Larry also has a woman in his past who has not lived up to his expectations. And like the other men, he seeks refuge from this female threat through the comfort of the saloon. But significantly, unlike the other men, however, Larry does not cast Rosa Parritt into any of the socially constructed feminine roles.

Rosa is a political activist, a sexual being, and a parent. In all three roles she rejects traditional femininity and is, in turn, rejected by her son Paritt. Speaking to Larry the anarchist Judas, Parritt comments, "To hear her go on sometimes, you'd think she was the Movement." (32). Immediately recognizing the hostility of this comment, Larry "puzzled and repelled"(Ibid.) tells Parritt, "That's a hell of a way for you to talk, after what happened to her!"(34). Unsurprisingly, Parritt betrayed his mother to the law of her revolutionary ardor." I love mother Larry" (40), he protests at first, but later Parritt confesses that he betrayed her because he "hated her" (134). Resentful and furious at his mother's devotion to the movement, her "free" lovers together with her rejection of the sentimental norm of "mother", Parritt retaliated by symbolically killing her.

But given Larry's comments about his absent female throughout the play, in no way one can believe that he casts her in such a role. Instead, his response to Parritt defends Rosa's rights to live her life as she chooses and condemns Parritt's attempts to legislate her behavior. And what is Larry's encouragement of Parritt to commit suicide but as his own perception of Rosa as an ideal; a Madonna of the movement whom he must protect in order to achieve a sense of autonomy.

Eventually, Larry remains in the bar but is now in the "grandstand, " removed from the dreamers. Admittedly, he does not entirely divorce himself from the illusory world by leaving

the bar, but he now inhabits it differently than he did at the play's outset. The play, however, does not codify the results of Larry's decision into a thematic product. He simply sits near a window, but he does not look at it. Such a gesture, albeit subtle, "reflects Larry's rejection of the looking glass" (Hall: 35).Hence, O'Neill violates the traditional expectations regarding closure and completeness thereby creating a gap in the theatrical and literary expectations, perhaps in the hopes that we, too, will recognize the effects of existence with the absent or the present female.

Conclusion

As the breach between the personal and political liberation took shape, O'Neill was securing his reputation as America's greatest playwright. Admittedly, O'Neill's dramatic career was evolutionary as well as monolithic, for his plays don't owe their power and finality to O'Neill having broken new grounds or discovered new themes as much to his having finally gained complete mastery over the same elements that appear in less felicitous ways in other dramatist's plays.

O'Neill's rare insight, one can say, planted the seed. But when we come to examine the mature reasons for O'Neill's use of the principle of the absent character, we find series of motivations: his dislike of traditional feminism, his detestation of acting "tricks", his desire for an impersonal art, and his graving for abstraction.

What is really at issue is the depiction of the absent female as being the focus of attention and central to the dramatic action. Unlike Beckett or Pinter, O'Neill's absent females are not missing but in a position between absence and presence. In other words, absence implied residual presence. Though absent, they are not weak or dependent and they are never reduced to formula, a thesis, or an authorial deviation. In their complexity and in their tragic freedom there is born a new beauty, a beauty of something emerges from its opponent.

Bibliography

1- Bigsby,C.W.E. *Modern American Drama,1945-2000.* Cambridge: Cambridge University Press, 2000.
2- Cross,Clare.*The Iceman Cometh (Criticism)* 2009.www.yahoo.com. Retrieved in January/3/2009.
3- Hall, Ann C. *A Kind of Alaska Women in the Plays of O'Neill, Pinter,and Shepard*. Carbondale: SouthernIllinois University Press,1993.
4- Jr., Richard F. Moorton. *Eugene O'Neill's Century: Centennial Views on America's Foremost Tragic Dramatists*. New York: Greenwood Press, 1991.
5- Guerin, Wilfred L. and Earle Labor.*A Handbook of Critical Approaches to Literature*. New York: Oxford University Press,2005.
6- O'Neill, Eugene. *The Iceman Cometh*. London: Jonathan Cape LTD, 1947.
7- Pfister,Joel. *Staging Depth: Eugene O'Neill and the Politics of Psychological Discourse*. Chapel Hill, NC: University of NorthCarolina Press,1995.
8- Rosefeldt, Pauel. *The Absent Father in Modern Drama*. New York: American University Studies,1996.
9- ____.*"From Strange Interlude to Strange Snow: A Study of the Absent Character in Drama*", in *Journal of Evolutionary Psychology*.2002, Institute for Evolutionary Psychology: Gale Group.p.117+.